

التصريح
ص. ١٠٠٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى بمكة المكرمة
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا العربية
فرع الأدب

على

م



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٠١٢٤١

وجوه البيان

في

أمثال القرآن

« رسالة مقَدِّمة »

لنيل درجة الدكتوراه في الأدب

إعداد الطالبة : سميرة عدلي محمدرزق

(المحاضرة بقسم اللغة العربية كلية الآداب والعلوم الانسانية)

جامعة الملك عبد العزيز بجدة

٠٠٣٢٢٢

إشراف : معادة الأستاذ الدكتور حسن محمد باجودة

« رئيس قسم الدراسات العليا العربية »



١٤٤١

١٤٠٦/١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦/١٩٨٧ م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّبْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا

(صدق الله العظيم)

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

القائل :

« الرَّحْمٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ » وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى الْمُبْعُوْثِ

رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين - القائل :-

« إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا »

وبعد :-

فقد كانت الرغبة شديدة في أن تكون الدراسة السابقة - أعني - رسالة الماجستير -

متصلة بمجال الدراسات البيانية القرآنية أو أدب الدعوة الإسلامية لولا قوله

العزیز :-

« وَمَتَشَأْنُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ »

إن كانت إرادته عز وجل - أن تكون تلك الدراسة - والتي جنيت منها فوائده

جمعة بعيدة عن هذه الساحة .

وما إن أُجيز ذلك العمل حتى عاودتني تلك الرغبة وأرقتني نفس الشوق - وشدني

مجال الدراسات البيانية القرآنية - إلى بحره الخضم الرطب لأغوص فيه . . ، فلم

أجد بداً من إبداء ذلك رسمياً إلى قسم الدراسات العليا العربية ، فأكرمني الله

تعالى بسعادة الأستاذ الدكتور حسن محمد باجوده ليكون موجهاً ثم مشرفاً على

الرسالة ، وكان خير معين على الدرب حقاً ، إن عرض على بعض الموضوعات

فاخترت :-

« وجوه البيان في أمثال القرآن » لأسباب جمّة أذكر منها :-

أولاً :-

لأنه موضوع يتصل بالقرآن الكريم كاملاً مما يهيئ لي فرصة فهم معظم آي القرآن وبعض

أهدافه السامية .

ثانياً :-

شغفني بعلوم البلاغة بصفة عامة ثم بمحاولة تطبيق موضوعاتها على كل ما يقع بين يدي من نصوص أدبية قيّمة - شعراً ونثراً ، فرأيت أنّ أمثال القرآن الكريم هي أتم تلك النصوص وأولاها بالدراسة والتحليل لما هو معلوم عن القرآن الكريم من بلاغة فذّة من جانب ، ولما يمكن أن أفيدّه منها شخصياً من غير خالدة ومواعظ دينيّة قيّمة من جانب آخر ، هذا فضلاً عن الفوائد اللغويّة والبيانيّة التي يمكن أن نضيفها أمثال هذه الأبحاث على دارسيها والتي لا تخفى على قراء هذا المجال وباحثيه ولعلّ في حديث المصطفى - صلى الله عليه وسلم :-

* احرص على ما ينفعك ولا تعجز * لعلّ في هذا القول طاقة خفيّة كانت تدفعني إلى العمل بجدّ ومثابرة لأنّه لا يوجد أفضل من كتاب الله نافعاً وهادياً ومقوماً للألسنة وكما قال الشاعر :-

إذا غمرت في شرف مَـرُومٍ
فلاتنفع بمادون النجوم

ثالثاً :-

وجود الآيات الكريمة التي أشارت بالأمثال القرآنيّة من أمثال قوله تعالى :

(سورة ابراهيم ٢٥) .

* وَيُضْرَبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وقوله : (سورة العنكبوت ٤٣)
* وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ *
وقوله : * وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * .

رابعاً :-

ثقتي التامة بأنّ اعداد آية رسالة عظيمة تحتاج إلى جهد شاق وعمَل دؤوب للوصول بها - بعون الله تعالى - إلى أفضل المستويات الأمر الذي جذبني لتوجيه هذا الجهد وتلك المشقة إلى خدمة كتاب الله الشريف لعلّي بهذا العمل

المتواضع أجد تسلية لنفسي وراحة لجسدي وذلك طمعاً في جزيل ثواب الله في آخرتي :
وَمَنْ تَكُنِ الْعَلِيَاءُ هَمَّةً نَفْسِهِ فَلَكَ الَّذِي يَلْقَاهُ فِيهَا مَحَبَّبٌ
خامساً :-

حاجة قسم اللغة العربية بكلية الآداب . جامعة الملك عبد العزيز بجدة إلى
متخصصات في هذا المجال ولا أكاد أتجاوز الحقيقة هنا إن ذكرت عدم وجود أي متخصص
في هذه الساحة البيانية مع الحاجة الملحة إلى أكثر من ذلك .
وكان لزاماً عليّ وأنا التي أريد أن أبحث في مجال الأمثال القرآنية بيانياً أن أقف
هنا أولاً على الأعمال السابقة في هذا الميدان في هيئة الرسائل الجامعية وسواها .
أما عن الرسائل الجامعية السابقة في موضوع الأمثال القرآنية فإنها في حدود
منتهى طاقتي التي بذلت وهي على النحو التالي :-

رسالة الأمثال في القرآن الكريم وأثرها على الأدب العربي إلى نهاية القرن
الثالث الهجري والمقدمة عام ١٩٦٣ م إلى كلية دار العلوم جامعة القاهرة ، لدرجة
الماجستير ، ذكر فيها الباحث الآيات القرآنية التي تناولت الأنواع الثلاثة من الأمثال
القرآنية ، غير أنه لم يتعرض لدراستها وتحليلها بيانياً وإنما ركز الدارس على جانب
تأثيرها على الأدب العربي إلى نهاية القرن الثالث الهجري .

ورسالة الأمثال في القرآن الكريم والمقدمة إلى كلية الآداب جامعة عين شمس
عام ١٩٦٨ م لدرجة الماجستير . استقر فيها الباحث على أن أمثال القرآن تقتصر
على النوع المقصود فحسب - ويقصد بذلك الأمثال المصرفة في مفهوم بعض الدارسين
ثم قسم هذا النوع إلى قسمين :-

أمثال تشبيهية وتمثيل ومقارنة وموازنة .

وأمثال قصص أو حكايات لاغير .

ثم ذيل البحث بتحليل لبعض هذه الأمثال . وكلها من القسم الذي قصر الباحث

عليه رسالته .

ورسالة "المثل في القرآن والكتاب المقدس" والمقدمة عام ١٩٧١ م إلى كلية الآداب جامعة بغداد لدرجة الماجستير ، لم تتمكن من الاطلاع عليها - وكما يبدو من عنوانها أنها محاولة لاجراء مقارنة بين المثل القرآني وما جاء في الكتاب المقدس .
ورسالة "أمثال القرآن" والمقدمة عام ١٩٧٤ م إلى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة لدرجة الماجستير أيضاً ركزت فيها الدراسة على النوع الأول من الأمثال وهي الأمثال المصراحة ، إذ تناول فيها الباحث معاني ألفاظ المثل لغويّاً ثمّ المعنى الإجمالي للمثل مع بيان الصور البيانية فيه بينما أغفل دراسة السياق وبلاغة ألفاظه .

ثمّ رسالة "الصورة الفنية في المثل القرآني" والمقدمة إلى كلية الفقه في النجف الأشرف عام ١٩٨١ م لدرجة الدكتوراه استبعد فيها الباحث النوعين الأخيرين من الأمثال القرآنية والتي ذكرها السيوطي في كتابه الإتقان وهي الأمثال الكامنة والأمثال المرسلة .

بينما قصر دراسته على النوع الأول منها . . ثمّ ذيل بحته بنتائج ذكر آخرها أنّ أمثال القرآن وظيفية دينية إلى جانب الوظائف الأخرى - بينما المعروف أنّ القرآن الكريم كتاب هداية أولاً وآخراً ، فالوظيفة الدينية هي الأولى وهي الأهمّ للأمثال وغير الأمثال .

تلك هي الرسائل الجامعية التي سبقنا إليها الباحثون في هذا الموضوع
وسيدوم من تقديمنا الحالي لهذا العمل مدى الاختلاف بينه وبين ما سبقه من رسائل ولانّ ندعي بذلك أنّنا قد وصلنا في موضوعنا إلى درجة الكمال في الدراسة فسبحان ربّ الكمال عزّ وجلّ ، كما أنّنا لانقصد بذلك نسب التقصير أو النقص إلى الباحثين السابقين - فحاشا لله أن يكون ذلك قصدنا ، وإنما مرادنا هو الإشارة إلى هذه الأعمال والإشادة بمن سبقنا إليها . ثمّ يبقى بعد ذلك لكلّ موضوع خطته

وأبعاده ولكلِّ باحثٍ مقدرته وشخصيته وقد قال تعالى :-
" لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا أَوْسَعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ " كما قال عزَّ وجلَّ :-
" كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ " .

هذا وقد حُطِّطَ البحث في تمهيدٍ وثلاثة أبوابٍ وخاتمةٍ .
وقد أفردتُ التمهيد للحديث عن الأمثال بصفة عامة ثمَّ أمثال القرآن بصفة
خاصَّة ، إذ توصلنا فيه إلى أنَّ أمثال القرآن ثلاثة أنواع :-

- ١ - الأمثال المصرَّحة .
 - ٢ - الأمثال الكامنَّة .
 - ٣ - الأمثال المرسلَّة .
- وقد خصَّصت كلَّ بابٍ من أبواب الرِّسالة لدراسة نوعٍ واحدٍ من الأمثال .

الباب الأوَّل :-

وهو خاصٌّ بدراسة الأمثال المصرَّحة التي تعني ما صرَّح فيها بلفظ المثل

مع وجود التشبيه أو ما تدلُّ على التشبيه بصورة واضحة . مثال قوله تعالى :-
" مُثُلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ
سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ " " الآية .

وقد وقع الاختيار على خمسة عشر مثلاً للتَّحليل والدراسة البيانيَّة وذلك لضيق
المجال هنا عن دراسة جميع أمثال هذا النوع لكثرتها وقد جرت الدِّراسة في كلِّ مثل
وفق النَّقاط التَّالية :-

- ١ - بيان المعنى العام للمثل .
 - ٢ - مناسبته في السِّياق .
 - ٣ - العبرة منه .
 - ٤ - دراسته وتحليله بيانيًّا .
- ثمَّ كان التَّدْيِيل على هذا الباب خاتمة له .

الباب الثاني :-

وهو خاص بدراسة الأمثال الكامنة فأشرنا فيه إلى أنها هي التي لا نكسر للفظ المثل فيها وإنما تدلّ على معانٍ رائعة في إيجاز يكون لها وقعها إذا نُقلت إلى ما يُشبهها .

وقد أضفنا إلى هذا التعريف أنها قد تأتي على سبيل التشبيه أيضاً أو الاستعارة أو الكناية كما في قوله تعالى :-

”وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا“ .

وقد ذكر السيوطي في ”الاتقان“ سبعة عشر مثلاً من هذا النوع مع ما يماثلها من أمثال بشرية ، فوعدت دراستنا البيانية هنا على جميع ما ذكره المؤلف من أمثال هذا النوع لقرب العدد المذكور من العدد المختار في الباب الأول .

أما منهج الدراسة في هذا الباب فقد سار وفق ما يلي :-

أ - المعنى العام للمثل .

ب - مناسبه في السياق .

ج - العبرة منه .

د - دراسته وتحليله بيانياً .

هـ - بيان ما يوافقه من أقوال بشرية - (أمثال أو حكم أو شعر) مع الإشارة إلى سموّ

المثل القرآني على المثل البشريّ الموافق له (نقطة المنطلق) ثمّ كان التذييل

عبارة عن خلاصة لكلّ ما جاء في هذا الباب .

الباب الثالث :-

وهو خاص بدراسة الأمثال المرسله والتي هي عبارة عن أجزاء من آيات أُرسِلت

إرسالاً من غير تصريح بلفظ التشبيه أي عبارة عن جمل قرآنية تجري مجرى الأمثال ، وقد

لاحظنا على معظم هذا النوع ، نوعاً من الإيجاز وهو إيجاز القصر وهو عبارة عن ورود

المعاني الكثيرة في أيسر لفظ وأقلّه .

والجدير بالذكر ان عدداً من هذا النوع من الأمثال نُذكر في مخطوطة بعنـوان
(الأمثال السائرة في القرآن) لمؤلف مجهول وهي موجودة بدار الكتب المصرية تحت
رقم ٢٦٤ مجاميع . تفسير وقد لاحظنا نوعاً من التشابه بينها وبين ما نقله لنا السيوطي
في " الاتقان " عن جعفر بن شمس الخليفة وعددها ثلاثون مثلاً أما عددها في
المخطوط فيقرب من الأربعين .

كذلك نُذكر بعض من هذه الأمثال في " التمثيل والمحاضرة " للشعالبي وقد اخترنا
من مجموع هذه الأمثال خمسة عشر مثلاً للدراسة والتحليل - وذلك على غرار العدد
المُختار في الباب الأول .

أما خطة الدراسة في هذا الباب فكانت تماماً على نحو ما ذكرنا في الباب الثاني .
ثم كان التذييل على هذا الباب خاتمة له .
أما خاتمة الرسالة ، فكانت خلاصة للعمل كده ضمنت جميع ماتناثر من عناصره الأساسية .
وقد حاولنا إثبات نتائج هذه المسيرة العلمية خلال سطورها . فضلاً عن تزيينها
بما اقترناه فيها .

ويجدر بي هنا أن أشير إلى أهم ما استعنتُ به من مصادر ومراجع أساسية .
مكتني - بعد فضل الله - من إتمام هذا البحث .

يأتي في المقدمة - من غير شك - كتاب الله العزيز لأنه أساس العمل كله
ثم كتب الأحاديث الصحيحة نحو فتح الباري بشرح صحيح البخاري وصحيح مسلم
بشرح النووي ، والمسند للإمام أحمد بن حنبل ، والموطأ للإمام مالك ، وسنن ابن
ماجه والترمذي . وذلك لاستخراج الأحاديث من مظانها والتأكد من صحتها .

يلي ذلك بعض مؤلفات التفسير الهامة - قديمها وحديثها ، كتفسير الطبري .
والبحر المحيط لأبي حيان ، والتفسير الكبير للإمام الفخر الرازي وتفسير القرطبي -
وتفسير ابن كثير - وتفسير أبي السعود ، وفتح القدير للشوكاني ، وروح المعاني
في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي وتفسير الزمخشري - والخازن ثم

تفسير القرآن الحكيم وهو المعروف بالمنار وتفسير المراغي وغيرها

ولم أستغن هنا عن الرجوع إلى المعاجم العربية الكبيرة نحو :-

لسان العرب - وتاج الحروس . ومقاييس اللغة والصحاح والقاموس المحيـط
وأساس البلاغة وغيرها .

فضلاً عن رجوعي إلى بعض الدواوين الشعرية وكتب الأدب والأمثال .

و لا يخفى على أساتذتي الأفاضل حاجة الدراسات البيانية التحليلية إلى كتب

البلاغة ومصادرها لا ثبات بعض التعريفات البلاغية اللازمة فعدتُ هنا إلى :-

أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز للشَّيخ عبد القاهر الجرجاني ثم للإيضاح والتلخيص

في علوم البلاغة ، وتلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع . وكتاب الطراز

المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز وكتاب الصناعتين وغير ذلك من مراجع مُثبتة

في موضعها من هذا البحث .

أما عن الصعوبات التي عانيتُ منها في سبيل إنجاز هذه المهمة العلمية ، فاذكر

بعضها على سبيل الذكر لا الحصر .

أولاً :- فقد معظم المؤلفات القديمة في أمثال القرآن :- نحو :-

١ - كتاب (أمثال القرآن) للجنيد بن محمد بن الجنيد القواريري م سنة ٢٩٨ هـ .

٢ - وكتاب (أمثال القرآن) أيضاً لنفطويه م سنة ٣٩٣ هـ .

٣ - (أمثال القرآن) للسلي م سنة ٤١٢ هـ .

٤ - و (الأمثال الكامنة في القرآن) للحسن بن الفضل .

٥ - كذلك الأمثال الكامنة في القرآن) للحسن بن عبد الرحمن القضاعي م سنة

٤٥٤ هـ .

وحتى ما ظن وجوده لم يُعثر عليه في مظان وجوده وهو كتاب كبير عن أمثال

القرآن لابن أبي الإصبع ذكره في كتابه " بديع القرآن " .

هذا فضلاً عن المشقة القصوى في قراءة بعض المخطوطات التي عثرنا عليها
في أمثال القرآن وذلك ناتج عن رداءة الخط أو عدم وضوحه لا متصاص ورق المخطوطة
للحبر . كمخطوطة (تشبيهات القرآن وأمثاله ، لابن قيم الجوزية بدار الكتب المصرية) .
ثانياً :-

كثيراً ما كنت أبحث عن كتب مساعدة في فهرس دار الكتب المصرية ، وبعده
تسجيلي لاسم الكتاب ورقم إيداعه ثم أنتظر حضوره زهاء الساعتين والنصف تقريباً
فإذا بي أفاجأ بحقده من المكتبة .

ثالثاً :-
قلة المصادر المساعدة على التحليل والدراسة البيانية في هذا الموضوع
لاسيما في البابين - الثاني والثالث - من الرسالة وإن كنت أجد - أحياناً -
بعض ما أدوته من كتب التفسير والمعاجم اللغوية ، إلا أنني اعتمدت كثيراً على المجهود
الشخصي في الدراسة والتحليل الذي استعنت فيه بالله ثم ببعض مؤلفات البلاغة
وكتب الأدب وذلك لتدوين التعريفات أو الاصطلاحات اللازمة لذلك أو لإظهار بعض
الفروق اللغوية الدقيقة بين لفظ وآخر أو استعمال وغيره .

رابعاً :-
خوفي الشديد من الانزلاق وراء تيارات بعض الآراء التي ربما لا تتفق مع
شرف الآيات وسموها - الأمر الذي جعلني أتعامل مع كل رأي أثبتته للمناقشة
بمزيد من التحفظ والخوف بل كثيراً ما اعترضت هذه الرهبة وذلك الحرص سبيلي في
بداية الطريق إلى الحد الذي كنت أحدث فيه نفسي - أحياناً - كيف أقبلت على
تجربتي الأولى في الدراسات البيانية القرآنية مع درجة علمية كهذه - ولولا فضل
الله تعالى ، ثم تشجيع أستاذي المشرف جزاه الله خيراً - لما أصبح لهذا العمل
وجود .

خامساً :-

رحلاتي المتكررة إلى القاهرة رغم ظروفِي رُبّة أسرة وذلك لارتياح المكتبات العامة ومكتبات الجامعات هناك للاطلاع الداخلي فيها وجمع ما أمكنني من معلومات يتعدّد الحصول عليها لولا تجرّع مرارة الصبر وعناء السفر .

وبعد :-

فهذا جهدي أساتذتي الأجلّاء أضعّه بكامله بين أيديكم فإن وفقّت فذلك مقصدي وغاية مطلبي وماتوفيقي إلا بالله عليه توكلتُ وإليه أنيب .

وان أخطأت الهدف فحسبي سلوة أنني قضيتُ ما يقرب من ثلاثة أعوام ونصف العاَفي رحاب كتاب الله الشريف الطاهر أتأمل معانيه نينشرح صدري ، وأبحث في غريب مفرداته فتقوم لساني وتشحن فكري - وكما قيل :-

(عَلي أن أسمى وليس علي إدراك النّجاح) .

ورجائي من الله ثمّ من أساتذتي الأفاضل التكرم بحسن توجيهي بما وهبهم الله من أمانة العلم والإخلاص له .

جزاهم الله عني وعن خدمة القرآن خير الجزاء ،،،،

وفي الختام

إذا كان علي أن أتقدّم هنا بأسمى آيات الشكر والعرفان بالجميل فأبدأ أولاً بحمد الله وشكره لتفضّله عليّ بإنجاز هذا العمل .

ثم بشكري الجزيل لحكومتنا الرشيدة وعلّي رأسها خادم الحرمين الملك المفدى وولي عهده الأمين التي أولت العلم وطلابه وأساتذته كلّ حفاوة وتكريم فمنحتني وأمثالي تفرغاً كاملاً من التدريس بالجامعة لتتهيأ لنا فرصة البحث والاطلاع فسي يسر وسهولة .

ثم شكري لأستاذي الكريم سعادة الأستاذ الدكتور حسن محمد باجوده - رئيس
قسم الدراسات العليا العربية - المشرف على هذا البحث - الذي منحني من جهده
الكبير ووقته الكثير الكثير فضلاً عن تكرمه بإعازتي بعض مراجع هذا البحث من مكتبته
الخاصة .

جزاه الله عني وعن خدمة القرآن خير الجزاء ،،،،
وشكري مضافاً لأستاذي الجليلين عضوي لجنة المناقشة :-

سعادة الأستاذ الدكتور / عبد الوهاب فايد

وسعادة الأستاذ الدكتور / علي الصمري

لتفضلهما بنقد هذا العمل وتوجيهه للسؤوبه إلى ما هو أفضل إن شاء الله .

ثم شكري لكل من قدم يداً معطاءً في سبيل إعداد هذا البحث وإتمامه .

والله أسأل للجميع خير الجزاء إن شاء الله إنه سميع مجيب وهو نعم المولى ونعم

النصير - سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ

رَبِّ الْعَالَمِينَ ،،،،،،،

التمهيد :-

معنى المثل ومعناه في القرآن

معنى المثل لغة :- إنَّ مِثْلَ كَلِمَةٍ تَسْوِيهِ ، يقال هذا مثله ومثله كما يقال شبيهه وشبيهه ، فإذا قيل إنه مثله على الإطلاق أي يسدُّ مسدَّه ، والفرق بين المماثلة والمساواة أن المساواة تكون بين المختلفين والمتفقين - لأن التساوي هو التكافؤ في المقدار لا يزيد ولا ينقص .

وأما المماثلة فلا تكون إلا في المتفقين . وإذا قيل هو مثله في كذا ، فهو مساوٍ له في جهة دون جهة .

والمثل الشبيه يقال مثل ومثل وشبه وشبه .

والمثل : الشيء الذي يضرب لشيءٍ مثلاً فيجعله مثله ، وفي الصحاح ما يضرب به

من الأمثال ، قال الجوهري ومثل الشيء أيضاً صفة . (١)

والمثل مأخوذ من المثال والحدو . الصفة تحلية ونعت .

ويقال تمثل فلان أي ضرب مثلاً وتمثل بالشيء أي ضربه مثلاً وفي التنزيل العزيز :-

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبُ مِثْلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ * (٢)

وقد يكون بمعنى العبرة ومنها قوله تعالى :-

فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ * (٣)

وقد يكون المثل بمعنى الآية قال تعالى في صفة عيسى عليه السلام :-

وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ * (٤)

و (المثل) المقدار وهو من الشبه والمثل وما جعل مثلاً أي مقداراً لغيره يُحذَى به .

(١) لسان العرب ، بن منظور ، مثل ، مط مصوره عن طبعة بولاق . (بتصرف) .

(٢) سورة الحج ٧٣ .

(٣) سورة الزخرف : ٥٦ .

(٤) سورة الزخرف : ٥٩ .

والجمع المثل وثلاثة أمثله ، والمثال القالب الذي يُقدَّر على مثله . (١) وجاء في أساس البلاغة للزمخشري :-

(مثل) مثله ومثيله ومائله . ومثل به مُثْلَةٌ

وحلَّت به المثلَةُ أي العقوبة ، وقد يكون بمعنى الانتصاب ، يقال : مثل قائماً أي انتصب مُثُلاً ورأيتُه ماثلاً بين يديه . (٢)

وورد المثل بمعنى الشبه أيضاً في مقاييس اللغة : إن يقول صاحبه :-

(والميم والثاء واللام أصل صحيح يدل على مناظرة الشيء للشيء ، وهذا مُثَّلٌ

هذا ، أي نظيره ، والمثل والمثال في معنى واحد ، وربما قالوا مُثِيل كسبيه) (٣)

ومثَّل له الشيء ، صورته حتى كأنه ينظر إليه وأمثله هو أي صورته ، ومثَّلَتْ له كذا

تمثيلاً أي صورته مثاله لكناية وغيرها وللمثَّل أي المصوِّر والمائل ، القائم أو الدارس .

ومثَّلْتُ الشيء بالشيء إذا قدرته على قدره ويكون تمثيل الشيء بالشيء وتشبيهها

بـه . (٤)

وقد عرَّف المثل بما يلي :-

(هو قول سائر يشبه به حال الثاني بالأول والأصل فيه التشبيه) (٥)

وقيل سمَّيت الحكم القائم صدقها في العقول أمثالا لأن تصاب صورها في العقول

مشتقَّة من المثل الذي هو الانتصاب (٦) ويرى ابن القيم أن المثل تشبيه شيء

بشيء في حكمه وتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار

أحدهما بالآخر . (٧)

(١) اللسان : مثل * .

(٢) أساس البلاغة ، الزمخشري ، تحقيق عبد الرحيم محمود * مثل * (بتصرف) ط سنة ١٩٨٢ م ، دار المعرفة بيروت .

(٣) مقاييس اللغة . لابن فارس . تحقيق عبد السلام هارون * مثل * .

(٤) اللسان : مثل * (بتصرف) .

(٥) مجمع الأمثال . الميداني ، تحقيق . محمد أبو الفضل إبراهيم / ١ . عيسى الحلبي وشركاه .

(٦) نفسه ص ٧ .

(٧) الأمثال في القرآن الكريم . لابن القيم . ص ٢٠ تحقيق سعيد الخطيب ط

سنة ١٩٨١ م .

فحقيقة المثل ما جعل كالعلم للتشبيه بحال الأول كقول كعب بن زهير :-
كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً ومواعيده إلا الأباطيل (١)
فمواعيد عرقوب علم لكل ما يصلح من المواعيد ومثل لها .
معنى المثل اصطلاحاً :-

إذا أردنا تناول هذا المعنى في الاصطلاح فعلينا أن نعرفه في اصطلاح الأدباء وطما في البلاغة ثم عند المفسرين لنقف على حقيقة معناه في القرآن الكريم .
التعريف الأدبي للمثل :-

لقد عرف المبرد المثل بقوله :-

(هو قول سائر يشبهه به حال الثاني بالأول) (٢) ويقول الزمخشري في ذلك :-

(ثم قيل للقول السائر الممثل مضره بمورده مثل ولم يضربوا مثلاً ولا رأوه أهلاً

للتسيير ولا جديراً بالتداول والقبول الأقول فيه غرابة من بعض الوجوه) (٣)

وقد ذهب الرازي إلى أن المثل هو القول الممثل مضره بمورده وشرطه

أن يكون قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه . (٤)

ويرى الطوسي أن من حكم المثل أنه لا يتغير لأنه صار كالعلم . (٥)

وقد وافقه الرازي في ذلك إن قال :-

(والأمثال لا تتغير لأن ذكرها على تقدير أن يقال في الواقعة المعينه إنهما

بمنزلة من قيل له هذا القول فالأمثال كلها لا تتغير) . (٦)

وخلاصة الأراء السابقة أن المورد والغرابة والسيورة هي الركائز الثلاث التي

بني عليها الأدباء معنى المثل الاصطلاحى عندهم .

(١) ديوان كعب بن زهير ص ٨ ، دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٠ م .

(٢) مجمع الأمثال ٥ / ١ .

(٣) الكشاف ، الزمخشري ١ / ١٩٥ ط ١٩٧٢ م .

(٤) مغايب الغيب ، الرازي ١ / ٢٩٣ . دار الطباعة القاهرة سنة ١٣٠٧ هـ

استانبول (بتصرف) .

(٥) التبيان في تفسير القرآن ، الطوسي ٧ / ٣٤١ .

(٦) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، الرازي ص ٨١ ، مطبعة الآداب والمؤيد

القاهرة سنة ١٣١٧ هـ .

ب - معنى المثل في الاصطلاح البلاغي :-

لقد اعتبر أبو عبيد القاسم ابن سلام في استعمال العرب للمثل اجتماع ثلاث
خلال هي (إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه) . (١)
وقد رأى ابراهيم النّظام أنه يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من
الكلام ؛ إيجاز اللفظ وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه وجودة الكناية ، كما يرى
أنه بذلك يحقق نهاية البلاغة . (٢)
وجاء في تفسير الخازن أن المثل هو تشبيه الشيء الخفي بالجلي فيتأكد
الوصول الى ماهيته وذلك هو النهاية في الإيضاح (٣) .

وذكر أبو حيان الأندلسي أن المثل هو :-

(ذكر وصف محسوس وغير محسوس يستدل به على وصف مشابه له من بعض الوجوه
فيه نوع من الخفاء ليصير في الذهن مساوياً للأول في الظهور من وجه
دون وجه) (٤) .

وهذا التشبيه قد تذكر أداته وربما لا تذكر فيحمل حينئذ على الاستعارة
أو التشبيه البليغ الذي حذف أداته ، وإلى هذا المعنى أشار الطوسي بقوله :-
(والتشبيه في الأمثال لما يحتاج إليه من البيان ، هو على وجهين ؛ أحدهما
ما يظهر فيه أداة التشبيه والآخر ما لا يظهر فيه) . (٥)

-
- (١) العزهر في علوم اللغة وأنواعها ، السيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم
وآخرين ، ٤٦١ / ١ ، مطبعة الحلبي سنة ١٩٦٩ م ، القاهرة .
 - (٢) مجمع الأمثال ، ٦ / ١ ، (بتصرف) .
 - (٣) (لباب التأويل في معاني التنزيل ، علاء الدين الخازن ، ٣٦ / ١ ، ط ٢ سنة ١٩٥٥ م
مطبعة مصطفى محمد ، القاهرة (بتصرف) .
 - (٤) البحر المحيط ، أبو حيان ، ٧٤ / ١ ، ط ١٩٨٣ م دار الفكر للطباعة والنشر .
 - (٥) التبيان في تفسير القرآن ، الطوسي ، تحقيق أحمد القصير ، ٢٩٣ / ٦ ، ط
سنة ١٩٥٧ م ، المطبعة العلمية ، النجف الأشرف .

وُخلاصة ما سبق من تعريفات بلاغيته نستطيع أن نقول إن المثل في الاصطلاح

البلاغي هو :-

كشف الحجاب عن الأمور العقلية الخفية وتشبيهها بالمحسوسات الجلية حتى
تبدو في صورة مألوفة قريبة من الفهم والتصور ، ولا فرق في ذلك بين إبرازها في
أسلوب التشبيه أو الكناية أو الاستعارة مادام القول بليفاً موجزاً مؤدياً الفرض
المطلوب .

ب - المثل في القرآن الكريم

لقد تحدث مقاتل بن سليمان البلخي (١) عن معنى المثل في القرآن وبين في حديثه هذا وجوه دلالة المثل في الاستعمال القرآني فحدد ذلك بأربعة وجوه :-
الوجه الأول : ومعني الشبه ومنها قوله تعالى :-

(وَطُّكُ الْأَمْثَالِ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ) (٢) أي الأشباه نضعها للناس وقوله تعالى :-
(ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ) (٣) أي : شبيهم .

والوجه الثاني : يعني التسيير قال تعالى :-

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ) (٤) أي :
سير مؤمني الأمم الخالية .

والوجه الثالث : يعني العبرة كقوله تعالى :-

(فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ) (٥) أي : عبرة لمن جاء بعدهم .
وقوله : (إِنْ هُوَ إِلَّا عَدُوٌّ لِنَفْسِهِ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ) (٦) .
أي : عبرة لبني إسرائيل .

والوجه الرابع : يعني عذاباً كقوله تعالى :-

(وَكَلَّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ) (٧)

أي : وصفنا له العذاب ، وقوله :-

(وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ) (٨) أي : وصفنا لكم العذاب (٩) .

(١) المتوفى عام ١٥٠ هـ .

(٢) سورة العنكبوت ، ٤٣ .

(٣) سورة الحج ، ٢٩ .

(٤) سورة البقرة ، ٢١٤ .

(٥) سورة الزخرف ، ٥٦ .

(٦) سورة الزخرف ، ٥٩ .

(٧) سورة الفرقان ، ٣٩ .

(٨) سورة إبراهيم ، ٤٥ .

(٩) الأشباه والنظائر في القرآن ، مقاتل بن سليمان البلخي ، تحقيق د . عبد الله

وللمثل في القرآن معنى آخر وهو الصفة أو الهيئة المميّزة للشئ^س ، وقد

قال بهذا المعنى كل من :-

- ١ - ابن قتيبة (م سنة ٢٧٦ هـ) (١) .
- ٢ - ابن رشيّق (م سنة ٤٥٦ هـ) (٢) .
- ٣ - الطّبرسي (م سنة ٥٤٨ هـ) الذي أضاف إلى ذلك المعنى عين الشّبي^س وشبهه . (٣) .
- ٤ - أبو الحسن الفتويّ العاملي (م سنة ١١٣٨ هـ) (٤) .
- ٥ - الصّاوي (م سنة ١٢٤١ هـ) (٥) .

وتجاوز فريق آخر هذا المعنى إلى أن لفظ المثل في القرآن يُستعار للحال

أو الصّفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة ويمثّل هذا الرأي كل من :-

- ١ - الزّمخشريّ (م سنة ٥٣٨ هـ) إذ يقول في قوله تعالى :-
" مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا " (الآية ١٧ سورة البقره)
يقول : (قد استُعير المثل استعارة الأسد للمقدّم للحال أو الصّفة
أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة كأنه قيل : " حالهم العجيبة الشّأن
كحال الذي استوقد ناراً " (٦)
- ٢ - الرّازي (م سنة ٦٠٦ هـ) (٧)
- ٣ - البيضاويّ (م سنة ٦٨٥ هـ) (٨)
- ٤ - النيسابوريّ (م سنة ٧٢٨ هـ) (٩)

-
- (١) مجمع البيان ، الطّبرسي ٢٩٦/٣ .
 - (٢) الهدية في صناعة الشّعْر ونقده ، ابن رشيّق ٢٨/١ .
 - (٣) مجمع البيان ، الطّبرسي ٤٣٨/٣ .
 - (٤) مرآة الأنوار وشكّاة الأسرار ، أبو الحسن الفتويّ العاملي . ص ٣٠٣ ، طهران
مطبعة الأفتاب سنة ١٣٧٤ هـ .
 - (٥) حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين ١٢/١ .
 - (٦) الكشاف ، الزّمخشري ١٩٥/١ .
 - (٧) مفاتيح الغيب ٢٩٣/١ .
 - (٨) أنوار التنزيل ، البيضاوي ٩١/١ .
 - (٩) غرائب القرآن ووعائب الفرقان ، النيسابوري . تحقيق ابراهيم عطوه عوض ١٣/١
مطبعة مصطفى الحلبي سنة ١٩٦٤ م القاهرة .

٥ - الزركشي (م سنة ٧٩٤ هـ) ان يقول :-

(والمثل هو المستغرب ، قال الله تعالى * وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ * (١) وقال تعالى * مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ * . (٢)

ولما كان المثل السائر فيه غرابة استُعمِر لفظ المثل للحال أو الصفة

أو القصة ، اذا كان لها شأن وفيها غرابة . (٣)

وقد مثل الزركشي لاستعارة المثل للحال بقوله تعالى :-

* مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا * . . . (٤)

كذلك مثل لاستعارة لفظ (المثل) للوصف بقوله تعالى :-

* ذَلِكُمْ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ * . (٥)

ومثل لاستعماله بمعنى القصة العجيبة الشأن بقوله تعالى :-

* مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ * . (٦)

ونلتقي بتعريف آخر للمثل في تفسير العلامة أبي السعود يقول :-

(. . .) وهو رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية وإبرازها في معرض

المحسوسات الجلية ، وإبداء المنكر في صورة المعروف وإظهار الوحشي

في هيئة المألوف (٧)

وهذا التعريف يتفق مع الزمخشري في قوله :-

(ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس

بالخفي ، في إبراز خبيات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق حتى تريبك

المتخيل في صورة المحقق والمتوهم في معرض المتبصن والغائب كأنه شاهد (٨)

(١) سورة النحل ، ٦ .

(٢) سورة الرعد ، ٣٥ .

(٣) البرهان في علوم القرآن . الزركشي ، تحقيق . محمد أبو الفضل ابراهيم (١ / ٤٨٨ بيروت .

(٤) سورة البقرة ، ١٧ .

(٥) سورة الفتح ، ٢٩ .

(٦) سورة الرعد ، ٣٥ .

(٧) إرشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم (١ / ٥٠ .

(٨) الكشاف (١ / ١٩٥ .

ويأتي المثل في القرآن بمعنى الآية والعبرة كما جاء في قوله تعالى :-

• إِنْ هُوَ إِلَّا جَدُّ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ . (١)

أى : آية وعبرة عجيبة لبني إسرائيل . (٢)

وخلاصة ما سبق أن المثل قد استعمل في القرآن الكريم بمعنى الشبه ، ومعنى التفسير أو العبرة أو العذاب . واستعمل أيضاً بمعنى الصفه أو الحال ، وقد فرّق القائل بهذا الرأي (٢) بين الصفه والحال وبين أن الصفه تكون في الأمور التي لا تتغير مع تغير الأزمان والأطوار أما الحال فهي التي تتغير من حين إلى آخر وفقاً لتغير المؤثرات .

كذلك جاء المثل في القرآن بمعنى الآية ، واستعمل أيضاً في كل قصه ذات شأن عظيم وخطر جليل وبهذا نستطيع أن ندلي بالرأي هنا في معنى المثل في القرآن الكريم والله أعلم بالصواب .

إن المثل في القرآن ، قد استعمل لكل شبيه أو نظير في قصة عجيبة أو شأن خطير أو حال جليية كذلك استعمل ليؤخذ به العبرة والعظة أو الآية لأم لا حقه . . وقد وردت معظم هذه المعاني في آيات قرآنية تجلي الغامض وتمحو الإبهام عن المعاني حتى تصبح سهلة مألوفة قريبة من كل فهم أو تصور وحتى يبدو الوحشي منها مألوفاً والذهني المجرد محسوساً ملموساً دون أن تنقص هذه الطريقة من جلال المعنى وجماله شيئاً بل تزيده وقاراً وعزةً وجلالاً كيف لا وهي من لدن عزيز حكيم !

(١) سورة الزخرف ، ٥٩ .

(٢) مجمع البحرين . فخر الدين بن محمد الطريحي . تحقيق أحمد الحسيني . ٤٦٩/٥ مطبعة الآداب . النجف الأشرف (١٩٦١ م) .

(٣) البرهان في علوم القرآن الزركشي ٤٨٩/١ (بتصرف) .

ج - تطور دلالة لفظ المثل :- (ان الأصل في المثل يعني المثل والنظير يُقال
مَثَلٌ ومِثْلٌ ومِثِيلٌ كَشِبَهُ وشَبَّهُ وشَبَّهَهُ ثم أطلق على القول السائر الذي يُمثَلُ
مضربه بمورده وحيث لم يكن ذلك إلا قولاً بديعاً فيه غرابة صيرته جديراً بالتسيير
في البلاد ، وخليقاً بالقبول فيما بين كل حاضر وباد ، استعير لكل حال أو صفة
أو قصة لها شأن عجيب من غير أن يلاحظ بينها وبين شيء آخر تشبيهه ومنه
قوله عز وجل :-

• وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ^(١) وقوله تعالى :-
• مِثْلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ ^(٢) أي قصتها العجيبة الشأن (٣)

د - معنى ضرب المثل :- يعني ضرب المثل أن يُشَبَّهَ مضربه وهو ما يُضْرَبُ فيه ثانياً
مثلاً لمورده وهو ما ورد فيه أولاً ^(٤) .

أما الضرب بمعناه اللغوي العام فيعني :-

إيقاع شيء على شيء وقد يتعدى باليد والسيف والسوط والعصا وما شاكل ذلك
ودليل ذلك من القرآن قوله تعالى • فُكِّلْنَا اضْرِبْ بَعْضَكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ • ^(٥)

وقد يأتي بمعنى مجازي كما في قول الإمام علي كرم الله وجهه :-

(ولقد ضربت أنف هذا الأمر وعينه) . ^(٦)

أما معنى الضرب مضافاً إلى الأمثال فيعني :-

١ - المثل (بالكسر) والشبه وقد ذهب إلى هذا المعنى ابن سيده (م سنة ٤٥٨ هـ) . ^(٧)

(١) سورة النحل ٦٠ .

(٢) سورة الرعد ٣٥ .

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٦٠ / ١ .

(٤) حاشية الشريف علي بن محمد الجرجاني على الكشاف ١ / ١٩٥ (بتصرف) .

(٥) سورة البقرة ، ٦٠ .

(٦) شرح نهج البلاغة . ابن أبي الحديد . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ١ / ٩٠ .

القاهرة سنة ١٩٥٩ م .

(٧) لسان العرب . (ضرب) (بتصرف) .

٢ - أما عند الفيروز أبادي فالضرب والمثل بمعنى واحد (١) ومثال ذلك قولهم :
وتمثل بالشئ أي : ضربه مثلاً .

٣ - الضرب بمعنى المثل أو التمثيل قال هذا ابن منظور (م سنة ٧١١ هـ) فمعنى
"واضرب لهم مثلاً" (٢) أي : مثل لهم مثلاً (٣) وفي قوله تعالى :-
"يضرب الله الحق والباطل"

أي يمثل الحق والباطل حيث ضرب مثلاً للحق والباطل والكافر والمؤمن في
هذه الآية .

٤ - أيضا ذكر ابن منظور أن الضرب بمعنى المثال ومثال ذلك يقال : (هـ هذه
الأشياء على هذا الضرب أي على هذا المثال) . (٤)
ونذهب آخرون إلى أن الضرب بمعنى :-

١ - الوصف والبيان : قال بذلك كل من مقاتل بن سليمان البلخي (المتوفى سنة
١٥٠ هـ) وأبي جعفر الطبري (المتوفى سنة ٣١٠ هـ) وقد اقتصر مقاتل على
الوصف فقط فعنده (ضرب الله مثلاً) (٥)
أي وصف شبيهاً (٦)

وأضاف الطبري إلى الوصف البيان وحمل عليه قول الكمي :-

وذلك ضرب أخماس أريدت * * لأسداس عسى ألا تكونا (٧)
ونذهب إلى ذلك أيضا الطريحي في مجمع البحرين (٨) .



١٢٤١

- (١) القاموس المحيط . الفيروز أبادي (ضرب) .
- (٢) سورة يس ، ١٣ .
- (٣) لسان العرب . ضرب (بتصرف) .
- (٤) لسان العرب . ضرب .
- (٥) سورة النحل ، ٧٥ .
- (٦) الأشباه والنظائر في القرآن الكريم ١/٢٠٧ ، ٢٠٨ (بتصرف) .
- (٧) جامع البيان . الطبري ١/١٧٩ ط ٣ سنة ١٩٦٨ . مطبعة مصطفى الحلبي .
- (٨) مجمع البحرين ٢/١٠٥ .

٢ - أيضاً الضرب بمعنى التثبيت والاعتماد والوضع وقد ذهب الى هذه المعاني على التوالي كل من :-

الطوسي (م سنة ٤٦٠ هـ) والزمخشري (م سنة ٥٣٨ هـ) والألوسي (م سنة ١٢٧٠ هـ) ان فسروا الطوسي قوله تعالى :-

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ) (١)

يعني ضرب مَثَلٌ جعل كقولهم ضرب على أهل الذمة الجزية لأنه كالتثبيت شبهه بالضرب المعروف . (٢)

وعند الزمخشري أن الضرب يأتي بمعنى اعتمد ووضع (٣)

أما الألوسي فيرى أنه إيقاع شيء على شيء ، وقيل بمعنى الذكر وقيل

البيان وقيل (يضع) كقوله تعالى :-

وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ (٥)

فضرب الأمثال بهذا المعنى يعني توسيخها وتثبيتها ووضعها معتمدة متينة الأساس .

٣ - وورد أيضاً الضرب بمعنى الذكر في لسان العرب (٦) كذلك في مجمع البحرين (٧)

روح المعاني (٨)

فقوله تعالى :-

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ (٩)

أي أذكر لهم مثلاً فضرب الأمثال هنا يعني ذكرها .

-
- (١) سورة الحج ، ٧٣ .
 - (٢) التبيان في تفسير القرآن الطوسي ، ٣٠٢/٧ (بتصرف) .
 - (٣) الكشاف ٥٥٣/٢ .
 - (٤) روح المعاني ٢٠٦/١ (بتصرف) .
 - (٥) سورة البقرة ، ٦١ .
 - (٦) لسان العرب " ضرب " .
 - (٧) مجمع البحرين ، الطريحي ١٠٥/٢ .
 - (٨) روح المعاني ٢٠٦/١ .
 - (٩) سورة يس ، ١٣ .

٤ - ويأتي الضرب بمعنى الأخذ والانتزاع عند الطُّرْحِي ومثل لذلك بقوله تعالى :-

”ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ“ (١)

أي أخذ لكم مثلاً وانتزعه من أقرب شيء منكم وهو أنفسكم . (٢)

هذه خلاصة آراء بعض المفسرين واللغويين في معنى ضرب المثل .

أما علماء البلاغة : فكانوا أكثر عمقاً في تفسير ذلك المعنى إذ قال أبو هلال

العسكري (م سنة ٣٩٥ هـ تقريباً) :-

(وَضَرَبَ المثل جعله يسير في البلاد من قولك :-

”ضَرَبَ في الأرض إذا سار فيها ومنه سعى المضارب مضارباً) (٣) .

وبهذا ينحصر معنى الضرب في السير وهذا ولا شك يرتبط بالمعنى اللغوي

للضرب وهو (الإسراع في السير) الذي ذهب إليه ابن منظور في لسان العرب

وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى :-

”وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ
الَّذِينَ كَفَرُوا.....“ الآية (٥)

أو قد يكون معنى (ضرب المثل) نصبه للناس بإشهاره لتستدل عليه خواطرهم

كما تستدل عيونهم على الأشياء المنصوبة واشتقاقه حينئذ من قولهم :-

(ضَرَبَ الخبأ ، إذا نصبته وأثبت طنبه) (٦)

وقوله تعالى :-

”كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلُ“ (٧)

(١) سورة الروم ، ٢٨ .

(٢) مجمع البحرين ٢ / ١٠٤ .

(٣) الحكم والأمثال . حتا الفاخوري ص ٧٩ القاهرة ط ١٩٦٩ هـ ، دار المعارف .

(٤) لسان العرب . ”ضرب“ . (بشهرت)

(٥) سورة النساء ، ١٠١ أيضاً بهذا المعنى آية ١٠٦ من سورة المائدة .

(٦) الأمثال في القرآن الكريم . لابن قيم الجوزية . ص ٢١٠ . محمد الخطيب ص ٢١ ،

دار البازمكة المكرمة .

(٧) سورة الرعد ، ١٧ .

أي ينصب نارهما ويوضح أعلامهما ليعرف المُكفِّون الحقَّ بعلاماته فيقصدوه ويعرفوا
الباطل فيجتنبوه كما قال الشريف الرضي :-

وقد يفهم من ضرب المثل انشاؤه فيكون مشتقاً من ضرب اللبن وضرب الخاتم . (١)
وقد يكون من الضرب بمعنى إبقاء شيء على شيء ومنه ضرب الدراهم أي إيقاع
النموذج الذي به الصك على الدراهم لتتطبع به ، فكان المثل مطابقاً للحالفة
أي للصفة التي جاء لإيضاحها . (٢)

ويمكن بعد عرض هذه الآراء المختلفة أن نقول : إن ضرب المثل في القرآن قد
جمع معظم هذه المعاني إن لم يكن كلها وإذا جازلنا أن نخوض في مجال معنى ضرب
المثل فإننا نذهب إلى القول :-

هو إيقاع شيء على شيء ، فالشبي والأول الذي أخذ منه المثل هو المورد والشبي
الثاني هو المضرب فيكون بذلك ضرب المثل هو تمثيل مضره بمورده أي تشبيه الحال
الثانية بالأولى ثم تكون له طبيعة السيرة والانتشار بين الناس في مختلف
الأماكن والأصاغر وعلى تفاوت مستويات الأذواق والفهم عندهم .

هـ - أهمية ضرب المثل في الكلام وفائدته :- للمثل في الكلام مكانة هامة ووظيفة
لموسة الفائدة واضحة الأثر وذلك لما له من قدرة عجيبة على تجاوز السمع إلى
القلوب واستقرار المعاني في الأذهان وتعلقها بالنفوس .
يقول ابن المقفع م - سنة ١٤٢ هـ :-

(إذا جعل الكلام مثلاً ، كان ذلك أوضح للمنطق وأبين في المعنى وأتق
للسمع وأوسع لشعوب الحديث) . (٣)

ويرى النظام م . سنة ٢٢١ هـ أن المثل نهاية البلاغة بعد إشارته إلى ما فيه
من خصائص فقال :-

-
- (١) تلخيص البيان في مجازات القرآن . للشريف الرضي ص ١٠٧ (بتصرف) .
(٢) الأمثال في القرآن الكريم . لابن القيم ص ٢١ .
(٣) الأدب الصغير . عبد الله بن المقفع ص ٢٧ ط سنة ١٩٧٤ م دار بيروت للطباعة
والنشر . وشعوب الحديث : أي متفرقه ومتنوعه .

(تجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية ، فهو نهاية البلاغة) (١) ويرى ابن سلام م سنة ٢٣٢ هـ أن الأمثال حكمة العرب ثم أشار إلى نفس الخصائص التي أثبتتها له النظام فقال :-

(الأمثال حكمة العرب في الجاهلية والإسلام ، وبها كانت تعارض كلامها فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في النطق ، بكناية غير تصريح ، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه) (٢) أما الفارابي فقد اعتبرها أبلغ الحكمة ، لاجتماع الناس عليها فقال :-

(المثل : مراضاه العامة والخاصة ، في لفظه ومعناه ، حتى ابتدأه فيما بينهم ، وفأهوا به في السراء والضراء ، فاستدروا به الممتنع من الدر ، وتوصلوا به إلى المطالب القصية وتفرجوا به من الكرب المكربة وهو من أبلغ الحكمة لأن الناس لا يجتمعون على ناقص ، أو مقصّر في الجودة ، أو غير بالغ المدى في النفاسة) (٣) .

وأشار قدامه بن جعفر م سنة ٣٣٧ هـ إلى تفضيل الحكماء والأدباء للأمثال لأنها أنجح لما يتفنون مطلباً ، لا اقترانها بالحجج والبراهين فقال :-
(..... فأما الحكماء والأدباء فلا يزالون يضربون الأمثال ويبينون للناس تصرف الأحوال بالنظائر ، والأشبهاء ، والأشكال ويرون هذا القول أنجح مطلباً ، وأقرب مذهباً ، وإنما فعلت العلماء ذلك لأن الخبر في نفسه إذا كان ممكناً فهو محتاج إلى ما يدل عليه ، وعلى صحته ، والمثل مقرون بالحجة) (٤)

-
- (١) مجمع الأمثال ٧/١ ، ٨ .
(٢) فصل المقال في شرح كتاب الأمثال . بكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز ص ٥ مطبعة مصر الخرطوم سنة ١٩٥٨ م) .
(٣) ديوان الأدب . الفارابي (أبو نصر إسحاق ابن إبراهيم . مخطوط دار الكتب المصرية رقم (٤٧٠١ هـ) .
(٤) نقد النثر . قدامه بن جعفر ص ٧٣ ، ٧٤ تح د . طه حسين ، وعبد الحميد العبادي . المطبعة الأميرية بولاق سنة ١٩٤١ م .

وأشار ابن عبد ربه م سنة ٣٢٧ هـ إلى سيرورة الأمثال وانتشارها واختيار الناس لها ، وجريانها على ألسنتهم ، في كل زمان ، واعتبرها أبقى من الشعر وأشرف من الخطابة مع مكانتها المعلومة في الأدب العربي فقال : -

(هو وشبي الكلام وجوهر اللفظ ، وجلي المعاني ، والتي تخيرتها العرب وقدّمتهما العجم ، ونطق بها في كل زمان ، وطى كل لسان ، فهي أبقى من الشعر وأشرف من الخطابة ، لم يسر شبي وسيرها ، ولا عمّ عمومها ، حتى قيل أسير من مثل) (١) .
ووافقه في ذلك أبو هلال العسكري م سنة ٣٩٥ هـ فيما أضفاه عليها من شرف فاعتبرها من أجلّ الكلام وأنبله وأشرفه ، وعدّ من لم يُعْنِ بها - من الأدباء - غير تامّ الآلة في الأدب ، ولا موفّر الحظّ منه . (٢)

وذكر الخفاجي م سنة ٤٦٦ هـ فضل ثبوتها في الأذهان بقوله :-

(سَبِيٌّ مَثَلًا لِأَنَّهُ مَثَلٌ بِخَاطِرِ الْإِنْسَانِ دَائِمًا) (٣)

وتحدّث الشيخ عبد القاهر الجرجاني عن تفضيل العقلاء لها وأفاض في حديثه عن تأثيرها في النفوس سواء كان ذلك ، مدحاً أو ذمّاً ، فخراً أو هجاءً أو اعتذاراً فقال :-

(واعلم أن ما اتفق العقلاء عليه : أن التّشيل إذا جاء في أعقاب المعاني أوبرزت هي باختصار في معرضه ، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته ، كساها أبهة ، وأكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشبّ من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستشار لها من أقاصي البلاد الأفتدة صبايةً ، وكفناً ، وفسر الطّباع ، على أن تعطيتها محبةً وشففاً) (٤)

(١) العقد الفريد . ابن عبد ربه الأندلسي (أبو عمر أحمد بن محمد) ٦٣/٣ ،

شرح وضبط . أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري ط ٣ ١٩٦٥ م القاهرة .

(٢) جمهرة الأمثال . أبو هلال العسكري (الحسن بن عبد الله بن سهل) المقدّمه

اعتنى بطبعة الميرزا محمد سنة ١٣٠٧ هـ .

(٣) مجمع الأمثال . المقدّمه .

(٤) أسرار البلاغه . عبد القاهر الجرجاني ٢٢٥/١ شرح محمد عبد المنعم خفاجي

ط ٢ سنة ١٩٧٦ م مكتبة القاهرة .

وأشار الزمخشري م سنة ٥٣٨ هـ إلى جوانب من أهمية الأمثال في قوله :-

(هي قسارى فصاحة العرب العرياء ، وجوامع كلمها ، ونوادير حكمها ، وميضه منطقتها ، وزبدة جواهرها ، وبلاغتها ، التي أعربت بها القرائح السليمة ، حيث أوجزت اللفظ فأشبعت المعنى ، وقصّرت العبارة فأطالت المفزى ، ولوحت فأغرقت في التصريح ، وكتت فأغنت عن الإفصاح ، ولأمر ما سبقت إزاعتها الرياح ، وتركتها كالرأسفة في القيود ، يتدارك سيرها في البلاد ، حتى شبهوا بها كل سائر أمعنوا في وصفه وشارد لم يألّفوا في نعته) (١)

كذلك رأى الزمخشري في ضرب العرب للأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأنًا ظاهرًا في إبراز غيبات المعاني ، ورفع الأستار عن الحقائق ، حتى تُظهر المتخيل في صورة المتحقق والمتوهم في معرض المتيقن ، والغائب كأنه مشاهد ، ويرى فيها نبكيتاً للخصم الأكد ، وقسماً لسورة الجامع الأبى ، وذكر أنه لأمر ما أكرس سبحانه وتعالى في كتابه العزيز ، وفي سائر كتبه من الأمثال (٢)

وأشار الرازي إلى أن المقصود من ضرب الأمثال أنها تؤثر في القلوب مالا يؤثّر وصف الشيء وفي نفسه ويُغلل ذلك بقوله :-

(وذلك لأن الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي ، والغائب بالشاهد ، فيتأكد الوقوف على ماهيته ويتميز الحس مطابقاً للعقل وذلك هو النهاية فبي الإيضاح) (٣)

وذكر ابن القيم سنة ٧٥١ هـ أن (في الأمثال من تأنس النفس وسُرعة قبولها وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق أمر لا يجحده أحد ولا ينكره ، وكلما ظهرت الأمثال ازداد المعنى ظهوراً ووضوحاً ، فالأمثال شواهد المعنى وهي خاصة العقل ولبه وثمرته) . (٤)

-
- (١) المستقصى في الأمثال أبو القاسم (جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي) مخطوط (المقدمه) . دار الكتب المصريه رقم ١٤٢٣ أدب .
- (٢) الكشاف ١/١٩٥ بتصرف .
- (٣) التفسير الكبير . الفخر الرازي (أبو عبد الله محمد بن عمرو بن حسين القرشي الطبرستاني م ٧٢/ ط ٣ ، دار احياء التراث العربي بيروت .
- (٤) أعلام الموقعين . لابن قيم الجوزيه ١/٢٩١ تح عبد الرحمن الوكيل القاهره سنة ١٩٦٩ م .

وهكذا ظلت فكرة الإيضاح تتداولها الألسن ، حتى شَبِهت الأمثال بالمصابيح
لمتغيره من إيضاح وكشف عن الحقائق ، إن نقل حاجي خليفة م سنة ١٠٦٧ هـ
عن أعرابي كان قد سُئِلَ عن الأمثال ، فقال :-

(الأمثال مصابيح الأقوال) (١)

ولتقي في " جامع الفنون " بقول أحد الحكماء عن الأمثال :-

(المثل الرابع مغناطيس الطبائع ، لأن الأمثال من أغلب الحقائق المسئلة
للطباع ، وأجول منها على الألسنة والأسماع ، كما أن التصاویر أعلق بالأبصار مسن
جعلت له تمثيلاً ، ونُصِبَ على شخصه الأصلي دليلاً .) (٢)

ونذهب ابن الأثير إلى تشبيهها بالرموز والإشارات ، حتى إنه يرى أن ليس في

كلام العرب أوجزها ، فقال :-

(.) وليس في كلامهم أوجز ولا أشد اختصاراً منها ، فلما كانت الأمثال

كالرموز ، والإشارات ، التي يلوِّح بها على المعاني تلويحاً ، صارت من أوجز الكلام
وأكثره اختصاراً .) (٣)

وقد أكثر الباحثون المحدثون من الحديث عن أهمية الأمثال ، لاسيما للباحث

في حياة الأمة التي يعمد دراسة حياتها ، في أي مظهر من مظاهرها ، أو شأن
من شؤونها ، فالأمثال تتبع من كل طبقات المجتمع كما تصوّر مختلف أحوالهم
وعاداتها ، وتقاليدها ، فضلاً عن نظرتها إلى الحياة وما يضطرب فيها ، وقد تحدّث
الأستاذ أحمد أمين عن ذلك بتفصيل وإسهاب من ذلك قوله :-

(١) تحفة الأخبار من الحكم والأمثال والأشعار . حاجي خليفة (مصطفى بن

عبدالله) (١) . المقدمة . مخطوط دار الكتب المصرية رقم ١٥ م أدب .
(٢) جامع الفنون وسلوة المحزون . لم يعلم مؤلفه . ورقه رقم ٧ مخطوط دار
الكتب المصرية رقم ٤٢٨٤ أدب .

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر . ضياء الدين بن الأثير . القسم
الأول ٦٣ .

(. . . .) وأمثال كلِّ أمة مصدر هام جداً للمؤرخ ، والأخلاقي ، والاجتماعي يستطيعون منها أن يعرفوا كثيراً من أخلاق الأمة ، وعاداتها ، وعقليتها ، ونظرتها الى الحياة ، لأن الأمثال عادة وليدة البيئة التي نشأت عنها (١)
هذا ولقد فضلها على الشعر لأن قائلها من الخاصة والعامة ولا تقتصر على طبقة معينة فحسب ، فقال :-

(فقد ينبع المثل من طبقة راقية فيكون راقياً مصقولاً ، وقد ينبع من العامة فلا يكون كذلك أما الشعر فلا ينبع إلا من طبقة الشعراء ، وهم عادة أرقى من الشعب وهم إن فات بعضهم رقي المعنى فلا يفوته صقل اللفظ ، ومن أجل هذا عبر بعضهم عن المثل بأنه (صوت الشعب) ومن أجل هذا كانت دلالة المثل على لغة الشعب أصدق من دلالة الشعر) (٢) .

وتابعه في ذلك بعض الباحثين ، فمن قائل إنها (من أدل الأمور على عقلية الشعوب ، وعاداتها) (٣) ومعتبر لها مقياساً لرقى الأمة ولسان أخلافها ومشير إلى أن (دراسة الأمثال من أجدى الدراسات ، وأكثرها نفعاً ، لمعرفة مظاهر حياة الأمم وسبر أغوار هذه الحياة) (٥) وهكذا .

أما إذا تجاوزنا هذا المجال مجال أهمية الأمثال للباحثين في حياة الأمم فإننا لا نلح الا اشارات لا تتعدى أن تكون أصداً لما ذكره القدماء عن أهميتها فعلى سبيل المثال ذكر الأستاذ عبدالعزيز مزروع قدمها بقوله :-

-
- (١) قاموس العادات والتقاليد والتعبيرات المصريه ص ٦١ ط ١١ . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهره سنة ١٩٥٣ م .
 - (٢) فجر الاسلام . أحمد أمين . ط ٦١ ط ٦١ لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهره سنة ١٩٥٠ م .
 - (٣) الحكم والأمثال . لجنة من الأدباء العرب . المقدمة . اصدار دار المعارف بمصر .
 - (٤) تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي . السباعي بيومي . ص ٨٨ (بتصرف) مطبعة العلوم مصر سنة ١٩٣٢ .
 - (٥) الأمثال العامية في نجد . محمد العبودي المقدمة . ط ١ دار احياء الكتب العربيه عيسى الحلبي وشركاه . القاهره سنة ١٩٥٩ م .

(الحكم والأمثال من فنون الأدب ، بل هي من أقدم فنونه) (١) وقد أشار آخر إلى أن (الأمثال في كل أمة خلاصة تجاربهم ومحصل خبرتهم) (٢) كما قيل عنها إنها :-

(منتهى الحجة ، وموضع الحكم ، وذريعة الإذعان والاعتراف) (٣) كما أشارت مؤلفة كتاب أشكال التعبير في الأدب الشعبي إلى أهميتها بقولها :-

(فالمثل قول قصير مشبع بالذكاء والحكمة ، ولسنا نبالغ إذا قلنا إن كل مثل يصلح أن يكون موضوعاً لعمل أدبي كبير ، إذا استطاع الكاتب أن يتخذ من المثل بداية لعمله ، فيعيش تجربة المثل ، ويعبر عنها تعبيراً تحليلياً دقيقاً .) (٤) وقد أبدت المؤلفة رأيها في استعمالنا الدائم للأمثال بقولها :

(إننا نعيش جزواً من مصائرنا في عالم الأمثال ولعل هذا يفسر لنا استعمالنا الدائم للأمثال ، فالأمثال بالنسبة لنا عالم هادي ، نركن إليه حينما نود أن نتجنب التفكير الطويل في نتائج تجربتنا ، ونحن نذكرها بحرفيتها إذا كانت تتفق مع حالتنا النفسية ، بل انسا شعربارتياح لسماعها وإن لم نعش التجربة التي يلخصها المثل) (٥)

ولعلنا هنا نتفق مع المؤلفة في رأيها عن أهمية الأمثال وسبب استعمالنا لها ولا أدل على معايشة الأمثال لمصائرنا من نطق العامة والخاصة بها في الموقف الذي يتطلب أحدها ..

(١) الأسس المبتكرة لدراسة الأدب الجاهلي . عبدالعزيز مزروع الأزهرى ص ١٠٠ ،

ط ١ مطبعة العلوم مصر سنة ١٩٥٠ م .

(٢) الأمثال العامية البغدادية . الشيخ جلال الحنفي . المقدمة . مطبعة أسعد

بيفداد سنة ١٩٦٢ م .

(٣) الوسيلة الأدبية . الشيخ حسين الموصفي - ٦٤/٢ ط ١ طبع المدارس الكلية

١٢٩٢ هـ .

(٤) أشكال التعبير في الأدب الشعبي . د . نبيله ابراهيم ص ١٤٤ ، مطبعة

العالم العربي بمصر .

(٥) أشكال التعبير في الأدب الشعبي ، ص ١٤٧ .

كذلك نوافق صاحب رسالة (الأمثال في القرآن الكريم) على رأي القائل فيه :
(. لعلَّ أهميّة الأمثال ترجع إلى نزعة الإنسان في تأكيد ذاته ازاء الحياة
وإذا كانت أساليب التعبير المختلفة كلها تعين على الحياة وفهمها ، فالأمثال
أشمل من كلِّ تلك الأنواع ، وأقصر من تلك السبل ومن هنا كان لها ماكان من أهميّة
فضلا عما سبق من قبل في خصائصها ومميزاتها من حيث الشكل والمضمون) (١)
تلك هي أهمية الأمثال بصفة عامّة لدى بعض القدماء والمحدثين ولعلنا بهذا
العرض السّريع استطعنا أن ننقل شيئا من أهميّتها قديماً وحديثاً . . أما عن أهميّتها
في القرآن الكريم فسنعرض له فيما يلي من الصفحات - إن شاء الله -

(١) الأمثال في القرآن الكريم . محمد جابر الفياض . ص (٥ رسالة ماجستير مضمونة
على الآلة الكاتبة . مقدّمة الى كُليّة الآداب جامعة عين شمس عام ١٩٦٨ م) .
مكتبة الدّراسات العُليا بالجامعة .

و - فوائد ضرب المثل في القرآن

وضرب الأمثال في القرآن له فوائد كثيرة :-

كالتذكير والوعظ ، والحث ، والزجر ، والاعتبار والتقرير وترتيب المراد للعقل ، وتصويره في صورة المحسوس بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس كذلك تأتي هذه الأمثال في القرآن على بيان تضافات الأجر ، وعلى المدح والذم ، والثواب والعقاب ، أو تخميم الأمر وتحقيره أو تحقيق أمر وإبطال آخر وقد قال تعالى :-

(وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ) (١) فقد منّ تعالى علينا بها لما تضمنته من فوائد جمّة (٢) .

ولتوضيح هذه الفوائد ، نذكر بعض الأمثال القرآنية التي تضمنتها :-

١ - قال سبحانه وتعالى ليبرز المعقول في صورة المحسوس الذي تتقبله النفس

و يستقر في الذهن لوضوحه وقربه من الفهم :-

" فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا " . (٣)

فهذا مثال ضربه سبحانه وتعالى لحال المنفق ماله رياء ، حيث لا يحصل

من إنفاقه على شئ من الثواب (٤) .

٢ - وليكشف سبحانه عن الحقائق المجردة ويعرض الغائب في معرض الحاضر في

صورة مؤدية للغرض بإيجاز (٥) بليغ قال سبحانه (٦) :-

" الَّذِينَ يَأْكُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ "

(١) سورة إبراهيم ، ٤٥ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ١ / ٤٨٧ (بتصرف) .

(٣) سورة البقرة ، ٢٦٤ .

(٤) مباحث في علوم القرآن . د . مناع قطان ص ٢٨٨ ط ٧ سنة ١٩٨٠ (بتصرف) .

(٥) نفس المصدر السابق .

(٦) سورة البقرة ، ٢٧٥ .

٣ - وَلِيرَغَّبْنَا سُبْحَانَهُ فِي الْمَثَلِ يَأْتِي بِمَثَلٍ بِهِ تَرُغَّبُ فِيهِ النَّفْسُ وَتَحِبُّهُ فَيُضْرَبُ مَثَلًا

لِحَالِ الْمُنْفِقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَيْثُ يَعُودُ عَلَيْهِ الْإِنْفَاقُ بِخَيْرٍ كَثِيرٍ فَقَالَ تَعَالَى :-

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ

فِي كُلِّ سَنبَلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (١)

٤ - وَيُضْرَبُ سُبْحَانَهُ الْمَثَلُ لِلتَّنْفِيرِ حَيْثُ يَكُونُ الْمَثَلُ بِهِ مَا تَكْرَهُهُ النَّفْسُ وَتَأْبَاهُ

الْفِطْرَةَ الْإِنْسَانِيَةَ فَيَقُولُ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ :-

(وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ) (٢)

تلك هي أهمية الأمثال وفائدتها وصدق سبحانه وتعالى في قوله العزيز :-

• وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ • (٣)

(١) سورة البقرة ٢٦١

(٢) سورة الحجرات ، ١٢ .

(٣) سورة العنكبوت ، ٤٣ .

ز - الفرق بين الحكمة والمثل :- لعلَّ الحيرة التي وقع فيها النَّاسُ في تمييز الحكمة عن المثل أو بيان حقيقة كل منهما عن الآخر هو الذي يدفعنا هنا إلى إلقاء بعض الضوء على هذين النوعين أو بالأحرى على الفرق بينهما وما يدلُّ على هذه الحيرة في التمييز بين النوعين ما نقله لنا الدكتور عبد المجيد عابدين عن بنتزن (Bentzen) فقال :-

(وإذا أُنعمنا النَّظر في استعمال كلمتي مَثَل ، وحِكْمَة ، في الاصطلاح الأدبي السَّامي القديم ، لانكاد نهتدي إلى نوع الصَّلة ، التي ربطت بين الاصطلاحين في المراحل الأولى : أكان كل لفظ منهما مختصاً بنوع من الكلام ، أم كانا لفظين مترادفين اصطلاحاً ؟ أم كانت الحكمة أعم من المثل ؟) (١)

لذا نرى أن نتناول معنى لفظ الحكمة لغةً واصطلاحاً كما سبق أن أشرنا إلى معنى المثل في اللغة والاصطلاح وأن نشير ولو إشارة سريعة إلى خصائص الحكم لنعرف من خلال هذه الإشارة بعض الفروق بين هذين النوعين أمَّا عن معنى الحكمة في اللغة فقد أشار اللغويون إلى معان كثيرة ، فيها المعرفة ، والاتقان قال الخليل بسن أحمد الفراهيدي :-

(٢)
(... والحكمة : العدل ، والعلم ، والحلم ، ورجل حكيم : من قوم حكماؤهم)
ونذهب الجوهرى إلى تفسيرها بالمعرفة والاتقان حيث قال :-

(... الحكمة : من العلم ، والحكيم ، المتقن للأمور) (٣) كما فرق الرَّاغِب بين الحكمة الإلهية وحكمة المخلوق ، إذ يرى أن الحكمة من الله تعالى تعني معرفة

-
- (١) الأمثال في النثر العربي القديم مع مقارنتها بنظائرها في الآداب السَّامية الأخرى د . عبد المجيد عابدين . ص ٨ ط ١ دار مصر للطباعة .
(٢) المُخَصَّص . ابن سيده . أبو الحسن علي بن اسماعيل السَّفر الثاني عشر ٢١٤ المطبعة الأميرية القاهرة ١٣١٦ هـ .
(٣) الصَّحاح . الجوهرى (اسماعيل بن حماد) تح . أحمد عبد الغفور عطار " حكم " مطابع دار الكتاب العربي . مصر .

(١)
الأشياء وإيجادها على غاية الأحكام ، ومن الإنسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات .
أما ابن منظور فيرى أن (.....) الحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء
بأفضل العلوم ، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها : حكيم والحكم والحكمة :
من العلم ، والحكيم : العالم (٢)

وقال أبو عبد الله الحسن بن محمد :-

(تفسير الحكمة على خمسة أوجه : العظة ، الفهم ، النبوة ، القرآن
تفسير القرآن) (٣) هذا فضلاً عن اتفاق اللغويين أيضاً على إرجاع مادة (حكم)
إلى : المنع واعتباره أصلاً لها (٤) ثم تجاوز هذا المنع في تفسيرهم إلى معان
أخرى كالفهم الدقيق ، والنظر الشديد ، ومعرفة الأشياء كما هي ، واتقان الشيء
وإحكامه .

وقد عرفت الحكمة تعريفاً اصطلاحياً وصل إليه بعض الدارسين بقولهم

(يستخلص من ذلك كله أن الحكمة : هي الكلام القائم على العلم ، والموجه إلى
الصواب ، والسداد في القول والعمل) (٥) .

وفيما يلي نعرض لبعض الفروق بين كل من الحكمة والمثل مع الإشارة إلى نقاط

الالتقاء بينهما .

(١) المفردات في غريب القرآن . الراغب الأصفهاني (أبو القاسم الحسن بن محمد)

" حكم " (بتصرف) تح ، محمد سيد كيلاني دار الباز للنشر والتوزيع .

(٢) اللسان . " حكم " .

(٣) الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز . الدامغاني (أبو عبد الله الحسن

ابن محمد) ص ١٠٥ - ١٠٦ . مخطوط . دار الكتب المصرية رقم ٢٤٨٠ أدب .

(٤) اللسان . " حكم " كذلك المخصص للسفر ١٢ / ٢١٤ . كذلك السفر ٦ / ١٨٩

كذلك المفردات للراغب " حكم " . (بتصرف) .

(٥) الحكم والأمثال . لجنة من الأدباء ص ٨ .

المقارنة بين الحكمة والمثل :-

أولاً : - ذهب كثير من الباحثين إلى تفسير الأمثال بالتمثيل والتشبيه والأمثال والنظائر ، والاستعارة التمثيلية ، بينما لم يفستروا الحكمة بشيء من ذلك ، ولعل ذلك عائد إلى أن الأمثال أو بعضها ، تعتمد أكثر ما تعتمد على تجسيد الفكرة وتصويرها ، ولهذا نلاحظ فيها المقارنة والموازنة أكثر من الحكم .

ثانياً : ترتبط الأمثال بمناسباتها ولذلك نحتاج إليها عقب المناسبة أو في أثنائها وهذا ما جعلنا أحياناً - نحتاج إلى معرفة قصة المثل لفهمه بينما لا نلمس ذلك في الحكم فهي عبارة عن جمل وجيزة منفصلة الصلة عن المناسبة التي دعت إليها وإن كانت خلاصة تجربة صادقة مرت بقا عليها .

ثالثاً : تهدف الحكم إلى التوجيه المباشر بينما لا نلمس ذلك في الأمثال وإن كانت تفيد التوجيه غير المباشر بما تأخذه من عبرة أملتها علينا قصة المثل أو مناسبته . (١)

رابعاً : يُقرر أبو هلال العسكري أن كل حكمة تُسمى مثلاً وقد يأتي القائل بما يحسن من الكلام أن يتمثل به إلا أنه لا يتفق أن يسير في البلاد فلا يكون مثلاً (٢) .

ويفسر هذا القول الدكتور عبد المجيد محمود بقوله :-

(وهذا يعني أن الشيوع والانتشار وكثرة الدوران على الألسنة هو ما يفرق بين الحكمة والمثل ، فالقول الصائب الصادر عن تجربة يُسمى حكمة إذا لم يُتداول ، ويسمى مثلاً إذا كثر استعماله وشاع أداؤه في المناسبات المختلفة ويعرف حينئذ بأنه القول السائر الذي يشبهه

(١) الأمثال في القرآن الكريم . محمد جابر الفياض ص ٦٧ (بتصرف) .

(٢) جمهرة الأمثال (على هامش مجمع الأمثال) ٥ / ١ (بتصرف) .

حال الثاني بالأول ، أو الذي يشبهه مضره بمورده ، والمراد بالمورد الحالة الأصلية التي ورد فيها الكلام وبالمضرب الحالة المشبهة التي أُريدت بالكلام (١)
ويطيب لنا هنا أن ننقل تعقيماً لصاحب رسالة الأمثال في القرآن الكريم ظهر فيه رأي الباحث وقته فيه - كما أننا نوافق على هذا القول :-

(ومهما يكن من شيء ، فالحكمة تلتقي مع المثل في بعض الخصائص إلا أنها تختلف عنه في خصائص أخرى ليس من اليسر التعاضد عنها ، ولذلك ، فالقول بأن كل مثل حكمة وليس كل حكمة مثلاً لا يخلو من مجانية الدقة ، والأدق منه ما ذهب إليه علماء العربية الذين اعتبروا الأمثال ، الأقوال الموجزة السائرة الممثل مضرها بموردها ، والحكم القائم صدقها في العقول أو السائرة ، ذلك لأن هذه الحكم تشارك الأمثال سيرورتها ، وزيوعها ، وتتناول المسائل التي تشغل أذهان الناس وتحظى باهتمامهم في حياتهم اليومية أكثر من غيرها من الحكم فضلاً عن مجيئها موجزة معتمدة على الإيقاع الموسيقي فهذا النوع من الحكم يمكن أن يدنو من الأمثال ويختلط بها ويتداخل معها .) (٢)

(١) أمثال الحديث مع تقدمه في علوم الحديث . د . عبد المجيد محمود ص ٨٣ ،

ط ١ ، دار التراث القاهرة .

(٢) الأمثال في القرآن الكريم . محمد جابر الفياض ص ٦٨ .

ح - جهود الأقدمين في دراسة أمثال القرآن الكريم

نظراً لأهمية هذا الموضوع وجماله ، فقد اهتمَّ به الباحثون قديماً وحديثاً
وفيما يلي بيان ببعض دراسات الأقدمين فيه :-

١ - الجنيد بن محمد بن الجنيد القواريري (م سنة ٢٩٨ هـ) وكتابه

(أمثال القرآن) (١) ويعتقد صاحب كتاب (الصورة الفنية في المثل القرآني)

أنه مفقود لعدم الإشارة إلى وجود نسخته في فهرس المخطوطات . (٢)

٢ - الحكيم الترمذي . (أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن) (م سنة ٣١٨ هـ) في

كتابه (الأمثال من الكتاب والسنة) وهو ذو مقدّمه وقسم من أمثال القرآن

سردها دون تعقيب (٣) .

٣ - الحكيم الترمذي - أيضاً - عرض لقسم من أمثال القرآن في (رسائل الحكيم

الترمذي) (٤) .

٤ - ابن خَلَّاد : الحسن بن عبد الرحمن بن خَلَّاد الرامهرمزي م سنة ٣٦٠ هـ

تحدث عن أمثال القرآن في مقدّمه (أمثال الحديث) (٥) .

٥ - نقطويه : (أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفه) المعروف بنقطويه

م (سنة ٣٩٣ هـ) في كتابه (أمثال القرآن) (٦) (وهو مفقود لا وجود

له في فهرس المخطوطات) (٧) .

(٨)

٦ - محمد بن الحسن بن موسى السُّلَبي (م سنة ٤١٢ هـ) في (أمثال القرآن)

(وهو مفقود لا أثر لوجوده في فهرس المخطوطات) . (٩)

-
- (١) الفهرست . ابن النديم ١٨٦ .
(٢) الصورة الفنية في المثل القرآني . محمد حسين علي الصغير ص ٤٠٢ .
(٣) تحقيق الأستان علي البجاوي . دار نهضة مصر الفجالة .
(٤) مخطوط دار الكتب المصريه . ضمن مجموعه رقم ٢١٨١٦ ب .
(٥) مخطوط بجامعة الدول العربيه رقم ٦١٦/٦٨٦ .
(٦) معجم الأدباء . ياقوت الحموي (١/٣١٥) بعناية د . أحمد فريد رفاعي
مطبعة عيسى الحلبي القاهرة ١٩٣٠ م .
(٧) الصورة الفنية في المثل القرآني ص ٤٠٣ .
(٨) كشف الظنون . حاجي خليفة (١/١٥٠) مطبعة وكالة المعارف ١٩٤٣ م .
(٩) الصورة الفنية في المثل القرآني ٤٠٤ .

٧ - علي بن محمد الماوردي م (سنة ٤٥٠ هـ) في كتاب (أمثال القرآن) (وهو مفقود) . (١)

٨ - الحسن بن عبد الرحمن القضايي م (سنة ٤٥٤ هـ) في كتابه (الأمثال الكامنة في القرآن) (وهو مفقود) (٢)

٩ - مؤلف مجهول له (في الأمثال السائرة في القرآن) (٣) وبه ما يقرب من أربعين مثلاً قرآنياً وما يقابلها من أمثال العرب وقد أُثبت به النصُّ الذي نقله السيوطي (٤) عن الحسين بن الفضل والذي ذكر فيه الأمثال الكامنة في القرآن .

١٠ - ابن أبي الإصبع . (زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد المصري م) سنة ٦٥٤ هـ) قال في كتابه (بديع القرآن) : (وقد استقصيتُ جميع أمثال الكتاب العزيز من السُّور على ترتيبها وبسُوِّبته على حروف المعجم في كتاب كبير) . (٥)

وقد بحث محقق كتاب (بديع القرآن) في كلِّ ما لديه من مظان عن مؤلف أو كتاب ابن أبي الإصبع المذكور فلم يجده . ويظنُّ صاحب كتاب الصورة الفنيَّة في المثل القرآني " أنه فقد لاسيما أن الزركشي والسيوطي ولا زلها يسم لم ينصوا عليه) . (٦)

وأحبُّ أن ألفت الانتباه هنا إلى المخطوط السابق في رقم (٩) فلعلَّ ثمة علاقة بين هذا المخطوط ومخطوط ابن أبي الإصبع المفقود .

(١) الصورة الفنيَّة في المثل القرآني ٤٠٤ .

(٢) نفسه ٤٠٤ .

(٣) مخطوطة بدار الكتب المصريه تفسير رقم ٢٦٤ مجاميع .

(٤) في كتابه الاتقان في علوم القرآن ١٣٢/٢ .

(٥) بديع القرآن : ابن أبي الإصبع . تج د . حفني محمد شرف ص ٨٧ مطبعة الرِّسالة ، القاهره سنة ١٩٥٧ م) .

(٦) الصورة الفنيَّة في المثل القرآني ٤٠٤ .

١١ - ابن قيم الجوزية ، (أبو عبد الله أبي بكر بن أيوب م (سنة ٧٥١ هـ) في
(تشبيهات القرآن وأمثاله) (١) ، وقد جمع فيه ٢٥ مثلاً قرآنياً ونعتقد
أنه هو نفس الكتاب الذي صدر بعنوان (الأمثال في القرآن الكريم)
لنفس المؤلف .

١٢ - الزركشي : محمد بن عبد الله م (سنة ٧٩٤ هـ) في فصل من كتابه (البرهان
في علوم القرآن) (٢)

١٣ - السيوطي : جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبي بكر م (سنة ٩١١ هـ) في
فصل من كتابه (الإتيان في علوم القرآن) . (٣)

١٤ - المؤيدي : مهذب الدين محمد بن علي المؤيدي في كتاب (أمثال القرآن)
ذكره علي أصغر حكمت في كتابه " أمثال القرآن " . (٤)

(٥)
١٥ - بدر الدين حسن . في كتابه (قواضة الإبريز في أمثال الكتاب العزيز) .

-
- (١) مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١ - طب .
(٢) حققه . سعيد محمد غر الخطيب . ط (١٩٨١ م . م دار المعرفة ، كذلك
حققه د . ناصر بن سعد الرشيد .
هو مطبوع بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعرفة بيروت .
(٣) وهو مطبوع أيضاً . بدون تحقيق . نشر دار الفكر بيروت .
(٤) أمثال القرآن الكريم وأثرها على الأدب العربي الى القرن الثالث الهجري
ص ١٠٩ .
(٥) كشف الظنون ٢ / ٢٢٠ .

ط - جهود المحدثين في دراسة أمثال القرآن

لقد اهتم أيضاً الباحثون المحدثون بدراسة هذا الموضوع لمكانته وأهميته ، ولعلَّ أهم ما تمكنا من معرفته هي الدراسات الآتية :-

١ - (ف - يول) عالج أمثال القرآن في مقال قصير عن التشبيه والتمثيل في القرآن الكريم ، عام ١٩٢٤ م ولم يتعرض فيها لنظريات المفسرين والبلاغيين (١) .

٢ - أحمد بن عبد الله الكوركتاني النجفي (م سنة ١٣٢٧ هـ) في كتابه (روضة الأمثال) . (٢)

٣ - أمين الخولي في (محاضرات في أمثال القرآن) أملاها على طلاب الدراسات العليا بجامعة القاهرة (٣) .

٤ - علي أصغر حكمت في كتابه (أمثال القرآن في اللغة الفارسية) وقد طبع في طهران عام ١٩٥٥ م (٤) .

٥ - الدكتور عبد المجيد عابدين في كتابه الأمثال في النثر العربي القديم (رسالة دكتوراه - تناول فيها دراسة المثل القرآني بما لا يزيد عن عشر صفحات وقد طبع عام ١٩٥٩ م) (٥) .

٦ - نور الحق تنويري في (أمثال القرآن وأثرها في الأدب العربي إلى نهاية القرن الثالث الهجري . رسالة ماجستير قدمت إلى كلية دار العلوم عام ١٩٦٣ م) .

٧ - الدكتور محمود بن الشريف في كتابه (للأمثال في القرآن) قام فيه بالحديث الأدبي عن بعض الأمثال القرآنية (٦) وقد طبع عام ١٩٦٥ م .

-
- (١) الأمثال العربية القديمة . زلهام ص ٣٦ .
(٢) الدررعة إلى تصانيف الشيعة . أقابزرك الطهراني ٢٨٨/١١ (عن كتاب الصورة الفنية في المثل القرآني) د . محمد الصفيح - (وقد ذكر المؤلف أن لكتاب (روضة الأمثال) نسخه خطيه وحده في مكتبة الشيخ محمد الشيخ راضي في النجف .
(٣) الأمثال في القرآن الكريم - محمد جابر الفياض - المقدمه .
(٤) الأمثال العربية القديمة . ص ٣٦ .
(٥) طبع بدار مصر للطباعة . القاهرة .
(٦) سلسلة اقرأ دار المعارف .

٨ - محمد طاهر الموسوي في كتابه (الأمثال في القرآن) وهو عبارة عن سرد تطييدي (١)

لبعض الأمثال وشروحها بما لا يتجاوز المائة صفحة وقد طبع عام ١٩٦٦ م .

٩ - محمد جابر الفياض في (الأمثال في القرآن الكريم) رسالة مقدمه الى كلية

الآداب جامعة عين شمس عام ١٩٦٨ لدرجة الماجستير في الأدب (٢) .

١٠ - عبد الرحمن محمود عبد الله في (المثل في القرآن والكتاب المقدس) رسالته (٣)

قدّمت الى كلية الآداب جامعة بغداد لدرجة الماجستير في الأدب عام

١٩٧١ م .

١١ - منصور العبدلي . في (أمثال القرآن) رسالة مقدمه الى كلية الشريعة

والدراسات الإسلامية جامعة أم القرى بمكة المكرمة لدرجة الماجستير عام ١٩٧٤ م .

١٢ - الشيخ عبد الرحمن حبيّكه الميداني في (الأمثال القرآنية) (٤) عام

١٩٧٩ م .

١٣ - محمد حسين علي الصغير في (الصورة الفنية في المثل القرآني) (٥) رساله

مقدمه الى كلية الفقه . النجف الأشرف لدرجة الدكتوراه عام ١٩٨١ م .

١٤ - الشيخ أحمد كامل الخضري في (من أمثال القرآن الكريم) وهي سلسلة

مقالات نُشرت في مجلة منبر الإسلام المصريه (٦) .

(١) طبع بمطبعة القرى . النجف الأشرف .

(٢) مضمومة على الآله الكاتبه . مكتبة الدراسات العليا . جامعة عين شمس
القاهرة .

(٣) مكتبة الدراسات العليا . جامعة بغداد .

(٤) نشر دار القلم . بيروت .

(٥) وهي مطبوعة من منشورات دار الرشيد - العراق .

(٦) اصدار المجلس الأعلى للشئون الاسلاميه . القاهرة .

ي - أنواع الأمثال

ذكر الباحثون (١) أن الأمثال على ثلاثة أنواع :-

١ - المثل الموجز السائر :- وهو إما شعبي لا تعمل فيه ولا تكلف ، ولا تقيد بقواعد النحو ، واما كتابي صادر عن ذوي الثقافات العاليه كالشعراء والخطباء وذلك كقولهم :-

(رَبَّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رِيثًا) (٢) أو قولهم :-

(كالمستجير من الرمضاء بالنار) أو (كالمستغيث من الرمضاء بالنار) (٣)

٢ - المثل القياسي :- وهو سرد وصفي قصصي أو صورة بيانيه لتوضيح فكرة ما عن طريق التشبيه والتشثيل وبسميه البلاغيون التمثيل المركب : فهو عبارة عن تشبيه شيء بشيء ولتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الآخر أو اعتبار أحدهما بالآخر لغرض التأديب أو التهذيب أو التوضيح والتصوير ، وهذا النوع فيه إطناب اذا قورن بسابقه ويجمع بين عمق الفكرة وجمال التصوير (٤) .

٣ - المثل الخرافي :- وهو حكاية ذات مغزى على لسان غير الإنسان لغرض تعليمي

أو فكاهي وماشابه ذلك كقولهم :- (أَكَلْتُ يَوْمَ أَكَلُ الثَّوْرَ الْبَيْضَ) .

الفرق بين النوعين (القياسي . الخرافي) :- بيد و الفرق بين المثل الخرافي والمثل

القياسي أن الأول تُنسب الأحاسيس الإنسانية فيه إلى غير الإنسان من حيوان أو طير وغيرهما بينما إذا استخدمت الحيوانات في المثل القياسي لاتعد وأن تكون

(١) أمثال القرآن وأثرها في الأدب العربي إلى القرن الثالث الهجري ص ٢٢ - ٣٤ .

(٢) مجمع الأمثال ٣٦ / ٢ .

(٣) نفسه ٣٤ / ٣ .

(٤) الأمثال في القرآن الكريم . لابن القيم . ص ٢٠ (بتصرف) . كأمثال لباب الأول

هذا البحث .

مجرد توضيح للفكرة . دون أن تتعدى القوانين التي يخضع لها نوعها .
ويرمز المثل الخرافي إلى الأشياء، أي يقال شبيء، ويقصد به شيء آخر .
أما القياسي فيراد به الأشياء التي ذكرت فيه لتوضيح الفكرة عن طريق التشبيه
والتَّمثِيل (١) .

ك - بين المثل والتَّمثِيل (التشبيه التَّمثِيلِي)

أرى أن نستأنس هنا ببعض الآراء البلاغية في الفرق بين المثل والتَّمثِيل أو بين
التَّشْبِيهِ والتَّشْبِيهِ التَّمثِيلِي لِأَنَّ مُعْظَمَ أمثال القرآن هي من النوع الثاني ، ولا يتسنى
لنا معرفة هذا النوع ان لم نُشِرْ ولو بإيجاز إلى النوع الأول وهو الأُصْل - لنعرّف
الفرق بينهما .

- ١ - فمن المعروف أنَّ التَّشْبِيهِ له أركانٌ أربعة وهي :-
المشبه ، والمشبه به ، وهما طرفا التَّشْبِيهِ ، ووجه الشبه والأداة (أداة التَّشْبِيهِ) .
- ٢ - وينقسم بعد ذلك التَّشْبِيهِ باعتبار وجه الشبه إلى قسمين :-
 - أ - تشبيه غير تمثيل (التشبيه) .
 - ب - تشبيه تمثيلي (التَّمثِيل) .

فللتَّشْبِيهِ إطلاقان ، إطلاق بالمعنى العام الذي ينقسم إلى القسمين وإطلاق بالمعنى
الخاص ، الذي يُقَابِلُ التَّمثِيل .

فالتَّشْبِيهِ بالمعنى العام ، أعم من التَّمثِيل مُطْلَقاً (٢) والتَّمثِيل أَخْصُّ مِنْهُ مُطْلَقاً
لأنَّه قسم منه ، وطى ذلك يكون كل تمثيل تشبيهاً وليس كل تشبيه تمثيلاً . (٣)
وكثيراً ما يطلق الشيخ عبد القاهر التَّشْبِيهِ ويريد به ماقابل التَّمثِيل كقوله : فأنت
تقول في قول الشاعر :-

وقد لآح في الصبح الثريا لمن رأى
كعنقود ملاحية حين نُورًا .
إنه تشبيه ولا تقول إنه تمثيل (٤)

(١) الأمثال في القرآن الكريم ، لابن القيم ص ٢٠ (بتصرف) .
(٢) علم البيان . د . يوسف البيوي ص ١٠ ط ١٩٧١ م (بتصرف) .
(٣) نفسه ص ١٠ .
(٤) نفسه ص ١٠ .

٣ - بعض الآراء البلاغية في هذا التقسيم : - لقد بينا سابقاً (١) أن سبب التقسيم

إلى تشبيه وتمثيل راجع إلى وجه الشبه باتفاق علماء البيان .
إلا أن كل واحد منهم كان له رأي في ذلك ولنعرض هنا بعض هذه الآراء :-

أ - رأي الشيخ عبد القاهر الجرجاني :- لقد ذهب الشيخ عبد القاهر إلى أن

التشبيه التمثيلي يكون في وجه الشبه العقلي غير الحقيقي أي غير المتقرر في ذات الموصوف كقولهم :-

(حجة كالشمس في الظهور) .

فالواضح هنا أن وجه الشبه فيه يحتاج إلى تأويل في الشبه وهو (الحجة)

لأنها شيء عقلي لا يدرك بالحس ، فلا بد هنا من إيراد لازم الظهور وهو عدم وجود المانع من الإدراك مطلقاً وهذا هو وجه الشبه في الحقيقة وهو عقلي غير حقيقي .

وبهذا يكون رأي الشيخ في التشبيه التمثيلي هو ما كان وجه الشبه فيه

متأولاً وليس بيناً ظاهراً (٢) كما في قولنا: شعرها ليلٌ مثلاً .

وبذلك يجب أن لا يقع الاشتراك بين الطرفين في الصفه نفسها بل في لازمها ومقتضاها ، وهذا يتحقق في التشبيه ذي الوجه العقلي غير الغرزي كما قيل :-

(كلامٌ كالعسل في الحلاوة)

فالحلاوة موجودة على الحقيقة في العسل ولكنها غير موجودة في الكلام حقيقة

وإنما المراد لازم هذه الحلاوة ومقتضاها وهي استطابة النفس وراحتها .

وبهذا التأويل يمكن أن يُشارك اللفظ العسل وتصبح هذه الصفه المتأوله

موجودة في الطرفين فكلاهما تستطيبه النفس وترتاح إليه .

(١) فضلاً راجع ص ٣٤ من هذا البحث .

(٢) أسرار البلاغه . عبد القاهر الجرجاني ١/٢٠٣ ط ٢ سنة ١٩٧٦ .

وهكذا كل ما كان وجه الشبه حاصلًا بضرب من التأول سواءً أكان مركباً أم مفرداً
يكون تشبيهاً تمثلياً عند الشيخ عبد القاهر .

ب - رأي السكاكي :- لقد جاء السكاكي بعد الشيخ عبد القاهر فقسم الوجه إلى
حسيٍّ وعقليٍّ حقيقيٍّ وهو الكيفيات النفسية وعقليٍّ غير حقيقيٍّ وهي ما عداهما .
ولكنه خالفه في الفرق بين التشبيه التمثيليِّ وغير التمثيليِّ (١) والتشبيه
التمثيليِّ عند السكاكي هو :-

ما كان وجه الشبه فيه عقلياً غير غرزيٍّ وكان مع ذلك مركباً . أما ما عدا ذلك فليس
من التشبيه التمثيليِّ في شيء .
وبذلك يكون قول الله تعالى :-

• مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَاتِ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا • (٣)

تشبيهاً تمثلياً عند السكاكي ، لأن وجه الشبه فيه عقليٍّ غير غرزيٍّ مركباً ،
وهو حرمان الانتفاع بأبلغ نافع من تحمل التعب والمشقة .

ج - رأي الخطيب القزويني :- لقد جعل الخطيب القزويني عماد الفرق بين
الضريين ، التركيب في الوجه وعدمه ، فما كان وجهه مركباً فهو تمثيليٍّ ، حسيّاً
كان أم عقليّاً ، وما كان مفرداً فهو غير تمثيليٍّ حسيّاً كان أم عقليّاً .
فقول الشاعر :-

وكان النجوم بين دُجَاهَا سنن لآح بينهن ابتداع

تشبيه تمثيليٍّ . لأن وجه الشبه فيه هو الهيئة الحاصلة من حصول أشياء مشرقه
بيض في جوانب شتيٍّ ومظلم أسود فشبه النجوم ما بين الدجاجي بالسنن ما بين
الابتداع في ذلك (٤)

(١) علم البيان . د . يوسف البيومي . ص ١٧ بتصرف .

(٢) نفسه ص ١٧ .

(٣) سورة الجمعة ه .

(٤) الايضاح . الخطيب القزويني . شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي ١٣٥ / ٤

تح . محمد عبد المنعم خفاجي ط ١٩٥٠ م .

د - رأى الجمهور :- إن التمثيل ما كان وجه الشبه فيه هيئة حاصله منتزعة من

متعدد سواء كان :-

الوجه حسياً ، والطرفان :-

أ - مركبين مثل :-

كَانَ مَسَارَ النَّعْجِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا * * * وَأَسْيَافِنَا لَيْلَ تَهَاوَى كَوَاكِبَهُ .
ب - أو مركباً ومفرداً مثل :-

يَا صَاحِبِيَّ تَقْضِيَا نَظْرِيكُمَا * * * تَرِيَا وَجُوهَ الْأَرْضِ كَيْفَ تَصَوَّرُ
تَرِيَا نَهَاراً مُشِيساً قَدْ شَابَهُ * * * زَهْرُ الرَّيَّا فَكُنَّا هُوَ مَقْبِرُ
ج - أو مفرداً ومركباً مثل :-

وَكَانَ مَحْمَرٌ الشَّقِيْب * * * حَقِّ إِذَا تَصَوَّبَ أَوْ تَصَعَّدَ
أَعْلَامٌ يُاقُوتٍ نَشِير * * * نَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبْرَجِد
د - أو مفردين مثل :-

وَقَدْ لَاحَ فِي الصَّبْحِ الثَّرِيَا كَمَا تَرِي * * * كَعُنُقُودٍ مَلَا حِيَةَ حِينَ نُورَا

أو كان الوجه عقلياً (١) مثل قوله تعالى :-

" مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا "

هـ - أما رأى الزمخشري وطماء اللُّغة :- فخلاصته :-

ان التمثيل والتشبيه مترادفان فكل تمثيل تشبيه وبالعكس . (٢)

(١) الإيضاح في علوم البلاغة . ١٣٩/٤ .

(٢) نفسه - ١٣٨/٤

ل - أمثال القرآن الكريم

إِنَّ أَوَّلَ مَا يَلَاظُ عَلَى أَمْثَالِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَنَّ مِنْهَا الْمَائِيَّ وَمِنْهَا النَّارِيَّ ، وَقَدْ تَجَمَّعَ هَاتَانِ الصِّفَتَانِ فِي أَكْثَرِ مِثْلِ (١) .

أنواع الأمثال في القرآن :- لقد ذكر السيوطي نوعين (٢) من أنواع الأمثال في القرآن الكريم ثم أعقبها بنوع ثالث نقله عن جعفر بن شمس الخلافة في كتابه الآداب وهي :-

أ - الأمثال المصْرحة :- وهي التي صرّح فيها بلفظ المثل أو ما وجد فيها التشبيه

واضحاً (٣) كقوله تعالى في شأن المنافقين :-

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ، صَمَّ بَكُمْ عَيْي فَمَهْم لَا يَرْجِعُونَ ، أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَيَبْرَقُ يُجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ . (٤)

فنلاحظ في المثل السابق كيف اجتمعت الصفتان ، النارية في قوله تعالى :- (كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا . . .) لما في النار من مادة النور والصفه المائيه في قوله تعالى :-

(أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ . . .) لما في الماء من مادة الحياة كذلك نلاحظ

فيها التصريح بكلمة التمثيل في قوله :-

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ . . .)

(١) سورة البقرة آية رقم ١٧ - ١٩ كذلك سورة الرعد آية رقم ١٧ كذلك سورة النور ٣٥ .

(٢) الاتقان . السيوطي ١٣٢/٢ .

(٣) مباحث في علوم القرآن . مناع قطان ٢٨٤ بتصرف ط ٤ سنة ١٩٧٦ م .

(٤) سورة البقرة آية ١٧ - ١٩ .

ب - الأمثال الكامنة :- (١) وهي التي لا ذكر للفظ المثل فيها وإنما تدلُّ على معانٍ

رائعة في إيجاز يكون لها . وقعها إذا نُقلت إلى ما يشبهها (٢)

وهي التي يقول فيها الزركشي :-

(كما جاء ذلك تصريحاً فقد جاء مطوياً ذكره على طريق الاستعارة) (٣)

قال تعالى :-

« وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شْرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ » . (٤)

ونستطيع أن نضيف هنا أن الأمثال الكامنة في القرآن قد تأتي على سبيل التشبيه

أو الاستعارة أو الكناية أيضا كقوله تعالى :-

(وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُوبَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبُسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا » (٥)

أما النوع الثالث الذي نقله السيوطي عن جعفر بن شمس الخلافة في

كتابه الآداب فهو :-

ج - الأمثال المرسلة :- وهي التي يُقال عنها ألفاظ من القرآن جارية مجرى الأمثال

ويقول عنها السيوطي :-

(وهذا من النوع البديعي المسمى بإرسال المثل) (٦)

فهى عبارة عن آيات أرسلت إرسالا يمكن أن نُجربها مجرى الأمثال ودليل ذلك أننا

نستطيع أن نأتى في بعضها بما يقابلها من كلام البشر مع فارق الجلال والجمال

بين القولين من غير شك .

مثال ذلك قوله تعالى :-

« قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ » (٧)

(١) الإيتقان . السيوطي ٢٠٠ / ١٣٢ .

(٢) مباحث في علوم القرآن د . مناع قطان ص ٢٨٥ .

(٣) البرهان في علوم القرآن . الزركشي ج ١ ، ص ٤٩٢ .

(٤) سورة فاطر ، ١٢ .

(٥) الإسراء ، ٢٩ .

(٦) الإيتقان . السيوطي ج ٢ ، ص ١٣٣ .

(٧) يوسف ، ٤١ .

ويوافقها قولهم : (سبق السيف العذل) (١) .

” أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ” (٢) .

ويوافقها قول الشاعر ” وَإِنَّ غَدًا لَنَاظِرُهُ قَرِيبٌ ” (٣)

ولتوضيح هذه الأنواع سيتناول كل باب من أبواب هذه الرسالة كل نوع على حده

مع محاولة اجمال معناها ودراستها بيانياً باذن الله تعالى .

” وَمَاتُفِيقِي الْإِلَهَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ” ،،،،،

(١) التَّمْثِيلُ وَالْمَحَاضِرَةُ ، أَبُو مَنْصُورٍ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الثَّقَالِيفِيِّ تَسْحَ .

عَبْدُ الْفَتَّاحِ مُحَمَّدُ الْحَلُوطِيُّ سَنَةَ ٩٦١ م ، دَارُ إِحْيَاءِ الْكُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ ، الْقَاهِرَةُ .

(٢) سُورَةُ هُودٍ ، ٨١ .

(٣) التَّمْثِيلُ وَالْمَحَاضِرَةُ ١٦ .

الباب الأول

الأشغال المصرفة

١ - الأمثال المصَّرحَة

التمهيد :-

قد ذكرنا سابقاً (١) أن المقصود بالأمثال المصَّرحَة ، هي التي صُحَّ فيها بلفظ المثل ، أو ما وجد فيها التشبيه واضحاً .

وستناول - هنا - بعضاً منها بالدراسة والتحليل البياني ان شاء الله تعالى .

١ قال تعالى :-

مِثْلَهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ، صُمُّكُمْ عَنِ قَوْلِهِمْ لَا يُرْجِعُونَ ، أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كَمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوَاهُ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (٢)

أ - المعنى العام :-

لقد ورد عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في المنافقين الذين مثل نفاقهم برجل تائه في مفازة مظلمة فأشعل ناراً ليستضي بها ويستبين الطريق أمامه فلما اطمان إلى رؤية ما حوله بفضل ذلك الضوء طفت ناره وبقي في ظلمة ظلماً وتفوق ما كانت عليه سابقاً ، فأصابه الخوف والجزع وأصبح متخبطاً تائهاً لا يلوي على شيء ، أمامه أو حوله ، لأنه انتقل من نور إلى ظلام لم يحسب له حساباً (٣) ، كذلك حال المنافقين الذين أظهروا كلمة الإيمان فأمنوا بها على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وناكحوا المسلمين وقاسموهم الغنائم ، فكان ذلك لهم نوراً في الدنيا ، حتى إذا ماتوا ظهرت حقيقتهم

(١) فضلاً راجع ص ٣٨ من هذا البحث .

(٢) سورة البقرة ١٧ - ٢٠ .

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن . الطبري ١ / ١٤١ . ط ٣ سنة ١٩٦٨ م

(بتصرف) .

واضحة جلية أمام المولى سبحانه ولم يُغْنِ عنهم ذلك التستر شيئاً ، وكيف تخفى حقائقهم على سميع عليم يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ؟ ! .

وبظهور تلك الحقيقة يذهب الله بنورهم ويتركهم مترددين حائرين ، كالفاقد سبل المعرفة والإدراك الثلاثة ، السمع والنطق والفؤاد ، وعندها . . . يتمنون الرجعة . للتكفير عن أخطائهم وذنوبهم ولكن هيهات هيهات . (١) .

ولم يكنف السياق بهذا لإظهار حقيقة المنافقين ومدى حيرتهم وتخبطهم بل رسم الصورة حية متحركة تغيّر بالمعاني النفسية والوجدانية المصاحبة لتلك الحيرة ، فيمثل حالهم هذه بحال جماعة كانوا في مغازة حالكة الظلمة بل في ظلمات متعددة ظلمة الليل وظلمة المطر وظلمة السحاب المتراكم حتى جعلت الساري فيها لا يستبين طريقه ولا يعلم اتجاهه ثم أضاف الى تلك الظلمة أو الظلمات عاملاً آخرًا ليزيد في حيرة القوم وتخبطهم ووعبهم وهو صوت الرعد المخيف الذي لا يطرك معه السامع إلا أن يصدّ سمعه بأصابعه خوفاً ودُعراً من أن يصيبه ضرر منه كالموت مثلاً . أضاف إلى ذلك ما يراه ذلك المتخبّط من برق لامع في السماء من شأنه خطف الأبصار وإصابتها بالعمى لشدّته .

فالمقصود بالمطر هنا - والله أعلم - القرآن وما فيه من حياة للقلوب الصاعية

له العاملة بما فيه .

أما الظلمات ، فهي ما أشار إليه القرآن من ذكر الكفر والشرك والنفاق . والرعد ما خوفوا به من الوعيد ، وذكر النار والبرق ما فيه من الهدى والبيان والوعد وذكر الجنة .

فالكافرون والمنافقون ، يسدون آذانهم عند سماع القرآن وتلاوته مخافة أن يؤثّر في قلوبهم ويسوقهم إلى الإيمان ، لأن الإيمان به عندهم كفر .

(١) لِيَابِ التَّأْوِيلِ فِي مَعَانِي التَّنْزِيلِ . الْخَازِنُ ١/٣٦ ط ٢٠ سنة ١٩٥٥ م ،

(بتصرف) .

وقيل إنَّ المقصود بالمطر هو الإسلام وما فيه من محن ووعيد في الآخرة والبرق ما فيه من الوعد ، فإذا رأى المنافقون ما في هذا الإسلام من المحن هربوا كحذراً من الهلاك ، ولكن لن ينفعهم ذلك هنا لأنَّ الله سبحانه وتعالى عالم بهم محيط بحالهم يعلم ما تخفي نفوسهم . . . من إظهار الإيمان عند الغثيمة والراححة ثم إخفائهم ذلك عند البلاء والشدة ، ولو شاء الله لأهلكهم وأذهب سمعهم بالرعد وأبصارهم بالبرق ، وقيل لو شاء الله لأذهب سمعهم وأبصارهم الظاهره كما أذهب بصيرتهم وتعقلهم لأنَّه قادر على كل شيء ، ولا ينازعه أحد في ملكه سبحانه وهو أعلم بحكمته في ذلك (١) .

ب - مناسبة المثل في السياق :- إذا أردنا أن نتحدث عن مناسبة المثل للسياق ، فلا بدَّ لنا أن نعود قليلاً إلى الآيات السابقات له ثم إلى الآيات اللاحقات به . . . فنرى كيف ناسب هذا المثل ما قبله وما بعده من آيات .

فبالنسبة إلى الآيات السابقات له نرى أنها تحدت في بداية السورة عن المؤمنين وشأنهم من حيث إيمانهم بالغيب والرسل وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة وإيمانهم بالغيب والآخرة . . . إلى آخر ما في القرآن من أوامر عليهم اتباعها ونواها يجب اجتنابها . (٢)

ثم أعقب ذلك ببيان حال الكفار وما هم عليه من تفریط في حقوق الله وواجباتهم تجاه بارئهم ومدى تركهم لهذه الأوامر الإلهية (٣) ثم تحدت السياق عن المنافقين ومراوغتهم في إخفاء ما في نفوسهم من نفاق وكذب (٤) فكانت الحاجة - لذلك - ماسة إلى إيضاح هذا الموقف العقلي المجرد بطريقة حسية جلية تمحو الإبهام وتكشف الغموض لتأنس النفس إلى فهمه وتصوره مهما دنا مستوى فهم ذلك السامع وتصوره مع ملاحظة أن عناصر هذين المثليين مأخوذة من الواقع والطبيعة المحيطة بالمخاطب لقربها من نفسه وفهمه .

(١) لِبَابِ التَّأْوِيلِ فِي مَعَانِي التَّنْزِيلِ . الْخَازِنُ ، ٣٧/١ ، ٣٨ (بِتَصْرَفٍ) . كَذَلِكَ تَفْسِيرُ ابْنِ جُزَيْيٍ . أَشْرَفَ عَلَيْهِ لَجْنَةُ تَحْقِيقِ التَّرَاثُكِ بِدَارِ الْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ ص ١٦ - ١٧ (بِتَصْرَفٍ) ط سنة ١٩٨٣ م .

(٢) سورة البقرة ، ١ - ٥ .

(٣) سورة البقرة ، ٦ - ٧ .

(٤) سورة البقرة ، ٨ - ٢٠ .

أما بالنظرة إلى الآيات اللاحقات لهذين المثليين فنلاحظ أنها دعت الناس جميعاً لتشمل هذه اللفظة (الناس) المنافقين الذين ضرب لهم المثل والكفار والمؤمنين والمسلمين ، نقول دعت الآية الناس والأقوام جميعاً السابقين واللاحقين إلى عبادة ذلك الرب الذي سخر ما سخر من آيات لتوفير الراحة للإنسان وتحقيق المتاع لحياته ولتكون عبرة يتمثلها دائماً أن الله تعالى الذي له وحده الخلق والأمر لا شريك له ولكن هيئات أن تؤخذ العبرة - مع علمهم بها . وهيئات أن يؤمن الكفار وفيهم المنافقون ، بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، بينما الشك يملأ نفوسهم ويطمس بصيرتهم عن رؤية الحقيقه أو التصديق بالبرهان الواضح على نبوته صلى الله عليه وسلم ؛ لذا دعاهم القرآن الكريم إلى محاولة الإتيان ولو بسورة من مثله فإذا علم عجزهم عن ذلك وهم على ما هم عليه من التثوق في الفصاحة والبيان وتأكدوا من عجزهم ذهب عنهم الشك في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وثبتت معجزته الدالة على تلك النبوة وإلا كان حالهم إلى النار التي لا مفر للكافرين منها (١) أما المؤمنون فكانت البشرية لهم صريحة واضحة بجنات متصله خيراتها وأنهار متدفقة ماؤها وأزواج دائم طهرها (٢)

وهكذا نلاحظ كيف ارتبط المثان السابقان بما جاء بعدهما من آيات تدعو الناس إلى إخلاص العبادة لله والتصديق برسوله الكريم والوعيد الشديد لمن يكفر بما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم ، لأنه الدليل القاطع على نبوته صلى الله عليه وسلم . ثم البشرية لمن أتبع هذا ، وسار على نهج القوم ثم التأكيد على أن ضرب الأمثال في القرآن لن يتركه القرآن ولو دعا ذلك إلى ضربه بالبعوضه أو ما هو أحقر منها فلا داعي لاستهزاء المنافقين ودهشنتهم من ضرب المثليين السابقين (٣)

(١) سورة البقره ، ٢١ - ٢٤ .

(٢) سورة البقره ، ٢٥ .

(٣) سورة البقره ، ٢٦ .

ح - العبرة من هذا المثل :- لا شك أنَّ من طبائع الأمثال كما عرضنا سابقاً (١) إبراز المعقول في صورة المحسوس لتكون الصورة أدعى إلى الإنذار والوعيد - إن كان الغرض منها إنذاراً أو وعيداً - أو لتكون أدعى إلى قبول البشري والوعيد إن كان الغرض منها ذلك .

ولما كان المقام مقام وعيد وتخويف ، كان ضرب المثل هنا أقوى في أخذ العبرة والعظة منه حتى تكون هذه الصورة الموضحة لحال المنافقين في الآخرة منفرة وراعية عن التخلق بهذا الخلق السيئ الذي ليست له عاقبته سوى الحيرة والضياح والندم حيث لا ينفع ذلك .

.. ..

(١) فضلاً راجع ص ١٧ من هذا البحث .

د - دراسة المثل وتحليله بيانياً . من الملاحظ أولاً أَنَّ الآيات السَّابِقَاتِ اشتملت

على مثلين :-

أولهما نارِيّ لمافي النَّارِ من مادَّة النَّورِ والوضوح والآخر مائيّ لمافي المَاءِ من مادَّة الحياة والحركة .

أما نوع هذا التَّشْبِيهِ فهو تمثيلي (١) - كما يبدو - ليس ذلك لمجرد تصريحه بلفظ المثل في أول الآية ، وإنما لأننا نلاحظ مافي السَّيَاقِ من تشبيهه صورة بصورة أو مجموعة أشياء ويقابلها مجموعة أخرى ولا يصحُّ تجزئة عناصر كلِّ صورة وتشبيهها بما يقابلها .

كذلك نلاحظ أَنَّ وجه الشَّبه أيضاً قد جاء هيئةً حاصلةً من عدَّة أمور ، أمَّا إذا أحببنا أن نُجْري التَّشْبِيهِ ونوضِّح هذَيْنِ الطَّرْفَيْنِ المَرْكَبَيْنِ وهيئةً وجه الشَّبه والأداة لأدركناها جميعاً . وبهذا يُمكننا أن نقول في إجراء التَّشْبِيهِ :-

شُبِّهتْ حالُ المَنَافِقِينَ فِي تَرَدُّدِهِمْ وَحَيْرَتِهِمْ وَضِياعِهِمْ وَشِدَّةِ الأَمْرِ عَلَيْهِمْ بحال من انطفأت ناره بعد إيقادها في ظلمة الليل وكذلك شُبِّهَ بحال من أخذته السَّمَاؤُ فِي لَيْلَةٍ مُظْلَمَةٍ فِيهَا رَعْدٌ قَاصِفٌ وَبَرْقٌ خَاطِفٌ وَخَوْفٌ شَدِيدٌ من الصَّوَاقِقِ .

أما وجه الشَّبه فهو : الهيئةُ الحاصلةُ من عدَّة أمورٍ مُجْتَمِعَةٍ يَتَّبِعُهَا حيرةٌ وَضِياعٌ وَتَخْبِطٌ وَنَدَمٌ فِي ظُلْمَةٍ حَالِكَةٍ .

وهكذا نلاحظ - أنه لا يصحُّ تجزئة تلك الصُّورِ والهيئاتِ إلى أجزاءٍ متعدِّدةٍ بحيثُ يجدُ كلُّ منها ما يشبِّهه لأننا إن فعلنا ذلك أفقدنا الصُّورةَ جمالها وحيويتها التي جاؤت عليها .

(١) فضلاً راجع ص ٣٥، ٣٦ من هذا البحث . فقد عرضنا بعض الآراء في هذا التَّشْبِيهِ .

ثمَّ كان من البلاغة أن يُفتَح المثل الثاني بالظلمات إذ جاء في الآية :-

(أَوْ كُصِبَ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ) الآية

وذلك لأن الآية الأولى اختتمت بالحديث عن الظلام فكان من المناسب بل من البلاغة أن تناسب بداية الآية اللاحقة ، نهاية الآية السابقة لذا أُخِرَت الصورة الثانية عن الأولى في السياق .

هذا من ناحية الصور البيانية في المثليين ، ولكن ماذا عن هذه الآيات من حيث

الألفاظ ومدى البلاغة في نظم كل منها إلى جوار الأخرى ؟ نلاحظ في قوله تعالى :-

" مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ " .

أول ما نلاحظه هو اسم الموصول (الذي) مع أن الحديث عن الجماعة في الباقي

فماذا في ذلك ؟ :

قد قيل إنه يصح أن يتحدث بضمير المفرد ويقصد به الجماعة فاستعمل

(الذي) مكان الذين كقوله : " وَخَضَّمْتُ كَالَّذِي خَاضُوا " . (١)

وقيل شُبِّهَتْ قِصَّتُهُمْ بِقِصَّةِ الْمَسْتُوقِدِ كقوله تعالى :-

" مَثَلُ الَّذِينَ حَمَلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا " (٢)

وقوله :- " يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظْرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ " (٣) .

ونقول هنا إنه قد جاء في السياق (الذي) مع كون الحديث عن الجماعة

لأنه من الملاحظ أنه وإن كان هناك جماعة معينة تريد أن تُشعل نارا فلن يقوم

الجميع بهذه المهمة وإنما الذي سيقوم بها شخص واحد ، ولذا كان من البلاغة

أن يُقال (الذي) موضع الذين لأن الذي يوقد النار هو واحد على الحقيقة وليس

الجماعة كلها .

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل . أبو البركات النسفي ٢٥ / ١ ، دار الفكر

(بتصرف) ، كذلك الكشاف ١٩٦ / ١ . (بتصرف)

(٢) سورة الجمعة ٥ .

(٣) سورة محمد ٢٠ .

أما قوله (استوقد) بمعنى أوقد أو طلب الإيقاد كما هو الأصل فـ
(استفعل) (١) ومعنى ذلك ارتفاع لهيها وسطوعها . (٢) أما قوله (ناراً)
فهى الجوهر الحار المحرق - كما نعرف - وقد أخذ من نارينور ، اذا نقر
لأن فيها حركة واضطراباً ، وقد جاءت هنا بصيغة النكرة للتفخيم (٣) .
ثم قال تعالى (ذهب الله بنورهم) ولم تأت الآية (ذهب نورهم) فنلاحظ
أن (ذهب) هنا عدت بالباء ، وهو سرّ بديع كما يقول ابن القيم (وهو انقطاع
تلك المعية التي هي للمؤمنين من الله تعالى فإن الله تعالى مع المؤمنين) (٤)
وقد قال تعالى :-

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) (٥)

وذهب الله سبحانه وتعالى بذلك النور يعنى انقطاع تلك المعية الإلهية
عنهم التي خص الله بها أوليائه والتي نلمسها في قوله تعالى :-
(إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هُمَا فِي
الْفَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيْدِيَهُمْ جُنُودٌ
لَمْ تُرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى . وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (٦)
ثم يؤكد العلامة ابن القيم على هذا بقوله :-

(وتأمل قوله تعالى (أضاءت ماحوله) كيف جعل ضوءها خارجاً عنه
منفصلاً ولو اتصل ضوءها به ولابسها لم يذهب ، ولكنه كان ضوءاً مجاورة لا ملابسة
ومخالطة) . (٧)

-
- (١) تفسير ابن جزى . ص ١٢٠ .
 - (٢) إرشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم ٥٠ / ١ .
 - (٣) نفسته . ٥٠ / ١ .
 - (٤) التفسير القيم . لابن القيم . ص ١١٥ اجمع محمد المنوي . مع محمد العفي . لجنة التراث العربي . بيروت .
 - (٥) سورة النحل ، ١٢٨ .
 - (٦) سورة التوبة ، ٤٠ .
 - (٧) التفسير القيم . ص ١١٦ .

وبهذا يرى بن القيم بقوله ذلك أن هذه حكمة بالغة في السِّيَاق لَأَنَّ الضُّورَ هُنَا كَانَ عَارِضاً أَمَا الظُّلْمَةُ فَهِيَ أَصْلِيَّةٌ وَعِنْدَمَا انفصل كلُّ واحدٍ منهما عن الآخر رجع كلٌّ إلى أصله وجوهره .

ثم لتأمل الآية مرةً أخرى فنرى قوله (بنورهم) - مرةً أخرى - إن نلاحظ استعمال لفظ (النور) ولم تستعمل لفظ (بضوئهم) - مثلاً - لتكون هناك مناسبة بين قوله تعالى (فلما أضاءت) السابقة عليها .

والبلاغة في هذا الاستعمال هي أن الإضاءة تعني فرط الضوء وشدته أما النور فهو جزء من هذه الإضاءة فلو جاز في الآية ذهب (بضوئهم) لظن السامع أنه بقي بعد هذا الضوء الشديد شيء من النور يُضيء لهم الطريق .

لذا كان استعمال (بنورهم) هنا أبلغ من (ضوئهم) أي انه لم يترك لهم ولا قدر ضئيل من النور ، الذي قد يتبادر إلى ذهن السامع عندما يقال (بضوئهم) ودليل ذلك ما أعقبها وهو :- قوله (وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ) .

فالظلمة تعني انطفاء النور وانطامسه ، وإلى جانب هذا المعنى في المفرد فقد جاء السِّيَاق بجمعها وتنكيرها (ظُلُمَاتٍ) ليدل على أنها ظلمات مبهممة لا يتراعى فيها شبحان (١) والتنكير هنا أيضا للتفخيم والتهويل .

وما يؤكّد ذلك ما جاء أيضا في السِّيَاق بعده إن يقول (لا يبصرون) فلم تكتف الآية بما يتوقعه السامع في هذه الظلمات بل تتبعها بالنفي التام لذلك الإبصار ونلاحظ مجيئ (لا يبصرون) بدلا من (لا يرون) لأنها على ما اعتقد أبلغ في مناسبتها للسِّيَاق إن أنه يتحدث عن المثل الذي ضرب للمنافقين وهؤلاء لا يفقدون الرؤية الحسيّة بنفاقهم بل هم فاقدون بصيرتهم المعنوية التي لو لم يحرموا منها ما كان هذا شأنهم وتلك نهايتهم بدليل ما أجده عرضاً بعد

(١) الكشاف ، ٢٠٠/١ . (بنصر من)

ذلك في الآية التالية :-

(صُمُّكُمْ عِيٌّ فَهُمْ لَا يُرْجِعُونَ) .

وكيف يرجع إلى الحق من فقد كل سبيل الهدى والرشاد ؟

ونلاحظ أيضاً في قوله (صُمُّكُمْ عِيٌّ) إيجاز حذف في المفرد إذ حذف

هنا المسند إليه والتقدير (لهم صُم) وذلك للذم .

وتعبير الآية أبلغ من غير شك ، والذي ساعد على ذلك ما فيه من حذف

لأنه يكسب التعبير روعة وجمالاً دون أن ينقص المعنى شيئاً بل قد أعطانا نوعاً

جديداً من أنواع التعبير البياني وهي الاستعارة في قوله (صُمُّكُمْ ، عِيٌّ) وهي

استعارة أصلية تصريحية ، فالمستعار له هنا غير مذكور لأنه عبارة عن أحوال

مشاعر المنافقين وحواسهم لانواتهم . (٢)

(فهم لا يرجعون) الفاء هنا دالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها أي مادامت

هذه صفاتهم من الصم عن الحق والبكم والنسي فلن يعودوا إلى الهدى الذي

تركوه وضيعوه ، أو عن الضلالة التي أخذوها (٣) .

وكأنني أشعر هنا بالحكم الإلهي الذي حكم به عليهم بعد ذلك الإعراض

المتناهي عنهم إذ جاء في الآية " فَهُمْ لَا يُرْجِعُونَ " (فالعدول إلى الجملته

الاسمية للدلالة على استمرار تلك الحالة لهم) (٤) ثم جاء في الآية التالية :-

وهو المثل الثاني للمنافقين - (أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ . . الخ)

(١) الاستعارة الأصلية هي ما كان اللفظ المستعار فيها (اسم جنس حقيقة

أو تأويلاً يصلح لأن يصدق على كثير من غير اعتبار وصف من الأوصاف في الدلالة

أو هي في أسماء المعاني . كالعلم والحياة والقتل فضلا راجع علم

البيان . يوسف البيومي ص ١٠١ .

(٢) الكشاف ٢٧/١ (حاشية الشريف علي زين الدين الجرجاني .) (بتصرف) .

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٥٢/١ (بتصرف) .

(٤) نفسه ٥٢/١ .

فلاحظ هنا - كما أشرنا سابقاً كيف ثنى السِّيَاقُ بِتمثيل آخر لحال المنافقين
وذلك كسفاً لحالهم بعد كشف وإيضاحاً عقب إيضاح ليكون أبلغ في وصول
المعنى والاتساع في شرحه وتوضيحه ..
أما عند تأمل الألفاظ في السِّيَاق ، فإننا نلاحظ الإتيان بـ (أو) وهنا تفيد
التساوي في الحكم بين الأول والثاني - إذ أنها تفيد نفس المعنى الذي جاءت
فيه في قوله تعالى :-

«وَلَا تُطِيعُ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا» (١) فالآثم والكفور سيان في العصيان (٢) وقد
ذكر أبو حيان أنها تفيد هنا معنى التفصيل (٣) .

والكاف هنا للتشبيه (كصَيَّب) أما الصَيَّب فهو المطر النازل أو الواقع من السماء
ونرى هنا كيف جاء في الآية لفظه (صَيَّب) ولم تجيء لفظه (غيَّب) مثلاً
وذلك لأن .. لفظه (صَيَّب) في هذا المقام أدل على شدة وقع
المطر عليهم ، لذا كانت أبلغ من لفظ « الغيَّب » الذي يستعمل إشعاراً بالإغاثة
والرحمة اللتين تحققنا فضلاً من الله تعالى تلبيةً لطلبهما ، أما الصَيَّبُ هنا
فقد وقع عليهم بلا طلب منهم ، ولذلك لم يفرحوا ، بل طُبِقَ الظلام عليهم بما فيه
من رعد وبرق ، فما كان منهم إلا سد آذانهم خوفاً ودُعراً ما يمكن أن يصيبهم
منه لذا نلاحظ ان كلمة (صَيَّب) هنا أبلغ وأوقع في مكانها من غيرها أما كونها
على صيغة النكرة ، فليتوقع السامع لها ، ككرة ذلك المطر وشدة وهوله غير
المحدود . (٤) ثم جاء في السِّيَاق (من السماء) وكُنَّا نعلم أن الصَيَّب لا يكون
إلا من السماء ، فعرفت السماء ولم تأت نكرة - كسابقها - ليفيد هذا اللفظ
المعروف أن الصَيَّب نازل من آفاق السماء وليس من أفق دون سواه لأن كل أفق من

-
- (١) سورة الإنسان ، ٢٤ .
(٢) تفسير النسفي ٢٦/١ (بتصرف) .
(٣) البحر المحيظ ٨٥/١ (بتصرف) .
(٤) تفسير النسفي ٢٦/١ (بتصرف) .

آفاقها سماءً ففي التعريفُ مبالغة (١) (وفيه دليل على أن السحاب من السماء ينحدر ومنها يأخذ ماءه) (٢) .

ثم قال سبحانه وتعالى " فيه ظلمات وورعد وبرق " فجمعت ظلمات كما نلاحظ لأنها متعدّدة ، ظلمة المطر - وهي انهماره وسقوطه بغزاره - وظلمة السحاب وتكاثفه مع ظلمة الليل . وقد جعل الصيب مكاناً للورعد والبرق على إرادة السحاب وكذلك لو أُريد به المطر لأنتهما ملتبسان متلازمان غالباً .

أما أن تأتي اللفظتان (رعدٌ وبرقٌ) مفردتين ولم تُجمع الواحدة منهما كما جمعت (ظلمات) فذلك لأن الرعد ليس أنواعاً وكذلك البرق وإنما هما نوع واحد ، أما كونهما نكرين ، فالمراد أنواع منها أي فيه رعد قاصف وبرق خاطف (٣) . ثم جاء قوله تعالى " يجعلون أصابعهم في آذانهم " فالضمير هنا راجع على أصحاب الصيب ولا يصح أن يُقال إن الجملة استثنائية . بل مانراه هو أن في الآية إيجاز حذف وقد حذفت جملة كاملة والتقدير : - (فكيف حالهم ؟) .

ولاشك أن الحذف هنا أبلغ من الذكر لما فيه من الإيجاز غير المخل بالمعنى .

أما في قوله تعالى (أصابعهم) فنلاحظ استعمال لفظ أصابع بدلاً من أنامل في هذه الآية مع أن الذي يوضع في الأذن عادة رؤوس الأصابع وليس كغها فنلاحظ هنا مجازاً مرسلًا علاقته الكلية (٤) .

وبهذا يكون استعمال الأصابع هنا فيه مبالغة أكثر من استعمال الأنامل ، كذلك

لم يذكر الإصبع الخاص بذلك وهو السبابة لأنها من السب وبذلك يكون أولى بأداب القرآن عدم ذكرها كما أشار النسفي في تفسيره (٥) وهو رأي قدير كما نرى .

(١) البحر المحيط ٨٥/١ (بتصرف) أيضاً تفسير النسفي ٢٦/١ .

(٢) التفسير الكبير ٧٩/١ .

(٣) التفسير الكبير ٧٩/١ كذلك تفسير النسفي ٢٦/١ بتصرف .

(٤) العلاقة الكلية في المجاز المرسل هو استعمال لفظ الكل ويراد به الجزء .

انظر مثلاً علوم البلاغة . للمراغي . مراجعة محمود النوارى ص ٢٥٩ ط ٦ .

(٥) تفسير النسفي ٢٧/١ (بتصرف) .

ثم جاء في الآية (من الصَّواعق) بصيغة الجمع ولم تأت بصيغة المفرد كسابقتيها - (رعد ، وبرق) - ونرى أنه قد أُريد بذلك التَّنوع في هذه الصَّواعق إذ منها الشَّدِيد ومنها الأَشَدُّ ، أو قد يُقصد بذلك كثرتها وهي في الحالتين - كما نرى - يُقصد بها التَّهويل بدليل ما ذكر بعدها من قوله (حَذَرَ الْمَوْتِ) واللَّه أعلم بمراده .

ثم ماذا عن خاتمة الآية ومناسبتها للسياق ؟ لاشك أننا سنجد هذه المناسبة الواضحة بين ما جاء في السياق قبل الفاصلة في اللفظ وفي المعنى . إذ نسمع قوله تعالى " وَاللَّهُ مُّحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ " أي عالم بهم لا يفوته شيء من أمرهم (كما لا يفوت المحاط به المحيط فهو مجاز) (١) .

ونلمس هنا مدى دقة التعبير في لفظ (مُحِيط) إذ أنها تُفيد الشُّمول والاحتواء وفي قوله (يَكَادُ الْبَرْقُ يُخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ) نلاحظ أيضاً هذه الدقة في تصوير الموقف في القول (يُخْطَفُ) دون (يأخذ) لأنَّ الخطف يعني الأخذ بسرعة ، وفيها أيضاً إيحاء واضح بشدة أيمن أن يكون من وقع هذا الأخذ السريع الذي لا ينفع معه الحذر على أبصارهم بل وعلى قلوبهم أيضاً .

ودليل ذلك ما جاء في السياق بعد ذلك :-

(كَمَا أَضَاءَ لَهُمْ سَمَاءٌ فِيهِمْ وَإِنَّا أَظْلَمُ عَلَيْهِمْ قَامُوا *)

ففي لفظ (كَمَا) مع (أَضَاءَ) دليل على التَّهَيُّف الدائم لهذه الإضاءة وإن كانت سريعة وخاطفة وذلك لرغبتهم في التَّقدُّم ولو بخطوات معدودة في ذلك النور البسيط الذي قد يبعث بعد تلك الإضاءة ولو لثوان معدودة .

لذا نلاحظ أيضاً الدقة والبلاغة في استعمال القول (أَضَاءَ) عن القول (نَوَّرَ) - مثلاً - لأنَّ البرق صادر في سماءٍ مظلمة حالكة الظلمة ، فنوره يكون شديداً فسَّيَّضَ الإضاءة أما إذا ذهب تلك الخطفة السريعة من الضوء فقد تترك نوراً لمدَّة وجيزة

(١) تفسير النَّسفي ٢٧/١ . (بنصره)

وعندها يحاولون الشئ فيها ، لذا قيل (مَشُوا فِيهِ) ولم يُقال (سَمَعُوا)
أو (عَدُوا) لأنه يستحيل أن يكون منهم عدو أو سعي في تلك الفترة القصيرة جداً
في ذلك المتبقي إثر خطفة البرق السريعة .

ثم يأتي السَّيَاق بـ (إِذَا) مع (أَظْلَمَ) وهذا يؤكد عدم رغبتهم في هذه الظلمة
أو عدم حرصهم على المحافظة عليها كما حرصوا من قبل على ضوء البرق (١) .

ثم جاء قوله سبحانه وتعالى :-

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) فاذا عدنا
مرة أخرى إلى تأمل السَّيَاق ، وجدنا بلاغةً وإيجازاً ونلاحظ هذا الإيجاز في قوله :-
(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ) فنقول إن في الآية إيجاز حذف والتقدير (ولو شاء
الله أن يذهب)- وذلك لأنَّ معقول فعل المشيئة ليس فيه غرابة في تعلقه
بفعله وقد دلَّ عليه دليل . وهو قوله (لَذَهَبَ) .

ثم يأتي القرآن في خاتمة هذه الآية المتحدثة عن المنافقين وما يمكن أن
يصيبهم من العذاب والحيرة والتردد بما يؤكد هذا الكلام لهؤلاء المنافقين
أو المنكرين فتقول الآية :-

” إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ”

فتأتي (إِنَّ) هنا ونحن نعلم أنها تستعمل لتوكيد المعنى بعدها وقد جاءت
من أجل هذا الغرض بعينه لأنَّ المقام مقام إنكار واضح من المنافقين ، فكان من
البلاغة بمكان أن يؤتى ” إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ” .

وبالإضافة إلى مجيئ لفظة (قدير) في موضعها فاصلة في نهاية الآية
: نلاحظ تقديم الجار والمجرور على الخبر للاهتمام به وللتنبية إلى قدرته جل
وعلا التي شملت كل شيء ، والله أعلم ،،،،

٢- قال تعالى :-

”إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ أَنْ يُضْرَبَ مِثْلًا مَابَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مِثْلًا يَضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ“ (١) (صدق الله العظيم)

أ - المعنى العام :- تؤكد الآية الكريمة انَّ الله سبحانه وتعالى لا يترك ضرب الأمثال

في كتابه العزيز بأي شيء من مخلوقاته ولودعا الأمر الى ضربه بالبعوضة التي هي من أحقر المخلوقات ، أو مما كان أقل منها حقارةً وحجماً ، أو ما كان أكبر منها حجماً كالذباب والعنكبوت ، وقد قيل إنَّ سبب نزول هذه الآية هو الرد على الكفار واليهود الذين استنكروا أن يضرب الله الأمثال بالذباب والعنكبوت ، أو أن يذكر في القرآن النمل والنحل إن قالوا :-

ما أراد الله بذكر هذه الأشياء الخسيسة ؟ وقيل قال المشركون :-

”إِنَّا لَا نَعْبُدُ إِلَهًا يَذْكُرُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الْحَقِيرَةَ الْخَسِيسَةَ“ .

وذلك لأنهم كانوا متفئقين على إيذاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية رداً عليهم .

وتذكر الآية أيضاً أنَّ ضرب هذه الأمثال أمر مسلم به لدى المؤمنين فهم

بإخلاص إيمانهم يعلمون علماً أكيداً لا مرأف فيه ولا شك أنه صدق واقع من عند ربهم

- جل وعلا .

أما الجدل والأسئلة التي لا طائل منها لا تكون إلا من المشركين الذين

ليس لمكابراتهم ومغالطاتهم واستنكاراتهم نهاية معلومة ، فيزيدهم القرآن بما فيه

من عبر وأمثال وأحكام ضللاً على ضلالهم واستكباراً على استكبارهم بينما تنير أحكامه

(١) سورة البقرة ، ٢٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ، أبو الفدا اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ١/ ٦٥ ، دار

الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، أيضاً ، البحر المحيط ١/ ١٢١ .

وأمثاله - بما فيها من عبر - الطريقَ للمؤمنين به المصدقين بما يحتويه ، وما يُضِلُّ^(١)
به إلا أولئك الذين خرجوا عن طريق الهدى والرشاد بسوء تصرفهم وكفرهم ومكابرتهم .
ب - مناسبتة في السياق :- بتأمل الآيات السابغات لهذا المثل ، نلاحظ أنها
تحدثت عن المنافقين وطريقهم في إخفاء نفاقهم ثم ما يُصيِّبهم بسبب ذلك وكيف
ضرب لهم مثل نارٍ ومثل مائيٍّ - كما عرضنا قبل ذلك - (٢) ولربط هذا
المثل بما قبله يقول مجاهد وغيره : (نزلت في المنافقين قالوا - لما ضرب الله
سبحانه المثل " بالمستوقد والصيب " - الله تعالى أعلى وأعظم من أن يضرب
الأمثال بمثل هذه الأشياء التي لا بال لها فرد الله تعالى عليهم ووجه الربط
عليه ظاهر فإنها للذَّبِّ عن التمثيلات السابقة على أحسن وجه وأبلغه) (٣) وقيل
إنها نزلت في اليهود لما ضرب الله تعالى الأمثال في كتابه " بالعنكبوت والذباب "
وغير ذلك مما يستحقُّ قالوا : - الله تعالى أعزَّ وأعظم من أن يضرب الأمثال
بمثل هذه المحقرات فرد الله تعالى عليهم بهذه الآية . ووجه ربطها بما تقدم
على هذا (٤) وقيل إنها مرتبطة بقوله تعالى " فلاتَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً "
أي لا يستحق أن يضرب مثلاً لهذه الأنداد (٥) وهكذا نلاحظ تعدد الروايات
والأقوال في هذه المناسبة ولكننا نذهب هنا - والله أعلم - إلى القول بأن
مناسبة هذا المثل للسياق قبله هو إنكار المنافقين لأن يضرب الله مثلاً بالمستوقد
والصيب " وهي من مخلوقات الله تعالى ، الأمر الذي دعاهم إلى إنكار
القرآن كله أو الشك في كونه من عند الله ، لأنه - على حسب قولهم - الله
تعالى أعظم شأنًا وأرفع منزلة من أن يضرب الأمثال بهذه الأشياء ، لهذا

-
- (١) لِبَابِ التَّأْوِيلِ فِي مَعَانِي التَّنْزِيلِ ٤٢/١ - ٤٣ كذلك تفسير ابن جزي ١٨ - ١٩
كذلك في ظلال القرآن سيّد قطب ١/٥٠ - ٥١ (بتصرف) الطبعة الشرعية
الحادية عشرة سنة ١٩٨٢ م . دار الشروق .
(٢) فضلاً راجع ص ٤٦ من هذا البحث .
(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١/٢٠٦ .
(٤) نفسه ١/٢٠٦ (بتصرف) أيضاً ، البحر المحيط ١/١٢٠ .
(٥) روح المعاني ١/٢٠٦ (بتصرف) .

جاءت الآية لتنفى ما قالوا وثبت ما أراد الله سبحانه وتعالى فقال :-

” إِنْ اللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَبْعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ” .

ودليلنا على ذلك أن الآيتين اللتين تلتا المثلين السابقين ” النَّارِ وَالْمَائِي ” دعوا النَّاسَ جميعاً إلى عبادة الله سبحانه وتعالى لأنه خالقهم جميعاً وهو الذي قدر لهم رزقهم وطرق معاشهم وسخر آياته من أرض وسماء ومطر لخدمتهم فكيف يجعلون له شريكاً بعد ذلك ؟ (١)

ثم كانت الآيتان التاليتان لذلك هما ^{من آيات} آية التحدي في القرآن إذ قال تعالى :-

” وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ” . (٢)

ثم تأتي البشرية للمؤمنين بعد ذلك الذين آمنوا بكل ما في القرآن من أحكام وأمثال أو غير ، قال تعالى ” وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ . . . ” الآية (٣) وتليها مباشرة آية هذا المثل التي نحن بصدد ها وهي :-

(إِنْ اللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَبْعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا) .

فلاحظ هنا هذا التسلسل البديع في الآيات ومدى مناسبة هذه الآية للسياق السابق وكيف جاءت ردّاً على المنافقين واستنكارهم ضرب المثل ” بالمستوقد والصيب ” فأنت الآية الكريمة بما هو أقل وأحقر منهما ، وبهذا أثبتت أن هذه الأشياء رغم حقارتها وقلة شأنها لا يترك سبحانه ضرب الأمثال بها لأنها كلها من مخلوقاته وتحت تصرفه جلّ وعلا علواً كبيراً عما يقولون . (٤)

وبتأمل الآيات التاليات لهذا المثل نجد مناسبة لها عند ملاحظتنا أنها تتحدث عن هؤلاء الفاسقين الذين ليس لهم عهد ولا أمانة ف خسروا كل شيء ثم

(١) سورة البقرة ٢١ ، ٢٢ .

(٢) سورة البقرة ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) سورة البقرة ٢٥ .

(٤) ذهب إلى هذا الرأي الطبري في كتابه جامع البيان عن تأويل أي القرآن ١/١٧٧ .

تواتر الآيات بعد ذلك في استنكارها. هذه الأمثال منهم ومن أمثالهم ، ثم تذكر الآيات بعد ذلك الأدلة الواضحة على وحدانية الله سبحانه - وقدرته التي تعدل دلالة أكيدة على أنه أهل لهذه العبادة المطلوبة بل هو غني عنها وما يطالبهم بها إلا لمصلحتهم الخاصة وتذكيرهم * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَهْلَ الْأَبْيَانِ * (١)

ج - العبرة منه : - إذا تأملنا محكم الآية القائلة :-

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ، يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ * (٢) .

نقول اذا تأملنا هذه الآية أقل تأمل أدركنا العبرة من هذا المثل لأنها صرحت بها تصريحاً بيناً وهي أن هذا المثل - على ما نجد فيه من ذكر البعوضة وهي من أحقر المخلوقات - له أهميته في وضوح الدلالة على المعنى المراد إذ أن الله سبحانه وتعالى لا يهتم بكلام الكافرين واستنكاراتهم من ضربه الأمثال بمخلوقاته وآياته الكونية من نار ومطر وغيرها ، بل جاءت الآية بما يزيد استنكارهم ومغالطتهم وضلالهم ، وهو ضرب المثل بالبعوضة الحقيرة ، أو ما كان أحقر منها أو أعظم من حجمها كالذباب والعنكبوت كل ذلك جاء به القرآن الكريم ليضل به من يريد به الضلال من المنافقين والكافرين وليثبت الذين آمنوا على إيمانهم .

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ * (٣)

و اذا علم العاقل ذلك كان لزاماً عليه أن يأخذ العبرة من هذا المثل وإن كان المضروب به حقيراً ، فليس العبرة هنا في البعوضة - وإن كانت هنا تؤدي الغرض المطلوب - ولكن العبرة ، في أنه آمن عند خالق الأشياء

(١) سورة البقرة ، ٢٦٩ .

(٢) سورة البقرة ، ٢٦ .

(٣) سورة ابراهيم ، ٢٧ .

كَلِمًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَأَنَّهُ مَاضِيهِ الِاخْتِبَارِ النَّاسِ وَيَمْتَحِنُ إِيمَانَهُمْ ، فَانْ صَدَقُوا
ثَبَتُوا عَلَى صِدْقِهِمْ وَأَخَذُوا الْعِبْرَةَ مِنْهُ وَاسْتَفَادُوا وَإِنْ كَانُوا كَاذِبِينَ أَنْكَرُوهُ وَجَحَدُوهُ
وَعَمَرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي ضَلَالٍ دَائِمٍ ، نَسَأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَثْبِتَنَا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ - إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ .

د - تحليل المثل بيانياً :- لدراسة هذا المثل بيانياً نقول :-

إِنَّ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ اشْتَمَلَتْ عَلَى تَشْبِيهِهِ مَفْرُودٍ بِمَفْرُودٍ أَيُّ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَا يَسْتَرْكُ
ضَرْبَ الْمَثَلِ بِالْبِعْوِضِ أَوْ مَا هُوَ أَحْقَرُ مِنْهَا أَوْ أَكْبَرُ مِنْهَا حِجْمًا - تَرَكَ مَنْ
يَسْتَحْيِي مِنَ الْبَشَرِ أَنْ يَتَمَثَّلَ بِهَا (١) وَقِيلَ هُوَ مِنْ بَابِ الْمُقَابَلَةِ (٢) وَإِطْبَاقِ
الْمَثَلِ كَلِمَةِ التَّقْدِيرِ
الْجَوَابِ عَلَى السُّؤَالِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْكُفْرَةَ قَالُوا :-

أَمَّا يَسْتَحْيِي رَبُّ مُحَمَّدٍ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا بِالذُّبَابِ وَالْعَنْكَبُوتِ ؟ إِفْجَاءُ الْجَوَابِ
(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَبْعُوضَةً) وَنَرَى أَنَّهُ مِنْ بَابِ إِطْبَاقِ الْجَوَابِ
عَلَى السُّؤَالِ مَعَ اشْتِمَالِ هَذِهِ الْإِجَابَةِ عَلَى التَّشْبِيهِ الْمَذْكُورِ وَالِدَّلِيلُ عَلَى كَوْنِ
هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ بَابِ مُوَافَقَةِ الْإِجَابَةِ لِلسُّؤَالِ هُوَ إِفْتِتَاحُهَا بِإِنْ الْمُؤَكَّدِ لِلْخَبَرِ
وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهَا تَأْتِي عَادَةً إِذَا كَانَ الْمُخَاطَبُ مُنْكَرًا لِلْخَبَرِ أَوْ مُتَرَدِّدًا فِي
ثَبُوتِهِ فَيُؤْتَى بِالْمُؤَكَّدَاتِ حَسَبَ إِنْكَارِهِ قُوَّةً وَضَعْفًا (٣) لِذَا جَاءَتِ الْآيَةُ :-
(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَبْعُوضَةً)

أَمَّا فِي قَوْلِهِ : (يَسْتَحْيِي) فَيَجُوزُ أَنْ يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ كَقَوْلِنَا (اسْتَحْيَيْتَهُ)

أَوْ بِالْجَارِّ ، مِثْلَ اسْتَحْيَيْتَ مِنْهُ .

-
- (١) الْكُشَافُ . الزَّمَخْشَرِيُّ (١/٢٦٣) (بِتَصْرُفٍ) .
(٢) الْمُرَادُ بِالْمُقَابَلَةِ هُنَا هِيَ مُوَافَقَةُ الْإِجَابَةِ لِلسُّؤَالِ الَّذِي سَأَلَهُ السَّائِلُ أَيُّ الْإِجَابَةِ
عَلَيْهِ بِنَفْسِ طَرِيقَةِ سؤَالِهِ . وَهِيَ خِلَافُ الْمُقَابَلَةِ الْمَقْصُودَةِ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْبَلَاغَةِ
فَهِيَ عِنْدَهُمْ ، أَنْ يُؤْتَى بِمَعْنِيَيْنِ مُتَوَافِقَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ ، ثُمَّ بِمَا يُقَابَلُ ذَلِكَ عَلَى
الترتيب كقوله تعالى : " فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيسِرُهُ
لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيسِرُهُ لِلْعُسْرَى " (فَضْلًا أَنْظَرَ)
تَفْضِيلُ ذَلِكَ فِي التَّلْخِيصِ فِي عِلْمِ الْبَلَاغَةِ ، لِلْقَزْوِينِيِّ . ضَبْطُ وَشَرْحُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
الْبَرْقُوقِيِّ ص ٣٥٢ ط ٢ سَنَةِ ١٩٣٢ م دار الكتاب العربي بيروت .
(٣) إِرْشَادُ الْعَقْلِ السَّلِيمِ إِلَى مَزَايَا الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ (١/٧٢) .

وبهذا يكون (أن يضرب) المصدر المؤول من أن والفعل في محل نصب يستحي إذا عُدِّي بنفسه أو في محل جر بحرف الجر إذا عُدِّي بحرف الجر أو النصب بإفشاء الفعل إليه بعد حذف حرف الجر على رأي سيبويه (١) .
و (مثلاً) مفعول ليضرب .

و (ما) إبهامية صفة لمثل أي : (أي مثل كان) أو حرفية مزيادة لتقوية النسب وتوكيدها ، كما في قوله تعالى (فبما رحمة من الله) .
و (بعوضة) على النصب لها احتمالات متعدده على حسب ما فإذا قيل إن " ما " زائدة لتقوية النسبة ، فتكون (بعوضة) بدلاً من (مثلاً) أو عطف بيان لها عند من يحوزونه في النكرات .

وأما إذا اعتبرت ما نكرة مبهمه في موضع نصب من البدل فتكون (بعوضة) صفة لها أو تمييزاً ، أو في موضع نصب باسقاط الخافض والمعنى :-

أن يضرب مثلاً ما بين بعوضة فحذفت (بين) وأعربت بعوضة بإعرابها .
أو في محل نصب مفعولاً ثانياً ليضرب وذلك إذا كانت يضرب بمعنى (يجعل) (٢)
أما في قراءة من قرأه (بعوضة) بالرفع ، فتكون :-

ما : اسم موصول بمعنى الذي نكرة موصوفة ، و (بعوضة) خبر لمبتدأ محذوف أو مسند حذف المسند إليه لمعرفته ودلالة القرائن عليه ، فيكون بذلك حذف العائد على الموصول وهو المبتدأ .

ومثله قراءة بعضهم (تماماً على الذي أحسن) (٣) أي : على الذي هو أحسن .
و يمكن أن تُعرب (بعوضة) صفة لما .

(١) فضلاً راجع ما كتب في هذا بتوسُّع في إرشاد العقل السليم ٧٢/١ (متصرفاً)
(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٧٢/١ كذلك الجامع لأحكام القرآن أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ٢٠٨/١ ، كتاب الشعب .

(٣) سورة الأنعام ، ١٥٤ .

أما إذا اعتبرنا ما إستفهامية في محل نصب يدل من (مثل) فتكون (بعبوضة)
خبراً لها كأنه قيل : (مابعبوضة وأي مانع من ضرب المثل بها) (١) .
(فمافوقها) عطف على (بعبوضه) على تقدير نصبها .
وعطف على (ما) الأولى على تقدير رفع (بعبوضة) وذلك في حالة اعتبار
ما موصولة أو موصوفة .

أما عند اعتبارها استفهاماً فهو عطف على خبرها وهو (بعبوضة) لا على نفسها
كما قيل ولكن المعنى (مابعبوضة فالذي فوقها ؟ أو فشيء فوقها حتى لا يضرب بها
المثل) (٢) وكذلك على تقدير كونها صفة للنكرة أو زائدة و بعبوضة خبر
للضير المحذوف (٣) .

ثم جاء في الآية (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا)

(أَمَّا) هنا تدل على شروع التفضيل أَمَّا الفاء قبلها فتدل على ترتيب ما بعدها
على ما يدل عليه ما قبلها كأنه قيل : فيضربه فأما الَّذِينَ آمَنُوا
أَمَّا هُنَا تدل على معنى اسم الشرط (مَهْمَا) لِيَا اقترن جوابه بالفاء .
(أَنَّهُ الْحَقُّ) جملة سائدة مسددة مفعولي يعلمون عند الجمهور .
وفي قوله : (مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا) .

(مَاذَا) إما مكوّنة من (مَا) وهو اسم استفهام في محل رفع مبتدأ ، خبره (ذَا)
بمعنى الذي - اسم موصول وصلته الجملة بعده والعائد محذوف . والأحسن
أن يجيء جوابه مرفوعاً وإما أن تكون (مَاذَا) منزلةً منزلة اسم واحد بمعنى
(أَي شَيْءٍ) فالأحسن في جوابه النصب (٤) .

-
- (١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٧٢ / ١ كذلك الجامع لأحكام
القرآن ٢٠٨ / ١ .
(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١١٣ / ١ .
(٣) نفسه ١١٣ / ١ (بضم)
(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٧٤ / ١ (بتصرف) .

وبالنظر إلى بلاغة السّياق وجمال نظمه فنلاحظ أنّ الخبر جاء على الضّـرب الإنكاري في قوله تعالى :- (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا ...) وذلك لأنّ المُخاطب - كما ذكرنا - (١) منكر للحكم فأكد له الخبر في بدايته بإحدى المؤكّدات وهي (إِنَّ) هنا فطابق بذلك السّياق المعنى الذي جاء له ، ثم جاء فيهِ أيضاً (لا يستحي) ، ولم يأت (لا يخجل) وذلك . لأنّ الخجل والحياء متغايران وإن كانا متلازمين ونود أن نسلط شيئاً من الضّوء على بعض معاني الحياء من الوجهة اللغوية .

جاء في أساس البلاغة : الخجل هو التّحيُّر والاضطراب من الحياء . (٢) وقال الرّاغب (والحياء انقباض النّفس عن القبائح وتركه لذلك يقال حيّ فهو حيّ ، واستحيّ فهو مستحير ، وقيل استحيّ فهو مستحير) (٣) وروى " ان الله حيّ " أي تارك للقبائح فاعل للمحاسن (٤) وجاء في روح المعاني (إن الحياء مركّب من جبن وعفة وليس هو الخجل بل ذاك حيرة النّفس لفرط الحياء فهما متغايران وإن تلازما) (٥) فاذا عدنا إلى الآية الكريمة لاحظنا :- إن مجيئ السّياق بجملة (يستحي) أقرب إلى المعنى من جملة (يخجل) مثلاً وهي أيضاً أكثر سلاسة وسهولة فيهِ .

ثم جاء أيضاً " أن يضرب مثلاً " ولم يجيء مثلاً : أن يعطى مثلاً أو يقول مثلاً وذلك لأنّ ضرب المثل كما ورد سابقاً (٦) - قد يكون استعارة (٧) من ضرب الطين على الجدار ليلتزق به بجامع الإلصاق في كل - وذلك كأنّ من يستعملها يُلصقها بمضاربها ويجعلها ضربة لا زب لا تنفك عنها لشدة تعلقها بها (٨)

-
- (١) فضلاً راجع ص ٥٩ من هذا البحث .
 - (٢) أساس البلاغة " خجل " .
 - (٣) المفردات في غريب القرآن (حيّ) .
 - (٤) نفسه (بتصرف) .
 - (٥) روح المعاني ٢٦/١ .
 - (٦) فضلاً راجع ص ١٤٤٧ من هذا البحث .
 - (٧) الاستعارة ، استعمال لفظ المشبه به في المشبه كقولك رأيت أسداً وتريد شخصاً شجاعاً ، فضلاً راجع علم البيان . د . يوسف البيوض ص ٨٦ (بتصرف) .
 - (٨) روح المعاني ٧٢/١ بتصرف .

ثم بالنظر إلى السِّيَاق مرة أخرى نلاحظ :- توالي النكرات في (مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ / كَمَا فَوْقَهَا) ونرى في هذا تناسباً واضحاً إذ وردت الألفاظ مشابهة للمعنى المتحدّث عنه فلم - يجي، في السِّيَاق مثلاً :-

- أن يضرب المثل من البعوضه فمافوقها -

فهذا التَّركيب قد يكون صحيح المعنى ، ولكنّه لا يشتمل على دقّة تركيب الآيه التي أعطت المعنى المطلوب بحذافيره ، لأنّها في إيرادها تلك الألفاظ المنكّره متوالية كأنّها تُشعرنا بهذه الهاله العجيبه من الإبهام الذي يُحاط به هؤلاء المنكرون لتزيد من ضلالهم ضلالاً . ونضيف على جحودهم بحقائق الأمور وفحواها جحوداً .

ثمّ ذكر السِّيَاق البعوضه في قوله (بَعُوضَةٌ) دون أفراد المثل كما قيل (إِنَّمَا هُوَ بِطَرِيقِ التَّمْثِيلِ دُونَ الْيَقِينِ وَالتَّخْصِيسِ فَلَا يَخِلُّ بِالشَّيْءِ بِلَ يَقْرَهُ وَيُؤَكِّدُهُ بِطَرِيقِ الْأُولِيَّةِ) (١) .

وجاء بعد ذلك قوله (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا) إذ المقصود بالموصل هنا المؤمنون ثم قوله (فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ) إذ اكفّت الآيه بحكاية علمهم المذكور عن حكاية اعترافهم بموجبه كافي قوله تعالى " وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا " (٢) .

وفي قوله (الْحَقُّ) نلاحظ بلاغة السِّيَاق في دخول آل على كلمة (حق) وهي تفيد العهد هنا يقول أبو السَّعود :-

(وَاللَّامُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ مَشْهُودٌ لَهُ بِالْحَقِّيَّةِ وَإِنْ لَهُ حُكْمًا وَمَصَالِحٌ) (٣) .

ثم تجي (من) وهي هنا لابتداء الغاية المجازيه ثم تضاف كلمة رَبِّ إِلَى الضمير " هم " في قوله (رَبِّهِمْ) وذلك لتشريفهم ولإيذان بأن ضرب المثل تربيئة لهم وإرشاد إلى ما يوصلهم إلى كمالهم اللائق بهم . (٤)

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١ / ٧٣ .

(٢) سورة آل عمران ، ٧ .

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١ / ٧٣ .

(٤) نفسه ١ / ٧٣ . (بنصره)

ويقول سبحانه وتعالى * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ * فالمقصود بالذين كفروا هنا ليس من كفر بالمثل فحسب ، بل بكل ما أنزل الله في كتابه العزيز وعلى رسوله الكريم - صلى الله عليه وسلم -

كذلك جاءت الآية بقوله (فيقولون) ولم يأت فيها القول (لا يعلمون) الذي يناسب القول السابق (فيعلمون أنه الحق) ، وذلك لأن (يقولون) هنا تعسفي المجاهرة بالكفر والجحود وترابي أمرهم في العتوبيين (لا يعلمون) لا تؤذي سوى مجرد عدم العلم بالشيء ، وهكذا نلاحظ دقة التعبير في (فيقولون) لأنها تدل على صراحة الإنكار والاستهزاء وتعتبر تمهيداً لتعداد مانعي عليهم من الضلال والفسق ونقض العهد إلى آخر ما يمكن أن ينتظر منهم بعد قولهم المذكور . (١)

أضف إلى ذلك أن عدم العلم بحقيقته لا يعنى جميعهم فإن منهم من يعلم بها وإنما يقول ما يقول مكابرةً وعناداً واستعمال (يقولون) يدل على أن قولهم هذا متضمن معنى عدم العلم ، فاستعملت على سبيل الكناية (٢) ليكون برهاناً عليه .

وهكذا بدالنا بلاغة استعمال (فيقولون) في السياق على (لا يعلمون) مع انها تبدو في الظاهر مناسبة لما قبلها ثم في قوله (بهذا) تحقير للمشار إليه واستبدال له (٣) .

وجرى في السياق بالقول (يضلُّ به كثيراً ويهدي به كثيراً) على صيغة المستقبل لتدل على الاستمرار والتجدد ، وقيل إن الفعلين وضعاً موضع مصدريهما أراد إضلال كثير وهداية كثير .

-
- (١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١ / ٧٣ (بتصرف) .
- (٢) الكناية : أن يريد المتكلم اتیان معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة وإنما يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومي به إليه ويجعله دليلاً عليه كقولهم (طويل النجاد) يريدون طويل القامة إن يجوز هنا إرادة المعنيين معاً .
- فضلا انظر في ذلك علم البيان . د . يوسف البيومي ص ٦٢ كذلك دلائل الإعجاز ص ١٨ .
- (٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١ / ٧٤ (بتصرف) .

ونحن نرى أن السِّيَاق استعمل الصِّيغَةَ الدَّالَّةَ عَلَى الاستمرار والتَّجَدُّد الدَّائِمَ
لأنَّ الخلقَ فِي تكاثر مستمرٍّ ومنهم من يضلُّ ومنهم من يهتدي .
ثمَّ أتى السِّيَاق فِي القول (يَضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا) بِالجارِّ والمجرور
قيل المفعول به وذلك للتخصيص ، والاهتمام بشأن المتقدم . (١)
وأتى السِّيَاق بلفظ (كثيرًا) منكرًا لِمُنْتَسَبٍ مع ما قبله من النكوات وليسدلَّ
فِي الوقت ذاته على كثرة غير محدودة أو معهودة وفي استعمال كثيرًا مــــع
المهتدين مع أنهم قليلو العدد فالمقصود بها الكثرة المعنوية من حيث الفضل
أو الشرف وقد يراد بذلك الكثرة العددية مستقبلًا ، أما فِي تقديم السِّيَاق لقوله
(يضلُّ) على (يهتدي) مع أنه تحدَّث قبل ذلك عن المهتدين أولاً ثمَّ الكافرين
وذلك ليكون أول ما يقرع سمعهم من الجواب أمرًا فظيعًا يسوؤهم ويفتُ في
أعضادهم ولأنَّ المعنى بالإجابة هذه هم السائلون أنفسهم فصحَّ أن يبدأهم بالسرِّ
والجواب المناسب لقرعهم . (٢)

لذلك نرى تكرار (به) فِي الآية نفسها وذلك لغرض بلاغي هو زيادة تقرير
السبب وتأكيدها ثم قال تعالى * وَمَا يَضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ * .
فالفسقُ - كما نعلم - هو الخُروجُ عن الحدِّ - ومعلوم ما كان عليه الضلالُ
والخروجُ عن الحقِّ وما حُكي عنهم من إنكار كلام الله سبحانه وتعالى والاستهزاء به
وتخصيصهم بالإضلال بهم مترتبًا على صفة الفسق وما أُجري عليهم من القبائح
للإيذان بأنَّ ذلك هو الذي أعدَّهم للإضلال وأدَّى بهم إلى التكذيب وجحد ما في
المثل من الحكمة .

لذا ناسب أن نُختَم الآية بالفاسقين ولم تُختَم بالكافرين لأنها أدلُّ على
خروجهم عن الحقِّ وعدولهم عن الحقيقة الواضحة وهي في جرسها ووقعها في
الأذن أكثر إيحاءً بهذا الخروج عن غيرها - والله أعلم ،،،،،

(١) فضلًا راجع تقديم بعض متعلقات الفعل على بعض في التلخيص في علوم

البلاغه ، القزويني ، ص ١٣٤ .

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٧٤ / ١ (بتصرف) .

٣ - قال تعالى :

« وَمِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمِثْلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عَمِي
فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » (١)

أ - المعنى العام : - نلمح في الآية الكريمة كيف شَبَّه الكفار في غيبيهم وإعراضهم

عن الحقِّ وتعاصيهم عن الحقيقة وعدم العمل بما أُمرُوا به . نلمح كيف شَبَّهُوا
بالبهائم التي لا تفقه من راعيها إلا أصواتاً تفرع سمعها فلا تعقل منها شيئاً (٢) .

وقيل شَبَّهُوا هنا في اتباعهم ما كان ^{عليه} آباءهم بالبهائم التي لا تفقه شيئاً أمامها . (٣)

وقيل إنَّ المقصود بذلك تشبيه حالهم في دعائهم أصنامهم وعدم سماع

تلك الأصنام لما يقولون قيل شَبَّهت هذه الحالة بحالة البهائم التي لا تسمع

الأصوات تتردد ولا تفقه من تلك الأصوات شيئاً (٤) بل نرى في هذا الرأي

الأخير عدم التوافق في التشبيه لأن البهائم تسمع الدعاء أو النداء فتقبل الشيء

حيث يكون راعيها أما الأصنام فلا يكون منها سماع على الإطلاق .

لذا كان الرأي الأول أقرب من المعنى وهو تشبيه حال الكفار في إعراضهم

عن الحقِّ وتعاصيهم عنه وإصرارهم على ماضيهم التلديد - تشبيه هذه الحال -

بحال البهائم التي لا تفقه من الدعاء والنداء إلا أصواتاً تتردد في سمعها ، وذلك

لأن الآية بعد ذلك أثبتت هذا بقوله تعالى :-

« صُمُّ بِكُمْ عَمِي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ »

أي : الكفار صُمُّوا عن الاستجابة للحقِّ بكم عن قوله عَمِي عن رؤية طريقه ومسلكه

فهم بذلك لا يعقلون شيئاً منه ولا يفهمونه كما أن البهائم لا تعقل شيئاً من دعاء

الراعي ولا تفهمه (٥) ، قال تعالى :-

(١) سورة البقرة (١٧) .

(٢) تفسير ابن كثير ٢٠٥/١ ، كذلك لباب التأويل في معاني التنزيل ١٣٩/١ كذلك

بهامشه تفسير البغوي (بتصرف) .

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١٠/١٩٠ (بتصرف) .

(٤) تفسير ابن جزي : ٤٣ .

(٥) تفسير ابن كثير - ٢٠٥/١ (بتصرف) .

• وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ
يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ • (١)

ب - مناسبة المثل في السِّيَاق :- بتأمل الآيات السَّابِقَات لهذا المثل ثم الآيات
اللاحقات به في هذه السورة ندرِك مدى المناسِبه بين ماسبقه ومالحق به
من الآيات ، أما بالنسبة إلى الآيات السَّابِقَات فنلاحظ أنها : تحدت عن
وحدانية الله التي يثبتها الوجود كله بما فيه من سماء وأرض وطيل ونهار ومطر
وسحاب واماكن ذلك فكل هذه آيات قائمة أمام العين لتثبت أن الملك لله
الواحد الأحد ، فهو الذي خلقها وهو الذي يدبّر أحوالها وتقلباتها ، وهذه
حقيقة واقعة لا مراء فيها يعترف بها الكافرون أنفسهم وإن كان ذلك الاعتراف
من وراء حجاب (٢) .

ثم ينتقل السِّيَاق بعد ذلك إلى الحديث عن هؤلاء الكفار الذين يجعلون
لله أندادا ، فيشركونهم في ذلك الحب الذي كان ينبغي أن يكون له وحده
كما كان من المؤمنين لبارئهم وكيف يكون منهم ذلك وهم على ما هم عليه من الضلال
حتى يأتي اليوم الذي يتبرأ منهم هؤلاء المتبوعون فلا تكون نهايتهم الا الندم
والعذاب والرغبة في العودة إلى الحياة الدنيا ليتبرأوا من هؤلاء المتبوعين
ولكن هيهات أن يفيد الندم في وقت لا فائدة فيه من الندم ولا منجي من
العذاب (٣) .

ثم ينتقل السِّيَاق بعد ذلك لبيّن مدى الرحمة الإلهية الشاملة لكل شيء
ولبيّن أن المصدر الذي أمرهم بوجوب الاعتراف بالوحدانية المطلقة لله هو
نفسه الذي يرزقهم ويبيّن لهم الحلال والحرام وهذا فرع من وحدانية الألوهية

(١) سورة الأنعام ، ٣٩ .

(٢) المقصود بذلك اعترافهم في باطنهم ومكابرتهم في اظهار ذلك الاعتراف أو
مغالطتهم أنفسهم .

(٣) التفسير البسيط للقرآن الكريم د . حسن باجوده ٢ / ٤٠ ط ١ سنة ١٩٨٤ م ،
منشورات الأمانة العامة لمسابقة القرآن الكريم (بتصرف) .

فالجبهة التي تخلق وترزق هي نفسها التي تشع فتحرّم وتحلّل وهكذا يرتبط التشريع بالعقيدة (١) ، وعلى الناس أن يعلموا أن ذلك صادر من الله وحده وليس من الشيطان الذي لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء .

ثم ينتقل السياق إلى بيان حال هؤلاء المشركين أو اليهود الذين يدعون إلى عبادة الله وحده فلا يستجيبون إلا لما وجدوا عليه السلف من الآباء والأجداد ، وإن كان هؤلاء الآباء ليسوا على حق أو علم بصحة ما يفعلون .

ثم تأتي المناسبة هنا لرسم الصورة الحسية المجسّمة التي تنقل المعنى واضحاً جلياً لهؤلاء القوم حتى تكون رادعاً قوياً عن الفعل القبيح ، ألا وهي تشبيه حالهم في إعراضهم عن داعيهم إلى الحق والرشاد بحال البهائم التي لا تعي من دعاء راعيها إلا الصوت والنداء بلاوعي أو إدراك لما يتضمنه ذلك الصوت والنداء من الكلام ، بل قد وصفهم السياق القرآني بما هو أشد من ذلك وأقبح وهو تعطيلهم الجوارح الثلاثة النافعة في هذه المناسبة لو أحسن استعمالها ، هذه الجوارح هي السمع واللسان والبصر الذي يتوفّر منها ما يتوفّر للبهيمة .

أما بتدبير الآيات اللاحقات فنرى أنها بدأت بخطاب المؤمنين في قوله تعالى :-
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَارْرُقَاتِكُمْ) (٢) ، وكانت المناسبة هنا واضحة فبي بدعها بخطاب هذه الفئة من الناس وهم المؤمنون ، وذلك لأن ما سبقها كان لغيرهم من الفئات وخاصة أولئك الذين لا يجدي فيهم دعاء ولا نداء لأنهم صمّ بكمّ عبي لا يعقلون الحق ولا يدركونه .

أما بعد أن يبين السياق ما هم عليه من إعراض ، فكان من المناسب بل من متطلبات المعنى أن ينتقل إلى خطاب المؤمنين ودعوتهم إلى كل خير ، ثم توضيح ما أحل الله لهم من طيبات سواء كان ذلك من طعام أو شراب أو حدود وشرائع يجب الالتزام بها والعمل بموجبها لأنهم أهل لذلك الخطاب وطوعية لهذا النداء

(١) في ظلال القرآن ، ١ / ٥٥ (بتصرف) .

(٢) سورة البقرة ، ١٧٢ .

فلكهم آذان صاغية للحقّ وقلوب واعية له وألسنة معترفة به وبصائر ترى بنوره
وتهتدي بهديه القويم .

ج - العبرة منه :- ونحن يصدد دراسة العبرة من هذا المثل ، نقف قليلاً
لنتأمل بشاعة الصورة الحسّية التي رسمها السياق لهؤلاء المعرضين عن الحقّ
يل المتعالمين عن الحقيقة ، بل ما أشدّ بشاعة أولئك القوم الذين هم فسي
صورة البشر ، ثم تكون البهائم مثلاً لهم يُضرب من عند خالقهم - سبحانه
وتعالى - في كتاب عزيز مطهر لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه
يقراه من يقرأه من الناس أو يسمعه من يسمعه .

ترى هل هناك رادع أقوى من هذه الصورة الحسّية البشعة . . لا أمثال

هؤلاء ؟ !

وكيف يقبل إنسان سويّ وهيب نعضة العقل والوجدان أن يهبط إلى
هذا الدرك الذي أصبحت فيه البهائم أفضل منه ؟ ! فهمي تسمع ولا تعقل
لأن ليس لها عقل ولا إدراك أما هو فيسمع ويتعاضى عما يسمع حسّتي
كأنه أصم ، ويرى ويتعاضى حتى كأنه أعمى ثم مُنح نعمة النطق ولكنه خرس
عن الحق ونأى بجانبه حتى كأنه لم يوهب ذلك اللسان ولا ذلك العقل الذي
فُضّل به في الأصل على البهائم .

نقول : لقد كان في هذا المثل خير رادع لهؤلاء لو كانوا يسمعون
حقاً أولاً مثلهم في كلّ زمان ومكان ولم لا والصورة واضحة وضوح الشمس
بشعة تشمز منها النفس وتأبأها الطباع السليمة والعقول الراجعة .

د - دراسة المثل وتحليله بيانياً :- من الملاحظ أولاً أن هذا المثل جاء على هيئة

التشبيه التمثيلي أو المركب الذي هو عبارة عن تشبيه صورة بصورة ، وعند إجراء التشبيه هنا نقول :-

شبهت حال داعي الكفار أثناء اعراضهم عنه وعدم سماعهم له ولنصحه بحال راعي البهائم أثناء صياحه بهما وندائه لها وهي لا تفقه من قوله الا أصواتاً تتردد ونداء يتكرر .

أما وجه الشبه فهو الهيئة الحاصلة من عدة أمور مجتمعة وهي صوت يُنادي مع جماعة يقرع الصوت آذانها فلاتجيب أولاً تفقه ما يتردد في سمعها .

وهكذا نلاحظ كيف جاءت الصورة جميلة معبرة بطريقة التشبيه التمثيلي

وهي من غير شك أبلغ مالون هبنا إلى الرأي القائل بتقسيم الصورة إلى أجزاء متعدده يقابل كل جزء منها نظيره في الأخرى ... (١)

إن أننا في هذه الحالة نلمح فيها التفكك كما نفقدها جمالها وجلالها المطلوب .

أما بالنظر إلى سياق الآية ، فنلاحظ البلاغة في نظم ألفاظ السياق وعباراته

بما فيه من إيجاز جميل وألفاظ معبرة موحية .

أما الإيجاز، فنلمحه في قوله تعالى :-

” وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا (أَي مَثَلُ دَاعِي الَّذِينَ كَفَرُوا) فَمَثَلُ دَاعِي الَّذِينَ كَفَرُوا ”

المفرد ، ان حذف منه المضاف وقد يكون هذا الحذف من جانب المشبه به

وعندها يكون التقدير ، وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ بَهَائِمٍ الَّتِي يَنْعَقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ

وَالجُمْلَةُ ابْتِدَائِيَّةٌ وَارِدَةٌ لِتَقْرِيرِ مَا قَبْلَهَا وَمَعْطُوفَةٌ عَلَيْهِ وَالْجَامِعُ أَنَّ الْأُولَى

لبيان حال الكفار وهذه تمثيل لها . (٢)

(١) يذهب بعض علماء البلاغة الى محاولة تقسيم الصورة المركبة في التشبيه التمثيلي الى أجزاء يقابل كل جزء منها نظيره في الصورة الأخرى فيصبح من بساط التشبيه المفرد . وهذا رأي لا نميل إليه ولا نؤيده لاسيما عند تناول الصورة المركبة .

(٢) روح المعاني ١/٢٤١ كذلك ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم

وقوله (يَنْعِقُ) من النُعَاق وهو التَّتَابُعُ في التَّصَوُّيتِ لجزر البهائم - وهي أبلغ في السِّيَاق من قوله يُنَادِي أو يَدْعُو - مثلاً - لَأَنَّ اسْتِعْمَالَ النُّعَاقِ مَعَ الْبِهَائِمِ أَدَقُّ فِي الْإِيحَاءِ بِذَلِكَ الصَّوْتِ الَّذِي يَنَاسِبُهَا مِنْ جَانِبٍ وَيُنَاسِبُ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ شَبَّهُوا بِالْبِهَائِمِ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ .

ثُمَّ فِي قَوْلِهِ * بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً * .

فمن المعلوم أَنَّ السَّمْعَ بِالْقِيَاسِ إِلَى مَوْقِفِ الْأُذُنِ مِنَ الْمَسْمُوعِ نَوْعَانِ : ، نَوْعٌ يُعْقَلُ حِينَمَا تَكُونُ الْأُذُنُ وَاعِيَةً ، وَهَذِهِ هِيَ الْوُضُيْفَةُ الْحَقِيقِيَّةُ لِلسَّمْعِ ، وَنَوْعٌ لَا يُعْقَلُ وَفِي هَذَا صَرْفٌ لِلسَّمْعِ عَنِ وُضُيْفَتِهِ الْمُنْتَظَرَةِ وَهِيَ الْوَعْيُ وَالْإِكْفَاءُ بِالسَّمْعِ الْمَجْرَدِ بِسَبَبِ إِنْ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ نَبَّهَ عَلَى تَوَاصِي الْكُفَّارِ الْمُعْرِضِينَ عَنِ دَعْوَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى الْفِرَارِ مِنْ مَرَحَلَةِ السَّمْعِ الْمَجْرَدِ خَوْفًا مِنَ التَّوَرُّطِ فِي مَرَحَلَةِ السَّمْعِ الْوَاعِيِ رَدًّا فَعَلَ لِبَلَاغَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَاقْتِنَاعِهِمْ بِهِ رَغْمًا عَنْهُمْ قَالَ تَعَالَى :-

* وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَافِ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ * (١)

وَبِشَأْنِ الْمَثَلِ الْكَرِيمِ قَدْ صَوَّرَ السِّيَاقُ هَذَا الْمَعْنَى أَدَقَّ تَصْوِيرًا - كَمَا نَسْرَى - فَالْمَسْمُوعُ مِنْ تِلْكَ الدَّعْوَةِ مَجْرَدُ صَوْتِ الدَّاعِيِ أَوْ الْمُنَادِيِ تَبَعًا لِقُرْبِ الْمَدْعُوعِينَ مِنَ الدَّاعِيِ أَوْ بَعْدَهُمْ عَنْهُ دُونَ وَعْيٍ مِنَ الْمَدْعُوعِينَ أَوْ إِدْرَاكِ لِمَا يَحْمِلُ ذَلِكَ الصَّوْتُ مِنْ دَعْوَةٍ مُخْلِصَةٍ حَارَّةٍ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

لَقَدْ قُصِرَ السَّمْعُ هُنَا عَلَى الدُّعَاءِ وَالنِّدَاءِ فَقَطْ دُونَ الْوَعْيِ وَالْإِدْرَاكِ وَالْإِسْتِثْنَاءِ هُنَا مَفْرَغٌ وَطَرِيقَتُهُ وَرُودُ (مَا - إِلَّا) (٢) .

وَقَدْ يَكُونُ الْمُرَادُ بِعَطْفِ لَفْظَةِ (النِّدَاءِ) وَهُوَ نِدَاءُ الْبَعِيدِ عَلَى الدُّعَاءِ . . .

وَهِيَ دَعَاءُ الْقَرِيبِ ، نَقُولُ قَدْ يَكُونُ الْمُرَادُ بِهَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - حَالِ الْمُشْرِكِينَ الْمَحِيطِينَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ فَيَكُونُ لَفْظُ الدُّعَاءِ أَنْسَبَ لَهُمْ لِأَنَّ نَهْمَهُمْ

(١) سُورَةُ فَصَّلَتْ ، ٢٦ .

(٢) الْقَصْرُ هُوَ تَخْصِيصُ أَمْرٍ بِأَمْرٍ بِأَحَدِي طُرُقِ الْقَصْرِ (وَكَمَا نَلْحَظُ هُنَا كَانَتْ طَرِيقَتُهُ النَّفْيِ وَالْإِسْتِثْنَاءِ) (مَا ، إِلَّا) فَضْلًا أَنْظَرَ فِي ذَلِكَ الْإِيضَاحُ فِي عُلُومِ الْبَلَاغَةِ لِلْقَزْوِينِيِّ ، تَحْقِيقُ د . مُحَمَّدٌ عَبْدُ الْمَنَعِمِ خَفَاجِي ٤ / ١ كَذَلِكَ عُلُومِ الْبَلَاغَةِ لِلْمُرَاغِيِّ مَرَاجَعَةُ مُحَمَّدٍ النَّوَائِيِّ ص ١٥٤ ط ٦ .

أقرب مكاناً منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أما النَّدَاءُ فالمقصود به أولئك المشركين الَّذِينَ مازالوا بمكة وَالَّذِينَ هم أبعد من مشركي المدينة موقِعاً ومكاناً .

ثم جاء في السِّيَاق بعد ذلك قوله :-

”صُمُّكُمْ عَمِي فَهَمَّ لَا يَعْقِلُونَ“

نعم .. لقد سُدَّتْ عَلَيْهِمْ سُبُلُ الْهُدَايَةِ جَمِيعاً السَّمْعَ وَالنُّطْقَ وَالْبَصَرَ

فهل يرشدون ؟!

ونلاحظ أن في هذا التَّعْيِيرِ إيجاز حذف في المفرد إذ حُذِفَ الْمَسْنَدُ إِلَيْهِ هُنَا وَالتَّقْدِيرُ هَمَّ صَمٌّ ... وسبب الحذف هو أن المسند المذكور (صُمُّكُمْ ، عَمِي) نعت مقطوع للرفع في حالة الذَّمِّ (١) .

ثُمَّ فِي وَجُودِ الْغَاءِ فِي قَوْلِهِ (فَهَمَّ لَا يَعْقِلُونَ) دَلِيلٌ عَلَى وَجُودِ نَتِيجَةِ مَرْتَبَتِهِ عَلَى شَيْءٍ قَبْلِهَا فَأَنْتَ إِكُونُ لَهُمُ الْعَقْلُ وَالْإِدْرَاكُ وَقَدْ أَصِيبُوا بِصَمٍّ دَائِمٍ يَحْجِبُهُمْ عَنِ سَمَاعِ الْحَقِّ وَخَرَسَ عَنْ قَوْلِهِ وَعَمِي لَا زِمَ عَنِ رُؤْيَةِ طَرِيقِهِ وَمَعَالِمِهِ قَالَ تَعَالَى :-

”وَلَقَدْ نَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ“ (٢)

لذلك ناسب هنا أن تنتهي الآية بقوله : (لا يعقلون) وهي فاصلة مناسبة جداً للمعنى المتحدّث عنه في سياق المثل فالحديث كان جارياً على الكفار الَّذِينَ يَتَعَامُونَ عَنِ الْحَقِيقَةِ وَيُخْرَسُونَ عَنْ قَوْلِهَا وَالَّذِينَ شَبَّهَتْ حَالَهُمْ تِلْكَ بِالْبَهَائِمِ الَّتِي لَا تَعْقِلُ مَا تَسْمَعُ ، إِنَّ عَدَمَ الْفَهْمِ وَالْإِدْرَاكَ وَصَرَفَ السَّمْعَ عَنْ وَظِيفَتِهِ بِمِثَابَةِ سَلْبِ الْعَقْلِ مِنْهُمْ وَكَمَا نَاسَبَتْ الْفَاصِلَةَ ” فَهَمَّ لَا يَعْقِلُونَ “ السِّيَاقَ هُنَا نَاسَبَتْ فَاصِلَةً أُخْرَى ” فَهَمَّ لَا يَرْجِعُونَ “ السِّيَاقَ فِي الْمَثَلِ النَّارِيِّ الَّذِي سَبَقَتْ دِرَاسَتُهُ (٣) ، وَوَضَحَ وَجْهَ الشَّبْهِ الْكَبِيرِ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ ” صُمُّكُمْ عَمِي فَهَمَّ لَا يَعْقِلُونَ “ وَ ” صُمُّكُمْ عَمِي فَهَمَّ لَا يَرْجِعُونَ “ (٤) .

(١) قد يُحْذَفُ الْمَسْنَدُ إِلَيْهِ فِي الْجُمْلَةِ لِأَعْرَاضِ مِنْهَا أَنْ يَكُونَ الْمَسْنَدُ فِي الْجُمْلَةِ نَعْتاً مَقْطُوعاً لِلرَّفْعِ فِي حَالَةِ الْمَدْحِ أَوْ الذَّمِّ أَوْ التَّرْحِمِ . فَضْلاً أَنْظَرَ ذَلِكَ التَّلْخِيصَ فِي عِلْمِ الْبَلَاغَةِ لِلْقَزْوِينِيِّ ص ٥٤ .

(٢) سورة الأعراف ، ١٧٩ .

(٣) فضلاً راجع ص ٤١ من هذا البحث .

(٤) سورة البقرة ، ١٨ .

٤ - قال تعالى :-

”مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَثْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ
فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ“ (١)

أ - المعنى العام :- لقد صور السياق القرآني في الآية الكريمة فضل النفقة في سبيل

الله أوفى وجوه البر والخير من الواجب والتفيل ، وما تُضفيه تلك الصدقة من خير
ونماء على صاحبها في حياته العاجلة أو في آخرته الآجلة .

وقد نقلت الآية الكريمة المعنى الذهني المجرد إلى صورة حية وواقع مشاهد
لموس ألا وهو البذل والعطاء - ذلك الشيء العزيز على النفس فعله - لولا وجود
هذه الصورة الجميلة له في القرآن .

ولم لا؟! وهو في ظاهره نقص وفي باطنه نماء وزيادة؟!، تماماً كالحبة التي
يغرسها الزارع فعاتبت أن تُنبِتَ عوداً يحمل سبع سنابل وفي كل سنبل منها مائة
حبة (٢) .

نعم إن ذلك هو فعل الله في خلقه من النبات فلم لا يكون منه الفعل نفسه
- سبحانه - للمنفق الباذل نفسه وماله في سبيله عز وجل؟!!

لا شك أن هذا يرتبط بمشيئته - سبحانه وتعالى - الذي يضاعف الرزق
كما يريد لسعة عطاءه ولعلمه بنوايا المنفقين ومدى إخلاصهم في تلك النفقة (٣) .

ب - مناسبته في السياق :- بالنظر إلى الآيات السابقات لهذا المثل ، نرى كيف تحدثت

عن المار على القرية وقصة ابراهيم عليه السلام (٤) وكاننا أكبر دليل على البعث

(١) سورة البقرة ٢٦١ .

(٢) في ظلال القرآن ٣٠٦/١ بتصرف .

(٣) نفسه وكذلك إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٢٥٧/١ (بتصرف) .

(٤) سورة البقرة ٢٥٩ - ٢٦٠ .

نقول لما تحدثت الآيات السابقة عن ذلك كان من المناسب أن يذكر في السياق بعد ما يمكن أن يُنتفع به في ذلك اليوم الموعود وما يجد جزاءه هناك ، وهو الإنفاق في سبيل الله إذ يكون الجزاء مضاعفاً لصاحبه أضعافاً كثيرة لا يعلم حدّها سوى الله سبحانه وتعالى وذلك لأنّ المال عماد الأعمال الماديّة ولأنّ إنفاق المال في مجال الجهاد بخاصّة صنو الجهاد بالنفس فقد جاء من قبل (١) قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، ثم أعقبت بقوله تعالى :-

”مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً“ (٢) وكما أعقب بعد ذلك (٣) - قتل داود جالوت وقوله : (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتُلُوا) (٤) ، أعقب ذلك بقوله تعالى :- (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ) . . . الخ (٥)

كذلك في ذكر الحبة هنا أيضاً إشارة إلى البعث وعظيم القدرة الإلهية لأنّ القادر على إخراج ساق من حبة تتفرّع هذه الساق إلى سبع سنابل في كلّ سنبل مائة حبة كما هو مشاهد على الحقيقة في بعض البذور كالذّخن والقمح وغيرها (٦) - نقول لأنّ القادر على ذلك لا شك أنّه قادر على البعث والإحياء لجامع الاشتراك بينهما في التغذية والنمو (٧) وقيل إنّ المناسبة في ذلك أنّه لما ذكر - سبحانه - المبدأ والمعاد ودلائل صحتها أتبع ذلك ببيان الشرائع والأحكام والتكاليف فبدأ بإنفاق الأموال في سبيل الله وأمعن في ذلك ، ثم انتقل إلى كيفية تحصيل الأموال بالوجه المشروع ولما أجمل في ذكر التضعيف - سبحانه - بقوله (أضعافاً كثيرة) وأطلق في قوله (أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَّةَ وَلَا شَفَاعَةَ . . .) (٨)

-
- (١) سورة البقره ، ٢٤٣ .
 - (٢) سورة البقره ، ٢٤٥ .
 - (٣) سورة البقره ، ٢٥٣ .
 - (٤) سورة البقره ، ٢٥٣ .
 - (٥) سورة البقره ، ٢٥٤ .
 - (٦) الجامع لأحكام القرآن ٢/٢١١ (بتصرف) .
 - (٧) روح المعاني ٣/٣٣ (بتصرف) .
 - (٨) سورة البقره ، ٢٥٤ .

فصل في هذه الآية وقيد بذكر المشبه به وما بين الآيات من دلالة على الإحياء والإماتة فلولا ذلك لم يحسن التكليف كما ذكر (١) .

هذا من جانب مناسبة المثل للآيات السابقات ، أما مناسبة لما بعده فهي ظاهرة واضحة ان استمر السياق الطاهر بعد ذلك في تأييد هذا ببسطه وتوضيحه وزيادة الترغيب فيه يتعاضده بالأمثلة الأخرى التي تزيد المعنى وضوحاً وجلالاً ولم لا ؟! والآيات التاليات تدعوبل تحت على إخلاص نية الإنفاق لله - سبحانه وتعالى - على ألا يتبع هذا الإنفاق من ولا أذى ثم انتهى عن ذلك الفعل القبيح بضرب مثل آخره (٢) ثم الترغيب في هذا بضرب مثل ثالث لمن يفعله ابتغاء مغفرة الله ورضوانه (٤) .

ثم تقرير ذلك والتأكيد عليه بدعوة خالصة إلى النفقة من أحسن ما يملك الإنسان ويكسبه لما يعود من ذلك الإنفاق على صاحبه من الخير الكثير ، لأن الله سبحانه وتعالى ليس في حاجة إلى شيء من ذلك فهو غني عن العالمين جميعاً ثم تواصل الآيات - بعد ذلك - الحديث عن هذه النفقة ، فمنها الصدقة ومنها النذر ومنها - الظاهر ومنها الخفي وكسها تؤدي إلى نتيجة واحدة هي مصلحة المنفق وزيادة نماء ما أنفق منه - لأن الله سبحانه وتعالى - عالم بالظاهر منها والخفي والخالص لوجهه الكريم أو غير الخالص ، ان يعيد لكل ذي حق حقه مع الزيادة المعلومة عنده - سبحانه - فهل من ترابط في المعنى أجمل وأعجب من هذا ؟! (٥)

ج - العبرة منه :- إن العبرة من هذا المثل تتجلى في كيفية عرض المعنى الذي تناوله

السياق ، فكما نعلم أن الآية تعرض لموضوع الإنفاق - وهو أمر عزيز على النفس سواء كان ذلك بالمال أو بالروح وليحصل الترغيب فيه ، عرضت الآية

-
- (١) البحر المحيط ٣٠٣/٢ (بتصرف).
 - (٢) سورة البقرة ٢٦٢ - ٢٦٣ (بتصرف).
 - (٣) سورة البقرة ، ٢٦٤ (بتصرف).
 - (٤) سورة البقرة ، ٢٦٥ (بتصرف).
 - (٥) سورة البقرة من ٢٦٦ - ٢٧٤ (بتصرف) .

الكريمة هذا المعنى بطريقة تصويرية جميلة تبتد وفيها الزيادة والنماء على أحسن وجه وأظهره بل إنَّ للطريقة التشويقية الجميلة التي عُرض بها ذلك المعنى أثرها الكبير على السامع والقارئ مما يدعو إلى المبادرة والإقبال المطلوب بدلاً من الإحجام عنه والفرار منه ، خاصة إذا علمنا أن هذه الآية الكريمة (نزلت في شأن عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما . إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما حثَّ الناس على الصدقة حين أراد الخروج إلى غزوة تبوك ، جاءه عبد الرحمن بأربعة آلاف فقال يا رسول الله كانت لي ثمانية آلاف فامسكت لنفسي أربعة آلاف وأربعة آلاف أفرضتها لربي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يبارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت ، وقال عثمان : يا رسول الله علي جهاز من لاجهاز له ، فنزلت هذه الآية فيهما ، وقيل: نزلت في نفقة التطوع ، وقيل نزلت قبل آية الزكاة ثم نسخت بآية الزكاة) (١) .

ونرى هنا أنه لا حاجة إلى دعوى النسخ لأنَّ الإنفاق في سبيل الله مطلوب في أي وقت وسبيل الله كثيره (٢) .

أما الجانب الآخر من العبرة في هذا المثل - وهو ما نراه أكثر أهمية فهو أن على الداعي أن يدعو إلى ما يريد من خير بكل ما أوتي من وسائل الإقناع أو طُرق الترغيب وتقريب المعنى وتوضيحه على أن يكون ذلك بالحكمة والتروي بأكثر من الوعظ المباشر والترهيب للذين قد يؤذيان أحياناً إلى النفور عن تلك الدعوة وحسبنا هنا أن يكون القرآن لنا مثلاً ودليلاً على ذلك ، فقبل أن يكون التكليف فيه يبدأ الحس والتأليف واستجاشنة المشاعر والانفعالات الحية في الكيان البشري كنه وعرض صورة من صور الحياة النابضة النامية الواهية تلك هي صورة الزرع الذي إنَّ كان في تربة صالحة - أعطى أضعاف ما يأخذ وتكون غلاته أضعاف بذوره - . . . وهكذا . . . يعرض تلك الصورة للترغيب فيما يدعو إليه وهو التفقه في سبيل الله . (٣) فهل لنا أفضل وأجل من القرآن مثلاً وهدايا ومعلماً ؟!

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢ / ١١١١ .

(٢) نفسه : ٢ / ١١١١ (بتصرف) .

(٣) في ظلال القرآن ١ / ٣٠٦ (بتصرف) .

د - دراسة المثل وتحليله بيانياً :- نلاحظ أن الآية الكريمة تشتمل على تشبيهه

تمثيلي ، إذ شُبِّهَتْ حال نفقة الَّذِينَ آمَنُوا فِي نَمَوِّهَا وزيادتها وتضعيف
اللَّهِ لَهَا عنده بحال الحَبَّةِ الَّتِي تُنْبِتُ ساقاً ثم تتفرَّعَ هذه السَّاقُ إلى سبعة
سنايل وفي كلِّ سنبلة منها مائة حَبَّة .

أما وجه الشَّبه : فهو الهيئةُ الحاصلة من النَمُو والزيادة في الشَّيْء ، بعد
قَلَّتْهُ وضالته .

وهي صورة بيانية جميلة مشوّقه بيد وفيها المعنى المجرد محسوساً ملموساً
ترغبه النَّفْسُ فتُقبِلُ عليه ، لنيل الكسب المنتظر .

هذا من حيث الصُّورة البَيانية ، أما عند دراسة السِّيَاق فتبدو لنا البلاغة
القرآنية في قوله تعالى :- (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ)
إِنْ يُقَالُ إِنَّ هُنَا لَابْدَأَ مِنْ حَذْفٍ فِي أَحَدِ الطَّرْفَيْنِ وَالتَّقْدِيرُ (مَثَلُ نَفَقَةِ الَّذِينَ
آمَنُوا كَمَثَلِ حَبَّةٍ) أَوْ (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ بَأْزِرِ
حَبَّةٍ) . وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَصِحَّ التَّمْثِيلُ . (١)

وقيل إنَّ الحذف من الطَّرْفَيْنِ باختلاف التَّقْدِيرِ ، أَي (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ
أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمُنْفِقَهُمْ كَمَثَلِ حَبَّةٍ وَزَارِعَهَا) (٢) .

وسواء كان المحذوف مضافاً من الأَوَّلِ أَوْ مضافاً من الثَّانِي أَوْ هُنَمَا معاً
فهو إيجاز حذف في المفرد وهو كثير في القرآن كما نلاحظ ، أما في إسناده
الإثبات إلى الحَبَّةِ في قوله :-

(كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ - وَالْمَعْلُومُ أَنَّ الْمُنْبِتَ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فِي هَذَا
الْأَسْلُوبِ مَجَازٌ (٣) لِأَنَّ الْحَبَّةَ سَبَبٌ فِي الْإِنْبَاتِ كَمَا تَقُولُ : أَنْبَتَ الرَّبِيعُ الْبَقْلَ (٤) .

(١) روح المعاني ٣٢ / ٣ (بتصرف)

(٢) البحر المحيط ٣٠٣ / ٢ (بتصرف)

(٣) البحر المحيط ٣٠٤ / ٢ (بتصرف)

(٤) المجاز : من جاز المكان إذا تعداه إلى غيره وهنا لأنَّ الإسناد تعدى مكانه
الأصلي . ونوعه هنا عقلي ومن العقلي ما يطابق الاعتقاد دون الواقع كما جاء
في المثال المذكور أعلاه . فضلاً انظرني ذلك علوم البلاغة للمراعي ٢٥٤ (بتصرف) .

وفي قوله (سبع سنابل) . أضيف عدد القلّة وهو سبع إلى جمع وهو للكثرة تكسيراً ولم يضاف إلى التصحيح وهو سنبلات لما تقرّر في علم النحو أنّه الأكثر قال تعالى ثمانى حجج " سَبْعَ طَرَائِقَ " " سَبْعَ لِيَالٍ " و"عَشْرَةَ مَسَاكِينَ " ماوازن مفاعيل وهذا أكثر وأفصح من جمع القلّة المصحح (١) ، وإنما جاء مختوماً بالألف والتّاء في قوله تعالى : - (٢)

(يَوْسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَانِي سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُمُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعُ سُنْبُلَاتٍ خَضْرًى وَأُخْرَى أَبْسَاتٍ) لَأَنَّ قَوْلَهُ (سَبْعُ سُنْبُلَاتٍ خَضْرًى) نَاسِبٌ مَاقْبَلَهُ " سَبْعُ بَقَرَاتٍ " ، فَكَانَ الْأَوَّلَى مَجِيءَ جَمْعِ السَّلَامَةِ هُنَا لِعَطْفِهِ عَلَى جَمْعِ سَلَامَةِ مِثْلِهِ .

أما فيما نحن بصدده في قوله (سبع سنابل) ، فالأولى فيه أن يكون الجمع كما هو كثير في النحو على (مفاعل) مع جمع القلّة ، لأنه خلا من مجاورة جمع السلامة أو العطف عليه ولأن له جمعاً آخر وهو الأصل (فعالي) والأصل أولى أن يتبع (٣)

ثم جاء قوله تعالى " مائة حبة " وفي هذا اللفظ (مائة) قيل إماماً أن يكون المقصود به العدد نفسه على اعتبار أن بعض السنابل قد شوهد فيها هذا العدد على الحقيقة إن كانت أرضه خصبه ورعايته دائمة ، واما أن يكون المقصود به التّكثير لأنّ العرب كانت تستعمل هذا العدد للتّكثير (٤) .

ونرى هنا أن المقصود به التّكثير لمناسبته لما جاء بعده من ألفاظ في السياق وهو قوله تعالى : - (وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) فالمضاعفة هنا تناسب التّكثير ، فقد تكون المضاعفة أكثر من ذلك وأعظم فالله سبحانه وتعالى أعلم

-
- (١) البحر المحيط ٣/٣٠٣ من الهامش عن كتاب الدر اللقيط من البحر المحيط لتاج الدين النحوي .
(٢) سورة يوسف ، ٤٦ .
(٣) الدر اللقيط من البحر المحيط ، تاج الدين الحنفي النحوي عن هامش البحر المحيط ٣/٣٠٣ (بتصرف) .
(٤) البحر المحيط ٢/٣٠٥ (بتصرف) .

بهذه المضاعفة وقد كان من البلاغة ألا يذكر السياق مدى هذه المضاعفة أو عددها
لذا كان مجيء اللفظ بهذه البنية غير المحددة يدل على كثرة المضاعفة ولا أدل على
ذلك من تقديم لفظ الجلالة الله (وهو المسند إليه) قبل قوله (يُضَاعَف) وهو
المسند للتبرك به ثم تقدم المسند إليه أيضاً للغرض نفسه في قوله (والله واسع
عليم) (١) .

فإذا كان السند إليه هذا الفعل هو الله سبحانه وتعالى فحسبك مباركة باسمه عز
وجل في تضعيف هذه الزيادة واتساعها .

وذكر الشيء هنا بعد المضاعفة أمر ضروري وارتباط لازم بين اللفظ والمعنى
فلامضاعفة - من غير شك - الإبانة وزيادة الابتدائه وقدرته عز وجل ، فهو
ترابط في السياق لا بد منه ولا غنى عنه .

ويلاحظ هنا أيضاً مناسبة لفظي (واسع ، عليم) للمعنى ، ففي السعة مناسبة
تامة للمضاعفة والتكثير اللذين جاءتا بهما الآية الكريمة .

وفي العلم في قوله (عليم) دليل على إحاطة الله سبحانه وتعالى بكل
صغيرة وكبيرة داخل نفوس المنفيين وليم بقدر هذه المضاعفة التي سيضاعفها
لهم . .

لذا ناسب لفظ (عليم) الفاصلة هنا من حيث المعنى أتم مناسبة كذلك انتهائها
اللفظة بحرف الميم مناسب للآية السابقة لها مباشرة وهو قوله تعالى :

• وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمِنَ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ
جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . (٢)

(١) من الأحوال التي يتقدم فيها المسند إليه عن السند للتبرك به وذلك إذا كان
اسم الله كما ورد في الآية الكريمة (والله يضاعف لمن يشاء) فضلا راجع علوم

البلاغة للمراغبي ص ١٠٦ .

(٢) سورة البقرة ، ٢٦٠ .

ويهدأ يتأكد لنا أَنَّ الفاصلة في القرآن الكريم ليست سَجْعاً فقط ، (لَأَنَّ السَّجْعَ
من الكلام يتبع المعنى فيه اللَّفْظُ الَّذِي يُؤَدِّي السَّجْعَ وليس كذلك ما اتفق ساهو فسى
تقدير السَّجْعِ من القرآن لَأَنَّ اللَّفْظَ يقع فيه تابعاً للمعنى (١) .
فالفاصلة إذاً يطلبها المعنى ويرضاها أولاً إلى جانب ما تُضْفِيهِ عَلَى اللَّفْظِ مِنْ
تناسب وجمال . والله أعلم ،،،،،،



(١) إعجاز القرآن ، أبو بكر الياقلائي تج . أحمد صقر ط ٣ ص ٥٨ دار المعارف
مصر .

هـ - قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ
النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَكَ
وَابِلٌ فَتَرَكْتَهُ صَدُودًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْكَافِرِينَ) (١) . صدق الله العظيم .

أ - المعنى العام :- بعد أن وضحت الآيات السابقات (٢) كيف تبرو الصدقة

وتتضاعف - إذا كانت خالصة لوجهه سبحانه وتعالى ، يأتي النهي هنا صريحاً
عن تلك المغالطة الواضحة التي قد يتستر وراءها المرابي فيخرج ما يخرج من
مال أو أي صدقة كانت متخفياً بشوب الخدعة والمرآة الذي يظن أنه قد ستر
عن عباد الله تعالى ما خفي من أمره ، ولكن هيئات أن يكون له ما أراد - لفضيحة
سلوكه له ، فهو دائم الصن غير منقطع عن أذى المتصدق عليه ، وسواء كان
ذلك المن مصرحاً أو مطمئناً ، فكلاهما يؤدي إلى نهاية واحدة هي كسر نفس
الفقير والتحقير من شأنه بينه وبين نفسه أو في حضرة الآخرين .

ومادام الأمر كذلك فلا بد أن تكون المخاطبة صريحة واضحة للمؤمنين مهمة
من أبعادهم لأن الإيمان يمنع صاحبه من ارتكاب الرذائل ، ولا شك أن المن رذيلة
سيئة ينبغي التنبه لها ومراعاة البعد عنها لما قد تسببه لصاحبها من زوال
فائدة تلك الصدقة التي ظن أنها ستعود عليه في آخرته بالشواب الجزيل
والخير الوفير ، وما هي كذلك ، نعم لقد أذهب المان حقه في الدنيا
والآخرة ، أما في الدنيا : فقد أتعس صاحبه بما أعطاه من مال بسبب مننه
عليه ، وبهذا خرجت الصدقة عن هدفها الأول وهو إسعاد الفقراء والمحتاجين
وأما في آخرته فقد منع أجر تلك الصدقة الممنونه .

(١) سورة البقرة ، ٢٦٤ .

(٢) سورة البقرة ، ٢٦١ ، ٢٦٢ .

(قال جمهور العلماء في هذه الآية : ان الصدقة التي يعلم الله من صاحبها أنه يمن أو يؤذي بها فإنها لا تقبل وقيل : بل قد جعل الله للملك عليها أمارة فهو لا يكتبها وهذا حسن) (١) .

وقال أبو بكر الوراق :-

أَحْسَنُ مِنْ كُلِّ حَسَنٍ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَزَمَانٍ .
صَنِيعَةٌ مَرْبُوعَةٌ خَالِيَةٌ مِنَ الْمُنْبِ (٢)

وقد ذكر الرازي في تفسيره الكبير في الآية :-

(لَا تُبْطَلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأُذَى) أنه يحتمل أمرين :-

أحدهما : أن ينوي بالصدقة الرياء والسمة ، فتكون هذه الصدقة حين وُجِدَتْ حُصِلَتْ باطله .

ثانيهما : أن يكون المراد بالإبطال أن يؤتى بها على وجه يوجب الثواب ثم

تتبع بالمن والأذى ، فيزيلا ما ترتب عليها من الثواب والأجر (٣)

ويذكر القرآن لذلك مثيلين ليسايرا المعنى المذكور وليتبناهما

أولهما : قوله تعالى :-

(كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) .

ثانيهما : قوله تعالى :-

(كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ)

مَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٤) .

أما من ناحية مسأرة المثل الأول للمعنى وتثبيته له ، فمن المعلوم أن المراد من

كون عمل المرابي باطلاً أنه دخل في الوجود باطلاً من أساسه وليس صحيحاً ثم أبطل

أو الذي منع صحته أساساً هو اقترانه بالكفر (٥) .

(١) الجامع لأحكام القرآن ١١١٩/٢ .

(٢) نفسه .

(٣) التفسير الكبير ٥٢/٧ (بتصرف) .

(٤) سورة البقرة ، ٢٦٤ .

(٥) التفسير الكبير ٥٢/٧ (بتصرف) .

وأما المثل الثاني وهو الحجر الصلد الأملس الذي وقع عليه تراب ثم أصابه وابل فأزاله ، فيرى الرازي أن المشبه بذلك هو صدور هذا العمل الذي لولا كونه مقروناً بالنية الفاسدة لكان موجباً لحصول الأجر والثواب فالمشبه بالتراب الواقع على الصفوان هو ذلك العمل الصادر منه (١) .

ونذهب هنا الى هذا الرأي ، لأن التراب إذا وقع على الصخر الأملس لم يكن ملتصقاً به بل يبدو كذلك ويكون اتصاله كإفصاله تماماً ، وكذا الصدقة المقترنة باليمن والأذى تبدو من أعمال البرِّ ومكسبة للثواب وهي ليست من ذلك في شيء ، بل يأتي يوم القيامة على ذلك العمل الممنون فيظهر حقيقته ولا ينال صاحبه منه شيئاً ، وكيف يناله شيء من ثوابه وقد امتزجت نية صاحبه بالمرآة ساعة أدائه ؟ :

ب - مناسبة في السياق :- لما رَغِبَتِ الْآيَاتُ السَّابِقَاتُ (٢) فِي الصَّدَقَةِ ، وَبَيَّنْتَ فَضْلَهَا وَمَدَى زِيَادَتِهَا وَتَضْعِيفَ اللَّهِ لَهَا كَيْفَمَا يَشَاءُ ، وَذَلِكَ لَعَلِّهِ بِنِيَّةِ الْمُنْفِقِ ، وَبَعْدَ أَنْ أَظْهَرْتَ الْآيَةَ التَّالِيَةَ كَيْفَ أَنْ الْإِنْفَاقَ الْخَالِصَ لِلَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - تَكُونُ نَتِيجَتَهُ الطَّمَأِينَةَ وَالْأَمَانَ وَسَعَادَةَ الدَّارِئِينَ وَأَنْ غَيْرَ ذَلِكَ لَا قِيَمَةَ لَهُ وَلَا اعْتِبَارَ ، بَلْ إِنْ الْكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ وَالْمُعَامَلَةَ الْحَسَنَةَ خَيْرَ مِنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا مَنْ أَوْ أذى يعد ذلك التمهيد الواضح للأمر الرباني الاتي بعد ، كان لابد أن يصدر الأمر صريحاً والنهي واضحاً حتى لا تكون هناك حجة لمن لا يعمل بما أمر ، فجاء النهي للمؤمنين خاصة إذ قال تعالى :- (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ) الخ . لأن الإيمان مانع كافٍ لدفع أي رذيلة مهمادة فكيف بالمن أو الرياء والأذى ؟ !

(١) التفسير الكبير ٣ / ٧ (بتصرف) .

(٢) سورة البقره ، ٢٦١ - ٢٦٢ .

هذا من جانب مناسبة المثل لما قبله من آيات ، أما من جهة مناسبه لما بعده فالصلة واضحة والارتباط وثيق بتدبر ما بعده من آيات ، إن مازال الحديث متصلاً - كما نرى - عن الصدقة ، فقد عرض المشهد الأول أولئك الذين يُنفقون أموالهم مراعاة للناس ولتتضح الصورة ويتمُّ المشهد يأتي السياق القرآني بما يقابلها وهو مشهد أولئك الذين يبذلون المال - على حبه - لمن يستحقه رغبة منهم واعترافاً بحق الفقراء فيه وأن ذلك واجب عليهم لكسب رضا الله وثوابه .

نعم أولئك الذين ستكون نتيجة بذلهم النماء والزيادة المقدره منه سبحانه وتعالى - ثم تتوالى الصور بعد ذلك بين الترهيب والترغيب لإثارة المشاعر وتحريك الأُفْس واستشعار القلوب القاسية للإنفاق والبذل والتفكر في الأسباب . . . ونتائجها ليختار العاقل لنفسه أفضل السبل وأكرمها ، ولتكون نهايته كريمة محمودة كما يمتنى (١) وليكون من أولئك الذين قال فيهم - سبحانه وتعالى - (. . . فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (٢)

ج - العبرة منه :- يأتي السياق القرآني كعادته بأقرب الصور وأكثرها تعبيراً وأدقها تصويراً ، لينقل المعنى من الجمود إلى الحركة ومن العقلي إلى الحسي الملموس لتكون العبرة منه واضحة جلية تماماً كوضوح المعنى المصور وظهوره . وها هو ذا ينقل لنا في هذا المثل صورة لعمل المان المؤذي ولعمل المنافق ، اللذين يظنُّ الناس أن لهما أعمالاً تحسب ، كما يرى التراب على الصفوان ، فاذا كان يوم القيامة اضمحل كله وبطل ، لأنه لم يكن لوجه الله تعالى ولا رجاء في ثوابه ، كما أذهب الواابل ما كان على الحجر الأملس من تراب فاذا كانت هذه نهايته كان لا بد لمن يعقل هذه الصورة أن يتأثر به ويتقبل الأمر السماوي عن رضا ومحبة ، فإذا تقبله بذلك الرضا وتلك المحبة سعى كل السعي في إخفاء صدقته ومدارة عطائه لتكون له الثمرة المرجوة بعد ذلك حتى لا تكون أعماله يوم القيامة كذلك الصورة التي نلها لنا السياق القرآني في دقة ووضوح والتي لا يقللها لعمله كل من تحلى بالإيمان أو نعمة العقل .

(١) سورة البقرة من ٢٦٥ - ٢٧٣ .

(٢) سورة البقرة ، ٢٧٤ .

د - دراسة المثل وتحليله بيانياً :- في المثل القرآني السابق صورة مركبة أمام

أخرى مثلها ، أما الأولى فهي صورة الصدقة المتبوعة أو المزوجة بمن المان
وأزاه لمن يقدّمها له ، وأما الصورة الموضحة لها فهي صورة تراب على حجر أ لمس
أنى عليه مطر غزير فمضى أثر ذلك التراب وترك الحجر على حقيقته الجرداء (١)
وأما الوجه المشترك بين الصورتين فهو الهيئة الحاصلة من عدة أمور يظن
الناظر إليها أنها ثابتة قد تؤتى أكلها في يوم ما فإذا أنى ذلك اليوم انجلت
حقيقتها ووضح سرها ، فالمرائي المان تذهب أعماله وتنهي فضيلتها يوم القيامة
كته وأزاه في الدنيا والحجر الأ لمس الصلد المغطى بالتراب يذهب المطر عنه
ذلك التراب ويتركه على حقيقته .

هذه هي الصورة الحية التي نقلها لنا التشبيه التمثيلي في الآية الكريمة .
وبدراسة السياق في الآية الكريمة ، تبدولنا البلاغة القرآنية سواء كان ذلك
في تناول الألفاظ المعبرة عن المعنى المراد كل التعبير أو في وضع تلك الألفاظ
مركبة مع رفيقاتها في الجملة القرآنية الكريمة ، ولم لا وهانحن أولاً نلمح ^{في} بداية
الآية نداءً موجهاً للذين آمنوا دون سواهم حيث قال تعالى :-

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى) (٢) وذلك لأن
الإيمان ينبغي أن يكون ركيزة أساسية في النفس البشرية التي تريد أن تتحلوا بكل
الفضائل الإنسانية وتنفي مآعدها ، ولأن الخطاب بلفظ (آمنوا) أدعى لإشارة
المشاعر الطيبة في نفس الإنسان الذي يملك ولو ذرة من الإيمان فينصت لما يقال
تمام الإنصات ثم يبادر من فوره إلى التنفيذ دون أوفى تردد أو قصور وكيف
لا والإيمان أعز وأعلى وأكرم ما يتمناه مسلم صحيح الإسلام لنفسه ؟ !

(١) تفسير المراغي ، أحمد مصطفى المراغي ٣ / ٣٤ ط ٥ سنة ١٩٧٤ م طبع ونشر
مطبعة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي . مصر . (بنصرف)

(٢) سورة البقرة ، ٢٦٤ .

ثم تذكر الآية الكريمة المطلوب من هؤلاء الذين وجه إليهم النداء بذلك اللفظ العزيز (آمنوا) ولنرى أهمية هذا الطلب ومدى صلته بتلك الصفة التي وصفوا بها ، فتقول الآية الكريمة :-

(لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى)

فتأتي صيغة الطلب هنا (لا الناهية) ، ولم لا يكون النهي صريحا وقد وصفوا بالإيمان قبل النهي عن أي رذيلة كانت .

ثم لنلاحظ هنا كيف جاءت الآية الكريمة بالنهي عن المن والأذى بهذه الطريقة الجميلة ، فلو قيل مثلاً :-

لا تمنوا صدقاتكم أو تؤذوا بها أحداً ، فرجاء يكون الامتناع عن هذه الرذيلة كما ينبغي ، كذلك لا يكون الأذى لهذا المعنى جميلاً عذبا ، ولكن عندما بدأ الكلام بقوله تعالى (لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ) ، حصلت دهشة وتشويق ، أما الدهشة فلأن المتصدق لا يظن بأي حال أبداً أن صدقته هذه لا ينال منها أجرا .

وأما التشويق فتسببه تلك الدهشة الحاصلة من كون الصدقة قد تبطل

وعندها يرهف السمع والحس معاً لماسياتي بعد ذلك ، فإذا علم ذلك المجهول تمكن في نفس السامع المشوق فضل تمكن ، فيبادر إلى الاستجابة والتنفيذ ، وهنا نصل إلى قمة البلاغة في القرآن الكريم ، ألا وهي الوصول إلى المراد أو الغاية في يسر وسهولة ، فضلاً عن التدرج في التعبير والتشويق الدائمين وتحريك المشاعر الإنسانية في لطف وجمال ، ذلك سر من أسرار الإعجاز القرآني الدائم الذي لا يخفى على من تدبر القرآن الكريم .

ثم نأتي - بعد ذلك - إلى الجمال في التعبير في قوله : (صدقاتكم)

حيث أضيفت الصدقات إلى ضمير خطاب الجماعة وكأن السياق هنا يريد أن يشير المشاعر تجاه هذه الصدقات المبذولة منهم فجاء التعبير هكذا (صدقاتكم) وذلك ليدكرهم بملكهم السابق لتلك الأموال التي قدموها للصدقة ظناً منهم أنها

ستؤتي أكلها بعد حين ، ولكن منهم وأذاهم أضع ما أملوا فيه ، وهنا يحصر كل واحد من هؤلاء على عدم ضياع أجر ذلك المال المبذول ، ثم يأتي التشبيه هنا ليؤكد المعنى ويصره فالمان بمانه والمؤذي غيره - بتعداد حسنة عليه - يشبه تماما البازل ماله لينال رضا الناس وسمعتة الحسنة بينهم ، ويضيع بذلك حقه في الدنيا والآخرة .

وموقع الكاف هنا في قوله (كالذي) إما في محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أي لا تبطلوها ابطلاً كإبطال الذي (ينفق ماله رثاء الناس) ، وإما على أنها حال من فاعل لا تبطلوها أي مشابهين الذي يبطل انفاقه بالرياء وقيل من ضمير المصدر المقدر كما هو في رأي سيويه (١) .

وقيل في انتصاب (رثاء) ، وإما لأنه مفعول لأجله أي ينفق ماله ليرائي الناس أو على أنه حال من فاعله أي ينفق ماله مراعيًا ، والمقصود هنا المنافق الذي لا يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً (٢) .

ثم قال تعالى :-

(فمثلهُ كمثلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ)

وتقوم الفاء هنا بربط ما بعدها بما قبلها ، أي فمثل المرائي في إنفاقه وحالته

العجيبة كمثل حجر أملس عليه تراب (٣)

أما الضمير في قوله (فمثلهُ) ففيه وجهان :-

إمّا أنه عائد إلى المنافق ، فيكون المعنى : أنه تعالى شبه المان والمؤذي . . .

بالمنافق ثم شبه المنافق بالحجر (٤) ، وإمّا أنه المراد به المرائي في إنفاقه (٥) .

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٢٥٩ / ١ (بتصرف).

(٢) الكشاف ٣٦٤ / ١ كذلك إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٢٥٩ / ١ (بتصرف).

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٢٥٩ / ١ (بتصرف).

(٤) التفسير الكبير ٥٣ / ٧ - ٥٤ (بتصرف).

(٥) روح المعاني ٣٥ / ٣ (بتصرف).

أَمَّا الصَّفْوَانُ وَهُوَ الْحَجَرُ الْأَمْلَسُ فَقِيلَ (إِنَّهُ الصَّفْوَانُ وَالصَّفَا وَالصَّفْوَا وَاحِدٌ وَكُلُّ ذَلِكَ مَقْصُورٌ وَقِيلَ أَيْضًا إِنَّ الصَّفْوَانَ جَمْعُ صَفْوَانَةٍ كَمُرْجَانٍ وَمَرْجَانَةٌ وَسَعْدَانٌ وَسَعْدَانَةٌ) (١) .

وقيل هو جمع صفوانة أو صفاء أو اسم جنس ورجح يعود الضمير إليه مفرداً في قوله تعالى :- (عَلَيْهِ تَرَابٌ) (٢) .

أَمَّا الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ (فَأَصَابَهُ وَابِلٌ) ، فَهُوَ إِمَّا عَائِدٌ عَلَى الصَّفْوَانِ أَوْ عَلَى التُّرَابِ (٣) ، وَنَرَى أَنَّهُ عَائِدٌ عَلَى الصَّفْوَانِ لِأَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ (فَتَرَكَهُ صَلْدًا) عَائِدٌ إِلَى الصَّفْوَانِ أَيْضًا - مِنْ غَيْرِ شَكِّ - فَيُسْتَبَعَدُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ السَّابِقَ لَهُ عَائِدًا إِلَى التُّرَابِ ، فَالسِّيَاقُ جَارٍ عَلَى الصَّفْوَانِ الَّذِي غَطَاهُ التُّرَابُ الْخَفِيفُ ثُمَّ أَتَى عَلَيْهِ وَابِلٌ شَدِيدٌ فَتَرَكَهُ عَلَى صَلْدَتِهِ .

ولنتأمل هنا اللفظ (صَلْدًا) وكيف استطاع أن يعبر عن المشهد المتروك على الحجر بعد ذلك الوايل الشديد ، فلو أُبدِلَ بهذا اللفظ الموحى في المشهد لفظ آخر يمكن أن يعطى نفس المعنى وهو لفظ (أَمْلَسٌ أَوْ أَجْرَدٌ) - مثلاً - لما كان لو أحد منهما نفس الإيحاء ولا ذلك الجرس أو الوقوع المعبر عن الحال الكائنة عليه تمام التعبير .

ثُمَّ جَاءَ فِي السِّيَاقِ قَوْلُهُ (لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا) فَجَاءَ الْحَدِيثُ هُنَا عَنِ الْجَمَاعَةِ مَعَ أَنَّهُ كَانَ حَدِيثًا عَنِ الْمَفْرُودِ فِي قَوْلِهِ (كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ) فَالْقَوْلُ فِي ذَلِكَ (٤) ، إِنْ الْمَقْصُودُ بِقَوْلِهِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - (كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ) هُوَ الْجَمَاعَةُ كَمَا قِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :-

(وَخَضَّتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا) (٥)

ويمكن أن يُرَاعَى الْلفظ كما في قوله : (يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ) فَأَفْرَدَ الضَّمِيرُ . (٦)

-
- (١) التفسير الكبير ٥٤ / ٧ .
 - (٢) روح المعاني ٣٥ / ٣ . (بتصرف)
 - (٣) نفسه ٣٥ / ٣ . (بتصرف)
 - (٤) روح المعاني ٣٥ / ٣ . (بتصرف) .
 - (٥) سورة التوبة ، ٦٩ .
 - (٦) البحر المحيط ٣١٠ / ٢ . (بتصرف) .

وقيل هو عائد على معلوم غير مذكور، المعنى لا يقدر أحد من الخلق على الانتفاع
بذلك البذر الملقى على التراب الذي على الصفوان لأنه زال التراب وزال ما عليه
وكذلك المان والمؤذي والمنافق لا ينتفع أحد منهم بعمله يوم القيامة ، وقيل هو عائد
على المرائي الكافر أو المنافق أو على المان ، أي لا يقدر على الانتفاع بشئ
شيء من انفاقهم وهو كسبهم عند حاجتهم إليه (١) .

ونرى هنا أن الضمير في قوله :-

(لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مَّا كَسَبُوا) ، عائد على قوله (كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ) لأنه

اسم جنس روعي فيه المعنى كقوله تعالى :-

(فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَحَاطُهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ)

وذلك لأنه شبه المان والمؤذي بالمنافق ثم شبه عمل ذلك المرائي بالحجر الأملس
الذي عليه تراب فأصابه مطر غزير أنهب ما عليه وتركه صلباً . . . وكل الغرض من
تلك التشبيهات المتتالية هو بيان حال صدقة المان والمؤذي وما هو منتهاها .

هذا من ناحية عود الضمير في قوله (لا يَقْدِرُونَ) واختلاف الآراء فيه
أما بتأمل لفظ (لا يَقْدِرُونَ) هنا - فنلاحظ مدى تعبيره عن المعاناة التي يشعر
بها هؤلاء الذين ذهب عنهم أجر أعمالهم في الآخرة ومدى محاولتهم الوصول
إليها وكيف استطاع القول (لا يَقْدِرُونَ) التعبير عن ذلك يدقه متناهيه ، ونستطيع
أن نلمس هذا أثناء نطق حرفي القاف والدال متواليين ، ومدى الصعوبة في
هذا التوالي ، كذلك نلاحظ هذه المعاناة ، إذا قورن القول (يَقْدِرُونَ) بقول
آخر يؤدّي المعنى ذاته وهو (يستطيعون) ، فنرى في الأول الشدة والمعاناة
في النطق ، وفي الثاني السلاسة والسهولة في مخارج الحروف .
ثم يأتي السياق بقوله (عَلَى شَيْءٍ مَّا كَسَبُوا) ، ونلاحظ هنا تنكير كلمة شيء
وذلك للتقليل والتحقير معاً .

أما في قوله (مَا كَسَبُوا) ، فقد جاء التعبير هنا عن النفقة بالكسب وذلك للدلالة على ما قصدوه منها وهو الكسب وهو نظير قوله تعالى :-

(وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا) (١)

وجملة (لا يقدرُونَ) استئناف مبني على سؤال مقدر ، فكأنه قيل ما هو حالهم بعد ذلك فيجاب (لا يقدرُونَ . . .) (٢) .

وبتتبع السياق نرى كيف نزلت (٣) الآية الكريمة بما يقرر مضمون الجملة قبلها

إذ قال تعالى :-

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

وهنا نلمح التعريف الواضح في الآية لأن كلاً من المن والأذى والرياء من خصائص الكفار ، ولا بد لأي مؤمن أن يتجنبها ونلمح أيضاً - هنا - مدى الترابط العجيب بين افتتاح الآية بقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ . . .) الخ - وبين

خاتمتها بقوله تعالى :-

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

نقول لتأمل ذلك الترابط الواضح بين بداية الآية وخاتمتها أو فاصلتها - من حيث المعنى - فالخطاب موجه كما ذكرنا (للذين آمنوا) خاصة . . . أما إذا حادوا عن الطريق واتبعوا ما نهوا عنه فلن يكونوا ممن وصفوا بالإيمان ، بل هم من الكافرين ولا حق لهم في الهداية بعد ذلك الخطاب والنهي الصريح . والله أعلم

(١) سورة الفرقان - ٤٣

(٢) روح المعاني ٣ / ٣٥ (بتصرف) .

(٣) التذييل :- أحد طرق الإطناب وتعريفه : هو تعقيب أي اتباع الجملة بجملة أخرى لا محل لها من الإعراب ولكن تعني التقوية والتوكيد . . . فضلاً راجع ذلك بالتفصيل في التلخيص في علوم البلاغة للقزويني ص ٢٢٧ .

٦- قال تعالى :-

• وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيثًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَاتَتْ أَكْهَبًا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ • (١) صدق الله العظيم .

أ - المعنى العام

على عادة القرآن الكريم في نقلنا إلى المعاني المتقابلة ينقلنا هنا على طريقة تداعي المعاني بالتقابل والتضاد ، والانتقال الذي يأتي في الآيات الكريمة إما متوالياً وإما مفصلاً بمعنى آخر يزيد المعنى وضوحاً وتثبيتاً وهكذا يكون توالي المعاني وتنوعها ، وهكذا تكون المعاني جديدة قديمة مستأنفة وغير مستأنفة في آن واحد ، ولعل ذلك أجمل مانعش معه أثناء تلاوة القرآن ، وهذا من أسباب كون القرآن غصاً دائماً طرياً أبداً لا يخلق على كثرة التكرار .

والآية الكريمة - كما نلاحظ - تبين لنا نتيجة الصدقة المتبوعة بمن صاحبها وأذاه تلك النتيجة التي تروغ كل من علم بها عن الانزلاق في مهاوي المن أو الرياء . وكما - ذكرنا - القرآن الكريم من عادته التحول من المعنى إلى المعنى الذي يقابله ومن الصفه إلى خلافها ومن الحال إلى ضدها باعتبار التقابل في الصفات من وسائل الربط والتقوية بين المعاني ، فالليل يستدعي النهار والظلمة تستدعي النور والسما تستدعي الأرض ، وهكذا يأتي السياق هنا بالصورة المقابله بكل محتوياتها سواء كان ذلك عمل العامل أو جزاء عطسه ليختار السامع لنفسه الطريق الذي يحب والنتيجة التي يرجو .

نعم تلك هي الرسالة السامية وذلك هو السموفي الدين الإسلامي الحنيف

فلا إكبار ولا إرهاب بل هو عرض واختيار .

نقول : إن في هذا المثل صورة أخرى ومشهداً مقابلاً للمشهد المذكور

ألا وهي صورة المنفقين أموالهم بقلوب يثبتها الإخلاص ويعمرها الإيمان ، إيمان

أكيد وثقة تامة بأن الله - سبحانه وتعالى - لن يضيع هذه الصدقات وإن كانت سرا ، وإخلاص أكيد في اخراجها ابتغاء رضوان الله وطمعاً في رحمته ، هـ هذه الصورة العقلية مشثلة بصورة حسية لموسى تقرّب المعنى وتجمّله ، وهى صورة بستان وارف الظلال على ربوة خصبة التربة طيبة العطاء تأتيها مياه الأمطار مابين حين وآخر ، فتزيد من خصبها ويزكو عطاؤها وإن لم يُصبها ذلك المطر الغزير ، فقد يصبها بعض الندى الذي يكفي مع خصوبة التربة لأن تؤتى أكلها ويزداد نواؤها على أية حال (١) .

وهنا كما أحيا الماء الكثير أو القليل منه التربة المعطاء كذلك تحيي صدقة المؤمن قلبه وتزيد صلته بالله ، وتزكي ماله ، ثم يضاعف الله له ما يشاء لأنه يعلم ما في نفسه ساعة عطائه .

ب - مناسبتة في السياق :- لقد تحدّث الآية الكريمة عن حال الصدقة المتبعة بالمن والأذى ، والصدقة المقصود بها الرياء والسّمة وعن نهايتها الخاسرة التي لا قيمة لها ولا ثمر، إن تكون كالحجر الأملس المغطى بتراب رقيق والذي لا يلبث أن يأتي عليه وابل شديد فيذهب بعاطيه من تراب ويتركه على حالته الجرداء .

نقول عند تدبر هذه الآية الكريمة تبقى في النفس رغبة في معرفة الصورة المقابلة ، وعلى الوتيرة ذاتها ألا وهي صورة النفقة الخالصة لوجه الله والمرجوبها ثوابه . . ليكون الاقتناع ينتيجتها أكثر وأقوى فكانت هذه الآية المشتعلة على المثل المُقابل عناصره وأجزاؤه عناصر المثل السابق وأجزاءه فكانت المعاني بسبب التقابل أشد وضوحاً والمرامي أكثر قرباً ، إنه في مقابل الحجر الأملس في تلك الصورة يأتي البستان الوارف الظلال على ربوة خصبة معطاء ، وفي مقابل المطر الغزير مطر مثله ، ولكن شتان بين أثر ذلك

(١) في ظلال القرآن ، ٣٠٩/١ كذلك تفسير ابن كثير ٣٢٠/٣١٩/١ كذلك الجامع لأحكام القرآن ١١٢٤/٢ - ١١٢٥ (بتصرف) .

المطر على الحجر الصلد وبين أثره على الأرض الطيبة ، فهناك جذب وعدم عطاء
وهنا خصب ونماء ، حتى وإن قلت كمية المياه فالعطاء دائم والنمو زائد لا ينقطع
بينما يحق المن والاذى والرياء الصدقه هناك ويمحوها وتزكي هنا مرضاة الله الصدقة
وتنميها . (١)

أى جمال فى التعبير أكثر من هذا وأى إبداع فى النظم أعظم وأقدس مانقراً هنا
ونسبح ؟ !

لا شك أنه إبداع النظم القرآني المتميز ذلك الذي يطلبه المعنى ويحتّمه .
هذا من جهة مناسبة المثل لماسبقه من آيات أما من حيث مناسبتة لمابعد من
آيات ، فنلاحظ أن الآية التالية له مباشرة (٢) ، بدأت بالاستفهام الإنكاري في قوله
تعالى :-

(أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا
مِنْ كُلِّ الشَّرَاةِ وَأَصَابِهِ الْكِبْرُ وَلَهُ زُرِّيَّةٌ مُّضَعَّفَةٌ فَاصَابَهَا عَصْفٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ
يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) .

نقول قد بدأت الآية - كما نلاحظ - بهمزة الاستفهام الإنكاري لتدل على هذا
الارتباط الجميل بين المثليين السابقين وبين هذه الآية اللاحقة بهما ، إذ لا يوجد
عاقل - على الإطلاق - يرضى أن يذهب ماله سدى ولا يقبل انسان واع ألا يجني ثمر
عمله في لحظة هو أحوج ما يكون إليه ، ألا وهي لحظة الحساب في ذلك اليوم الموعود
الذي لا رجعة بعده ولا عمل .

نقول لا يمكن أن يقبل أحد هذا خاصة إذا علم أن منه وأذاه ورياءه فسي
الدنيا ستكون نتيجتها خاسرة في ذلك اليوم الذي كان ينتظر فيه الثواب الجزيل
على ما بذل وفعل ولكن هيهات هيهات . (٣)

(١) فى ظلال القرآن ٣٠٩/١ (بتصرف) .

(٢) سورة البقره ، ٢٦٦ .

(٣) فى ظلال القرآن ٣١٠/١ (بتصرف) .

ج - العبرة منه :- من تلك المقابلة اللطيفة التي وقفنا إزاءها في الآية الكريمة بين الصدقة المتبوعة باليمن والأذى أو المقصود بها الرِّياء والسُّمعة ، وبين الصدقة المقدمة طمعاً في رضا الله ومشوته ومعرفة جزاء كل من الأولى والثانية ، نقول من تلك المقابلة اللطيفة تتطلع نفس المؤمن دائماً إلى الأفضل وتسعى جهداً لنيل أجزل العطاء وأنداه ولم لا ، وقد رسم لنا هذا المثل القرآني الصورة كاملة رسماً محسوساً مجسماً بكل عناصرها وجزئياتها ابتداءً من مكوناتها الأساسية إلى أن يصل بنا في النهاية إلى عرضها لمعرفة مدى تأثيرها في المشاهدين .

أما جزئيات تلك الصورة ومكوناتها ، فهي صدقة كبيرة أو قليلة مقدّمة لوجه الله ، إما سرّاً وإما علانية لا ينتظر منها الا رضا الله وشوابه . وهي هنا تشبه بستاناً كيف الأشجار وأرف الظلال على رثوة خصبة ترويهما مياه الأمطار ، فتضاعف عطاءها ماشاء الله لها ، أما إن تأخر المطر عليها فلا تحرم من وذان الندى اللطيف الذي يقوم ببعض المهمة .

تلك هي الصورة الجميلة المجسّدة - التي نقلها لنا هذا المثل البديع فأية عبرة يمكن أن تؤخذ منه بعد ذلك التوضيح وبعد هذا الترغيب ، فالصورة جميلة وتأثيرها أجمل منها وعبرتها أسمى وأسمى ، ذلك هو القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وتلك هي طريقته فسي الإقناع العقلي والإمتاع العاطفي اللذين لا يستطيعهما بشر مهما بلغ الذروة من الفصاحة والبلاغه . (١)

والذي شهد له المشركون أنفسهم بذلك فقال فيه الوليد بن عقبه
(والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمُعْرَق (٢) وإن
أعلاه لمشر ، وما يقول هذا بشر) (٣)

(١) نظرات في القرآن . محمد الغزالي . ص ١٤٩ طه دار الكتب الحديثه
(بتصرف) .

(٢) وفي رواية أخرى لمفدق .

(٣) الرسالة الشافية ، عبد القاهر الجرجاني ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن
تح . د . محمد خلف الله أحمد ، محمد زظول سلام ص ١١٤ ، دار المعارف
القاهرة .

د - دراسة المثل وتحليله بيانياً :-
تشتمل الآية الكريمة :-

(وَ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَ تَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ (. . .) الْآيَةَ (١)

نقول تشتمل الآية على تشبيه تمثيلي وهو عبارة عن تمثيل صورة مركبه بأخرى مثلها أما الأول فهي عقلية مجردة وأما الثاني فهي حسية ملموسة لتقريب المعنى الأول وتوضيحه .

والمصورة العقلية أو المعنى العقلي المجرد هو حال النفقة التامية لا ابتغاء مرضاة الله تعالى والزكوة بما فيها من تثبيت النفس على صدق النيّة وإخلاص الإيمان له سبحانه - وأما المعنى الحسي الموضح للمشبه فهو حال جنة أو بستان يانع على رهوة كريمة التربة جزيلة العطاء يزيد من عطائها ونموها ما يسقط عليها من مطر غزير أو طلل يسير .

وأما الوجه المشترك بينهما فهو النمو والزيادة في محل (٣) وعلى هذا الوجه من التركيب يعتبر من التشبيه التمثيلي - كما أشرنا - أما إذا قيل إنه من التشبيه المفرق فحينئذ يكون المقصود تشبيه حال أولئك المنفقين أموالهم لوجه الله وابتغاء مرضاته بجنة على رهوة وتشبيه نفقتهم القليلة أو الكثيرة بالوابل أو الطل فكما أن كل واحد من الاثنين يضاعف محصول الجنة ويزيد من عطائها فكذا نفقتهم جلت أو قلت - إذا طلب بها وجه الله - زاكية نامية عنده - سبحانه وتعالى - (٣) ونرى أن التشبيه التمثيلي هنا أكثر جمالاً وأوفى بالفرض من التشبيه المفرق .

أما إذا نظرنا إلى سياق الآية الكريمة فنلاحظ :-

انتصاب المصدر (ابتغاء) ثم عطف المصدر (تثبتاً عليه) - وذلك بالواو العاطفة .

(١) سورة البقرة ، ٢٦٥ .
(٢) روح المعاني ، ٣ / ٣٦ (بتصرف) .
(٣) نفسه ، كذلك تفسير النسفي ١ / ٣٤ (بتصرف) .

وقيل إنَّ نصب ابتغاء هنا لكونه مفعولاً لأجله ، وقد رفض ابن عطية هذا وذلك لأنَّ (تثبيتاً) معطوفاً عليه ولا يصحُّ - عنده - أن يكون الإنفاق للتثبيت . (١)
ونرى أنه ليس من الخطأ أن يعتبر (ابتغاء) مفعولاً له ولا يمنع منه عطوف
(تثبيتاً) عليه خلافاً لابن عطية لأنَّ النَّفَقَةَ تكون رغبةً في الحصول على الثوبوبة
ورضوان الله من جانب وتكون أيضاً لتمارين النفس ورياضتها وتمكينها في مجال
البذل والعطاء في سبيل الله وإخلاص العمل له وحده - سبحانه - والله أعلم
بالصواب .

أما أبو حيان فذهب إلى قوله :-

(فالمعنى - والله أعلم - أنهم يثبتون من أنفسهم على الإيمان بهذا العمل الذي
هو إخراج المال الذي هو عدل الروح في سبيل ابتغاء رضا الله لأنَّ مثل هذا العمل
شاقٌّ على النفس فهم يعملون لتثبيت النفس على الإيمان و ما ترجوه من الله بهذا العمل
الصعب لأنها إذا ثبتت على الأمر الصعب انقادت وذلَّت له وإذا كان التثبيت مسنداً
إليهم كانت " من " في موضع نصب متعلِّقه بنفس المصدر وتكون للتبعيض (٢) مثلها
في هزَّ من عطفه وحرك من نشاطه ، وان كان التثبيت مسنداً في المعنى إلى أنفسهم
كانت " من " في موضع نصب أيضاً ، صفة للمصدر وتقديره كائناً من أنفسهم) (٣) ،
هذا عن موقع " تثبيتاً " من الإعراب ، واختلاف الآراء فيها - لكن ماذا ترانا
نستوحى من هذا القول أو ما الذي يوحيه (تثبيتاً) ؟ .

لا شك أننا بشيءٍ من التأمل في هذا اللفظ ، نستوحى منه مدى تعبيره عن المعنى
تمام التعبير كذلك تتناسب حروفه مع السياق تمام المناسبة ، إذ لو كان الهدف مسن

-
- (١) البحر المحيط ٢ / ٣١٠ بتصرف كذلك فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية
من علم التفسير ، محمد بن علي بن محمد الشوكاني ١ / ٢٨٤ ط ٣ سنة ١٩٢٤ م
مكتبة ومطبعة مصطفى البابي وشركاه .
- (٢) ذكر الزمخشري في معنى التبعيض هنا قوله (إنَّ من بذل ماله لوجه
الله فقد ثبت بعض نفسه ومن بذل ماله وروحه معا فهو الذي ثبتها كلها
(وَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ) فضلا راجع الكشاف ١ / ٣٩٥ .
- (٣) البحر المحيط ٢ / ٣١١ .

اللفظ تعبيره - هنا - عن المعنى فقط لسدّ القول (تمكيناً) - مثلاً - مــــدّه
ولكن لما كان السّياق القرآنيّ الجميل دائم التناسب والتّناسق بين مباني ألفاظه
ومعانيها ، جاء اللفظ (تثبيتاً) - هنا - أنسب من غيره وذلك لمعناه ومبناه معاً .
ثم جاء قوله تعالى : (مِنْ أَنْفُسِهِمْ) ، فقليل في (مِنْ) ثلاثة أقوال :-

١ - رآماً أنّها للتبعيض - وقد سبق الإشارة إليه (١) .

٢ - أو أنّها لا ابتداءً الغاية (٢) ، كقوله تعالى : (حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ) .

٣ - أو أنّها بمعنى اللّام أي توطيئاً لأنفسهم على طاعة الله تعالى .

وقد رأى الألوّسى أنّ الوجه الأخير ليس يبرعيد (٣) ورغم أنّ الوجهين الأخيرين
صحيحان إلا أنّنا نرجّح هنا الرأى الثاني منهما وهو كون (من) لا ابتداءً الغاية ، فهى
في رأينا أبلغ في السّياق على هذا الاعتبار ، لأنّ المقصود بها - والله أعلم - أن نفقة
الذين يرجون رضا الله وثوابه نابعة من قرار أنفسهم أو من أعماقها ، وهذا دليل على
قوة الإيمان فيها وإخلاصهم في العطاء ، وأن نفقتهم ليس بدافع من أحد سوى
أنفسهم .

ثم يأتي التّشبيه في قوله تعالى (كَمَثَلِ جَنَّةٍ بَرْنُورَةٍ) . الآية ، فالكاف هنا
للتّشبيه .

أمّا قوله (جَنَّةٍ) وقرىء (حَبَّة) (٤) ، فعلى القراءة الأولى نلمس مدى دقّة
السّياق في مجيء لفظ (جَنَّةٍ) هنا بدلاً من لفظ بستان - مثلاً - كذلك نشعر
برشاقة هذا اللفظ وجماله في مكانه عن غيره .

أمّا عن الدقّة في هذا اللفظ في مكانه من السّياق ، فلأنّ الحديث جاء عن الذين
يبتغون مرضاة الله بانفاق أموالهم في سبيله - وهؤلاء لا يطرِبهم إلاّ الحديث عن الجنّة

(١) فضلاً راجع هامش ص ٩٦ من هذا البحث .

(٢) مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل (١ / ٣٤) بتصرّف .

(٣) روح المعاني ٣ / ٣٦٠ . (بتصرّف)

(٤) إرشاد العقل السّليم الى مزايا القرآن الكريم (١ / ٢٥٩) .

ونعيمها وجمالها ، فجاء لفظ (جنة) - هنا - معبراً عن غاية ما يتمنون - وإن كان المقصود بها بستاناً من بساتين الدنيا - فان مجرد أن يطرق سمعهم لفظ (جنة) تتفأل مشاعرهم ثم تستشرف أنفسهم متطلعةً إلى جنة الخلد في الآخرة ، بل كأن الآية الكريمة تزف البشرية لهم مجسدة ما ينتظرونهم في الآخرة .

ثم لا يكتفي هذا السياق الجليل بذكر اللفظ مفرداً للترغيب في بذل المال بل يحدد موقع هذه الجنة النامية أيضاً بلفظ فيه معنى الزيادة والنماء وهو لفظ (رهوة) ليكون المعنى أدعى للتأثير وأقوى في الترغيب فضلاً عن مدى خصوبة هذا المكان ولطافة هوائه الكافيتين لنماء الزرع وزيادته ، ثم يزيد المعنى جمالاً وترغيباً أن يأتي قوله تعالى :-

(٢) (أَصَابَهَا وَابِلٌ فَاتَتْ أَكْهًا ضِعْفَيْنِ) ، فهذا البستان الخصيب ذو الموقع الحسن والهواء اللطيف يزيد الوابل من عطائه ، كذلك لا يفوتنا هنا كيف جاءت كلمة (وابل) في السياق ولم تأت مثلاً كلمة (غيث) لأن الغيث لا يكون إلا بعد استغاثة وطلب ، أما الوابل فيكون عطاءً سخياً دائماً ، ويضفي على المعنى المذكور جمالاً وفي قوله (آتَتْ أَكْهًا) ، ما يدل على أن الجنة هنا - لجودة عطائها - تؤتي ثماراً صالحة للأكل كلها بلا استثناء نعم إن غاية الجود ومنتهى الكرم فهي أيضاً التي تؤتي الثمر ولا يجنى منها كباقي الجنات

لكل هذا ولأكثر منه نجد الدقة والجمال في مجي لفظ (أَكْهًا) بدلاً من (ثمرها) مع صحتها .

وفي إضافة الأكل إلى ضمير الجنة وهو الهاء في قوله (أَكْهًا) إضافة اختصاص (٣) كقولنا : سرج الفرس وباب الدار ثم يجيء لفظ (ضِعْفَيْنِ) - هنا - لبيان مدى هذه الزيادة وقد قيل إن المقصود بالضعف هنا المثل وإن هذه الزيادة

(١) أساس البلاغة مادة رهوة ، ولها قراءة مثلثة (رهوة) (رهوة) (رهوة)

جاء ذلك في فتح القدير ٢٨٥ / ١ (بتصرف) .

(٢) وقرئت أيضاً بسكون الكاف للتخفيف فضلاً راجع إرشاد العقل السليم إلى مزايا

القرآن الكريم ٢٥٩ / ١ .

(٣) فتح القدير ٢٨٦ / ١ (بتصرف) .

يحتمل أن تكون أربعة أمثال ، ونصبت **ضَعْفَيْنِ** * على الحال من **أَكَلَهَا** أي مضافاً (١)
(٢)
بينما رجَّح ابن القيم في * طريق المهجرتين * أن الضعف بمعنى المثل فقط .
وليؤكد السياق حال الصدقة النامية - على قلتها - فقد جاء التعبير فيه
بلفظ (طَلَّ) والطلُّ - هنا - هو قطرات الندى والمقصود أن الزيادة حاصلصة
بآية حال من الأحوال .

أما من جهة التركيب ، فنلاحظ هنا إيجاز حذف ويكون التقدير حينئذٍ (فطسل
يكفيها) (٣) أو (فالذي يصيها طل) (٤) .
وثرَّجَ هنا الرأي الأول أو التقدير الأول لقلَّة الحذف فيه .
ثم يأتي قوله تعالى : - (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) وهذا من غير شك يحمل معنى
الترغيب والترهيب معاً إذ يرغَّب في الإنفاق ابتغاء مرضاة الله ويحمل معنى الترهيب
لمن يخالف ذلك .

هذا من جهة المعنى أما من جهة الألفاظ وتركيبها في السياق ، فنلاحظ :-
تقديم المسند إليه في قوله (والله) وهو مبتدأ هنا وذلك للتعظيم .
ثم يأتي قوله : (بما تعملون) فيتقدَّم الجار والمجرور - على متعلقه وهو
العقل ، للإشعار - بأهمية المتقدَّم .

ثم نلاحظ مجيء قوله (بما تعملون) بين لفظ الجلالة (الله) وهو كافٍ
لمعرفة كل أمر خفيٍّ وبين لفظ (بصير) وهو الدال على الصفة العظيمة - اللائقة
به - سبحانه وتعالى - (٥) وهي هنا أنسب من (خبير) (٦) في السياق لأن . .

-
- (١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١ / ٢٦٠ (بتصرف) أيضاً فتح
القدير ١ / ٢٨٦ (بتصرف) .
(٢) طريق المهجرتين و باب السعادتين ، ص ٤٨٢ .
(٣) الكشاف ١ / ٣٩٥ كذلك إرشاد العقل السليم ١ / ٢٦٠ (بتصرف) .
(٤) إرشاد العقل السليم ١ / ٢٦٠ (بتصرف) .
(٥) جاء في اللسان (البصير) هو الذي يشاهد الأشياء كلها ظاهرها وخافيها بغير
جارحة والبصر عبارة في حقه عن الصفه التي ينكشف بها كمال نعوت المبصرات
(فضلاً راجع اللسان " بصور " .
(٦) هو اسم من أسماء الله عز وجل العالم بما كان وما يكون فضلاً راجع اللسان " خبر " .

٧ قال تعالى :-

(أَيُّودٌ أَحَدَكُمُ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضَعُفٌ فَأَصَابَهَا أَعْصَارٌ فِيهَا نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) (١)

أ - المعنى العام :- صورة مؤثرة رادعة تنقلها لنا الآية الكريمة إلا وهي صورة جنّة

فيحاء ملتفة الأشجار وارفة الظلال تغذيها الأنهار وتزينها الثمار . . . بسند صاحبها من أجلها ما بذل في سبيل أن تقر عينه بها ساعة حاجته إليها عند كبر سنّه وضعف أبنائه ، فإذا بتلك السّاعة تحين ولكن . . . يعد فوات الأوان ، . . . لقد ذهب عنه ما قدّمه وأصيبت جنّته بريح شديدة ، بل قد كان فيها ناراً فالتهمت ما كان بالجنّة من أشجار وثمار .

ذلك هو المثل الذي ضربه الله في هذه الآية الكريمة (للمرائي وقيل هو مثل اللمان في الصدقة ، وقيل للمفطر في الطاعة وقيل أعطي الشباب والمال فلم يعمل حتى سليماً) (٢) .

وقال ابن عباس ^{هو} لرجل غني يعمل بطاعة الله ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله . (٣) .

و (قال الحسن هذا مثل قلّ والله من يغتله من الناس شيخ كبير ضعف جسمه ويكر صبيانه أفقر ما كان إلى جنّته وإنّ أحدكم أفقر ما يكون إلى عطسه إذا انقطعت عنه الدنيا) (٤)

وقيل : إنّ عمر بن الخطّاب - رضي الله عنه - تلا هذه الآية ثمّ قال :-

(هذا مثل ضرب للإنسان يعمل عملاً صالحاً حتى إذا كان عند آخر عمره

أحوج ما يكون إليه عمل عمل السوء) (٥) .

(١) سورة البقره ، ٢٦٦ .

(٢) البحر المحيط ٣/٣٦٣ .

(٣) تفسير ابن كثير ١/٣٢٠ (بتصرف) .

(٤) التفسير القيم ، ١٦٢ .

(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣/٧٥ .

ونرجح هنا الرواية الأخيرة المنقولة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لأن عمل السوء يشمل كل الروايات السابقة من من أوريا أو أذى أو ماشابه ذلك ، والله أعلم .

وعلى هذا ، فقد ضرب هذا المثل في الآية الكريمة لإعمال الفكر والبصيرة فيما يملكه الإنسان في حياته الدنيا ، وعليه أن يأخذ العبرة منه ، والتي سيتم ايضاحها فيما يلي من الصفحات (١) .

ب - مناسبته في السياق :- من دراسة الآيات السابقات (٢) لهذا المثل اتضح لنا مدى حثها على النفقة في سبيل الله وعلى إخلاص النية فيها لوجهه تعالى ووجوب خلوها من المن أو الرياء والأذى بأي شكل كان ، وما زال السياق القرآني الغد ينوع في عرض هذا المعنى لتأكيد به بالتصوير تارة (٣) وبالتقرير أخرى ثم بالنهي والتصوير الرابع (٥) أو الدافع مرة ثالثة ، ثم يعود هنا ليصور المعنى مرة أخرى بطريقة جديدة فيها من إيقاظ المشاعر والضمان ما فيهم فيبدأ الآية بالاستفهام الإنكاري الذي يوشك أن يجيب بالرفض - إن لم يكن أوحى بذلك - فهاهي ذي الآية تقول :-

(أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ . . .) الآية (٧)

وهكذا نلاحظ الارتباط الوثيق بين هذا المثل وبين ما قبله من آيات

كريمات .

أما عن ارتباطه بما بعده فيبدو في أن الآيات التالية (٨) بدأت تتحدث عن نوعية هذه الصدقة - بعد أن رغبت الآيات السابقات فيها وبينت مدى

(١) فضلا اقرأ ص ١٠٣ من هذا البحث .

(٢) سورة البقرة من آية ٢٦١ - ٢٦٥ .

(٣) سورة البقرة ، ٢٦١ .

(٤) سورة البقرة ، ٢٦٢ - ٢٦٣ .

(٥) سورة البقرة ، ٢٦٤ .

(٦) سورة البقرة ، ٢٦٥ .

(٧) سورة البقرة ، ٢٦٦ .

(٨) سورة البقرة ، ٢٦٧ .

نموّها وزيادتها - فكان من الطبيعيّ - هنا - أن يبيّن السّياق كيف يجب أن تكون الصدّقه وكيف يجب أن تُختار من أطيب ما يكسب المؤمن ومما تخرج الأرض وألا تكون تلك الصدّقة بما يكره الإنسان أو ما خُبث من ماله ، لأنّ المولى - سبحانه - ليس في حاجة إلى شيء من هذا وإنما هي لمصلحة المؤمن نفسه كما أشرنا من قبل (١) .

أمّا ما يُخيّل للإنسان من نقص المال بالصدّقة فهو من فعل الشيطان ووعده . . . الكاذب وشتان شتان ، بل ليس هناك مقارنة بين ما يهدبه الشيطان وبين من يتصالح وعهد الله به وشتر ، فهو الذي وسع علمه كلّ شيء وهو الذي يُضاعف الحسنات لمن يشاء ، لأنّه يعلم مدى صدق مخرجيها وإخلاصهم (٢) .

ولن يدرك قيمة هذه الصدّقات وفضلها إلا من أُوتِيَ الحكمة والإصابة في تصرفه وعمله (٣) .

وهكذا يمضي السّياق في الإخبار عن شمول علم الله وإحاطته بنفحة التطوّع أو نفحة النذر أو نفحة العلانية أو السرّ (٤) .

وهكذا نجد التدرّج في الانتقال من معنى إلى آخر ، فليس ثمة مطلقاً ، ذلك الانتقال المفاجيء الذي يمكن أن يحدث في الانتقال من معنى إلى آخر . . . (٥)

ج - العبرة منه :- تشير الآية الكريمة إلى الغرض الحقيقي الذي يحمله المثل الكريم

في سياقه ان قال تعالى :-

(كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ)

ذلك الغرض هو أن الله سبحانه وتعالى يبيّن هذه الآيات الدالّة على حقائق

الأمر وغاياتها وفوائدها وغوائلها مثل هذا البيان البارز في أبهى معارض

التشثيل ليتفكّر المسلم في عواقب الأمور ، فيضع النّفقات في مواضعها التي يرضاها

(١) فضلاً راجع ص ٩١ - ٩٣ من هذا البحث .

(٢) سورة البقره ، ٢٦٨ .

(٣) تفسير ابن جرّي ص ٦٢ (بتصرف) .

(٤) سورة البقره ، ٢٧١ .

(٥) إعجاز القرآن ، ص ٣٦ (بتصرف) .

مع الإخلاص فيها وتثبيت النفس على ذلك حتى لا يستحقها الطيِّش والإعجاب ، فيدفعها
إلى المن والأذى أو إلى الرياء والسُّمعة (١) ، فضلاً عن ذلك الحذر الشديد الذي
تشعر به النفس عند تصوُّر ذلك المشهد الذي رسمه لنا السِّياق بدقَّة ووضوح .

— — —

(١) تفسير القسريِّ بن الحكيم (تفسير المنار) محمد رشيد رضا ٣ / ٧٠ ط ٢ ،
دار المعرفة للطباعة ، بيروت (بتصرُّف) .

د - دراسة المثل وتحليله بيانياً :- نلمح في الآية الكريمة تشبيهاً تمثيلاً إذ شُبِّهَتْ

حال من يُنْفِقُ ماله متبوعاً بما يحيطه من عمل السُّوء فتكون نتيجته الحسرة والتندامة يوم حاجته إليه - وهو يوم القيامة إذ يذهب ما قدّمه هباءً - تشبيهه من كانت هذه حالته بحال من كانت له جنة مطّفة الأشجار وارفة الظلال تحفّتها الأنهار وتزيّنها الثّمار ، قد بذل صاحبها جهده فيها حتى اذا جاء اليوم السّذي هو أحوج ما يكون إلى عطائها ونائها - لكبر سنّه وضعف أبنائه أصابها ریح شديدة فيها سموم ونار فأحرقت كلّ محتوياتها وذهبت أتعابه سدى (١). هذه هي الصّورة الجميلة المؤثّرة التي نقلتها لنا الآية الكريمة وهي من التشبيه التمثيلي كما يبدو .

أما وجه الشبه المشترك بين الحالين ، فهو تقديم عمل من الأعمال قد أُتبع بما يفسده ، فيؤدّي ذلك إلى عدم الانتفاع منه في أحوج الأوقات وأحوجها إليه .

وبدراسة السّياق في الآية الكريمة تبدّ وبلاغة هذا المثل في نسقه وأسلوبه فضلاً عن جمال صورته التمثيلية الموضحة سابقاً (٢) .

ولدراسة هذا السّياق علينا قراءة الآية مرّات ومرّات قال تعالى :-

(أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضَعْفَاءٌ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) (٣)

فتبدأ الآية - كما يبدو - بهذا الاستفهام الإنكاري (وهو أبلغ من النفي

والنهي والطف موقعاً) (٤) ، لأنه - كما نرى - يكاد ينطق بالاجابة

(١) روح المعاني ٣٨/٣ (بتصرف) .

(٢) فضلاً عن نظيره في سورة البقرة ٢٦٦ .

(٣) سورة البقرة ٢٦٦ .

(٤) التفسير القيم ، ١٦٣ .

السُّلْبِيَّةُ - ان لم يكن قد أوحى بها - في بلاغة وجمال ، ثم تأتي بعد ذلك جُملة (يودُ) وهو من الفعل (وُدَّ) إذ قال ابن فارس في ذلك :-

(الواوُ والدال كلمة تدلُّ على محبة . وودتُه : أحببته) (١)

وقال الرازي في تفسيره الكبير (الودُّ هو المحبة الكاملة) (٢) ونقول هنا :

إذا علمنا أن هذا هو المعنى الذي تحمله لفظة (يودُّ) أدركنا مدى البلاغة

القرآنية في استعمالها - هنا - بدلاً من جُملة (يريد) - مثلاً - لأنها تدلُّ

على نفي إمكان حصول هذا الشيء مطلقاً لاستتكار حبة له (٣) والاستفهام هنا للتبديد والنفي والمعنى ما يودُّ أحدٌ ذلك (٤) .

ثم نلاحظ كيف جاء السِّياق بجُملة (يودُّ) ولم تأت جُملة (يحب) مثلاً مع

إمكان مجيئها ولكن جُملة (يودُّ) تعني حبَّ الشيء مع تمتي وقوعه (٥) بينما لا نجد

نفس المعنى في جُملة (يحب) فضلاً عما في لفظ الودِّ من رقة وعذوبة واضحة

تؤدِّيان إلى لمس الشاعر لمساً رقيقاً ليلاً ، ترتاح إليه النفس ويطمئن به القلب

مما يدفع المخاطب إلى الاستجابة والإذعان بلا تردد أو تقصير ثم جاء الخطاب بقوله

تعالوا (أحدكم) .

قال أبو حيان (وأحد هنا ليس المختصُّ بالنفي وشبهه وإنما المعنى أيودُّ

واحد منكم على طريق البدلية) (٦) .

ونرى هنا أن في استعمال لفظ (أحدكم) شيئاً من المودة في الخطاب

ونقصد بهذا ذلك الهمس المحبب الذي ينفذ إلى قلب كل سامع لهذه اللفظة

لأنه يترك فيه شعوراً أكيداً أنه المعنى بهذا الخطاب الذي يجب التفكير فيه وأخذ

العبرة منه .

(١) مقاييس اللغه * ودَّ * .

(٢) التفسير الكبير ٥٨ / ٧ .

(٣) التفسير الكبير ٥٩ / ٧ (بتصرف) .

(٤) البحر المحيط ٣١٣ / ٢ (بتصرف) .

(٥) المفردات في غريب القرآن ، الأصفهاني * ودَّ * . (بتصرف)

(٦) البحر المحيط ٣١٣ / ٢ - ٣١٤ .

ويعلق ابن القيم على قوله تعالى (أَيُّودٌ أَحَدَكُمُ) بقوله :-

(وقال تعالى : (أَيُّودٌ أَحَدَكُمُ) بلفظ الواحد لتضمنه معنى الإنكار العام ، كما تقول

أيفعل هذا أحد فيه خير ؟ وهو أبلغ في الإنكار من أن يقول أَيُّودُونَ . وقوله :-

(أَيُّودٌ) أبلغ في الإنكار مما لو قيل أيريد لأن محبة هذا الحال المذكور وتمنيها

أقبح وأنكر من مجرد إرادتها (١)

ثم جاء قوله تعالى :-

(أن تكون له جنة (٢) من نخيل وأعناب)

(فذكر جل وعلا - أن هذا البستان من النخيل والأعناب والثمرات هو ذلك الشجر

المعروف بفوائده العظيمة من خشبه وجريده وليفه وخصوه وسائر ما يشتمل عليه

لذا ذكر هنا اسم الشجرة لتعدد فوائدها ، أما الأعناب ، فهي شجر الكرم وقد

ذكر هنا باسم ثمره ولم تذكر شجرته لاختصار فائدته على الثمر دون الشجر (٣) . كذلك

قيل : ان النخيل والأعناب خصا بالذكر ، لأنهما أشرف أنواع الثمار وأكثرها نفعاً

فمنهما القوت والغذاء والدواء والشرب والفاكهة ، والحلو والحامض وتؤكلان رطباً

ويابساً ، ومنافعهما كثيرة جداً فذكرتا تغليبا لهما على غيرهما (٤) .

وقيل إن مجيء قوله : (من نخيل وأعناب) (من باب تثنية ذكر ما يقع الاهتمام به

مرتين عموماً وخصوصاً ومثله فيهما فاكهة ونخل ورومان - إلا أنه في تلك الآية بدأ

بالتعميم وفي هذه الآية بدأ بالتخصيص (٥)

ثم جاء في الآية قوله (تجري من تحتها الأنهار) فقيل إن الماء في قوله

(تحتها) إنما عائدة على الجنة التي يقصد بها البستان المطبق الأشجار (٦) أو إذا

(١) التفسير القيم ١٦٣ .

(٢) قرأها الحسن جنات بالجمع . فضلاً أنظر البحر المحيط ٣١٤ / ٢ .

(٣) التفسير القيم ١٦٣ .

(٤) نفسه ١٦٣ ، أيضاً تفسير النسفي ١٣٤ / ١ (بتصرف)

(٥) حاشية السيد الشريف على بن محمد بن علي السيد زين الدين الجرجاني على

الكشاف ٣٩٥ / ١ .

(٦) فتح القدير ٢٨٨ / ١ (بتصرف) .

أريد بالجنة الأرض التي فيها الشجر فلا بد من تقدير مضاف محذوف فيكون المقصود
(من تحت أشجارها) (١) .

ونرجح هنا الرواية الأولى ، لعدم حاجتنا فيها إلى تقدير محذوف والجُملة
(٢)
(تجري من تحتها الأنهار) في محل رفع صفة للجنة أو حال من الجنة لأنها موصوفة .
ثم جاء قوله (لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) ، فذكر هنا العام بعد الخاص والمراد
بالثمرات هنا التكاثر .

وذهب الزمخشري إلى أنه يجوز أن يكون المقصود بالثمرات في هذا الموضع المنافع
التي كانت تحصل له فيها كقوله تعالى :-

(وَكَانَ لَهُ شُجُرٌ بَعْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى (جَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَْا بِنَخْلٍ) (٣)
ونقف هنا لنتأمل هذه الصفات الثلاث المذكورة في الآية الكريمة وهي :-

كون الجنة شاملة على النخيل والأعناب وتجري من تحتها الأنهار ثم له فيها من
كل الثمرات .

لا شك أنه إبداع فذ في رسم الصورة المتكاملة للجنة الحسنة في ألفاظ موحية
وعبارات مؤثرة تنقل المعنى والمشهد في جمال وجلال لا يليقان إلا بأسلوب القرآن
المتميز .

وبعد .. تلك هي وقفنا أمام الجانب الجميل من هذا المثل الكريم ، ولكن
كيف استطاعت هذه الآية نفسها أن تنقل لنا أيضا بألفاظها وعباراتها الجانب الآخر
من هذا المثل ؟!

يبدأ هذا المشهد بقوله تعالى :-

(وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ) - الواو هنا - كما يرى أبو حيان - للحال على تقدير " قد أي وقد
أصابه الكبر كقوله تعالى :-

(وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ) (٤)

-
- (١) فتح القدير ٢٨٨/١ كذلك الكشاف ٣٩٦/١ (بتصرف) .
(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٢٦٠/١ (بتصرف) .
(٣) سورة الكهف ٣٢ - ٣٤ .
(٤) سورة البقرة ٢٨ ، البحر المحيط ٣١٤/٢ (بتصرف) .

وجاء في الكشاف أنَّ العطف قد يكون على المعنى كأنه قيل :-

أيود أحدكم لو كانت له جنة وأصابه الكبر .

وينبغي أبو حيان ذلك لأنه يرى ألا أحد يود الإصابة بالكبر ، لذا فقد وجه ذلك

الرأي توجيهاً جميلاً إذ قال :-

(لكن يُحْمَل قول الزمخشري على أنه لما كان أيود استفهاماً معناه الإنكار جعل

متعلق الودادة الجمع بين الشيعين وهما كون جنة له وإصابة الكبر إياه إلا أن كل واحد

منهما يكون مودوداً على انفراده وإنما أنكر ودادة الجمع بينهما (٢) وقوله أصابه

الكبر أبلغ من القول (كبر) (٣) ونرى بلاغة واضحة في قوله (أصابه الكبر) لأنه

يسمئنا بمدى وقع الشيخوخة وكبر السن على صاحبهما انهما قد أصابه فعلاً لذا

كان ذلك القول " أصابه الكبر " أبلغ من قولنا (كبر) - كما بينا - ذلك .

ونعود - مرة أخرى - إلى احياء هذه العبارة بما تحمله من لفظين معبرين

(الإصابة) و (الكبر) وكما قلنا إنها بداية المشهد التصويري الآخر في المثل .

ولنرى كيف تنسج خيوط المأساة في هذا المثل خيطاً خيطاً بما توجه لنا ألفاظه لنظرة

بعد لفظه وعبارة تلو أخرى حتى تكتمل الصورة وتصل مع اكتمالها إلى الغاية التي قيل

لأجلهما المثل وهي أخذ العبرة والعظة منه وهي غاية البلاغة القرآنية ومقصدها الأسمى .

لنتأمل هنا المرحلة الثانية من المشهد التصويري المؤثر وهو قوله تعالى :-

(وله ذرية ضعفاء) (٤) .

يرى أبو حيان أن المقصود بالذرية الضعفاء هنا هم المحاويج (٥) .

كما يرى الأوسبي أن الواو في قوله (وله ذرية ضعفاء) في موضع الحال من

الضمير في (أصابه) والتقدير أي :-

(١) الكشاف ١ / ٣٩٦ .

(٢) البحر المحيط ٢ / ٣١٤ .

(٣) نفسه نفس الصفحه ، كذلك روح المعاني ٣ / ٣٧ .

(٤) وقري ر (ضعاف) فضلاً راجع البحر المحيط ٢ / ٣١٤ .

(٥) البحر المحيط ٢ / ٣١٥ (بتصرف) .

أصابه الكِبَرُ والحال أَنَّ له صِبِيَّةً ضَعْفَاءَ لا يَقْدِرُونَ عَلَى الكَسْبِ وترتيب معاشه ومعاشهم وترك التَّعْبِيرِ بِصِفَارٍ مَعَ مَقَابِلَتِهِ لِلْفِظِ الكِبَرِ لِأَنَّ التَّعْبِيرَ بِضَعْفَاءٍ هُنَا أَنْسَبُ (١) .

وَنَرَى أَنَّ التَّعْبِيرَ بِضَعْفَاءٍ هُنَا أْبْلَغُ لِأَنَّهَا تَعْطِي مَعْنِيَيْنِ يَصِحُّ أَنْ يَجْتَمِعَا مَعًا هُمَا صَفَرُ السَّنِّ وَعَدَمُ القُدْرَةِ عَلَى الكَسْبِ لِعَجْزِهِمْ ، أَمَّا لَفْظُ (صِفَارٍ) فَهُوَ مُقَيَّدٌ لِلْمَعْنَى إِذْ لَا يَشْمَلُ الاَصْفَرَ السَّنَّ فَقَطْ .

وَالعِبَارَةُ كَمَا تَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ الحَاجَةِ إِلَى هَذِهِ الجَنَّةِ الوَارِفَةِ الظَّلَالِ المُتَلَفَّةِ الأشْجَارِ وَالَّتِي بَذَلَ صَاحِبُهَا فِيهَا قِصَارَى جَهْدِهِ لِيجِدَهَا فِي هَذَا الوَقْتِ - وَقَتِ حَاجَتَهُ إِلَيْهَا وَلَكِنَّ المَأسَاةَ تَكْتَمِلُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى :-

(فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ) وَالْفَاءُ هُنَا عَاطِفَةٌ وَهِيَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الجَنَّةَ حِينَ أَزْهَتْ وَحَسُنَتْ وَجَاءَ وَقَتِ الاِنْتِفَاعِ بِهَا أَعْقَبَهَا الإِعْصَارُ (٢) .

وَهُنَا نَلَاظِ مَدَى البَلَاغَةِ فِي اسْتِعْمَالِ القَوْلِ (أَصَابَهَا) لِأَنَّ الإِعْصَارَ وَهُوَ الرِّيحَ الشَّدِيدَةَ العَاصِفَةَ قَدْ يَصْحَبُهُ نَارٌ - وَعِنْدَمَا يَأْتِي عَلَى جَنَّةٍ وَارِفَةٍ كَهَذِهِ لِأَنَّهَا أَصَابَتْهَا مَصِيبٌ كُلُّ مَا فِيهَا بِالدَّمَارِ إِلَى جَانِبِ مَا يُوْجِبِي بِهِ هَذَا اللفظ بِمَا يَحْتَوِي عَلَيْهِ مِنَ الهَمْزِ المَتَلَوِّ بِالعَيْنِ ثُمَّ بِالصَّادِ الَّتِي يَلِيهَا الألفُ المَدْوَدَةُ وَلِئِنْ تَتَأَمَّلَ هَذَا الصَّوْتُ أَوْ ذَلِكَ الجَرَسُ الَّذِي تَسْمَعُهُ خِلَالَ نُطْقِ هَذِهِ الكَلِمَةِ (إِعْصَارٌ) وَعِنْدَهَا تُدْرِكُ كَيْفَ أَوْحَى لَنَا فِي مَكَانِهِ بِمَعْنَاهِ وَفِعْلُهُ الحَقِيقِيُّ (٣) بِحَيْثُ لَا يَسْتَطِيعُ لَفْظٌ آخَرَ أَنْ يَحْلَلَ مَحَلَّهُ .

ثُمَّ يَأْتِي قَوْلُهُ (فِيهِ نَارٌ) فَتَسْبِيحُ نَوْعِيَّةٌ هَذَا الإِعْصَارِ (٤) ثُمَّ جَاءَتْ الكَلِمَةُ الأَخِيرَةُ فِي المَشْهَدِ لِتُؤَكِّدَ نَهَايَةَ هَذِهِ المَأسَاةِ قَالَ تَعَالَى :- (فَاحْتَرَقَتْ) وَقِيلَ إِنَّهُ فِعْلٌ مُطَاوِعٌ أَيُّ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ أَحْرَقَهَا فَاحْتَرَقَتْ (٥) .

(١) رُوحُ المَعَانِي ٣٧/٣ بِتَصْرِفٍ .

(٢) البَحْرُ المَحِيطُ ٣١٥/٢ (بِتَصْرِفٍ) .

(٣) يُقَالُ إِنَّ الإِعْصَارَ سَقَى اعْصَاراً لِأَنَّهُ يَعْصِرُ السَّحَابَ أَوْ يَعْصِرُ الأَجْسَامَ المُتَلَوِّ بِهَا

فَضْلاً انظُر رُوحَ المَعَانِي ٣٨/٣ .

(٤) نَفْسُهُ .

(٥) البَحْرُ المَحِيطُ ٣١٥/٢ (بِتَصْرِفٍ) .

ويرى الألوسى أن في مجيئ قوله تعالى :-

"فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ" من البلاغة ما فيه أكثر مما لو قيل فأصابها

نار فاحترقت (١) .

ونرى أن البلاغة هنا تكمن في وضع الألفاظ متجاورة مع ما فيها من إيحاء وجرس ليس لهما مثيل هذا فضلاً عما تحمله من معانٍ كبيرة ، فالاعصار مثلاً قد لا تكون فيه نار وقد تكون شمة نار ليست وليدة إعصار ، وحينما تقترن النار بالإعصار فذلك أدعى إلى انتشار النار السريع وأذاها وأذى الاعصار الفظيع .

ثم يختتم هذا المثل الكريم بقوله تعالى :-

(كَذَلِكَ يبينُ اللهُ لَكُمْ الآياتِ لعلَّكُمْ تتفكرون)

فالإشارة هنا عائدة - والله أعلم - على الصورتين التي نقلهما لنا السياق ونلاحظ أيضاً كيف جاء قوله (لَكُمْ) المحتوية على الجار والمجرور قبل قوله (الآيات) مع إمكان مجيئها في السياق بعدها ولكن نرى أن السبب في ذلك - والله أعلم - هو الاهتمام بشأن المتقدم .

ثم لنرى كيف ختمت الفاصلة بقوله (لعلَّكُمْ تتفكرون) ولم تختتم بقوله (تعقلون) لأن ضرورة التفكر هنا والتأمل في أمور الدنيا واضمحلال زخارفها أمر لا غنى عنه لأخذ العبرة والعظة منها وهو أهم من أي أمر آخر بالنسبة لهذا المثل والجملة كـ

تذييل (٢) على ما قبلها - والله أعلم ،،،،،،

..

(١) روح المعاني ٣ / ٣٨ .

(٢) التذييل : تعقيب الجملة بجملة أخرى تشتمل على معناها لتأكيد المعنى وتقويته

فضلاً راجع التلخيص في علوم البلاغة ٢٢٧ (بتصرف) .

٨ - قال تعالى :-

(الَّذِينَ يَأْكُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (١)

أ - المعنى العام :- في الآية الكريمة تنفير واضح من عمل مني كريبه له أضمراره

الاجتماعية الجسيمه ، ذلك هو الربا الذي حرّمه الله تعالى تحريماً نهائياً بقوله :-
• يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تَبَتُّمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ • (٢) .

نقول لقد جاء الترهيب من الربا الذي يعني شرعاً :-

زيادة يأخذها المقرض من المستقرض مقابل الأجل (٣) والمقصود بالتنفير هنا

نوعا الربا اللذان كانا معروفين في الجاهلية وهما :-

ربا الفضل وربا النسئة ، إذ كان غالب ماكانت تفعله الجاهلية ، أنه إذا حلَّ أجل الدين قال من هو له لمن هو عليه أتقضي أم تؤنني ؟ (٤) فإذا لم يقض زاد مقداراً في المال الذي عليه وأخر له الأجل إلى حين (٥) .

وقد بين المثل المذكور في الآية الكريمة ، كيف أن التعامل بالربا ستكون له

علامة تميزه يوم القيامة إذا بيعت من قبره ، تلك العلامة هي خروجه كالمصرع

الذي مايلبت أن يقوم حتى يقع مرة أخرى ، وليس ذلك لاختلال في عقله ، بل

(١) سورة البقره ، ٢٧٥ .

(٢) سورة البقره ، ٢٧٨ .

(٣) رواتع البيان في تفسير آيات الأحكام ، محمد علي الصابوني ١ / ٣٨٣ ط ٣ عام

٠٠ ٤ (مؤسسه مناهل العرفان - مكتبة الغزالي .

(٤) ربا : في اللغة ، ربوا كعلو وربا زان ونما ، و (أخذة رابية) أي شديدة

فضلاً انظر القاموس المحيط . أخذة (ربا) .

(٥) فتح القدير ١ / ٢٩٤ .

لأنَّ الله سبحانه وتعالى أرى ما أكله في بطنه من الربا ، فأثقله فصار مخبلاً ينهض ثم يسقط ، فتكون تلك سمته ومن هم مثله عند أهل الموقف (١) .

(وقيل الذين يخرجون من الأجدات يوفضون إلا أكلة الربا فإنهم ينهضون ويسقطون كالمصروعين ، لأنهم أكلوا الربا فأرباه الله في بطونهم حتى أثقلهم فلا يقدر أن يمشي (٣))
(الإيفاض) (٢) وقد استحقوا ذلك العقاب لدعواهم الباطلة بأن البيع مثل الربا فجعلوا الربا أصلاً والبيع مقيساً عليه ، لذا فقد أنكر سبحانه وتعالى - عليهم دعواهم هذه وبين أن ما أحلّه منهما هو البيع ، بينما حرم الربا ، فمن علم بهذا الوعد وذلك الزجر عن الربا وترك ما هو عليه ، فليس عليه حرج فيما مضى بل لا يؤاخذ عليه لأنه فعل ما فعل قيل مجيء التحريم ولذا فإن أمره موكل إلى الله - جلّ وعلا - ، هو الذي يحكم في شأنه وليس لأحد عليه شيء ، أما من عاد إلى ارتكاب تلك الخطيئة الكبرى وحلّل ما حرّمه الله من الربا ، فليس جزاؤه وأمثاله إلا ملازمة النار والخلود فيها أبداً (٤) .

ب - مناسبته في السياق :- من الملاحظ أن الآيات السابقة (٥) لهذا المثل واردة

في تفضيل الإنفاق والصدقة في سبيل الله ، ودعت إلى أن يكون ذلك من طيب ما يكسب الإنسان وعدم الإنفاق من الخبيث ، فذكر بهذه المناسبة نوعاً غالباً من الكسب في الجاهلية وهو الربا حتى لا تصرف الصدقة منه (٦) لأن الربا مشحون وقذارة ودنس وأثرة مفرطة ، وأما الصدقة فغطاء وسماحة وطهارة وزكاة وتعاون وتكافل (والصدقة نزول عن المال بلا عوض ولا رد ، والربا استرداد

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (١ / ٢٦٦) بتصرف كذلك التفسير الكبير ٨٩ / ٧ (بتصرف) .

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل ١ / ١٣٨ .

(٣) وذلك لأنهم قالوا : إنه يجوز بيع الدرهم بدرهمين كما يجوز بيع ما قيمته درهم بدرهمين . فضلاً عن إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (١ / ٢٦٦) ، (بتصرف) .

(٤) مدارك التنزيل وحقائق التأويل (١ / ٣٨) (بتصرف) كذلك تفسير القرآن الحكيم (المنار) (٣ / ٩٨) (بتصرف) .

(٥) سورة البقرة ٢٦١ - ٢٦٦ .

(٦) سورة البقرة ، ٢٦٢ .

(٧) البحر المحیط ٢ / ٣٣٣ بتصرف .

للدَّيْنِ ومعه زيادة حرام مقطوعة من جُهد السَّمْدِين أو من لحمه ، من جهده إن كان قد عمل بالمال الَّذِي استدانه نتيجة لعمله هو وكده ، ومن لحمه إن كان لم يربح أو خسر ، أو كان قد أخذ المال للنَّفَقَة منه على نفسه وأهله ولم يستريحه شيئاً (١) .
ويقول أبو حَيَّان : -

(وأيضاً فتظهر مناسبة أخرى - وذلك أَنَّ الصَّدَقَاتِ فيها نقصان مال والرِّبَا فيه زيادة مال فاستطرد من المأمور به إلى ذكر المنهيِّ عنه لما بينهما من مناسبة ذكر التَّضَادِ وأبدى لأكل الرِّبَا صورة تستبشعها العرب على عاداتها في ذكر ما استغفرتَه واستوحشت منه كقولهِ : " طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ " (٢) .
أما مناسبة هذا المثل لما جاء بعده من آيات ، فيبدو هذا الارتباط من الآية التَّالِيَةِ لهذا المثل (٣) وحتى نهاية السُّورَةِ ، إن نلاحظ أَنَّ ما جاء بعده من آيات قد تحدَّث فيها السِّيَاق عن إحباط الرِّبَا ونهايته الوخيمة ، وفي الوقت ذاته يبيِّن كيف تنمو الصَّدَقَةُ وتزكو (٤) .

ويؤكد بعد ذلك مضمون السِّيَاق في الآية التَّالِيَةِ (٥) إن الإيمان والعمل الصَّالِح من إقامة صلاة وإيتاء زكاة كل ذلك يؤدي إلى الاطمئنان على فاعلها في الدُّنْيَا والآخِرَةِ ، ثم تأتي ما بعدها من آيات (٦) لتحرم الرِّبَا تحريماً نهائياً وتتوعَّد من لم يأتمر بما أنزل الله ، أما إن تاب وأناب فله رأس ماله فقط ، وفي حالة عدم قدرة المَدِينِ على السَّدَادِ في الوقت المضروب بينه وبين الدَّائِنِ فعلى الآخر أن يُمهِّلَهُ حتى يتمكن من ذلك أو ليعتبر الدَّائِنُ ما قدمه للمدين صدقة ، وهي أفضل - بل أربب - لأنَّها مدخلة له في ذلك اليوم الَّذِي يعود فيه النَّاسُ إلى بارئهم فتوفى كلُّ نفس ما عملت من خير أو شر ، ثم تمضي الآيات بعد ذلك (٧) في تفصيل الطَّرِيقَةِ الَّتِي ينبغي أن يلتزم بها الدَّائِنُونَ والمَدِينُونَ وهي كتابة ذلك وتسجيله من قِبَلِ المَدِينِ

(١) في ظلال القرآن ٣١٨/١ .

(٢) البحر المحيط ٣٣٣/٢ . الآية من سورة الصَّافَّاتِ ٦٥

(٣) سورة البقرة ٢٧٦ .

(٤) سورة البقرة ، ٢٧٦ .

(٥) سورة البقرة ، ٢٧٧ .

(٦) سورة البقرة ، ٢٧٨ - ٢٨١ .

(٧) سورة البقرة ٢٨٢ - ٢٨٣ .

أو وليه والشهادة على ما كتب من قبل رجلين أو رجل وامرأتين حتى لا يكون هناك مجال للإنكار أو الزيادة فيه والنقصان منه .

أما إن كانت تجارة حاضرة فلا تنزم الكتابة على أحد ، وفي حالة كون المدين على سفر ولم يجد أحداً يكتب له ، فعليه أن يترك رهاناً للدائن ليضمن له حقه ، أما إن استغنى عن ذلك الرهان لثقة بينهما ، فعلى المؤمن أن يؤدّي أمانته ، وأن يعيد الحق إلى صاحبه وليتق الله في ذلك .

ثم تضي الآيات بعد ذلك لبيان أن الملك لله وأنه يعلم ما في أنفس الناس وما تخفي صدورهم ، لذا فهم محاسبون عليه وهو سبحانه صاحب المشيئة في ذلك إن شاء عذبهم وإن شاء تجاوز عنهم .

وتضي الآيات الكريمة في تأكيد إيمان الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه الأوامر واجتنابه عما نهى عنه ، وهو أشرف الخلق وأفضلهم كذلك من تبعه من المؤمنين ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الأجلاء ومن تبعه من المؤمنين خير مثل يحتذى (١) .

ثم تختتم السورة بدعاء يأتي به السياق القرآني هنا ليقوله كل من أخطأ أو حمل نفسه ما لا يطيق (٢) .

وهكذا بدا لنا من هذه النظرة السريعة لمعاني الآيات التاليات للمثل مدى الارتباط الوثيق بين آية المثل المذكور وبين ما سبقه أو ما لحق به من آيات كريمة في السياق إذ بيّنت هذه الآيات كل ما يمكن أن يسأل عنه مجادل في موضوع الرضا أو مراوغ يحاول أن يتعامل به بأي طريقة يراها صالحة في نفسه أو يظن صلاحها وعدم مخرستها .

(١) سورة البقره ٢٨٤ - ٢٨٥ .

(٢) سورة البقره ، ٢٨٦ .

ج - العبرة منه :- في المثل المذكور في الآية الكريمة (١)
(الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ)
..... الآية .

صورة منفرة بشعة يخافها كل من سمعها أو رآها ، فمبايل من يتخيّل
أنه صاحبها ؟ :

تلك هي صورة المرابي الذي امتص أموال الفقراء واستغل حاجتهم لماله
بمأخذه من زيادة غير مشروعة على ما ساعد هم به من مال ساعة حاجتهم وعوزهم
صورة تكرهها النفس ولا يرتضيها انسان ألا وهي صورة المتخبط الذي أصابه مس
من الجن أو الشيطان ذلك الذي لا يستطيع أن يقيم لنفسه قائمة ولا يعلم من
أمر نفسه شيئاً . . . صورة تفضح صاحبها وتدل عليه دلالة واضحة وسط الخلق
في يوم البعث .

نقول إذا كان ذلك هو شأن الصورة ، فما هو تأثيرها على المعنى بها
لاسيما إذا علمنا أن العرب تخاف ذلك وتأباه .

ومن هذا التأثير وذلك النفور الشديد تؤخذ العبرة من هذا المثل (٢)
ألا وهي الابتعاد عن التعامل بالرِّبا ومحاولة الكسب الحلال لأن المرابي
مكروه في الدنيا ومفضوح بين الناس في الآخرة . . . نعوذ بالله منه ومن أمثاله .
عيا بالله

(١) سورة البقره ، ٢٧٥ .

(٢) يهدف التشبيه في القرآن إلى التأثير في العاطفه فترغب أو ترهب فضلا انظر
في ذلك التعبير الفني في القرآن د . بكرى شيخ أمين ص ٩٥ ط ٣ سنة
١٩٢٩ م دار الشروق (بتصرف) .

د - دراسته وتحليله بيانياً :- إِنَّ أَوَّلَ صُورَةٍ بَيَّانَةٍ تَبْدُو لَنَا فِي هَذَا الْمَثَلِ هُوَ ذَلِكَ

التَّشْبِيهِ التَّمثِيلِيُّ الْوَاضِحُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :-

(الَّذِينَ يَأْكُونُونَ الرِّبَا لَا يُقِيمُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ) (١)

حيثُ شَبَّهَتْ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ حَالَ أَكْلِ الرِّبَا - أَثْنَاءَ خُرُوجِهِمْ مِنَ الْقُبُورِ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ فِي ثِقَلِ أَجْسَامِهِمْ وَضَخَامَةِ بَطُونِهِمْ وَفِي قِيَامِهِمْ وَوَقُوعِهِمْ عَلَى الْأَرْضِ فِي

تِلْكَ اللَّحْظَةِ شَبَّهَتْ حَالَهُمْ تِلْكَ بِحَالِ مَنْ أَصَابَهُ مَسٌّ مِنَ الشَّيْطَانِ فَهُوَ دَائِمٌ

التَّخَبُّطُ ، قَائِمٌ قَاعِدٌ لَا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ .

أَمَّا وَجْهُ الشَّبِّهِ الشَّرَكِيِّ ، فَهُوَ تِلْكَ الْهَيْئَةُ الْحَادِثَةُ مِنْ حُرُوكَاتِ مَضْطَرِبِهِ

وَأَفْعَالِ مُخْتَلِفِهِ حَائِثَةً تُوَدِّي إِلَى عَدَمِ الْقُدْرَةِ عَلَى فِعْلِ شَيْءٍ كَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ

تَعَالَى :- (إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا) تَشْبِيهِ آخَرَ وَهُوَ مِنَ التَّشْبِيهِ الْمُنْعَكِسِ (٢) أَوْ

المقلوب كقول الشاعر :-

أَهْدَيْتُ عَطْرًا مِثْلُ طِيبٍ ثَنَاءً لَهُ

فَكَأَنَّمَا أَهْدَيْتُ لَهُ أَخْلَاقًا لَهُ .

إِنْ جَعَلُوا الرِّبَا أَصْلًا وَشَبَّهُوا الْبَيْعَ بِهِ مِبَالِغَةً مِنْهُمْ وَقِيلَ (يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ

التَّشْبِيهِ غَيْرَ مَغْلُوبٍ بِنَاءً عَلَى مَا فَهَمُوهُ أَنَّ الْبَيْعَ إِنَّمَا حَلٌّ لِأَجْلِ الْكَسْبِ وَالْفَائِدَةِ

وَذَلِكَ فِي الرِّبَا مُتَحَقِّقٌ وَفِي غَيْرِهِ مُوَهَّمٌ) (٣) .

وَنَعُودُ إِلَى السِّيَاقِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ لِدِرَاسَةِ أَلْفَافِهِ وَعِبَارَاتِهِ وَمَعْرِفَةِ مَسْدِي

الْبَلَاغَةِ فِيهِمَا ، لِذَا فَلْنَعُدْ إِلَى الْآيَةِ مِنْ بَدَايَتِهَا قَالَ تَعَالَى :-

(١) سورة البقره ، ٢٧٥ .

(٢) لَقَّبَ بِذَلِكَ ، لَمَّا كَانَ جَارِيًا عَلَى خِلَافِ الْعَادَةِ وَالْإِلْفِ فِي مَجَازِي التَّشْبِيهِ وَقَدْ يُقَالُ لَهُ غَلِيَّةُ الْفُرُوعِ عَلَى الْأَصُولِ . (فَضْلًا أَنْظَرَ فِي ذَلِكَ كِتَابَ الطَّرَازِ الْمَتَمِّسِّ لِأَسْرَارِ الْبَلَاغَةِ وَعِلْمِ الْإِعْجَازِ . يَحْيَى بْنُ عَلِيٍّ الْعَلَوِيُّ الْيَمِينِيُّ ٣٠٩/١ أَشْرَفَ عَلَى مَرَاجَعَتِهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ عَامَ ٩٨٢ م) دَارُ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ ، بَيْرُوتَ ، كَذَلِكَ النَّهْرُ الْمَادُّ مِنَ الْبَحْرِ لِأَبِي حَيَّانَ بِيَهَامِشِ الْبَحْرِ الْمَحِيطِ ٣٣٤ / ٢٠

(٣) رُوحُ الْمَعَانِي ٥٠ / ٣ .

* الَّذِينَ يَأْكُونُ الرَّبَا ، لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ
 ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ
 مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
 خَالِدُونَ (۱) .

لنقف أولاً عند قوله تعالى :-

(الَّذِينَ يَأْكُونُ الرَّبَا)

نلاحظ أن السِّيَاقَ القرآنيَّ عبَّرَ عن أخذ الرِّبَا والتَّعاملِ به بالأكل فجاء القول
 (يَأْكُونُ الرَّبَا) ولم يقل مثلاً " يأخذون " أو " يتعاملون " ولعلَّ السَّببَ في ذلك
 كما ورد في كُتُبِ التَّفْسِيرِ - قديمها وحديثها (۲) - لأنَّ الأكلَ معظَمَ ما قصد به
 أو لأنَّ الأكلَ أقوى مقاصداً للإنسان في المال .

ونضيف إلى هذا التَّعليلَ تعليلاً آخر وهو أن في استعمال القول (يأكلون)
 مع لفظ (الرِّبَا) شيئاً من المبالغة والدقَّة ؛ أما المبالغة ، فلأنَّ المرابيَّ كالأكل
 النَّهْمَ الَّذِي لَا يُرْضِي فهُمَّه شَيْءٌ وَلَا تَنْتَهِي رَغْبَتُهُ فِي الطَّعَامِ عِنْدَ حُدِّهِ .
وأما الدقَّة ، فلأنَّ المرابيَّ قد أصبحت لديه غريزة الأخذ بلا عَوْضٍ (الأثرة)
 من القوَّة إلى حدِّ غريزة الجوع وهي أقوى الغرائز وأشدَّها تحكُّماً في صاحبها لهذا
 نجد في استعمال جملة (يأكلون) مع لفظ (الرِّبَا) هذه الدقَّة المتناهية ، لأنَّ -
 فيها من الدليل على أنَّ المرابيَّ قد تسلَّطت عليه غريزة حبِّ الذات - في صورة
 الأخذ بلا عَوْضٍ - إلى الحدِّ الَّذِي تسيطر فيه غريزة الجوع على صاحبها ولا يشبعها
 إِلَّا الأكلَ ، كذلك المرابيَّ لا يشبع نفسه الحقيرة إِلَّا أكل الرِّبَا بكلِّ ما في هذا القول
 * يَأْكُونُ الرَّبَا * من دقَّة وبلاغَة .

(۱) سورة البقره ۲۷۵ .

(۲) روح المعاني ۴۸/۳ كذلك الجامع لأحكام القرآن ۱۱۶۲/۲ وكذلك إرشاد
 العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ۲۶۶/۱ كذلك . تفسير القرآن الحكيم
 (المنار) ۹۴/۳ (بتصرُّف) .

ونعود مرة أخرى إلى لفظة (الرَّبَا) فنلاحظ أنها عُرِّقَتْ بِأَلٍ وهي هنا للعهد وليس للجنس - أي على حسب ما كان معهوداً ومعروفاً بينهم (١) وهو في الأصل من (رَبَا) أي إزاد (٢) .

وقوله (الَّذِينَ) مبتدأ خبره (لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ) أما قوله (لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ) فقيل في جملة (لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ) جملة حالية ، بينما يستبعد ذلك أبو حيان إن يتكلف إضمار خبر من غير دليل عليه (٣) .

ونرى هنا في استعمال القول (لَا يَقُومُونَ) - والمقصود به القيام من القبور يوم البعث - (٤) نقول نرى في هذا الاستعمال البلاغة الواضحة إن أنه يوحى بذلك الثقل الذي ينتاب أولئك المرابين أثناء نهوضهم من القبور يوم البعث (٥) لكثرة ما أكلوا من مال الحرام ، لذا جاء التعبير بجملة (لا يقومون) بدلاً من " يقفون " مثلاً أو ينهضون .

وفي قوله (إِلَّا كَمَا يَقُومُ) استثناء أو أسلوب حصر إن حصر قيام المرابين في هيئة الذي يتخبطه الشيطان من المس ، والكاف هنا في موضع الحال أو نعتاً لمصدر محذوف (مَا) مصدرية أي قيام الذي يتخبطه الشيطان . وأجاز بعضهم أن تكون بمعنى الذي والعايد محذوف تقديره كما يقومه الذي يتخبطه الشيطان (٦) .

وفي قوله (الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ) استعمال معبر وموحٍ للألفاظ إن نلاحظ مجيء جملة (يتخبطه) بصيغة المضارع مع زيادة تاء وتضعيف (٧) وهي

-
- (١) الجامع لأحكام القرآن ٢/ ١١٦٦ (بتصرف).
 - (٢) قد سبق بيان معناها اللغوية ص ١١٢ هـ . من هذا البحث كذلك بيننا معناه الشرعي ص ١١٢ . من هذا البحث .
 - (٣) البحر المحيط ٢/ ٣٣٣ (بتصرف).
 - (٤) نفسه ٢/ ٣٣٣ .
 - (٥) نفسه ٢/ ٣٣٣ .
 - (٦) البحر المحيط ٢/ ٣٣٤ (بتصرف).
 - (٧) اللسان " خَبَطَ " والخبط هو الضرب الشديد .

أبلغ ما لوجاء بصيغة الماضي المجرد (خبطه) لأنَّ في المضارع معنى الاستمرارية وفي هذه الزيادة في الحروف على الصيغة الأصلية إيحاء بحال حيرة المرابي - ساعة بعثه وخروجه من قبره - وعدم قدرته على القيام في تلك اللحظة الحرجة لأنَّه لوجاء التعبير بجملة (خبطه) في صيغة الماضي لظنَّ السامع أنَّ المخبوط قد زال عنه بعض الألم ساعة القيام من القبر ولوجاء الجملة (يخبطه) بصيغة المضارع غير المزيد الزيادة التي بيناها (١) لما كان لها ذلك الإيحاء الذي توجي به جملة (يتخبطه) .

أما إذا علمنا أنَّ فاعل ذلك الفعل هو الشيطان في قوله (كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) .

نقول إذا علمنا بذلك الفاعل - أدركنا مدى البلاغة في هذا السياق الذي يعطي المعنى في دقة ووضوح ، ويستبعد هنا أن تتعلَّق (من المس) الذي هو (الجنون) بـ (لا يقومون) لوجهين :-

أولهما :- إنَّه لا يُكنَى عن أكل الربا في الدنيا بالجنون ، فيكون المعنى لا يقومون يوم القيامة أو من قبورهم من أجل أكل الربا الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان ان أن التصريح هنا يكون أبلغ في الزجر والمنع من الركاية عنه بلفظ المس .

وثانيهما : إنَّ ما بعد إلا لا يتعلَّق بما قبلها إلا إن كان في حيز الاستثناء وهذا ليس في حيز الاستثناء (٢) .

لذا يرى أبو حيان أنَّ يتعلَّق (من المس) بقوله (يتخبطه) على سبيل التأكيد ويقول في ذلك :-

(ويتعلَّق من المس بقوله يتخبطه وهو على سبيل التأكيد ورفع ما احتمله يتخبطه من المجاز إذ هو ظاهر في أنه لا يكون إلا من المس ويحتمل أن يراد بالتخبط الإغواء وتزيين المعاصي فأزال قوله (من المس) هذا الاحتمال ، وقيل يتعلَّق بيقوم

(١) بزيادة تاء وتضعيف .

(٢) الدر اللقيط من البحر المحيط ، هامش البحر المحيط ٢ / ٣٣٥ (بتصرف) .

أي كما يقوم من جنونه المصروع) (١) ثم يأتي قوله (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا) .

(٢)

فالإشارة هنا في قوله (ذلك) عائدة إلى قيامهم المخصوص بهم في الآخرة وإشارة إلى الأكل الذي أكلوه من الربا بسبب قولهم إنما البيع مثل الربا أو المقصود ذلك العذاب (٣) .

وجاء في تفسير أبي السعود أن (ذلك) إشارة إلى ما ذكر من حالهم وما في اسم الإشارة من معنى البعد للايدان بفظاعة المشار إليه .

ونرى أن اسم الإشارة هنا يفيد حقارة الحال التي ألو إليها .

أما جملة (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ) فهي مبتدأ خبره شبه الجملة بعده والتقدير (ذلك القيام كائن بسبب أنهم قالوا) وقيل إنها خبر لمبتدأ محذوف تقديره قيامهم ذلك (٤) .

وفي قوله (إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا) تشبيه مقلوب كابتينا (٥) ويقول تعالى (وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا) .

يقول القوطبي : -

(وهذا من عموم القرآن والألف واللام للجنس لا للعهد إذ لم يتقدم بيع مذکور يرجع إليه كما قال تعالى (وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكُفْرٌ) ثم استثنى (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) وإذا ثبت أن البيع عام فهو مخصص بما ذكرناه من الربا وغير ذلك مما نهى عنه ومنع العقد عليه كالخمر والميتة وحبل الحبله وغير ذلك مما هو ثابت في السنة وإجماع الأئمة النهي عنه) . (٦)

(١) البحر المحيط ٣٣٤/٢

(٢) البحر المحيط ٣٣٤/٢ (بتصرف) .

(٣) روح المعاني ٥٠/٣ (بتصرف) .

(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٢٦٦/١ (بتصرف) .

(٥) فضلا راجع ص ١١٧ من هذا البحث .

(٦) الجامع لأحكام القرآن ١١٦٤/٢ .

والألف واللام في قوله (وَحَرَّمَ الرَّبَّ) للعهد أبي الذي كان معهوداً بينهم
ثم تناول ما حرّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونهى عنه من البيع الذي يدخله
الربا وما في معناه من البيوع المنهي عنها (١) .

والجملة (وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ) مستأنفة رداً على ما زعموه وإنكاراً لتسويتهم (٢) إذ
جاء النص صريحاً في التحريم بدلاً من قياسهم وتشبيهم الباطل .

ثم قال تعالى :-

(فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ، وَمَنْ عَادَ
فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

قيل : إن " مَنْ " هنا إما (شرطية أو موصولة) (٣) وموعظة هنا فاعل لجاء
وقد حذفت التاء هنا للفصل فضلاً عن أن تأتي الموعظة مجازي وقد قرئت بالتاء
على الأصل . (٤)

(مِنْ رَبِّهِ) الجار والمجرور هنا متعلقان بالفعل " جَاءَ " أو بمحذوف وقع
صفة للموعظة وعلى هذين التقديرين تعظيم للموعظة لأنها من عند ربه الناظر
في شأنه والذي لا يريد إلا مصلحته ، فضلاً عما توحى لفظه رب من أنس وطمانينة
وتقرب إلى الله لكل من يسمعها ما يدقعه إلى الاستجابة الفورية لهذه الموعظة
ودليل ذلك مجيء قوله (فانتهى) إذ الفاء هنا أفادت العطف بلا تراخ .

كما أفادت " مِنْ " في قوله (مِنْ رَبِّهِ) أما ابتداء الغاية أو التبعية وحذف
المضاف (٥) .

(قُلْ مَا سَلَفَ) الفاء هنا صلة في الخبر عند من اعتبر (من) اسم موصول

وما في موضع الرفع بالطرف أو رابطة لجواب الشرط عند من اعتبر (من) اسم شرط

-
- (١) الجامع لأحكام القرآن ١١٦٦/٢ بتصرف .
 - (٢) روح المعاني ٥٠/٣ كذلك الكشاف ٣٩٩/١ - ٤٠٠ (بتصرف) .
 - (٣) نفسه ٥١/٣ .
 - (٤) البحر المحيط ٣٣٥/٢ (بتصرف) .
 - (٥) روح المعاني ٥١/٣ (بتصرف) .
 - (٦) نفسه بتصرف .

وما في موضع الرفع بالابتداء على رأي من يشترط الاعتماد وكون المرفوع اسم حدث
ومن لا يشترطهما يجوز كونه فاعل الظرف
وقوله :

(وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ) لنلاحظ هنا كيف جاءت لفظة (أمره) بليغة في موضعها
بما تعطيه من معانٍ مختلفه كلها تنم عن النهاية الحميدة المنتظرة خاصة وأن هذا
الأمر موكل إلى الله - سبحانه وتعالى - أرحم الراحمين بخلقه ، فقيل إن الضمير
في (أمره) عائد إلى المنتهي عن الرِّبَا ، وقيل يعود على (مَسَلَفٌ) أو على
ذِي الرِّبَا ، أو على الرِّبَا ، أي في إقرار تحريمه أو غير ذلك وقيل في عفو الله
ومحق ما شاء منه (١) .

أما الأمر هنا فكما ذكرنا (ليس في الرِّبَا خاصة بيل وجملته أمره وقيل فيبي
الجزاء والمحاسبه وقيل في العفو والعقوبة وقيل أمره إلى الله يحكم في شأنه
يوم القيامة لا إلى الذين عاملهم فلا يطاق لبونه بشيء) وقيل المعنى فأجره على الله
لقبوله الموعظة قاله الحسن (٢) ثم قال تعالى :-
(وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) والإشارة هنا إلى أهل
الرِّبَا وقد جاء اسم الإشارة جمعاً مراعاة للمعنى (٣) .

وقوله (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) جملة أضيفت على الجملة السابقة لها
وهو قوله (أَصْحَابُ النَّارِ) لأنَّ صحبة الشيء تعني ملازمته وعدم تركه ، فجاء
السياق بقوله (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) لمضيف هذا الجريد وتؤكد ما قبله .
هذا فضلاً عن اختتام الآية بفاصلة النون التي قبلها واو ساكنة تناسب الآية
السابقة لها وهو قوله تعالى :-

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ
وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (٤) .

كذلك نلاحظ بلاغة السياق في قوله تعالى :-

(أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

ان جاء قوله (فِيهَا خَالِدُونَ) مع إمكان مجيء المعنى نفسه بترتيب آخر للألفاظ
كقولنا خالدون فيها ولكن قد جاءت الألفاظ على هذا النسق (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)
لمراعاة التوافق في الفاصلة والاهتمام بشأن المتقدم وهو الجار والمجرور (فيها) والله أعلم .

(١) البحر المحيط ٣٣٦ / ٢ (بتصرف) .

(٢) البحر المحيط ٣٣٦ / ٢ .

(٣) روح المعاني ٥١ / ٣ (بتصرف) .

(٤) سورة البقرة ، ٢٧٤ .

٩- قال تعالى :-

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً
قَالَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ
مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (١)

أ - المعنى العام :- لا شك أن طريق الحق طريق دقيق شائك لذا كان على من يريد

الوصول إلى بُغيته ونهايته المحمودة فيه ، عليه أن يلتزم بالقرآن شريعة وسلوكاً
ومنهجاً ، فهو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض فيه نبأ من قبلنا وخبر
من بعدنا (٢) وهو القائل فيه رسولنا الكريم - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - (القرآن
حبل الله المتين ، لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد ، من قال به ، صدق
ومن عمل به ، رشد ، ومن اعتصم به ، هُدي إلى صراط مستقيم * (٣)

فالقرآن حبل الخائف من الانزلاق في طريق الغواية والضلال ، ومن تمسك
به أمنت قدماه من ذلك الانزلاق المنتظر ، وعلى المؤمنين جميعاً أن يكون القرآن
هو محور التقائهم ومنهاج سلوكهم وأساس تجمعهم ففيه الهدى ومنه السلام فسي
الدارين .

وعلى المؤمنين تذكر تلك النعم المتعددة التي أسبغها الله عليهم سواء
ماكان منها في الدنيا أو في الآخرة .

أما نعمة الدنيا فتلك الألفة النادرة التي أحدثها بين قلوب المؤمنين فسي
صدر الاسلام بين الأوس والخزرج وبين المهاجرين والأنصار ، فحلت الأُخوة
الإيمانية مكان العداوة والبغضاء ، وعمت الألفة الروحية بدلاً من العصبية
والشراسة التي لا طائل منها سوى سفك الدماء وضياع الأرواح (٤) .

(١) سورة آل عمران ، ١٠٣ .

(٢) التفسير الكبير ٨ / ١٦٢ (بتصرف) .

(٣) التفسير الكبير ٨ / ١٦٢ .

(٤) تفسير المراغي ٨ / ٤ (بتصرف) كذلك التفسير الكبير ٨ / ٦٣ (بتصرف) .

وَأَمَّا نِعْمَةُ الْآخِرَةِ ، فَهِيَ أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ أَخْرَجَهُمْ بِالْإِسْلَامِ مِنَ الشُّرْكِ وَمَخَازِيهِ حَتَّى صَارُوا إِخْوَانًا مُتَنَاصِحِينَ وَبَشَرًا مُتَرَاحِمِينَ فَمَالُوا - بِذَلِكَ - النَّجَاةَ مِنَ النَّارِ الَّتِي كَادُوا يَقْعُونَ فِيهَا لَوْلَا رَحْمَةُ اللَّهِ لَهُمْ وَإِيضًا حَسْرَةَ لآيَاتِهِ بِمَاتِحْمَلِهِ مِنْ أَوْامِرٍ يَجِبُ الْإِخْتِاطُ بِهَا وَنَوَاهٍ عَلَيْهِمُ الْإِبْتِعَادُ عَنْهَا لَعَلَّهُمْ يَرْتُدُّونَ إِلَى الصَّوَابِ وَيَتَعَدَّدُونَ عَمَائِزَ بِأَقْدَامِهِمْ فِي مَهَاوِي الذُّلِّ وَالْهَوَانِ (١) .

ب - مناسبتة في السياق :- لمعرفة هذه المناسبة علينا أولاً أن نعود إلى قوله

تعالى : -

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ، وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (٢)

وبهذا نعود إلى الآيات السابقات لهذا المثل الكريم فنقف على تحذيرها من إضلال الكفار بعد ما نزل القرآن على المؤمنين وبينهم رسوله الكريم - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لذا أمرهم بعد ذلك بمجمع الطاعات وهي تحقيق الإيمان في قلوب المؤمنين ، وذلك لا يكون إلا بضرورة التمسك بتقوى الله كما ينبغي وكما يليق بجلاله وعظمته سبحانه وتعالى ثم الاعتصام من الزلل في مهاوي الشرك وذلك بالتمسك بحبله المتين وهو القرآن (٣) ثم يذكر نعم الله عليهم لذا فقد بدأ السياق بتخويفهم من طاعة الذين أوتوا الكتاب ومن هنا كان السبب في الدعوة إلى التمسك بدين الله والاعتصام بحبله المتين ، وخاصة بعد هاتين النعمتين المسبقتين عليهم (٤) .

(١) تفسير المازني ١/١٨١ كذلك التفسير الكبير ٨/١٦٤ بتصرف ه كذلك البحر المحیط ٨/٣ (بتصرف) .

(٢) سورة آل عمران ١٠٠ - ١٠١ .

(٣) التفسير الكبير ٨/١٦٠ - ١٦١ (بتصرف) .

(٤) نعمة الأخوة الإيمانية ، ونعمة الإنقاذ من النار التي كادوا يقعون فيها لولا إيمانهم .

وتظهر هذه المناسبة وذلك الارتباط أكثر ، إذا علمنا أن هذه الآية قد تلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم - على الأوس والخزرج عندما افتتنوا بقول أحد اليهود الذي حاول إشعال نار الحرب والصفائح بينهم مرة أخرى بعد أن حسدهم على محبتهم وتآلفهم . . . ، نقول إذا علمنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قد قالها لهم فندموا على ما فعلوا واصطلحوا وتعانقوا - إذا علمنا ذلك - أدركنا مدى هذه الصلة بين آية المثل وبين ما جاء في السياق قبلها من آيات (١) .

أما ارتباطها أو مناسبتها بما جاء في السياق بعدها في قوله تعالى :-
(وَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (٢) .

نقول بيد و الارتباط بين آية المثل وبين الآيات التالية له لأنها - كما نلاحظ - تدعو إلى ضرورة وجود جماعة مسلمة قائمة بالدعوة إلى الخير دائما والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لإقامة منهج الله في الأرض وتغليب الحق على الباطل وما ناك الالتهاض اليهود الذين ليس من شأنهم إلا إشاعة الفتن بين المسلمين ، وتشتيت شملهم لتضييع حقوقهم وتفريق كلمتهم كما فعل ذلك اليهودي (٣) بين الأوس والخزرج لولا فضل الله عليهم ثم وجود الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - ووجود أصحابه الأجلاء الذين قاموا بهذه الدعوة إلى الخير وجمع الشمل وتوحيد الكلمة وهي كلمة الحق والإيمان لا إله إلا الله محمد رسول الله .

ج - العبرة منه :- إن سبب نزول الآية الكريمة أو المناسبة التي تلاها الرسول الكريم فيها ، تدل على ضرورة أخذ العبرة منها ولعل هذه المناسبة قد ذكرت قبل ذلك وهي افتتان الأوس والخزرج بما قاله اليهودي الحسود بينهم وكيف أعاد

(١) في ظلال القرآن ١/٤٤٣ (بتصرف) .

(٢) سورة آل عمران ١٠٤ - ١٠٥ .

(٣) يقال اسمه شاس بن قيس وكان شيخا قد عسى في الجاهلية . عظيم الكفر

شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد لهم . فضلا أنظر فتح القدير ١/٣٦٧

بتصرف .

لهم الرسول الكريم - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - توادُّهم وتراحمهم فيما بينهم ، وذكرهم
بنعمة اللَّهِ عليهم وقرأ عليهم هذه الآية الَّتِي نحن بصددها ("وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ . . .)
الآية (١) .

أما تلك العبرة الَّتِي يجب أن تؤخذ من هذه الآيات - وما يتصل بها في السِّياق
من آيات سابقة ولا حقة - فهي ضرورة الاعتصام بِاللَّهِ ثم بحبله المتين وهو كتابه العزيز
بما يحتوي عليه من شريعة قيِّمة وأحكام صائبة ليس فيها إلا النَّجاة من النَّار والفوز
بسعادة الدارين ، وليكي يستمرَّ المسلمون على ذلك لا بدَّ وأن يجنِّد المسلمون من أنفسهم
جماعة تنهض بهذه المهمة ، وهي تحكيم شرع اللَّهِ وكتابه بين المؤمنين لإقامة منهجه
القويم على أحسن وجه وأكمله . . . ليس لها هم ولا يشغل بالها شيء سوى الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر وجمع كلمة المسلمين ومناهضة أعدائهم بكل ما اتاهم اللَّهُ
من قدرة وقوة ولعلَّ أشدَّ ما يشجِّع على ذلك هو ما روي عن رسول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وسَلَّمَ - أَنَّهُ سُئِلَ عن خير النَّاس فقال :-

(أمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم للرحم) وعنه
عليه الصَّلَاة والسَّلَام (من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة اللَّهِ في أرضه
وخليفة رسوله وخليفة كتابه) (٢)

ولاشك أن من يعلم ذلك من المسلمين يتمنى ويأمل أن يكون خليفة اللَّهِ
ورسوله في أرضه .

— — —

(١) سورة آل عمران ، ١٠٣ .

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٢ / ٦٨ .

د - دراسة المثل وتحليله بيانياً :- من الملاحظ أنَّ الآية تشتمل على تمثيليين

أما الأول ففي قوله تعالى :-

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا) إذ قيل فيها إنها (إما تمثيل

للحالة الحاصلة من استظهارهم به ووثوقهم بحمايته بالحالة الحاصلة من تمسك
المتدلي من مكان رفيع بحبل وثيق مأمون الانقطاع من غير اعتبار مجاز في المفردات

و اما استعارة للحبل لما ذكر من الدين أو الكتاب والاعتصام ترشيح لها (١)

أو استعار للوثوق به والاعتماد عليه . (٢) .

وأما التمثيل الثاني ففي قوله تعالى :-

(وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا)

إذ مثلت الآية الكريمة حال المشركين قبل إسلامهم وما كانوا عليه من الضياع

وتوقع سقوطهم في نار جهنم - إن ماتوا على كفرهم - تمثيل حالتهم تلك بمن كان

واقفاً على جانب حفرة مهلكة ويوشك أن يقع فيها . (٣) .

أما وجه الشبه بينهما فهو الهيئة الحاصلة من الخوف والرعب وتوقع الهلاك

وترقبه في كلِّ .

هذا من جانب التصوير والتمثيل في الآية الكريمة وبدراسة الألفاظ والتراكيب

فيها تبدولنا البلاغة في هذا الاستعمال الخاص لها ، ولنبدأ مرة أخرى من قوله

تعالى :-

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا)

(١) تنقسم الاستعارة باعتبار اقترانها بمايلائم المستعار منه أو المستعار له أو عدم

اقترانها بمايلائم أحدهما الى ثلاثة أقسام : مرشحه ومجرده ومطلقه .

والمرشحه هي التي تقترن بمايلائم المستعار منه ، كما تقول رأيت في الميدان

دابي الأنياب طويل البرائن . انظر ذلك مفصلاً في علوم البلاغة ٢٨٦ .

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٦٦/٢ كذلك فتح القدير

٣١٢/١

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٦٧/٢ (بتصرف) .

فإلى جانب مارسسته هذه العبارة من صورة جميلة - سبق أن وضحنا مركباتها -
إلى جانب ذلك ، فقد أوجت جملة (وَاعْتَصِمُوا) بتلك الحِصَانَةِ الْمُنِيْعَةِ الَّتِي يُكْسِبُهَا
التَّسْكُ بِالْقُرْآنِ وَمَاجَاءٍ مِنْ حُدُودٍ وَأَحْكَامٍ وَاضِحَةٍ ، لَذَا كَانَ مَجِيءَ التَّعْبِيرِ بِجُمْلَةٍ
(اِعْتَصِمُوا) أَقْوَى وَأَدَقَّ فِي مَكَانِهَا مِنَ السِّيَاقِ ، مِنْ جُمْلَةٍ أُخْرَى ، قَدْ تَوَدَّى نَفْسَ
الْمَعْنَى وَلَكِنَّهَا لَا تَعْطِي نَفْسَ الْإِيْحَاءِ تِلْكَ الْجُمْلَةُ هِيَ (تَسْكُوا) - مَثَلًا - فَالْتَّسْكُ
لَا يُوْحِي بِنَفْسِ الْحِصَانَةِ الَّتِي يُوْحِي بِهَا الْاِعْتِصَامُ .

ثمَّ لتقدِّم (بحبل الله) على قوله (جميعاً) مع إمكان تأخيرها عنه وذلك دليل
على الاهتمام بشأن المتقدم وتعظيمه ثم تأتي لفظة (جميعاً) لتدلَّ على الحال
والكيفية المطلوبة من الاعتصام ، فهي في موضع نصب حال من واو الجماعة في قوله
(واعتصموا) .

ثمَّ يأتي التأكيد (٢) على هذا الأمر ينهي صريح يؤدِّي نفس المعنى وهو قوله
تعالى (وَلَا تَفْرَقُوا) فهذه الجملة تذييل على ما قبلها .
ثم لتأمل مرة أخرى كيف استطاع السِّيَاقُ أَنْ يَنْقُلَ لَنَا أَهْمِيَّةَ ذَلِكَ الطَّلَبِ فِي
إِصْرَارٍ وَتَأْكِيدٍ شَدِيدَيْنِ ، فَيُبدَأُ الْحَدِيثَ أَوَّلًا بِصِيغَةِ الْأَمْرِ (وَاعْتَصِمُوا) ثُمَّ تَأْتِي
لَفْظَةً (جَمِيعًا) هُنَا لِتُضِيفَ شَيْئًا جَدِيدًا ، ثُمَّ يُتْبَعُ ذَلِكَ بِالنَّهْيِ الصَّرِيحِ عَنِ
التَّفَرُّقِ وَالتَّشْتِيتِ فَجَاءَ قَوْلُهُ (وَلَا تَفْرَقُوا) ، ثُمَّ يَأْتِي التَّنْوِيعُ فِي أَسْلُوبِ الْخُطَابِ
وَفِي الدَّعْوَةِ بِصِفَةِ عَامَّةٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :-

(وَإِذْ كُنَّا نَمُوتُ وَأَنزَلْنَا نَارًا مِنْ سَمَوَاتِنَا تُوقِدُ فِيهَا حَبْرَةَ
مَنْ النَّارِ فَأَنقَذَكُمْ مِنْهَا) .

نعم هذا هو الجمال الحقيقي في الأسلوب وذلك هو الخروج عن الرتابة في
أداء المعنى في أساليب وطرق متعدّدة ، لا يستطيع أن يأتي بمثلها أحد رغم
سهولتها وقربها من فهم العامة والخاصة ، وكيف لا وهو الأسلوب القرآني الذي سما
لسمو المصدر الآتي منه وكفى بذلك شهيداً .

(١) فضلاً راجع ص ١٢٨ من هذا البحث .

(٢) روح المعاني ١٩/٤ .

نقول لقد بدأ الطلب أولاً في السياق - كما ذكرنا - بأسلوب الأمر ثم بالنهي ، ثم انتقل إلى هذه الطريقة الودّية المحبّبة إلى نفس كل إنسان ، ألا وهي استعراض ذكرياته الذاهية ، و خاصة إن كانت ذكريات جميلة عذبة ، وهل أجمل من أن يذكر المسلمون كيف أَلَّفَ اللهُ بين قلوبهم وجمع شملهم بعد أن كانوا أعداء متنافرين لا تجمعهم كلمة ولا يوحد طريقهم هدف إن قال تعالى :-

(وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ

إِخْوَانًا) .

ثم لا يقف التنوع في عرض هذه الذكري عند هذا الحدّ من الجمال بل يتجاوزه إلى التذكير في طريقة تجمع بين التّغيب والتّرهيب وهي طريقة قد تيدو غريبة جديدة ولكن إذا كانت من القرآن ذلك الأسلوب الفذّ في طريقته والفذّ في مصدره ؛ فلا غرابة ولا جدّة ، فجاء قوله تعالى :-

(وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا)

وليس أدلّ على صحة ما نقول من ذلك التّزليل الذي قرّر معنى الآية وأكدها

وهو قوله تعالى :-

(كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

فما ذاك التذكير المقرون بالتّغيب تارةً وبالتّرهيب أخرى ، الأريفة في هدايتهم وعدم تفرّقهم واجتماع قلوبهم على الحقّ دائماً .

وجاء اختتام الفاصلة بقوله (تَهْتَدُونَ) لمناسبتها للضلال الذي أنقذوا منه .

أما اسم الإشارة مع ما دخل عليه في قوله (كَذَلِكَ) فهو إشارة إلى مصدر الفعل

الذي بعده وما فيه من معنى البعد للإيدان بعلو درجة المشار إليه وبعد منزلته في الفضل وكمال تميزه به ماعداه وانتظامه بسببه في سلك الأمور المشاهدة

واللام هنا تفيد البعد .

أما الكاف فهي مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة ومحلها من الإعراب النَّصْب على أنها صفة لمصدر محذوف أي مثل ذلك التبيين (١). هذا عن البلاغة في الأداء وتفرد السياق بهذا التنويع في العرض فضلاً عن تلك البلاغة وذلك الجمال فيه .

أما عن إعراب بعض الألفاظ فيه :-

فالواضح ، أن (أصبح) في قوله تعالى (فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا) ناقصة و (إِخْوَانًا) خبرها ومعناها هنا صِرْتُمْ (٢) و (بنعمته) متعلّقة بأصبحتم .. والباء فيها سببيّة وليس ظرفيّة (٣) .

ويرى بعضهم أن الأخ في الدين يُجْمَع على إِخْوَان وفي النَّسْب على (إِخْوَة) ويرى أبو حيان أن استعمال الجَمْعَيْن (إِخْوَان) و (إِخْوَة) في الأمرين صحيح إذ قال تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) . والضمير في قوله (منها) قيل إنه يعود على النار وقيل على الحفرة ، وقيل على (شفا) (٤) .

ولكن أبا حيان يرى عودته على (شفا) (لأن كينونتهم على الشفا هو أحد جزأي الإسناد ، فالضمير لا يعود إلا عليه وأما ذكر الحفرة فقد جاء على سبيل الإضافة إليها ، ألا ترى أنك إذا قلت كان زيد غلام جعفر لم يكن جعفر محدثاً عنه وليس أحد جزأي الإسناد وكذلك لو قلت : ضرب زيد غلام هند لم تحدث عن هند بشيء وإنما ذكرت جعفر وهذا مخصصاً للمحدث عنه أما ذكر النار فإنما جيء بها لتخصيص الحفرة وليست أيضاً أحد جزأي الإسناد ولا محدثاً عنها) (٥)

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٦٧/٢ (بتصرف) .

(٢) البحر المحيط ٩/٣ (بتصرف) .

(٣) نفسه ٣/١٩١ () .

(٤) نفسه ٣/١٩١ () .

(٥) نفسه ٣/١٩١ .

ويرى أبو حيان - إضافة إلى ما سبق - أن الإنقان من الشفا أبلغ من
الإنقان من الحفرة ومن النار لأن الإنقان منه يستلزم الإنقان من الحفرة ومن
النار والإنقان منهما لا يستلزم الإنقان من الشفا ، لذا يرى أن عود الضمير في
(منها) على (الشفا) هو الظاهر من حيث اللفظ ومن حيث المعنى (١)
والله أعلم



(١) البحر المحيط ١٩ / ٣ (بتصرف) .

١- قال تعالى :-

(مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ
ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، فَأَهْلَكَتْهُ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ، وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ) (١)

أ - المعنى العام :- قيل إن هذه الآية نزلت في نفقات الكفار وصدقاتهم ، وقيل

في نفقات سفلة اليهود على علمائهم أو في نفقة المشركين يوم بدر ، وقيل
أيضاً إنها نزلت في نفقة المنافقين إذا خرجوا مع المسلمين لحرب المشركين ، وقيل
هو ما يتقربون به إلى الله مع كفرهم وقيل ما أنفقوا في عداوة الرسول الكريم
- صلى الله عليه وسلم - لأنهم لم يبخلوا به ما أنفقوه لأجله (٢) .

وسواءً أُريد به نفقة الكفار أو اليهود أو المنافقين فالمقصود هنا هو
ارتسام الحقيقة الواضحة أمامهم في صورة تنبؤ بالحركة والحياة ، ألا وهي
ضياع ما ينفق هؤلاء القوم هباءً ، كما أن أولادهم وأموالهم لا تصلح أن تكون
وقاية لهم من النار ولا حجاباً يمنع عنهم العذاب بل كل ذلك هالك ناهب
مادام خلوا من الإيمان حتى وإن أنفقوه فيما يرونه خيراً فلا ثمرة له ما لم يكن
الإيمان منبعه والإخلاص دافعه .

وهكذا يخيب رجاؤهم فيما ظنوه خيراً لهم ، تماماً كالذي يزرع ويبيد
الجهد في سبيل الحصول على محصوله فرحاً مسروراً به فإذا بریح باردة قاصفة
تذهب بمحصوله وزرعه هباءً فلا ينال منه شيئاً ، وما ذاك إلا لانعدام تقوى الله
من نفسه خلال قيامه بما ظن أنه سيفيده فظلم بذلك نفسه وجنى شر الثمر
جزاءً وفاقناً لما صنع (٣) .

(١) سورة آل عمران ، ١١٢ .

(٢) البحر المحيط ٣٧/٢ (بتصرف) .

(٣) في ظلال القرآن ٤٥١/١ (بتصرف) كذلك جامع البيان ٥٨/٤ (بتصرف) .

ب - مناسبة في السِّيَاق :- بدراسة الآيات السَّابِقَات لهذا المثل ثم اللاحقات به

تتَّضَح مناسبة في السِّيَاق :-

أما من جانب مناسبة للآيات السَّابِقَات له ، فنلاحظ أنَّهَا تحدَّثت عن أولئك الذين آمنوا برسالة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَدَّقُوا بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ فَطَوَّأُوا كِتَابَ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ كَمَا آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ثُمَّ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَتَسَابَقُوا إِلَى فِعْلِ الْخَيْرِ ، وَخُتِمَتِ الْآيَةُ بِعَدِّ ذَلِكَ بِمَا يُؤَكِّدُ صَلَاحَهُمْ وَتَقْوَاهُمْ (١) .

وجاءت الآية التَّالِيَةُ لها مباشرة ، لتبيِّن ثَمَرَةَ تِلْكَ الْأَعْمَالِ الْحَمِيدَةِ الصَّادِرَةِ عَنْ إِيمَانٍ ثَابِتٍ وَإِخْلَاصٍ نَادِرٍ أَلَا وَهِيَ عَدَمُ حِرْمَانِهِمْ فِي آخِرَتِهِمْ بِمَا قَدَّمُوا فِي دُنْيَاهُمْ مِنْ خَيْرٍ لِأَنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - هُوَ أَعْلَمُ بِمَدَى إِخْلَاصِهِمْ وَتَقْوَاهُمْ فِي أَعْمَالِهِمْ (٢) .

وبعد هذا العرض الواضح لأعمال المؤمنين وبيان نتيجة ذلك العمل المخلص ، ومدى فائدته لهم في دنياهم وآخرتهم ، كان من المناسب بل من دواعي المعاني ، أن تستشرف نفس السَّامِعِ إِلَى مَعْرِفَةِ الْوَجْهِ الْمُقَابِلِ لِهَذَا الْمَعْنَى وَنَتِيجَتِهِ ؛ هَكَانَ مِنَ الْبَلَاغَةِ بِمَكَانٍ أَنْ يَأْتِيَ الْحَدِيثُ عَنِ الْكَافِرِينَ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ ، أَوْلَئِكَ سَيَجْنُونَ ثَمَارَهُمْ مِنْ جِنْسِ أَعْمَالِهِمْ فَلَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَعْمَالُهُمُ الَّتِي قَدَّمُوا لِمَا يَظُنُّونَهُ خَيْرًا ، وَلَا التَّضَحِّيَةَ بِأَوْلَادِهِمْ فِي سَبِيلِ كُفْرِهِمْ بَلْ لَيْسَ لَهُمْ إِلَّا الْخُلْدُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ (٣) .

وإنَّ كَانَ الْمَعْنَى هُنَا غَامُضًا مَجْرَدًا بَعْضُ الشَّيْءِ ، فَلَيْسَ لِلْبَلَاغَةِ الْقُرْآنِيَّةِ الْمَعْمُودَةُ ، إِلَّا إِضَاحُهُ وَتَقْرِيْبُهُ بِطَرِيقَةٍ تَنْبِضُ بِالْحَيَاةِ وَالْحَرَكَةِ ، فَتَمْلَأُ الْحَسَّ وَالشُّعُورَ إِعْجَابًا بِهَا وَإِكْبَارًا .

-
- (١) سورة آل عمران ، ١١٤ .
 - (٢) سورة آل عمران ، ١١٥ .
 - (٣) سورة آل عمران ، ١١٦ .

نقول يأتي المثل هنا في موضعه وفي حينه ليصوّر لنا أعمال الكافرين فهي ضياعها وهلاكها وعدم جدواها - وهي صورة عقليّة مجردة - بصورة زرع ظن أصحابه الفائدة منه ، فأتت عليه ربح باردة مهلكة ، أضاعت ماظنوا وأحرقت ماتمّنوا - وهي صورة حسية ناطقة .

هذه هي المناسبة بين المثل وبين ما سبقه من آيات . .

أما مناسبة للآيات اللاحقات به ، فتبدو واضحة كلّ الوضوح ، في هذا النداء الصريح للمؤمنين ألا يتخذوا أولياء لهم من دونهم أو من غيرهم ، حتى يأمنوا الدسيسة والغدر والخيانة ، وحتى لا يمنحهم المؤمنون الثقة والحبّ وهم لا يستحقّون ذلك ، بل يكتمون في نفوسهم الكراهية والحقد والحسد للمؤمنين واللّه - سبحانه وتعالى - يعلم ذلك فيهم ومحيط بمكرهم ودسائسهم ، لهذا حذر المؤمنين منهم (١) .

وجاء القرآن بهذا التحذير في صراحة ووضوح - يعد المثل مباشرة (٢) فهل من ارتباط في أي عمل أدبي آخر أجمل وأدقّ من ترابط آي القرآن الكريم ؟ !
لقد علّق صاحب تفسير - في ظلال القرآن - على ذلك بقول يطيب لنا أن ننقل بعضه لجماله ودقته وهو قوله :-

(وما من شكّ أنّ هذه الصورة التي رسمها القرآن الكريم هذا الرسم العجيب كانت تنطبق ابتداءً على أهل الكتاب المجاورين للمسلمين في المدينة ، وترسم صورة قويّة للغيظ العظيم الذي كانوا يضمرونه للإسلام والمسلمين ، وللشرّ المبيّت وللنوايا السيئة التي تجيش في صدورهم في الوقت الذي كان بعض المسلمين ما يزال مخدوعاً في أعداء الله هؤلاء ، وما يزال يقضي إليهم بالموّدة ، وما يزال يأمنهم

(١) في ظلال القرآن (١ / ٤٥٢) (بتصرّف) .

(٢) سورة آل عمران ، ١١٨ .

على أسرار الجماعة المسلمة ، ويتخذ منهم بطانةً وأصحاباً وأصدقاء لا يخشون مغيباً الإفضاء إليهم بدخائل الأسرار ، فجاء هذا التنوير ، وهذا التحذير ، بيض الجماعة المسلمة بحقيقة الأمر ويوعيتها لكيد أعدائها الطبيعيين الذين لا يخلصون لها أبداً ، ولا تغسل أحقادهم مودة من المسلمين وصحة ، ولم يجيء هذا التنوير وهذا التحذير ليكون مقصوراً على فترة تاريخية معينة ، فهو حقيقة دائمة ، تواجهه واقعاً دائماً . . . كما ترى مصداق هذا فيما بين أيدينا من حاضر مكشوف مشهود (١) .

ج - العبرة منه :- لا يستطيع عاقل من العقلاء أن ينكر مدى العبرة من هذا المشل المضروب في الآية الكريمة ، هذه العبرة هي ضرورة إصدار الأعمال كلها عن قاعدة إيمانية ثابتة وإخلاص أكيد لله - سبحانه وتعالى - لأن أي عمل يُراد به وجه الله - عز وجل - ، فنتيجته الفلاح في الدنيا والآخرة ، أما إن كان العمل صادراً عن كُفر بالله وعدم الإخلاص له فلن تكون ثمرته إلا الخيبة والندم ، حتى وإن ظن صاحبه فيه خيراً كثيراً ، فذلك ظنه واعتقاده وما يحكم به الله - جل وعلا - غير ذلك لعلمه سبحانه بحقائق الأمور ودخائل النفوس .

(١) في ظلال القرآن / ١ / ٤٥٢ .

د - دراسته وتحليله بيانياً :- من الملاحظ أن قوله تعالى :-

(مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ
ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ، وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ) (١) .

نقول من الملاحظ أن آية المثل السابقة تشتمل على صورة بيانية مؤثرة
از تنقل لنا المعنى العقلي المجرد في طريقة محسوسة تغيى بالحركة
وتبى بالحياة ، هذه الصورة تبدو في التشبيه التمثيلي الذي مثل
صدقات الكافرين ونفقاتهم في بطلانها ونهايتها وعدم منفعتها ، بمثل
زرع أصابته ريح باردة أو نار فأهلكته ولم ينتفع أصحابه بشيء منه بعد
ما كانوا يرجون خيره ونفعه (٢) .

أما وجه الشبه المشترك ، فهو الهيئة الحاصلة من خيبة الأمل والحسرة
في نفس كل منهم على ما بذله من جهدٍ ومشقة كان يظن أنه سينال ثمرتها
فيما بعد .

وهكذا . . . قد بدا لنا من الصورة الحسية الماضية مدى الدقة والجمال
في أداء الصورة الفنية .

أما الدقة ، فتبدو في عرض الصورة والمشهد بحركاته وخطواته وأما الجمال
فيبدو في هذا التأثير الذي نقله لنا هذا المشهد إلى مشاعرنا وإحساسنا .
ولدراسة ألفاظ المثل وعباراته ، علينا أن نعود مرة أخرى إلى الآية
الكريمة :-

(مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ (٣) فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ)

الآية .

-
- (١) سورة آل عمران ، ١١٢ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢ / ١٤٢٠ كذلك فتح القدير ١ / ٣٧٤ (بتصرف) .
(٣) قرئت بالتاء (تنفقون) : أي (قل لهم) . فضلاً أنظر البحر المحيط ٢ / ٣٧ .

لقد ذهب ابن عطية هنا في معنى المثل^١ أنه المثل القائم في النفس ثم مهني فسي
توضيح أجزاء الصورة كما سبقت الإشارة إليها (١) وذكر أن هذا من التشبيه المركب
ان وقع التشبيه بين شيئين وشيئين وذكر أحد المشبهين وترك ذكر الآخر ثم ذكر
أحد الشئيين المشبه بهما وهو الريح وليس الذي يوازن المذكور الأول (ماينفقون)
وترك ذكر الآخر ، ودل المذكوران على المتروكين (٢) ويرى أن هذه غاية البلاغة
والإعجاز ، كما يرى أن مثيله من القرآن : (وَ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ
بِمَا لَا يَسْمَعُ) .

هذا ويرى أبو حيان أن (ما) هنا في قوله : -

(مَثَلُ مَا يَنْفِقُونَ) موصولة والمعائد محذوف والتقدير (ينفقونه) والظاهر

أن تشبيه ما ينفقونه بالريح ولكن المقصود تشبيهه بالحرث (٣) .

كذلك يجوز أن يكون على حذف مضاف من الأول تقديره :-

(مثل مهلك ما ينفقون) أو من الثاني تقديره (كمثل مهلك ربح) وقيل :-

(يجوز أن يراد مثل إهلاك ما ينفقون كمثل مهلك ربح وهو الحرث) (٤)

وقيل إن المقصود مثل ما ينفقون في كونه مبطلاً لما أتوا به قبل ذلك من

أعمال البر كمثل ربح فيها صرف في كونها مبطلّة للحرث لأن إنفاقهم في إيذاء الرسول

- صلى الله عليه وسلم - من أعظم أنواع الكفر ومن أشدها تأثيراً في ابطال

أثار أعمال البر (٥) .

ويجوز أن تكون (ما) في قوله (ما ينفقون) مصدرية (٦) .

(١) فضلاً أنظر ص ١٣٧ من هذا البحث .

(٢) هذا الحديث عن ابن عطية نقل بتصرف من البحر المحيط ٣٧/٢ . (أوليت سورة البقرة ١٧٤)

(٣) البحر المحيط ٣٧/٣ (بتصرف) وذهب إلى ذلك أيضاً أبو السعود فسي

إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٢٥/٢ .

(٤) الكشاف ٤٥٧/١ .

(٥) التفسير الكبير ١٩٤/٨ (بتصرف) .

(٦) الجامع لأحكام القرآن ١٤١٩/٢ كذلك البحر المحيط ٣٧/٣ (بتصرف) .

(فيكون المعنى مثل انفاقهم ويكون شبه المعقول بالمحسوس إذ شبه الإنفاق بالريح و ظاهر قوله ينفقون أنه من نفقة المال) (١) .

وقيل متعلق الإنفاق هو (أعمالهم من الكفر ونحوه) هي كالريح التي فيها صرّ أبطلت أعمالهم وكلّ مالهم من صلة رحم وتحنت بعنق كما يبطل الريح الزرع) (٢) .
وقيل المقصود بقوله (ما ينفقون) أعمالهم كلّها وخصّ الإنفاق هنا لأنه أظهر وأكثر (٣) .

ونرى هنا أنّ ما موصوله والعائد محذوف تقديره (ينفقونه) والمقصود بالنفقة كلّ أعمالهم وخصّ النفقة بالذكر لأنها أظهر الأعمال وأكثرها تأثيراً في نفس صاحبها إن ضاعت ثمرتها المتوقعة ، ونظيره من القرآن قوله تعالى :-
* الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقْوَمُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ... *
الآية (٤) .

فمبّر بلفظ يأكلون عن أخذ المال لأن الأكل هو أكثر الأمور المستعدية لصرف المال ولأنه أقوى مقاصد الإنسان في المال .

ثم تأتي الإشارة في قوله تعالى : (فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) لقصد التحقير من شأن هذه الحياة (٥) إذ كان من الممكن حذف اسم الإشارة إليها مع تمام المعنى ولكن أشير إليها بقصد التحقير وهذا أبلغ في أداء المعنى المقصود .
ثم قال تعالى :-

* كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ * وقد أفردت كلمة (ریح) هنا لا اختصاصها بالعذاب (٦) كما جاء في قوله تعالى :-

(١) البحر المحيط ٣٧/٣ .

(٢) نفسه ٣٧/٣ .

(٣) نفسه ٣٧/٣ .

(٤) سورة البقره ، ٢٧٥ .

(٥) روح المعاني ٣٦/٤ (بتصرف) .

(٦) المفردات في غريب القرآن ، الرّاغب الأصفهاني ، * رُوح * ويقابلها لفظ الرّيح بالجمع وهي التي تستعمل في موضع الرّحمة قال تعالى : * مِنْ يَرْسَلُ الرّيحَ بُشْرًا * .

• إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ • (١)

والصَّرُّ بمعنى الشَّدِّ (٢) والصَّرُّ هُنَا رَاجِعٌ إِلَى الشَّدِّ لِمَا فِي الْبُرُودَةِ مِنَ التَّعَقُّدِ وَقِيلَ الصَّرَّةُ أَيْ الصَّيْحَةُ .

وبهذا تعني اللَّفْظَةُ هُنَا الرِّيحَ الشَّدِيدَةَ الْبَرْدَ وَالَّتِي يَصْحَبُهَا صِيحَةٌ أَوْ صَوْتٌ مُّزْعِجٌ .

ونقول هنا إذا كان هذا هو معنى اللَّفْظَةِ اللَّغْوِيَّةِ ، فناهيك عن ذلك المعنى ماتحمله نفس اللَّفْظَةُ مِنْ إِحْيَاءِ بِمَعْنَاهَا الْمَذْكُورَ بِكُلِّ دَقَّةٍ ، لَذَا نَاسَبَتِ السِّيَاقُ تَمَامَ الْمُنَاسَبَةِ فَضْلًا عَنِ بِلَاغَتِهَا فِيهِ .

وقد ذكر الزَّمَخْشَرِيُّ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ :-

• كَشُّلِ رِيحٍ فِيهَا صَرٌّ •

أحدها : إِنْ الصَّرُّ فِي صِفَةِ الرِّيحِ بِمَعْنَى الْبَارِدَةِ فَوْصَفُ بِهَا الْقِرَّةُ بِمَعْنَى (فِيهَا قِرَّةٌ صَرٌّ) كَمَا تَقُولُ بَرْدٌ بَارِدٌ عَلَى الْمُبَالَغَةِ .

ثانيها :- أَنْ يَكُونَ الصَّرُّ مُصَدَّرًا فِي الْأَصْلِ بِمَعْنَى الْبَرْدِ فَجِيءَ بِهِ عَلَى أَوَّلِهِ .

ثالثها :- أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى :-

• لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ • وَمِنْ قَوْلِكَ (إِنْ ضَيَعَنِي فَلَانَ

فَفِي اللَّهِ كَافٍ وَكَافِلٌ) (٣) .

وَجَاءَ لَفْظُ (صَرٌّ) مَرْفُوعًا عَلَى أَنَّهُ فَاعِلٌ بِالْمَجْرُورِ قَبْلَهُ إِذْ قَدْ اعْتَمَدَ بِكَوْنِهِ وَقَعَ

صِفَةً لِلرِّيحِ ، فَإِنْ كَانَ الصَّرُّ الْبَرْدَ وَهُوَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَقْتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ

أَوْ صَوْتُ لَهَبِ النَّارِ أَوْ صَوْتُ الرِّيحِ الشَّدِيدَةِ فَظَاهِرٌ كَوْنُ ذَلِكَ فِي الرِّيحِ وَإِنْ كَانَ الصَّرُّ

صِفَةً لِلرِّيحِ كَالصَّرِّ فَالْمَعْنَى فِيهَا (قِرَّةٌ صَرٌّ) كَمَا تَقُولُ :-

(١) سورة القمر ، ١٩ .

(٢) المفردات في غريب القرآن " صرر " .

(٣) الكشاف ٤٥٧/١ . (الآية من سورة الحجر ٢١)

بردٌ باردٌ . وقامت الصفة مقام الموصوف بعد حذفه .

أوتكون الظرفية مجازاً جعل الموصوف ظرفاً للصفة كما قيل :-

وفي الرَّحْمَنِ كَافٍ لِلضُّعْفَاءِ أَي (الرَّحْمَنِ كَافٍ لِلضُّعْفَاءِ) وَيُرَى أَبُو حَيَّانَ أَنَّ فِي هَذَا يُعَدُّ (١) .

أما جُمْلَةٌ (أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ) فهي في موضع صفة للريح ^{وجملة} (ظلموا أنفسهم) في موضع جر صفة لقوم . (٢)

وهنا قيل إن الإهلاك عن سُخْطٍ أَشَدُّ وَأَبْلَغُ مِنْ غَيْرِهِ (٣) .
والفاء في قوله (فَأَهْلَكَهُ) لبيان النتيجة المترتبة على ما تقدّم من إصابة الحرث .
ولنقف قليلاً هنا لتأمل جرس الألفاظ ووقعها ثم ما يوحيه ذلك الجرس وهذا
الوقع من معنى قال تعالى :-

كَشَلِّ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَهُ .

نقول لتأمل كلاً من (ريح ، صر ، أصابت ، حرث) ، فكل واحد منها بجانب رفيقه يوحى بذلك الهول الشديد ، وتلك الأصوات المتتابعة في هذا الجو العاصف المُحرق وينتهي المشهد عند القول (فأهلكته) ، ان توحى هذه الجملة وحروفها بالنهاية الأليمة والنتيجة السيئة إثر تلك العاصفة الشديدة المحرقة .
ثم جاء قوله تعالى : " وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ " .

(ما) هنا نافية بلاخلاف .

أما الضمير في قوله (ظلمهم) قيل عائد على المنفقين والمعنى (وما ظلمهم الله لعدم قبوله نقاتهم ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث لم يأتوا بها على الوجه المطلوب أو المقبول) أو عائد على أصحاب الحرث الذين ظلموا أنفسهم والمعنى (وما ظلمهم الله بإهلاك حرثهم ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا به العقوبة) (٤)

(١) البحر المحيط ٣٧/٣ (بتصرف) .

(٢) نفسه ٣٧/٣ (") .

(٣) الكشاف ٤٥٢/١ (بتصرف) .

(٤) الكشاف ٤٥٢/١ - ٤٥٨ (بتصرف) .

وقال ابن عطية الضمير في (ظلمهم) للكفار الذين تقدم ضميرهم فـ (١)
 (يُنْفِقُونَ) وليس هو للقوم ذوي الحرث لأنهم لم يذكروا ليرد عليهم ولا لتبيين ظلمهم .
 أما في قراءة من قرأ (ولكن أنفسهم يظلمون) بالتشديد تكون (أنفسهم)
 اسمها والجملة (يظلمون) خبرها والمعنى (يظلمونها هم) (٢) .

هذا وقد تقدم المفعول به لرعاية الفاصلة في قوله تعالى (ولكن أنفسهم)
 (يظلمون) وليس للتخصيص ، إذ الكلام في الفعل باعتبار تعلقه بالفاعل لا بالمفعول
 أي ما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم وقد جاء الفعل في قوله (يظلمون) على
 صيغة المضارع ليدل على دوام ذلك العمل مع تجدده واستمراره (٣) .

وقد قيل إن أصل الكلام في الآية - والله أعلم - مثل ما ينفقون في هذه

الحياة الدنيا كمثل حرث قوم ظلموا أنفسهم فأصابته ريح فيها صر ، فأهلكته .

ولكن خولف هذا النظم في المثل المذكور لفائدة جليلة وهي تقديم ما هو أهم (٤) .

وهذا يعني أن الريح قد تقدمت في السياق لنكته بلاغية وهي أنها مثل

العذاب وجاءت للتهديد والوعيد ، فكان تقديمها أهم وأبلغ في السياق من تقديم

الحرث ، واعتد في ذلك على الألفاظ الصحيحة لتعديد الكلام إلى أصله .

وهذا رأي جيد ولا شك يناسب ما في الآية من بلاغة في تقديم بعض الألفاظ

على بعض لأسباب بلاغية مثلاً كعناية الفاصلة التي تحدثنا عنها من قريب وتجدر

الإشارة هنا إلى أن الآية الكريمة تشتمل على لطيفة بلاغية أخرى في سياقها الكريم

وهي اشتغالها على ما يعرف باسم (رد العجز على الصدر أو التصدير) (٥) فـ

قوله تعالى " وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون " .

(١) الكشاف ٤٥٨/١ (بتصرف) .

(٢) البحر المحيط ٣٨/٣ (بتصرف) .

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٧٥/٣ (بتصرف) .

(٤) حاشية السيد الشريف علي بن محمد بن علي زين الدين الجرجاني على الكشاف

٤٥٨/١ (بتصرف) . (بها من الكشاف)

(٥) هو في النثر جعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بهما

اشتقاقاً أو شبه اشتقاق في أول فقره والآخر في آخرها نحو (وتخشى

الناس والله أحق أن تخشاه ، فضلاً انظر ذلك في علوم البلاغة للمراعي ٣٧٠ .

إذ نلاحظ مجيء اللفظ (ظَلَمَ) في أول الفقرة ثم تكرار نفس الحروف في
(يظلمون) في آخر فقرته وهذا من نوع المكررين (١) .

وجدير بالذكر هنا أن نقول :-

إن للقرآن عاداته وطريقته في رسم صورة التشبيه تلك العادة هي أن يذكر فيها
من القيود وأحوال الصياغة ما يجعلها معبرة تعبيراً دقيقاً عن الغرض الذي جاءت
له (٢) .

وهنا من قيود هذا التشبيه وجماله أن العذاب الذي أصابهم إنما هو عقوبة
لهم على معصيتهم (لأن الإهلاك عن سُخطٍ أشدُّ وأبلغ) (٣) .
نسأل الله تعالى دوام الرضا عنا وأن يقينا من سُخطه وشرّ عذابه ، إنَّه

سميع مجيب



-
- (١) المكرران أي : المشتركان في نفس الحروف .
(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية د . محمد
أبو موسى ص ٤٠٧ ، دار الفكر العربي (بتصرف) .
(٣) الكفاف (١ / ٤٥٧) .

١١ قال تعالى :-

• قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَتُرَدُّ عَلَيْنَا عَاقِبَاتُنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَيْهِ
الْهُدَى اتَّخَذُوا قُلُوبَهُمْ حُجُورًا لَنْ نَسْلَمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * (١)

أ - المعنى العام :-

لاشك أن الأمر موجه - هنا - إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليرد على عبدة الأصنام والكفار وهذه الآية مؤكدة لما قبلها وهو قوله تعالى :-

• قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أُعْبِدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا اتَّبِعْ أَهْوَاءَ كُفْرٍ
قَدْ ضَلَلْتُمْ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ * (٢) ثم جاء قوله تعالى : • قُلْ أَدْعُوا
مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا الآية .

أي : كيف نعبد من دون الله من لا نفع فيه ولا ضرر بتركه وكيف نعود إلى الكفر بعد أن هدانا الله إلى نعمة الإسلام فإن فعلنا ذلك كما كمن رجع إلى خلفه بعد أن كان ماضياً في طريقه إلى الأمام ، إذ يقال لكل من رجع عن الحق إلى الباطل إنه رجع إلى خلف ورجع على عقبه ورجع القهقري .

و السبب فيه أن الأصل في الإنسان هو الجهل ، ثم إذا ترقى وتكامل حصل له العلم ، قال تعالى :-

• وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطُونٍ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ
وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * (٣) فإذا رجع من ذلك العلم إلى الجهل فكأنه رجع
إلى ما كان عليه أول مرة ولهذا قيل فلان ردَّ على عقبه * (٤)

-
- (١) سورة الأنعام ، ٧١ .
(٢) سورة الأنعام ، ٥٦ .
(٣) سورة النحل ، ٧٨ .
(٤) التفسير الكبير ١٣ / ٢٩ (بتصرف) .

وهو في هذا تماماً كالذي هوى من مكان عالٍ إلى أسفل الحضيض ، فأصبح
متخبطاً تائهاً ، لا يلوي على شيءٍ حوله لدهشته وهول مفاجأته لما أصابه (١) .
أو أصبح تائهاً بين دياجير الغفلة والضياغ اللذنين وقع فيهما بسبب ميله واتباع
مأمرته به الشياطين من معاصٍ (٢) ، وعندها يصبح في غاية الحيرة والضيق
ولعل ما يزيد حيرته وضعفه هو أن يكون له رفقة مخلصون ، فيدعونه إلى الهدى
والعودة إلى الصراط المستقيم فلا يعود ، وكان حرياً به أن يلبي دعاءهم لأن هدى
الله هو الهدى الكامل النافع الشريف ، وقد شمل أمره جميع العالمين بالاستسلام
والطاعة له سبحانه وتعالى فهل يشذُّ الإنسان ذو العقل والتسيز عنهم ؟! (٣) .
وروي عن السدي أن المشركين قالوا للمؤمنين : اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد
فقال تعالى :-

” قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ” الآية

وروي أيضاً عن قتادة أنه قال (في الآية خصوصاً) عظمها الله محمداً - صلى الله
عليه وسلم - وأصحابه يخاصمون بها أهل الضلالة ولعل هذا مراد السدي إذ لا يظهر
أن مراده أن المشركين قالوا مرة واحدة لبعض المؤمنين أو لجميعهم (٤) .
ويقال إن قوله تعالى : ” لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى اثْتِنَا ” ، قد نزلت
في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه فإنه كان يدعو أبويه إلى الكفر وهما يدعوانه
إلى الإيمان ويأمرانه بأن يرجع عن طريق الجهالة إلى الهداية ومن ظلمة الكفر
إلى نور الإيمان (٥) .

-
- (١) إذا كانت لفظة (استهوته) مشتقة من الفعل هوى : يهوي أي نزل من الموضع
العالي إلى الوهدة السفلى العميقة في قعر الأرض .
(٢) إذا كانت اللفظة مشتقة من هوى يهوي أي زينت له هواه فضلاً عنظر اللسان
” هوى ” .
(٣) التفسير الكبير ٢٩ / ١٣ (بتصرف) كذلك في ظلال القرآن ١١٣٣ / ٢ (بتصرف) .
(٤) تفسير القرآن الحكيم (المنار) ٥٢٣ / ٢ .
(٥) الجامع لأحكام القرآن ٢٤٥٤ / ٣ (بتصرف) أيضاً ، الكشاف ٢٨ / ٢ (بتصرف) .

وقيل : (المراد إن لذلك الكافر الضالّ أصحاباً يدعونهُ إلى ذلك الضلال ويسمونه بأنّه هو الهدى وهذا بعيد والقول الصّحيح هو الأوّل) (١) .

ونرجّح هنا إنّ المقصود بقوله : (كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ) هو من كان في مكان عالٍ فسقط إلى الحضيض بسبب بعده عن طاعة الله واتباع الشياطين لأنّه أدلّ على الضعف والدّهشة ، كذلك نرجّح في قوله تعالى :-
" قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى " .

أنّ المقصود به الدعوة إلى طاعة الله والسّير على نهجه القويم وصراطه المستقيم - والله أعلم .

ب - مناسباته في السّياق :-

لدراسة هذه المناسبة علينا - كالمعتاد - العودة إلى الآيات السّابقات للمثل الكريم ثمّ اللاحقات به لتعلم مدى ارتباط المثل بما قبلها وما بعدها في السّياق ، وعند تأمل الآيات السّابقات له نلاحظ أن السّورة الكريمة تناولت في أولها الحديث عن آيات الله وعن قدرته العظيمة في السّموات والأرض ، وتلاها الحديث عن تكذيب الأمم السّابقة لرسلهم وعاقبتهم السيئة ثم دعا ذلك إلى توجيه الأمر - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لعبادة الله وحده لا شريك له وأن يكون أول المسلمين (٢) وضرورة توجيه هذه الدّعوة إلى النّاس جميعاً الذين بهم من كذب بالكتاب رغم معرفتهم له ومنهم من أشرك لإعراضهم عن الحقّ وعدم إطاعتهم له - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - واعتبارهم أنّ ما جاء به من الأساطير والخرافات ، ومدى أسى الرّسول الكريم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وحزنه لما يلقاه من النّاس ، وتسليّة القرآن الكريم له بإعادة ذكر أخبار الأمم السّابقة ومدى تكذيبهم لرسلهم ثم عاقبه كلّ ذلك عليهم ، وبيان أنّه عزّ وجل قادر على أخذهم بذنوبهم لولا حكمته عزّ وجل في إهمالهم (٣) - لذا ليس

(١) التفسير الكبير ٣ / ١٣ / ٣٤ .

(٢) سورة الأنعام ، ١ - ١٤ .

(٣) سورة الأنعام ، ١٥ - ٥١ .

على محمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللهُ إِنْذَارَ الْمُشْرِكِينَ وَتَبَشِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَعَدَمَ اتِّبَاعِ
الْكَافِرِينَ فِي كُفْرِهِمْ وَضَلَالِهِمْ لِأَنَّهُمْ مَلَاقِوْهُمْ أَجْزَاءُ أَعْمَالِهِمْ وَكَفْرِهِمْ فِي يَوْمٍ مَعْلُومٍ عِنْدَهُ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى (١) .

وهنا نأتي إلى مناسبة آية المثل في السياق إذ قال تعالى :-

” قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا
اللَّهُ . . . الخ * الآية .

نعم هنا يصدر الأمر الإلهي المفعم بالاستنكار والتعجب من أن يُشرك مع الله
إله آخر بعد أن أنزل سبحانه وتعالى ما أنزله من آيات بيّنات فيها من التذكير والوعظ
والتخويف والإندار ومن ذكر قدرته وجبروته ما فيها . . أي أجيبهم يا محمد بعد
ما علمت من آياتنا ، أجيبهم بهذه اللّٰهجة المستنكرة التي تدلّ على رفضك لما يدعونك
إليه من باطل من أول حرف توجهه إليهم (أدعوا) .

تلك هي مناسبة المثل لما قبله من آيات .

أما عن مناسبة لما بعده ، فالملاحظ أن الآيات التاليات تبدأ بالأمر بإقامة

الصلاة وتقوى الله إذ قال تعالى :-

” وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * (٢) ”

إذ يعد إعلان الاستسلام لرب العالمين تجبي التكاليف التعبدية والشعورية
لأن الأصل هو الاستسلام لربوبية رب العالمين وجبروته وتربيته وتقويمه ثم
تكون بعد كل العبادات الشعائرية والرياضات النفسية لترسي على قاعدة الاستسلام
فإنه الأساس المتين الذي ينبغي أن يقوم عليه البناء (٣) .

(١) سورة الأنعام ، ٥٢ - ٧٠ .

(٢) سورة الأنعام ، ٧٢ .

(٣) في ظلال القرآن ١١ / ٢٣ (بتصرف) .

ذلك البناء من العقيدة الراسخة القائمة على حقيقة الحشر وحقيقة الخلق
وحقيقة السلطان وحقيقة العلم بالغيب والشهادة وحقيقة الحكمة والخبرة
من خصائص الألوهية التي هي الموضوع الرئيسي في السورة (١) .

وهكذا بدأ لنا مدى الارتباط الوثيق بين آية المثل الكريمة وبين ما سبقها
أو ما لحق بها من آيات في السياق الجليل - والله أعلم .

ج - العبرة منه :-

بتأمل المثل المذكور في الآيه الكريمة :-

" قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا الآيه (٢) "

نقول بتأمل المثل الكريم نلاحظ مدى الحيرة التي يقع فيها العائد إلى
الشرك يعد أن يبلغ الرسالة وهدى إلى طريق الحق والإيمان ، ما أشبهها
بحيرة الواقع من علوشاهق إلى حضيض ساحق مستدير على نفسه لا يعلم أين
مرده ومنتهاه ، فقد يزداد بلاؤه بسبب سقوطه أو يقل كما يقول الإمام
الرازي في تفسيره اللير :-

(فإذا اعتبرت مجموع هذه الأحوال علمت أنك لا تجد مثلاً للمتحير المتردد

الخائف أحسن ولا أكمل من هذا المثال) (٣) ، وإذا علمنا هنا أن هذا

المثال قد بلغ درجة الكمال في وصف حيرة العائد إلى الكفر بعد الإيمان
ولم لا يكون كاملاً وهو من الكامل الأجل سبحانه وتعالى ؟ !

نقول إذا علمنا ذلك انتهينا عند هذا العلم إلى جلال العبرة وعظمتها

التي يجب أن يأخذها المؤمن بالله من هذا المثل الكريم إذ لا يقبل مسلم

أو عاقل أن تكون هذه حالته من الحيرة والتخبط بعد أن هدى إلى نور الإيمان

وعظمتها وما خفي من هذه العبرة عند الله كان أعظم ، فهو وحده - سبحانه -

الذي يعلم بسر آياته الكريمات .

(١) في ظلال القرآن ١١٣٣/٢ (بتصرف) .

(٢) سورة الأنعام ، ٧١ .

(٣) التفسير الكبير ٣٠/١٣ .

د - دراسته وتحليله بيانياً :-

كمانلاحظ ، تشتمل الآية الكريمة على تشبيه تمثيلي في قوله تعالى :-
(قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ
هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ
إِلَى الْهُدَىٰ ائْتِنَا) (١) .

حيث شُبِّهَتْ حال الملازمين للشرك مع دعائهم إلى الإيمان ووضوح الطريق
المستقيم لهم بحال من استهوته الشياطين فضلً عن طريقه على الرغم من دعاء
أصحابه له ليسير على الطريق السوي معهم .

أما وجه الشبه فهو الهيئة الحاصلة من اتباع طريق الغي والضلال مع وضوح
طريق الرشاد والهداية (٢) هذا عن جانب التصوير في الآية الكريمة
وهي صورة جلية معبرة تمام التعبير عن المعنى المقصود ولا أجمل هنا ممن أن
نستشهد بماقاله صاحب تفسير الظلال :-

(إنه مشهد حي شاخص متحرك للضلاله والحيرة التي تنتاب من يشرك بعبد
التوحيد ، ومن يتوزع قلبه بين الإله الواحد والالهة المتعددة من العبيد
أو يتفرق إحساسه بين الهدى والضلال فيذهب في النيه أنه مشهد ذلك المخلوق
التعيس ، " الذي استهوته الشياطين في الأرض " (٣) .

أما عن جانب بلاغة السياق فلا بد لنا من العودة مرة أخرى إلى الآية الكريمة
لفظة لفظة لنعلم مدى البلاغة في نسجها وتركيبها المتميز ولنبدأ هنا من قوله
تعالى :-

" قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ "

-
- (١) سورة الأنعام ، ٧١ .
(٢) القرآن والصورة البيانية د . عبد القادر حسين ص ٥٣ - ٥٤ دار نهضة مصر
للطباعة سنة ١٩٧٥ م (بتصرف) كذلك التصوير البياني . دراسة تحليلية لمسائل
البيان د . محمد أبو موسى ص ٩٢ ط ١٩٨٠ مكتبة وهبه (بتصرف) .
(٣) في ظلال القرآن ٢ / ١١٣١ .

فلاحظ كيف بدأت الآية الكريمة بهذا الأمر الصَّارم وبهذه الجملة القويَّة المدويَّة (قُل) هذا القول الذي يوحى عند نطقه بعلو المصدر الاتي منه وسموّه ثم يوحى بقيمة الأمر المطلوب قوله بعد ذلك ، لذا تتفتح الأذان والمشاعر عند سماعه فتستقبل ما بعده بشوق ونهم بالفين ذلك الشوق الذي يؤدّي إلى استقرار المعنى وتمكينه في النفس فضل تمكن . . . وهنا نصل إلى غاية البلاغة وهدفها الأسمى وهو الوصول إلى المراد ، وهل يُراد هنا أكثر من استقرار هذا الأمر الإلهي العظيم في نفس محمد - صلى الله عليه وسلم - ومن معه من المؤمنين ؟!

ثم تأتي الجملة التالية لهذا الأمر مقرونة بأسلوب استنكاري واضح ليزيد الفعل في الجملة تثبيتاً وقوةً وليعطي المعنى استبعاداً عن الحصول هذه الجملة هي (أُنَدُّعُوا) قال تعالى :-

* قُلْ أُنَدُّعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا

اللَّهُ * إِنَّهُ مِنَ الْمَسْتَحِيلِ حَقًّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ شَمَّ لِنَظَرٍ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى :-

* وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ * فنلاحظ التَّعبير في قوله (نُرَدُّ)

بصيغة المبني للمجهول وهذا يدلُّ على أن التَّعبير - ولا شك - بهذه الصيغة أكثر بلاغة ودقة من التَّعبير بصيغة المبني للمعلوم كأن يُقال مثلاً (نُرَدُّ) لأنَّ مَنْ من لم يرتد بنفسه عن الإيمان ليس في مقدور كائن من كان أن يردَّه عنه (١) .

ثم يأتي قوله (عَلَىٰ أَعْقَابِنَا) للتَّعبير عن الرَّجعة إلى الخلف بهذا التَّركيب

(الرَّدُّ عَلَىٰ الْأَعْقَابِ لزيادة تقبيحه بتصويره بصورة ما هو علم في القبح مع مافيه من

الإشارة إلى كون الشُّرك حالة قد تُركت وُنُبذت وراء الظَّهر) (٢)

وقد جاءت (نُرَدُّ) - هنا - معطوفة على (أُنَدُّعُوا) أي أيكون هذا وهذا ؟ :

وبهذا يكون الاستفهام الانكاري يشملها (٣) .

(١) تفسير القرآن الحكيم (المنار) ٤ / ٢٣٣ هـ كذلك إرشاد العقل السليم ٣ / ١٤٩

(بتصرف) .

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٣ / ١٤٩ .

(٣) البحر المحيط ٤ / ٥٦ (بتصرف) .

ثم جاء قوله (بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ) وهو ظرف - كما نلاحظ - متعلِّق
بـ (نُرْدُ) لتأكيد انكار وقوع الردة بعد هداية الله تعالى وليس لتحقيق معنى الردة
وتأكيد ه لآنه لو كان كذلك لقليل بعد إن اهتدينا ، ولكن وجود هذا التركيب دون -
غيره (بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ) يدل على استبعاد ذلك تماماً لأن هداية الله لا ضلال
بعدها أبداً (١) .

” وَمَنْ يَهْتَدِ اللَّهُ فَعَالَهُ مِنْ خُسْفٍ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ” . (٢)

ثم يأتي دور المثل هنا في كشف المعنى وتوضيحه بل لزيادة النفور عن الردة
والبعد عنها ان يقول تعالى :-

” كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ ” الآية .

وقد سبق توضيح الصورة في هذا المثل (٣) وكما - هنا - بصدد دراسة
الألفاظ والتراكيب فقوله :-

(كالَّذِي) إمَّا في موضع نصب على أنه نعت لمصدر محذوف أي رَدًّا مشـل
رَدِّ الَّذِي - والأحسن أن يكون حالاً أي كاتنين كالَّذِي (.....) والَّذِي هنا يمكن
أن تكون مفرداً كما هو ظاهر أو بمعنى الجمع أي كالفریق الَّذِي استهوته الشَّيَاطِينُ . (٤)
ولا يفوتنا - هنا - ما في جملة (اسْتَهْوَتْهُ) من إحياء بمعناها إنهمـا
جملة مصوِّرة بذاتها لمدلولها (٥) .

و (في الأرض) متعلِّقان باستهوته أو بمحذوف هو حال من مفعوله أي كائناً

في الأرض . (٦)

(١) تفسير القرآن الحكيم (النار) ٥٢٣/٧ (بتصرف) .

(٢) سورة الزمُر ، ٣٧ .

(٣) فضلاً راجع ص ١٤٩ من هذا البحث .

(٤) الدر اللقيط من البحر المحيط للإمام تاج الدِّين الحنفي النَّحْوِي عن هامش البحر

المحيط ٥٦/٤ (بتصرف) .

(٥) في ظلال القرآن ١١٣١/٢ (بتصرف) .

(٦) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١٤٩/٣ (بتصرف) .

كذلك فيه إيحاء وتوطئة وتتبعه على أهمية ماسياتي بعد من أمر ، ولا أدل على ذلك من مجيء * إِنَّ المؤكده في أول الكلام إذ جاء في السياق قوله تعالى :-
 (قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى) ، فقد أكدت (إِنَّ) هنا المعنى وقوته
 كذلك في اضافة لفظ الله إلى الهدى زيادة تشریف للكلمة واعطاؤها مزيداً من
 الاختصاص والأهمية ثم يزيد المعنى قوة هذا التأكيد الواضح الذي يفيد ضمير
 الفصل في قوله (هو الهدى) أي : لا غيره .

كذلك نلمح في هذه الآية بلاغة واضحة في استعمال هذا الضمير إذ دل على
 أسلوب قصر ، وإن قصر - هنا - الهدى الحقيقي على هدى الله دون سواه فهو
 قصر أفراد لمن ظن أن غيره يشترك معه ، وقصر قلب لمن اعتقد أن غيره هو الهدى
 ولكنه يرجح في هذا السياق أن يكون قصر قلب (١) .

أما قوله (وأمرنا) فهو معطوف على (إِنَّ هدى الله هو الهدى) وقوله
 (لنسلم لرب العالمين) فقد جمع أبو حيان في لام لنسلم أربعة أقوال :-
 أولها : أنها زائدة فيكون (لنسلم) في موضع نصب المفعول الثاني للفعل
 (أمرنا) بعد اسقاط حرف الجر والتقدير أمرنا بأن نسلم ، لأن قولك أمرت
 لأقوم وأمرت أن أقوم يجريان سواء واستشهد بقول الشاعر :-

أريد لأتسنى ذكرها فكأنما
 تمثل لي ليل بكل سبيل

وثانيها :-

إنها بمعنى كي للتعليل أما لنفس الفعل وإما للمصدر المسبوك من نفس الفعل
 فتكون الكلام في (لنسلم) لام كي ومفعول أمرنا الثاني محذوف وتقديره وأمرنا
 بالإخلاص لكي ننقاد ونسلم لرب العالمين ، والجمله داخله في مقول القول معطوفة
 على (إِنَّ هدى الله هو الهدى) .

(١) من طرق القصر النفي والاستثناء ، وإنما ، العطف ، توسط ضمير الفصل وغيرها
 وهو في اللغة بمعنى الحبس وفي الاصطلاح : تخصيص شي بشي بطريق
 مخصوص فضلاً عن تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع . محمد بن
 عبد الرحمن الخطيب القزويني ، ط الأخير ص (١٣) (بتصرف) مطبعة
 الحلبي (مصر) .

وثالثها :-

إِنَّهَا لَمْ كِي أَجْرِيَتْ مُجْرَى أَنْ أَيْ قِيلَ لَنَا أَسْلَمُوا لِأَجْلِ أَنْ نُسَلَّمَ .

ورابعها :-

إِنَّ اللَّامَ بِمَعْنَى الْبَاءِ كَأَنَّهُ قِيلَ : وَأَمْرُنَا بِأَنْ نُسَلَّمَ ، وَقَدْ اسْتَغْرَبَ أَبُو حَيَّانَ

هَذَا الْقَوْلَ (١) .

هذا وقد نقل أبو حيان عن سيبويه وأصحابه مذهبهم في ذلك إذ قال : (وذهب

سيبويه وأصحابه أَنَّ اللَّامَ هُنَا تَتَعَلَّقُ بِمَحذُوفٍ وَأَنَّ الْفِعْلَ قَبْلَهَا يَرَادُ بِهِ الْمَصْدَرُ

والمعنى الإرادة للبيان والأمر للإسلام فهما مبتدأ وخبر) (٢) .

عَلَى أَنَّنَا نَرْجَحُ هُنَا - وَاللَّهِ أَعْلَمُ - أَنْ تَكُونَ اللَّامُ بِمَعْنَى كِيٍّ وَمَفْعُولُ أَمْرُنَا

الثَّانِي مَحذُوفٌ وَالتَّقْدِيرُ (وَأَمْرُنَا بِالْإِخْلَاصِ لِكِيٍّ نَنْقَادُ وَنُسَلِّمُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) .

كما لا ينبغي أن يفوتنا هنا ما في جُملة نُسَلَّمَ من إيحاء جميل بنداوة الانقياد

والتَّطَاعَةِ وَالِاسْتِسْلَامِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ هَذَا وَلَا أَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مِنْ مَجِيءِ قَوْلِهِ

(لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) بِدَلَالَةٍ مِنَ الْكُفَاءِ بِقَوْلِهِ لِلَّهِ مَثَلًا مَعَ صِحَّةِ تَعْبِيرِهَا عَنِ الْمُرَادِ

وَمَا ذَاكَ إِلَّا الْبَلَاغَةُ الْقَوْلِ (لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) عَنْ غَيْرِهِ فِي السِّيَاقِ إِذْ أَنَّهَا تُعْلِنُ

إِعْلَانًا وَاضِحًا بِضُرُورَةِ الْانْقِيَادِ وَالِاسْتِسْلَامِ وَالتَّطَاعَةِ بِاتِّرَادٍ ، لِانْقِيَادِ الْعَالَمِينَ

جَمِيعًا - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لِأَنَّهُ رَبُّهُمْ وَمَالِكُهُمْ جَمِيعًا ، فَكَيْفَ يَكُونُ الْإِنْسَانُ

ذُو الْعَقْلِ وَالتَّمْيِيزِ شَاذًا عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ ؟ (٣)

هذا إلى جانب مناسبة قوله (لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) لِلْفَاصِلَةِ فِي السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ

إِذْ أَنْ مَعْظَمَ مَا جَاءَ قَبْلَهَا وَبَعْدَهَا مِنْ آيَاتٍ قَدْ خُتِمَ بِالْوَاوِ وَالنُّونِ أَوْ الْيَاءِ وَالنُّونِ

كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :-

فَلَا تَقْعُدُوا بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤)

(١) البحر المحيط ٤ / ١٥٨ - ١٥٩ بتصرف .

(٢) البحر المحيط ٣ / ١٥٩ .

(٣) في ظلال القرآن ٢ / ١١٣٣ بتصرف .

(٤) سورة الأنعام ، ٦٨ .

وقوله :-

« وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذَكَرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » (١)

وقوله :-

« ... أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ... » (٢)

وفي قوله تعالى بعد آية المثل :-

« وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » (٣)

وهذا مما يدل على أن القرآن تأتي فيه الفاصلة لتضعيف بلاغة جديدة يتطلبها المعنى الموجود في السِّياق والله أعلم

.. .. .

-
- (١) سورة الأنعام ، ٦٩ .
 - (٢) سورة الأنعام ، ٧٠ .
 - (٣) سورة الأنعام ، ٧٢ .

١٢ - قال تعالى :

• وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبِعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ
مِنَ الْغَاوِينَ ، وَكُوِّسْنَا لِرَفْعِنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ
فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ، سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ * . (١)

أ - المعنى العام :-

لا شك أن الإيمان بالله وآياته نعمة لا تعادلها أي نعمة أخرى ، ولم لا ؟
وبها يكسب الإنسان رفعة وشرفه في دنياه وآخرته . . . ! ، لذا كان الخطاب
هنا موجهاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتلو على قومه خير من أو تسي
العلم بآيات الله وأحكامه مع قدرته على العمل بها واتباعها فلم يعمل بما أو تسي
من العلم والحكمة ، بل تجرد منهما وساقه هواه إلى سفاسف الدنيا وحطامها
فكانت نهايته ملاحقة الشيطان له حتى أصبح من الضالين . . . وكان حرياً به
أن ينتفع بما أو تسي من العلم ليعمل به ، ولكنه آثر ما آثره من شهوات النفس
والهوى فلقى شرّ الجزاء (٢) ، إنّه في حرصه على هذه الدنيا وتكاليفها
كالكلب اللاهث (٣) في جميع أحواله إن زجرته أو تركه لأنه إذا حملت عليه
نبح وولّى ذاهباً ، وإن تركه شدّ عليك ونبح وإذا أتعب نفسه في النباح لهث
مقبلاً عليك أو مدبراً عنك إذ يعتريه ما يعتريه من التعب والعطش

(١) سورة الأعراف ١٧٥ - ١٧٧ .

- (٢) اختلف هنا فمن نزلت هذه الآية فقيّل في بلعم بن باعورا ، وقيل بلعمام
ابن باعر وقيل هو بلعم بل أبرء وقيل أمية بن أبي الصلت الثقفي .
وقد لجأنا هنا إلى الشرح العام للآية الكريمة دون تخصيص - والله أعلم -
فضلاً انظر في تفصيل ذلك لباب التأويل في معاني التنزيل ٢ / ٣١١ - ٣١٥
كذلك تفسير القرآن الحكيم (المنار) ١ / ٤٠٤ (بتصرف) .
(٣) اللهاث : هو حرّ العطش . يقال لهث الكلب ولهث الرجل من العطش والإعيا
وأصابه لهات وحرّ العطش ، فضلاً انظر أساس البلاغة " لهث " .

وذلك لشدة حرصه وحرصه ذلك الحرص في كبده فهو دائم اللهيث (١) وكذلك المصيح
لايات الله المحب للدنيا وشهواتها إن حملت عليه بالموعظة والنصيحة أولم تعظمه
وترشده فهو أيضاً على حالته من التمسك بحطام الدنيا ونهم دائم بملذاتها
وسفاسفها (٢) .

ذلك مثل من أمثال الله تعالى التي تضمنها كتابه العزيز وطلب من رسوله
الكريم - صلى الله عليه وسلم - أن يقصها على أمته لنتأمل فيها ونأخذ العبرة
منها .

ب - مناسبته في السياق :-

بتأمل الآيات السابقة لهذا المثل ، نلاحظ أنها تدور حول
فكرة التوحيد وإرسال الرسل وتكذيب أقوامهم لهم ثم عاقبة ذلك التكذيب . .
ونهايته السيئة (٣) .

كذلك الحديث عن آيات الله وتصريفه لخلقه وملكوته وقدرته المتجليه
في جميع مخلوقاته (٤) ، ثم حديثه المفصل عن الأقسام المكذبة لرسله
وعاقبة كل منهم (٥) .

ثم تلا ذلك حديثه - سبحانه - عن أولئك الذين يتبعون محمداً
- صلى الله عليه وسلم - والنور الذي جاء به ومدى فلاحهم وأمره لــــه
- صلى الله عليه وسلم - بدعاء الناس جميعاً إلى اتباع رسالته التي جاء بها
من عند الله عز وجل (٦) .

-
- (١) الحيوان ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ١٦/٢ - ١٧ ، تحقيق عبد السلام
هارون ط ٢ ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - مصر (بتصرف) .
(٢) الأمثال في القرآن الكريم ، ابن القيم ٢١٧ (بتصرف) .
(٣) سورة الأعراف ٣٥ - ٥٣ .
(٤) سورة الأعراف ٥٣ - ٥٨ .
(٥) سورة الأعراف ٥٩ - ١٥٦ .
(٦) سورة الأعراف ١٥٢ - ١٥٨ .

ثمَّ عاد السِّيَاق مرَّةً أُخرى للحديث عن قوم موسى وأنَّ منهم من آمن ومنهم من ضلَّ عن السَّبيل ثمَّ عاقبة المكذِبين الضَّالِّين منهم (١) .

وبعد هذا العرض السَّريع لقصص الأُقوام السَّابِقة ومدى تكذيبهم لرسولهم ثمَّ عقاب الله لهم ، عاد السِّيَاق إلى قصَّة الخليقة الأولى وميثاقهم الأولى مع ربِّهم وإيمانهم الفطريِّ به واقامة الحجَّة عليهم بشهادتهم على أنفسهم بحكم وجودهم ذاته وحكم ما يستشعرونه في أعماقهم من هذه الحقيقة .

أما الرِّسالات فما هي التذكير وتحذير لمن ينحرفون عن هذه الفِطْرة السَّليمة لأنَّ التَّوْحِيد ميثاق معقود بين فِطْرة البشر وخالقهم منذ كَبُرَتْهم الأولى فلا حجَّة لهم في نقض الميثاق حتَّى وإن لم يُبعث لهم رَسُلٌ للتَّبشِير أو الانذار ولكن حكمة الله ورحمته بهم اقتضت أن يُرسل لهم رَسلاً مَبشِّرِينَ و مُنذِرِينَ لئلاَّ يكون للنَّاس على الله حجَّة بعد الرُّسُل (٢) .

وبعد أن تحدَّث السِّيَاق الكَرِيم عن هذا الميثاق الأوَّل بين الخلق وخالقهم كان من المُناسب جدًّا أن تأتي آية المثل التي تحكي قصَّة من أُوتِيَ العِلْم بآيات الله ، فتركها واتَّجَه إلى حُطام الدُّنيا وزناطلها . . . ولو شاء الله لانتفع بها ورفعته إلى أعلى مراتب الشَّرَف والكرامة ، ولكنَّه دائِم الإقبال على الدُّنيا والنَّهْم بسفاسفها ، لا يمنعه وعظ ولا يُخجله ، اعراض . . . وربما لا يكتفي السَّامع بهذا المعنى العقليِّ المُجرَّد ، بل ربَّما لا يحرك حسَّه ومشاعره . . . فكان دور المثل هنا دوراً جيلاً مناسباً جدًّا المناسب ، إنَّه نقل لنا ذلك المعنى المُجرَّد في صورة محسوسة مشاهدة . . . ولم يقتصر الأمر على مُجرَّد رؤيتها بل تعدَّى الإحساس بها إلى مشاعر السَّامع واشتمتازها منها .

(١) سورة الأعراف ١٥٩ - ١٧١ .
(٢) في ظلال القرآن ٣ / ١٣٩١ بتصرف .

تلك هي مناسبة المثل لماسبقه من آيات ، أما عن هذه المناسبة بمالحقه فسى
السياق من آيات كريمات ، فالملاحظ أنها تحدت عن هداية الله لمن يريد من البشر
وإضلاله لبعضهم ، وبيئت أن هؤلاء الضالين لا يستفيدون بما أوتوا من نعممة
السمع والبصر والفؤاد ، فهم كالأنعام بل هم أضل ، ثم تتوالى الآيات بعد ذلك
فى التأكيد على قضية الإيمان بالله وحده لاشريك له وترك ما دونه لأنه هو الخالق
وغيره مخلوق ، فلا يستطيعون نفعاً ولا ضراً ولا نصراً لأنفسهم ولا هم ينصرون (١) .
ذلك هو الارتباط الواضح بين آية المثل وبين مالحقه من آيات فى السياق ، ان كل
الآيات السابقة له واللاحقه به تدور حول موضوع أساسى ، هو ضرورة التمسك بآيات
الله وبعلمه وعدم الانصراف عنها أو التهاون فى العمل بموجبها .
ب - العبرة منه :-

إن المتأمل للمشهد الذى صوره المثل فى الآية الكريمة ، تأبى عليه
نفسه أن ينزلق فى مهاوى الرذائل وسفاسيف الأمور . . ويحاول جاداً
أن يكون ممن يعملون بما أوتوا من علم وإيمان حتى يصل إلى أقصى مراتب
الرفعة والشرف بدلاً من التشبه بأخص مخلوقات الله - والعيان باللكه -
وهو فى أرذل صوره وأقبح أحواله ولا أدل على أن هذا المثل قد سبق لأخذ
العبرة من اختتام آية المثل نفسها بقوله تعالى :-

ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢)
أي : يتفكرون فى عاقبة الأمور ويحذر الذين يعلمون شيئاً من علم الله
أن ينتهوا إلى هذه النهاية البائسة وأن يصيروا إلى هذا اللهاك الذى
لا ينقطع أبداً ، وأن يظلموا أنفسهم ذلك الظلم الذى لا يظلمه عدو وعدو
فانهم لا يظلمون إلا أنفسهم بهذه النهاية السيئة (٣) .

(١) سورة الأعراف ١٧٧ - ١٩٨ (بتصرف) .

(٢) سورة الأعراف ، ١٧٦ .

(٣) سورة الأعراف ، ١٧٧ .

د - دراسته وتحليله بيانياً :-

من الملاحظ أولاً أن الآية الكريمة تشتمل على تشبيه تمثيلي

في قوله تعالى :-

”وَآتَلُّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمَلَ عَلَيْهِ يَلْمِئَتْ أَوْ تَرَكَهُ يَلْمِئَتْ “ (١) .

إذ شُبِّهَ من أوتى شيئاً من العلم والإيمان ثم لم ينتفع به واتبع هواه فاتبعه الشيطان ليسوقه إلى مهاوي الذل والهوان بما يجعله فيه من همّ وائساف وانشغال لازم بما ينبغي أن يشغل به أولاً يشغل من صفات الأمور وخصائص الشهوات ، شُبِّهَ حال هذا الشخص بحال الكلب اللاهث في جميع أحواله سواء كان قائماً أو قاعداً مُقبلاً أو مُدبراً ، دعوته أو زجرته ، فهذه طبيعة فيه تماماً كالتكالب على الدنيا أصبح انشغاله بها طبيعة في شخص صاحبها (٢) .
أمّا وجه الشبه فهو الهيئة الحاصلة من الحرص والتكالب والنهم الزائد على أية حال لطبيعة قائمة في الذات .

كذلك فإن الآية تشتمل أيضاً على استعاره مكنية في قوله تعالى :-

”وَآتَلُّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا “

إذ استعير لفظ الانسلاخ وهو لا يكون إلا للشاة أو الحيوان عموماً إذا أبعيد عنه جلده ، استعير هذا اللفظ لمن يبتعد عن آيات الله وعلمه بعد أن أوتيه .
وتجرى الاستعارة كما يلي :-

شُبِّهَ الانسان الذي ابتعد عن علمه ولم يعمل به بالشاة التي سلخ جلدها ثم حُذِفَ المشبه به وكفى عنه بشي من لوازمه وهو السلخ ، ثم بولغ في التشبيه وادعى دخول المشبه في جنس المشبه به وأنه فرد من أفرادها ، ثم

(١) سورة الأعراف ، ١٧٦ .
(٢) تفسير القرآن الحكيم (المنار) ٤٠٧/٩ (بتصرف) كذلك القرآن والصورة
البيانية ص ٥٤ ، ٥٥ (بتصرف) .

استعير لفظ (انسلخ) للمبتعد عن آيات الله على سبيل الاستعارة التبعية (١)
المكينة (٢) واثبات لازم المشبه به للمشبه استعارة تخيلية (٣) قرينة المكينة .
هذا من حيث التصوير والمشاهد التي اشتملت عليها الآية الكريمة ولكن
لا بد لنا من عودة مرة أخرى إلى السياق من بدايته لدراسة ألفاظه وعباراته
وللوقوف على جمال التعبير والبلاغة في نظمه .

قال تعالى :

” وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا ”

رَأَى أَوْلَى مَا يَبْدُو لَنَا فِي هَذَا السِّيَاقِ سَلَاَسَةُ الْفَاطِظِ وَمَلَأَتْهُ حُرُوفُهُ بَعْضَهَا
لِبَعْضٍ ، فَكُلُّ الْأَفْظَاظِ وَكُلُّ الْحُرُوفِ فِيهَا مِنَ التَّنَاسُبِ وَالسَّلَاَسَةِ مَا يَكْفِيَانِ لِنَحْكُمَ بِجَمَالِ
الْعِبَارَةِ وَبِلَاغَتِهَا ، وَلَكِنْ أَيْقِفُ السِّيَاقَ الْقُرْآنِيَّ الْكَرِيمَ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ ؟ !

أَتَكْفِي الْعِبَارَةُ الْقُرْآنِيَّةُ بِمَا فِيهَا مِنْ انْسِيَابٍ وَسَلَاَسَةٍ فِي الْأَفْظَاظِ ؟ !

لَا شَكَّ أَنَّ هَذَا لَيْسَ هُوَ السَّرُّ الْوَحِيدُ فِي هَذَا الْجَمَالِ وَتِلْكَ الْبِلَاغَةُ بَلْ لَا يَسُدُّ
أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ شَرَكٌ مِنْ فِي مَضْمُونِ الْأَفْظَاظِ ، إِلَى جَانِبِ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ سَلَاَسَتِهَا وَسَهْوَلَةِ
النُّطْقِ بِهَا مُجْتَمِعَةً ، وَعَلَيْنَا لِنَعْرِفَ ذَلِكَ ، أَنْ نَتَنَاوَلَ هَذِهِ الْأَفْظَاظَ لَفْظَةً لَفْظَةً
لِنَرَى مِصْدَاقَ ذَلِكَ عَلَيْهَا :-

قال تعالى :-

” وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ ” : فَالْتَّلَاوَةُ كَمَا ذَكَرَ الرَّابِعُ : (تَخْتَصُّ بِاتِّبَاعِ كُتُبِ اللَّهِ الْمَنْزَلَةِ
تَارَةً بِالْقِرَاءَةِ وَتَارَةً بِالْاِرْتِسَامِ لِمَا فِيهَا مِنْ أَمْرٍ وَتَرْغِيبٍ وَتَرْهِيْبٍ أَوْ مَا يُتَوَهَّمُ فِيهِ ذَلِكَ
وَهِيَ أَخْصُّ مِنَ الْقِرَاءَةِ فَكُلُّ تِلَاوَةٍ قِرَاءَةٌ وَلَيْسَ كُلُّ قِرَاءَةٍ تِلَاوَةً ، لَا يُقَالُ تَلَوْتُ رَفَعْتُكَ
وَإِنَّمَا يُقَالُ فِي الْقُرْآنِ فِي شَيْءٍ إِذَا قُرِئَتْهُ وَجِبَ عَلَيْكَ اتِّبَاعُهُ) (٤)

-
- (١) التبعية : هي ما لم يكن اللفظ المستعار فيها اسم جنس كالأفعال والمشتقات
والحروف فضلا انظر في ذلك علم البيان د . يوسف البيومي ص ١٠٢ (بتصرف) .
(٢) والمكينة : هي أن يخفى لفظ المشبه به ويكتفى عنه بشي من لوازمه ويثبت
للمشبه على سبيل الاستعارة المكينة .
(٣) التخيلية : هي اثبات لازم المشبه به للمشبه وهي قرينة المكينة دائما .
فضلا انظر علم البيان ص ١٣٥ (بتصرف) .
(٤) المفردات في غريب القرآن " تلا " !

وبما أنَّ التَّلَاوةَ تحمل معنى ما يُقرأ أو يجب أن يتبع من القرآن فقد ناسبت اللفظة هنا بمعناها ومبناها المكان الذي جاءت فيه لأنَّ الضَّمير في قوله (عَلَيْهِمْ) موجه للناس المخاطبين بالدعوة وأولهم كفار مكة ، فالسُّورَةُ مَكِّيَّةٌ وقيل لليهود لأنَّ المثل تابع لقصة موسى في السُّورَةِ (١) .

ثمَّ جاء قوله تعالى : (نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا) والنَّبَأُ : يختلف عن الخبر لأنَّ النَّبَأَ لا يكون إلا لأخبار بما لا يعلمه المخبر ويجوز أن يكون الخبر بما يعلمه وبما لا يعلمه ولهذا نقول تخبرني عن نفسي ولا يقول تنبئني عن نفسي وفي القرآن (فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) (٢) فقد استهزأوا به لأنهم لم يعلموا حقيقته ولوطموا ذلك لتوقوه - وقيل في النَّبَأِ معنى عظيم الشأن وكذلك أخذ منه صفة النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولهذا يقال لفلان نبأ ولا يقال خبر لهذا المعنى . وجاء في تعريف الرَّاغِبِ لِلنَّبَأِ أن الخبر يجب أن تتوفر فيه الفائدة العظيمة ويحصل به علم أو غلبة ظن حتى يسمى نبأ وليس كل نبأ خبراً لأنَّ حقَّ النَّبَأِ أن يعرى من الكذب كالتواتر وأخبار الله تعالى وأخبار رسوله الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٤) . ونقول هنا إن لفظة (نبأ) ناسبت أيضاً موقعها الذي جاءت فيه لما فيها من معنى على النحو المذكور فضلاً عن مناسبة حروفها للحروف التي وردت في ألفاظ العبارة كلها .

وفي قوله (الَّذِي آتَيْنَاهُ) ففي الغالب أن لفظ (الَّذِي) لفظ مفرد أريد به الجمع أي كل من انسلخ عن الحق بعد أن أُعطيَه من اليهود والنصارى والحنفاء (وقال عبادة بن الصامت هم قريش أنتهم أوامر الله ونواهيهِ والمعجزات فانسلخوا ممن الآيات ولم يقبلوها) (٥)

-
- (١) تفسير القرآن الحكيم (المنار) ٤٠٥ / ٩ (بتصرف) .
(٢) سورة الشعراء ، ٦ .
(٣) الفروق اللغويَّة ص ٢٩ (بتصرف) .
(٤) المفردات في غريب القرآن مادة (نَبَأٌ) (بتصرف) .
(٥) البحر المحيِّط ٤ / ٤٢٢ قد أشرنا إلى سبب النزول في هامش ص ١٥٦ من هذا البحث .

أَمَّا قَوْلُهُ (آتَيْنَاهُ) فِيهِ مِنَ الْبَلَاغَةِ مَا فِيهِ ، إِذْ أَنَّ آتَاهُ الشَّيْءُ تَعْنِي سَاقَاهُ
رَالِيهِ (١) وَمَعَ أَنَّ الْآيَاتِ سَيِّقَتْ إِلَى هَذَا الْكَافِرِ فِي سَهْوَةٍ وَيُسْرَدُونَ أَنْ يِيَسْذَل
أَي مَجْهُودٍ فِي الْحَصُولِ عَلَيْهَا .

(جَاءَ فِي الْحَدِيثِ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ رَجُلٌ مِنْ قِحْطَانَ يَسُوقُ النَّاسَ بِعَصَاهُ
وَهُوَ كِتَابِيَةٌ عَنْ اسْتِقَامَةِ النَّاسِ وَانْقِيَادِهِمْ إِلَيْهِ وَاتِّفَاقِهِمْ عَلَيْهِ) (٢) .

تَقُولُ وَمَعَ أَنَّ الْآيَاتِ سَيِّقَتْ إِلَيْهِ سَوَقًا إِلَّا أَنَّهُ انْسَلَخَ عَنْهَا وَتَرَكَهَا وَقَدْ قَالَ
الرَّاعِبُ فِي ذَلِكَ :-

(وَكَلَّ مَوْضِعَ ذِكْرٍ فِي وَصْفِ الْكِتَابِ (آتَيْنَا) فَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ كُلِّ مَوْضِعٍ ذَكَرْتَهُ فِيهِ (أُوتُوا)
لِأَنَّ أُوتُوا قَدْ يُقَالُ إِذَا أُولِيَ مِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ قَبُولٌ ، وَآتَيْنَاهُمْ فِيمَنْ كَانَ فِيهِ قَبُولٌ) (٣) .

وَنَقُولُ هُنَا إِذَا كَانَتْ جُمْلَةٌ (آتَيْنَاهُ) تَعْنِي سُقْنَا إِلَيْهِ فِي يُسْرٍ وَسَهْوَةٍ دُونَ أَنْ
يِيَسْذَلُ ذَلِكَ الْمَتَلَبِّيَّ أَي مَجْهُودٌ ، وَإِذَا كَانَتْ تَعْنِي الْقَبُولَ لِمَا سَيِّقَ إِلَيْهِ ، فَتَصْبِحُ جُمْلَةٌ
(آتَيْنَاهُ) هُنَا أَبْلَغُ مِنْ غَيْرِهَا لِسَبَبِ آخِرٍ أَيْضًا وَهُوَ كَوْنُهَا تَعْنِي إِقَامَةَ الْحُجَّةِ عَلَى هَذَا
الْمَنْسَلَخِ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ ، لِأَنَّ الْآيَاتِ قَدْ سَيِّقَتْ إِلَيْهِ سَوَقًا وَقَبْلَهَا بِنَفْسٍ رَاضِيَةٍ ثُمَّ
انْسَلَخَ مِنْهَا بِمَحْضِ ارْتِدَائِهِ (٤) .

فَمَا هِيَ حِجَّتُهُ وَمَا هُوَ اعْتِدَارُهُ سَاعَةَ حِسَابِهِ ؟

وَهُنَاكَ لَطِيفَةٌ أُخْرَى فِي إِسْنَادِ جُمْلَةِ (آتَيْنَا) لِذَاتِهِ الْعَلِيَّةِ - سُبْحَانَهُ - إِذْ
جَاءَ قَوْلُهُ (آتَيْنَاهُ) وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُتَحَدِّثَ عَنْهُ مَوْضِعَ إِحْسَانٍ وَكِرَمٍ وَلَيْسَ هُنَاكَ مُتَفَضِّلٌ
عَلَيْهِ بِهِمَا سِوَاهُ عَزَّ وَجَلَّ وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى :-

” فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ” (٥)

(١) لِسَانَ الْعَرَبِ ” أَتَى ” .

(٢) نَفْسُهُ ” سَوَقٌ ” .

(٣) الْمَفْرُودَاتُ فِي غَرِيبِ الْقُرْآنِ ، لِلرَّاعِبِ ” أَتَى ” .

(٤) التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ ٥٥ / ١٥ (بِتَصْرُفٍ) .

(٥) سُورَةُ الْكَهْفِ ، ٨٢ .

بينما جاء الضمير في قوله (فأنسلخ منها) مُسنداً إلى الشخص ذاته لأن موضع الحديث موضع اسامة ونظيره قوله تعالى :-

فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا . . . (١)

كما لا يفوتنا هنا ما في جملة (أنسلخ منها) من ايحاء بمعناها فكما علمنا - أنها في وجودها مع غيرها تدل على استعارة مكنية (٢) هذا فضلاً عن جرسها الذي يوحي بذلك النزع الشديد الذي يحدث أثناء إبعاد جلد الحيوان عن لحمه وهذا بدوره يشبه تماماً الشعور الذي ينتاب المبتعد عن آيات الله في تلك اللحظة الحرجة .

كما أن استعمال القول (أنسلخ) هنا يدل على أن الآيات لم تكن متمكنة في نفس الشخص وكيانه بل كانت شيئاً ملتصقاً به من الخارج فنزعته عوارض الأيام ومحسن الدهر (٣) ثم جاء قوله (فأتبعه الشيطان) والفاء هنا للتعقيب وفي هذا تلويح على أن المنسلخ عن آيات الله قد أصبح أشد من الشيطان غواية حتى أصبح الشيطان ملاحقاً له لا يتركه (٤) .

وهل أبلغ في التعبير عن الغواية وعدم الرشاد من أن يكون الشيطان تابعاً للمنسلخ من آيات الله ؟! والفاء في قوله (فكان) أيضاً للتعقيب ، ثم جاء قوله (من الفاوين) والغوي^٢ يعني الجهل عن سوء اعتقاد (٦) وهذا دليل على أن المبتعد عن آيات الله قد أصيب بهذا الغي لسوء اعتقاده الذي كان نتيجة الانسلاخ عن آيات الله تعالى والبعد عن تعاليمه ثم جاء قوله تعالى :-

” وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ” .

(١) سورة الكهف ، ٧٩ .

(٢) سبق توضيح ذلك في ص ١٦١ ر من هذا البحث .

(٣) تفسير القرآن الحكيم (المنار) ٤٠٦/٩ (بتصرف) .

(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٢٩٢/٣ (بتصرف) .

(٥) المفردات في غريب القرآن في " غوي " .

فالجمله لاستئناف الكلام ، وفي قوله (وَلوْشِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ) إيجاز حذف في المفرد إن التقدير هنا ولو شئنا رفعه لرفعناه وذلك لأنه ليس في تعلق الفعل بفعوله غرابية (١) .

ولنلاحظ هنا إسناد الفعل (رَفَعْنَا) الى ضمير الذات العلية وذلك لما فيه من الخير ، أما قوله (أَخْلَدُ) فقد أُسْنِدَ الى ضمير الشخص المنصرف عن آيات الله سبحانه وتعالى لأن ما يصيبه من سوء ، هو السبب فيه وحده أما الباء في قوله (لَرَفَعْنَاهُ بِهَا) سببها أي سببها .

ولنتأمل قوله (وَلِكِنَّهُ أَخْلَدُ إِلَى الْأَرْضِ) ففي هذا الاستدراك دليل على أن المبتعد عن آيات الله هو الجاني على نفسه بما اختار من سفا سيف الدنيا . وفي قوله (أَخْلَدُ إِلَى الْأَرْضِ) أي ركن إليها ظاناً أنه خالد فيها (٢) وقيل اطماناً إليها (٣) .

والجميل هنا أن يأتي التعبير بالإخلاق إلى الأرض وليس إلى الدنيا أو الشهوات وما ذاك إلا لأن الأرض موطن لذلك كده (٤) وهذا ما يسمى بلاغياً (٥) بالمجاز المرسل وعلاقته هنا المحلية (٦) أما القرينة الدالة على ذلك فهي قوله (أَخْلَدُ) إن الخلود لا يكون للأرض وإنما للدنيا وحطامها .

(١) قد يُحذف المفعول به لأسباب منها أن يكون الغرض إفادة تعلقه بفعول ويجب حينئذٍ تقديره بحسب القرائن ويُحذف حينئذٍ لدواعٍ منها ما جاء في الآية الكريمة وهذا الداعي اليكأن يعد الإبهام ، ليكون أوقع في النفس كما في فعل المشيئة السابق إذا لم يكن في تعلقه بفعوله غرابية ومثال ذلك لو شئت جئت ولو شئت لم أجيء ، أي : لو شئت المجيء رجئت ولو شئت عدم المجيء لم أجيء ، فضلاً انظر في ذلك : التلخيص في علوم البلاغة للقزويني ص ١٢٦ (بتصرف) .

(٢) المفردات في غريب القرآن - الخلد .

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٢٩٣/٣ (بتصرف) .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٧٥٨/٣ (بتصرف) .

(٥) المجاز المرسل هو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وُضع له ملائمة ومناسبة غير المشابهة كاليد إذا استعملت في النعمة لما جرت به العادة من صدورها عن الجارحة وبواسطتها تصل إلى المقصود بها ويجب أن يكون في الكلام دلالة على رب تلك النعمة ونسبتها إليه فيقال كثرت أيادي عني - مثلاً .

(٦) وللمجاز المرسل علاقات متعدده منها المحلية أي أن يكون الشيء يحل فيه غيره نحو حكمت المحكمة والقرينة هنا حكمت فضلاً انظر في ذلك علوم البلاغة للمراغي ص ٢٦٠ (بتصرف) .

ودليل ذلك قوله يعد ذلك (وَاتَّبِعْ هَوَاهُ) أي أن ذلك الإخلاق إلى الأرض لا تباع
وأمر الهدى وورغبات النفس الأمارة بالسوء .

وجملة (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ) مبتدأ وخبر - وقد سبق الإشارة إلى ما فيها
من تصوير (١) ، وإشارة الجملة الاسميه هنا للدلالة على دوام اتصافه بتلك الحالة
واستقراره عليها (٢) .

وقوله (إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ) شوط وجوابه وهو في موضع الحال أي فمثله كمثل
الكلب لا هتأ ، أي فهو على شيء واحد لا يتوانى عن المعصية كمثل الكلب الذي هذه
حالته (٣) .

وجملة الشرط وجوابه إيضاح للمثل قبلها وقد قال أبو السعود في ذلك :-
(والشرطية مع أختها تفسير لما أيهم المثل بتفصيل لما أجمل فيه وتوضيح للتمثيل
ببيان وجه الشبه لا محل له من الإعراب على منهاج قوله تعالى - :-
" خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ " (٤) .
أما قوله " ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ " .

ففي الإشارة دلالة على معنى البعد في الخسنة والدناءة وقيل هو عائد على
المنسلخ عن آيات الله أو ما ذكر من حالة خسيصة منسوبة إلى الكلب (٥) .
وجاء في تفسير المنار أن المقصود بذلك هنا (أي ذلك البعيد الشأوفسى
الغرابية) (٦) .

ثم جاء قوله تعالى (فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) فالفاء هنا لترتيب ما بعدها
على ما قبلها وهذا يعني الارتباط بين السابق واللاحق من الآيات .

-
- (١) فضلا راجع ص ١٦٠ من هذا البحث .
(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٢٩٣/٣ (بتصرف) .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٧٥٨/٣ (بتصرف) .
(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٢٩٣/٣ . (الأيضين سورة آل عمران ٥٩)
(٥) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٢٩٣/٣ (بتصرف) .
(٦) تفسير القرآن الحكيم (المنار) ٤٠٨/٩ .

واللّام في قوله (القَصَصُ) للعهد ، ولفظ (القَصَصُ) مصدر سَمِّيَ به المفعول كالسَّلْبِ مثلاً (١) .

والجُملة في موضع الحال من ضمير المخاطب أو في موضع المفعول له أي فاقصص راجياً تفكرهم أو رجاءً لتفكرهم (٢) .

ولنتأمل هنا ، اختتام الفاصلة بقوله تعالى (لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) إذ فيها دليل على أنّ المثل قد سبق لأخذ العبرة والعظة منه ، وهذا دليل على مناسبة الفاصلة للمعنى السابق لها في الآية الكريمة ، فضلاً عن مناسبتها للفواصل قبلها وبعدها (٣)
في السورة الكريمة من حيث اختتامها بالواو والنون أو الياء والنون أو الياء والميم والله أعلم



(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٢٩٣/٣ (بتصرف) .

(٢) روح المعاني ١١٦/٩ .

(٣) فضلاً انظر الفواصل في سورة الأعراف فسنجد معظمها تتناول الاختتام بالواو والنون أو الياء والنون من أول السورة إلى آخرها عدا آيتين ختمت بالياء واللّام وتسع آيات بالياء والميم .

١٣ - قال تعالى :-

• إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ
النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ
قَادِرُونَ عَلَيْهَا آتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَمْ
بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفَعَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ • (١) .

أ - المعنى العام :-

ضرب سبحانه وتعالى مثلاً للحياة الدنيا في نضرتها وبهايتها
واغترار الناس بها ، بما أنزله من السماء فأنبت الحبوب والقصب مما يأكل الناس
والأنعام حتى إذا اكتمل نضجه وجماله وفرح الناس به لاعتقادهم في حصاده
والانتفاع به ، أصابها وهم كذلك ما أصابها من ريح وقصر أو جراد وفأر
وصرصر . . . فأباد زينتها وجمالها وجعلها كأنها لم تكن شيئاً من قبل .
وماتك الأحجج وآيات من الله يبينها - سبحانه - لمن يتفكر في هذه
الدنيا ، فيأخذ العبرة والعظة في زوال بهجتها وضياعها ممن ظن أنه
امتلكها بما فيها من نعم وزينة خادعة (٢) .

ب - مناسبتها في السياق :-

تبدو مناسبة هذا المثل الكريم لما قبله وما بعده في السورة الكريمة
إذا علمنا أن آيته قد وردت ضمن الآيات التي جاءت (٣) لإبطال شبه الكفار
على القرآن (٤) .

أما مناسبة هذا المثل الكريم للآية قبله ، فهو أن السياق الكريم لما ذكر
أن من يبغى من الناس ، إنما يبغى على نفسه وما ذاك إلا امتاع الحياة الدنيا الحقيرة
(٥)

(١) سورة يونس ، ٢٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٤١٤ (بتصرف) كذلك جامع البيان ١١/١٠٢ (بتصرف)
كذلك روح المعاني ١١/١٠٠ - ١٠١ (بتصرف) .

(٣) سورة يونس ١ - ٣٦ .

(٤) النظم الفنى فى القرآن ١٣٧ (بتصرف) .

(٥) سورة يونس ، ٢٣ (بتصرف) .

ثم أعقب ذلك بل أوضح بهذا المثل الكريم للحياة الدنيا في سرعة زوالها واغترار الناس بها وعدم نفعهم بما اغترؤا به منها (١) وما ذاك الا تذكير لهم بما يمكن أن يصيبهم من جزاء بغيهم فيها وظلمهم لأنفسهم اذا أنها بحال ماتسرو وترفع أهلها تذهب ويؤول أمرها إلى النّهاية (٢) .

أما مناسبة هذا المثل الكريم لمابعد في السياق فتبدو في كون الآية التاليفة له مباشرة (٣) جاءت بدعوة عامة إلى دار السلامة والنّجاة وهي الجنّة وذلك لعاني الآية السابقة من إشارة إلى مافي الدنيا من نعيم زائل وفناء محتوم (٤) تلك هي مناسبة المثل الكريم لمقبله ومابعد في سياق السّورة الكريمة ، ثم تحدّثت الآيات بعد ذلك عن أحسنوا ، فلم الجنّة ، وعن أساءوا ، فلم النار . (٥)

ح- العبرة منه :-

بتأمل المثل الكريم ضمن ما جاء قبله وبعده في السياق ندرك العبرة الجليلة منه ، إن أن الآية الكريمة قبله أشارت إلى أن نتيجة بغي الإنسان لا تكون إلا على نفسه ولعل من مظاهر بغي الإنسان على نفسه أن يفتربمهاج الدنيا وزخرفها الزائل ، لذا ضرب هذا المثل الكريم حتى تبدو الصّورة واضحة فتؤخذ العبرة منها . . إن على الإنسان ألا يأخذه غروره بمافي الدنيا من زخرف وجمال إلى أن يظلم نفسه فينسى عاقبة ذلك الغرور ويؤتّي بنفسه بعد ذلك إلى الهلاك المحتوم ، عليه أن يعلم أن كل نعيم فيها ماهو الأسراب يحسبه الظمان ماء ، ثم لا يلبث أن يدرك خداعه وزواله بعد فوات الأوان ، عليه أن يراقب نفسه مراقبة مخلصّة صادقة وأن يتقّي الله تعالى ما استطاع وأن يجتهد كي يلقي الله وليس عليه مثقال ذرة من إثم ليفوز بجنّات عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وحكته

-
- (١) سورة يونس ، ٢٤ (بتصرف) .
(٢) البحر المحيط ١٤١/٥ (بتصرف) .
(٣) سورة يونس ، ٢٥ .
(٤) البحر المحيط ١٤٤/٥ - ١٤٥ (بتصرف) .
(٥) سورة يونس ، ٢٧ .

دراسته وتحليله بيانياً :-

بالنظر إلى قوله تعالى :-

• إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ
النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْهُنَّ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ
قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَمْ
بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفَعَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ • (١) .

نقول بالنظر إلى هذه الآية الكريمة نلاحظ اشتغالها على تشبيه تمثيلي، إن شُبِّهَتْ
حال الحياة الدنيا في بهجتها وسرور الإنسان واغتراره بما فيها من سعادة وحبور
حتى إذا ظن أنه امتلكها وأنه قادر عليها أخذت منه بفته في أحوج اللحظات
اليها ، وحيل بينهما شُبِّهَتْ هذه الحال بحال الأرض التي تستقبل الفيض
فتخضّر ويزهو نباتها ويكبر حتى تصبح كالعروس المتحلّية بكامل الزينة والحليّ
فتروق صاحبها ويسعد بها حتى إذا ظن أنه قادر على الانتفاع بما فيها فاجأها
القدر المحتوم ففضى عليها وأبادها عن آخرها وأصبحت كأنها لم تكن شيئاً ذا بال
فيحجب ظنه بها ويضيع أمله فيها في لحظة ثقته بنفعها وسعاده بها (٢) .

أما وجه الشبه المشترك بين المشبه والمشبه به ، فهو الهيئة الحاصلة من شيء
جميل رائع حتى إذا اغتربه الناظر وظن أنه مالكة قادر على الانتفاع به أتاه أمر
الله فذهب هباءً كأنه لم يكن شيئاً وفي قوله " أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا " استعارة
مكينة (٣) ويكون اجراء الاستعارة على هذا النحو :-

شُبِّهَتْ الأرض في اخضرارها وجمال نباتها بالعروس بجامع الزينة والجمال في كل
ثم بولغ في التشبيه واستعير في النفس لفظ المشبه به للمشبه ثم حذف وكُنِيَ عنه بشبه

(١) سورة يونس ، ٢٤ .

(٢) الأمثال في القرآن الكريم لابن قيم الجوزية ١٨٦ (بتصرف) .

كذلك البحر المحيط ١٤٣/٥ (بتصرف) .

(٣) روح المعاني ١٠١/١١ (بتصرف) .

من لوازمه ، فدَلَّ على هذه الاستعارة جملة (أَخَذَتْ) على سبيل الاستعارة المكيَّة
إذ الأخذ لا يكون إلا للإنسان واثبات لازم المشبه به للمشبه استعارة تخيلية قرينة
المكيَّة وما بعدها ترشيح للاستعارة .

هذا عن الصُّور البيانيَّة في المثل الكريم ، وبدراسة السِّياق نلاحظ أن قوله

تعالى :-

” إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ الْإِيَّهِ .

نلاحظ انسياباً وسهولة في العبارة لا يمكن أن تتوفر فيما لو وضعت العبارة -

بنظمٍ آخر كما لو قيل مثلاً :-

” إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ”

هذا فضلاً عما حققه النظم القرآني الجميل من ترتيب للأحداث ، إذ أن أساس

ظهور النَّبات في الأرض هو نزول المطر من السَّماء ، ثم اختلاطه بمافي الأرض من بذور
مختلفة ، ثم ما يلي ذلك من تُمُو الزَّرْع ونُضج الثَّمَر ، ثم اعجاب الزُّرَّاع والنَّاس باختلاف
ألوانه وأشكاله .

ثم نلاحظ قوله تعالى :-

” فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ” إذ جاءت فاء السَّبَبِيَّة لتبيِّن أنَّ الماء

كان سبباً في ذلك الاختلاط ، كذلك جاءت جملة (اخْتَلَطَ) هنا دون امتزج مثلاً

وذلك لأنَّ الاختلاط أعمُّ من الامتزاج ، إذ يكون الاختلاط بين جامدين أو مائعين

أو أحدهما مائع والآخر جامد ، بينما لا يكون الامتزاج الا بين سائلين (١) .

لذا كان مجيء جملة (اخْتَلَطَ) في السِّياق أكثر بلاغة ودقَّة من جملة

(٢)

امتزج مثلاً وذلك لأنَّ في اختلاط الماء بالنبات ما يدلُّ على أنَّه جرى منه مجرى الغذاء

والبإ في قوله (به) هنا للمصاحبة (٣) .

(١) المفردات في غريب القرآن * خَلَطَ * ، * مَزَجَ * .

(٢) البحر المحيط ١٤٣/٥ (بتصرُّف) .

(٣) نفسه ص ٥ / ٤٣

ثم لتأمل كيف جاء السِّيَاقُ بقوله :-

(مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ) نعم على التحديد مما يأكل النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ دون سواهما ، إذ أَنَّ الإعجاب والرَّغْبَةَ فيما يأكل النَّاسُ من حبوب وثمر وبقول ومِمَّا يَأْكُلُ الْأَنْعَامُ كالْحَشِيشِ وسائر ما يُرْعَى منقول يكون الإعجاب بهما وتشتدُّ الرَّغْبَةُ فيهما أكثر من غيرهما من أنواع النَّبَاتِ ، لذا ناسب أن يشبَّه به ما في الدُّنْيَا من متاع ومباهج ترووق كلَّ من عاش فيها وتمتَّع بنعيمها البراق .

ثم نلاحظ قوله (حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا) فبالإضافة إلى ما اشتملت عليه العبارة الكريمة من استعارة مكنية أشرنا إليها فيما سبق (١)

فإن لفظ (حَتَّى) هنا أفاد الغاية في اكتمال الزَّيْنَةِ والزُّخْرَفِ ، وجاء القول (زُخْرُفُهَا) ليدلَّ على النَّبَاتِ الجميل المنظر كالذهب وأنواع الحُلِيِّ على العروس هذا فضلاً عما أضافته جملة (وَازْبَيَّنَّتْ) من تأكيد (٢) لهذه الزَّيْنَةِ إذ أَنَّ الحُلِيَّ يمكن أن تؤخذ ولا يُتَزَيَّنُ بها أما وقد جاءت جملة (وَازْبَيَّنَّتْ) فدلَّت على أن أخذ الزُّخْرَفِ إنما كان للزَّيْنَةِ وهذا ما زاد التَّعبير بلاغةً وجمالاً وتأكيداً ، إذ أنه من المُمكن أن يُقال ^{في الامتثال} ~~مثلاً~~ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا فقط ثم يُقال وَظَنَّ أَهْلَهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عليها

ولكن هو التَّعبير القرآني الَّذِي لا يُدَانِيهِ أَيُّ تَعْبِيرٍ آخر مهما بلغ من البلاغة والتَّحْسِينِ .

أما قوله (وَظَنَّ أَهْلَهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا) .

فالظَّنُّ هنا جاء بمعنى اليقين (٣) أي أَنَّهُمْ صَارُوا فِي حُكْمِ الْعَالَمِينَ لِفَسْرَطِ طَمَعِهِمْ وَأَمَلِهِمْ فِيهَا (٤) .

-
- (١) فضلاً راجع ص ١٧١، ١٧٠ من هذا البحث فقد تم اجراء الاستعارة وتوضيحها .
(٢) البحر المحيط ٤٣/٥ (بتصرف) .
(٣) مقاييس اللغة " ظَنَّ " (بتصرف) .
(٤) المفردات للراغب " ظَنَّ " (بتصرف) .

أما أن هنا فقد جاءت مؤكدة لهذه القدرة والتحكم في الأرض ولا أدل على ذلك من مجيء حرف الجر على الذي يفيد الاستعلاء والضمير المتصل بها عائد على الأرض من غير شك ، وبناءً على ذلك نستطيع أن نقول إن وجود " على " الذي أفاد الاستعلاء قد أعطانا إحساساً أن الظن عندهم قد وصل إلى درجة اليقين فعلاً أي وكأنهم مستعلون على هذا الشيء ، ليس لأحد غيرهم التحكم فيه والتسلط عليه .

أما قوله " أتأها أمرنا " فهي جملة جواب الشرط، إذا (١) وفعله هو قوله (أخذت الأرض) .

وفي قوله (أتأها) نفهم من هذا الإتيان الذي يرتبط به البعد الزمني وفي الوقت نفسه في هذا البعد إيجاء بفسحة الأمل وقوة الظن على الاستعلاء . ولعل الإتيان هنا المقصود به الصيغة الأولى (٢) .

كذلك قد نفهم نحن البشر من جملة (أتى) أن العقاب بعيد وقت تحققه ولذلك راعت الآية الكريمة هذه النواحي النفسية للناس الذين قد نسي لهم فسي الأجل ومد لهم في العمر (٣) ، ونلاحظ دقة مجيء قوله (أمرنا) مع هذا المعنى دون سواه كما لو قيل مثلاً قضاؤنا - وما ذاك إلا لأن الأمر يعني الشأن وهو لفظ عام للأقوال والأفعال كلها (٤) بينما القضاء هو فصل الأمر قولا ذلك أو فعلاً هذا فضلاً عما في الأمر من قوة وشده وحزم .

ثم جاء قوله (ليلاً أو نهاراً) ليعطي هذا الأمر جلالاً ورهبة لا ثقة من صدره - سبحانه - إن في ذكر هاتين اللفظتين توقع لنزول البلاء في أي وقت كان سواء كان ذلك أثناء غفلتهم ونومهم ليلاً أو لحظة استيقاظهم وحذرهم نهاراً لأنه من عند عزيز مقتدر لا يمنعه عن أمره مانع .

(١) روح المعاني ١١/١٠١ (بتصرف) .

(٢) جاء هذا المعنى في سورة الزمر ٦٨ وسورة يس ٤٩ وسورة غافر ١٦ .

(٣) وفي سورة الأنعام نرى موقفاً جميلاً كمثل هذا المعنى من ٤٢ - ٤٤ .

(٤) المفردات للراغب " أمر " .

(٥) المفردات للراغب " قضى " .

ومن العجيب أن يتقدّم الليل على النهار في القرآن الكريم لأنّ الليل هو المهم وهو الأصل جاء في سورة الأعراف (١) :-

” أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ، أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ” .

فقد تأصّلت الغفلة في أهل القرى وتقدّم الليل هنا لارتباط النوم والراححة به ويقترن بذلك غفلة هؤلاء الناس وانصرافهم عن الله - سبحانه وتعالى - وتبدو الغفلة أشدّ والانصراف عن الله تعالى أكبر حينما تبلغ بهم الجراءة الحدّ الذي يجاهرون معه بالمعاصي نهاراً كي يفاجأوا بنبأس الله تعالى وقد أتاهم نهاراً وهم يلعبون .

ومن اعجاز القرآن أن يذكر فيه الليل أو النهار مع أن الكرة الأرضية ليس فيها ليل مطلق أو نهار مطلق .

ثم جاءت جملة (فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا) ، فكما هو معروف أنّ الجعل يأتي مرحلة ثانية بعد الخلق قال تعالى :- (٢)

” وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ”

فالجعل يتعلّق بتحويل المخلوق أو تحويله إلى شيء آخر غير أصله ويُفهم منه التّصيير ولكن في الجعل مدة أقصر من التّصيير .

هذا ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى دقّة مجيئ جملة (فَجَعَلْنَاهَا) إذ تدلّ على أنّ ما حدث لهذه الأرض من تغيير إنما كان بأمره - سبحانه - مباشرة ، فهمي أدقّ من جملة تركاها مثلاً ، لأنّ في الجعل دليلاً على أنّ التّغيير كان منه وحده سبحانه دون سواه .

فالهاء في (جَعَلْنَاهَا) إنما هي عائدة إلى الأرض والمقصود نباتها .

(١) سورة الأعراف ، ٩٧ و ٩٨ .

(٢) سورة الفرقان ، ٥٤ .

أما قوله (حصيداً) فأصل الحصد هو قطع الزرع في وقت الحصاد (١) ولكن اللفظة هنا استعملت للدلالة على الحصاد المفسد الذي يكون في غير أوانه ، ولا يخفى ما في القول (فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً) من تشبيهه بليغ (٢) .

وذكر بعضهم أنها استعارة تصريحية لأن الأصل في التعبير جعلنا نباتها هالكاً فشبّه الهالك بالحصيد وأقيم اسم المشبه به مقامه ولا ينافي ذلك تقديراً المضاف لأنه لم يشبه الزرع بالحصيد بل الهالك به (٣) .

ثم جاء قوله تعالى (كَأَنَّ لَمْ تَفْنِ بِالْأُمْسِ) زيادة في بيان سوء حال تلك الأرض التي أصبحت كأن لم يمكث نباتها ولم يقم لذا قيل في إعراب هذه الجملة (كَأَنَّ لَمْ تَفْنِ بِالْأُمْسِ) إما في محل نصب حال أو مستأنفة ونرجح هنا أن تكون في محل نصب حال .

ونلاحظ هنا مجيء لفظ (بِالْأُمْسِ) دون سواها كما لو قيل من قبل مثلاً . لأن أمس هي أدق في التعبير وأبلغ في الكناية عن أقرب وقت مريبها وهي فسي وضعها الرائق الجليل ، وقيل أن يصيبها ما أصابها من أمر الله تعالى .
أمس الذي مر على قريبه * * * يَعَجْزُ أَهْلُ الْأَرْضِ عَنْ رَدِّهِ (٤)
ثم نلاحظ كيف اختتمت آية المثل الجليلة بقوله تعالى :-
* كَذَلِكَ نَفَعَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * .

في هذا التعبير تشبيهه وتأكيده على سبب ذكر ذلك المثل الجليل الشأن المنبّه على أحوال الدنيا وسرعة زوال نعيمها عن من اغترّبها وانساق وراءها حتى ظن أنه تمكن منها ووثق بها وبمواعيدها فانفلتت منه في أحوج الأوقات إليها لأنها من طبعها الهرب من طلبها والإقبال على من رغب عنها . . . ذلك السبب هو ضرورة التفكير في كل ذلك ، لتكون حياته فيها لأخذ العبرة منها والابتعاد عن كل ما من شأنه أن يزيد من تعلق الإنسان بمباهج الدنيا الخداعة حتى لا يصيبه ما لا تحمد عقباه وحتى يصل بنفسه إلى ما يتمناه من جزيل الثواب وعظيم الأجر في الآخرة والله أعلم ،،،

(١) المفردات - للراغب * حصد * .

(٢) التشبيه البليغ هو ما ذكر فيه طرفا التشبيه (المشبه والمشبه به) وحذف منه وجه

الشبه والأداة . فضلاً انظر تفصيل ذلك في علم البيان . د . يوسف البيومي ٨ .

(٣) روح المعاني ١١ / ١٠١ (بتصرف) .

(٤) سقط الزند ص ٢٥ بيروت ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م .

١٤ - قال تعالى :-

• مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ • (١)

أ- المعنى العام :-

أوضح سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة حال الفريقين الكفار والمؤمنين فبين عز وجل أن الكفار في شغلهم بكفرهم بالله وغلبة خذلان الله عليهم وعدم سماعهم لداعي الحق والرشاد وإعراضهم عن الهدى وإقامتهم في الضلال وترددهم في الحيرة والضياح إنما هم في هذه الحالة أشبه ما يكونون بالأعمى الذي لا يبصر شيئاً والأصم الذي لا يسمع صوتاً .

وأما المؤمنون فقد شبه حالهم من إجابة للحق وإقبال عليه وإقرار بما دلت عليه حجج الله الناصعة من توحيد له عز وجل وبرائة من الآلهة والأنداد وسماع لداعي الهدى والرشاد واتباعه شبه السميع البصير الذي تمتع بنعمة البصر فرأى ما أمامه والسميع الذي وهب نعمة السمع فسمع ما يجري حوله وعقله .

ثم يستنكر السميع البصير أن يستوي هذان الفريقان مثلاً لعدم تساوي الأعمى والأصم والسميع والبصير في عدم الاستفاده أو الانتفاع بهاتين النعمتين البصر والسمع لذا وجب التفكير في ذلك وأخذ العبرة والموعظة من هذا المثل الكريم فيعلم كل مسلم حقيقة الاختلاف بينهما والبعد عن كل ما يوقع في الإثم والضلال . (٢)

ب- مناسبه في السياق :-

تبدو مناسبة هذا المثل الكريم للآيات قبله جليّة واضحة ، إذ أنه جاء لتقريب المعنى وتوضيحه لكل سامع فكما نلاحظ أن الآيات السابقة له ، تحدّثت عن الكفار ومظاهر كفرهم وأعمالهم الباطلة من تكذيب لنبوّة محمد - صلى الله عليه وسلم - وظنّهم أن ما جاء به من وحي أو إنذار بالبعث ما هو إلا سحر مبين

(١) سورة هود ، ٢٤ .

(٢) جامع البيان ٢٥ / ١٢ (بتصرف) كذلك تفسير ابن كثير ٤٤٣ / ٢ .

أو استبطائهم للعذاب وظنهم أنه محبوس عنهم أو بأسهم في ضرهم أو فرحهم ، وفخرهم اذا كشف عنهم ما هم فيه (١) الى آخر ما ذكرته من أفعالهم السيئة وتحدي القرآن لهم وتوعدهم بالعذاب (٢) .

ثم انتقل السياق - كعادته - الى الحديث عن الفريق الآخر وهو فريق المؤمنين الذين آمنوا بقلوبهم ، فعملت جوارحهم الصالحات قولاً وفعلاً من الإيمان بالطاعات والانتهاء عن المنكرات حتى ورثوا الجنات (٣) ، وهنا تأتي مناسبة المثل الكريم لهذه الايات إذ أوضح هذا المثل المعنى وبين مرامييه فكما أن الأعمى لا يرى ما حوله من أشياء ، والأصم لا يسمع ما حوله من أصوات ، فكذلك الكافر لا يسمع سماع متديبر ولا يستفيد من حجج الله الواضحة وبراهينه الساطعة الدالة على توحيدهِ وألوهيته ولا يرى بعين البصيرة نور الايات البيّنات والحجج الساطعات ، إن البصير والسَّمِيع ينتفعان من حاستي البصر والسمع - في مجال المحسوسات وإن المؤمن يستفيد من بصيرته النيرة وأذنه الواعية ويترجم كل ذلك الى عمل .

تلك هي مناسبة المثل الكريم لما قبله من آيات في السياق ، أما مناسبته لما بعده من آيات ، فتبدو في ذكر الايات بعد ذلك قصص الأنبياء السابقين لمحمد - صلى الله عليه وسلم - وما أصابهم - صلوات الله عليهم جميعاً - من مجازلة أقوامهم وتكذيبهم ولعل في هذه القصص المذكورة مواساة له - صلى الله عليه وسلم - .

من هذه القصص المذكورة قصة كل من نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم

الصلاة والسلام (٤) .

لقد عقب السياق على ذلك بتقرير العذاب الذي حل بهم بأنه نتيجة ظلمهم

لأنفسهم وعنادهم ومكابرتهم ، ليكونوا عبرة لمن يخاف عذاب الآخرة (٥) وأولئك هم الأشقياء الذين يقابلهم السعداء الذين لهم النعيم المقيم (٦) .

-
- (١) سورة هود ٧ - ١٠ .
 - (٢) سورة هود ١٢ - ٢١ .
 - (٣) سورة هود ٢٢ - ٢٣ .
 - (٤) سورة هود ٢٥ - ٩٩ .
 - (٥) سورة هود ١٠٠ - ١٠٤ .
 - (٦) سورة هود ١٠٥ - ١٠٨ .

ثم استمرت الآيات بعد ذلك في تسلية النبي - محمد صلى الله عليه وسلم -
وتثبيته وأمره على المضي في الدعوة وعدم الالتفات إلى ما يجده من ظلم الكفار
وعنادهم لأن ذلك أمر الله وقضائه ولو أراد عز وجل أن يجمعهم على
قلب واحد لفعل ذلك ولكنه فعل ما فعله لحكمة منه وإرادة عظيمة فله سبحانه غيب
السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله وليس على المؤمنين العبادته والتوكل عليه لأنّه
ليس بغافل - سبحانه - عما يعمل الظالمون (١) .

ح. العبرة منه :-

لعل العبرة من هذا المثل الكريم تتجلى في ضرورة الأخذ بما أمر به عز وجل
من أوامر وطاعات واجتناب ما نهى عنه من معاصٍ وآثام حتى لا تكون النتيجة سيئة
والأخذ شديداً منه عز وجل وحتى لا يصبح المعرض عن أوامر الله ودعوته كالأعمى الذي
لا يرى أجمل الأشياء ولا أردأها وكالأصم الذي لا يسمع ما يدور حوله من أصوات بل لا يبد
من الطاعة التامة . . . لتكون النتيجة محمودة والعاقبة طيبة كريمة هذا ما تركه
المثل الكريم من عبرة خالدة ولعل ذلك عائد إلى جمال التمثيل فيه ودقته (٢) .

(١) سورة هود الآيات من ١٠٩ - ١٢٣ آخر السورة .

(٢) فضلا انظر إلى توضيح ذلك التمثيل في ص ١٧٩ من هذا البحث .

-> دراسته وتحليله بيانياً :-

قال تعالى :-

”مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا“
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * (١)

نلاحظ أن المثل الكريم اشتمل على تشبيهه مطفوف (٢) .

اذ جاء المشبهان هنا وهما فريق الكافرين ، وفريق المؤمنين ثم أتى بعد ذلك بالمشبهات بها على التوالي والترتيب وهما الأعمى والأصم ، والبصير والسميع ، ان شبه فريق الكفار بالأعمى في عدم اهتدائه وتبينه ما هو أمامه ، وبالأصم في عدم سماعه ما يدور حوله من حجج وبراهين أو عدم انتفاعه بما لا يسمع قال تعالى :-

”وَكُوِّعَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّا سَمْعَهُمْ * (٣)

كذلك شبه فريق المؤمنين بالبصير في رؤيته ما أمامه وذلك لبصيرته النافذة وضميره اليقظ لما يراه من آيات كونيّة ودلائل إلهية صادقة .

كذلك تشبيهه لهذا الفريق بالسميع الذي يسمع ما يدور حوله ويعيه وذلك لما يصدر عن المؤمنين من سماع لداعي الحق واستجابة لأوامره واجتناب عن نواهيه .
وقيل وإنه يمكن اعتبار التشبيه جارياً على التنوع في الفريقين في شبه نوعاً من الكفار بالأعمى ونوعاً آخر بالأصم ويشبه نوعاً من المؤمنين بالبصير وآخر بالسميع .
واستبعد الألوسي هذا التقسيم (٤) بدليل نظائره من القرآن كقوله تعالى :-

”وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * (٥)

-
- (١) سورة هود ، ٢٤ .
(٢) وهو أن يتعدّد الطرفان (المشبه ، المشبه به) ويؤتى بالمشبهات أولاً على طريق العطف أو غيرها ثم يؤتى بالمشبهات بها كذلك وذلك كقول امرئ القيس يصف عقاباً بكثرة اصطياح الطيور :
كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا * * لدى وكرها العناب والحشف البالي .
فضلا انظر في ذلك علوم البلاغة للمراغي - ٢٢٥ كذلك تلخيص المفتاح فسي المعاني والبيان والبديع للقزويني ٢٤٩ (بتصرف) .
(٣) سورة الأنفال ، ٢٣ .
(٤) روح المعاني ٣٤ / ١٢ (بتصرف) .
(٥) سورة فاطر ١٩-٢٠ أثبتت الآية خطأ في روح المعاني ٣٤ / ١٢ .

وقوله :-

” خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ” (١) فِي الْكُفَّارِ الْخُلَصِّ .

وقوله :-

” صُمُّوا بِكُمْ عَمَىٰ قَهْمٌ لَا يَرْجِعُونَ ” (٢) فِي الْمُنَافِقِينَ (٣) .

وقيل إنَّه من التَّشْبِيهِ التَّمثِيلِيِّ عَلَى أَسَاسِ تَشْبِيهِ فَرِيقِ الْكَافِرِينَ فِي أَعْرَاضِهِمْ عَنِ الدَّلَائِلِ وَتَعَامِيهِمْ عَنِ الْحَقِّ وَعَدَمِ سَمَاعِهِمْ لَهُ وَوُقُوعِهِمْ بِسَبَبِ ذَلِكَ فِي الْعَذَابِ الْمُضَاعَفِ وَالْخُسْرَانِ ، تَشْبِيهِهُمْ فِي هَذِهِ الْحَالِ بِحَالِ مَنْ فَقَدَ بَصَرَهُ وَسَمِعَهُ فَتَخَيَّبَ فِي طَرِيقِهِ وَسَقَطَ فِي مَهَاوِي الرَّدَى وَالضَّيَاعِ فَلَمْ يَجِدْ رَاسًا يَهْدِيهِ سَبِيلًا ، وَتَشْبِيهِ فَرِيقِ الْمُؤْمِنِينَ فِي اسْتِعْمَالِ بَصِيرَتِهِمُ النَّافِذَةِ وَضَمِيرِهِمُ الْيَقِظِ حَسْبَمَا يَلِيْقُ بِهِمْ وَفَوْزِهِمْ بِالْجَنَّةِ - تَشْبِيهِ حَالِهِمْ تِلْكَ بِحَالِ مَنْ تَمَتَّعَ بِبَصَرِهِ وَسَمِعَهُ فَأَخَذَ يَسْتَعْمَلُهُمَا فِي كُلِّ مَا يَعُودُ عَلَيْهِ بِالنَّقْبِيعِ وَالْخَيْرِ (٤) .

ولكن الألوَسِي لا يأخذ بهذا الرَّأْيِ وَيُرَى أَنَّهُ مِنْ بَابِ اللَّفِّ وَالنَّشْرِ (٥) . وَهَذَا

مَانْمِيلٌ إِلَيْهِ .

هَذَا مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْمَثَلُ الْكَرِيمُ مِنْ صُورِ بَيَانِيَّةٍ أَمَّا عَنِ دَرَاةِ السِّيَاقِ فَيَبْدُو لَنَا

مَا يَأْتِي :-

وَجُودِ الطَّبَاقِ (٦) بَيْنَ لَفْظِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرِ وَالْأَصَمِّ وَالسَّمِيعِ يَقُولُ أَبُو حَيَّانَ

فِي ذَلِكَ :-

(١) سُورَةُ الْبَقَرَةِ ، ٧ .

(٢) سُورَةُ الْبَقَرَةِ ، ١٨ .

(٣) رُوحُ الْمَعَانِي ٣٤/١٢ (بِتَصْرُفٍ) .

(٤) رُوحُ الْمَعَانِي ٣٥/١٢ (بِتَصْرُفٍ) .

(٥) هُوَ ذَكَرَ مُتَعَدِّدَ مَفْضَلٍ أَوْ مَجْمَلٍ ثُمَّ ذَكَرَ لِكُلِّ مِنْ أَحَادِهِ بِلَاتَعْيِينِ اشْكَالًا عَلَى

أَنَّ السَّمَاعَ يَرُدُّ إِلَى كُلِّ مَا يَلِيْقُ بِهِ لَوْضُوحِ الْحَالِ ، وَمِثَالُ الْفَصْلِ قَوْلُهُ تَعَالَى :-

” وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ جَمَعَ

بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بَوَاوِ الْعَطْفِ ثُمَّ أَضِيفَ إِلَى كُلِّ مَا يَلِيْقُ بِهِ .

فَضْلًا أَنْظَرَ فِي ذَلِكَ عُلُومَ الْبِلَاغَةِ لِلْمَرَاغِي (٣٤١ وَ ٣٤٢) . (الرَّبْعَةُ سُورَةُ الْقَصَصِ ٣٣) .

(٦) مِنَ الطَّبَاقِ نَوْعٌ يُخَصُّ بِاسْمِ الْمَقَابِلَةِ وَهِيَ الْمَقْصُودَةُ هُنَا وَمَعْنَى الْمَقَابِلَةِ أَنَّ يُؤْتَى

بِمَعْنِيَيْنِ مُتَوَافِقَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ ثُمَّ يُؤْتَى بِمَا يَقَابِلُ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ التَّرْتِيبِ ، أَنْظَرَ

فِي ذَلِكَ عُلُومَ الْبِلَاغَةِ لِلْمَرَاغِي ٣٣٠ .

(لَمَّا ذَكَرَ مَائِوُؤْلَ إِلِيهِ الْكَفَّارَ مِنَ النَّارِ ذَكَرَ مَائِوُؤْلَ إِلِيهِ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالْفَرِيقَانِ هُنَا الْكَافِرَ وَالْمُؤْمِنَ وَلَمَّا كَانَ تَقَدَّمَ ذَكَرَ الْكَفَّارَ وَأَعْقَبَ بِذَكَرِ الْمُؤْمِنِينَ جَاءَ التَّمَثِيلُ هُنَا مَبْتَدَأً بِالْكَافِرِ فَقَالَ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَ وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَابِ تَشْبِيهِ اثْنَيْنِ بِاثْنَيْنِ (١) فَقَوْلُ الْأَعْمَى بِالْبَصِيرِ وَهُوَ طِبَاقٌ وَقَوْلُ الْأَصْمِ بِالسَّمِيعِ وَهُوَ طِبَاقٌ أَيْضاً وَالْعَمَى وَالصَّمُّ آفَتَانِ تَمْنَعَانِ مِنَ الْبَصَرِ وَالسَّمْعِ وَليستَا بَضَدَيْنِ لِأَنَّهُ لَا تَعَاقُبَ بَيْنَهُمَا) .
 كما يرى أبو حيان أَنَّهُ مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَابِ تَشْبِيهِ الْوَاحِدِ بِصِفَتَيْنِ مُتَوَالِيَتَيْنِ مُقَابِلِ آخَرَ مُتَّصِفٍ بِصِفَتَيْنِ مُتَوَالِيَتَيْنِ (٢) وَضَرَبَ عَلَيَّ ذَلِكَ مَثَالاً بِقَوْلِ الشَّمَاعِرِ :-
 إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْنِ وَابْنِ الْهُمَامِ * * * وَلَيْتَ الْكُرْبَةَ فِي الْمَزْدَحِمِ (٤) ،
 وَيُرَى أَنَّهُ لَمْ يَجِءَ التَّرْكِيْبُ كَالْأَعْمَى وَالْبَصِيرِ وَالْأَصْمَ وَالسَّمِيعِ فَيَكُونُ مُقَابِلَةً ، فِي لَفْظِ الْأَعْمَى وَضَدَّهُ وَفِي لَفْظِ الْأَصْمَ وَضَدَّهُ ، يَرَى أَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ رَاجِعٌ إِلَى أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ سَبْحَانَهُ انْسَدَادَ الْعَيْنِ أَتْبَعَهُ بِانْسَدَادِ السَّمْعِ وَلَمَّا ذَكَرَ انْفِتَاحَ الْبَصَرِ أَتْبَعَهُ بِانْفِتَاحِ السَّمْعِ (٥) .
 وَيَعْقِبُ عَلَيَّ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :-

(وَذَلِكَ هُوَ الْأَسْلُوبُ فِي الْمُقَابِلَةِ وَالْإِثْمُ فِي الْإِعْجَازِ) (٦)

وَيَأْتِي بِمِثَالٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَيْضاً نَظِيرَ هَذَا الْمِثْلِ مِنْ سُورَةِ طه :- (٧)

” إِنْ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ، وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ” . (٨)

وَهَذَا التَّشْبِيهُ مِنْ بَابِ تَشْبِيهِ الْمَعْقُولِ بِالْمَحْسُوسِ ، إِذْ شَبَّهَ الْأَعْمَى الْبَصِيرَةَ أَصْمَهَا

فِي عَدَمِ اهْتِدَائِهِ لِلْحَقِّ بِأَعْمَى الْبَصَرِ أَصْمَ السَّمْعِ لِعَدَمِ رُؤْيَيْهِ أَوْ سَمَاعِهِ شَيْئاً (٩) .

(١) وَهُوَ مَا ذَهَبْنَا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلِ حِينِ أَشْرْنَا أَنَّهُ مِنَ التَّشْبِيهِ الْمَطْفُوفِ انْظُرْ ص ١٧٩ مِنْ هَذَا الْبَحْثِ .

(٢) الْبَحْرُ الْمَحِيْطُ ٢١٣/٥ .

(٣) الْبَحْرُ الْمَحِيْطُ ٢١٣/٥ ، أَيْضاً وَجِدَ هَذَا الرَّأْيَ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ ٢/٩١ (بِتَصْرُفٍ) .

(٤) نَفْسُهُ ٢١٣/٥ .

(٥) نَفْسُهُ ٢١٣/٥ (بِتَصْرُفٍ) .

(٦) نَفْسُهُ ٢١٣/٥ .

(٧) نَفْسُهُ ٢١٣/٥ (بِتَصْرُفٍ) .

(٨) آيَةٌ : ١١٩ .

(٩) الْبَحْرُ الْمَحِيْطُ ٢١٤/٥ (بِتَصْرُفٍ) .

وإعراب مُثَلُّ في قوله (مُثَلُّ الْفَرِيقَيْنِ) مبتدأ ، خبره الكاف في قوله (كالأعمى)
على تقدير معناها أي مثل الأعمى (١) .

أو أن يكون الكلام على تقدير مضاف محذوف جرّاً بالكاف ، فيكون التّقدير كمثّل
الأعمى ، وهنا يكون الجارّ والمجرور متعلّقين بمحذوف يقع خبراً للمبتدأ (٢) .
والواو بين قوله كالأعمى والأصمّ والسّميع إنّما هي لعطف بعض الصّفات على بعض .
ونلاحظ أنّ قوله كالبصير وهو المَبْصِر (٣) : أكثر دقّةً وبلاغة من غيرها فـي
السّياق مالم يقل مثلاً (المَبْصِر) وذلك ، لأنّ البصير هو العالم بالشّيء * مأخوذ
من البصيرة قال تعالى (٤) :-

" بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ " أي : علمت ما لم يعلموا به من البصيره * (٥)
(وَبَصِيرًا كَذَا وَكَذَا أَيْ : حَازِقٌ لَهُ عِلْمٌ دَقِيقٌ بِهِ) (٦) ويمكن أيضاً أن يقال
للأعمى " بصير " وذلك لقوّة بصيرته . إذ من المؤمنين من يكون أعمى ولكنه بصير
القلب ، نافذ البصيرة .

وهذا هو وجه الدقّة في مجيئ لفظه (البصير) دون سواها لأنّ من المؤمنين
من هو مبصر ومنهم من هو أعمى وكلاهما بصير بحقائق الإيمان حازق بخفايا أموره .
هذا وقد قدّمت لفظه (بصير) على لفظه (سميع) في السّياق لتوافق
التقديم الأوّل فيه أي لتطابق لفظه (البصير) ولفظه الأعمى ، ولتطابق لفظه
(السّميع) ولفظه (الأصمّ) ، ولعلّ سبب تقديم قوله (الأعمى) على
(الأصمّ) عائد إلى أنّ فقدان البصر أظهر وأشهر وأقوى دليلاً على سوء الحال (٧) .

-
- (١) انبحر المحيط ٢١٤/٥
(٢) روح المعاني ٣٥/١٢ (بتصرّف) .
(٣) تاج العروس "بَصْرٌ" (بتصرّف) .
(٤) سورة طه ، ٩٦ .
(٥) تاج العروس "بَصْرٌ" .
(٦) نفسه "بَصْرٌ" .
(٧) روح المعاني ٣٥/١٢ (بتصرّف) .

١٥ - قال تعالى :-

• أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ، تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ • (١) .

أ- المعنى العام :-

ذكر سبحانه وتعالى في هذا المثل الكريم نموذجاً محسوساً يسهّل فهم المعنى وتدبره إذ أن التّشبيهاً الكريم بين فضل الكلمة الطيّبة كمة إيمان - وهي شهادة ألا إله إلا الله هذه الكلمة التي لا تكون عاقبتها إلا طيّبة مثلها كالشجرة الطيّبة التي لا تعطي إلا طيّباً مثلها ولا ينقطع عطاؤها مطلقاً بإذن منه - سبحانه وتعالى . وحتى يكون في ذلك ذكرى للمؤمنين ليقنّوا كل ما يستطيعونه من الصّالحات هذا هو المعنى العام المفهوم من المثل الكريم إلا أننا يطيب لنا هنا أن نذكر بعض ما قاله المفسّرون في المقصود من الكلمة الطيّبة والشجرة الطيّبة .

فقد قيل إنّها إيمان المؤمن (٢) وقيل هي شهادة ألا إله إلا الله أما الشجرة فهي المؤمن نفسه ، أما الأصل الثابت أي أن قول لا إله إلا الله ثابت في قلب المؤمن وهذا القول يرفع عنه إلى السماء (٣) .

وقيل إنّ الإيمان هو الشجرة الطيّبة والأصل الثابت هو الإخلاص لله والفرع الذي في السماء هو خشية الله (٤) .

وقيل الكلمة الطيّبة هي كلمة الإسلام لا إله إلا الله أو ما هو أعم من ذلك من كلمات الخير كالتمسّيح والتّزئبه (٥) .

-
- (١) سورة ابراهيم ٢٤ - ٢٥ .
(٢) جامع البيان ٢٠٣/١٣ (بتصرّف) كذلك الجامع لأحكام القرآن ٣٥٨٨/٤ ، (بتصرّف) .
(٣) نفسه نفس الصّفحة (بتصرّف) .
(٤) جامع البيان ٢٠٤/٣ (بتصرّف) .
(٥) فتح القدير ١٠٦/٣ (بتصرّف) .

أما الشَّجَرَةُ فهي النَّخْلَةُ أو جوزة الهند أو شجرة في الجَنَّةِ (١) ومهما كُـرِّرَ التَّأْوِيلُ أو اِخْتَلَفَ في المقصود من الكلمة الطَّيِّبَةُ أو الشَّجَرَةُ الطَّيِّبَةُ ، فَإِنَّا نَأْخُذُهَا بَعْمومِ اللَّفْظِ لِابْخِصومِهِ ، فالمقصود بالكلمة الطَّيِّبَةُ هي كُلُّ كَلِمَةٍ خَيْرٍ يَنْطُقُهَا الْمُؤْمِنُ سِوَاءَ مَا كَانَ ذَلِكَ شَهَادَةً أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أو التَّسْبِيحَ وَالتَّنْزِيهَ أو حَتَّى في حَدِيثِهِ مَعَ الْآخِرِينَ

وَأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ هِيَ آيَةُ شَجَرَةٍ يُمْكِنُ أَنْ يُسْتَفَادَ مِنْهَا وَقَتَ طَلِبِهَا بِأَيِّ شَكْلِ مِنَ الْأَشْكَالِ كَالنَّخْلَةِ مِثْلًا الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يُسْتَفَادَ مِنْ طَلْعِهَا وَشَعْرِهَا وَجَرِيدِهَا . وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ يَطِيعُ رَبَّهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ وَفِي الشَّدَّةِ وَالرِّخَاءِ عَلَى حَدِّ سِوَاءِ .

كَذَلِكَ يَذْكَرُ السِّيَاقُ هَذِهِ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَأْخُذُونَ مِنْهَا الْعِبْرَةَ وَالْعِظَّةَ فَيَعْمَلُونَ بِمَا فِيهَا مِنْ مَبَادِيءٍ قِيَمَةٍ وَعِبَرٍ خَالِدَةٍ .

هَذَا هُوَ الْمَعْنَى الْعَامُّ لِلْمِثْلِ وَسَنَتَاوَلُ وَجْهَ التَّشَابُهِ بَيْنَ الْمَشْبَهِ وَالْمُشَبَّهِ بِهِ

فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الدَّرَاسَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ (٢)

ب- مناسبتة في السِّيَاق :-

لَقَدْ تَحَدَّثَتْ الْآيَاتُ السَّابِقَاتُ (٣) لِهَذَا الْمِثْلِ الْكَرِيمِ عَنِ الْكُفَّارِ وَعِنَادِهِمْ وَاسْتِكْبَارِهِمْ عَنِ أَنْ يَقُولُوا كَلِمَةَ الْإِيمَانِ لِرُسُلِهِمْ ثُمَّ ذَكَرْتُ أَيْضًا الْآيَاتِ مِثْلًا لِأَعْمَالِهِمُ الذَّاهِبَةِ سُدًى (٤) كَمَا ذَكَرْتُ قُدْرَتَهُ عِزَّ وَجَلَّ عَلَى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَقُدْرَتَهُ أَيْضًا عَلَى أَنْ يُذْهِبَهُمْ وَيَأْتِي بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . . . ثُمَّ بَيَّنْتُ الْآيَاتِ تَجَرُّؤُ الشَّيْطَانِ فِي الْآخِرَةِ مِمَّنْ اتَّبَعَهُ فِي الدُّنْيَا وَعَذَابِهِمُ الْمُنْتَظَرُ فِي الْآخِرَةِ (٥) .

(١) جامع البيان ٢٠٤/١٣ كذلك فتح القدير ١٠٦/٣ (بتصرف) كذلك البحر المحيط ٥٢١/٥ (بتصرف) .

(٢) فضلا انظر في ذلك التحليل البياني للمثل ص ١٨٠ من هذا البحث .

(٣) سورة ابراهيم ٣ - ١٧ (بتصرف) .

(٤) سورة ابراهيم ، ١٨ (بتصرف) .

(٥) نفسها ١٩ - ٢٢ (بتصرف) .

وانتقل السَّيِّاق كعادته إلى الجهة المُقابِلة وهي بيان ثمره أعمال المؤمنين وما ينتظرهم من ثواب في الآخرة وضرب السَّيِّاق لذلك مثلاً كريماً وهنا تبدو مناسبة هذا المثل لما قبله إذ جاء لبيان نتيجة الإيمان وثمرته على صاحبه ولعلنا هنا نذكر حديث عبد الله بن سلام الذي بشره رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالجنة بعد رؤيا رآها وقصَّها عليه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

هذا الحديث هو الذي رواه الامام أحمد والذي أخرجاه في الصحيحين :-

(قال الإمام أحمد : أنبأنا اسحاق بن يوسف حدثنا ابن عوف عن محمد بن قيس بن عبادة قال : كنت في المسجد فجاء رجل في وجهه أثر من خشوع فصلَّى ركعتين أوجز فيهما فقال القوم : هذا رجل من أهل الجنة فلما خرج أتبعته حتى دخل منزله فدخلت معه فحدثته فلما استأنس قلت له أن القوم لما دخلت المسجد قالوا كذا وكذا . قال :-

سبحان الله ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم وسأحدثك لم : إنني رأيت رؤيا على عهد رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقصصتها عليه ، رأيت كأنني في روضة خضراء - قال ابن عوف فذكر من خضرتها وسعتها - وفي وسطها عمود حديد ، أسفله في الأرض وأعلى في السماء في أعلاه عروة ثقيل لي اصعد عليه فقلت لا أستطيع ، فجاءني منصف - قال ابن عوف هو الوصيف - فرجع ثيابي من خلفي فقال اصعد فصعدت حتى أخذت بالعروة فقال استمسك بالعروة ، فاستيقظت وإنها لفي يدي ، فأتيت رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقصصتها عليه فقال :- أما الروضة فروضة الاسلام ، وأما العمود فعمود الإسلام وأما العروة فهي العروة الوثقى ، أنت على الإسلام حتى تموت ، قال : وهو عبد الله بن سلام . أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الله بن عوف فقامت إليه ، وأخرجه البخاري من وجه آخر عن محمد بن سيرين به وهكذا رواه النسائي عن أحمد بن سليمان عن غسان

و ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن الحسن بن موسى الأشيب كلاهما عن حماد بن سلمة به نحوه وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث الأعمش عن سليمان بن مسهر عن خرشه ابن الحر الفزاري به (١)

أما مناسبته لمابعد في السياق ، فنجدها في المثل الآخر الذي ضرب في المقابل لبيان الأثر السيء ، للكلمة الخبيثة - (كلمة الكفر أو الشرك ، أو ما يلحق بهما من كلمات الشر وبيان أثرها على صاحبها ومن حوله) = .

ثم ذكر السياق بعد ذلك مشيئة الله النافذة في تثبيت المؤمنين على القول الثابت في الدنيا والآخرة ، بينما يزيد الظالمين ضلالاً ، فلا يستطيعون التكلم بكلمة الحق في قبورهم ولا في آخرتهم جزاءً لضلالهم واستكبارهم في الحياة الدنيا ويفعل الله ما يشاء (٢) .

ح- العبرة منه :-

إن المثل الكريم يذكر لنا عبرته بين سطوره الجليلة إذ يقول تعالى :-
* أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفُرُوعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْثَرًا كُلِّ حِينٍ يَبْدَأُ بِهَا وَيُضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * .
فإذا علمنا أن الكلمة الطيبة - كما سبق الإشارة - (٣) هي كلمة الإسلام بمعناها لإله إلا الله * إذا علمنا ذلك أدركنا مدى العبرة التي يمكن أن تستفاد من ضرب هذا المثل وان كان هنا المشبه به أدنى قيمة من المشبه لأن كلمة لإله إلا الله وثمرتها لا يمكن أن تتساوى مع الشجرة الطيبة حتى وإن كانت من أفضل أنواع الشجر وحتى إن اشتملت على كل الصفات اللازمة للشجر الطيب .

نقول لاشك أن لإله إلا الله - خالصة قولاً وفعلاً من كل ما يشوبها لاشك أنها مشبه فاضل لا يدانيه شيء آخر ولكن هي عادة القرآن الكريم التي ألفناها

(١) تفسير ابن كثير ٣١٢ / ١ - ٣١٣ .
(٢) سورة ابراهيم ٢٦ - ٢٧ (بتصرف) .
(٣) فضلاً راجع ص ١٨٤ من هذا البحث .

يأتي بالمحسوس ليشبه به المعقول لتقريب المعنى وتوضيحه حتى يكون على قدر الأفهام المخاطبة والعقول ، ألسنا نذكر قوله تعالى (١) :-

• اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْقَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ
الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ
زَيْتُهَا يُبْصِرُ ۖ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُوِّرْ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ
وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ •

فالمولى عوّجلاً ضرب لنوره مثلاً محسوساً بسيطاً وهو النور المتجمع في كوة غير ناقذه فيها مصباح وذلك المصباح في زجاجة لامعة كالكوكب الدرّي وحتى الزيت الذي ،
أضأء ها زيت صافٍ ليساعد على زيادة ذلك النور .

نقول مع أنّ هذا المثل الذي ضربه القرآن الكريم لنور الله هو أفضل وضع ممكن
أن يكون عليه النور إلا أنه لا يعادل شيئاً مأمّن نور الله عزّ وجل ومع ذلك ضرب
المثل به لتقريب المعنى وتوضيحه للمخاطبين .

وهنا يأتي المثل الكريم أيضاً ليقرب المعنى بتشبيهه كلمة لا إله إلا الله - (أو الكلمة
الطّيبة بكلّ ماتحطه من معانٍ طيّبة) - تشبيهها بالشجرة الطّيبة من وجوه عديدة
- يأتي ذكرها في موضعها - (٢) وذلك للترغيب في عمل الخير وعلى رأسه الإيمان
بالله عزّ وجل لأنّ الإيمان الصحيح هو أساس كلّ عمل طيّب بعد ذلك ولأنّ الإيمان
بالله لا تقتصر ثمرته على صاحبه فحسب بل على كلّ من حوله فإذا وُجِد
الإيمان الحقّ وُجِد الخير كلّ الخير وكان الأمن والاستقرار والطمأنينة والراحة
وفي كل وقت .

(١) سورة النور ، ٣٥ .

(٢) فضلاً انظر ص ١٨٩ من هذا البحث .

أما إذا أخذنا بالرأي الآخر وهو القائل إن المقصود بالكلمة الطيبة هي عموم اللفظ وهي كلمة الخير دائماً فلن نبتعد كثيراً عما ذكرناه من ثمرة الإيمان . . . فالخير لا يأتي إلا بالخير . . . حتى وإن بسنا لبعض الناس خلاف ذلك فليس من الضروري أن يجني الإنسان نتيجة عمله في دنياه فقد يكون ذلك في آخرته فيلقى الثمرة مضاعفة والثواب عظيماً بل هذا فضلاً عما يجده المرء في دنياه من اطمئنان النفس وراحة الضمير إلى كلمة الخير أو الكلمة الطيبة التي يقولها في وقتها المطلوب . هذا بعض ما يمكن أن نحس به من عبرة من خلال تأملنا للمثل الكريم واللّه أعلم بمراده

.. .. .

د- دراسته وتحليله بيانياً :-

لنعد هنا إلى نص المثل الكريم :-

• أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْمَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .
(٢)

لقد ذكرنا من قبل (١) معنى ضرب المثل وأن المقصود منه هو السيِّرة والانتشار

أو التثبيت والرسوخ في الأذهان (٣) وأن المثل هو الشبه .

والمثل كما نلاحظ أنه اشتمل على تشبيه مفرد بمفرد ، شبه فيه المعقول بالمحسوس

للتثبيت المعنى وترسيخه في الأذهان .

أما طرفا التشبيه فهما :-

الكلمة الطيبة : شبهة وهي شيء معنوي .

الشجرة الطيبة (٤) شبهة به وهي شيء محسوس .

أما وجه الشبه : فهو متعدّد ، (الأصل . والفرع . والشعر) .

فأصل الشجرة ثابت راسخ في الأرض باقٍ آمن الانقطاع والانقلاع والزوال والفناء . (٥)

وكذلك المؤمن أصل الإيمان ثابت في قلبه راسخ لا تزحزحه شبهات الكفر

ومغريات الإلحاد (٦) .

وفرع تلك الشجرة عالٍ مرتفع الأغصان لجودة التربة وملاءمة البيئة فيكون ثمرها

نقياً بعيداً عن الشوائب (٧) .

(١) فضلاً راجع ص من هذا البحث .

(٢) اللسان : مادة ضرب .

(٣) التبيان في تفسير القرآن ٣٠٢/٧ (بتصرف) .

(٤) أن تكون طيبة المنظر والصورة والشكل ، وطيبة الرائحة ، وطيبة الثمر ، وطيبة

بحسب منفعتها فكما يستلذ بأكلها فكذلك يعظم الانتفاع بها ولا تكون الشجرة طيبة

إلا إذا توقرت فيها كل هذه الصفات ، فضلاً أنظر التفسير الكبير ١١٦/١٩ (بتصرف) .

(٥) نفسه ١١٧/١٩ (بتصرف) .

(٦) الجامع لأحكام القرآن ٣٥٨٨/٤ (بتصرف) .

(٧) التفسير الكبير ١١٧/١٩ (بتصرف) .

والمؤمن يعمل الطَّيِّبَاتِ والخيرات في الأرض فيصعد هذا العمل الطَّيِّبُ إِلَى
السَّمَاءِ رَافِعاً صاحبه إِلَى أعلى الدَّرَجَاتِ قَالَ تَعَالَى (١) :-
" مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ ،
يَرْفَعُهُ "..... .

والشَّجَرَةُ الطَّيِّبَةُ لا يمتنع عطاؤها في أي وقت فهي دَائِمَةُ الْفَائِدَةِ عَلَى مَدَى الْأَوْقَاتِ
وَإِخْتِلَافِ الْفُصُولِ (٢) وكذلك المؤمن دائم العمل الطَّيِّبِ دائم الكسب منه لا يتوانس
عن فعل الخير ليل نهار (٣) .

تلك هي الصِّفَاتُ الْمُشْتَرَكَةُ بَيْنَ الْكَلِمَةِ وَالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ - وكما نلاحظ هو من
تشبيه المفرد بالمفرد وان كان وجه الشبه متعددا فلا يصح أن نعتبره من التشبيه
التمثيلي لأنه ليس تشبيه صورة بصورة أو هيئة بهيئة فالكلمة الطَّيِّبَةُ مفرد وهي المشبَّه
والشَّجَرَةُ الطَّيِّبَةُ مفرد وهي المشبَّه به .

هذا ما يمكن قوله عن التصوير البياني في المثل الكريم .

أما عن جانب الألفاظ والتراكيب فيه فلا يفوتنا هنا بلاغة التعبير وجماله في قوله

تعالى :-

(كلمة طَيِّبَةٌ) ، إذ جاء السَّيَاقُ بِلَفْظَةِ (كَلِمَةٌ) والكلمة كما هو معلوم عند

النُّحَاةِ قَدْ تَعَطَّى مَعْنَى مُسْتَعْمِلاً (٤) مُفْرَداً كَقَوْلِنَا - مُحَمَّدٌ - مَثَلاً .

وقد تعطى معنى كلام أي جمع كقولهم في لا إله إلا الله كلمة الإخلاص (٥) .

(١) سورة فاطر ، ١٠ .

(٢) التفسير الكبير ١١٧/١٩ (بتصرف) .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٣٥٨٩/٤ (بتصرف) .

(٤) المراد بالمعنى المستعمل أي : المتداول في اللِّفَةِ وليس بين المخاطبين وليس

كلفظ (ريز) مثلاً الذي لا يدلُّ عَلَى معنى في اللِّفَةِ الْعَرَبِيَّةِ .

(٥) شرح ابن عقيل ١٦/١ (بتصرف) .

وبهذا نلاحظ مدى البلاغة في مجيء هذه اللفظة (كِمَّةً) في السَّيَاقِ إذْ أُنْتَسَا
نلاحظ هنا مراعاة القرآن الكريم لأفهام المخاطبين على مختلف مستوياتهم فهذه الصَّيْفَةُ
يمكن أن تعطي لفظاً (كِمَّةً) للخاصة مفهومهم وهو الكلام وبهذه الصَّيْفَةُ نفسها يمكن
أن تعطي للعمامة - وما أكثرهم - مفهومهم وهو المفرد . . . وبذلك يسهل عليهم ما أمروا
به ، وليعلموا أنَّ قليلاً طَيِّباً خير من كثير خبيث ، كلمة واحدة لا غير وقد ترفع ناطقها
إلى أعلى درجات الجنات وكلمة واحدة أيضاً قد تهبط به في مهاوي الشرك والضلال
ولا يفوتنا هنا أن نتذكّر فائدة الكلمة الطيبة كقاعدة الحسنة التي تتضاعف للمؤمن إلى عشر
أمثالها إلى سبعمائه ضعف قال تعالى (١) :-

” مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً “ .

وقوله (٢) :-

” مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ
سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ “ .

نعم هذه هي عادة القرآن الكريم دائماً في الترغيب يطالب بالقليل ثم يبيِّن فضله
ومثوته المضاعفة ، ليكون ذلك دافعاً لما هو أكثر وأكثر وإِنَّ من فضله سبحانه وتعالى
على المؤمنين ألا تحسب سيئة المؤمن إلا سيئة واحدة فقط قال تعالى (٣) :-

” مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ “ .

وحتى من هم بالسَّيِّئَةِ ولم يعطها لم يكتب له سيئة . قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :-

(من هم بحسنة فلم يعطها كتبت له حسنة فإن عطاها كتبت له عشراً ومن هم بسيئة

فلم يعطها لم يكتب له شيء ، فان عطاها كتبت عليه سيئة واحدة) (٤) .

(١) سورة البقرة ، ٢٤٥ .

(٢) نفسها ، ٢٦١ .

(٣) الأنعام ، ١٦٠ .

(٤) تفسير ابن كثير ١٩٧/٢ كذلك صحيح البخاري ، كتاب الرقاق (٣١) .

ان وصف هذه الكلمة بصفة (طَيِّبَةٌ) بالذات ودون سواها (لعلّه يذكرنا بصفة الطَّيِّبِ أو العِطْر وانتشاره ونفاذه فيما حوله . . . هذا فضلا عما يُضْفِيهِ العِطْر أو الطَّيِّبِ على المتطَيَّبِ من إحساس زائد بالنِّقَاءِ والطَّهارة ولا أدلّ على ذلك من استحباب التَّطَيُّبِ للرَّجُل إذا أراد دخول المسجد مثلاً وتحريم ذلك مُطلقاً على المرأة عند خروجها من منزلها

نقول إن الكلمة هنا لم توصف بأنها حسنة - مثلاً - وإن كانت هذه الصِّفَةُ صحيحة جميلة إلاّ أنها لا تُوحى بمعنى الطَّيِّبِ أو العِطْر وما يتبعه من انتشار الرَّائِحَةِ ونفاذها فضلاً عما يُضْفِيهِ من إحساس بالسَّعادة والنِّقَاءِ ، وكان السِّياق هنا يريد أن يصف هذه الكلمة بأحسن الصِّفَات وأنقاها وأطهرها فوصفها بصفة (طَيِّبَةٌ) .
وناسب هنا أن يأتي بصيغة المفرد في المشبه به فقال تعالى :-

(كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ) - وما قيل في صفة طَيِّبَةٍ للكلمة يمكن أن يقاس عليه صفة (طَيِّبَةٌ) بالنسبة إلى الشَّجَرَةِ .

ثمَّ يجي " قوله تعالى : " أَصْلُهَا ثَابِتٌ " فعبّر بكلمة " أصل " والمقصود به جذور الشجرة الثابتة في الأرض (١) .

نقول جاء لفظ " أصلها " ولم يجي " ، مثلاً لفظ عرقها ثابت أو جذرها ثابت مع صحّة التعبير بهذين - اللفظين - وذلك لأنّ الأصل يُمكن أن ينطبق على الكلمة وعلى الشَّجَرَةِ على حدّ سواء هذا فضلاً عما يمكن أن يفهم من عمق الأصل وضره في تخوم الأرض وذلك من متعلقات الثِّبَات .

وفي تقديم لفظ (أَصْلُهَا) على " ثَابِتٌ " دليل أكيد على أن الثِّبَاتِ هو للأصل بالذات دون غيره (٢) وقوله " وفرعها في السَّمَاءِ " فهو من غير شك كناية (٣) عن

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣٥٨٨/٤ (بتصرّف) .

(٢) روح المعاني ٢١٣/١٣ (بتصرّف) .

(٣) الكناية لغة : أن تتكلم بشيء وتريد غيره أي : إذا تركت التصريح به ، وتطلق في الاصطلاح على معنيين :-

أ - المعنى المصدرى الذي هو فعل التكلم أي ذكر اللفظ الذي يراد به لازم معناه مع جواز إرادته معه .

ب - اللفظ المستعمل فيما وضع له لكن لا ليكون مقصوداً بالذات بل لينتقل منه إلى لازم المقصود لما بينها من العلاقة واللتزوم العرفي ، انظر تفصيل ذلك في

علوم البلاغة . للمراغي ٣١١ - ٣١٢ .

العلو والارتفاع الشاهق بالنسبة الى الشجرة أما بالنسبة الى الكلمة الطيبة فهي حقيقة واقعة لأن الكرم الطيب يصعد الى الله عز وجل والعمل الصالح يرفعه إليه سبحانه وتعالى .

كذلك جملة (تَوْتِي أَكْهَأُ كُلَّ حِينٍ) بليغة جميلة ، فالشجرة الطيبة لا تنتظر من يأخذ منها بل هي التي توتي أكلها ، وكأنني هنا أمام قوله تعالى عن الجنة وثمرها

* فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قَطُوفُهَا دَانِيَةٌ * .

ونلاحظ هنا مجيء اللفظ " أَكْهَأُ " على التحديد فالذي توتيه هذه الشجرة كله يؤكل وليس مجرد ثمر رائق جميل المنظر أورياً عبر عنه بلفظ (الأكل) لأن الغالب على فوائد الثمر هو الأكل .

وكانعلم أن الأصل الجيد لا يأتي إلا بمثله فالبلد الطيب لا يخرج إلا نباتاً طيباً والذي خُبث لا يخرج إلا نكدا قال تعالى (٢) :-

* وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَالَّذِي خُبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكْدًا . . . *
ثم نرى السياق يبيّن ويؤكد منفعة تلك الشجرة ليأخذنا هذا التأكيد إلى البرهنة على منفعة الكلمة الطيبة أيضاً فيقول عز وجل :-

* كُلِّ حِينٍ * .

فهذه الفائدة الحاصلة وذلك الثمر الطيب إنما هو دائم غدوةً وعشيةً أو ليلاً ونهاراً ، صيفاً وشتاءً لا ينقطع أبداً (٣) .

وكذلك عمل المؤمن دائم دائم لا ينقطع مادام حياً قال تعالى (٤) :-

* وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكْهَأَ ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * .

(١) سورة الحاقه ، ٢٣ ، ٢٣ .

(٢) سورة الأعراف ، ٥٨ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٤ / ٣٥٨٩ .

(٤) سورة البقره ، ٢٦٥ .

ن

ويذكر السّياق بعد ذلك العطاء من الشّجرة لا يكون إلاّ بان منه سبحانه وتعالى الذي إذا أراد شيئاً فإنّما يقول له كن فيكون .
وجملة * وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * تذييل على ما قبلها ، ليزيد المعنى السابق له تقويةً وتوكيداً .

وفي اختتام الفاصلة بقوله (يَتَذَكَّرُونَ) دقّة وبلاغة مناسبة لما جاء قبلها فالغرض من ضرب المثل هنا تذكير للسّامع بفضل الكلمة الطيّبة - وكان الإنسان قد ينسى أحياناً هذا الفضل فلا يعمل في ضوئه ، لذا كان من الدقّة هنا أن تختتم الفاصلة بجملة * يَتَذَكَّرُونَ * أي : يتذكرون هذا المثل العظيم ، فيعملون الطّيبات ليفوزوا بهنّ .
الدرجات . . . ولعلنا هنا نشعر بهذه الدقّة أكثر لو حاولنا النظر والتأمّل في آية أخرى اختتمت الفاصلة فيها بجملة (يَتَفَكَّرُونَ) قال تعالى (١) :-

* لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * .

فالموقف هنا يحتاج إلى تفكّر وتدبّر في خلق الله وخشية هذا الخلق منه سبحانه وتعالى - أمّا هناك وخلال الحديث عن الكلمة الطيّبة والشّجرة الطيّبة وضرب المثل فيها فإنّه يحتاج إلى تذكّر لأنّه أمر قد يطرأ عليه نسيان في لحظة من اللحظات هذا ونلاحظ أنّ قوله (كَلِمَةً طَيِّبَةً) منصوب على البدلية من قوله (مَثَلًا) وهو بدل اشتغال .

أمّا جملة (كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ) فهي صفة أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي كشجرة طيبة (٢) .

إلاّ أنّنا لا نعيل إلى هذا التقدير مادّنا نستطيع الاستغناء عنه بالظاهر وأجاز بعضهم أن يكون ضرب متعدّية لمفعولين لأنّها بمعنى جعل واتخذ أو لتضمينه معناه .
ومفعولها الأوّل هو (كَلِمَةً) والثاني (مَثَلًا) وسبب تقديم المفعول الثاني على الأوّل هو لئلا يبعد عن صفته وهي (كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ) (٣) والله أعلم ،،،

(١) سورة الحشر ، ٢١ .
(٢) روح المعاني ٢١٢/١٣ (بتصرّف) .
(٣) نفسه ٢١٣/٣ (بتصرّف) .

تذليل :-

يبدولنا من خلال الدّراسة الماضيّة أن الأمثال المصرّحة في القرآن هي الّتي صرّح فيها بلفظ المثل مع وجود التشبيه فيها واضحاً كقوله تعالى (١) :-
* مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا * الآية .

وقوله تعالى :- (٢)

* مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ * الآية .
وعلى أن بعض هذه الأمثال لم يصرّح فيها بلفظ المثل بينما بدا فيها التشبيه

جلياً كقوله تعالى :- (٣)

* الَّذِينَ يَأْكُونُونَ الرِّبَا لَا يَكُونُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ * الآية .

ومثل قوله تعالى :- (٤)

* وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا * الآية .

وقد اخترنا أثناء الدّراسة الماضيّة خمسة عشر مثلاً للتّحليل والدّراسة البيانيّة إنّا تناولنا اثني عشر مثلاً في التشبيه التمثيليّ بالدّراسة والتّحليل البيانيّ وذلك لأنّ معظم أمثال القرآن الكريم هي من هذا النوع .

وتناولنا مثلين من التشبيه المفرد وهو قوله تعالى (٥) :-

* إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَأْوُ قَهَا *

وقوله تعالى :- (٦)

* أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ الرَّاحِ

-
- (١) سورة البقره ، ١٧ .
 - (٢) سورة البقره ، ٢٦٥ .
 - (٣) سورة البقره ، ٢٧٥ .
 - (٤) سورة آل عمران ، ١٠٣ .
 - (٥) سورة البقره ، ٢٦ .
 - (٦) سورة ابراهيم ، ٢٤ - ٢٥ .

أما المثل الخامس عشر فقد مثل نوعاً ثالثاً من أنواع الأمثال المصرحة وهو التشبيه

المتعدد . قال تعالى :- (١)

" مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ " .

وقد أشرنا أثناء دراسة هذا المثل إلى أنه من التشبيه الملقوف في القرآن الكريم (٢) .
هذا وقد ركزت الدراسة في هذا الباب على النقاط التالية بشأن كل مثل مختار :-

١ - المعنى العام للمثل .

٢ - مناسبته في السياق (سواء كان ذلك سياق السُّورة أو سياق الآية الوارد فيها) .

٣ - العبرة منه .

٤ - دراسته بيانياً .

وسننتقل بإذن الله تعالى إلى دراسة نوع ثاني من أنواع الأمثال

القرآنية على نفس المنهج السابق مع بيان ما يوافقها من أقوال البشر ودراسة
أحد هذه الأمثال البشرية دراسة بيانية .

والله سبحانه وتعالى نسأل التوفيق والسداد ،،،،،

(١) سورة هود ، ٢٤ .

(٢) فضلاً راجع ص ١٧٩ من هذا البحث .

الباب الثاني
الأمثال الكامنة في القرآن

الأمثال الكامنة

لدراسة هذا النوع من الأمثال ، علينا أن نذكر هنا مرةً أخرى تعريفها حتى نكون على بينة منها :-

قد أشرنا من قبل إلى أن الأمثال الكامنة :-

(هي التي لم يُصَحَّ فيها بلفظ التمثيل ، ولكنها تدلُّ على معانٍ رائعة فسي إيجاز ، يكون لها وقعها إذا نُقِلت إلى ما يشبهها) (١) .

وستتناول هنا بالتحليل ما أورده السيوطي في كتابه الإِتقان في علوم القرآن

ان نقل عن الماوردي أنه قال :-

(سمعتُ أبا إسحاق إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم يقول سمعت أبي يقول سألت

الحسن بن الفضل فقلت : إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن في كتاب

الله خير الأمور أوساطها ؟ قال : نعم في أربعة مواضع في قوله تعالى :-

« لا تفرحوا بقرعوان بين ذلك » ، وقوله تعالى :-

« والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » وقوله تعالى :-

« ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط » وقوله تعالى :-

« ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا » (٢)

وهكذا استمرَّ في هذا النصِّ بتخريج بعض أمثال العرب والعجم من القرآن الكريم

كما سنعرض له فيما يأتي من صفحات البحث إن شاء الله ،،،،،

(١) مباحث في علوم القرآن ، مناع قطان ٢٨٥ .

(٢) الإِتقان في علوم القرآن ١٣٢ / ٢ .

١ - قال تعالى :-

« لَا فَارِضَ وَلَا بَكْرَ عَوَانَ بَيْنَ ذَرِكِ » (١)

أ - المعنى العام :-

أخبرنا سبحانه وتعالى في القرآن الكريم عن تعنت بني اسرائيل وكثرة سُؤ الهيم لرسولهم ولهذا لماضيَّقوا على أنفسهم وتشدَّدوا شدَّد الله عليهم ، وذلك لأنَّ الله - سبحانه وتعالى - أمرهم بذبح بقرة بلا قيد أو شرط ، ولكنَّهم طالَبوا بصفتها ولو ذبحوا أدنى بقرة لكفتهم .

(قال ابن جريح قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (إِنَّمَا أُمِرُوا بِأَدْنَى بَقْرَةٍ وَلَكِنَّهُمْ لَمَاشِدَّدُوا شَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَأَيُّمُ اللهُ لَوْ أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَشْنُوا لَمَابَيَّنَّتْ لَهُمْ آخِرُ الْأَبْدِ) (٢) .

لذا ذكر القرآن الكريم صفات هذه البقرة وهي :-

أن تكون (لا كبيرة هريمه ولا صغيرة لم يلحقها الفحل) (٣) بل متوسطة السن بين الكبر والصغر وهي أقوى ما يكون من الدوابِّ والبقر وأحسن ما يكون ، وقيل إن المقصود بالبعوان النصف التي ولدت وولد ولدها (٤) .

ب - مناسيته في السِّياق :-

تبدو مناسبة هذا المثل في السِّياق من القصة المروية عن بني اسرائيل وتعنتهم ، تلك القصة التي تبيَّننا لنا الآيات السابغات لهذا المثل إذ أمرهم الله - سبحانه وتعالى - بذبح بقرة ما ، ثمَّ أمرهم بضربوا بجزء منها قتلهم لينطق ويعرفوا منه القائل فلم يفعلوا ذلك ، وإنما أكثروا من أسئلتهم واستفساراتهم ، فجاءت الآية الكريمة مبينة بعض وصفها جواباً على سُؤ الهيم فذكرت أنَّها وسط بين الكبر والصغر .

(١) سورة البقره ، ٦٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ١ / ١١١ أي : لو أنهم لم يقولوا : " وإنا ان شاء الله لمهتدون " .

(٣) تفسير ابن كثير ١ / ١١١ .

(٤) نفسه ١ / ١١١ (بنصرف)

أما مناسبة هذه الآية لما بعدها (١) من آيات في السِّيَاق ، فنلاحظ استمرار الآيات بعد ذلك في تبين الصفات المطلوبة في هذه البقرة التي يُراد ذبحها وذلك ردّاً على أسئلتهم واستفساراتهم عنها ، حتى انتهوا إلى بقرة معينة فذبحوها بعد جهدٍ جهيد ، ثمّ ما أعقب ذلك من ضرب القتل ببعض البقرة فأحياه الله تعالى وسمّى قاتله ثمّ توفّاه الله تعالى دليلاً على قدرته جلّ وعلا على الإحياء والإماتة والبعث والنشور .

ح. العبرة منه :-

لا شك أنّ القارئ للقصة التي ورد خلالها المثل الكامن في الآية السابقة يدرك مدى العبرة منه فالقصة بيّنت - كما أسلفنا - مدى تعنت بني إسرائيل في أسئلتهم عن البقرة المأمورين بذبحها عند احتكامهم إلى نبيّهم في شأن القتل الذي خفي عليهم قاتله فأمرُوا بذبح بقرة أيّ بقرة كانت (٢) ، إلا أنّهم تشدّدوا في أسئلتهم واستفساراتهم فبيّن لهم السِّيَاق الجليل أن أفضل بقرة يمكن أن تُختار أن تكون متوسطة السنّ وذلك تسهيلاً عليهم ، ولكنهم أبوا إلا التشدّد والمشاكسة فتورطوا في تشدّد هم ، ومع أنّ المثل مرتبط بقصة بعينها ، فإنّ من وراء ذلك عبرة هي إنّ على كلّ من تبدّله عدّة أمور فيتحير في اختيار أحدها أو بعضها ، عليه أن يختار أوسطها فيكون بذلك قد صاحب الصواب اختياره بلا إفراط ولا تفريط .

وهكذا قد رسم لنا القرآن الكريم في هذا المثل الجليل منهجاً قويمًا يمكن أن يلتزم به كل عاقل في شتى مناحي حياته المختلفة .

والذي لا شك فيه أنّ القرآن الكريم ليس مجرد آيات تُتلى في الصلوات أو العبادات فحسب ، بل هو منهج كامل يجب أن يلتزم به كل مسلم ذي عقيدة وسلوك ، لأنّ منه صالح لكلّ زمان ومكان ولا أدلّ على أهميّة هذا المعنى الذي تضمّنه المثل الكريم من أنّه

(١) سورة البقره ٦٩ - ٧١ .

(٢) سورة البقره ، ٦٧ .

قد ورد في آيات أخرى في القرآن الكريم إذ قال تعالى :-

• وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَعُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا • (١)

وقوله تعالى :-

• وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ • (٢)

وقوله تعالى :-

• وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا • (٣)

— — —

-
- (١) سورة الفرقان ، ٦٧ .
(٢) سورة الإسراء ، ٣٩ .
(٣) سورة الاسراء ، ١١٠ .

د - دراسته وتحليله بيانياً :-

لدراسة هذا المثل بيانياً علينا أولاً أن ندرس المعنى اللغوي

لهذه الألفاظ ، ثم كيف جاءت بليغة جميلة في موضعها من السياق .

أما من الجانب اللغوي فقد جاء في القاموس المحيط - فَرَضْتُ البقرة : أَبِي طَعَنْتُ

في السِّنِّ والفَارِضِ الضَّخْمِ مِنَ الرَّجَالِ وَكُلِّ شَيْءٍ (١) .

وقال الرَّاعِبُ :-

(والفَارِضُ المُنَّسُّ مِنَ البقرِ) (٢) ، (وَقِيلَ إِنَّمَا سُبِّيَ فَرَضاً لِكُونِهِ فَارِضاً لِلأَرْضِ أَيْ

قَاطِعاً أَوْ فَارِضاً لِمَا يَحْمِلُ مِنَ الأَعْمَالِ الشَّاقَةِ ، وَقِيلَ بِلِ لَأَنَّ فَرِيضَةَ البقرِ اثْنَانِ تَبِيْعُ

وَمُسِنَّةٌ ، فَالتَّبِيْعُ يَجُوزُ فِي حَالِ دُونَ حَالِ وَالمُسِنَّةُ يَصِحُّ بِذَلِكَ فِي كُلِّ حَالٍ فَسُمِّيَتْ

المُسِنَّةُ فَرِيضَةً لِذَلِكَ) (٣) .

(وَقِيلَ الفَارِضُ الَّتِي وَلَدَتْ بَطُوناً كَثِيراً فَيَتَسَّعُ جَوْفُهَا لِذَلِكَ) (٤) ، والبِكرُ فِي

اللِّغَةِ (العذراءُ وَجمعُها أَبكارٌ والمصدرُ البِكارُ بالفتح والمرأةُ والنَّاقَةُ إِذَا وَلَدَتْ

بَطْناً واحداً ، وَأَوَّلُ كُلِّ شَيْءٍ وَكُلُّ فَعْلَةٍ لَمْ يَتَقَدَّمْهَا مِثْلُهَا وَبِقِرَةٍ لَمْ تَحْمِلْ أَوْ الفَتِيَّةُ) (٥)

وَجاءَ فِي المَفْرَداتِ فِي غريبِ القرآنِ أَنَّ البِكرَ هِيَ الَّتِي لَمْ تَلِدْ (٦) .

أما العَوانُ : هُوَ المَتَوَسِّطُ بَيْنَ السَّنِينِ وَجَعَلَ كِنايةً عَنِ المُسِنَّةِ مِنَ النِّساءِ بِنحوِ

قول الشاعر :-

فَإِنْ أَتَوْكَ فَقَالُوا إِنَّها نَصَفٌ

فَإِنْ أَشْكَلَ نَصْفِها الَّذِي ذَهَباً (٧)

(١) القاموس المحيط . " فَرَضَ " (بتصرف) .

(٢) المفردات في غريب القرآن " فَرَضَ " .

(٣) نفسه " فَرَضَ " .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٣٨٢/١ .

(٥) القاموس المحيط " بَكَرَ " .

(٦) المفردات في غريب القرآن " بَكَرَ " (بتصرف) .

(٧) نفسه " عَوْنٌ " .

وقوله :-

(لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ) : صفة للبقرة وقد كررت هنا لأنها منفية كما نلاحظ (١).
أما إذا اعتبر ذلك من باب الوصف بالجمل ، فيكون التقدير لا هي فَارِضٌ ولا هي بَكْرٌ
فيكون هنا إيجاز حذف في المفرد إذ حذف السُّنْدُ إليه وهو المبتدأ من الطرفَيْنِ
ولكن الأصل الأحذف وعندها نتبع الأصل أيضاً في الوصف وهو الوصف بالمفرد (٢).
أما قوله (بَيْنَ ذَلِكَ) الإشارة هنا إلى الفَارِضِ والبَكْرِ ، وقد جاز الإشارة بقوله
(ذَلِكَ) إليهما وهما صفتان لمؤنث على تأويل محذوف هنا وهو قوله (المذكور) أي
بين ذلك المذكور (٣).

لذا جاز إضافة (بين) إليه لا اعتبار الوصفين السابقين ، لأنه لا يضاف إلا إلى متعدّد
وقيل أفرد (ذلك) لأنها تصح للمفرد والمثنى والمجموع بصيغة واحدة وكذا كاف
الخطاب قد تكون مفردة لكل من المفرد والمثنى والجمع من المذكور والمؤنث (٤).
ويقال يجوز أنه قيل (ذلك) ويقصد به نينك فأطلق المفرد وأريد به المثنى (٥).
والذي يذهب إليه أبو حيان هو (أن يكون ذلك محذوف منه المعطوف لدلالة
المعنى عليه والتقدير عوان بين ذلك وهذا - أي بين الفارض والبكر - فيكون نظير
قول الشاعر :-

فما كان بين الخير لوجاء سالماً

أبو حنبلٍ بما لاليل قلائل .

أي فما كان بين الخير وباغيه فحذف لفهم المعنى (٦). ثم يقول

-
- (١) البحر المحيط ٢٥١/١ (بتصرف).
 - (٢) نفسه ٢٥١/٢ (بتصرف).
 - (٣) فتح القدير ١/٩٧٠ (بتصرف).
 - (٤) التمهيد من البحر بهامش البحر المحيط ٢٥٢/١ - ٢٥٣ (بتصرف).
 - (٥) البحر المحيط ٢٥١/١ (بتصرف).
 - (٦) نفسه ٢٥٢/١ أيضاً روح المعاني ١/٢٨٧.

(و إِنَّمَا جُعِلَتْ عَوَانًا لِأَنَّهُ أَكْمَلُ أَحْوَالِهَا فَالصَّغِيرَةُ نَاقِصَةٌ لِتَجَاوُزِهَا حَالَتَهُ) (١)
ونلاحظ هنا كيف فُسرَ المعنى الأول بقوله (عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ) ، وعدم

الاكتفاء بقوله تعالى : -

(لَا فَاْرِضْ وَلَا يَكْرَهُ) .

وَذَاكَ نَظْرًا لَتَعْنَتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَعِلْمَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - سَبِقًا بِهَذَا التَّعْنَتِ
منهم ، كان من البلاغة مجيئ السِّيَاقِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِالتَّوْضِيحِ وَالتَّفْسِيرِ وَذَلِكَ
لِيَأْتِيَ الْكَلَامُ مُطَابِقًا لِمَقْتَضَى الْحَالِ وَالبلاغة كما نعلم هي مطابقة الكلام لمقتضى
الحال مع فصاحته ، وقد توفّر كل ذلك في السِّيَاقِ الْكَرِيمِ وَقَوْلِهِ (عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ)
تذييلٌ على قوله " لَا فَاْرِضْ وَلَا يَكْرَهُ " وَاللَّهُ أَعْلَمُ



٢ - قال تعالى :-

” وَالَّذِينَ إِذَا أَنْعَمُوا عَلَيْهِمْ يُسْرِفُوا وَاكْفُرُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ” (١)
.. صدق الله العظيم ..

أ- المعنى العام :-

تأتي هذه الآية الكريمة ضمن الآيات التي تصف عباد الرحمن ، أولئك الذين شرفوا بالانتساب إليه - عز وجل - وذلك لمامتازوا به من صفات فاضلة نادرة ، لا يمكن أن نجد لها في غيرهم من الناس ، ومن بين هذه الصفات الكريمة النادرة صفة الاعتدال في النفقات أو التوسط بين الشح والإسراف .
لأن الشح يعني البخل مع الحرص (٢) .

جاء في مقاييس اللغة (ويقال نشاح الرجلان على الأمر ، إذا أراد كل واحد منهما الفوز به ، ومنعه من صاحبه ، قال الله جل ثناؤه :-
” وَمَنْ يُوقِ شِحْنَهُ نَفْسَهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ” (٣) والزند الشحاح ، الذي لا يسوري) (٤) .

وقيل : إن الشح هو (الحرص على منع الخير ، والبخل منع الحق فلا يقال لمن يوءدّي حقوق الله تعالى بخيل) (٥) .
أما الإسراف فهو (تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان وإن كان في الإنفاق أشهر) (٦)

وقيل (هو الإنفاق في المعاصي والقتل الإساءة عن طاعة) (٧) .

-
- (١) سورة الفرقان ، ٦٧ .
 - (٢) المفردات في غريب القرآن ” شح ” . (بتصرف)
 - (٣) سورة الحشر ، ٩ .
 - (٤) مقاييس اللغة ، ” شح ” .
 - (٥) الفروق اللغوية ص ١٤٤ .
 - (٦) المفردات في غريب القرآن ” سرف ” .
 - (٧) روح المعاني ٩ / ١ / ٤٦ .

وقد ورد عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ :-

(رَانَ مِنَ السَّرَفِ أَنْ تَأْكُلَ كُلَّ مَا اشْتَهَيْتَ) (١) كما قال تعالى ممتدحاً صفة التَّوَسُّطِ فِي أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :-

• وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ • (٢) .

لذا كان التَّوَسُّطُ فِي الْأُمُورِ مُحَمَّدَةً - يجب الالتزام بِهَا فِي كُلِّ مَا يَقُومُ بِهِ الْإِنْسَانُ الْأَمَاكَانَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ وَحُبِّ رَسُولِهِ الْكَرِيمِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فالاستزادة منها أفضل بل مطلوبة دائماً ، ولا أدلّ على ذلك من الآية التي تحدّثت عن عباد الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سَجْدًا وَقِيَامًا وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ كَلِمَةً يَقُولُونَ :-

• رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا • (٣) .

وكذلك في الذِّكْرِ ، فإن الشَّارِعَ الْحَكِيمَ لَمْ يَضَعْ نَهَايَةَ لَهُ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُومَ بِهِ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ .

ب - مناسبته في السِّيَاق :-

تبدو هذه المناسبة بتأملنا للآيات السَّابِقَاتِ لِلْمَثَلِ ثُمَّ اللَّاحِقَاتِ

به في السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ .

أما عند تأمل الآيات السَّابِقَاتِ لَهُ فَنَلْحَظُ أَنَّهَا تَحَدَّثَتْ عَنْ عِدَّةٍ قَضَايَا ، تَأْتِي بَعْدَهَا آيَةُ الْمَثَلِ الْكَرِيمَةِ ضِمْنَ الْآيَاتِ الَّتِي تَمَثَّلُ ثَمَرَةُ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالِدَّعْوَةَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَالصَّرَاعِ الدَائِمِ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ ، بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، التَّوْحِيدِ وَالْإِشْرَاقِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى غَيْرِهِ (٤) .

(١) سنن ابن ماجه (الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ١١١٢/٢ تح محمد

فؤاد عبد الباقي ، دار احياء الكتب العربيه ، عيسى البابي الحلبي .

(٢) سورة البقره ، ١٤٣ .

(٣) سورة الفرقان ، ٦٥ .

(٤) تأملات في سورة الفرقان . د . حسن باجوده ص ١٤ دار النور عام ١٩٧٦ م (بتصرف) .

فحدثت السُّورَةَ مِنْ أَوْلَاهَا عَنِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَنَزَلَهُ عَلَى نَبِيِّ الْهُدَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، عبد الله ورسوله ، وتكذيب المشركين له وتعجبهم أن ينزل على رجل منهم يأكل الطَّعامَ ويمشي في الأسواق ، ثمَّ تعجبهم من نزول هذا القرآن منجماً ، ثمَّ نصَّت الآيات بعد ذلك على تسليمة رسوله الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إذ ذكرت ما أصاب الرُّسُلَ مِنْ قَبْلِهِ وَنَتِيجَةَ تَكْذِيبِ أَقْوَامِهِمْ لَهُمْ (١) .

وَبَيَّنَّتِ الْآيَاتُ بَعْدَ ذَلِكَ مَدَى اسْتِهْزَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِالرُّسُولِ الْكَرِيمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَشْبِيهِهِمْ بِالْأَنْعَامِ بَلْ أَضَلُّ مِنْ ذَلِكَ "لَأَنْتُمْ لَا يَحَاطُونَ" مَجْرَدَ سَمَاعِ مَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ مِنْ آيَاتٍ ، ثُمَّ بَيَانِ آيَاتِ اللَّهِ فِي مَلَكُوتِهِ الْوَاسِعِ الْكَبِيرِ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِتَذْكَيرِ الرُّسُولِ الْكَرِيمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِقُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، وَمَادَامَ هَذَا شَأْنُهُ - سُبْحَانَهُ - فَهُوَ قَادِرٌ لَا مَحَالَةَ - عَلَى إِبَادَةِ الْمَكْذِبِينَ وَسَحْقِهِمْ ، وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ أَمْرٌ - سُبْحَانَهُ - رَسُولُهُ الْكَرِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِجِهَادِهِمْ وَالصَّبْرِ عَلَى أَذَاهُمْ - وَمَا ذَاكَ إِلَّا بِإِسْلَاءٍ وَاخْتِبَارٍ لَصَبْرِهِ وَقُوَّةِ احْتِمَالِهِ ، لِأَنَّهُ - سُبْحَانَهُ - عَالِمٌ بِكُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ فِي خَلْقِهِ جَمِيعاً لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، فَهُوَ خَالِقُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَعَلَى كُلِّ عَالَمٍ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ أَنْ يَخْرُسَ سَاجِداً لَهُ - سُبْحَانَهُ - ، وَلَكِنْ يَأْبَى الْمُشْرِكُونَ إِلَّا الْإِعْرَاضَ وَالنَّفُورَ (٢) .

نَقُولُ عِنْدَ تَأَمُّلِ هَذِهِ الْمَعَانِي الَّتِي تَنَاوَلَتْهَا الْآيَاتُ السَّابِقَاتُ لآيَةِ الْمَثَلِ الْكَرِيمَةِ نَعْلَمُ مَدَى الْمُنَاسَبَةِ أَوْ الْارْتِبَاطِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا سَبَقَهُ مِنْ قَضَايَا إِذْ انْتَقَلَتِ الْآيَاتُ مِنَ الْحَدِيثِ عَنِ صِفَاتِ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ إِلَى الْحَدِيثِ عَنِ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَقَّ الْجِهَادِ ، فَاسْتَحَقُّوا هَذَا اللَّقَبَ الْمَشْرُفَ لِمَا تَمَازَوْا بِهِ مِنْ صِفَاتٍ جَلِيلَةٍ نَادِرَةٍ تِلْكَ الصِّفَاتِ الَّتِي مِنْ بَيْنِهَا التَّوَسُّطُ بَيْنَ السَّرْفِ وَالتَّقْتِيرِ وَهِيَ صِفَةٌ مَطْلُوبَةٌ حَقًّا مَنْ شُرِّقُوا بِالْإِسْرَافِ لِلرَّحْمَنِ - عَزَّ وَجَلَّ - لِمَا فِي الْإِسْرَافِ مِنَ الْهَلَاكِ عَلَى الْمَالِ

(١) سورة الفرقان ١ - ٤٠ .

(٢) سورة الفرقان ٤٠ - ٦٢ .

وصاحبه والمجتمع حوله ، ولما في البخل أو الشح^ب من إمساك للمال مع عدم انتفاع صاحبه به أو المجتمع حوله .

أما مناسبة هذا المثل لما بعده من آيات فنلاحظ سير السِّياق بعد ذلك في إتمام صفات عباد الرَّحْمَنِ ثُمَّ الوعيد الشَّدِيد لمن لم يلتزم بتلك الصِّفَات المذكورة عنهم وَيُسْتَثْنَى من ذلك التَّوَابُونَ . . . ثُمَّ تنهي الآيات المتحدِّثه عن هذه الصِّفَات النَّادِره الجميلة ببيان ثمرتها وجائزتها التي ستكون أجمل وأفضل منها (١) .

ح. العبرة منه :-

تبدو العبرة من هذا المثل واضحة جلية فعلى المنفق أن يعتدل في نفقته ، وأن يكون وسطاً بين الإسراف والتقتير ، لأنه قد يفقد بالإسراف نفسه وماله وثقة الناس به أو قد يحرم بتقتيره وإمساكه نفسه أو أقرب الناس له وأحوجهم إلى ذلك المال ، فيظلم بذلك التصرف نفسه ومن حوله ، لذا كان لابد من الالتزام بالاعتدال في المأكل والملبس والمشرب وإن كان ذلك عسيراً - فلا أجمل منه ولا أفضل لأنه خير من يوم لشهوات النفس وورغبات الهوى .

د - دراسته بيانياً :-

عند دراسة هذا المثل بيانياً علينا أولاً إعادة النظر في الآية التي تضمنته

وهي قوله تعالى :-

« وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً » (١)

وقد علمنا من المعنى العام للآية أن هذه الآية وردت ضمن الآيات التي تحدتت عن صفات عباد الرحمن وأن المقصود هنا هو الاعتدال أو التوسط بين الإسراف والتقتير لأن السرف هو تجاوز الحد في كل شيء ، وهو في النغمة أظهر والتقتير في مقابل الإسراف إذ أنه يعني التضييق على مختلف اللغات الواردة فيها (٢) .

أما قوله (قَوَاماً) ، فهي تعني الاعتدال بين الحالتين وإن قرئت بالكسر

(قَوَاماً) (٣) .

وقيل يختلف المعنى باختلاف ماورد فيها من لفات فان قرئت (قَوَاماً) بالفتح

فهو الاعتدال .

وان قرئت (قَوَاماً) بالكسر ، أي : مايقام به الشيء أو مبلغاً وسداد وملاك

حال (٤) .

وقد قيل في موقع (قَوَاماً) من الإعراب قولان :-

١ - إنها خبر لكان (وبين ذلك) معنول لكان في رأي من يقول : إن كان الناقصه تعمل

في الظرف ، وأن يكون حالاً من (قَوَاماً) لأنه لو تأخر لكان صفة .

وقد أجاز الزمخشري أن تكون (قَوَاماً) خبراً من جهة الإعراب ولكنه يرى عدم

قوة المعنى هنا لأن بين السرف والتقتير الاعتدال لا محالة في ذلك ، لذا لا يرى في

الخبر المتوقع حصوله فائدة (٥) .

(١) سورة الفرقان ، ٦٧ .

(٢) قرئت يَقْتُرُوا ، بفتح اليا ، وضم التاء ، وَيُقْتَرُوا بضم اليا ، وكسر التاء مع تشديدها انظر البحر المحيط ٥١٤/٦ كذلك قرئت يَقْتُرُوا . بفتح اليا ، وكسر التاء . وقرئت

يُقْتَرُوا بضم اليا ، وكسر التاء ، فضلاً انظر فتح القدير ٨٦/٤ .

(٣) البحر المحيط ٥١٤/٦ (بتصرف) .

(٤) نفسه ٥١٤/٦ (بتصرف) .

(٥) نفسه ٥١٤/٦ (بتصرف) .

٢ - أو أن يكون موقع (قَوَاماً) حالاً مؤكّدة للخبر وعندها يكون (بين ذلك) هو

الخبر .

وبتأملُ السِّيَاقِ مرّةً أخرى نلاحظُ أن الجُملةَ الأخيرةَ وهي قولُه تعالَى :-

(كَانُ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً) جاءت تذييلاً على ما قبلها وهي من باب الإطناب في

الكلام ، وكما نلاحظُ أنّ هذا التّذييلَ قد أفاد تقويةً وتوكيداً للمعنى المذكور

قبله فضلاً من مناسبة الفاصلة هنا للفاصلة قبلها وبعدها في السِّيَاقِ واللّـه

أعلمُ

٣ - قال تعالى :-

«وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا» (١)

أ- المعنى العام :-

روى عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال - بشأن الآية الكريمة :-

(نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم متوارباً بمكة وكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به ، فقال الله تعالى :-

«وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ» فيسمع المشركون قراءتك ، ولا تخافت بها عن أصحابك

أسمعهم القرآن ولا تجهر ذلك الجهر (وابتغ بين ذلك سبيلاً) قال : يقول بين الجهر والمخافتة (٢) .

والمخافتة هي : خفض الصوت ، وقد جاء في المفردات في غريب القرآن أن . .

(المخافتة والخفت هي اسرار المنطق) (٣) وروى عن عائشة - رضي الله عنها -

أنها قالت :-

أنزل هذا في الدعاء .

وقيل إن الأعراب كانوا يجهرون بالتشهد فنزلت الآية وقيل ان أبا بكر الصديق

كان يسر قراءته وكان عمر يجهر فيها فسئل عن ذلك فأجاب أبو بكر إنما أنا جبري ربي

وهو يعلم حاجتي إليه ، وقال عمر أنا أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان ، فلما نزلت

هذه الآية أمر أبو بكر برفع صوته قليلاً وأمر عمر بخفضه قليلاً (٤)

وقيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم - كان يرفع صوته في قراءته فيسمعه

المشركون ، فيسبونهم والقرآن فنزلت الآية الكريمة .

(١) سورة الاسراء ، ١١٠ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣٩٥٩/٥ .

(٣) المفردات في غريب القرآن . "خفت" .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٣٩٦٠/٥ كذلك البحر المحيط ٩٠/٦ (بتصرف) .

وروي عن ابن عباس أن المقصود بذلك عدم الجهر بصلاة النهار وعدم المخافتة بصلاة الليل (١) .

ونرى أنه مهما تعددت الروايات واختلفت في ذلك فإن المقصود بالصلاة هنا الدعاء أو القراءة في الصلاة ، لأن الخفت أو الجهر إنما هما صفتان للصوت وليس للأفعال المعلومة من قيام وركوع وسجود وغيرها - لذا نزلت الآية الكريمة بالتوسط بين الجهر والخفت في الدعاء أو القراءة في الصلاة ، حتى لا يسمع المشركون في حالة الجهر ، فيسبوا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم - ويسبوا القرآن معه وحتى لا يغيب القرآن عن سمع الصحابة في حالة الخفت فكل من الجهر أو الخفت مكروه ، والمطلوب هو التوسط بينهما وهو خير الأمور دائماً وأفضلها .

ب- مناسبته في السياق :-

لتوضيح مناسبة هذه الآية لما قبلها نورد هنا الرواية القائلة ، إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يرفع صوته بسم الله الرحمن الرحيم - وكان مسيلمة قد سمى الرحمان ، فكان المشركون إذا سمعوا ذلك من النبي - صلى الله عليه وسلم - قالوا قد ذكر مسيلمة إله اليمامة ثم عارضوه ، بالمكأ والتصدية والصفير فأنزل الله تعالى هذه الآية (٢١) .

وقد علق الألوسي على هذه الرواية بقوله :-

(ولا يخفى عن هذه الرواية أسدية مناسبة الآية لما قبلها (٣) .

ونقول هنا تتضح مناسبة هذا الجزء من الآية (وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ ..) الآية

تتضح مناسبته للجزء السابق له مباشرة من نفس الآية وهو قوله تعالى :-

" قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ الآية ، إذا فهمت لفظة الصلاة

بمعناها اللغوي وهو الدعاء إذا اعتبرنا أن المقصود بالصلاة هنا قراءة القرآن في الصلاة .

(١) البحر المحيط ٩٠/٦ (بتصرف) .

(٢) روح المعاني ١٤٤/١٥ (بتصرف) .

(٣) نفسه ٩٤/١٥ (بتصرف) .

أما مناسبتها لما بعدها وهو قوله تعالى (١) -

* وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
وَلِيٌّ مِّنَ الذَّلِّ وَكَبْرَهُ تَكْبِيراً . *

نقول بيد و الارتباط وثيقاً بين آية المثل الكريم وبين الآية المذكورة بعدها
في السورة الكريمة ، وذلك لأن القرآن الكريم لما وضح كيفية الدعاء ووجوب كونه وسطاً
بين الجهر وعدمه ، أردف ذلك بإيضاح كيفية الحمد له سبحانه وتعالى وتنزيهه
عما يظن اليهود والنصارى وغيرهم - سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً (١) وذلك
لأن الدعاء يجب أن يختتم بحمد الله وشكره على الرزق وكرمه بذلك سبحانه في قوله :-

* وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * (٢)

ج- العبرة منه :-

تبدو من الآية الكريمة العبرة التي يجب أن تؤخذ منها وهي ضرورة الاعتدال
بل الالتزام به في كل الأمور وعلى المؤمن أن يتحرّاه دائماً مهما علت مكانته وقدره عند
الله ولا أدل على ذلك من أن الآية الكريمة قد وجهت للرّسول الكريم - صَلَّى اللهُ
عليه وسلّم (٤) - كما وجهت لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما (٥) - ، ان أمر كل منهم
بعدم الجهر في دعائه أو في قراءة القرآن في صلاته وذلك تنزيهاً للقرآن من ألسنة
المشركين كذلك أمروا بعدم إخفاء الصوت أو خفضه إلى الحد الذي لا يتمكن معه
المؤمنون الراغبون في سماع القرآن وتدبره من ذلك .

والمثل كما يبدو يرمي إلى غاية عامة وهدف أسمى ، ألا وهو ضرورة التوسط والالتزام
بمبدأ الاعتدال في كل الأمور وقد مدح الله سبحانه وتعالى أمة الإسلام بقوله عز وجل (٦) :-
* وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا *
فلولا سمو الاعتدال وعلو شأن التوسط ، لما آمن الله سبحانه وتعالى به على
المسلمين .

(١) سورة الاسراء ، ١١١ .

(٢) نفسها ، ١١٤ .

(٣) سورة يونس ، ١٠ .

(٤) على الرواية القائله إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كان يجهر بقوله يا الله
يارحمان .

(٥) على الرواية القائله انها نزلت (الآية) في أبي بكر الذي كان يخفض صوته في
الدعاء أو في عمر بن الخطاب الذي كان يجهر في قراءة القرآن في صلاته .

(٦) سورة البقرة ، ١٤٣ .

د- دراسته و تحليله بيانياً :-

في الآية الكريمة - كما يبدو - مثل كامن ان بينت ضرورة التوسط

في الدعاء بين الجهر وعدمه .

وبقليل من التأمل في قوله تعالى :-

"وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا" .

بيد ولنا الأسلوب الإنشائي صريحاً واضحاً في أسلوب النهي في قوله تعالى

"وَلَا تَجْهَرُ" . . . وقوله "وَلَا تُخَافُ" ولا تخفى هنا البلاغة القرآنية في مجيء جملة

(تَجْهَرُ) بدلاً من جملة (ترفع) مثلاً مع صحتها وإمكان مجيئها أو ما ذاك إلا لأن ^{في أسلوب النهي}

القرآن الكريم على عادته في مجيء الأفاضه موحيةً معبرةً بما تحمله من معانٍ دقيقة

تأخذ موضعها المناسب من السياق ، ولا أدل على ذلك من أننا إذا أعدنا قراءة

جملة (لا تجهر) أو الجملة التي يمكن أن تحل محلها وهي (لا ترفع) مثلاً نجد في

الأولى الشدة والقوة والإيحاء بهما من خلال حروف اللفظة نفسها وبينما لا نجد نفس

الإيحاء في الجملة الأخرى .

أمافي قوله (بِصَلَاتِكَ) ، فهو على تقدير مضاف محذوف يكون في الآية إيجاز

حذف في المفرد والتقدير :-

(بقراءة صَلَاتِكَ) (١) وعلى هذا يكون قوله :-

(بِصَلَاتِكَ) مجازاً مؤسلاً علاقته الكليّة (٢) .

وقيل التقدير : بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها .

والرأي الأول أولى (٣) .

(١) روح المعاني ١٥ / ١٤٤ (بتصرف).

(٢) وهو كون الشيء متضمناً لشيء آخر ولغيره ، كالأصابع المستعمله في الأنامل

في قوله تعالى "يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ" أي : رؤوس أناملهم . فضلاً

انظر في ذلك - علوم البلاغه ص ٢٥٦ (بتصرف).

(٣) فتح القدير ، ٣ / ٣٦٥ .

وفي قوله (سبيلاً) أي طريقاً وسطاً بين الجَهر والمُخافتة وذلك لأنَّ السَّبيل هو الأمر الذي يتوجَّه إليه المتوجِّهون ويؤمُّه المقتدون ليوصلهم إلى غايتهم هذه فضلاً عن مناسبة هذه اللفظة (سبيلاً) للفاصلة قبلها (١) في قوله تعالى: (٢)

(وَيُخْرُونَ لِأَذْقَانٍ يَكُونُ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً) .

ومناسبتها لما بعدها في قوله تعالى :- (٣)

« وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكِبْرَةً تَكْبِيراً » .

وجملة (وَابْتِغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً) تذييل على ما قبلها والله أعلم « ، ، ، ، ، »

..

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٢٠٠ / ٥ (بتصرف) .
 (٢) سورة الإسراء ، ١٠٩ .
 (٣) سورة الإسراء ، ١١١ .

٤ - قال تعالى :-

« وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ، فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا » (١) .

أ- المعنى العام :-

لَمَّا كَانَ التَّوَسُّطُ فِي كُلِّ أَمْرٍ مَطْلُوبًا وَمَحْمُودًا ، فَقَدْ أَمَرْنَا الْقُرْآنَ بِهِ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ (٢) .

ولاشكَّ أَنَّ مَا جَاءَ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ هُوَ أَحَدُ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ إِذْ أَمَرَ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالتَّوَسُّطِ فِي النَّفَقَةِ بَيْنَ التَّقْتِيرِ وَالْإِسْرَافِ .
ومعنى الآية - كما جاء في السِّيَاق - لَا تُمْسِكْ عَنِ الْإِنْفَاقِ بِحَيْثُ تَضَيِّقُ عَلَى نَفْسِكَ وَأَهْلِكَ فِي وَجْهِهِ صَلَةِ الرَّحْمِ وَسَبِيلِ الْخَيْرَاتِ ، فَتَجْعَلَ يَدَكَ فِي ذَلِكَ كَالْمَرْبُوطَةِ فِي عُنُقِكَ فَلَا تَسْتَطِيعُ بَسْطَهَا وَالتَّصَرُّفَ بِمَا فِيهَا مِنْ مَالٍ ، وَلَا تُطْلِقَ لَهَا الْعِنَانَ فِي الْبَسْطِ وَالْإِسْرَافِ بِحَيْثُ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَضُمَّ أَصَابِعَكَ عَلَى مَا تملكه فِيهَا ، فَيَذْهَبَ كُلُّهُ هَبَاءً ، وَعِنْدَهَا تَصِلُ إِلَى دَرَجَةِ الْكُومِ مِنَ النَّفْسِ وَالْأَهْلِ عَلَى مَا أَضْعَتْ بِالتَّفَكُّرِ فِيمَا يَنْتَظِرُكَ وَأَهْلِكَ مِنْ حَرِّ الدَّهْرِ وَشِدَائِدِ الْأَيَّامِ ، تَمَامًا كَالَّذِي انْقَطَعَ فِي سَفَرِهِ بِسَبَبِ انْقِطَاعِ مَطِيئِهِ (٣) .

ب- مناسبتة في السِّيَاق :-

بقراءة الآيات السَّابِقَاتِ لِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ثُمَّ الْآيَاتِ التَّالِيَاتِ لَهَا يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ إِحْدَى آيَاتِ الْحِكْمَةِ فِي السُّورَةِ ، وَهِيَ الْآيَاتُ الَّتِي تُؤَكِّدُ يَحَقُّ الْقَوْلَ (إِنَّ الْقُرْآنَ مِنْهَجٌ كَامِلٌ لِلْحَيَاةِ الْهَيِّنَةِ ، يَتِيحُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ خَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) (٤) .

(١) سورة الإسراء ، ٢٩ .

(٢) سبقَت الإشارةُ إِلَى هَذِهِ الْمَوَاضِعِ - فَضلاً أَنْظِرْ ص ٢٠١ مِنْ هَذَا الْبَحْثِ .

(٣) التفسير الكبير ٢٠ / ٩٥ (بتصرف) .

(٤) تأملات في سورة الإسراء . د . حسن باجوده . ص ١٠٠ سنة ١٣٩٥ هـ ، دار الاعتصام ، القاهرة .

هذه الآيات تبدأ من قوله تعالى :-

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ، فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخَذُومًا وَلَا (١) إلى قوله تعالى :-
وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ، فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَذْحُورًا (٢) .

وإذا علمنا أن هذه الآية الكريمة إحدى آيات الحكمة التي تبدأ بالنهي عن الإشراك بالله ثم بالإحسان إلى الوالدين قولاً وعملاً ثم بالإحسان إلى ذي القربى والمساكين وابن السبيل وعدم التبذير في ذلك ثم عدم التقتير في صرف المال أو الإسراف وبسط اليد بما فيها ثم النهي عن قتل الأبناء خشية الفقر والحاجة والنهي عن الزنا وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، والنهي عن أكل مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن والأمر بالوفاء بالعهد والكيل وعدم الحكم بما لا يكون معلوماً والنهي عن التكبر والعظمه أو الاختيال والفخر ثم العودة مرة أخرى إلى النهي عن الإشراك بالله عز وجل لما له من نهاية سيئة والعيان بالله .

نقول إذا علمنا أنها إحدى آيات الحكمة الكريمة ، أدركنا - بلاريب - مدى هذا الارتباط الوثيق بين آية المثل الكريمة *وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُوبَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ* . . . الآية وبين ما سبقها وما لحق بها من آيات جليات في السياق إن تدعو جميعها إلى مافيه صلاح الآخذ بها والعامل بمقتضى حكمها .

ج- العبرة منه :-

لا شك أن في الآية الكريمة عبرة أكيدة وموعظة جليلة أوردتها لنا السياق عن طريق رسم صورة للبخل والإسراف تأبأها الطباع ولا ترتاح لرؤيتها الأبصار .
لقد أظهرت الآية الكريمة الانسان المقتتر البخيل في صورة ذلك الشخص الذي شد الغل يده إلى عنقه ، فلا يستطيع لهما حراكاً ، فحقه أن يلام من نفسه وذو يسه وأظهرت المسرف في صورة الباسط يده بسطاً لا يستطيع معه ضم أصابعه بعضراً إلى بعضاً!

(١) سورة الإسراء ، ٢٢ .

(٢) سورة الإسراء ، ٣٩ .

لأنَّ يده اعتادت ذلك ، فماله مال المسافر الذي انقطع ^{في} سفره بسبب انقطاع مطيته
بجامع العُنف وعدم الرِّفق بكلِّ من المال في حقِّ المُسرفِ والدَّابة في حقِّ المُنبتِّ الذي
لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى .

نقول لاشكَّ أنَّ هذا التَّصوير البديع فيه من العبرة مافيه ، ولعلَّ الحكمة منه
هي التَّنغير من هذين العملين السيِّئَيْن بقدر الإمكان لمافيهما من حرمان المرء وأهله
من ماله إن كان بخيلاً أو مُسرفاً لمافي الحرمان الأوَّل من منع بالإرادة مع وجود المال
وكثرته فيلام على ذلك ، ومافي الثَّاني من ضياع وخسارة بعد كثرة المال وتوفُّره
فتصبيه الحسرة بذلك .

د- دراسته وتحليله بيانياً :-

لنعد هنا إلى نص الآية الكريمة :-

”وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا“ .

فلاحظ فيها استعارتين واضحتين ، يستعار فيهما المحسوس للمعقول .

فاستعير في الأولى : العغل للبخل أو الإمساك ، وفي الثانية استعير البسط

للإسراف ، وإجراء كل من الاستعارتين كما يأتي :-

أولاً : شبه البخل أو الإمساك بالعغل بجامع الحبس أو المنع في كل ، ثم بولغ في

التشبيه وادعى دخول المشبه في جنس المشبه به وأنه فرد من أفرادها ثم حذف

المشبه واستعير المشبه به له على سبيل الاستعارة التصريحية .

وهذه الاستعارة نظير قوله تعالى (١) :-

”وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ ، غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعَنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ
يَنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ“

ثانياً : في جملة (تَبْسُطُهَا) استعارة تبعية تصريحية وتجرى على النحو التالي :-

شبهت جملة تصرف بجملة (تبسط) بجامع عدم الإبقاء على شيء في كل ، ثم بولغ

في التشبيه وادعى دخول المشبه في جنس المشبه به ، وأنه فرد من أفرادها ثم حذف

المشبه (الإسراف) واستعير له المشبه به (البسط) وصرح به على سبيل الاستعارة

التصريحية التبعية .

كذلك في قوله (محسوراً) استعارة أصلية مكنية لأن العرب تقول بعير محسور

أي إذا انقطع سيره أو حسرت الدابة إذا سيرت حتى ينقطع سيرها (٢) .

وعلى هذا تجرى الاستعارة كما يأتي :-

شبه المنفق ماله كده بحيث لا يجد منه شيئاً وقت حاجته بالمحسور بجامع عدم

القدرة على التصرف وقت الحاجة في كل ثم بولغ في التشبيه وادعى دخول المشبه في

(١) سورة المائدة ، ٦٤ .

(٢) التفسير الكبير ١٩٥/٢ . (بتصرف)

جنس المشبه به وأنه فرد من أفراد ه ، ثم استُعير لفظ المشبه به للمشبه ثم حُذِف
وكني عنه بشي^ء من لوازمه وهو الحسر على سبيل الاستعارة الأصلية^{المكينة} ، وإثبات لازم المشبه
به للمشبه استعارة تخيلية قرينة المكينة .

هذا عن جانب التصوير في الآية الكريمة ، ولكن ماذا عن الألفاظ وبلاغة مجيئها
في السياق مع أخواتها . . ؟!

لنعد هنا مرة أخرى إلى قوله تعالى :-

” وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ” .

فلاحظ بدء الآية بنهي صريح عن فعل زميم وهو البخل وعندما تبدأ بهذا النهي

الواضح مع الفعل (جعل) الذي يعني (وَضَعَ) (١) .

نقول : عندما تبدأ الآية الكريمة بالفعل المضارع المقترن بلا الناهية دل ذلك

على أن البخل في صاحبه لم يكن إلا بمحض إرادة البخل واختياره دون مشاركة أحد

آخر له في تلك الإرادة ، ولعل أكثر ما يهيب هذا التعبير جمالاً ، أن يأتي بطريقة

تصويرية دقيقة ، فالمنع عن البخل لا يأتي صريحاً كالموقوفيل مثلاً لا تبخل وإنما يأتي

كما أشرنا بهذه الصورة المنفرة وهي أن يكون الإنسان قد شدَّ يده إلى عنقه في قيد

وثيق لا يستطيع معه تحريك هذه اليد أو التصرف بما فيها ، وهو بذلك شبه بالمسبي

الذي شدَّ قيده وأحكمت أغلاله فلا يستطيع معها حراكاً ، ولكن شتان بين الصورتين . .

فالأولى هي من صنع الشخص نفسه ، أما الثانية ، فمكره عليها ليس له إرادة فسي

وضعها (٢) .

هذا عن الدقة في مجيئ الألفاظ مع المشهد التصويري البارع ، ولكن ماذا عن

إيحاء اللفظ (مغلولة) ؟!

(١) جاء في اللسان جعل الشيء يجعله جعلاً ومجعلاً واجتعله وضعه ! فضلاً

انظر اللسان ” جعل ” .

(٢) تأملات في سورة الاسراء ٢٤ (بتصرف) .

لَشَكَّ أَنَّ هَذَا اللَّفْظَ مَوْجٍ بِجَرَسِهِ بَلِيغٌ فِي مَوْضِعِهِ وَحَسْبُنَا هُنَا أَنْ نَقَارِنَهُ بِلَفْظِ
(مَقْبُوضَةٌ) مِثْلًا الَّذِي قَدْ كَيْفِي بِالْمَعْنَى فِي أُسْدٍ بِنَاٍ وَلَكِنَّهُ لَا يُعْطَى هَذَا الْإِيحَاءَ
بِالْخَنْقِ وَالْحَبْسِ (١) الَّذِي يُوحَى بِهِ لَفْظُ (مَقْلُوبَةٌ) فَضْلًا عَنْ مِبَالَغَتِهِ الْوَاضِحَةِ فِي
هَذَا الْإِيحَاءِ .

وَلِإِفْرَادِ لَفْظِ (يَدُكَ) هُنَا يُجِيزُنَا أَنْ نَعْبَرَّ بِلَفْظِ الْمُقْرَدِ عَنِ الشَّيْئَيْنِ الْمَتَمَاثِلَيْنِ
فَضْلًا عَنْ أَنْتَا - كَمَا نَعْلَمُ - أَنْ الْإِنْفَاقَ عَادَةً لَا يَكُونُ بِمَدَّةٍ كَلْتَا الْيَدَيْنِ بِالْمَالِ ، وَإِنَّمَا
بِيَدٍ وَاحِدَةٍ (٢) .

ثُمَّ لِحَرْفِ الْجَرِّ (إِلَى) هُنَا فَضْلٌ كَبِيرٌ وَدَقَّةٌ وَاضِحَةٌ فِي تَصْوِيرِ حَرَكَةِ الْبِخِيلِ الَّذِي شَدَّ
يَدَهُ إِلَى جِهَةِ عُنُقِهِ ، تِلْكَ الْحَرَكَةُ الَّتِي تَنْقُلُ لَنَا أَنْانِيَةً بِعَيْنِهَا ، تِلْكَ الْأَنْانِيَةُ الَّتِي
تَجْعَلُهُ يَظْهَرُ أَنَّ مِنْ حَوْلِهِ سَيَقُومُ بِخَطْفٍ مَا فِي يَدِهِ فَيَزِيدُ ذَلِكَ الشَّعُورَ مِنْ حِرْصِهِ
وَتَمَسُّكَهُ بِالْمَالِ (٣) .

أَمَّا عِنْدَ دِرَاسَتِنَا لِلْمَشْهَدِ الثَّانِي الَّذِي صَوَّرْتَهُ لَنَا الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ وَالَّذِي بِيَدِهِ يَقُولُهُ

تَعَالَى :-

” وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ، فَتَقْعُدَ لِمُؤْمٍ مَحْسُورًا ” .

فَبِالإِضَافَةِ إِلَى الْإِسْتِعَارَةِ الَّتِي وَضَحْنَاهَا فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ (٤) نَلَاحِظُ أَنَّ جُمْلَةَ
(تَبْسُطْهَا) تَدُلُّ بِإِيحَائِهَا عَلَى ذَلِكَ الْمَشْهَدِ التَّصْوِيرِيِّ الْبَدِيعِ وَهُوَ : (صُورَةُ الْيَدِ
الْمَبْسُوطَةِ الْمَمْتَدَّةِ فِي خَطِّ مَسْتَقِيمٍ وَاحِدٍ ، ابْتِدَاءً مِنَ الْعَضُدِ حَتَّى رَأْسِ الْأَنْمَالِ
فَنَحْنُ إِذَا بَصَدَدَ شَيْئَيْنِ مَهْمَيْنِ بَارِزَيْنِ فِي الصُّورَةِ ، وَمِنْ بَرُوزِهِمَا تَبَدُّو قَدْرَتَهُمَا الْمَعْبُورَةَ .

(١) جَاءَ فِي اللِّسَانِ (فِي رَهَيْتِهِ غَلٌّ مِنْ حَدِيدٍ) فَضْلًا أَنْظَرَ لِسَانَ الْعَرَبِ ” غَلٌّ ” .

(٢) تَأْمَلَاتُ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ ٢٥ (ابْتَصْرَفَ) .

(٣) تَأْمَلَاتُ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ ٢٦ (ابْتَصْرَفَ) .

(٤) فَضْلًا رَاجِعْ ص ٢١٩ مِنْ هَذَا الْبَحْثِ .

وقد جاءت هنا مطابقة في المعنى بين الغلّ والبسط في قوله :-

”وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُوبَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ“ .

هذا وقد جاءت لفظة (محسوراً) في موضعها من السياق موحية بمعناها في بلاغة وجمال تمام الإيحاء ، فضلاً عن مناسبتها للفاصلة السابقة لها واللاحقة بها في السورة الكريمة ، والله أعلم ،،

مايوافقها من كلام البشر :-

لقد أشرنا سابقاً (١) إلى أن هذه الآيات الأربع وهي قوله

تعالى :- ”لَا فَارِضٌ وَلَا بَكِرَةٌ أُمْرٌ بَيْنَ ذَلِكَ“ .

وقوله : ”وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا“ .

وقوله : ”وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُوبَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا“

محسوراً * (٢)

وقوله : ”وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا“ (٣)

يوافقها جميعاً قول البشر .

خير الأمور أوساطها .

وإذا نظرنا إلى الأمثال القرآنية السابقة - بما احتوت عليه من بلاغة فريدة فسي

سياق جميل ، ثم إلى هذا المثل العربي البسيط أدركنا البون المشاسع بسين

القرآن الكريم ، وبين كلام البشر .

فذلك نسمولسمو مصدرها وترقى ببلاغة ألفاظه ودقة كل منها في السياق ، فضلاً

عن جمال تراكيبه ومخاطبة عباراته للقلب مخاطبة تستريح معها النفس ويطرب لها

السمع وتندى بمائه الروح نداوة لا يعد لها مثيل .

(١) فضلاً راجع ص ١٢٢-١٢٣ من هذا البحث .

(٢) سورة الاسراء ، ٢٩ .

(٣) سورة الاسراء ، ١١٠ .

هذا ما يمكن أن يقال بصفة عامة بشأن مقارنة كلِّ مثل قرآني بما يوافقُه من كلام البشر .

أما عند دراسة هذا المثل الوارد على لسان أحد البشر ، فإننا نلاحظ :-

أنَّ القول الموافق لذلك هو قولهم :-

"خير الأمور أوساطها" ، إن جاء في مجمع الأمثال عن قصة هذا المثل :-

(إن اعرابياً قال للحسن البصريِّ علمني ديناً وسطاً لانا هبياً فروطاً ولا ساقطاً

سقوطاً ، فقال :- أحسنت يا أعرابيِّ خير الأمور أوساطها *) (١) .

ومآجاء في هذا المجال أيضاً قولهم :-

(لا تكن ^{حلواً} فتستترط ولا مرّاً فتعفن *) (٢)

قال الشاعر :-

ولا تك أنياً حلوا فتحسى ولا مرّاً فتشرب في الحلاق (٣)

وتقول العامة لا تكن حلوا فتؤكل ولا مرّاً فتلفظ ، ولا تكن قاسياً فتكسر ولا ليناً

فتعصر ، كما تقول :-

توسّط الأمور أدنى إلى السّلامة ويقول عمر بن عبد العزيز يصف معيشته إنها

حسنة بين السّيئين ومنزلة بين المنزلتين .

ويقول علي بن أبي طالب رضی الله عنه :-

(خير الناس هذا النمط الأوسط يلحق بهم التالي ويرجع إليهم الغالي) (٤)

(خير الأمور أوساطها) ، هو عدم اشتماله على أية صورة بيانية كما اشتملت عليه

الآية الموافقة له وهي قوله تعالى :-

"وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا * (٥)

(١) مجمع الأمثال ١/٤٣٠ .

(٢) يعني الشيء أي : اشتدَّت مرارته ، بكسر القاف . أما بفتحها ، فتعني : فتلفظ

لمرارتك ، فضلاً انظر اللسان (عقي) .

(٣) العقد الفريد ٣/١١١ .

(٤) نفسه .

(٥) سورة الاسراء ، ٢٩ .

هذا التصوير الذي يمنح المعنى في المثل القرآني الكريم المذكور في الآية
ترهيباً من الإقدام على البخل أو التبذير في المال ، كما أعطى - في المقابل - ترغيباً
في العمل على الاقتصاد والتوسط في صرف الأموال أما من جهة دراسة الألفاظ والتراكيب
فكمانلاحظ ليس هناك أي تقديم أو تأخير لنكته بلاغية معينة فقد جاء المسند واليسه
في موضعه الأصلي ، كذلك المسند ولا نلاحظ تذييلاً يمنح القول تقويةً وتوكيداً . .
كما جاء في قوله تعالى : -

”وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا“ (١)

وقوله تعالى :-

”وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا“ (٢) .

ومع ذلك فلنقف قليلاً أمام دراسة ألفاظ القول :-

(خير الأمور أوسطها) .

جاء في لفظ (خير) أنه ضد الشرّ وجمعها خيور قال الشاعر :-

”وَلَا قَيْتُ الْخَيْرِ وَأَخْطَأْتَنِي * * * خَطُوبٌ جَمَّةٌ وَعَطُوتٌ قُرْنَسِي .

أو على خيار كسهم وسهمام .

(٣)

ويقال رجل خَيْرٌ وَخَيْرٌ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ وَامْرَأَةٌ خَيْرُهُ وَخَيْرُهُ وَالتَّجْمَعُ أَخْيَارٌ وَخِيَارٌ .

(وَإِذَا أَرَدْتَ التَّفْضِيلَ قُلْتَ فَلَانَةُ خَيْرِ النَّاسِ وَلَمْ تَقُلْ أَحْيَرُ لَا يُشْنَى وَلَا يُجْمَعُ لِأَنَّه

معنى أَفْعَلَ) (٤)

ونقول إذا كانت لفظة (خَيْر) مع قولنا فلان خير الناس ، تأتي بمعنى التفضيل

فهذا يُجيزُ لنا أن نقول :-

إن المقصود بها في قولهم : (خير الأمور أوسطها) هو صيغة التفضيل وليس المفرد

(خَيْر) الذي يُجمع على خيور وخيار .

(١) سورة الاسراء ز ، ١١٠ .

(٢) سورة الفرقان ، ٦٧ .

(٣) اللسان : ” خَيْرٌ “ .

(٤) تاج العروس من جواهر القاموس . محمد مرتضى الزبيدي ” خَيْرٌ “ ط ١ . المطبعة

الأميرية مصر سنة ١٣٠٦ هـ .

ولا أدلّ على ذلك من هذا القول الذي وجدناه في لسان العرب أثناء دراستنا للفظ (وَسَطٌ) :-

(واعلم أنّ الوَسَطَ قد يأتي صفة وإن كان أصله أن يكون اسماً من جهة أنّ أوسط الشيء أفضله وخياره كوسط المرعى خير من طرفيه وكوسط الدابة خير من طرفيها لتمكّن الراكب ولهذا قال الراجز :-

(إذا ركبت فاجعلاني وَسَطاً) (١)

أما القول أوساطها ، فهو جمع مفردة وَسَط .

(٢)
(الوَسَطُ محرّك من كلّ شيء ، أعدله ، يقال شيءٌ وَسَطٌ أي بين الجيّد والرديء)

ومنه قوله تعالى :-

" وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا " (٣)

وجاء في اللسان وَسَطُ الشيء مابين طرفيه قال :-

إذا رحلت فاجعلاني وسطاً اني كثير لا أطيع العنود (٤)

وتستعمل (وَسَطٌ) بتسكين السّين ظرفاً كقولك :-

جلست وَسَطَ القوم أي بينهم .

وتستعمل وَسَطٌ بفتح السّين اسماً لمابين طرفي الشيء كقولك قبضت وَسَطَ الحبل وكسرت وَسَطَ الرمح ومنه المثل : يرتعي وَسَطاً ويربض حجرة أي يرتعي وَسَطَ المرعى

وخياره مادام القوم في خير فإذا أصابهم شر اعتزلهم والتزم ناحية منعزلاً عنهم (٥) .

وخلاصة القول إن وَسَطٌ بالتسكين تكون ظرفاً وهي تصلح في كل موضع يصلح فيه

وضع الظرف (يبين) بدلاً منها مثل وَسَطَ القوم ، أي أنه يصلح استعمالها مع الشيء الذي تخلخلت أجزاؤه .

(١) اللسان " وَسَطٌ " .

(٢) تاج العروس " وَسَطٌ " .

(٣) سورة البقره ، ١٤٣ .

(٤) اللسان ، " وَسَطٌ " .

(٥) تاج العروس " وَسَطٌ [بتصرف] " .

أَمَّا وَسَطُ بفتح السّين ، فهي اسم ولا تستعمل فيما كان مصمّتا كالدار والحلقه
نقول جَلَسْتُ وَسَطَ الدَّارِ (١) .

وعلى هذا الأساس نقول إن القول :-

(أوساطها) جاء جمعا لوسط (مفتوحة السّين) لأنّ الأمور ليست مُخلّلة
الأطراف كالقوم والعفد مثلاً .

وقد لخصت هذه القاعدة في أبيات شعريّة قد وردت في تاج العروس يطيب
لنا هنا نقلها لشمولها على ما جاء في هذه المادّة فقول :-

(فرق ما بينهم وَسَطُ الشّيءِ * * * * * وَسَطُ تحريكاً وتسكيناً
موضع صالح كلبين فسكّن * * * * * ولغي حرّكناً تراه مُبيناً
كجلست وَسَطَ الجماعة إنهم * * * * * وَسَطَ الدَّارِ كهم جالسِيناً) (٢)

(١) تاج العروس * وَسَطُ (بتصرف) .
(٢) نفسه "وسسط" (بتصرف) .

٥ - قال تعالى :-

• أَوْلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لَيْطُمِّنْ قَلْبِي • (١)

أ- المعنى العام :-

لقد ورد هذا المثل الكامن في الآية الكريمة ضمن قوله تعالى :-

• وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَمْ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لَيْطُمِّنْ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ • (١)

وبقراءة هذه الآية الكريمة تبين لنا أنها تحكي قصة الحوار الذي دار بين إبراهيم عليه الصلاة والسلام وبين ربه جلّ وعلا حين طلب منه أن يريه كيفية إحياء الموتى ثم كرم الله له وتلبية ما أراحه منه خليله عليه السلام ، وقد ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام أسباباً منها : أنه لما قال لنُروُذُ (رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ) أحبّ أن يترقى من اليقين بذلك الى عين اليقين وأن يري ذلك شاهداً محسوساً ، فقال (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ) قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لَيْطُمِّنْ قَلْبِي () .

أما الحديث الذي ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال (نحن أحقُّ بالشكِّ من إبراهيم إذ قال : رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ) قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لَيْطُمِّنْ قَلْبِي * فليس المراد بالشكِّ هنا ما قد يفهمه الجاهل من معناه وإنما قيل إن المراد به أن محمداً - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وإبراهيم عليه السلام قد شكَّا في استجابة الله لما سألا أو أن المراد من ذلك الحديث ففي الشكِّ عنهما (يقول إذا لم أشكُّ أنا في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى فإبراهيم أولى بأن لا يشكُّ وقال ذلك على سبيل التواضع والمهضم من النفس وكذلك قوله * لولبثتُ في السَّجْنِ طَوَّلَ مَالِثِ يَوْسُفَ لِأَجِبْتُ الدَّاعِيَ *) (٢)

(١) سورة البقرة ، ٢٦٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣١٦ / ١ .

وفي هذا إعلام ان المسألة لم تُعرض من إبراهيم عليه السلام من جهة الشك ولكن من قبل زيادة العلم بالعيان لأن رؤية الشيء يعطي الطمأنينة إلى معرفته أكثر مما يعطيه الاستدلال .

وقيل لما نزلت هذه الآية قال قوم شك إبراهيم ولم يشك نبيك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم - هذا القول تواضعاً وتقديماً منه لإبراهيم على نفسه (١) ومهما اختلفت الروايات في أسباب هذا القول من سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام فإننا نذهب إلى القول في هذه المسألة - والله أعلم - إن سؤاله عليه السلام لم يكن من باب الشك في قدرة الله تعالى ولا الشك في استجابته له لما يريد ، وإنما كان من جانب استشراق النفس إلى معرفة الأشياء محسوسة شاهدة بعد الإيمان بها غيباً ، وقد قال - صلى الله عليه وسلم - في ذلك :-

(ليس الخبر كالمعاينة) (٢)

وقد قال القرطبي في ذلك (وإحياء الموتى إنما يثبت بالسمع وقد كان إبراهيم عليه السلام أعلم به ، يدل ذلك على ذلك قوله (رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ) فالشك يبعد على من تثبت قدمه في الإيمان فقط فكيف بمرتبة النبوة والخلة والأنبياء معصومين من الكبائر ومن الصفات التي فيها رذيلة إجماعاً) (٣)

مناسبتة في السياق :-

بقراءة الآيات السابقات لهذه الآية نرى أنها تحدثت عن بعض الرسل وكيف أن الله سبحانه وتعالى فضل بعضهم على بعض ومنهم من كرم الله والمراد موسى عليه السلام ورفع بعضهم على بعض درجات والمراد محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وآتى عيسى بن مريم عليه السلام البيئات وأيده بروح القدس

(١) تفسير ابن كثير (٣١٦ / ١) (بتصرف) كذلك الجامع لأحكام القرآن ١١٠٦ / ٢ (بتصرف) .

(٢) المسند . أحمد بن حنبل (١ / ٢١٥ ، ٢٧١) .

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن (١ / ١١٠٦ - ١١٠٧) .

وأنه لو شاء سبحانه ما قتل الذين من بعده بعد أن جاءتهم البينات ولكنه يفعل ما يريد بعباده بمشيئته وحكمته سبحانه وتعالى (١) .

ثم أمر سبحانه وتعالى بالإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِهِ مَارزُقَهُمْ قِيلَ أَن يَأْتِي يَوْمَ لَا يَنْفَعُ فِيهِ بَيْعٌ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى (٢) وهو لا يأذن بها إلا في حَقِّ الطَّائِعِينَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ . . . وَذَكَرَ سَبْحَانَهُ أَنَّهُ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ وَقَدْ تَبَيَّنَ الرَّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَيُكْفِرِ بِالطَّاغُوتِ ، فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ، ثُمَّ ذَكَرَ سَبْحَانَهُ أَنَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَأَنَّ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءُ هُمُ الطَّاغُوتِ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ، وَبِهَذَا يَصِيرُ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى الْإِيمَانِ بِاخْتِيَارِهِمْ وَتَوْفِيقِ اللَّهِ لَهُمْ ، وَكَذَلِكَ الْكَافِرُونَ يَصِيرُونَ إِلَى الْكُفْرِ بِاخْتِيَارِهِمْ وَإِثَارِهِمْ وَلَا يَمُرُّ بِالطَّاغُوتِ لَهُمْ . . . ثُمَّ ذَكَرَ - سَبْحَانَهُ - لَذَلِكَ ثَلَاثَ قِصَصٍ :

أولها : قصة إبراهيم وحمز ، فقد أحسن عليه السلام بدليله ولكن الله تولَّى الطَّاغُوتَ فَأَضَلَّهُ .

والثانية : قصة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها ، فقال أنتي يحيي هذه الله بعد موتها ثم تولَّى اللهُ ، فهدها .

والثالثة : قصة إبراهيم حين قال رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ، فأراه ذلك وتولَّى ه فزاده إيماناً على إيمانه (٣) .

تلك هي مناسبة المثل لما سبقه من آيات .

أما مناسبة لما بعده ، فنلاحظ أَنَّ الآيات التَّالِيَاتِ عَادَتْ لِلْحَدِيثِ عَنِ النَّفْقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمِثْلِهَا ، فَضَرَبَ الْأَمْثَلَةَ الْمُتَعَدِّدَةَ لَهَا وَذَلِكَ تَرْغِيباً فِي الْبَدَلِ وَالْعَطَاءِ السَّخِيِّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (٤) .

(١) سورة البقرة ، ٢٥٣

(٢) سورة البقرة ، ٢٥٤ - ٢٥٥

(٣) سورة البقرة ، ٢٥٥ - ٢٦٠

(٤) سورة البقرة ، ٢٦١ - ٢٦٦

ثم تتوالى الآيات بعد ذلك ، منها ما يأتي فيها الأمر صريحاً بالصدقة من طيب ما يكسب الإنسان ، ومنها ما يبين أن الشيطان إنما يزين للإنسان البخل فيعده بالفقر ويأمره بالفحشاء وأن الله - سبحانه - يعيد بالمغفرة منه والفضل وأنه يؤتي العلم والحكمة للذين هما أشرف من المال والجاه ، ولكن لا يعي فضلها إلا من أوتي عقلاً سليماً وتفكيراً راجحاً

ثم تتوالى الآيات بعد ذلك على هذا الترغيب الجميل في طاعة الله وذلك عن طريق الصدقة تارة أو النذر تارة أخرى أو بإظهار الصدقة أو إخفائها . . . لأن الله خبير بما يعمل عباده . . . وليس على رسوله إلا البلاغ ، أما الهداية والرشاد فهما من شأنه عز وجل (١) .

وبهذا يتضح لنا مدى الارتباط الوثيق بين آية المثل الكريمة وبين ما لحق بها من آيات ، إذ تحدثت الآيات التاليات له عن سبل الهداية التي يمكن أن يتبعها المؤمن فيصل بها إلى رضا الله عز وجل كالصدقة وترك الربا وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة (٢) وإن من أكبر الأدلة على الهداية حقاً هو الإنفاق في سبيل الله والتخلص من حُبِّ الذات وعدم الإسراف في جمع المال .

ح. العبرة منه :-

لعلَّ الدرس الذي ينبغي أن يُؤخذ من هذا المثل الكامن في الآية الكريمة هو ضرورة التأدب في خطاب من هم أعلى من المتكلم قدرًا حتى وإن كان ذلك المتكلم قد وصل إلى ما وصل إليه من عوالم المكانة عند المخاطب ، فهذا سيدنا إبراهيم عليه السلام نبي الله وخليفه وله من عوالم المكانة عنده جلّ وعلا ماله وهو نفسه يعلم ذلك ولكن هذا لا ينسيه عليه السلام ضرورة التأدب في الخطاب ، فيقول ربّ أرني كيف تحيي الموتى ؟ إذ بدأ السؤال بكلمة ربّ التي تغيد الخضوع التام والانقياد المطلق والتدليل الواضح

(١) سورة البقرة ، ٢٦٧ - ٢٧١

(٢) سورة البقرة ، ٢٧٢ - ٢٧٧

لجبروته وكبريائه عز وجل كما (تُفيد عنايته سبحانه وتعالى بعبيده و تربيته لعقولهم وأرواحهم بالمعارف لتكون ثناءً واستعطافاً أمام الدعاء أبي أرني بعيني كيفية إحيائك للموتى) (١)

تلك هي العبرة التي يجب أخذها من هذا المثل الكريم وذلك هو التأدب المطلق اللائق بمن يخاطبه المتكلم .
إن هذا التأدب الجم هو الذي صدر عن إبراهيم عليه السلام لأنه إنما يخاطب المتفضل الأول عليه بالنعمة والإحسان .

د- دراسته وتحليله بيانياً :-

لنعد هنا مرة أخرى إلى قوله تعالى :- (١)

• قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِن ، قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لَّا يَطْمِئِنُّ قَلْبِي •

الملاحظ أَنَّ الضمير في (قال) عائد إلى الرَّبِّ سبحانه وتعالى .

أَمَّا قَوْلُهُ (أَوْلَمْ تُؤْمِن)

فالهزة هنا استفهام تقريرية ، أي لإثبات ما بعدها وتقريره ، كما قال الشاعر :-

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا * * وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونِ رَاحِ (٢)

والمعنى أنتم خير من ركب المطايا وكذلك قوله تعالى :- (٣)

= (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) : أي وقد شرحنا لك صدرك وكذلك يكون هنا

المعنى في الآية الكريمة ، قد آمنت بالاحياء .

قال ابن عطية (إيماناً مطلقاً دخل فيه فعل إحياء الموتى والواو واو حال

دخلت عليها ألف التقرير) (٤) .

وقد رأى أبو حيان أن قول ابن عطية عن الواو في إنها للحال قول غير واضح

لأنها إذا كانت للحال ، فلا بد أن يكون لها عامل ينصبها ، وعندها لا تكون الهزة

التي للتقرير دخلت على الجملة الحالية فقط بل على الجملة التي اشتملت على العامل

فيها وعلى صاحب الحال ، وبهذا يكون التقدير : أسألت ولم تؤمن ؟ أي أسألت

في هذه الحال ؟

وبعد هذا التحليل من أبي حيان لرأي ابن عطية يرى أيضاً أن هزة التقرير

دخلت على الجملة المنفية وأن الواو للعطف كما قال تعالى :-

(١) سورة البقره ، ٢٦٠ .

(٢) ديوان جرير ٧٧ ط . دار صادر بيروت - وهي من قصيدة يمدح فيها عبد الملك

ابن مروان مطلعها :-

أتصو أم فؤادك غير صاح * * عشية هم صحبتك بالرواح .

(٣) سورة الانشراح ، ١ .

(٤) البحر المحيط ٢٩٧/٢ .

• **أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا** * (١) ونحوه ولكنه اعتنى بهمزة الاستفهام
فقدّمت ومّأيدلّ على صحّة ذلك أنّ الجواب كان مبدوءاً بـ **يَبْلُو** ونحن نعلم أن الإجابة
بالإثبات على الاستفهام المنفيّ يكون بـ **يَبْلُو** ، فينظر فيه إلى اللفظ ولا يلتفت فيسه
إلى معنى الإثبات .

لذا لا يرى أن تكون الواو للحال كما رأى ابن عطية لأنه لا يتأتى معها أن يُجاب
العامل بقوله بلى لأنّ ذلك الفعل مُثبت مستفهم عنه وإجابة السُّؤال المُثبت إماماً بنعم
أولاً ولا يمكن أن يكون بـ **يَبْلُو** مطلقاً . (٢)

وفي قوله (**تُؤْمِن**) نلمح بلاغة ظاهرة أكثر مما لوجاهة جملة (**تُصَدِّق**) مثلاً
مع أنّ الإيمان يعني التصديق وهو ضدّ التكذيب (٣) يُقال (آمن به قوم وكذب به
قوم) .

نقول إنّ في **مجي** * جملة (**تُؤْمِن**) بلاغة واضحة وذلك لأنّ تقرير الإيمان هنا
مطلوب ومحيب إلى الله سبحانه من نبيّه وخليفه إبراهيم عليه السلام ، هذا من
جانب .

أمّا الجانب الآخر الدّال على بلاغته فهو أنّ جملة (**تُؤْمِن**) هنا لا تحتل لدى
السّامع لها أي معنى آخر سوى الإيمان المحض وهي أقوى في الدلالة عليه من جملة
(**تُصَدِّق**) مثلاً وان كانت تحمل نفس المعنى .

وقيل في (**أَوْلَمْ تُؤْمِن**) ، إنه حذف ما دخلت عليه الهمزة لدلالة العطف عليه
والتقدير ألم تعلم ولم تؤمن ، ويرى صاحب تفسير المنار أن الأقرب أن يُقَدَّر
(ألم يوح إليك ولم تؤمن بذلك) ؟ (٤)

ونقول إذا صحّ هذا الرأى ، فيكون هنا إيجاز حذف في الجملة والإيجاز من
الأساليب البليغة ولا شك .

(١) سورة العنكبوت ، ٦٧ .
(٢) البحر المحيط ٢/٢٩٨ (بتصرف) .
(٣) اللسان : آمن * .
(٤) تفسير القرآن الحكيم (المنار) ٣/٥٣ .

كذلك قد قيل في قوله (أَوْلَمْ تُؤْمِنِ) كيف يسأل ربُّ العزّة عن ذلك وهو أعلم بخليته من الخليل بنفسه ؟ فتكون الإجابة هي :-
قد جاء السؤال على هذه الصيغة لتكون الإجابة بـ (بلى) أكثر فائدة ففي نفس السامع وأكثر دليلاً على إيمانه عليه الصلاة والسلام . (١)
وقد ذكر الزمخشري لطيفة أخرى وقعت لبعضهم في قوله (أَوْلَمْ تُؤْمِنِ) تلك هي :-

بما أن صيغة (كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى) قد تحتل معنيين :-
أحدهما السؤال عن الكيفية والآخر للاستعجاز كان يدعي مدّع أنه يستطيع أن يحمل شيئاً ثقيلاً وأنت تعلم عجزه عنه ، ولعلمك بذلك تطلب منه أن يحمله فعلاً فلا يستطيع .

فقيل بما أن الله سبحانه وتعالى مبرّ، وخليته من ذلك ، فقد سأله - سبحانه - (أَوْلَمْ تُؤْمِنِ) لينطق إبراهيم عليه السلام بقوله بلى آمنت ليدفع عنه ذلك الاحتمال اللغظي في العبارة الأولى ليكون إيمانه خالصاً منصوصاً عليه بعبارة يفهمها كل سامع فهماً لا يداينه رب أو شكّ (٢) .

وقوله (قَالَ بَلَى) فهذا القول على لسان الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهذا إثبات وتأكيد للإيمان الذي سُئل عنه ، (وَلَكِنْ لِيُطْمِئِنَّ قُلُوبِي) اللام في قوله (لِيُطْمِئِنَّ) متعلّقة بمحذوف تقديره سألت ذلك ارادة طمأنينة القلب .
ومعنى (لِيُطْمِئِنَّ قُلُوبِي) أي ليسكن إلي المعاينة بعد الإيمان بالغيب
والطمأنينة هي السكون (٣) .

وهذا يدل على أن السؤال لم يكن لعدم الإيمان أو للشك فيما أوحى إليه وخاصة أن سؤاله كان بـ (كيف) وهي لا تستعمل إلا مع السؤال عن الحال وسؤاله عن

(١) البحر المحيط ٢ / ٢٩٨ (بتصرف) .
(٢) الكشاف ١ / ٣٩١ (بتصرف) .
(٣) اللسان * كَطَمِنَ (بتصرف) .

الحال لا يعني عدم الإيمان لأنَّ السُّؤال عن كَيْفِيَّةِ الإِحياء لا يتنافى مع الإيمان مُطلقاً (١)

(وكَيْفِيَّةِ الإِحياء لا يشترط في الإيمان الإحاطة بها) (٢) .

ثمَّ لتتأمل هنا مجيئ جملته (لِيَطْمَئِنَّ) في هذا السَّيَاق بدلاً من جملة (لِيَسْكُنَ) مثلاً مع صحَّتها وأدائها المعنى نفسه .

ونرى في (لِيَطْمَئِنَّ) هنا من الجمال والتَّناسب ما لا يمكن أن يكون في القول (لِيَسْكُنَ) مثلاً ، وذلك لأنَّ الطَّمانينة هنا مطلوبة مع الإيمان فكلُّ منهما أمر معنويَّ يحتاج إلى الآخر ويطلبه .

أما لفظ (السَّكَنَ) ، فإنها لا تخلص للمعنوي بل يصحُّ أنْ تشتمل عليه وطمس

المأوى معاً وذلك في مثل قوله تعالى : (٣)

” اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً ”

وذلك لأنَّ المأوى مطلوب بالليل وضروريَّ وقوله : (٤)

” وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ”

فالسَّكَنَ والمأوى يكون حيثُ يكون الزوج .

وقوله : (٥)

” وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ” الآية .

وقوله تعالى :-

” وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ” تذييل على جملة الجواب المحذوفة المقدَّرة بقوله

” بلى آمنْتُ وصدَّقتُ ” .

وهو مما يجري مجرى المثل . فهو من الأمثال الكامنة في القرآن كما نعلم

والله أعلم

(١) روح المعاني ٢٦/٣ (بتصرف) .

(٢) نفسه ٢٦/٣

(٣) سورة غافر ، ٦١ .

(٤) سورة الروم ، ٢١ .

(٥) سورة النحل ، ٨٠ .

هـ ما يوافق من كلام البشر :-

لعلَّ المثل الذي ورد مطابقاً أو موافقاً لقوله تعالى :-

” أَوْلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لَيْطُمِئِنَّ قَلْبِي ” .

هو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :-

(ليس الخبر كالمعاينة) (١)

والخبر بالتحريك مفرد الأخبار ، والخبر ما أتاك من نبأ عن فتستخبر

والخبر أيضاً هو النبأ (٢) والجمع أخبار وأخبار جمع الجمع كذلك الخبر والخبر

والخبرة والخبرة والمخبرة والمخبرة كلها تعني العلم بالشيء (٣) .

والمعاينة : مأخوذة من العين وهي حاسة البصر والرؤية تكون للإنسان وغيره

من الحيوان (٤) .

والعين والمعاينة النظر وقد عاينه معاينة وعياناً وراه عياناً لم يشك في رؤيته

إياه . ورأيت فلاناً عياناً أي مواجهة . قال ابن سيده (ولقيه عياناً أي معاينة

وليس في كل شيء قيل مثل هذا الوقت لحاظاً لم يجز أنما يحكى من ذلك ماسمع

وتعينت الشيء أبصرتَه) (٥)

ذلك هو المعنى اللغوي للفظ الخبر وهذا هو معنى المعاينة ، ومن هذين

المعنيين بدا لنا الفرق بين الخبر وبين المعاينة ، فالخبر لا يكون الابحاسة السمع

والمعاينة لا تكون الابحاسة البصر وبهذا تكون المعاينة أوثق دليل على وجود

الشيء ومعرفة حقيقته ، لأن رؤية الشيء بالعين ومشاهدته أثبت له في النفس

من مجرد السماع عنه أو الإنباء به .

(١) المسند . أحمد ابن حنبل ١ / ٢١٥ ، ٢٧١ .

(٢) لا يقال عن الخبر نبأ إلا إذا كان عظيم الفائدة وله شهره وطلبه ظناً ، راجع فنى

ذلك المفردات للراغب ” نبأ ” .

(٣) اللسان ” خبر ” (بتصرف) .

(٤) اللسان ” عين ” .

(٥) نفسه ” عين ” .

لذا جاء الحديث الشريف مؤكدا لهذا المعنى في أسهل أسلوب وأقربه إلى الفهم ، لأن من الأحاديث الشريفة ما يؤكد آية من القرآن أو يفصلها بعد إجمال . وقد كان هذا الحديث الكريم مؤكدا للمعنى المثل الكامن في قوله تعالى :-

• **أُولَئِكَ تَأْمِنُونَ قَوْلَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لَيْطُمُنَّ قُلُوبَهُمْ** • (١)

ومع أننا نقول إن رؤية الشيء هي أوثق دليل على صحته إلا أننا يجب أن نلفت النظر إلى الأنباء الواردة من الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - والتي لم يشاهدها - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مشاهدة العين ، ومع ذلك يخبر بها بطريقة تدل على أنها في قوة الشيء المشاهد مشاهدة عينيه مثال ذلك ما جاء في قوله تعالى :- (٢)

• **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّكَ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ** •

وقوله تعالى :- (٣)

• **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ** •

وقوله :- (٤)

• **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ** •

فهذه الآيات ومثيلاتها من القرآن كلها تنبئ عن أخبار غيبية واردة من ذاته العلية - عز وجل - لم يرها رسوله الكريم - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ولكنه ينبأ بها بقوله : (أَلَمْ تَرَ) . وكأنه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رآها رؤية محسوسة مشاهدة لقوة صدقها وضرورة الإيمان بها إيمان من شاهدها .

(١) سورة البقرة ، ٢٦٠ .

(٢) سورة البقرة ، ٢٥٨ .

(٣) سورة الحج ، ١٨ .

(٤) سورة الفجر ، ٦ .

٦ - قال تعالى :- (١)

وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغماً كَثِيراً وَسَعَةً .

أ- المعنى العام :-

ورد هذا المثل الكريم ضمن قوله تعالى :-

” وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ” (١)

ومعنى المثل الكريم هو التَّغْيِبُ فِي الْهِجْرَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَكِ الْهِجْرَةُ الَّتِي قَدْ تَخْشَاهَا النَّفْسُ وَتَتَهَيَّبُ مِنْهَا الطَّبَاعُ لِمَافِيهَا مِنْ تَرْكِ الْوَطْنِ وَالْأَحْبَابِ ، وَلَكِنْ الْمَثَلُ الْكَرِيمُ يُوَضِّحُ ذَلِكَ لِمَوَاسَاةِ الْمُؤْمِنِينَ وَبَيَانُ أَنَّ الْهِجْرَةَ إِذَا كَانَتْ يَرْجُو مِنْهَا مَرْضَاةَ اللَّهِ وَالتَّقَرُّبَ إِلَيْهِ ، فَسَيَكُونُ لَهَا نَتِيجَةٌ سَعِيدَةٌ وَنَهَايَةٌ كَرِيمَةٌ وَهِيَ رِضَا اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَوْلَى شَمَّ الْأَجْرِ الْكَبِيرِ عَلَى ذَلِكَ مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ سَعَةِ الرِّزْقِ وَرِفَاةِ الْعَيْشِ وَذَلِكَ كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمِنْ مَعَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ الْأَجْلَاءِ رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ الَّذِينَ تَرَكُوا وَطَنَهُمْ وَكُلَّ مَا يَعْزُّ عَلَيْهِمْ فِيهِ إِلَى أَرْضٍ أُخْرَى لَيْسَ لَهُمْ عَهْدٌ بِهَا وَلَا بِأَهْلِهَا . . . وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ وَجَدُوا فِيهَا مِنَ الْمُنَاصَرَةِ وَالرِّزْقِ مَا لَمْ يَتَوَقَّعُوهُ أَوْ يَجِدُوهُ فِي أَرْضِهِمْ وَمَرَّتَ طِفْطِفَتُهُمْ وَذَكَرِيَاتُهُمْ .

والمثل الكريم - أو الآية كلها - تتحدَّث عن هذا الخبر الذي ينتظر المهاجر في سبيل الله .

وقيل إنَّ هذه الآية نزلت في أكرم بن صيفي (٢) وقد (اختلف في تأويل المُرَاغِم فَقَالَ مَجَاهِدُ الْمُرَاغِمُ الْمَتْرَحُحُ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ وَالرَّبِيعُ وَغَيْرُهُمْ الْمُرَاغِمُ الْمَتَحَوَّلُ وَالْمَذْهَبُ ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : الْمُرَاغِمُ الْمُهَاجِرُ وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ .

(١) سورة النساء ، ١٠٠ ، ٢
(٢) البحر المحيط ٣/٣٢٦ (بتصرف) .

قال النَّحَّاسُ فهذه الأقوال متَّفِقة المعاني ، فالمرَّاعم ، المذَّهَب والمتحسِّول ، وهو الموضِع الَّذِي يُرَاعَمُ فِيهِ وهو مشتَقٌّ من الرِّعَامِ وهو التُّرابُ (١) .
وبهذا يمكننا أن نأخذ من النَّصِّ السَّابِقِ أن المرَّاعِمَ اسم مكان وعبرَ عنه بذلك تأكيداً للتَّغْيِيبِ فِيهِ وذلك لما يمكن أن يكون فِيهِ للمهاجر من الرَّاحة والسَّعادة والاطمئنان
الأمر الَّذِي سيرغم أنف قومه الَّذين هاجروهم وترك ماكان يكرهه منهم من ذلِّ واضطهاد وهوان (٢) .

ومن هذا المنطلق نستطيع أن نقول إنَّ الآية الكريمة قد اشتطت على وَعْدِ مَنْ
اللَّهِ سبحانه وتعالى للمهاجرين في سبيله بتسهيل السَّبيل وسعة العيش لهم وتعويضهم
عما وجدوه من هَمِّ الغُرْبَةِ وعناء السَّفَرِ .

ب- مناسبتة في السِّيَاق :-

إذا علمنا أنَّ هذا المثل الكامن في الآية الكريمة قد ورد ضمن
الآيات المتحدِّثة عن أحكام القتال (٣) ، - إذا علمنا ذلك - أدركنا مدى اتِّصال
آية المثل بما قبلها وما بعدها في السِّيَاق من آيات ويبدو هذا الارتباط أشدَّ وضوحاً
ابتداءً من الآية الخامسة والتَّسعين إذ تبيَّن هذه الآية فضل المجاهدين في سبيل
اللَّهِ بأموالهم وأنفسهم على القاعدین غير أولي الضَّرر ، وتبيَّن الآية التَّالية مدى هذه
الأفضليَّة عنده - سبحانه وتعالى (٤) .

وبما أن الهجرة من بلد الشُّرك إلى بلد الإسلام تُعتبر مرحلة من مراحل الجهاد
انتقلت الآيات إلى الحديث عن أولئك الَّذين (٥) لم يهاجروا - كماهاجروا

-
- (١) الجامع لأحكام القرآن ١٩١٧/٣ كذلك فتح القدير ٥٠٥/١ (بتصرُّف) .
(٢) روح المعاني ١٢٧/٥ كذلك تفسير القرآن الحكيم (المنار) ٣٥٩/٥ (بتصرُّف) .
(٣) سورة النساء ٧١ - ١٠٤ .
(٤) سورة النساء ، ٩٦ .
(٥) سورة النساء ، ٩٧ قيل ان هذه الآية نزلت في قوم قد أسلموا في مكة ولم يهاجروا فلما كان يوم بدر خرجوا مع الكفار فقتلوا منهم قيس بن الفاكه والحارث ابن زمعه ، وقيس بن الوليد بن المغيرة وعطى بن أميَّة بن خلف ، فضلا انظر في ذلك تفسير ابن جزى ١٣٢ .

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم خرجوا يوم بدر مع الكفار فقتل منهم من قتل واعتذروا عما وجدوه من توبيخ الملائكة لهم لأنهم كانوا مستضعفين في أرضهم وهمو اعتذار لاحق فيه لذا ستكون نهايتهم جهنم وساءت مصيراً ، أما أولئك الذين كان لهم عذرهم حقاً في عدم الهجرة فلا إثم عليهم (١) .

ثم تأتي الآية التالية وهي الآية التي تضمنت المثل الكريم لترغب في الهجرة وتبين ما ينتظر المهاجر في سبيل الله من خير وسعة في الرزق (٢) ، ثم تليها الآية المبيّنة لأجر المهاجر في سبيل الله والذي يدركه الموت قبل أن يصل إلى دار الهجرة فقد أصاب أجر المهاجر ابتغاء مرضاة الله ورسوله (٣) .

وهنا تبدد ومناسبة المثل لما لحق به من آيات كريمات إذ توالى الآيات بعد ذلك في بيان كيفية الصلاة (٤) إذا ضرب المسلمون في الأرض وخرجوا إلى الجهاد في سبيل الله تعالى ، إذ صرح لهم بالقصر فيها ثم بدأت الآيات في تفصيل صلاة الخوف والتبئيه على ضرورة الذكر الدائم لله - سبحانه وتعالى - بعد قضاء الصلاة وفي كلى الأحوال .

أما إذا زال الخوف وتمّ الاطمئنان وعادت الأحوال إلى طبيعتها فلا بد أن تنجم الصلاة بعد ذلك على هيئتها المعموده لفرضها ووجوبها (٥) .

وتؤكد الآية التالية على ضرورة الصبر على مقاتلة الأعداء وإن أصاب المؤمنين مكروه ، لأنهم مصابون مثلهم ولكن شتان بين ما يرجوه المؤمنون من الله وبين ما يرجوه الكافرون من الطاغوت (٦) .

وهكذا بدأ لنا الارتباط الوثيق بين آية المثل وبين ما لحق به من آيات فسى السورة الكريمة .

(١) سورة النساء ٩٩ . قال ابن عباس كت أنا وأبي وأمي ممن عنى الله بهذه الآية .

(٢) سورة النساء ، ١٠٠ .

(٣) سورة النساء ، ١٠١ .

(٤) هي صلاة الخوف وهي الصلاة التي تكاد تكون الوحيدة التي فصلت في القرآن الكريم .

(٥) سورة النساء ١٠٢ - ١٠٣ .

(٦) سورة النساء ، ١٠٤ .

أما عن ارتباط المثل بما جاء بعده في الآية الكريمة فيبدو من خلال ذكر السياق للأجر الذي ينتظر المهاجر في سبيل الله إذا أدركه الموت وهو في طريقه إلى الأرض التي كان متوجّها إليها وهو نفس الأجر الذي كان مقدّراً له لو طال به الأجل ووصل إلى دار الهجرة والله أعلم .

ج- العبرة منه :-

لعلّ أفضل درس يجب أن يأخذه المؤمن من هذه الآية هو عدم اليأس والقنوط من رحمة الله عز وجل - لأنها - واسعة شاملة ليس لها أبعاد أو حدود . فنصر المؤمن أوسع رزقه وحسن معيشته ليس مرتبطاً بالوطن الذي ولد فيه أو الذي قضى فيه مع ذويه كلّ ما مضى من حياته وليس متعلّقاً برضا من يعيشر حوله من الناس بل كلّ ذلك أولاً وأخيراً بيد الله - سبحانه وتعالى - الذي خلقه وتكفل برزقه أينما توجه وحيثما حلّ .

قال تعالى :- (١)

”وَكَايِنَ مِّنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ“

كما قال تعالى :- (٢)

”وَمِمَّنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ الْأَعْلَىٰ اللَّهُ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلِّ فِيمِنِ كِتَابٍ مُّبِينٍ“

لاسيما إذا كان هذا الإنسان متقياً لله جلّ وعلا - في سيره أو اتّجاهه هذا

قال تعالى :- (٣)

”وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ“

كما يستدّ هذا الرزق أيضاً للمهاجر في سبيل الله تعالى إلى ما بعد موته قال تعالى :-

-
- (١) سورة العنكبوت ، ٦٠ .
(٢) سورة هود ، ٦ .
(٣) سورة الطلاق ، ٢ ، ٣ .

• وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قَاتَلُوا أَوْ مَاتُوا ، لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا
حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ، لِيُدْخِلَنَّهُمْ مَدِينًا خَالِدًا يُرْضَوْنَهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (١)

هذه هي العبرة التي يمكن أن تؤخذ من الآية الكريمة بشأن الجهاد والهجرة
في سبيل الله ، ولكن هنا لك عبرة أعظم يجب أن يتنبه لها كل مسلم ، وهي عدم
اليأس من رحمة الله في جميع الأحوال ، وعدم الرضا بالذل والهوان مهما كلفه ذلك

من جهد وصبر قال تعالى : - (٢)

• وَمَنْ يَقْنَطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ •

وقال تعالى : - (٣)

• إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنَ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ •

وعن المرء أيضا أن لا يأخذ بظواهر الأشياء ، فقد يكره المرء شيئا ويجعل

الله فيه خيرا كثيرا وقد يحب شيئا آخر ولا يعلم ما يختفى وراءه من شر قال تعالى (٤)

• فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا •

وقال أيضا : - (٥)

• وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ •

وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ •

تلك هي العبرة التي بدت لنا من خلال تأمل المثل الكريم - واللّه - سبحانه

وتعالى - أعلم بما خفي منها .

(١) سورة الحج ٥٨ - ٥٩ .

(٢) سورة الحجر ، ٥٦ .

(٣) سورة يوسف ، ٨٢ .

(٤) سورة النساء ، ١٩ .

(٥) سورة البقرة ، ٢١٦ .

د- دراسته وتحليله بيانياً :-

لنعد هنا مرة أخرى إلى نصّ المثل الكريم :-

قال تعالى :-

"وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مَرَاغماً كَثِيراً وَسَعَةً".

(١)

من هنا اسم شرط وفعله (يُهَاجِرُ) أما جوابه فهو قوله تعالى (يَجِدُ . .) وقوله : (يُهَاجِرُ) من هَجَرَ و الهَجْرُ ضِدُّ الوَصْلِ والاسم منه الهِجْرَةُ والهُجْرَةُ وهي الخروج من أرض إلى أرض والمُهَاجِرَةُ عند العرب هي خروج البدوي من باديته إلى المدن وكذلك كلُّ مُخَلِّ لِمَسْكَنِهِ منتقل إلى قوم آخرين بُسِكَاه ، يُقال عنه هَاجَرَ قَوْمَهُ .

وقد سُمِّيَ المُهَاجِرُونَ بذلك لأنَّهم تركوا منازلهم ومساكنهم التي نشأوا بها لله ولحقوا بدارٍ أخرى ليس لهم بها أهل ولا مال حين هاجروا إلى المدينة وهكذا يُعتبر كلُّ من ترك بلدة من بدويٍّ أو حضريٍّ إلى بلدٍ آخر يسمي مُهَاجِراً (٢) .
وقوله :-

(فِي سَبِيلِ اللَّهِ) تدلُّ على أَنَّ الهِجْرَةَ ينبغي أن تكون لوجه الله وابتغاء مرضاته - سبحانه - ونأياً عن موطن الإِشْرَاقِ به ومجرّدة من أي غرض دنيويٍّ لتكون نتيجةها رُغْمَ أنْفِ الأعداء ، ولئَلَّهم بسعادة المُهَاجِرِينَ فِي المَكَانِ الَّذِي هَاجَرُوا إِلَيْهِ وبسعة رزقهم فيه ، تلك السَّعة التي ستكون سبباً في سعة صدورهم بفلسفها ومآكان فيها من الآم الذُّلِّ والهوان في وطنهم الأول قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :-
(الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَانُوِيٌّ فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ . وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ) (٣)

(١) الجامع لأحكام القرآن ١١١٧/٣ (بتصرف) .

(٢) اللسان ، " هجر " (بتصرف) .

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١١١/١ ، وثمة رواية أخرى في أول الصحيح تقول " إنما الأعمال بالنيات الخ " .

والمُراغِم من الرِّغْم والرُّغْم وهو الكُرْهُ والمُرغَمَةُ مثله قيل إنَّ رسولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - بُعِثَ مرغمةً أبي هواناً وذلًّا للمشركين (١) .

ورغبتُ السَّائمةِ المرعى أي أنفته وكرهته .

الرِّغْم : التُّراب ، الرِّغْم السَّدُّ .

وقيل وإن رَغْمَ أنفه ، أي : ذلًّا ، وأرغَمَ أهله وراغَمَهُم : هجرَهُم ، وراغَمَ قومه : نبذَهُم وخرج عنهم وعاداهم .

والمُراغَم : السَّعةُ والمضطرب وقيل : المذهب والمهرب في الأرضي (٢) .

(وقال أبو اسحاق في قوله تعالى " يَجِدُ فِي الْأَرْضِ مُرَاغِمًا ") مُهاجراً والمعنى :

يجد في الأرض مُهاجراً ، لأنَّ المُهاجر لِقومه والمُراغِم بمنزلة واحدة وان اختلف اللفظان وأنشد :-

إلى بلدٍ غيرِ داني المَحَلِّ * * بعيدِ المُراغِمِ والمُضطربِ

قال وهو مأخوذ من الرِّغَام وهو التُّراب وقيل مُراغماً مضطرباً وبعيدُ مُراغِم أي مضطرب

على مواليه) . (٣)

وخلاصة ما سبق أنَّ المُهاجر في سبيلِ اللَّهِ ، سيجد مكاناً يسكن فيه رَغْم أنف

قومه الذين هاجرهم .

وقيل هي السَّعة في الرِّزْق وقيل سعة من الضَّلالة إلى الصَّهدى ومن القِلَّة إلى

الغنى وقيل : سعة البلاد (٤) .

و (قال ابن عطية والشَّبه لفصاحة العرب أن يريد سعة الأرض وكثرة المعامل

وبذلك تكون السَّعة في الرِّزْق واتساع الصَّدر عن همومه وفكره وغير ذلك من وجوه الفرح

ونحو هذا المعنى قول الشاعر :-

لَكَانَ لي مُضطرباً واسعاً * * في الأرضِ ذاتِ الطولِ والعرضِ (٥)

(١) اللسان " رَغْم " . (بمصرف) .

(٢) اللسان " رَغْم " (بمصرف) .

(٣) نفسه . " رَغْم " .

(٤) البحر المحيط ٣/٣٦٦ (بمصرف) .

(٥) نفسه . وهذا البيت من الحماسية ٦٨ ص ٢٨٧ لخطاب بن المعلّى . (المعجم للبهاري) .

ونلاحظ هنا أَنَّ القَوْلَ (مُرَاعِماً) جاءَ في السِّيَاقِ قَبْلَ قَوْلِهِ (سَعَةً) لِأَنَّ . .
السَّرُورَ والابْتِهَاجَ بِذَلِكَ الأَعْدَاءِ وَرَغْمَ أنْفُسِهِمْ بِهَذِهِ السَّعَادَةِ الَّتِي يَلْقَاهَا فِي هِجْرَتِهِ
أَشَدُّ وَقِعاً عَلَى نَفْسِهِ مِنْ ابْتِهَاجِهِ بِالسَّعَةِ الَّتِي يَلْقَاهَا فِي مَكَانِ هِجْرَتِهِ الجَدِيدِ .
كَذَلِكَ نَلَاظِحُ نَكْسَةَ بِلَاغِيَّةٍ فِي تَتْكِيرِ القَوْلِ (سَعَةً) وَذَلِكَ لِتَعْظِيمِ شَأْنِ تِلْكَ
السَّعَةِ وَلِتَذْهَبَ بِهَا النَفْسُ كُلَّ مَذْهَبٍ مِنْ الاحْتِمَالِ الحَسَنِ .

هـ - ما يوافقُه من كلامِ البشْرِ :-

لعلَّ المثلَ البشْريَّ الموافقَ للمثلِ الكَامِنِ فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ السَّابِقَةِ هُوَ

قَوْلُهُمْ :- (فِي الحَرَكَاتِ البَرَكَاتِ) (١) .

وَنَرَى أَنَّ المثلَ الَّذِي هُوَ أَقْرَبُ إِلَى المثلِ الكَامِنِ فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ هُوَ قَوْلُ الخَلِيفَةِ

عمرِ بْنِ عبدِ العَزِيزِ - رَحِمَهُ اللهُ -

(٢)

(فِي اللهِ عَوْضٌ عَنِ كُلِّ فَائِتٍ)

فَإِنَّ فَاتَ الْإِنْسَانِ وَطَنَهُ وَمرْتَعِ صِبْيَانِهِ وَأَهْلَهُ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَعْوِضُهُ عَنِ ذَلِكَ سِوَى

اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ؟ !

لَا شَكَّ أَنَّهُ جَلٌّ وَعَلَا هُوَ خَيْرٌ مَعْوِضٌ لِلْمُهَاجِرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ - إِنْ شَاءَ اللهُ -

العَوْضُ : يَدُلُّ عَلَى بَدْلِ الشَّيْءِ (وَالْفِعْلُ مِنْهُ العَوْضُ ، قَالَ الخَلِيلُ عِوَضُ

يَعْوِضُ عَوْضاً وَعِوِاضاً ، وَالاسْمُ العَوْضُ ، وَالْمُسْتَعْمَلُ التَّعْوِيشُ (٣) ، نَقُولُ عَوَّضْتَهُ

مِنْ هَيْبَتِهِ خَيْراً) (٤)

فَائِتٌ : - اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ فَاتٍ . وَأَصْلُهَا الفَاءُ وَالْوَاوُ وَالتَّاءُ (فَوَتٌ) (وَهُوَ مَا يَدُلُّ

عَلَى خِلَافِ إِدْرَاكِ الشَّيْءِ وَالْوَصُولِ إِلَيْهِ يُقَالُ : فَاتَهُ الشَّيْءُ فَوْتاً . أَيْ لَمْ يَدْرِكْهُ) (٥)

(١) هَذَا مَا جَاءَ فِي كِتَابِ الإِتْقَانِ لِلسِّيَوطِيِّ ١٣٢/٢ .

(٢) مَجْمَعُ الأَمْثَالِ ٤٥٣/٢ .

(٣) أَيْ الَّذِي كَثُرَ اسْتِعْمَالُهُ ، هُوَ عَوْضُهُ لِأَعْضَاهِ .

(٤) مَقَابِيِسُ اللُّغَةِ ، "عَوْضٌ" .

(٥) نَفْسُهُ "فَوْتٌ" .

ونلاحظ هنا سمو المثل القرآني على غيره لمافيه من نواحٍ بلاغيةٍ أشير إليها
في موضعها فضلاً عن الترغيب الواضح في الهجرة في سبيل الله تعالى بما أوضحه
المثل الكريم من الخير الذي ينتظر المهاجر في سبيله عز وجل .

وساجاً موافقاً لهذا القول الكريم المؤيد للهجرة قول الشنفرى :-
(١)
وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى * * * وفيها لمن خاف القلى متمزلاً
لعمرك ما بالأرض ضيق على اسرى * * * سرى راغباً أوراهاً وهو يعقل (٢)

ويقول المتنبي :-

إذا ترحلت عن قومٍ وقد قدروا * * * أن لا تفارقهم فالراجلون هم (٣)

وقول الشاعر :-

بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنا * * * بالرقمتين وبالفسطاط اخواني .
وما أظن النوى ترضى بما صنعت * * * حتى تشافه بي أقصى خراسان
خلقت بالأفق الغربي لي سكناً * * * قد كان عيشي به حلواً بحلوان (٤)

إلى أن يقول :-

نوى بكل يالدران حلت بهما * * * أهلاً بأهلٍ وخلصناً بخيلان
ويقول الإمام الشافعي رحمه الله أيضاً :-

تغربت عن الأوطان في طلب العلا * * * وسافر فبي الأسفار خمس فوائد
تفرج لهم واكتساب معيشة * * * وعلم ، وآداب ، وصحة ماجد (٥)

(١) القلى : شدة البغض .

(٢) الشنفرى شاعر الصحراء الأبي . دراسة فنيه . د . محمود حسن أبو ثاجي

١٢٥ ، مؤسسة علوم القرآن . دمشق ط ٣ سنة ١٩٨٤ م .

(٣) ديوان المتنبي ٣ / ٣٧٢ .

(٤) ديوان أبي تمام ، قدم له الأستاذان . عبد الحميد يونس ، وعبد الفتاح مصطفى

٢٤٥ ط ١٩٤٢ م مكتبة محمد علي صبيح وأولاده . الأزهر .

(٥) ديوان الشافعي - تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ص ٧٤ ط ٢ سنة ١٩٨٥ م ،

مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة .

ومن أقواله أيضا :-

ما في المقام لذي عقلٍ وذي أدبٍ * * من راحةٍ فدع الأوطانَ واغترِبْ
سافرَ تجدَّ عوضاً عن تفارقِـه
وانصبْ فإن لذيذَ العيشِ في النَّصبِ
اني رأيتُ وقوفَ الماءِ يُفسدُه * * إن ساحتَ طابَ وإن لم يجرلم يَطب
والأسدُ لولا فراقُ الأرضِ ما فترستُ
والسهمُ لولا فراقُ القوسِ لم يُصبِ (١)

ولعلنا هنا ونحن بصدد الحديث عن الهجرة والحركة والانتقال وما في هذه الحركات من البركات ، لعلنا نتذكر ما يلزم ذلك من الجد في طلب الحاجة ، إذ أن - حاجة المؤمن - بلاريب - أن يكون حيث وجد الإيمان بالله ورفع كتمته والمحافظة على حدود شريعته ، وليس له حاجة على الإطلاق للإقامة في مكان لا يذكر فيه اسم الله أولا ترفع فيه كتمته عالية . . حتى وإن كان ذلك المكان هو وطنه الأول وصقسط رأسه ونوبه وقد ضربت أشلة كثيرة في مجال الجد في طلب الحاجة نذكر منها هنا مثلاً :-

ماروي (عن أبجر بن جابر العجلي أنه قال فيما أوصى به ابنه حجاراً :-
يابني اياك والسامة في طلب الأمور فتقذفك الرجال خلف أعقابها) (٢)
ومن أمثالهم إذا أمر الرجل بالجد في الأمر :-
(جَمَعْ لَهُ جِرَامِيْرَكَ) (٣)

-
- (١) ديوان الصنّاف في ٥٤ - ٥٥
(٢) كتاب الأمثال . أبو عبيد بن سلام ٢٣٠ تح د . عبد المجيد قطامش . دار
المأمون للتراث ، مركز البحث العلمي والتراث الاسلامي . كلية الشريعة بمكة .
(٣) مجمع الأمثال ٢٩٦/١ ، وجراميز الرجل جسده وأعضاؤه ، ويقال جمع
جراميزه إذا انقبض ليثيب ، وقيل ضم فلان ، اليه جراميزه أي إذا رفع ما انتشر
من ثيابه ثم مضى . اللسان (جرمز) (بتصرف) .

كذلك يقال في مثل هذا المجال :-

(قد ضرب عليه جرّوته) (١) . كذلك قولهم :

(شدّ له حُزيمُهُ) (٢)

هذه بعض الأمثلة الواردة في ضرورة الجدّ في طلب الحاجة والحزم في تنفيذ ما عزم عليه المرء من أمر ، أي أمر كان - فمابالنا بأمر الهجرة من بلد الشرك إلى بلاد الإسلام الهجرة من مكان ليس فيه ذكر لله عزّ وجلّ ولا احترام لحدوده إلى مكان فيه القدرة على تنفيذ الطّاعات وإقامة الحدود الشرعيّة .

لا شكّ أنّ مثل هذا الأمر من أهمّ الأمور التي ينبغي أن يشدّ فيها المؤمن حزمه ويضرب عليه جرّوته مع عدم السّامة في ذلك مهما كلفه هذا الأمر من مشقة وعناء لأنّ في ذلك راباه للضمّ ورفعاً للظلم وقد قيل في ذلك :-

لَا تَأْخُذْ نَصِيماً وَتَقْبَلْ ضُؤْلَةً * * * وَمَوْعِ بِهَا حَرّاً وَجِدْكَ أَمْلَسُ
فَمَا النَّاسُ إِلَّا مَارَأَوْا وَتَحَدَّثُوا * * * وَمَا الْعِزُّ إِلَّا أَنْ يُضَامُوا فَيَجْلِسُوا (٣)

وقال زهير بن جناب الكلبى :-

(٤) لا يَمْنَعُ الضَّمُّ إِلَّا مَا جَدَّ بَطُؤُ . * * * إِنْ الْكَرِيمَ كَرِيمٌ حَيْثُ مَا كَانَا

وقال آخر :-

(٥) مَتَى تَجْمَعُ الْقَلْبَ الذِّكْرُ وَصَارِمًا * * * وَأَنْفًا حَمِيًّا تَجْتَنِبُكَ الْمَطَالِمُ
هذا بعض ما قيل في الأنفة والإباه . . . فعلى المرء أن لا يرضى بالذل والهوان خاصة إذا كان في أنفته حماية للدين وإعلاء لكلمة الله عزّ وجلّ

(١) كتاب الأمثال ٢٣٠ ، والجرو والجروة . الصّغير من كلّ شيء حتى الحنظل

والبطّيح والرمان . . . الخ .
والجروة : النفس ويقال للرجل إذا وطن نفسه على أمر ضرب لذلك الأمر جرّوته

أى : صبر له ووطن عليه وضرب جرّوة نفسه . اللسان ، (جرا) .

(٢) كتاب الأمثال ٢٣٠ . والحزم ضبط الإنسان أمره والأخذ فيه بالثقة ويكنى عن

الإستعداد للأمر النّهشجر له بقولهم - شدّت لهذا الأمر حزمي فضلاً انظر

اللسان : (حزم) .

(٣) الحماسة . أبوعبادة البحتري ص ١٨ ضبط وتعليق كمال مصطفى ط ١ سنة ١٩٢٦ م

المكتبة التجاريه الكبرى . الأبيات للمتلمس الصّبعيّ .

(٤) نفسه ص ١٩ .

(٥) نفسه ص ٢٠ والأبيات لعمر بن براقه الهمداني .

٧ - قال تعالى :-

« مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِبْهُ » (١)

أ- المعنى العام :-

قيل في سبب نزول قوله تعالى :- (١)

« لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِبْهُ وَلَا يُجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا »

قيل إن سبب نزول هذه الآية هو أن أهل الكتاب قالوا : لا يدخل الجنة غيرنا
وقالت قريش إنا لا نبعث؛ فأنزل الله هذه الآية (٢) .

وقيل (٣) إن النصارى وأهل الإسلام تفاخروا فقال هؤلاء نحن أفضل منكم
وقال هؤلاء نحن أفضل منكم ، فأنزل الله « لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلُ الْكِتَابِ » الآية .

وقيل تفاخر أهل الأديان ، وفي لفظ جلس ناس من اليهود وناس من النصارى
وآخرون من المسلمين فقال هؤلاء نحن أفضل ، وقال هؤلاء نحن أفضل فنزلت الآية .

هذا عن سبب نزول الآية الكريمة ، أما عن تأويل لفظ السوء ، فقد جاء

أن المقصود به في هذا الموضع هو الشرك فيكون تأويل قوله تعالى :-

« مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِبْهُ » أي (من يشرك بالله يُجْزِبْهُ بشركه ولا يجد من دونه

وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) (٥) .

وقيل عني بالسوء كل معصية لله ، وقالوا معنى الآية :-

من يرتكب صغيرة أو كبيرة من مؤمن أو كافر من معاصي إلهه بها (٦)

-
- (١) سورة النساء ، ١٢٣ .
(٢) لباب النقول في أسباب النزول - جلال الدين السيوطي . ص ٩٤ تح وتعليق
قرني أبو عميرة ط . (بدون) مكتبة نصير (بتصرف) .
(٣) نفسه ص ٩٤ (بتصرف)
(٤) نفسه ص ٩٤ .
(٥) جامع البيان عن تأويل أي القرآن ٢٩٣/٥ .
(٦) نفسه ٢٩٢/٥ (بتصرف) .

وَالَّذِي يَذْهَبُ إِلَيْهِ الطَّبْرِيُّ بَعْدَ ذِكْرِ التَّأْوِيلَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ لِآيَةِ هُوَ مَا ذَكَرَهُ عَنِ
عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ وَعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (وَهُوَ أَنَّ كُلَّ مَنْ عَمِلَ سُوءًا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا
مِنْ مَوْءُونَ أَوْ كَافِرٍ جُوزِي بِهِ) (١) .

وَذَلِكَ لِعَمُومِ اللَّفْظِ فِي الْآيَةِ دُونَ تَخْصِيصِ أَوْ اسْتِثْنَاءِ (٢) وَلَعَلْنَا هُنَا نَذْهَبُ
إِلَى نَفْسِ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الطَّبْرِيُّ وَالشُّوكَانِيُّ وَهُوَ أَنَّ الْمَقْصُودَ بِعَمَلِ السُّوءِ أَيُّ سُوءٍ كَانِ
وَلَيْسَ الشَّرْكَ فَحَسَبَ ، وَكَذَلِكَ الْمَقْصُودُ بِقَوْلِهِ :-

(مَنْ يَعْمَلُ سُوءًا) هُوَ كُلُّ مَنْ يَعْمَلُ السُّوءَ سُوءًا أَكَانَ مُسْلِمًا أَمْ كَافِرًا ذَكَرًا

أَوْ أُنْثَى بِدَلِيلِ مَا جَاءَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ إِذْ قَالَ تَعَالَى :- (٣)

”فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ“

هَذَا مِنْ جَانِبٍ وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ ، فَإِنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مَا تَرَجَّفَ لَهُ الْقُلُوبُ
الْمُؤْمِنَةُ مِنَ الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ ، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّهَا نَزَلَتْ وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَا أَقْرَبُكَ
آيَةٌ نَزَلَتْ عَلَيَّ ؟ فَقَالَ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَقْرَبْنِيهَا وَقَالَ فَلَا أَعْلَمُ إِلَّا أَنِّي وَجَدْتُ انْقِصَامًا
فِي ظَهْرِي حَتَّى تَمَطَّأْتُ لَهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :-

مَالِكُ يَا أَبَا بَكْرٍ ؟ قُلْتَ يَا أَبَا أَنْتَ وَأَبِي يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَيْنَا لَمْ يَعْمَلِ السُّوءَ ؟ وَإِنَّا

لَمَجْزِيُونَ بِكُلِّ سُوءٍ عَلِمْنَا فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَمَا أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ يَا أَبَا بَكْرٍ
الْمُؤْمِنُونَ فَتَجْزُونَ بِذَلِكَ فِي الدُّنْيَا حَتَّى تَلْقَوْا اللَّهَ تَعَالَى لَيْسَ عَلَيْكُمْ ذُنُوبٌ ، وَأَمَّا
الْآخَرُونَ فَيَجْمَعُ لَهُمْ ذَلِكَ حَتَّى يُجْزَوْا يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٤) .

وَقَدْ رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ
وَبَلَغَتْ مِنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ فَشَكَّوْا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ

(١) جَامِعُ الْمَعَانِي ٢٩٣/٥

(٢) نَفْسُهُ (بِتَصْرُفٍ) كَذَلِكَ فَتَحَ الْقَدِيرُ ١/٥١٨ (بِتَصْرُفٍ) .

(٣) سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ ٢ - ٨ .

(٤) رُوحُ الْمَعَانِي ٥٢/٥ (بِتَصْرُفٍ) .

عليه الصلاة والسلام :-

” قَارِبُوا وَسَدِّدُوا فِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ السَّلْمُ كَفَّارَةً حَتَّى النَّكْبَةِ يَنْكَبُهَا
أَوْ الشُّوْكَةَ بِشَاكِبِهَا ” (١)

ب- مناسبتها في السِّيَاق :-

تبدو مناسبة هذه الآية الكريمة في السِّيَاق بقراءة الآيات السابقة
لها من السُّورَةِ الكريمة ثُمَّ اللَّاحِقَةِ بِهَا من نفس السُّورَةِ ، أَمَا مناسبتها لما قبلها من
آيات ، فنلاحظ أنَّ هذا الارتباط يبدأ ببداية الآية القائلة :-

” إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ
خَصِيمًا ” (٢).

إذ نلاحظ أنَّ هذه الآية تبيِّن ضرورة أن يُتَّخَذَ الْحُكْمُ من كتاب الله أساساً ومنهجاً
للحكم بين النَّاسِ وعدم اتِّبَاعِ الظَّنِّ أو الهوى في أيِّ أمر . . . وعلى من يفعل ذلك
أن يستغفر الله لأنه هو وحده صاحب الرَّحْمَةِ والغُفْرانِ وعليه كذلك ألا يجادل عن
الَّذِينَ ظَلَمُوا أنفسهم بالمعاصي ، وارتكاب الخطايا لأنه سبحانه وتعالى لا يرضى عن أبي
مُفْرِطٍ فِي الخيانة مصرّ عليها منهمك فيها من أمثال أولئك الَّذِينَ يَسْتَتِرُونَ من النَّاسِ
حياً ولا يخافون الله الَّذِي هو أحق بالخوف والاستحيا ، لأنه معهم عالم بهم محيط
بأحوالهم (٣) ثم ذكر سبحانه أنهم إذا جادلوا عن الخائنين في الدنيا فمن ذا الَّذِي
يجادل عنهم يوم القيامة ، وأن من يعمل سوءاً ويستغفر الله ولا يرم به بريئاً يغفر
الله له ، ومن يعمل سوءاً ثم يرم به بريئاً ، فقد أضف إلى اسمه ما هو أشدُّ سوءاً
وشناعة منه (٤).

(١) صحيح مسلم . شرح النووي ١٦ / ١٣٠ ، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه ط — ٢
سنة ١٩٧٢ م دار الفكر . بيروت .

(٢) سورة النساء ، ١٠٥ .
(٣) من أمثال ذلك ما حدث للساسارق من بني أبيرق والذي أخفى الدرع التي سرقها
في حفرة تحت التراب فنزلت الآية ” يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ ”
الآية ، سورة النساء ١٠٨ .
(٤) سورة النساء ١٠٥ - ١١٢ .

ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَوْلَا فَضْلُهُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَأَضَلَّوهُ بِذَلِكَ
وَلَكِنَّهُمْ لَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ، وَإِنْ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالْكِتَابِ
وَالْحِكْمَةِ وَعِلْمِهِ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ فَعَظُمَ بِذَلِكَ فَضْلُهُ عَلَيْهِ وَكَرَمَهُ (١) .

ثُمَّ بَيَّنَّ السِّيَاقُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي نَجْوَاهُمْ وَأَحَادِيثِهِمْ إِلَّا إِذَا كَانَ ذَلِكَ فِي
صَدَقَةٍ أَوْ أَمْرٍ مَعْرُوفٍ وَنَهْيٍ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ ذَلِكَ ابْتِغَاءً
مَرْضَاةَ اللَّهِ وَفَضْلَهُ فَسَوْفَ يُلْقَى أَجْرًا عَظِيمًا ، أَمَّا مَنْ يَشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ
لَهُ الطَّرِيقَ الْحَقَّ ، فَسَوْفَ يُتْرَكُ لِمَا تَوَلَّاهُ مِنَ الضَّلَالِ وَتَكُونُ نَهَايَتُهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ
الْمَصِيرُ ، لِأَنَّهُ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ بِمَشِيئَتِهِ
وَغَوْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ مَنْ قَبَّحَ شُرَكَاهُمْ
أَنَّهُمْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً كَاللَّاتِ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ وَيَتَّبِعُونَ شَيْطَانًا يَفْضُلُهُمْ وَيَزِينُ
لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَيَجْنِيهِمْ وَيَعِدُّهُمْ بَعْدَ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ ، وَما يَعِدُّهُمْ إِلَّا غُرُورًا
وَبِذَلِكَ لَا تَكُونُ نَهَايَتُهُمْ إِلَّا جَهَنَّمَ وَلَيْسَ لَهُمْ عَنْهَا مَهْرَبٌ أَوْ مَحِيصٌ . (٢)

وَفِي الْمَقَابِلِ يَأْتِي الْحَدِيثُ عَنْ مَصِيرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِذْ يَعْدُهُمْ
(٣)
سُبْحَانَهُ بِالْجَنَّةِ الْوَاسِعَةِ وَالْأَنْهَارِ الْجَارِيَةِ مَعَ الْخُلُودِ فِيهَا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ وَعَدًّا .
وَهُنَا تَأْتِي مَنَاسِبَةُ الْآيَةِ لَمَّا قَبْلَهَا ، إِذَا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّ دُخُولَ الْجَنَّةِ
الْمَذْكُورَةَ وَحَسَنَ الْجَزَاءِ فِي الْآخِرَةِ لَيْسَ مَقْصُورًا عَلَى أَمَانِيِّ الْمُسْلِمِينَ أَوْ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ أَوْ شُرَكَائِ الْعَرَبِ وَإِنَّمَا ذَلِكَ مُرْتَبِطٌ بِعَمَلِ كُلِّ عَامِلٍ مِنْهُمْ فَمَنْ يَعْمَلُ سُوءًا فَسَيَلْقَى
جَزَاءَهُ حَتْمًا سِوَاهُ أَكَانَ ذَلِكَ الْجَزَاءُ فِي الدُّنْيَا أَوْ فِي الْآخِرَةِ .

• وَلَوْلَا يَجِدُ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا • (٤)

أَمَّا مَنَاسِبَةُ هَذَا الْمَثَلِ لِمَا بَعْدَهُ فِي السِّيَاقِ فَتَبَدُّوْهُ فِي أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ
أَنَّ مَنْ يَعْمَلُ صَالِحًا سِوَاهُ كَانَ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى وَقَلْبُهُ عَامِرٌ بِالْإِيمَانِ فَانْجَزَاهُ هَذَا تَلْكَ

(١) سُورَةُ النَّسَاءِ ١١٣ .

(٢) سُورَةُ النَّسَاءِ ١١٤ - ١٢١ .

(٣) سُورَةُ النَّسَاءِ ١٢٢ .

(٤) سُورَةُ النَّسَاءِ ١٢٣ .

الجَنَّةَ الموعودة دون أن ينقص من ثواب تلك الأعمال الصَّالحات (١) .
ثم يعقَّب السِّياق على ذلك بتزيين خير الأعمال لمن يتبعها ألا وهي إخلاص
العِبادة وتفويض الأمر له سبحانه وتعالى وأتباع ملة ابراهيم صلوات الله وسلامه عليه
لما فيها من الاستقامة والرِّشاد ، ولم لا يكون ذلك هو أفضل الأعمال والله سبحانه
وتعالى كلُّ ما في السموات وما في الأرض لا يخرج عن ملكوته شيء منها فيجازي كلاً
بموجب عمله سواء كان خيراً أو شراً (٢) .

ج- العبرة منه :-

تبدو العبرة من هذا المثل بتأمل الآية الوارد فيها وهي قوله تعالى :-
"لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِبْهُ وَلَا يُجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا" (٣) .
فالسِّياق في الآية الكريمة كما يبدو يأتي بتعبير واضح دقيق عما تُكنه نفس كـسـل
انسان قد عمل عملاً سيئاً ، إذ تخيّل له نفسه وأمانيه أن ذلك العمل السيء سوف
يمردون أن يجازي عليه إما لطول الأمد وتأجيل ذلك الجزاء في الآخرة له و ذلك
بالنسبة إلى الكافر . . وإما لظنّه أن ما يصيبه في الدنيا من متاعب وأحزان إنما
هي من عادات الأيام وليس بسبب ما عمل من سوء وذلك بالنسبة للمؤمن (٤) .
نقول إن هذا التعبير (لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ) قد كان واضحاً ودقيقاً في بيان
ما يمكن أن تحمله نفس كل مسيء من الأمانى الباطلة التي تعد صاحبها كل ما يوقعه
في المهالك .

-
- (١) سورة النساء ، ١٢٤
 - (٢) سورة النساء ، ١٢٥ - ١٢٦
 - (٣) سورة النساء ، ١٢٣
 - (٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢٩٥/٥ (بتصرف) كذلك إرشاد العقول
السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٢٣٥/٢ (بتصرف) .

لذا يجب أن تؤخذ العبرة من هذا النفي الصريح والتعبير الواضح الدقيق وهي
أن الأمانى ليست كافية لمحو آثام المسيء بل لا تشكل أي عامل في ذلك بل من يعمل
مقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مقال ذرة شراً يره ، ومن يفعل سوءاً لا يجسد
الا السوء جزاءه وليس له غير الله ولي ولا نصير .

ولاشك أن تعبيراً صريحاً كهذا لا يبدأ وأن يكون رادعاً أكيداً لمن عمل السوء ودافعاً
لتحري عمل الخير أين كان ومهما كلف ذلك وكما قال الشاعر :-

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه * * لا يذهب العرف بين الله والناس (١)

— — — —

(١) ديوان الحطيئة ، تحقيق نعمان أمين طه ٢٨٤ القاهرة سنة ١٩٥٨ م ٠٠
مصطفى الهادي الحلبي .

د- دراسته وتحليله بيانياً :-

لنعد هنا مرة أخرى إلى عبارة المثل الكريم قال تعالى :-

”مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِبْهِ“ .

نلاحظ أن أول ما يبدو لنا هو اشتماله على اسم شرط وفعله وجوابه

أما اسم الشرط فهو (مَنْ) وهو يستعمل - كما نعلم - للعاقِل وهذا يعنى

أن اللفظ عام يشمل المؤمن والكافر .

وفعل الشرط هو (يعمل) وجوابه جملة (يُجْزِبْهِ) .

أما إذا نظرنا إلى موقع قوله (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِبْهِ) من السياق فإننا

نلاحظ ما فيها من بلاغة بالنسبة لما سبقها إن جاءت الآية المشتعلة على المثل الكريم

على هذا النحو :-

(لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَحْمِلْ سُوءًا يُجْزِبْهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ

اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) (١)

وبهذا يكون المثل الكريم ” من يعمل سوءاً يجزبه ” تذييلاً لتقرير المعنى قبله

وتوكيده .. كما ويعتبر هذا القول أيضاً من المساواة في القرآن . (٢)

.. .. .

(١) سورة النساء ، ١٢٣ .

(٢) المساواة - كما عرفت البلاغيون : هي أن تكون المعاني بقدر الألفاظ والألفاظ

بقدر المعاني لا يزيد بعضها على بعض ، وهو المذهب المتوسط بين الإيجاز

والإطناب ، وإليه أشار القائل بقوله : كأن ألفاظه قوالب معانيه ، أي لا يزيد

بعضها على بعض مثل قوله تعالى (حُورٌ مُّقْصِرَاتٌ فِي الْخِيَامِ) و (مَنْ كَفَرَ

فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ) وقوله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ) وَإِنَّمَا

لِكُلِّ امْرئٍ مِنْهُ مَا نَوَى (فضلاً انظر في ذلك - الصناعتين . أبو هلال العسكري

١٨٥ ، تح . علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ط ٢ ، مطبعة

عيسى الحلبي ، كذلك الإيضاح للقرظيني ١٦٩/١ كذلك علوم البلاغة للمراغبي

٥- ما يوافقه من كلام البشر :-

لعلَّ المثل الموافق لقول الله تعالى :-

" مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِبِهِ * هُوَ مَا جَاءَ فِي الْأَثَرِ :-

(كَمَا تَدِينُ تَسُدَّان) (١) .

يقال دنت الرجل إذا أقرضته فهو مدِين ومَدْيُون يقول ابن سيده :-

(دِنْتُ الرَّجُلَ وَأَدَنْتُهُ أُعْطِيْتُهُ الدَّيْنَ ، إِلَى أَجْلِ قَالَ الشَّاعِرُ :-

أَدَانُ وَأَنْبَأَهُ الْأَوْلَادُونَ * * بِأَنَّ الْمُدَانَ مَلِيٌّ وَفِيَّ) (٢)

و قيل دنته أقرضته ، وأدنته ، استقرضته . ودان هو أي أخذ الدين

ورجل دائن ومدِين ومَدْيُون ومُدَان عليه الدَّيْن وقيل هو الذي عليه دَيْن كبير .

ومدَّيَان : إذا كان عادته أن يأخذ الدين ويستقرض ، والمدِين الذي يبيع

بديْن .

وأدَّان واستدان وأدان ، استقرض وأخذ بدين وهو افتعل ومنه قول عمر

رضي الله عنه :-

فأدان معرضاً : أي استدان وهو الذي يعترض الناس ويستدين من أمكته .

واستدان وأدان شدد إذا أخذ الدين واقترض فإذا أعطى الدين قيل أدان مخففاً .

وفي حديث آخر لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه -

فأدان معرضاً : أي استدان معرضاً عن الوفاء (٣) .

وتدأين القوم وأدأينوا : أخذوا الدين والاسم منه الدَّيْنَةُ قيل جئت أطلب

الدينه ، وما أكر ديتته أي : دينه وجمع الدينه : دِينٌ (٤) قيل :

(فَإِنْ تَمَسَّرَ قَدْ عَالَ عَنْ شَأْنِهَا

شؤونٌ فقد طال منها الدينُ

(١) مجمع الأمثال ٤٣ / ٣ .

(٢) اللسان دِينٌ * (بَشْرَفُ)

(٣) نفسه * (بَشْرَفُ)

(٤) نفسه * (" ") (" ")

ورجل مديان يُقرض الناس وكذلك الأُنثى بغيرها* وجمعهما جميعاً مَدَائِنُ (١)
والمديان يمكن أن تُستعمل بمعنى الذي يُقرض كثيراً أو الذي يستقرض كثيراً (٢)
والدين : هو الجزاء* والمكافأه وقيل الدين المصدر يقال : دِنْتُهُ بفعله دَيْنًا جَزَيْتُهُ.
والدين : الاسم ، ويوم الدين : هو يوم الجزاء* .

وفي قولهم كَمَاتَدِينُ تُدَانُ ، أي : كَمَاتَجَازِي تُجَازِي أَي : تَجَازِي بِفَعْلِكَ وَبِحَسَبِ
مَافَعَلْتَ وَقِيلَ كَمَا تَفَعَّلُ يُفَعَّلُ بِكَ .

وقد ورد هذا المثل البشري (كَمَاتَدِينُ تُدَانُ) ضمن أبيات قالها خويلد بن
نوفل الكلابي للحارث بن أبي شمر الغساني وكان اغتصبه أَسْمَعَلِكُ إِذْقَانُ .
(يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَخْرُوفُ أَمَا تَسْرَى * * * لَيْلًا وَصُبْحًا كَيْفَ يَخْتَلِفَانِ
هَلْ تَسْتَطِيعُ الشَّمْسُ أَنْ تَأْتِيَ بِهَا * * * لَيْلًا وَهَلْ لَكَ بِالْمَلِكِ يَبْدَانِ
يَأْسَارٍ أَيْقِنِ أَنْ مَلِكَكَ زَائِلٌ * * * وَاعْلَمْ بِأَنَّ كَمَاتَدِينُ تُدَانُ) (٣)
أي : تُجَازِي بِمَا تَفَعَّلُ .

قيل :-
(حَصَادُكَ يَوْمًا مَازَرَعَتٌ وَإِنَّمَا * * * يُدَانُ الْفَتَى يَوْمًا كَمَا هُوَ دَائِنٌ) (٤)
وقيل :-

(إِذَا مَارَمُونَا رَمِينَاهُمْ * * * وَدِنَانَهُمْ مِثْلَ مَا يَقْرَضُونَ) (٥)
وقيل :-

(أَحْسِنِ وَأَنْتَ مُعْسِرٌ * * * يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ
إِنَّ الْأَيَادِيَ قَرُورٌ * * * كَمَا تَدِينُ تُدَانُ) (٦)

(١) اللسان * دين * دنان * دنان *
(٢) نفسه (بتصرف) .
(٣) لسان العرب * دين * .
(٤) الجامع لأحكام القرآن ١/ ١٢٥ .
(٥) نفسه ١/ ١٢٥ .
(٦) التمثيل والمحاضرة ، ٤٣٢ .

ودانه دِينًا ، أَي : جازه .

وقوله :-

(٢) (أَيْدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمُتَدِينُونَ) (١) . أَي : (مجزيون محاسبون)

ومنها : الدِّينَ وهي صفة الله عز وجل .

والدِّينَ : الجزاء ، قال تعالى :-

* مَا لِكِ يَوْمَ الدِّينِ * (٣) أَي : يوم الجزاء .

(والدِّينَ : الطَّاعه وقد دِنْتُهُ وَدِنْتُ لَهُ ، أَي : أطعته .

قال عمرو بن كُثُوم :-

وَأَيَّامًا لَنَا غُرًّا كِرَامًا * * عَصِينَا الْمَلِكَ فِيهَا أَنْ تَدِينَنَا (٤)

وقوله تدين : أَي تصنع إذ سَمِيَ الْإِبْتِدَاءُ جَزَاءً لِلْمُطَابَقَةِ وَالْمُوَافَقَةِ وَطَى هَذَا

قوله تعالى :- (٥)

* فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ *

ويجوز أن يجري كلاهما على الجزاء أَي : كما تجازي أنت النَّاسَ على صنيعهم كذلك

تُجَازِي على صنيعك (والكاف في (كما) في محل النَّصْبِ نعتاً للمصدر أَي تَكُودَانِ

دِينًا مِثْلَ دِينِكَ) (٦) .

هذا ويسمى المثل القرآني الكريم على غيره لعافيه من دقة وبلاغة في أداء المعنى

المراد وذلك لعافي قوله تعالى (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِبْهِ) من مساواة بين اللفظ

والمعنى (٧) إذ جعلت هذه المساواة ألفاظه قوالب معانيه وربما كان ذلك لأن -

الآية تتحدث عن حكم معين ومن البلاغة حقاً أن في هذه الحال أن يكون اللفظ

سواءً للمعنى لانقصر ولا زيادة فيه .

(١) سورة الصافات ، ٥٣ .

(٢) اللسان " دين " .

(٣) سورة الفاتحة ، ٣ .

(٤) اللسان " دين " .

(٥) سورة البقرة ، ١٩٤ .

(٦) مجمع الأمثال ٤٣/٣ .

(٧) سبقت الإشارة إلى معنى المساواة في المصطلح البلاغي ، فضلاً راجع هامش

ص ٥٦ من هذا البحث .

وأما وضوح هذا المعنى في المثل القرآني الكريم فعائد إلى سهولة ألفاظه
وبذلك يتسنى للقارئ أو السامع فهمه والأخذ به وبما فيه من عبرة جلية يمكن أن توجه
عنه وسلوكه على مدى الأيام .

وبشأن قولهم (كاتدين تدان) ، قد نحتاج في فهمه إلى الوقوف على بعض
المعاجم اللغوية لتوضيح ألفاظه وفهمها والوقوف على معانيه ومراميه .
وقبل مغادرة هذا المثل الكريم ودراسته ، يطيب لنا أن نعرض بعض ما يوافق
من أقوال البشر .

قال طرفه :-

واعلمَ عما ليسَ بالظنِّ أَنَّهُ * * إِذَا ذَلَّ مولى العرِّ فهو ذليلٌ (١) .

وقول أوس بن حجر :-

بإِذَا أَنْتَ لَمْ تُعْرَضْ عَنِ الْجَهْلِ وَالخَنَا * أَصَبْتَ حَلِيمًا أَوْ أَصَابَكَ جَاهِلٌ (٢) .

وقول والبه بن الحباب :-

إِنْ كَانَ يُجْزَى بِالْخَيْرِ فَاعْطِـــهُ * شَرًّا وَيُجْزَى السُّبِيُّ بِالْحَسَنِ .

فويلُ تَالِيِ الْقُرْآنِ فِي ظُلْمِ اللَّيْلِ * لِي وَطَوِي لِعَابِدِ الرَّشَنِ (٣) .

هذا بعض ما قيل من الشعر في معنى قوله تعالى :-

” مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ” .

ولاشك أن مثل هذا المعنى يذكرنا بالمعنى المقابل له وهو قول الشاعر :-

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يُعَدُّ جَوَازِيَهُ * لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ (٤)

وقال المتنبي :-

ووضعُ النَّدىِّ فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُسْلا

مضمرٌ كوضعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدىِّ (٥)

(١) ديوان طرفه بن العبد ٨٠ . شيالون عام ١٩٠٠ م

(٢) ديوان أوس بن حجر ٢٠ ط قينا سنة ١٨٦٢ م

(٣) خاص الخاص . الثعالبي ٩٠ ط . مصر سنة ١٩٠٨ م

(٤) ديوان الحطيئة ص ٢٨٤ .

(٥) ديوان المتنبي ١/٢٨٨ ط ٢ سنة ١٩٥٦ م ، تراث العرب . مصطفى البابسي

الحلبي ، القاهرة .

٨ - قال تعالى :-

”إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيَتَانِهِمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ...“ الآية. (١)

أ- المعنى العام :-

يبدو والمعنى العام لهذا المثل من خلال تأمل الآية الكريمة التي ورد فيها

وهي قوله تعالى :- (١)

”وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ

حِيَتَانِهِمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ“

والخطاب هنا موجه إلى نبيِّنا محمد - صلى الله عليه وسلم - أي أسأل يا محمد

هو* لا اليهود وهم يحاورونك عن أهل تلك القرية التي كانت بقرب البحر أو على

شاطئه (٢).

أطعك الذين أمروا بالعبادة وعدم العمل في يوم السبت ، فكانوا يتجاوزون هذا

الأمر ، ويعدون عدتهم للصيد بكل ما أوتوا من حيلة ومكر ، وذلك لأن الحوت كان

يبدو دنيا منهم قافزا أمامهم في ذلك اليوم المحرم عليهم ، بينما لا يكون كذلك فسي

أي يوم آخر ، وما ذاك إلا ابتلاء لهم واختبار لمدى صبرهم على طاعة الله التي

فستقوا عنها وخرجوا عليها ، فتجرأوا من الصيد على الأكل والبيع جهرا (٣).

ب- مناسيته في السياق :-

بدراسة الآيات السابقات للآية التي ورد فيها المثل الكريم تبسّدو

لنا صلته بما قبله من آيات تحدّثت كثيرا عن بني اسرائيل ، وقبل ذلك عن قصص بعض

الأنبياء مع أقوامهم وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى .. عليهم الصلاة والسلام. (٤)

(١) سورة الأعراف ، ١٦٣ .

(٢) قيل انها أيلة ، بين مدين والطهر ، وقيل هي صقنا . بين مدين وعينونسي

وقيل هي مدين . فضلا أنظر في ذلك جامع البيان ٩٠/٩ ، ٩١ (بتصرف) .

(٣) جامع البيان ٩١/٩ - ٩٢ (بتصرف) كذلك التفسير الكبير ٣٧/١٥ (بتصرف) .

(٤) سورة الأعراف ٥٩ - ١٤٧ .

وكما يبدو ولنا أن هذه الآية وردت ضمن الآيات التي تحدّثت عن بني إسرائيل أولئك الذين اعتدوا في السّبّ على أوامر الله وطاعته بتحليل ما حرّم - سبحانه - من الصّيد إلى الأكل والبيع جهراً فضلاً عن تحايلهم لارتكاب تلك المحارم وهنّما تبدو ومناسبة المثل لما قبله من آيات ، إذ بيّن - سبحانه - أنه أبرز لهم الحيتان وأظهرها في ذلك اليوم بالذات دون غيره وذلك بلا منه - سبحانه - ومحنة لا نحرفهم عن طريق الحقّ وسيرهم في سبيل الغواية والضلال ، وهنا تبدو مناسبة المثل لما بعده في سياق الآية نفسها (١)

أمّا ارتباطه بما بعده من آيات ، فيبدو في أنّ الآية التّالية للمثل مباشرة إنّما جاءت بمثابة إكمال لقصة أصحاب السّبّ - والتي ذكرها القرآن الكريم لمحمّد - صلى الله عليه وسلّم - ليذكرها ضمن ما ذكره لمن جاوره من اليهود دليلاً على نبوّته صلى الله عليه وسلّم - هذه القصة التي تذكر موقف بعض مؤمني اليهود في تلك الفترة واختلافهم في الرأى ، فمنهم من يستنكر وعظ الواعظين مع قسوة الله على إهلاك المنحرفين وإبادتهم ، ومنهم يحظ ويؤدّي أمانته ، فلعلّ في هذا التذكير والوعظ ردّعا لهم عمّا هم فيه من غوايه وضلال (٢) .

ثمّ تلّتها الآية الدّالة على نسيان هؤلاء الضّالّين لما ذكروا به ، فكانت العاقبة نجاة المؤمنين منهم وأخذ الظّالمين بعذاب بغيض بما كانوا يفسقون (٣) .

وذكرت الآيات التّاليات بعد ذلك أوصاف عقابه لهؤلاء المتمرّدين ، إذ جعل منهم القردة والخنازير وسلّط عليهم من سلّط ليسومهم سوء العذاب (٤) ، إلى يوم القيامة ، لأنّه - عزّ وجل - سريع العقاب لكلّ من خرج عن طاعته - ولكنه مع ذلك سبحانه رحيم بمن تاب وأناب وعمل صالحاً فلا يعذبّه على سابق ذنوبه . (٥)

(١) وكما نلاحظ أنّها وردت ضمن سورة الأعراف وهي مكيّة ، والقرآن المكي هو الذي نزل قبل الهجرة - كما نعلم - وهذه السّورة تحدّثت كثيراً عن بني إسرائيل بحيث لا تكاد تتقدّمها في الحديث عنهم سوى سورة البقرة المدنيّة ، وهى عجيبة من عجائب القرآن .

(٢) جامع البيان ٩٢/٩ (بتصرّف) في تفسير الآية رقم ١٦٤ من سورة الأعراف .

(٣) نفسه ٩٩/٩ (بتصرّف) في تفسير الآية رقم ١٦٥ من سورة الأعراف .

(٤) قيل في سوء العذاب هي : المسكنة وأخذ الجزية منهم ، فضلاً انظر في ذلك

جامع البيان ١٠٢/٩ (بتصرّف) .

(٥) نفسه ١٠٣/٩ (بتصرّف) .

قال تعالى :- (١)

غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهَ الْمُضِيرِ .
ثمَّ توالى الآيات بعد ذلك فى ذكرى بني اسرائيل ومدى تشتيت الله سبحانه
وتعالى لهم فى الأرض وتفريقهم ثم ذكرت أيضاً مدى مكر بعضهم وتلاعبهم
بما جاء به الله عز وجل فى كتابهم (٢) .

ج- العبرة منه :-

تبدو العبرة من هذا المثل الكريم فى امتحان الله - عز وجل - وبلائه
لعباده ، إن كثيراً ما يأمر - سبحانه وتعالى - بأمر قد لا يملك عبده زمامه فليس
التمسك بها أو العمل بمقتضاها ، لأنها تتناقى مع رغباته وميله الشخصىة وكثيراً
ما ينهى عن أشياء قد تبدو لحرمتها براقية جميلة فيصهوي بسببها العبد فى مهاوى
الضلالة والفساد ، وهنا تبدو والحكمة من هذا المثل الكريم ، إن أنه - سبحانه
وتعالى - قد فعل ذلك بأصحاب السبب فأبرز لهم الحيتان شرعاً فى نفس اليوم
الذى حرم عليهم الصيد فيه دون غيره من الأيام ، وما ذاك إلا لبلاء منه - سبحانه -
ليرى مدى صبرهم وتنفيذهم لأوامره عز وجل ، فما كان منهم إلا الوقوع فى الفسوق
والغوايه متبقيين بذلك أهواء النفس وشهواتها رغم كل ما وجه إليهم من ذكرى وموعظة
فكان جزاؤهم شر الجزاء ، بما كسبت أيديهم وبما أضمرت نياتهم من التمرد والعصيان .
لذا وجب الصبر على ترك محارمه - عز وجل - وترويض النفس على طاعة
أوامره مهما كلف ذلك من شقة فى الدنيا لأن حسن الجزاء ينتظر المؤمنين فى
آخرتهم بإذنه - سبحانه وتعالى - والله أعلم ،،،،

(١) سورة غافر ، ٣ .

(٢) سورة الأعراف ، ١٦٨ - ١٦٩ .

د- دراسته و تحلیله بیانیتاً :-

بالنظر إلى قوله تعالى :-

”إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ“ .

قيل إنَّ (إِذْ تَأْتِيهِمْ) إما منصوب بـ (يَعْدُونَ) السابقة في قوله تعالى :

”وَاسْأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ“^(١)

وإما أن تكون بدلاً بعد بدل إذا اعتبرنا قوله :-

(إِذْ يَعْدُونَ) بدل اشتمال فكأنه قيل :-

واسألهم عن أهل القرية وقت عدوانهم في السبت (٢) ولا يجوز أبوحيان اعتبار

الزمخشري قوله تعالى :-

(إِذْ يَعْدُونَ) من بدل الاشتمال وظل ذلك بقوله :-

(لَأَنَّ إِذْ مِنَ الظُّرُوفِ الَّتِي لَا تَتَصَرَّفُ وَلَا يَدْخُلُ عَلَيْهَا حَرْفُ جَرٍّ وَجَعَلَهَا بَدَلًا لَا يَجُوزُ

دخول عن عليها لأنَّ البديل هو على نية تكرار العامل ولو أدخلت عن عليها لم يجز

وإنما تصرف فيها بأن أضيف إليها بعض الظروف الزمانية نحو يوم إذ كان كذا .

وأما قول من ذهب إلى أنها يتصرف فيها بأن تكون مفعوله بأذكر فهو قول

من عجز عن تأويلها على ما ينبغي لها من إيقائها ظرفاً (٣) والعامل فـي

(إِذْ يَعْدُونَ) هو (إِذْ تَأْتِيهِمْ) أي : إِذْ عَدُوا فِي السَّبْتِ إِذْ أَتَتْهُمْ لِأَنَّ إِذْ ظَرْفٌ

لما مضى يصرف المضارع للمضي (٤) .

ولعلَّ السَّبَبَ فِي إِضَافَةِ الْحَوْتِ إِلَى ضَمِيرِهِمْ ، فَتَقِيلُ حَيْتَانُهُمْ لَمَّا كَانَ مَسْنَنٌ

ابْتِلَاءَهُمْ بِهَا وَاحْتِيَالَهُمْ عَلَى صَيْدِهَا . (٥)

(١) سورة الأعراف ، ١٦٣ .

(٢) الكشاف ١٢٥ / ٢ (بتصرف) .

(٣) البحر المحيط ٤ / ٤١٠ - ٤١١ .

(٤) نفسه ٤ / ٤١١ (بتصرف) .

(٥) تفسير القرآن الحكيم ١ / ٣٧٦ (بتصرف) .

وقوله : (يَوْمَ سَبْتِهِمْ) أيضاً أُضِيفَ السَّبْتُ إِلَى ضَمِيرِهِمْ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُمْ مَخْصُوصُونَ
بِهَذَا الْحُكْمِ وَهُوَ حُكْمٌ خَاصٌّ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ (وَقَوْلُهُ (يَوْمَ سَبْتِهِمْ) أَيَّ يَوْمٍ تَعْظِيمُهُمْ
وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ : (وَيَوْمَ لَا يُسَبِّتُونَ) (١) .

وَالسَّبْتُ : يَعْنِي الْقَطْعُ قَالَ تَعَالَى : " وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا " (٢) أَيَّ : (قَطْعًا
عَنِ الْعَمَلِ) (٣) .

وَالسَّبْتُ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ مِنْ أَيَّامِ الْأَسْبُوعِ وَقَدْ سُمِّيَ السَّابِعُ مِنْ أَيَّامِ الْأَسْبُوعِ سَبْتًا
لَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ابْتَدَأَ الْخَلْقَ فِيهِ وَقَطَعَ فِيهِ بَعْضَ خَلْقِ الْأَرْضِ .
وَقِيلَ أَمْرٌ فِيهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِقَطْعِ الْأَعْمَالِ وَتَرْكِهَا .

(وَفِي الْمَحْكَمِ وَأَمَّا سُمِّيَ سَبْتًا لِأَنَّ ابْتِدَاءَ الْخَلْقِ كَانَ مِنْ يَوْمِ الْأَحَدِ إِلَى يَوْمِ
الْجُمُعَةِ وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّبْتِ شَيْءٌ مِنَ الْخَلْقِ ، قَالُوا فَأَصْبَحَتْ يَوْمَ السَّبْتِ مُنْسَبَةً إِلَى قَدِّ
تَمَّتْ وَانْقَطَعَ الْعَمَلُ فِيهَا وَقِيلَ سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يَنْقَطِعُونَ فِيهِ عَنِ الْعَمَلِ
وَالتَّصَرُّفِ) (٤) .

وَجَمَعَ السَّبْتُ : أَسْبَبْتُ وَسُبُّوتٌ ، وَسَبَّوتُوا وَيَسْبِتُونَ وَتَسْبِتُونَ وَأَسْبَبْتُوا أَيَّ دَخَلُوا
فِي السَّبْتِ وَمَصْدَرُهَا إِسْبَابَاتٌ أَيَّ : الدُّخُولُ فِي السَّبْتِ (وَالسَّبْتُ : قِيَامُ الْيَهُودِ
بِأَمْرِ سَبَّهَا) (٥) قَالَ تَعَالَى :-

" وَيَوْمَ لَا يُسَبِّتُونَ لِاتِّتَابِهِمْ " (٦) وَقُرِئَتْ حَيْثَانَهُمْ يَوْمَ اسْبَابَتِهِمْ (٧) .

وَقُرِئَتْ أَيْضًا (لَا يُسَبِّتُونَ) بِضَمِّ كَسْرَةِ الْبَاءِ (٨) .

(١) الْبَحْرُ الْمَحِيطُ ٤ / ٤١١ (بِتَّصَرُّفٍ) .

(٢) سُورَةُ النَّبَأِ ، ٦ .

(٣) اللِّسَانُ : " سَبَّتٌ " .

(٤) نَفْسُهُ : (سَبَّتٌ) .

(٥) نَفْسُهُ : (سَبَّتٌ) .

(٦) سُورَةُ الْأَعْرَافِ ١٦٣ .

(٧) قَرَأَهَا ذَلِكَ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، فَضَلَا أَنْظَرَ الْبَحْرَ الْمَحِيطَ ٤ / ٤١١ (بِتَّصَرُّفٍ) .

(٨) قَرَأَ بِذَلِكَ عِمْسُ بْنُ عَمْرِ وَعَاصِمٌ بِقِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ ، فَضَلَا أَنْظَرَ الْبَحْرَ الْمَحِيطَ

٤ / ٤٤١ (بِتَّصَرُّفٍ) .

كذلك قرئت يُسبِتون بضم يا المضارعة وهي من أسبت أي دخل في السبت (١) .
ونقل الزمخشري عن الحسن (لا يُسبتون) (بضم الياء على البناء للمفعول أي لا يدار
عليهم السبت ولا يؤمرون بأن يسبتوا والعامل في (يوم) قوله (لا تأتيتهم) وفيه
دليل على أن ما بعد لا للنفي يحمل فيما قبلها وفيه ثلاثة مذاهب بالجواز مطلقاً
والمنع مطلقاً والتعطيل بين أن يكون لا جواب قسم فيمتنع أو غير ذلك فيجوز وهو
الصحيح (٢) .

وقوله :-

(حَيَاتُهُمْ) حيتان وأحوات جمع مفردة حوت والحوت السمكة وفي المحكم
الحوت السمك معروف وقيل هو ما عظم منه ، وهو اسم جنس لا صفة ، وحاوتك فلان
أي : رَأَوْكَ .

والمحاوتة : هي المراضة .

والحوت أيضاً اسم بُح في السماء (٣) .

وقوله : شَرَعاً : من شرع أي : ظَهَرَ وقوله تعالى :-

"أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَلَمَ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ" (٤) أي : أظهِروا

لهم وقيل معنى شرع أي بين وأوضح .

(وكلُّ دانٍ من شبي ، فهو شارع وقد شرع له ذلك وكذلك الدار الشارعة

أي : التي دنت من الطريق وقرئت من الناس وهذا كله راجع إلى شبي واحد هو

القرب من الشبي والإشراف عليه) (٥)

(وأشرع الشبي رفعه جداً وحياتان شروع أي رافعة رؤوسها) وقوله تعالى :-

"إِذْ تَأْتِيهِمْ حَيَاتُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعاً وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ" قيل : رافعة

رؤوسها وقيل خافضة لها للشرب . . . (٦) والأرجح هو الرفع .

(١) وهي قراءة على والحسن وعاصم . فضلا انظر البحر المحيط ٤ / ١١١ (بتصرف) .

(٢) نفسه .

(٣) اللسان : " حوت " (بتصرف) .

(٤) سورة الشورى ، ٢١ .

(٥) اللسان : " شرع " .

(٦) نفسه . " شرع "

وحيتان مُشَرَّعَ أَبِي : شارِعَات من غمرَةِ الماءِ إِلَى الجُدِّ والشَّرَاعِ هو العُنُقُ ورَبَّمَا
قِيلَ لِلبَعِيرِ إِذَا رَفَعَ عُنُقَهُ رَفَعَ شِرَاعَهُ (١) .

٥ - ما يوافقُه من كلامِ البشر :-

سُئِلَ الحَسَنُ بنُ الفَضْلِ عَنِ المِثْلِ البَشَرِيِّ المُوَافِقِ لِذَلِكَ فَقَالَ :-
(الحَلَالُ لَا يَأْتِيكَ إِلَّا قُوتًا ، وَالْحَرَامُ يَأْتِيكَ جِزْفًا جِزْفًا ، وَالْحَلَالُ : ضِدُّ
الْحَرَامِ وَهُوَ مَنْ حَلَّتْ الشَّيْءُ إِذَا أَبْحَثَهُ وَأَوْسَعَتْهُ لِأَمْرِ فِيهِ (٢) .

وَالقُوتُ هُوَ مَا يُسَكُّ الرِّمَقُ مِنَ الرِّزْقِ .

وَيُقَالُ أَيْضًا : (القُوتُ وَالقِيْتُ وَالقِيْتَةُ وَالقَائِتُ المُسَكَّةُ مِنَ الرِّزْقِ وَفِي الصَّحاحِ
هُوَ مَا يُتَوَمَّ بِدَنِ الإِنْسَانِ مِنَ الطَّعَامِ يُقَالُ مَا عِنْدَهُ قُوتٌ لَيْلَةً وَقِيْتُ لَيْلَةً وَقِيْتَةُ لَيْلَةٍ
فَلَمَّا كُثِرَتِ القَافُ صَارَتِ الوَاوِيَاءُ وَهِيَ البُلْفَةُ) (٣)

وَالقُوتُ مَصْدَرٌ ، يُقَالُ قَاتَ يَقُوتُ قُوتًا وَقِيَاتَةً وَيُقَالُ قَاتَهُ ذَلِكَ قُوتًا وَقُوتًا
وَتَقُوتُ بِالشَّيْءِ ، وَاقْتَاتَهُ أَبِي : جَعَلَهُ قُوتَهُ .

وَحِكِي أَنْ الإِقْتِيَاتَ هُوَ القُوتُ ، إِذْ جُعِلَ اسْمًا لَهُ (٤) وَقُوتُكَ أَقُوتُهُ : أَبِي :
أَعُولُهُ بِرِزْقٍ قَلِيلٍ .

وَقُوتُكَ قُوتُهُ فَاقْتَاتَ كَقُوتِكَ رِزْقَتُهُ فَارْتِزَقُ ، وَفُلَانٌ فِي قَائِتٍ مِنَ العَيْشِ أَبِي : فِي
كفَايَةِ ، وَاسْتَقَاتَهُ : أَبِي سَأَلَهُ القُوتَ (٥) .

وَالمُقِيْتُ : مِنْ أَسْمَاءِ اللّهِ تَعَالَى وَهُوَ الحَفِيظُ وَقِيلَ المُقْتَدِرُ وَقِيلَ هُوَ السِّدِّيُّ
يُعْطَى أَقْوَاتَ الخَلِائِقِ وَهُوَ مِنْ أَقَاتِهِ يُقِيْتُهُ إِذَا أَعْطَاهُ قُوتَهُ .

(١) اللسان : " شرع " (بتصرف) كذلك مقاييس اللغة " شرع " (بتصرف) .

(٢) مقاييس اللغة " حل " .

(٣) اللسان " قوت " .

(٤) نفسه (قوت) . (بمصروف)

(٥) نفسه (قوت)

وأقائه بمعنى حفظه (١) .

جزفاً : من الجُزْفِ وهو الأخذ بالكثرة ويقال جَزَفَ له في الكيل أي : أكثر (٢) .

والجُزْفُ هو : (أخذ الشيء مجازفةً وجزافاً فارسيّ معرّب) (٣) .

والجُزْفُ : المجهول القُدْرُ قليلاً كان أو موزوناً ، والجُزَافُ والجُزَافُ والجُزَافَةُ :

هو بيع الشيء أو شراؤه بلا وزن ولا كيل وهذا يرجع إلى المساهلة (٤) .

(وهو دخيل نقول بعته بالجزاف والجُزَافَةُ والقياس جزاف) (٥)

وبهذا يكون المعنى العام للمثل هو : أن الكسب الحلال لا يكون إلا قليلاً

وبقدر حاجة صاحبه إليه ، أما الحرام ، فهو كثير وفائض عن الحاجة .

ولسنا بحاجة إلى تقرير سمو المثل الكامن في قوله تعالى :-

"إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيَتَانِهِمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعاً وَيَوْمَ لَا يُسَبِّتُونَ لِتَأْتِيهِمْ" (٦) .

على قوله :-

(الحلال لا يأتيك إلا قوتاً والحرام لا يأتيك إلا جزافاً) (٧) .

إن نلاحظ بشأن المثل القرآنيّ الجليل وجود الطِّبَاق بين قوله (تَأْتِيهِمْ)

واللِاتِيهِمْ) كذلك إيجاز القصر في تركيب المثل الكريم كنه لا حتواً ألفاظ المثل

القليلة على معان كثيرة قد تمّ إيضاحها في المعنى العام للمثل (٨)

كذلك نلاحظ المقابلة بين المعنيين "إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيَتَانِهِمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعاً

وَيَوْمَ لَا يُسَبِّتُونَ لِتَأْتِيهِمْ" .

(١) اللسان " قَوَتْ " (بتصرف) .

(٢) نفسه " جَزَفَ " (بتصرف) .

(٣) نفسه (جَزَفَ) .

(٤) نفسه (، ،) (بتصرف) .

(٥) نفسه (، ،) .

(٦) سورة الأعراف ، ١٦٣ .

(٧) الاتقان ٢ / ١٣٣ .

(٨) فضلاً راجع في ذلك ٣٦١ من هذا البحث .

وفي قولهم : الحلال لا يأتيك إلا قوتاً أسلوب قصر (١) كذلك نجد فيه طباقاً بسين لفظي (الحلال ، الحرام) وبين (لا يأتيك ، يأتيك) .
ومع ذلك ، فقد جاء المثل القرآني الكريم في أعلى درجات البلاغة والفصاحة إذ اشتمل على إيجاز قصر (٢) لم يتوفر في المثل البشري .
أما فصاحته فبدت في سهولة ألفاظه وبعدها عن الثقل في السمع أو الغرابسة في المعنى .

هذا وما يوافق المثل القرآني الكريم أو يلحق به في المعنى قولهم :-
(الحق ثقيلٌ مريٌّ ، والباطلٌ خفيفٌ وبينٌ) (٣)

وقول المتنبي :-

ماكلٌ مايتننى المرءٌ يدركه
تجري الرياحُ بما لا تشتهي السفنُ (٤)

هذه بعض الأقوال البشرية الموافقة لقوله تعالى :-

” إِنْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَمْسُتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ” . . . الخ .

ولعل هذا القول يذكرنا بقول الله تعالى أيضاً :-

” قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ” (٥) .

(١) القصر : هو الحبس لغة واصطلاحاً تخصيص أمر بأمر ، انظر في ذلك طوم

البلاغه للمراعي ١٥٤ .

(٢) إيجاز القصر : هو زيادة المعاني على الألفاظ الدالة عليها بلا حذف ، فضلاً
انظر في ذلك نفس المرجع السابق ١٩٣ .

(٣) التمثيل والمحاضرة ٣٢٨ . مريٌّ : صلب شديد ، فضلاً انظر في ذلك مقاييس
اللغة (مريٌّ و بين) .

(٤) ديوان المتنبي ٢٣٦ / ٤ .

(٥) سورة المائدة ، ١٠٠ .

هذا وقد رجَّح الطَّبْرِيُّ رأي من قال :- ١

إِنَّ فِيكُمْ سَمَاعِينَ لِحَدِيثِكُمْ لَهُمْ يَبْلَغُونَهُ عَنْكُمْ عِيُونَ لَهُمْ . وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ :-
(لَأَنَّ الْأَغْلَبَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ فِي قَوْلِهِمْ : سَمَاعٌ وَصَفٌ مِنْ وَصْفٍ بِهِ أَنَّهُ سَمَاعٌ
لِلْكَلامِ كَمَا قَالَ جَلُّ شَنَاؤُهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ (سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ) وَاصْفَاءُ بِذَلِكَ
قَوْماً بِسَمَاعِ الْكَذِبِ مِنَ الْحَدِيثِ ، وَإِذَا وَصَفُوا الرَّجُلَ بِسَمَاعٍ كَلَامِ الرَّجُلِ فَأَمْرُهُ
وَنَهْيُهُ وَقَوْلُهُ فِيهِ وَانْتِهَائِهِ إِلَيْهِ ، فَإِنَّمَا تَصِفُهُ بِأَنَّهُ سَامِعٌ وَمُطِيعٌ ، وَلَا تَكَادُ تَقُولُ
هُوَ سَمَاعٌ مُطِيعٌ) (١) .

أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى :-

" وَاللَّهُ عَظِيمٌ بِالظَّالِمِينَ " أَيْ عَالِمٌ بِمَنْ يُوَجِّهُ أَفْعَالَهُ فِي غَيْرِ وَجْهِهَا أَوْ يَضَعُهَا
فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا أَوْ مَنْ يَعْتَذِرُ عَنِ الْجِهَادِ لِعَذْرٍ حَقِيقِيٍّ أَمْ لَشَكٍّ فِي الْإِسْلَامِ
وَنِفَاقٍ مِنْهُ وَمَنْ يَسْمَعُ حَدِيثَ الْمُؤْمِنِينَ لِفَرْضٍ نَقَلَهُ لِلْمُنَافِقِينَ أَوْ لِكُفْرَانِهِ وَعَسَدَمِ
الْبُوحِ بِهِ لَيْسَرَ بِمَاسَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ لِيَتَضَرَّرَ بِمَاضِرِهِمْ وَسَاءَ هُمْ . . . سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى
لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ يَعْلَمُهُ هَذَا قَادِرٌ سَبْحَانَهُ عَلَى مَجَازَاةِ
كُلِّ عَطْلٍ (٢) .

ب - مناسبة في السياق :-

علمنا أَنَّ المثل الكريم قد ورد ضمن قوله تعالى :-

" لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادَوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ
لَهُمْ وَاللَّهُ عَظِيمٌ بِالظَّالِمِينَ " (٣) .

وهذا يدلُّ على أَنَّ الآية التي ورد فيها المثل الكريم إِنَّمَا هِيَ بِعَثَابَةِ تَعْلِيلِ
وَبَيَانِ لِسَبَبِ تَخَلُّفِ بَعْضِ الْمُنَافِقِينَ عَنِ الْخُرُوجِ لِلْجِهَادِ وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ

(١) جامع البيان ١٠ / ١٤٦ - قد ذكر الرَّاعِبُ أَنَّ سَمَاعٌ . بِمَعْنَى يَسْمَعُ أَيْضًا

فَضْلًا أَنْظِرْ فِي ذَلِكَ الْمَعْرُودَاتِ فِي غَرِيبِ الْقُرْآنِ " سَمِعَ " .

(٢) نفسه ، كَذَلِكَ الْبَحْرُ الْمَحِيطُ ٥ / ٥٠ (بِتَضَرُّفٍ) .

(٣) التَّوْمَةُ ، ٤٧ .

- سبحانه وتعالى - قد حثَّ المؤمنين على جهاد الروم في غزوة تبوك مع رسول الله
- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقال تعالى :-

”يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ افْعَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِذَا قُلْتُمْ إِلَى
الْأَرْضِ (١) الآية .

ثم جاءت الآية التالية بمثابة وعيد من الله تعالى للمؤمنين بالعذاب إن . .
تركوا الجهاد أن يبدل نبيِّه الكريم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خيراً منهم مطيعين
لأوامره مجتنبين نواهيه لأنه على كل شيء قدير (٢) .

كذلك جاء ما يؤكد قدرة الله تعالى في الآية التالية ، إن ذكر - سبحانه -
نصره لنبيه ومع أبي بكر الصديق في هجرته من مكة إلى المدينة يوم أن كان العدو
في كثرة والمؤمنون في قلة فأيدته بجنود من عنده - عزَّ وجلَّ - كانت سبباً في نصره
وهزيمة المشركين فكيف به الآن وقد زاد عدد أنصاره من المؤمنين ؟! (٣) ثم
تلتها الآية التي تحرَّض على القتال في سبيل الله بالمال وبذل النفس مهما كان
وضع المؤمن من شباب أو كهولة أو شيخوخة أو فقراً أو غنى أو غير ذلك (٤)
لأنَّ الخروج إلى الجهاد خير لهم من التكاثر والانتظار .

وبيَّن بعد ذلك - سبحانه - حال بعض من استأذنوا رسول الله - صَلَّى
الله عليه وسلم - في عدم الخروج لغزو العدو معه - وهم يحلفون بالله أنهم
غير قادرين على ذلك لعدم توفر إمكانات الخروج من السعة والمراكب والظهور
بينما يؤكد السياق أنهم ما فعلوا ذلك إلا لأنهم استنفرُوا للجهاد ولو كان غير ذلك
من غنمة حاضرة ومكان سهل قريب لخرجوا معه ولكنهم أهلکوا أنفسهم بحلفهم
الكاذب ، فغضب الله عليهم وأكسبهم سوء العقاب (٥) .

(١) سورة التوبة ، ٣٨ .

(٢) سورة التوبة ، ٣٩ .

(٣) سورة التوبة ، ٤٠ .

(٤) جامع البيان ١٠ / ١٣٧ - ١٣٨ - ١٣٩ (بتصرف) في تفسير الآية (٤١) من
سورة التوبة

(٥) جامع البيان ١٠ / ١٤١ (بتصرف) في تفسير الآية ٤٢ من سورة براءة (لربح)

ويرد في الآية التالية عتاب من الله - سبحانه وتعالى - لرسوله الكريم - صلى الله عليه وسلم - لإذنه لهم بالتخلف عن غزوة تبوك دون أن يتأكد من صدقهم أو كذبهم فيما ادَّعوه من أسباب التخلف (١) .

ويؤكد - سبحانه - في الآية التالية أنَّهُ هو لا المتخلفين لم يكونوا على أيّ درجة من الإيمان ، بل كانوا شاكِّين في وحدانيته - سبحانه وتعالى - وفي حقيقة شوابه وعقابه ، مترددين في ظلمة الحيرة والشك التي لانهاية لها . (٢)

ويُخبر - سبحانه - أنهم لو صدقوا العزيمة في الخروج إلى الجهاد لأعدوا له كل ما أمكنهم من عدة وعتاد ولكن كانت حكمة الله أقوى في تثبيط هجمهم وتكاسلهم (٣) وهنا تأتي مناسبة آية المثل لما قبلها من آيات إذ أنها وردت لبيان حكمة الله الجليلة في تكاسل هؤلاء المنافقين عن القتال لأنهم لو خرجوا مع المؤمنين لمازادوهم آفساداً وضرراً ولأفشوا الفتنة بين صفوف المؤمنين ، وهنا أيضاً نقف على مناسبة المثل للآية الكريمة نفسها ، إذ أن الحكمة اقتضت ذلك لأن في المؤمنين أنفسهم من يسمع كلامهم وفتنتهم فيطيعهم ، وينقل أخبار المسلمين إليهم وبذلك تحدث الواقعة والفتنة في صفوف المسلمين (٤) .

وتأتي في الآية التالية مناسبة آية المثل الكريم لما بعدها في السياق ، إذ أنه - سبحانه - يذكر الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - بما فعله المنافقون قبل ذلك من إيقاع الفتنة بالمؤمنين ومحاولتهم تفريق صفوفهم وتشتيت شطهم - كما فعل عبد الله بن أبي بن مسعود - ومن تبعه من قومه وقد أراد - سبحانه وتعالى - نصر المؤمنين وإعلاء كلمته في بداية المعركة على كره من المنافقين وغيرهم من الأعداء (٥)

(١) سورة براءه ، ٤٤ .

(٢) سورة براءه ، ٤٥ .

(٣) سورة براءه ، ٤٦ .

(٤) جامع البيان ١٠/١٤٦ (بتصرف) في تفسير الآيه ٤٧ من سورة براءه .

(٥) سورة براءه ، ٤٨ .

ثم بيّن السّياق بعد ذلك بعض ما اعتدربه هؤلاء المتخلّفون عن القتال (١) من أمثال الجدّ بن قيس .

ثمّ كُلي ذلك بيانه لما يسوء هؤلاء المنافقين عند نصر الله لنبيّه الكريم - صلّى الله عليه وسلّم - وما يمكن أن يشعروا به من سرور وضح عندما يفسر بعض الجيش منه - صلّى الله عليه وسلّم - لأنهم قد أخذوا حذرهم وامتنعوا عن الخروج قبل ذلك (٢) ثم تواتت الآيات بعد ذلك لتسلية الرسول الكريم - صلّى الله عليه وسلّم - ومن معه من المؤمنين إذ بيّن فيها - سبحانه - أنّ كل ما يصابون به من أذى إنّما هو مقدّر عليهم وليس أمامهم سوى التوكّل على الله - عزّ وجلّ . (٣) لأنّه - سبحانه - كتب لهؤلاء المؤمنين إحدى الحسنين النصر أو الشهادة بينما ينتظر المنافقين ما ينتظرهم من عقوبة من الله تهلكهم أو بأيدي المؤمنين فسي ساحة القتال (٤) .

وهكذا بدت لنا مناسبة المثل الكريم لما قبله وما بعده من آيات في السّياق - والله

أعلم .

ج- العبرة منه :-

لعلّ العبرة من هذا المثل تبدو متألّقة من خلال تأمل الآية الكريمة :-
"لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا تُضَعُوكُمْ خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ" (٥) .

إنّنا نلمح فيها حكمة الله البالغة في تشبّط همة المنافقين ليتراجعوا عن الخروج مع رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - فهو - سبحانه - وتعالى أعلم بدخيلتهم وخبث طويّتهم وسوء نيّتهم وتزييف معاملاتهم مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فهم يظهرون له ولصحبه المحبة ويضمرون العداوة والبغضاء .

(١) سورة براءه ، ٤٩ .

(٢) سورة براءه ، ٥٠ .

(٣) سورة براءه ، ٥١ .

(٤) جامع البيان ١٠ / ١٥١ (بتصرف) في تفسير الآية ٥٢ من سورة براءه .

(٥) سورة براءه ، ٤٧ (بتصرف) .

لذا كان فضل الله واسِعاً في تخلفهم عن الجماعة السؤمنة لأنهم لن يكونوا
الامصدراً للشر والفساد وإشاعة الضرر بين الصفوف المؤمنة بما ييغونه من فتنة
وبما يصدر من بعضهم من التجسس على المؤمنين ونقل أخبارهم إليهم أو بما يشيعونه
بين بعض المؤمنين الذين يسمعون لهم ولسوء أقوالهم

تلك هي العبرة التي يمكن أن تُستخلص من الآية التي ورد فيها المثل الكريم
أما ما يمكن أن تأخذه من عبرة من المثل ذاته .

” وفيكم سماعون لهم ” فهي وجوب أخذ الحذر والحيطه بين الصفوف المؤمنه
وعدم إفشاء أسرار الحرب بين جميع الأفراد في الجند مخافة وجود بعض جواسيس
العدو ، إن ورد في الأثر :-

(استعينوا على الحوائج بالكتمان) (١)

-> دراسته وتحليله بيانياً :-

لنعد هنا مرة أخرى إلى قوله تعالى :-

• **وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ** •

فلاحظ :-

(الجملة من المبتدأ والخبر حال من مفعول ييغونكم أو من فاعله لاشتمالها على

ضميريهما أو مستأنفة) (١)

وقوله **• وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ •** أي نمامون يسمعون حديثكم فينقلونه إليهم وهنأ تكون اللام في قوله (لَهُمْ) للتعليل : قال بذلك مجاهد وسفيان بن عيينة والحسن وابن زيد ورجحه الطبري (٢) أو بمعنى وفيكم قوم يستمعون للمنافقين ويطيعونهم وهنا تكون اللام في (لَهُمْ) لتقوية التعدية كقوله تعالى (**فَعَالٌ لَّمَّا يَرْدُ**) (٣) وهو قول الجمهور ومعناه وفيكم مطيعون سماعون ومعنى وفيكم أي في خلالكم منهم أو منكم **مِّن قَرُبٍ عَهْدِهِ بِالْإِسْلَامِ** (٤) .

(وسَمَاعُونَ) جمع لصيغة المبالغة مفرداً سَمَاعٌ ويرى الطبري أن أول

تأويل لقوله تعالى :-

(**وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ**) أي : وفيكم سماعون لحديثكم لهم يبلغونه عنكم عيون لهم

ويعلل ذلك بقوله :-

(لأن الأغلب من كلام العرب في قولهم : وصف من وصف به أنه سَمَاعٌ للكلام

كما قال جل ثناؤه في غير موضع من كتابه (**سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ**) (٥) واصفاً بذلك قوماً

بسماع الكذب من الحديث ، وأما إذا وصفوا الرجل بسماع كلام الرجل وأمره ونهييه

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٤ / ٧١ •

(٢) البحر المحيط ٥٠ / ٥ (بتصرف) •

(٣) سورة البروج ، ١٦ •

(٤) البحر المحيط ٥٠ / ٥ (بتصرف) •

و قبوله منه وانتهاه إليه ، فإنما تصفه بأنه له سماع ومطيع ، ولا تكاد تقول : هوله سماع مطيع (١) .

ولعل في الآية الكريمة الآتية ما يؤيد رأي الطبري هذا إذ يقول تعالى واصفاً هؤلاء الذين ينقلون الأحاديث كبرها وصغيرها دون تثبت أو روية حتى يسأل عنها من هم أعلم منهم بها .

• وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أذَاعُوا بِهِ ، وَكَوْرَدُوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلَّهُمْ لَئِن يُسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ الْأَقْلِيَّةَ (٢) .

ويعلق صاحب تفسير المنار على رأي الطبري بقوله :-

(و سماع بالتشديد صيغة مبالغة لا يختص بماقاله الطبري فيها فإن أولئك المنافقين

الذين استأذنوا لم يكونوا معروفين متميزين بحيث تكون لهم هيئة مجتمعة في الجيش تتخذ الجواسيس لتنظيم عملها . (٣)

بينما نرى أن في صيغة المبالغة هذه ما يشعرنا باهتمام هذه الفئة اهتماماً

شديداً لسماع أي شيء من السر أو الحديث لافشائه ونشره . . . وهذا الاهتمام الزائد قد يصل إلى درجة التلهف الشديد لهذا السماع .

(١) جامع البيان ١٠ / ١٤٦ .

(٢) سورة النساء ، ٨٣ .

(٣) تفسير القرآن الحكيم (المنار) ١٠ / ٤٧٣ .

هـ- ما يوافقه من كلام البشر :-

لعلَّ المثل البشري الموافق لقوله تعالى :-

"وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ" هو قوطهم :-

(للحيطان آذان) (١) .

(حَاطَةٌ يَحُوطُهُ حَوْطًا وَحَيْطَةٌ وَحَيْاطَةٌ حَفِظَهُ وَتَعَهَّدَهُ) (٢)

والحائط : هو الجدار لأنه يحوط مافيه وهي مفرد والجمع حيطانٌ . (قال سيوييه وكان قياسه حوطاناً وحكى ابن الأعرابي في جمعه حياط كقائم ، وقيام إلا أن حائط قد غلب عليه الاسم فحكه أن يكسر على ما يكسر عليه فاعل إذا كان اسماً قال الجوهري صارت الواو ياءً لا نكسار ما قبلها) (٣)

وقيل إنَّ الحائط هو اسم بمنزلة السقف والركن وان كان فيه معنى الحوط (٤)

وأحيط بفلان إذا دنا هلاكه قال تعالى :-

"وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَدِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا" (٥)

أي : أصابه ما أهلكه وأفسده .

وقوله تعالى :-

(٧)

"إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ" (٦) أي تؤخذوا من جوانبكم . والحائط من هذا المعنى .

أما لفظ آذان : جمع أذن للحاسة المعروفة .

فهي مأخوذة من العقل أذن بالشيء إذناً وأذناً وأذانة بمعنى علم قال تعالى :-

"فَأَنْزَلْنَا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ" (٨)

(١) الاتقان في علوم القرآن ٢ / ١٣٢ .

(٢) اللسان " حوط " .

(٣) نفسه " حوط " .

(٤) اللسان " حوط " (بتصرف) .

(٥) سورة الكهف ، ٤٣ .

(٦) سورة يوسف ، ٦٦ .

(٧) اللسان " حوط " (بتصرف) .

(٨) سورة البقرة ، ٢٧٩ .

أي كونوا على علم . (١)

وَأَذَنُ أَيِ أَعْلَمْتُهُ .

وَأَذِنُ لَهُ بِالشَّيْءِ إِذَا أَبَاحَهُ .

يُقَالُ أَذِنْتُ لِلشَّيْءِ ، أَذِنَ لَهُ أَذِنًا إِذَا اسْتَمَعْتُ لَهُ (٢) .

وَالأُذُنُ وَالأُذُنُ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّثْقِيلِ هِيَ إِحْدَى الحَوَاسِ مُؤَنَّثَةٌ وَقَدْ حَكَى سِيبَوِيهٌ

أُذُنٌ بِالصَّمِّ وَجَمَعَهَا أَذَانٌ وَلَا يَكْسُرُ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ .

وَتَصْغِيرُهَا أَذِينَةٌ وَلَوْ سَمِّيَ بِذَلِكَ رَجُلٌ ثُمَّ صَغَّرْتَهُ لَقُلْتُ أَذِينٌ بِحَذْفِ هَاءِ

التَّأْنِيثِ عَنْهُ لِأَنَّهُ نُقِلَ إِلَى مَذَكَّرٍ (٣) .

أَمَّا قَوْلُهُمْ أَذِينُهُ فِي الأَسْمِ العِلْمِ فَإِنَّمَا سُمِّيَ بِهِ مَصْفَرًا وَرَجُلٌ أَذِنٌ وَأُذِنٌ . .

مُسْتَمَعٌ لِمَا يُقَالُ لَهُ قَابِلٌ لَهُ (٤) .

وَقِيلَ : رَجُلٌ أَذِنٌ وَرِجَالٌ أَذِنٌ إِذَا يَصِحُّ اسْتِعْمَالُ أَذِنٌ لِلوَاحِدِ وَالجَمَاعَةِ

إِذَا سَمِعُوا .

كَذَلِكَ يُقَالُ رَجُلٌ أَذِنٌ وَامْرَأَةٌ أَذِنٌ وَلَا يُشْتَرِكُ وَلَا يُجْمَعُ وَقِيلَ سَمَّوَهُ بِاسْمِ العَضْوِ

تَهْوِيلًا وَتَشْنِيعًا كَمَا قَالُوا لِلْمَرْأَةِ (مَا أَنْتِ إِلاَّ بَطِينٌ) (٥) .

وَالْمِثْلُ يَشْتَمِلُ عَلَى كِتَابَةِ إِذَنْ أَنَّ المَلْزُومَ هُنَا هُوَ أَنَّ لِلحَيْطَانِ إِذَانَ لِتَنْقُلَ مَا يَسْتَدِرُّ

بَيْنَهَا مِنْ حَدِيثِ الجَمَاعَةِ لِغَيْرِهِمْ .

أَمَّا المَعْنَى اللَّازِمَةُ ، فَهِيَ أَنَّ مِنَ الجَمَاعَةِ المَوْجُودَةِ فَرْدًا مِنَ النَّاسِ أَوْ بَعْضِ الأَفْرَادِ

مَنْ يَسْتَمَعُ إِلَى القَوْلِ ثُمَّ يَنْقُلُهُ إِلَى غَيْرِهِمْ .

وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى المِثْلِ القُرْآنِيِّ الكَرِيمِ " وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ كَلِمَةً " فَإِنَّا نَسْتَطِيعُ القَوْلَ :-

إِنَّهُ قَدْ اِحْتَمَلَ مَعْنِيَيْنِ وَكُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَفِيدُ مَعْنَى يَتَمَشَّى مَعَ السِّيَاقِ وَيَقْوِي المَعْنَى .

(١) اللِّسَانُ : " أَذِنَ " (بِتَصْرُفٍ) .

(٢) نَفْسُهُ . (") (") .

(٣) نَفْسُهُ . (") (") .

(٤) نَفْسُهُ . (") (") .

(٥) نَفْسُهُ . (") .

أما المعنى الأول فهو : إن فيكم نمامين هم عيون لهم عليكم أي : جواسيس .
وأما المعنى الثاني فهو :-

إن بينكم من المؤمنين الذين يسمعون لكلامهم ويطيعونهم (١) وعلى المعنى
الأول تكون اللام في (كُهم) للتعليل .
أما في الثاني فتكون ، لتقوية التعدية (٢) .

وبهذا نستطيع أن نقف عند هذا المثل الكريم على أبعاد وزوايا المعاني
القرآنية المختلفة ، ومقدرة السياق على وضع الظلال المختلفه حول تلك المعاني
التي يخدمها اللفظ المطلوب في مكانه المناسب من السياق .

أما بشأن المثل البشري "للحيطان آذان" فعلى ما فيه من كناية في التعبير
فإننا لنكاد نجد فيه شيئاً من تلك الظلال التي رسمها المثل القرآني .
هذا فضلاً عما أوحى به جرس اللفظ (سَمَاعُونَ) من معنى المبالغة الواضحة
في السمع ، ولعلنا نذكر هنا بعض ما قيل في ضرورة كتمان السر وحفظه :
جاء في الأثر :-

(استعينوا على الحوائج بالكتمان) (٣)

وقول أبي العلاء :-

ولا تخبر شؤناك واجعلنها * * سرائر في الضمير مكتمات (٤)

كما قال المتنبي مشيراً الى حرصه على كتمان السر لأهميته :-

وللسر مني موضع لا يناله * * نديم ولا يفضي اليه شراب (٥)

وقيل أيضاً :-

(سرُّك من دميك) (٦)

-
- (١) تفسير القرآن الحكيم ٤٧٢/١٠ (بتصرف) .
(٢) البحر المحيط ٥٠/٥ (بتصرف) .
(٣) التمثيل والمحاضرة ، ٤١٩ .
(٤) اللزوميات . أبو العلاء المعري ٢٣١/١ منشورات دار صادر بيروت ١٩٦١ م .
(٥) ديوان المتنبي ١/١٩٢ .
(٦) التمثيل والمحاضرة ٤١٩ - ٤٢٠ .

وقيل :-

(كن على حفظ سرك أحرص منك على حقن دمك) (١) .

وقيل :-

(من وهن الأمر اعلانه قبل احكامه) (٢) .

(لا تتكح خاطب سرك) (٣) . وقيل :-

(كلما كثر خزان الأسرار ازدادت ضياعاً) (٤) .

وقال - صلى الله عليه وسلم :-

(إذا حدث الرجل الرجل بحديث فالتفت فهو أمانة وإن لم يستكتمه) (٥) .

وقولهم :-

(قلوب العقلاء حصون الأسرار) (٦) وقولهم :-

(انفراد بسرك ولا تودعه حازماً فيزل ولا جاهلاً فيخون) (٧) .

كذلك قولهم :-

(صدرك أوسع لسرك) (٨) .

وقول أكرم بن صيفى :-

(لا تفتي سرك إلى أمة ولا تبئل على أكمة) (٩) .

وقولهم :-

(اجعل هذا في وعاء غير سرب) (١٠) (قال وأصله في السقاء) (السائل وهو

السرب ، يقول فلا تبدي سري كابدأ السقاء ماءه السائل) (١١) .

(١) التمثيل والمحاضر ص ٤١٩ - ٤٢٠ .

(٢) نفسه ص ٤١٩ - ٤٢٠ .

(٣) نفسه ص ٤١٩ - ٤٢٠ .

(٤) نفسه ص ٤١٩ - ٤٢٠ .

(٥) سنن أبي داود ، كتاب الأدب حديث ٤٨٦٨ - تح محمد محي الدين عبد الحميد

القاهرة سنة ١٣١٣ هـ ، كذلك المسند لابن حنبل ٣/٣٢٤ .

(٦) و (٧) و (٨) كتاب الأمثال ، أبو عبيده ، ٥٧ .

(٩) نفسه ص ٥٧ والأكمة . الجبيل الصغير .

(١٠) و (١١) نفسه ص ٥٧ .

وقال أبو محجن الثقفي :-

واطعن الطعنة النَّجلاءَ عن عُرْضٍ * * واكتم السَّرْفِيهَ ضَرْبَةَ العُنُقِ (١)

وقال قيس بن الخطيم :-

إذا جاوزَ الاثنينِ سَرَفَانِسَهُ * * بِنَتْ وَتَكْبِيرِ الوُشَاةِ قَمِيْنُ (٢)

وقيل :-

(أملك الناس لنفسه من كتم سره عن صديقه و خليله) (٣)

وهكذا بدا لنا مدى أهمية كتمان السرّ وعدم البوح به وقد جاء القرآن الكريم

بهذا المثل لتأكيد هذا المعنى وتقويته .

(١) كتاب الأمثال ، ٥٨ .

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ١٠٥ تح د . ناصر الدين الأسد ، القاهرة سنة

١٩٦٢ م .

(٣) كتاب الأمثال ، ٥٨ .

١٠ - قال تعالى :-

” وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ . . . ” الآية (١) .

أ - المعنى العام :-

نزلت هذه الآية في المنافقين إذ ذكر الشعبي أنهم كانوا يطلبون دية فيقضى لهم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستغنوا وقد ذكر عكرمة أنها كانت اثني عشر ألفاً (٢) وقيل إنها كانت للجلال بن سويد بن الصامت .

وكان الأنصار حين قدم الرسول - صلى الله عليه وسلم - المدينة في ضحك من العيش لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة فأثروا (٣) .

وقال الرسول للأنصار وكنتم عالة فأغناكم الله بي .

وقيل : إنه كان على الجلاس دين فقضاه عنه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم (٤) .

ونورد هنا إحدى الروايات الدالة على خيانة هؤلاء القوم وسوء ما يضررونه للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم - سبب غناهم ومصدر عزهم .

(وقال الإمام أحمد - رحمه الله - حدثنا يزيد أخبرنا بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل لما أقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من غزوة تبوك أمر منادياً فنادى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - أخذ العقبة ، فلا يأخذها أحد فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم - يقوده حذيفة ويسوقه عمار ، إذ أقبل رهطٌ مثلثون على الرواحل ، فغشوا عماراً وهو يسوق برسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأقبل عمار - رضي الله عنه يضرب وجوه الرواحل ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لحديفة قدير - قدير حتى هبط رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) سورة براءه ، ٧٤ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣٠٤٧/٤ .

(٣) التفسير الكبير ٣٧/١٦ (بتصرف) .

(٤) البحر المحيط ٧٣/٥ (بتصرف) .

ورجع عَمَّار ، فقال : يا عَمَّار هل عرفتَ القوم ؟

فقال : لقد عرفتَ عامَّةَ الرِّواحل والقوم مثلثون .

قال : هل تدري ما أَرادوا ؟ قال : اللَّهُ ورسوله أعلم .

قال : " أَرادوا أن ينفروا برسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقال :

نشدتك يا اللَّهُ ، كم تعلم كان أصحاب العقبة ؟ قال : أربعة عشر رجلاً . فقال :

إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر ، قال : فعَدَّ رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

و سلم . منهم ثلاثة قالوا : والله ما سمعنا منادي رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وما علمنا ما أَراد القوم ؟ فقال عَمَّار : أشهد أن الأثني عشر الباقيين حرب لله ورسوله

في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. (١)

من تلك الروايات يتضح لنا المعنى العام للآية وهو أن سبب نعمة (٢) هؤلاء

المنافقين على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ومن معه من القوم المؤمنين لم

يكن ردًا لاساءة ما بيل كان لإحسانهم إليهم وتفضلهم عليهم وبهذا تتفق

هذه الآية الكريمة مع المثل الذي ضربه العرب وهو (احذر شرًّا من أحسنت إليه) .

ب- مناسبته في السِّياق :-

لا شكَّ أنَّ هذا المثل الكامن في الآية الكريمة المذكورة له ارتباط

وثيق بما قبله وما لحق به من آيات

أما مناسبته لما قبله فتبدو في حديث الآية السابقة (٣) عن المنافقين أولئك

الذين يهرث النفاق بعضهم عن بعض ويأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف

إلى آخر ما ذكرته الآية الكريمة من صفات ، تلك الصفات التي استحققت وعد الله

لهم وللكفار بالنار والخلود فيها مع دوام العذاب (٤) ثم دعم السِّياق الكريم هذا

(١) تفسير ابن كثير ٣٧٣/٢ كذلك في ظلال القرآن ١٦٧٨/٣ .

(٢) النِّقمة : من العذاب والانتقام ، كأنه أنكر عليه فعاقبه . فضلا انظر مقاييس اللغة " نَقَمَ " .

(٣) سورة براءه ، ٦٧ .

(٤) سورة براءه ، ٦٨ .

الوعد بقصة من كانوا أشد منهم قوّة ومالاً وأولاداً ، فكانت نهايتهم إحياء أعمالهم
وخسارتهم في الدنيا والآخرة (١) .

وجاء الاستشهاد بعد ذلك بقصة كل من قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم
وأصحاب مد ين والمؤتفكات وتكذيبهم لرسولهم وظلمهم لأنفسهم (٢) .

ثم انتقل السّياق - على عادته - إلى الحديث عن الفئة المقابلة وهي فئة
المؤمنين ، يذكر تعاضدهم وتأزّزهم على فعل المعروف ونهيهم عن المنكر وإيتائهم
للزكاة وطاعتهم لله ورسوله ، ثمّ بيان أنّ هذه الصفات ستكون سبباً في رحمتهم في
الآخرة ووعد الله لهم بالجنّات ذات الأنهار الجارية والخلود فيها مع رضوان الله عليهم
وفوزهم بذلك (٣) .

ثم يعود الحديث بنا في السّياق - مرة أخرى - إلى الحديث عن الكفار والمنافقين
ولكنّه يختلف عما سبق اختلافاً واضحاً ، فقد انتهت فترة الهوادة واللّين ولم يبق
الا الشدّة والقسوة حيث لا يفيد اللّين في مثل هذه الظروف ، فيأتي الأمر صريحاً بمجاهدة
الكفار والمنافقين والحملة عليهم في غلظة وعنف فليس مأواهم إلا جهنّم وساءت مصيراً (٤)
وهنا يأتي دور الآية التي نحن بصددها والتي تبين أنّ هؤلاء المنافقين ما استحقوا
هذا العذاب إلا لقسمهم بالله على أنّهم لم يسبوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
ولا طعنوا في الاسلام (٥) وتبين أنّهم هموا بقتل الرسول الكريم - صلى الله عليه
وسلم - فلم ينالوا ما أرادوه ، وما ذاك ليعيب فيه بل لإحسانه لهم وتفضله عليهم (٦)
ومع نهاية نفس الآية الكريمة تأتي إلى مناسبة هذا المثل لمابعده في السّياق
إنّ أن المولى عز وجل لطيف بعباده عظيم الكرم وإسباغ العطاء والنعم عليهم

(١) سورة براءه ، ٦٩ .

(٢) سورة براءه ، ٧٠ .

(٣) سورة براءه ، ٧١ - ٧٢ .

(٤) سورة براءه ، ٧٣ .

(٥) وردت روايات مختلفة في تفسير كلمة الكفر ونميل هنا إلى مقاله القشيري فضلاً
انظر في ذلك الجامع لأحكام القرآن ٤ / ٣٠٤٥ .

(٦) سورة براءه ، ٧٤ .

فرغم علمه بهم وبسوء تصرفهم وخبث نياتهم ، رغم كل ذلك ، فهو يفتح لهم باب التوبة ليدخلوا منه مطمئنين بما ينتظرهم من خير أما إن أعرضوا عن ذلك فلهم العذاب الأليم في الدنيا والآخرة كذلك ليس لهم شفيع في الأرض ولا نصير (١) .

ثم تتوالى الآيات - بعد ذلك - في بيان فئات المنافقين وأن منهم من يطلب الغنى ويعاهد الله على البذل والعطاء ، إن كان له ما أراد ، حتى إذا أغناه الله من فضله أعرض ونأى بجانبه فزادهم الله نفاقاً لخلفهم الوعد ولكذبهم على أنفسهم ، لأن الله عز وجل عالم بسرهم وعلايتهم لا تخفى عليه خافية من أمر الدنيا والآخرة (٢) .

ثم مضت الآيات بعد ذلك في إتمام صفات المنافقين وأعمالهم وتحذير الرسول منهم ومن أفعالهم ووعودهم ثم أمره بعدم الصلاة عليهم إن مات أحد منهم ونهيه صلى الله عليه وسلم - بعدم الاغترار بأموالهم وأولادهم لأنها ابتلاء لهم في الدنيا ولا أدل على ذلك من أنهم إذا امروا بصدق الإيمان والجهاد في سبيل الله اعتذروا عن ذلك ورضوا لأنفسهم التخلف عن هذا الفضل الكبير لأن هذا ما طبعته عليه قلوبهم من النفاق وعدم الرشاد وهكذا بدا لنا من العرض السريع السابق مدى مناسبة هذا المثل لما بعده وما قبله في السياق الكريم .

ج - العبرة منه :-

إن العبرة من هذا المثل تيدو من خلال تدبرنا للآيات التي نتحدث عن صفات المنافقين وأفعالهم مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وضرورة الشكدة منه صلى الله عليه وسلم في معاملتهم والقسوة عليهم ، وعدم تصديقهم في شئبيء كذلك بيان عدم فائدة الاستغفار لهم وأمره بعدم الصلاة على أمواتهم . . . إلى آخر هذه الآيات المحذرة منهم (٣) .

-
- (١) سورة براءة ، ٧٤ (بتصرف) .
(٢) سورة براءة ، ٧٥ - ٧٨ (بتصرف) .
(٣) سورة براءة ، ٦٢ - ٦٨ ، ٧٤ - ٧٨ ، ٧٩ - ٨٧ (بتصرف) .

نقول إنَّ العبرة تبدو من خلال تدبير هذه الآيات ، فعلى من يعلم بها أن يأخذ كلَّ الحيلة والحذر من أمثال هؤلاء القوم وعدم التعامل معهم بأيِّ شكل كان لأنَّ الله - سبحانه وتعالى - قد حذر رسوله الكريم نفسه وهو صلَّى الله عليه وسلَّم - كما نعلم - على جانب كبير من العلم بهم وبأفعالهم عن طريق الوحي فكيف بالآخرين الذين ليس لهم شيء من ذلك العلم .

أما الجانب الآخر من العبرة الفاضلة في هذا المثل فهو أن المرء تعلم كيفية الشكر على النعمة وضرورته وأن يكون ذلك لله أولاً ثم لمن كان سبباً فيها عليه حتى وإن صدر ذلك المعروف ممن هو أقلُّ منه قدرًا وجاهًا ، فكيف إن كان ذلك ممن المنعم الأول والمتفضل الأكرم ، وكيف إن كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بعده المتسبب فيها ؟ !

لا شك أنَّ آية كهذه تعلمنا جديدًا وهو عدم الاطمئنان للمنافقين حتى وإن أحسن إليهم لأنهم لم يحسنوا شكر الله ورسوله فهل ينتظر منهم الإحسان لمن هم دونهم ، أمالنا ؟ !



د- دراسته و تحليله بيانياً :-

لنتأمل موضع المثل في قوله تعالى :-

” يُحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا
بِمَالِهِمْ يَنْتَالُوا وَمَانَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا
لَهُمْ وَإِنْ يَتُوبُوا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَالَهُمْ فِي
الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ” (١)

نقول لنتأمل موضع المثل من الآية الكريمة ، فنلاحظ أنه أتى بمثابة تعقيب
وتعليل لما جاء قبلها وتمهيد لما بعدها من عرض التوبة عليهم وترك باب الخيار
مفتوحاً ، فإما أن يختاروا الدخول منه فينالوا بذلك ما وعد لهم من خير وإما عدم
ذلك ، فيكون جزاؤهم العذاب الأليم في الدنيا والآخرة .

هذا من جهة بلاغة المثل في موضعه من الآية الكريمة ولكن ماذا عن

الفاظ هذا المثل وتراكيبه ؟ !

إِنَّ أَوْلَ مَا يَطْرُقُ إِذَا نُنَّا فِيهِ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى :-

(٢)
(وَ مَا نَقَمُوا) هذا الجملة التي تعطي معنى الإنكار إماماً باللسان وإماماً بالعقوبة
كما ذكر الراغب - وهنا تتفاعل النفس خيراً بمجيء حرف النفي (مَا) قبلها إن ينفي
الصفة القبيحة عنهم وهي النقمة ، ولكن سرعان ما ينقلنا اللفظ التالي إلى
شعور جديد ومفاجأة عجيبة إن تأتي أداة الاستثناء (إِلَّا) متبعية بقول
(أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ) ، فأي مفاجأة عجيبة ينقلها لنا السياق هنا ؟ !
أتكون النقمة من الرسول الكريم - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بسبب إغناء الله
لهم ثم رسوله الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ ! ، إنه لعجيب حقاً أن تكون هذه
عاقبة العمل الطيب وأعجب منه أن يكون رد الجميل على هذه الشاكلة .

(١) سورة براءه ، ٧٤ .

(٢) المفردات في غريب القرآن ، نقم ، كذلك مقاييس اللغة ، نقم .

ثُمَّ لِنَتَأَمَّلَ قَوْلَهُ تَعَالَى (أَغْنَاهُمْ) وَمَدَى دَقَّتِهَا وَجَمَالُهَا فِي السِّيَاقِ عَنْ جُمْلَةٍ
قَدْ تَوَدَّيَ بَعْضَ الْمَعْنَى وَلَكِنْ لَيْسَ كَلِمَةً كَجُمْلَةٍ (أَعْطَاهُمْ) مِثْلًا .
أَمَّا الدَّقَّةُ فَتَبَدُّ وَفِي أَنْ الإِعْطَاءِ قَدْ يَحْتَمِلُ كِهَابَةَ لِلْحَاجَةِ أَوْ عَدَمَهَا أَوْ زِيَادَةَ عَنْهَا .
وَلَكِنْ الإِغْنَاءُ فِيهِ مَا فِيهِ مِنَ الدَّقَّةِ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الإِعْطَاءِ مَعَ الزِّيَادَةِ عَنِ الْحَاجَةِ .
وَفِي هَذِهِ الدَّقَّةِ فِي مَجِيءِ اللَّفْظِ (أَغْنَاهُمْ) غَايَةَ الْجَمَالَ وَالْبَلَاغَةَ لِأَسِيْمَا وَأَنَّ هَذَا
الْغِنَى كَاتِبٌ مِنَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا - وَرَسُولُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ قَوْلُهُ (مِنْ فَضْلِهِ) تَتَمِيمًا لِلْمَعْنَى (١) وَهُوَ أَحَدُ طُرُقِ
الإِطْنَابِ لَزِيَادَةِ الْمُبَالَغَةِ فِي وَصْفِ هَذَا الْغِنَى .

وَلَا يَفُوتُنَا هُنَا أَنْ نَشِيرَ إِلَى أَنَّ هَذَا الْمِثْلَ كَامِلًا يَشْتَمِلُ عَلَى لَطِيفَةٍ بَلَاغِيَّةٍ وَاضِحَةٍ
وَهِيَ مَا يُعْرَفُ فِي عِلْمِ الْبَلَاغَةِ بِتَأْكِيدِ الْمَدْحِ بِمَا يُشْبِهُ الدَّمَّ (٢) وَنَظِيرُهُ مِنَ الْقُرْآنِ قَوْلُهُ
تَعَالَى :-

« وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » (٣)

وَقَوْلُهُ :-

« وَمَا نَقَمْنَا مِنْهَا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَجَاءِ تَنَسًا » (٤)

(١) التَّتَمِيمُ : هُوَ أَنْ يَأْتِيَ فِي كَلَامٍ لَا يُوهِمُ خِلَافَ الْمَقْصُودِ بِفُضْلِهِ لِنُكْتَةِ كَالْمُبَالَغَةِ .
فَضْلًا أَنْظِرْ فِي ذَلِكَ التَّلْخِيصَ فِي عُلُومِ الْبَلَاغَةِ لِلْقَزويني ص ٢٣١ .
(٢) وَهُوَ أَنْ يُسْتَنْشَى مِنْ صِفَةِ ذِمٍّ مَتَّقِيَّةٍ عَنِ الشَّيْءِ صِفَةً مَدْحٍ ، وَقَدْ أَتَى هُنَا
بِالاسْتِثْنَاءِ الْمَفْرَغِ ، فَضْلًا أَنْظِرْ عُلُومَ الْبَلَاغَةِ لِلْمِرَاقِي ٣٥٤ - ٣٥٥ .

(٣) سُورَةُ الْبُرُوجِ ، ٨ .

(٤) سُورَةُ الْأَعْرَافِ ، ١٢٦ .

٥- ما يوافق من كلام البشر :-

لعلَّ المثلَ البشريَّ الموافقَ لقوله تعالى (وَ مَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمْ

اللَّهُ وَرَسُولَهُ مِنْ فَضْلِهِ) .

هو قولهم :-

(اتَّقِ شَرَّ مَنْ أَحْسَنَتْ إِلَيْهِ ، أَوْ احْذَرِ شَرَّ مَنْ أَحْسَنَتْ إِلَيْهِ) .

وقول الشاعر :-

وَ مَا نَقَمُوا مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ إِلَّا * * أَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ إِنْ غَضِبُوا .

ولنتناول هنا القول (اتَّقِ شَرَّ مَنْ أَحْسَنَتْ إِلَيْهِ) بالدراسة فنقول : ونحن

بصدد دراسة هذا المثل أول ما صادفناه هو فعل الأمر (اتَّقِ) المشتمل على ضمير

الفاعل .

- وكانعلم أَنَّ ماضي (اتَّقِ) هو الفعل (وَقِيَ) (مِنْ وَقَاهُ اللَّهُ وَقِيًّا وَوَقَايَةَ

أَي صَانَهُ قَالَ الشَّاعِرُ :-

فَعَادَ عَلَيْكَ إِنْ لَكِنَّ حَظًّا * * وَوَقَايَةَ كَوَاقِيَةَ الْكِلَابِ

وَوَقَيْتُ الشَّيْءَ أَقْبَاهُ إِذَا صُنَّتْهُ وَسْتَرْتُهُ عَنِ الْأَذَى .

وفي التنزيل الكريم :-

" وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَالَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ) (١) أَي : مِنْ دَافِعٍ .

ووقاه الله وقاية بالكسر أي حفظه ، اتَّقَيْتُ الشَّيْءَ أَي : حَذَرْتُهُ وَفِي الْحَدِيثِ

(فِيمَا مَامَعْنَاهُ)

كُنَّا إِذَا أَحْمَرَ الْبَأْسَ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَيِ اسْتَقْبَلْنَا

بِهِ الْعَدُوَّ وَقَمْنَا خَلْفَهُ وَوَقَايَةَ (٢) .

(١) سورة الرعد ، ٣٤ .

(٢) اللسان : " وَقَى " (بتصرف) .

وعند تأمل هذا القول (اتَّقِ شَرَّ مَنْ أَحْسَنَتْ إِلَيْهِ) نلاحظ أنه عبارة عن نصيحة وردت بصيغة الأمر (اتَّقِ) - وكما نعلم - أن الأمر في النصائح قد لا يكون مقبولاً القبول التام أو يفقد السامع الرغبة في مجرد سماع ما يقال لاسيما وإن جاء بعد صيغة الأمر هذه قضية غير منتظر الاقتناع بها .

وفي الحقيقة إننا نقف أمام هذا القول (اتَّقِ شَرَّ مَنْ أَحْسَنَتْ إِلَيْهِ) في حالة اندهاش عجيب ، إذ يتردد في نفس كل سامع سؤال يؤدِّي إلى عدم الاقتناع بما يقال وخاصة في حالة وروده في صيغة الأمر .

هذا السؤال هو كيف يكون الشر من أحسن إليه ؟ ! وبالتالي يؤدِّي عدم الاقتناع هذا إلى عدم تنفيذ النصيحة المسداة ، بينما لانجد ذلك في المثل القرآني الموافق لهذا القول البشري وهو الكامن في قوله تعالى :-

” وَمَا نَقُوصُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ” .

إذ أن طريقة إسداء النصيحة هنا تختلف تماماً عن الأولى فالنفي والاستثناء في المثل القرآني الكريم . . . أكسب هذه النصيحة حياً وتشوقاً .

أما جانب المحبة فيها فلأنها طريقة لا تشتمل على الأمر الذي وجدناه في القول (اتَّقِ) .

وأما التشوق فيها فجاء من ذلك النفي الذي بدأ به المثل إذ نفى الحرف (ما) صفة قبيحة وهي النقمه ثم استثنى منها شيئاً آخر ، وهذا الانتقال في عرض المعنى من النفي إلى الاستثناء يدعو إلى جذب الانتباه بشدة لما سيأتي بعد أداة الاستثناء (إلا) وهذا أيضاً لانجده في القول (اتَّقِ شَرَّ مَنْ أَحْسَنَتْ إِلَيْهِ) .

هذا إلى جانب ملاحظة أن هذا القول القرآني لم يأت منعزلاً عن غيره ، بل - كما أشرنا - جاء في موضعه بمثابة تعقيب وتعليل (١) لما سبقه من أفعال المنافقين وتمهيد لما بعده من فتح باب التوبة لهم

(١) فضلاً راجع ص ٢٨٨ من هذا البحث .

ولا أدلّ على أنّ هذا المثل الكامن في الآية الكريمة ما جاء الاللتعقيب على موضوع سابق - لا أدلّ على ذلك من مجي آيات أخرى تحضّ على مقابلة الإساءة بالمعروف إذ قال تعالى :-

« ادْفَعِ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ » (١)

وقال تعالى :-

« ادْفَعِ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » (٢)

وقوله تعالى :-

« هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ » (٣)

فالقُرآن الكريم لا يمكن أن يحضّ على أخذ الحذر والحِيطَة من أحسن إليه مُطلقاً بدليل الآيات السَّابِقات وغيرها من الآيات الحاصّة على الإحسان ، أمّا ما جاء في المثل القرآنيّ الكريم الكامن في الآية الجليّة ، فما هو الاللتعقيب على أحوال المنافقين مع رسوله الكريم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وكيف يكون القرآن داعياً إلى هذا المبدأ ونحن نعلم تمام العلم أن الحلم خلق محمود وقد تحلّى به وحضّ عليه خير خلق الله وخير مقتدٍ بالقرآن الكريم إذ يقول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :-

« ليس الشَّدِيد بالصرعة وإنما الشَّدِيد الَّذِي يملك نفسه عند الغضب » (٤)

ولكن هذا الخلق الكريم لا يستطيعه إلا القلّة من الناس فهذا حلِيم يسألُ الله من أراد أن يكون مثله حلِيماً ، يسأله عن الحلم فيقول :- مُجيباً - مامعناه -

إِنَّهُ الذُّلُّ يَا أَخِي أَتَصْبِرُ عَلَى الذُّلِّ ؟ (٥)

(١) سورة المؤمنون ، ٩٦ .

(٢) سورة فصلت ، ٣٤ .

(٣) سورة الرحمن ، ٦٠ .

(٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري . الحافظ ابن حجر العسقلاني ، التزام عبد الرحمن محمد * كتاب الأدب * ٤٢٧/١٠ ط ٢ عام ١٤٠٢ هـ ، دار احياء التراث العربي ، بيروت .

(٥) تأملات في سورة الاسراء ١١٢ (بتصرف).

ولا أدلّ على أنّ الحلم مقصور على عدد يسير من الناس وأنه لا يكون إلا من الصِّبْرِ
حقاً الذي يحتمل ما لا يحتمله غيره - لا أدلّ على ذلك من الغند الزماني :-

صَفَحْنَا عَنْ بَنِي ذَهْلٍ * * * وَقُلْنَا الْقَوْمَ إِخْوَانُ
عَسَى الْأَيَّامُ أَنْ يَرْجِعَ * * * نَ قَوْمًا كَالَّذِي كَانُوا
فَلَمَّا صَحَّ الشَّيْرُ * * * فَأَمْسَى وَهُوَ عَرِيكَانُ
وَلَمْ يَبْقَ سِوَى الْعُودِ * * * نَ دَنَاهُمْ كَمَا دَانُوا
مَشِينًا مَشِيَةَ اللَّيْلِ * * * غَدَا وَاللَّيْتُ غَضَبًا
بِضَرْبٍ فِيهِ تَوَهُّبِينَ * * * وَتَخْضِيعٌ وَإِقْرَانُ
وَطَعْنٌ كَهْمِ الْكَزْقِ * * * غَدَا وَالزَّقُ مَوْلَانُ
وَبَعْضُ الْحِلْمِ عِنْدَ الْجَهِّ * * * لِ لِلذَّلَّةِ اذْعَانُ
وَفِي الشَّرِّ نَجَاةٌ حَيَّةٌ * * * نَ لَا يُنْجِيكَ إِحْسَانُ (١)

ويمثل هذا القول من كلام العرب أيضاً قولهم :-

(الطَّعْنُ يَظُنُّ) (٢) .

وقال المتنبي :-

إذا قيل : رفقا ، قال للحلم موضع

وحلم الفتى في غير موضعه جهل (٣)

وقال أيضاً :-

من الحلم أن تستعمل الجبل حونه * * * إذا اتسعت في الحلم طرق المظالم (٤)
هذا ما ذهب إليه بعض الناس ولكننا لا نذهب إلى هذا الرأي بل نرى أن العفو
والصفح عند الإساءة أقوى تأثيراً على المسيء من مقابلته بنفس تصرفه وأدعى إلى اشارة
جوانب الخير في نفسه قال الشاعر :-

(١) شرح ديوان الحماسة ، المرزوقي (١/٣٢ - ٣٣) نشره أحمد أمين ، عبد السلام

هارون ط ٢ سنة ١٩٦٧ م .

(٢) أي : يعطف .

(٣) ديوان المتنبي ، شرح العكبري ١٨٧/٣ ضبط وتصحيح ، مصطفى السقا

ابراهيم الإبياري ، عبد الحفيظ شلبي ، دار المعرفة بيروت .

(٤) نفسه ١١٢/٤ .

وَمَا قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالْعَفْوِ عَنْهُمْ
ومن لك بالحر الذي يحفظ اليد (١)

هذا من جانب تأثير الإحسان على المسيء ، نفسه ، أما الجانب الآخر وهو
الأهم ، فهو جانب نفعها لصاحب الإحسان ذاته فقد قال خليفة رسول الله صلى الله
عليه وسلم وهو أولي بأن يؤخذ قُدوة لنا - قال في ذلك :-

(صنائع المعروف تقي مصارع السوء) (٢)

ومن أمثال لقمان الحكيم في ذلك :-

(كذب من قال الشر بالشر يطفأ فان كان صادقا فليوقد نارين ثم لينظر هل

تطفيء ، إحداهما الأخرى ؟ ، وإنما يطفىء الخير الشر كما يطفىء الماء النار) (٣)

وهذه هي المعاني السامية التي تناولتها الآية الكريمة :-

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ، وَمَا يُلْقَاهَا

(٤)

إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

فالإحسان مطلوب إلى من أساء ، ليستجلب خاطره فتحوّل عداوته إلى

صداقة وينقلب بفضه إلى محبة والله أعلم ،،،،،

(١) ديوان المتنبي ، ٢٨٨/١

(٢) التمثيل والمحاضرة ، ٢٨

(٣) نفسه ، ٣٥

(٤) سورة فصلت ٣٤ ، ٣٥

(١) - قال تعالى :-

"بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ" (١)

أ - المعنى العام :-

لعلَّ من الخطأ الفادح أن يكذب الإنسان شيئاً لا يعلم من شأنه أي صغيرة أو كبيرة متبَعاً في ذلك التكذيب الأهوج ، هواه دون تحكيم عقله ، وقد ذكر القرآن الكريم هذا المعنى في موضعين (٢) نكفي بذكر أحدهما وهو ما جاء في الآية الكريمة المذكورة ، إذ بيّنت تكذيب الكفار للقرآن ورفضهم له ، قبل ما ثبت لهم ما يؤيد فعلهم ذلك أو عدمه ، بل إنهم سارعوا إلى هذا التكذيب دون تدبُّر لمعانيه أو ما شتمل عليه من حكاية ماسلف من أخبار الرُّسل وأممهم أو مافيه من حديث عما يُستقبل من الأمور والأحداث تلك الأخبار المعجزة بما فيها من حوادث ، فضلاً عن طريقتها المتميزة في الأداء والعرض مما يؤيد كونه آتياً من عند ربه واحد لا يُشاركه أحدٌ في ملكوته .

ولعلَّ السَّبب في رفضهم لذلك القرآن وتكذيبهم له راجع إلى جهلهم ، به فضلاً عن حب السيطرة والمكابرة المتأصلة في نفوسهم وليس لعيب فيه (٣) .
فيقول الشوكاني في ذلك :-

(والحاصل أن من كذب بالحجة النيِّرة والبرهان الواضح قبل أن يحيط بعلمه فهو لم يتسكَّ بشيء في هذا التكذيب الا مجرد كونه جاهلاً لما كذب به غير عالم به فكان بهذا التكذيب منادياً على نفسه بالجهل بأعلى صوتٍ ومسجلاً بقصوره عن تعقُّل الحجج بأبلغ تسجيل ، وليس على الحجة ولا على من جاء بها من تكذيبه شيء :-

ما يبلغ الأعداء من جاهلٍ * * ما يبلغ الجاهل من نفسه (٤)

لذا كان من الحرى بهؤلاء المكذِّبين تدبُّر آي القرآن ومعرفة أسرار إعجازه ومافيه من حديث عن آيات الله وقدرته في ملكوته ليقفوا بعقولهم على حقيقته التي لا مراة فيها والتي كان من الممكن أن تُقطف ثمارها لولم يكن ذلك التكذيب السريع والإصرار التام منهم .

(١) سورة يونس ، ٣٩ .

(٢) الموضع الثاني في سورة النساء ١٦٦ .

(٣) روح المعاني ٢٠ / ١١ (بتصرف) .

(٤) فتح القدير ٤ / ٤٦

ب- مناسبتة في السِّيَاق :-

تحدّثت الآيات السَّابِقَات (١) عن إبطال شُبُههم على القرآن وأثبتت أَنَّهُ من عِنْد اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ ولعلَّ السَّبَب في ذلك هو أن السُّورَةَ كَلَّمَا قُصِدَ بِهَا اثْبَات تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ (٢) ، وقد جاءت آية المثل هذه في الْقِسْمِ الْخَاصِّ بِتَحْدِيثِهِمْ بِهِ (٣) وبما أَنَّهُا جاءت في هذا الْقِسْمِ كان من الْمُنَاسِبِ جَدًّا أَنْ تَبَيَّنَ أَنْ تَكْذِيبَهُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَرَفْضَهُمْ لَهُ لَمْ يَأْتِ عَنْ عِلْمٍ وَتَمْحِيطٍ بِهَلْ جَاءَ عَنْ جَهْلٍ تَامَ بِمَافِيهِ مِنْ أَدَلَّةٍ كُونِيَّةٍ وَأَخْبَارٍ غَيْبِيَّةٍ سَابِقَةٍ لَوْجُودِهِمْ وَلَا حِقَّةٍ بِزَمَانِهِمْ ، فَضْلًا عَنْ أَسْرَارِ الْإِعْجَازِ فِي نَظْمِ آيَاتِهِ وَأَلْفَافِهِ الْكَرِيمَاتِ هَذَا بِالنَّسْبَةِ إِلَى مَنَاسِبَةِ الْمَثَلِ لِمَاسِقِهِ مِنْ آيَاتٍ .

أَمَّا عَنْ مَنَاسِبَتِهِ لِمَابَعْدِهِ فِي السِّيَاقِ ، فَنَلَاظِحُ أَنَّ الْقِسْمَ التَّالِيَّ مِنَ السُّورَةِ (٤) قَدْ تَحَدَّثَ عَنْ دَعْوَتِهِمْ إِلَى تَصْدِيقِ الْقُرْآنِ بِالرَّغِيبِ مَرَّةً وَبِالرَّهِيْبِ أُخْرَى وَهَذَا مِنْ غَيْرِ شَكٍّ دَلِيلٌ عَلَى ارْتِبَاطِ آيَةِ الْمَثَلِ بِمَا جَاءَ بَعْدَهَا مِنْ آيَاتِ فِي السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ لِأَنَّ مَجِيءَ الْآيَاتِ الدَّاعِيَةِ إِلَى تَصْدِيقِ الْقُرْآنِ تَلُوَ الْحَدِيثَ عَنْ تَكْذِيبِهِمْ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْمًا ، إِنَّمَا هُوَ دَلِيلٌ أَكِيدٌ عَلَى هَذَا الْارْتِبَاطِ الْوَثِيقِ بَيْنَهُمَا ، وَبَيَانٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّهُ يَحْمِلُ بَيْنَ سَطْوَةِ الْكَرِيمَةِ مَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْمًا عَلَى الْحَقِيقَةِ . . . ثُمَّ يَبْدُو هَذَا الْارْتِبَاطَ أَقْوَى ، عِنْدَمَا نَلَاظِحُ أَنَّ خَاتِمَةَ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ (٥) جَاءَتْ مُتَحَدِّثَةً عَنْ شَيْئَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَأَنَّهَا هِيَ الْإِسْلَامُ فِي إِيمَانِ النَّاسِ جَمِيعًا أَوْ عَدَمِ ذَلِكَ ، وَأَنَّ الْأَمْرَ فِي ذَلِكَ كَلَّمَهُ رَاجِعٌ إِلَى حِكْمَتِهِ فِي خَلْقِهِ وَاخْتِيَارِهِ لِرُسُلِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ وَلَيْسَ عَلَى رَسُولِهِ الْكَرِيمِ سِوَى اتِّبَاعِ وَحْيِهِ سُبْحَانَهُ وَاسْتِلْهَامِ الصَّبْرِ مِنْهُ جَلًّا وَعِلَاحَتِيَّ يَحْكُمُ اللَّهُ فِي أَمْرِهِ مَعَهُمْ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ .

-
- (١) سورة يونس ١ - ٣٦ (يتصرف) .
(٢) النظم الفتي في القرآن ، عبد المتعال الصعيدي ٣٧ ، المطبعة النموذجية
سكة الشابوري بالحلمية الجديدة ، القاهرة ، (بتصرف) .
(٣) سورة يونس ، ٣٧ - ٥٦ .
(٤) سورة يونس ، ٥٧ - ٥٨ .
(٥) سورة يونس ، ٩٩ - ١٠٩ .

ح - العبرة منه :-

لا شك أنَّ العبرة واضحة من هذا المثل الكريم وضوح الشمس ، إذ على المرء أن لا يتسرع في الحكم على الأشياء قبل خبرتها والعلم الشامل بها ، بل عليه أن يأخذ نفسه بالتؤدة والرؤية حتى لا يقع في شرطته وسوء تصوُّره ، كذلك عليه إن شكَّ في أمر من الأمور أن يتثبت منه أولاً ثمَّ يحكم عليه وقد قال تعالى مؤكداً ذلك في صراحة ووضوح :-

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا » (١)

هذا بالنسبة إلى المعاملات بين الناس في الأمور اليومية ، فكيف لا يكون ذلك أولى في ضرورة التأكد من مافي القرآن الكريم من صدق وإثبات لوحدانية الله سبحانه وتعالى ؟ ! .

.. .. .

د - دراسته وتحليله بيانياً :-

نلاحظ أنّ المثل الكامن في الآية الكريمة ، قد اشتمل على (إضراب وانتقال عن إظهار بطلان ما قالوا في حقّ القرآن العظيم بالتحدي ، إلى اظهاره ببيان أنّه كلام ناشئ عن عدم علمهم بكنه أمره والاطلاع على شأنه الجليل) (١) .
و (ما) جاءت هنا اسم موصول بمعنى الذي وجعلت هنا عنواناً لعدم العلم بالقرآن وللمبالغة والإيذان بكمال جهلهم به ، وقد قال في ذلك أبو السعود :-
(والتعبير عنه بمالم يحيطوا بعلمه دون أن يُقال بل كذبوا به من غير أن يحيطوا بعلمه أو نحو ذلك للإيذان بكمال جهلهم به وأنهم لم يعلموه إلا بعنوان عدم العلم به وبأن تكذيبهم به إنّما هو بسبب عدم علمهم به لما أن إدارة الحكم على الموصول مشعرة بعليّة مافي حيّز الصلّة له) (٢) .

وقد نقل أبو حيان عن ابن عطية وجهين في (ما) هنا :-
أولهما :-

أن يريد بما الوعيد الذي توعدّهم الله به على الكفر وتأويله على هذا يريد به ما يؤول إليه أمره كما هو في قوله (هل ينظرون إلا تأويله) (٣) .
وثانيهما :-

أنّه أراد به كذبوا بهذا القرآن العظيم العنبي بالغيوب الذي لم يتقدّم لهم به معرفة ولا أحاطوا بمعرفة غيومه وحسن نظمه ولا جاءهم تفسير ذلك وبيانه (٤) .
وترجّح هنا الوجه الثاني لابن عطية وبهذا الترجيح نكون قد اتفقنا أيضاً مع أبي السعود في رأيه الذي أشرنا إليه وهو أنّهم كذبوا به لكمال جهلهم به وبمعنوا عدم علمهم به (.....) الخ .

(١) روح المعاني ، ١١٩ / ١١ .

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١٤٦ / ٤ .

(٣) سورة الأعراف ، ٥٣ .

(٤) البحر المحيط ١٥٨ / ٥ (يتصرف) .

أما جملة (لَمْ يُحِيطُوا بِهِ) فهي صلة الموصول لا محل لها من الإعراب .
ولنتأمل هنا قوله (بَلْ كَذَّبُوا) ، فقد ذكر الراغب أن معنى (كَذَّبْتُهُ)
أي نسبته إلى الكذب صادقاً كان أو كاذباً وما جاء في القرآن ففي تكذيب الصادق نحو:
(كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) (١) .

وقد جاءت هنا بهذا المعنى وهي أبلغ في موضعها هذا مما لو قيل مثلاً
(أنكروا) ، لأنَّ أهل الإنكار أن يريد على القلب ما لا يتصوره وذلك ضرب من
الجهل (٢) وسبب الإنكار باللسان هو الإنكار بالقلب .
أما بلاغة مجيء جملة (كَذَّبُوا) هنا ، فلأنَّهم يعلمون صدق القرآن ولا يجهلونه
ومع ذلك نسبوه إلى الكذب لعدم إحاطتهم بكنهه وإعجازه .
أما قوله :-

(بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ) فقد جاءت - هنا - جملة (لَمْ يُحِيطُوا) أكثر دقّة
من القول يعلموا مثلاً الذي يؤدي الغرض ، ولكن الدقّة هنا تبدو في أنّ (الإحاطة
بالشيء) علماً هي أن تعلم وجوده وجنسه وكيفيته وغرضه المقصود به وبإيجاده
وما يكون به ومنه وذلك لا يكون إلا لله عزّ وجل (٣) .
أما العلم فهو إدراك الشيء بحقيقته ولعلّ الجمال في التعبير هنا يبدو في
بلاغة مجيء تركيب جملة (لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ) ، إذ نلاحظ هنا أنّ الإحاطة قد
جاءت للعلم وهو شيء معنوي ، بينما هي تستعمل في الأجسام كقولنا " أحطت
بمكان كذا " .

وهكذا تعتبر في هذا التركيب استعارة مكنية وتجري الاستعارة فيها على هذا
النحو :-

-
- (١) المفردات في غريب القرآن " كَذَّبَ " .
 - (٢) نفسه " نَكَرَ " .
 - (٣) نفسه " حَاطَ " .

شَبَّهَ الْعِلْمَ بِالْمَكَانِ بِجَامِعِ الْإِحَاطَةِ فِي كَلِمَةٍ ، ثُمَّ حَذَفَ لَفْظَ الْمَشَبَّهِ بِهِ وَهُوَ الْمَكَانُ وَكَسَبَنِي عَنْهُ بِشَيْءٍ مِنْ لَوَازِمِهِ لِلْمَشَبَّهِ وَهُوَ الْإِحَاطَةُ فِي قَوْلِهِ (يُحِيطُوا) عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِعَارَةِ التَّبَعِيَّةِ الْمَكْنِيَّةِ وَاسْتِعْمَالَ لَازِمِ الْمَشَبَّهِ بِهِ لِلْمَشَبَّهِ اسْتِعَارَةَ تَخْيِيلِيَّةٍ قَرِينَةَ الْمَكْنِيَّةِ .

هَذَا وَلَا يَفُوتُنَا هُنَا أَنَّ الْمَثَلَ الْكَامِنَ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ يَشْتَمِلُ عَلَى إِيجَازِ الْقَصْرِ (١) وَذَلِكَ لِأَنَّ هَذِهِ الْعِبَارَةَ الْيَسِيرَةَ (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِهَا) تَنْطَوِي عَلَى مَعَانٍ كَبِيرَةٍ وَهِيَ (بَلْ سَارَعُوا إِلَى التَّكْذِيبِ بِالْقُرْآنِ وَفَاجَأُوهُ فِي بَدِيهَةِ السَّمْعِ قَبْلَ أَنْ يَفْقَهُوهُ وَيَعْلَمُوا كَيْفَ أَمْرُهُ وَقِيلَ أَنْ يَتَدَبَّرُوهُ وَيَقِفُوا عَلَى تَأْوِيلِهِ وَمَعَانِيهِ ، وَذَلِكَ لِفَرْطِ نَفْسِهِمْ عَمَّا يَخَالِفُ دِينَهُمْ وَشِرَاطَهُمْ عَنِ مَفَارِقَةِ دِينِ آبَائِهِمْ ، كَالنَّاشِيءِ عَلَى التَّقْلِيدِ مِنَ الْحَشْوَةِ إِذَا أَحْشَى بِكَلِمَةٍ لَا تُوَافِقُ مَا نَشَأَ عَلَيْهِ وَأَلْفَهُ وَإِنْ كَانَتْ أَمْوًا مِنْ الشَّمْسِ فِي ظَهْرِ الصَّحَّةِ وَبَيَانَ الْإِسْتِقَامَةِ أَنْكَرَهَا فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ وَاشْمَأَزَّ مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَحْسَنَ ادْرَاكَهَا بِحَاسَّةٍ سَمِعَهُ مِنْ غَيْرِ فِكْرٍ أَوْ فِسادٍ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَشْعُرْ طَبَعُهُ بِالصَّحَّةِ مَذْهَبِهِ وَفِسادِ مَعَادِيهِ مِنَ الْمَذَاهِبِ) (٢)

وَهَكَذَا نَلَاظُ أَنَّ كُلَّ هَذِهِ الْمَعَانِي تَنَاوَلَهَا الْمَثَلُ الْكَرِيمُ وَهُوَ بِهَذَا أَبْلَغُ مَنْ قَوْلُهُمْ :-

مَنْ جَهَلَ شَيْئًا عَادَاهُ وَذَلِكَ مِنْ وَجْهِ :-

أَوَّلُهَا : أَنَّ الْجَهْلَ بِالشَّيْءِ غَيْرُ تَكْذِيبِهِ لِأَنَّ مَنْ عَادَى شَيْئًا لَا يَعْلَمُ عَنْهُ شَيْئًا مُطْلَقًا رُبَّمَا كَانَ عَذْرُهُ فِي ذَلِكَ هُوَ جَهْلُهُ بِهِ بِإِطْنًا وَظَاهِرًا ، أَمَّا تَكْذِيبُ الشَّيْءِ فَهُوَ نَسْبَتُهُ إِلَى الْكُذْبِ سِوَاهُ كَانَ صَادِقًا أَوْ كَاذِبًا وَفِي هَذَا ظُلْمٌ وَاضِحٌ خَاصَّةً إِذَا كَانَ ذَلِكَ الشَّيْءُ صِدْقًا كَالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَلَا عَذْرَ مَعَ تَكْذِيبِهِ .

(١) إِيجَازُ الْقَصْرِ :- هُوَ الَّذِي يَحْمَلُ مَعَانِي كَثِيرَةً فِي أَلْفَاظٍ يَسِيرَةٍ وَلَا حَذْفَ فِيهِ فَضْلًا أَنْظِرْ فِي ذَلِكَ التَّلْخِيسَ فِي عُلُومِ الْبَلَاغَةِ ، ٢١٤ .

(٢) الْكُشَافُ ٢ / ٢٣٨ .

(١)

فضلاً عما في المثل القرآني الكريم من دقة مجيء الألفاظ التي سبق الإشارة إليها كذلك في إيجاز القصر الذي اشتملت عليه عبارته ، وهذا لانجده من غير شك في قولهم " من جهل شيئاً عاداه " .

هذا ولا يفوتنا هنا أن نذكر ماللاية من هدف أسمى - كما هو معهود عن القرآن الكريم بخلاف سائر الكتب والأقوال الأخرى - ، إن أنه لا يكفي بالقاء الخبر فقط بل - لا بد من أخذ العبرة الدينية والدينيّة معاً منه ، فهذه الآية الكريمة - كما أشرنا - تؤخذ منها العبرة في ضرورة التّؤدة والتّأني في الأخذ بالأمر وعدم التسرع في الحكم عليها ، لما في ذلك من النتائج الحميدة ومن الأقوال المأثورة في هذا المجال قولهم :-

(رَبِّ عَجَلَةٌ تَهَبُ رَيْشاً) (٢)

وقولهم :-

(الأناة حصن السّلامه ، والعجلة مفتاح الندامة) (٣)

وقولهم :-

(الأناة نجاة) (٤)

وقولهم :-

(اتقّد تصب أو تكّد) (٥)

وقولهم :-

(التّأني في الأمور أول الحزم ، والتّسع إلى الخطأ عين الجهل) (٦)

وقولهم :-

(بالتّأني تدرك الغرض) (٧)

وقولهم :-

(الرّقق مفتاح النّجاح) (٨)

(١) فضلاً راجع ص ٣٩٨-٣٩٩ من هذا البحث .

(٢) اللسان : " رَيْشٌ " .

(٣) التمثيل والمحاضرة ص ٤٢٠ .

(٤) نفسه ، نفس الصفحه .

(٥) نفسه ، نفس الصفحه .

(٦) نفسه ، نفس الصفحه .

(٧) نفسه ، نفس الصفحه .

(٨) نفسه ، نفس الصفحه .

وقول الشاعر :-

قد يدرك المتأني بعض حاجته * * وقد يكون مع المستعجل الزلل^(١)

وقول آخر :-

خليبي لا تستعجلا وانظرا غدا * * عسى أن يكون الرفق في الأمر أرشدا^(٢)
وقوله صلى الله عليه وسلم :-

(..... فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى) (٣)

وقوله :-

(إذا أراد أحدكم أمراً فعله بالتؤدة) (٤)

وقولهم :-

(الرشف أنقع) (٥)

-
- (١) ديوان القطامي ، تحقيق د . ابراهيم السامرائي ، د . أحمد مطلوب ص ٢٥ ، طسنة ١٩٦٠ م ، بيروت .
- (٢) هوتيم بن أبي مقبل من بني العجلان . أدرك الإسلام وأسلم ، فكان بيكبي الجاهليين ، فضلاً أنظر الإصابه ، ابن حجر العسقلاني ١/١٩٥ مصر سنة ١٣٥٨ م ، خزانة الأدب ، البغدادي ١/١١٣ مصر سنة ١٢٩٩ م والبيت في نهاية الأرب للنويري ٣/٦٢ ، دار الكتب سنة ١٩٣٥ م .
- (٣) مسند الامام أحمد بن حنبل ٣/١٩٩ ، القاهرة سنة ١٣١٣ هـ وأول الحديث هو (إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، ولا يتجسس إلى نفسك عيادة رسك فإن المنبت) الخ والمنبت هو المسافر المنقطع في طريقه بسبب اتعابه دابته حتى عطيت عن السمير .
- (٤) جمع الجوامع ، السيوطي ، الجامع الكبير ١١/٣٨ تصوير الهيئة المصرية للكتاب (بلفظ إذا أردت أمراً فعليك بالتؤده) .
- (٥) جمهرة الأمثال ، أبو هلال العسكري ١/٤٨٤ ، محمد أبو الفضل ابراهيم و د . عبد المجيد قطامش القاهرة سنة ١٩٦٤ م والرشف هو التأني في الشرب و (أنقع) أي : أروي .

وما يوافق هذا القول أيضاً من القرآن الكريم قوله تعالى :-

١٢ - * وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسَّحُوا بِأَيْدِيهِمْ هَذَا فَمَسَّحُوا بِأَيْدِيهِمْ * (١)

أ- المعنى العام :-

إِنَّ المثل الكريم السابق هو جزءٌ من قوله تعالى :-

* وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ
فَمَسَّحُوا بِأَيْدِيهِمْ هَذَا فَمَسَّحُوا بِأَيْدِيهِمْ * (١)

قيل إنها مقالة كهار قريش للمؤمنين ، أي لو كان ذلك الدين الذي يدعو إليه
محمد خيراً لما سبق إليه الذين بلغهم إيمانهم من الفقراء والموالي ، يريدون بذلك
عماراً وصهيباً وبلالاً وغيرهم ممن أسلم وآمن بالنبى صلى الله عليه وسلم (٢) .
وفي رواية أخرى :-

(قد قال ذلك قائلون من الناس كانوا أعزّ منهم في الجاهلية ، قالوا : واللّه
لو كان هذا خيراً ماسبقنا إليه بنو فلان وبنو فلان ، يختص الله برحمته من يشاء
ويكرم الله برحمته من يشاء تبارك وتعالى) (٣) .

وقيل إن المقصود بهم من جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من يهود بني
اسرائيل للذين آمنوا به ، لو كان تصديقكم محمداً على ما جاءكم به خيراً ماسبقتمونا
إلى التصديق به وهذا التأويل يوافق من تأول قوله (وشهد شاهد من بني
اسرائيل على مثله) أنه المعنى به عبد الله بن سلام وقيل هي مقالة كنانة وعامر
وسائر قبائل العرب المجاورة ، قالت ذلك حين أسلمت غفار ومزينة وجهنينة
أي لو كان هذا الدين خيراً ماسبقنا إليه الرعاة وقيل أسلم أبو ذر ثم أسلمت غفار
فقال قريش ذلك (٥)

-
- (١) سورة الأحقاف ، ١١ .
 - (٢) البحر المحيط ٥٩/٨ (بتصرف) كذلك في ظلال القرآن ٣٢٥٨/٦ (بتصرف) .
 - (٣) جامع البيان ١٣/٢٦ .
 - (٤) نفسه ، (بتصرف) .
 - (٥) البحر المحيط ٥٩/٨ (بتصرف) .

ومهما اختلفت الروايات في القائلين ، فإنَّ معنى قولهم هو :-
وإن لم يُصروا بمحمد وبما جاء به من الهدى والحق من عند الله ، فيرشدوا
به إلى الطريق المستقيم ، إذ لم يكن ذلك منهم ، فستكون نتيجة ذلك العناد
والمكابرة وسيقولون إنَّ الذي جاء به - صلى الله عليه وسلم - ما هو إلا أكاذيب من
أخبار الأولين قديمة (١) كما أخبرنا - سبحانه وتعالى - عنهم بقوله :-
(وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) (٢) .
هذا ويطيب لنا هنا أن ننقل ما كتبه صاحب تفسير الظلال في ذلك إذ يقول
معلقاً :-

(طبعاً : فلا بدَّ من عيبٍ في الحقِّ ماداموا لم يهتدوا به ولم يذعنوا ، لا بدَّ من
عيب في الحقِّ لأنَّهم هم لا يجوز أن يُخطئوا ، وهم في نظر أنفسهم ، أو في ما يريسون
أن يوحوا به للجماهير ، مقدَّسون معصومون لا يُخطئون) (٣) .
نعم ذلك هو شأن الكافر المكابر دائماً وأبداً في كلِّ زمانٍ ومكان .

ب- مناسبة في السِّياق :-

لدراسة هذه المناسبة نلاحظ أنَّ هذا المثل قد ورد ضمن الآيات
المتحدثة عن الوحي والرَّسالة وتكذيب الكفار لها (٤) فكان من المناسب أن يأتي
هذا المثل الكريم ليدلَّ على مكابرتهم وعنادهم وجهلهم للحقِّ الذي جاء به محمد صلى
الله عليه وسلم ، ومحاولة إبداء العداوة له بأيِّ شكل كان ، ولعلَّ أسهل ما يمكن
أن يُقال عن القرآن إنَّه كذب وأخبار قديمة لا قيمة لها .

هذا عن مناسبة المثل للسِّياق قبله .

أمَّا عن مناسبة لمابعدَه : فنلاحظ ان السِّياق قد تلا هذه الآية المشتعلة على
المثل الكريم بأية تؤيد موقعه في هذا السِّياق ومناسبتة لمابعدَه ، إذ تحدَّثت الآية

(١) جامع البيان ١٣/٢٦ (بتصرف) .

(٢) سورة الفرقان ، ٥ .

(٣) في ظلال القرآن ٦/٣٢٥٨ .

(٤) سورة الأحقاف ١ - ١١ .

التالية له مباشرة عن كتاب موسى عليه الصلاة والسلام الذي كان إماماً ورحمةً لبني إسرائيل وكذلك القرآن ما هو إلا مثل ذلك الكتاب - لينذر الظالمين ويبيشّر المحسنين (١) .
وتتلو هذه الآية آيات تحمل البشري لهؤلاء المؤمنين الذين آمنوا بالله وساروا على النهج القويم وصراطه المستقيم تبشّرهم بأن لهم جنات خالدين فيها جزاءً لما صنعوا في دنياهم لاخرتهم (٢) .

ح - العبرة منه :-

إن العبرة من هذا المثل يجب أن تؤخذ من محنة الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - مع هؤلاء الكفار الذين كذبوا بما جاء به - صلى الله عليه وسلم - فضلاً عن إيدائهم له بكل ما استطاعوا وبكل ما أوتوا من ألوان الحيلة والمكر والمكابرة . . أولئك الذين ادّعوا أنه ساحر ، وقد ظهر ذلك في قوله تعالى :-

(قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا السَّاحِرُ مُبِينٌ) (٣)

كما نسبوا إليه السّعر والجنون وقد ذكر ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى :-

(وَيَقُولُونَ أَغْنَيْنَا عَنْكُمُ الشَّجَرَةَ الَّتِي كَانُوا يُشْرِكُونَ) (٤)

كما ادّعوا أن ما جاء به ما هو إلا أسطورة من الأساطير لا أساس لها من الحقيقة

إذ قال تعالى :-

* حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٥)

وفي هذا المثل يقولون إنه إفاك قديم .

نقول إننا إذا تأملنا مدى هذه المكابرة التي واجهها الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - منهم والتي صبر عليها وجاهد بها بكل ما من الله عليه من صبر وقسوة علمنا صدق هذه الدعوة وتمسكنا بها تمسك رسول الله الكريم - صلى الله عليه وسلم -

(١) سورة الأحقاف ، ١٢ .

(٢) سورة الأحقاف ، ١٣ - ١٤ .

(٣) سورة يونس ، ٢ .

(٤) سورة الصافات ، ٣٦ .

(٥) سورة الأنعام ، ٢٥ .

تأسيًا به وسيراً على نهجه القويم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في الوقوف أمام أعداء الإسلام مهما بلغت قوتهم وازدادت مكابرتهم وأشدتَّ عنادهم . . . وتشابكت مؤامراتهم ضدَّ الإسلام والمسلمين ، لأنَّ الله قاهرهم بالقاء الرعب في قلوبهم إن اجتمعت كلمتنا وتوحدت صفوفنا وقويت عزيمتنا قال تعالى :-

” بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ، سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَالٌ يَنْزِلُ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ” (١) .

تلك هي العبرة التي يجب أن تُؤخذ من هذا المثل في هذا العصر الذي كثر فيه الغزو الفكري وشاعت بين أفرادهِ وجماعته الدسائس المخترجة الباطله .

.. ..

د- دراسته و تحلیله بیانیا :-

لنعد هنا مرة أخرى إلى الآية الكريمة :-

” وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَيَقُولُونَ هَذَا أَفْكَ قَدِيمٌ “ .

فلاحظ أن :-

إذ : ظرف لمقدّر دلّ عليه ماسبقه و مالحق به والتقدير إذ لم يهتدوا به

ظهر عنادهم واستكبارهم (١) .

ولا يجوز هنا أن تعمل فيه جملة (فسيقولون) لتضادّ زمنيّ المضى والاستقبال

ولوجود الفاء التي تمنع من عمل ما بعدها فيما قبلها (٢) .

وقيل العامل في (إذ) (فسيقولون) والفاء لا تمنع ما بعدها فيما قبلها التّسبب

المشعرة به عن كفرهم ، و (سيقولون) في هذه الحالة بمعنى قالوا وقد عدل

إليه للإشعار بالاستمرار ، وقد استبعد الألوّسيّ ذلك لوجود السين (٣) .

وقيل العامل في (إذ) مقدّر من جنس المذكور أي لم يهتدوا به وإن لم

يهتدوا به (٤) .

والمقصود من الضمير في قوله (به) ، إمّا القرآن ، وإمّا الرّسول الكريم صلّى

الله عليه وسلّم (٥) وإمّا الإيمان (٦) .

(فسيقولون هَذَا أَفْكَ قَدِيمٌ) جاوزوا خبرية القرآن إلى دعوى أنه كتاب قديم

كما قالوا أساطير الأولين (٧) .

(١) روح المعاني ١٤ / ٢٦ (بتصرّف) كذلك البحر المحيط ٥٩ / ٨ (بتصرّف) .

(٢) فتح القدير ١٧ / ٥ (بتصرّف) ، الكشاف ٥١٩ / ٣ (بتصرّف) .

(٣) روح المعاني ١٥ / ٢٦ (بتصرّف) .

(٤) فتح القدير ١٧ / ٥ (بتصرّف) .

(٥) روح المعاني ١٥ / ٢٦ (بتصرّف) .

(٦) فتح القدير ١٧ / ٥ (بتصرّف) .

(٧) نفسه ١٧ / ٥ (بتصرّف) .

هذا وقد قال الألويسي في قوله :-

(فَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ) (أي يتحقق منهم هذا القول والطعن حيناً فحيناً

كما يؤذن بذلك صيغة المضارع سبب عن العناد والاستكبار ، وإذا جاز مثل حينئذٍ
الآن أي كان ذلك حينئذٍ وسمع الآن بدليل قرينة الحال فهذا أجوز) (١) .

والإشارة في (هذا) إلى القرآن الكريم .

وبدراسة الألفاظ في السياق نلاحظ :-

مجيء القول (إفك) وعدم مجيء كذب مثلاً بدلاً منها مع إمكان مجيئها وصحتها

في كلامٍ لبشور ولكننا نلاحظ أن لفظة (إفك) هنا أبلغ في الدلالة على مدى تكذيب

الرسول الكريم ومكابراتهم في ذلك إذ أنهم اعتبروا القرآن أو ما جاء به محمد صلى الله

عليه وسلم ، ليس مجرد كذب ، بل كذباً فاحش القبح وذلك لأن الكذب إما أن يكون

فاحش القبح أو غير فاحش القبح ، أما الإفك فهو الكذب الفاحش القبح (٢) .

وهذا دليل على مبالغتهم في المكابرة والتكذيب .

كذلك نلاحظ مجيء الصفة (قديم) مع الإفك وعدم الاكتفاء بوصفه (إفك)

وذلك لصرف النظر الكلية عن أهمية هذا الذي دعاهم إليه محمد صلى الله عليه وسلم

لأن الشيء إذا كان قديماً ربما لا يلتفت إليه مطلقاً ، لمعرفة وقدم العهد به

وذلك لأن النفس البشرية تواقفة إلى معرفة الجديد دائماً .

د - ما يوافقهما من كلام البشير :-

لعلّ القول الموافق للمثلين الكريمين في قوله تعالى :-

" بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ "

وقوله :-

" وَإِنْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ "

(١) روح المعاني ١٥ / ٢٦ .

(٢) الفروق اللغوية ، ٣٣ . (بنظر)

١٣ - قال تعالى :-

.. هَلْ أَمْنَكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ۖ (١)

أ- المعنى العام :-

جاء هذا المثل الكريم ضمن الآيات التي تناولت قصة سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام مع إخوته لأبيه الذين أخذوه من والده بعد مكيدة دبروها له لغيرتهم منه وحقدهم عليه محتجين برغبتهم في اصطحابه معهم للنزهة واللعب ، حتى إذا ما أمنهم عليه وتركه معهم غدروا به ورموه في البئر ثم عادوا لوالدهم بقميصه ملطخاً بالدماء مدّعين أنهم تركوه عند متاعهم فأكله الذئب وهم لا يعلمون . . فغلب على يعقوب اعتقاد كذبهم وظل حزينا باكياً ضايراً على فراقه مستعيناً بالله على مصيبتيه (٢) .

ثم جاءت رفقة من التجار سائرة في طريقها من الشام إلى مصر ونزلت قريباً من ذلك الجب ، فأرسلوا واردهم طلباً للماء ، فتعلق يوسف بالدلو ، وعند ما رآوه استبشروا به لجماله وحسنه ، وأسروه (٣) بضاعة ، ثم بيع يوسف بثمن قليل وأمر العزيز امرأته أن تحسن مشواه ، عسى أن ينفعهما أو يتخذه ولداً ، ولما كبر يوسف - عليه السلام - آتاه الله حكماً وحلماً ومكته في الأرض التي نشأ بها وهكذا يكون أمر الله غالباً لكل شيء ، وكذلك يكون أجر المحسنين الصابرين أمثال يوسف - عليه السلام - (٥) .

(١) سورة يوسف ، ٦٤ .

(٢) سورة يوسف ، ٨ - ١٨ .

(٣) قيل في الواو : المقصود بها الجماعة النازله بالبئر وهذا هو الراجح وقيل هم اخوة يوسف جاءوا إلى هؤلاء الجماعة بعد التقاطهم يوسف - عليه السلام - فقالوا : بئس ما صنعتم هذا عهد لنا أبق عنا فباعوه منهم - فضلا انظر في ذلك الجامع لأحكام القرآن ٤ / ٣٣٨٥ (بتصرف) .

(٤) اشتراه أخيراً عزيز مصر . . فضلا انظر في ذلك قصص الأنبياء ، محمد الفقي ١٤٠ (بتصرف) .

(٥) سورة يوسف ١٩ - ٢٢ .

ولم تنتهِ القصة عند هذا الحد بل امتدت إلى ما هو أبعد من ذلك وأعظم
فقد ذكرت الآيات بعد ذلك قصته مع امرأة العزيز التي راودته عن نفسه ، فاستعصم
فاتهمته بما ليس فيه عندما رآهما بعلمها عند الباب ودلّ على براءته أن قميصه قد
من دبرٍ وكان ذلك بشهادة أحد أهلها الذي أكد خطأها فأمرت بالاستغفار
لذنبها (١) .

وهنا تكلم نساء المدينة عنها ، وعمّا فعلته بيوسف ما دفعها إلى الإيقاع بهنّ
فيما لهنّ فيه ، فدعتهن للطعام وأحضرت لكل واحدة منهنّ سكيناً وأمرته بالخروج عليهنّ
فدهشنّ لجماله وسحره وقطعن أيديهنّ دون شعور منهنّ ، ولما رأت ذلك منهنّ
أظهرت عذر نفسها فيه وهدّته بالسجن ، لغيظها منه ، فاستعصم وأكثر السّجن على
الإثم وبدأ للعزيز وأهل مشورته بعد تأكدهم من براءته بدأ لهم سجنه كتماناً للسرّ
عن العامة وللحيلولة بينه وبينها (٢) .

وكان قد دخل مع يوسف السّجن فتيان ، أحدهما صاحب طعام الملك والآخر
صاحب شرابه ، فقصّ عليه رؤياهما ليؤوّلها لهما ، فأولّ عليه السّلام - لصاحب
الطعام رؤياه أنه سيصطب وتأكل الطير من رأسه وأهول للآخر رؤياه أنه سيعود إلى
عطيه مع الملك ، وطلب منه أن يذكره عند الملك إن عاد إلى عطيه فأنساه الشيطان
ذكره عند الملك ، وليث يوسف في السّجن بضع سنين (٣) .

ثم حدث أن رأى الملك رؤياً عجز الجميع عن تأويلها ، فتذكر السّاقى صديقه
- يوسف - في السجن ، فذهب إليه ليؤوّل له هذه الرؤيا فأولّها - يوسف عليه
السّلام له وطلبه الملك عنده فأبى مغادرة السّجن حتى تُثبت براءته ، وقد اعترفت
امرأة العزيز بظلمها له وشهد النسوة جميعاً بطهارته ونفقاء سريره ، وطلبه الملك
يستخلصه لنفسه ، وعندما آتاه طلبه يوسف عليه السّلام - أن يجعله أميناً على

(١) سورة يوسف ٢٣ - ٢٩ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٤ / ٣٤١٥ تفسير الآيات ٣٠ - ٣٥ .

(٣) سورة يوسف ٣٦ - ٤٢ .

خزائن أرض مصر لعلمه وأمانته وهكذا مكن يوسف من أرض مصر وخزائنها
يتصرف فيها كيف يشاء ، كذلك يصيب الله برحمته من يشاء ولا يضيع أجر المحسنين (١)
* وَلَا أُجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * (٢) .

وجاء أخوة يوسف إلى مصر لمجاعة أصابت الأرض جميعاً إلى مصر ، فلم يعرفوا
يوسف لمكانته وعلو شأنه وعدم علمهم بما حدث له ، فعرفتهم وأنكروه ، ثم جهّزهم
بطعامهم وما يحتاجون إليه في السفر وطلبهم إحصار أخيه المتخلف إن أرادوا في
المستقبل طعاماً - بقصد اغرائهم بالعودة إليه من أجل الطعام - وأمر فتيانسه
بأن يضعوا البضاعة التي دفعوها ثمناً للطعام - في رحلتهم - وهذا مفر لهم
بالعودة إلى يوسف حينما يكتشفون بضاعتهم وهم أبناء يعقوب الذين لا يستحلون
حراماً ، فيرجعون إليه مرة أخرى .

ثم عادوا إلى أبيهم وأخبروه بما تم من أمرهم وطلبوا منه أخاهم - بنيامين - وهو
الذي تحدثت عنه الآية التي نحن بصدد الحديث عنها - وأخبروه أنهم سيقومون بحفظه
ورعايته ، فأجابهم الوالد بأنهم قد تعهدوا بحفظ يوسف من قبل - ولم يفعلوا
ثم توكل على الله وأودعه عنده - سبحانه - فهو خير حافظاً وهو أرحم الراحمين (٣) .
ولما فتح الأخوة متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم وكانت سبباً للحديث مع
يعقوب عن مصر وتكرار المحاولة بأخذ شقيق يوسف وأخبروا والدهم أنهم إن ذهبوا
مرة أخرى إلى مصر فسيجلبون الطعام إلى أهلهم ويحفظون أخاهم ويزدادون كيلاً
بغير له ، فأعطاهم أخاهم بعد أن أتوه موثقاً من الله بإعادته إليهم (٤) .

ولمّا دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه - بنيامين - وعرفه ونهاه أن يبتئس مما كانوا
يعملون ، ثم جهّزهم بجهازهم وجعل صواع الطك في رحل أخيه ، ثم أمهلهم حتى

-
- (١) سورة يوسف ٤٣ - ٥٦ .
(٢) سورة يوسف ، ٥٧ .
(٣) سورة يوسف ، ٥٨ - ٦٤ .
(٤) سورة يوسف ، ٦٥ - ٦٦ .

انطلقوا وأرسل وراءهم رسولاً اتهمهم بسرقة صواع الطك ، فرجعوا إلى يوسف وأقسموا له أنهم ما جاءوا ليفسدوا في الأرض أو يسرقوا (١) .

فسألهم ماجزاء من يوجد لديه صواع الطك ؟

فأجابوا بأن جزاءة الاسترقاق ، وكان ذلك الهاماً من الله ليوسف عليه السلام

ليستبقي أخاه إلى جانبه .

وبعد تفتيش المتاع وجد الصواع في وعاء أخيه ، فحكم باسترقاقه وأخذ منهم (٢) .

ثم أخبروا يوسف بعد ذلك أن لأخيهم أباً شيخاً كبيراً وطلبوا منه أن يأخذ

أحدهم بدلاً منه ، فأبى ذلك ولما عيسوا منه ، تناجوا في أمرهم وفيما سيقولونه لوالدهم

وذكر أكبرهم أنه لن يرح مصر حتى يأذن له أبوه أو يحكم الله بعودة أخيه وأمرهم

أن يرجعوا إلى أبيهم ويخبروه بما فعله بنيامين (٣) ، فلما أخبروا والدهم بما حدث

من أخيهم لم يصدّقهم واتهمهم بتدبير ذلك له كما دبّروا ليوسف من قبل ، ولم يجد

أمامه إلا الصبر والسلوان ورجاء الله أن يعيد له أبناءه الثلاثة جميعاً (٤) ثم

أعرض عنهم وأظهر أسفه على فقد يوسف وظل يبكي عليه حتى فقد بصره (٥) .

وأشفق أبناؤه عليه وأخبروه بأنه لا يزال يذكر يوسف حتى يشرف على الهلاك أو يهلك

فعلاً .

وشكا هو وبدوره أمره إلى الله الذي يعلم ما يعلمون (٦) .

وأمرهم - بعد ذلك - أن يذهبوا إلى مصر ليفتشوا عن يوسف وأخيه ، ألا يقنطوا

من رحمة الله .

ولمّا دخلوا على يوسف شكوا إليه ما مسّهم وأهلهم من الضرّ وأنهم جاءوا ببضاعة

ردّئها ، يرجون أن يقبلها منهم وأن يعطيهم بدلها كيلاً وأفياً ويتصدّق بذلك عليهم

-
- (١) سورة يوسف ٦٢ - ٧٣ .
 - (٢) سورة يوسف ٧٤ - ٧٦ .
 - (٣) سورة يوسف ٧٨ - ٨١ .
 - (٤) سورة يوسف ٨٢ - ٨٣ .
 - (٥) سورة يوسف ، ٨٤ .
 - (٦) سورة يوسف ٨٥ - ٨٦ .

فرق يوسف عليه السلام - لحالهم حتى دمت عيناه ، وسألهم عما فعلوه - بيوسف وأخيه - من قبل فقالوا :-

• أُنْتِكَ لَأَنْتَ يَوْسُفُ • ؟ : فَأَكَّدَ لَهُمْ ذَلِكَ ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ مِنْ يَتِّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . (١)

واعترف الأخوة ليوسف عليه السلام بالمزية والفضل وأقروا بخطئهم معه فعفا عنهم ورجا الله أن يغفر لهم ثم أمرهم أن يذهبوا بقميصه لوالدهم فيلقوه على وجهه ليعود اليه بصره ثم يأتوا بأهلهم أجمعين (٢) . . . ثم أتوا بأهلهم فلما دخلوا على يوسف ضم اليه أبويه ورفعهما الى مجلسه ، وخروا له سجدا سجود تكريم . . . فذكر يوسف لأبيه أن هذا تأويل رؤياه من قبل قد جعلها ربه حقا وقد أحسن يسه ان أخرجه من السجن وجاء بهم اليه من بعد أنزع الشيطان بينه وبين اخوته . انه لطيف لما يشاء وهو العليم الحكيم . . . (٣) .

ب - مناسبتة في السِّيَاق :-

تبدو هذه المناسبة واضحة لما قبل هذا المثل من آيات وما بعده فسي السِّيَاق ، وإنَّ المثل الكامن في الآية الكريمة قد ورد ضمن قصة يوسف عليه الصلاة والسلام التي ذكرتها الآيات الكريمات والتي سبق سردها (٤) وهي التي تبدأ من قوله تعالى :-

• إِنْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشْرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتَهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٥) الى قوله تعالى :-

• رَبِّهِ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّي بِالصَّالِحِينَ • (٦)

(١) سورة يوسف ٨٧ - ٩٠ .

(٢) سورة يوسف ٩١ - ٩٣ .

(٣) سورة يوسف ٩٤ - ١٠٠ .

(٤) فضلا راجع القصة من ص ٣١٠ الى ص ٣١٤ من هذا البحث .

(٥) سورة يوسف ٤ .

(٦) سورة يوسف ، (١٠١) .

ومن خلال تطوُّر أحداث القِصَّة تبدو هذه المناسبة وذلك الاتصال الوثيق بين آية المثل التي نحن بصددِها وبين ما سبقها من آيات أو ما لحق بها في السِّياق واللَّه أعلم ،،،

ج - العبرة منه :-

بتأمُّلِ قِصَّةِ يوسُفَ - عليه السَّلام - تبدو العبرة متألِّقة الجوانب من هذا

المثل الكريم ، إن على المؤمن أن يكون حذراً كيِّساً فُطِناً في جميع أموره ، فلا يكون خَبِئاً يخدع الآخرين ولا يسمح للخبِّ أن يخدعه . وقد قال تعالى :- (١)

”يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدَاؤُكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ“ . وقال تعالى (٢)

”إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ“

فما بالناس بمن يقف نفس الموقف الذي تسبَّب في هلاكه أو يمنُّ يلدغ من نفس الجُحر

مرتين ؟!

لا شكَّ أنَّ هذه مصيبةٌ كبيرةٌ لا يقبلها مؤمنٌ لأنَّ المؤمنَ كيِّسٌ فُطِنٌ ولكن قد يرتقي هذا الايمان إلى درجة التوكُّل المطلق على الله فلا يأس عندها صاحبه من رحمة الله ، فهذا سيدنا يعقوب عليه الصَّلاة والسَّلام ، يدفع بابنه الآخر إلى أولئك الأخوة ويأمنهم عليه لأنَّه يثق بحفظ الله ورعايته له أكثر من ثقته بينيه فيقول السِّياق على لسانه :-

” قَالَ لَهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ “ (٣)

ذلك هو الدرس العمليُّ الذي ضربه لنا هذا النَّبيُّ الكريم بما فعله مع بنيهِ وتبيَّن أنَّه هي نتيجة التوكُّل المطلق على الله - سبحانه وتعالى - فقد عاد إليه ما أودعه عند ربِّه عزَّ وجل ، فهو خيرٌ حافظاً وهو حقاً أرحمُ الرَّاحِمِينَ .

(١) سورة التغابن ، ١٤ .

(٢) سورة التغابن ، ١٥ .

(٣) سورة يوسف ، ٦٤ .

د - دراسته وتحليله بيانياً :-

لنتأمل هنا قوله تعالى :-

" هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ " .

فلاحظ عند التأمل ابتداء هذه الإجابة من الوالد بصيغة الاستفهام الإنكاري

" هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ ؟ "

آمَنُكُمْ : هُنا بِالْمَدِّ وفتح الميم ورفع النون وهو من باب عَلِمَ يَعْلَمُ والمعنى ما أَمِنْتُكُمْ

عليه إِلَّا ائْتِمَانًا مِثْلَ ائْتِمَانِي إِيَّاكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ يَوْسُفَ (١) .

أما قوله (آمَنُكُمْ) فهي من الفعل أَمِنَ و (الأَمَانُ والأمانةُ بمعنى وقد أَمِنْتُ

فأنا أمين وآمنتُ غيري من الأَمْنِ والأَمَانِ ضدَّ الخوفِ والأمانةُ ضدَّ الخِيَانَةِ) (٢) .

أما آمنتُهُ المتعدِّي فهو ضدُّ أخفتهُ وفي القرآن الكريم :-

" أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ " (٣) .

الأَمْنُ ضدُّ الخَوْفِ ، يُقال : أَمِنَ فُلَانٌ يَأْمَنُ أَمْنًا وَأَمْنًا ، حكى هذه الزجج

وَأَمْنَةً وَأَمَانًا فهو أَمِينٌ والأَمْنَةُ : الأَمْنُ (٤) ومنه " أَمْنَةٌ تُعَاسَا " (٥) .

ورجلٌ أَمِينٌ وَأَمِينٌ بمعنى واحد وفي القرآن (وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ) (٦) أي :

الأَمْنُ وقيل أنت في أَمْنٍ من ذلك ، أي : في أَمَانٍ .

(وَرَجُلٌ أَمْنَةٌ يَأْمَنُ كُلَّ أَحَدٍ وَقِيلَ يَأْمَنُهُ النَّاسُ وَلَا يَخَافُونَ غَائِلَتَهُ وَأَمْنَةٌ أَيْضًا

مَوْثُوقٌ بِهِ مَأْمُونٌ وَكَانَ قِيَاسُهُ أَمْنَةً) (٧)

ورجلٌ أَمْنَةٌ بِالْفَتْحِ الَّذِي يَصَدِّقُ بِكُلِّ مَا يَسْمَعُ وَلَا يَكْذِبُ شَيْئًا . . . وَأَيْضًا الَّذِي

يَطْمِئِنُّ إِلَىٰ كُلِّ وَاحِدٍ وَيَثِقُ بِكُلِّ أَحَدٍ وَكَذَلِكَ الْأَمْنَةُ عَلَىٰ وَزْنِ الْهَمْزَةِ (٨)

(١) روح المعاني ١٣ / ١١ (بتصرف) .

(٢) اللسان مادة " أَمِنَ " .

(٣) سورة قريش ، ٤ .

(٤) اللسان " أَمِنَ " (بتصرف) .

(٥) سورة آل عمران ، ١٥٤ .

(٦) سورة التين ، ٣ .

(٧) اللسان : " أَمِنَ " .

(٨) نفسه : " أَمِنَ " (بتصرف)

هـ ما يوافق من كلام البشر :-

إِنَّ المثل المُشابه أو الموافق لهذا المثل من كلام البشر هو
كلام خير خلق الله سيدنا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديثه القائل :-
(لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين) (١) .

والرّواية المشهورة بضم الغين وقيل بكسرها .

(أما الوجه الأوّل وهو ضمها على الخبر ومعناه المؤمن المدوح وهو الكيس الحازم
الذي لا يستغفل فيخدع مرة بعد أخرى ولا يفتن لذلك وقيل إن المراد الخداع في
أمور الآخرة دون الدنيا) (٢) .

(والوجه الثاني بكسر الغين على النهى أن يؤتى من جهة الغفلة) (٣) .

وسبب الحديث أن النبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قد أسرّ أبا عزة الشاعر
يوم بدر ، فمنّ عليه وعاهده على ألاّ يهجوّه أو يحرض عليه بعد ذلك فأطلقه - صَلَّى اللهُ
عليه وَسَلَّمَ - فلحق الشاعر بقومه ثمّ رجع إلى سيرته الأولى من التحريض والهجاء
فأسره الرسول الكريم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يوم أحد في حمراء الأسد (٤) فسأله
المنّ فقال النبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين " .
ومعرفة هذا السبب يلغي الوجه الثاني وهو كسر الغين ومعناه أن من نال
الأذى من جهة فعليّه أن يتجنبها حتى لا يقع فيه مرّة أخرى .

واللدغ : هو (عى الحية والعقرب وقيل اللدغ بالفم واللسع بالذنب قال الليث
اللدغ بالناب وفي بعض اللغات تدغ العقرب وقال أبو وجزة : اللدغة جامعة لكل
هامة تلدغ لدغاً يقال : لدغته تلدغه لدغاً وتلدغاً ورجل ملدوغ ولدغ وكذلك الأنتى
والجمع لدغاً ولدغاً ولا يجمع جمع السلامة لأن مؤنثه لا يدخله الهاء والسليم : اللديغ

(١) صحيح مسلم ، شرح النووي ، كتاب الزهد ، (أحاديث متفرقة) .

(٢) نفسه ١٢٥ / ١٨ .

(٣) نفسه ١٢٥ / ١٨ .

(٤) سيرة النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ابن هشام ٦١٨ / ٣ (بتصرف) تحقيق
محمد محي الدين عبد الحميد ، مكتبة صبيح ، ميدان الأزهر ، القاهرة .

وَيُقَالُ : أَلْدَغْتُ الرَّجُلَ إِذَا أُرْسَلَتْ إِلَيْهِ حَيَّةٌ تَلْدَغُهُ وَفِي الْحَدِيثِ : وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَمُوتَ لَدِيغًا لَلدِّيغِ : الْمَلْدُوغُ فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ وَلِدَغُهُ بِكَلِمَةٍ يَلْدَغُهُ لَدَغًا نَزَعَهُ بِهَا وَرَجُلٌ مَلْدَغٌ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِالنَّاسِ وَأَصَابَهُ مِنْهُ ذُبَابٌ لَا دِغَ أَيُّ : شَرَّ عَنْ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ وَهُوَ عَلَى الْمَثَلِ (١) .

جَحْرٌ : (الْجَحْرُ لِكُلِّ شَيْءٍ يُحْتَقَرُ فِي الْأَرْضِ إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْ عِظَامِ الْخَلْقِ قَالَ ابْنُ سَيِّدِهِ الْجَحْرُ كُلُّ شَيْءٍ تَحْتَقِرُهُ الْمُهَوَامُ وَالسَّيَاعُ لِأَنْفُسِهَا وَالْجَمْعُ أَجْحَارٌ وَجِحْرَةٌ) (٢) .
(وَمَجَاحِرُ الْقَوْمِ : مَكَانُهُمْ وَأَجْحَرُهُ فَانْجَحَرَ ، أَدْخَلَهُ الْجَحْرُ فَدَخَلَهُ وَأَجْحَرْتُهُ أَيُّ : أَلْجَأْتُهُ إِلَى أَنْ دَخَلَ جُحْرَهُ وَجَحَرَ الضَّبُّ ، أَيُّ : دَخَلَ جُحْرَهُ وَأَجْحَرَهُ إِلَى كَذَا أَلْجَأَهُ وَالْمَجْحَرُ الْمَضْطَرُّ الْمَلْجَأُ) (٣) .

(٤)
(وَيُقَالُ جَحْرَعْنَا خَيْرَكُ أَيُّ : تَخَلَّفَ فَلَمْ يُصَبِّنا وَاجْتَحَرَ لِنَفْسِهِ جُحْرًا أَيُّ اتَّخَذَهُ)
(وَقِيلَ الْجَاحِرُ مِنَ الدَّوَابِّ وَغَيْرِهَا الْمُتَخَلِّفُ الَّذِي لَمْ يَلْحَقْ وَالْجِحْرَةُ بِالْفَتْحِ السَّنَةُ الشَّدِيدَةُ الْمَجْدِبَةُ الْقَلِيلَةُ الْمَطْرُ) (٥) .

قال زهير بن أبي سلمى :-

إِذَا السَّنَةُ الشَّهْبَاءُ (٦) بِالنَّاسِ أَجْحَفَتْ

وَنَالَ كِرَامُ الْمَالِ فِي الْجِحْرَةِ الْأَكْسَلُ (٧)

وَسُمِّيَتِ السَّنَةُ الشَّدِيدَةُ جِحْرَةً لِأَنَّهَا تَجَحَّرُ النَّاسُ فِي الْبُيُوتِ (٨) وَجَحَرَ الرَّبِيعُ إِذَا لَمْ يَصِبْكَ مَطْرُهُ ، وَجَحَرَتْ عَيْنَاهُ ، عَارَتْ ، وَجَحَرَ فُلَانٌ : تَأَخَّرَ ، وَالْجَوَاحِرُ الدَّوَاخِلُ فِي الْجِحْرَةِ وَالْمَكَامِنِ (٩) .

-
- (١) اللِّسَانُ : " لَدَغٌ " .
 - (٢) اللِّسَانُ : " جَحْرٌ " .
 - (٣) نَفْسُهُ : " جَحْرٌ " .
 - (٤) نَفْسُهُ : " جَحْرٌ " .
 - (٥) نَفْسُهُ : " جَحْرٌ " .
 - (٦) الشَّهْبَاءُ : الْبَيْضَاءُ ، لِكثرةِ التَّلْجِ وَعَدَمِ النَّبَاتِ .
 - (٧) اللِّسَانُ : " جَحْرٌ " .
 - (٨) نَفْسُهُ : " جَحْرٌ " (بِتَصْرِيفٍ) .
 - (٩) نَفْسُهُ : " جَحْرٌ " (بِتَصْرِيفٍ) .

ومن ما قيل من كلام البشرفي مجال محاذرة الرجل من شيء قد ابتلى بمثله
قولهم :-

(كل الحذاء يَحْتَذِي الحافي الوقع) (١) (وأصله الرجل يمشي في الوقع

وهي الحجارة حافيا فيصيبه الوجي) (٢) .

لذا يكون الرجل حذراً خائفاً على رجليه من أي شيء يصبها قال الشاعر :-

إن اللسيح لحاذر متوجس * * يخشى ويهرب كل حبل أبلق (٣)

هذا ويسمو المثل القرآني الكامن في الآية الكريمة لسمو مصدره وهذا - لا مرء فيه
ولا خلاف - أما من جهة بلاغة العرض والأداء ، فنلاحظ ذلك واضحاً أيضاً في المثل
القرآني الكريم إذ أنه عرض المعنى المراد في أسلوب الاستفهام الإنكاري الذي يهكب
المعنى قدراً كبيراً من اللوم والتأنيب لما يريد الأبناء من أبيهم بعد أن أساءوا لأخيهم
السابق .

فضلاً عن ذلك التشويق الذي ينقله لنا أسلوب الاستثناء في الآية الكريمة
بينما لا نجد شيئاً من ذلك في غيره من أقوال البشر وإن كان قول الرسول - صلى الله
عليه وسلم - (لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين) يأتي في المرتبة الثانية من
البلاغة في عرض المعنى وأدائه إذ أنه يشتغل على استعارة مكثية واضحة إذ استعمار
صلى الله عليه وسلم اللدغ وهو لا يكون إلا من الحية أو العقرب - استعارة لأذى المؤمن
من أي شيء كان .

كذلك استعمار صلى الله عليه وسلم الجحر . . . وهو مكن الحية أو العقرب أو الضب
استعارة للموقف الذي يصاب منه المؤمن ، وأسلوب الاستعارة أسلوب بليغ جميل في
العرض ولا شك ولكنه لا يصل إلى درجة جمال البلاغة القرآنية في عرض نفس المعنى على

الإطلاق .
"هل آمنكم عليه إلا كما آمنكم على أخيه من قبل" والله أعلم ،،،

(١) مجمع الأمثال ٣/٣١ أيضا كتاب الأمثال لأبي عبيد ص ٢٢٢ .

(٢) كتاب الأمثال ، ٢٢٢ .

(٣) مجمع الأمثال ٣/٣٤٤ ومن أقوال العامة في هذا الباب :-

من نهشته الحية حذر الراسين الأبلق
والراسين هو الحبل ، البلق : سواد ويخاض . فضلاً انظر في ذلك اللسان مادة (رَسِين)
و (بَلَق) .

١٤ - قال تعالى :-

” قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا “ (١)

أ. المعنى العام :-

قيل جاءت هذه الآية للردِّ على المشركين القائلين لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند تلاوة القرآن عليهم :-

(أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا) (٢)

فجاءت الإجابة منه سبحانه وتعالى :-

” قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا “ .

أي : أجيبهم يا محمد بأن من كان في الغواية والجور عن الحق فإن الله عز وجل سيمده في طغيانه ويطي له فيما أملاه إلى أن يأتيهم أمره - سبحانه - إما بعذاب عاجل في الدنيا وإما أن يكون ذلك يوم يلقون ربهم عند قيام الساعة التي وعد الله خلقه بجمعهم لها .

وعندنا يأتيهم أحد الأمرين - من عذاب عاجل أو آجل - فسيعلمون من هم شرُّ مسكناً وأضعف نصيراً (٣) .

ب. مناسبته في السياق :-

بتأمل الآيات السابغات لقوله تعالى :-

” قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ... الآية .

نعلم أنها تحدتت أولاً عن قصص الأنبياء السابقين ومالقوه من أقوامهم المكذبة بالله الجاحدة لنعمه عز وجل .

وتلتها الآيات المبيّنة لحال من خلفهم ممن أضاعوا الصلوات واتبعوا الشهوات وبيان مالهم بعد ذلك إلا من تاب وآمن منهم وعمل صالحاً ، فله الجنة لا يظلم شيئاً (٤) .

(١) سورة مريم ، ٧٥ .

(٢) سورة مريم ، ٧٣ .

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١١٩/١٦ (بتصرف) .

(٤) سورة مريم ، ١ - ٥٩ .

ثُمَّ أَخَذَ السِّيَاقَ الْقُرْآنِيَّ الْجَلِيلَ فِي وَصْفِ هَذِهِ الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا ، تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي وَعَدَ اللَّهُ بِهَا عِبَادَهُ الْمُتَّقِينَ (١) وَتَلَّتْهَا الْآيَاتُ الْمُبَيِّنَةُ لِقُدْرَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمَشِيئَتِهِ فِي تَنْزِيلِ الْوَحْيِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
لِذَا وَجِبَتْ عِبَادَتُهُ وَالصَّبْرُ عَلَى طَاعَتِهِ وَعَدَمُ الشَّكِّ فِي الْبِعْثِ وَالْحَيَاةِ الْآخِرَةِ لِاسِيْمَا
وَأَنَّ الْإِنْسَانَ يَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّهُ خُلِقَ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً (٢) .

وَتَبَيَّنَّ الْآيَاتُ التَّالِيَةُ مَدَى الْعَقُوبَةِ الَّتِي تَنْتَظِرُ أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ مِمَّنْ
الْحَشْرَ فِي جَهَنَّمَ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ بَيْنَمَا يَنْجِي اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ كُلِّ ذَلِكَ
وَيَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ، أُولَئِكَ الَّذِينَ إِذَا تُلِّيتَ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللَّهِ كَذَّبُوا وَعَصَوْا
وَاعْتَبَرُوا أَنفُسَهُمْ أَحْسَنَ مَقَامًا وَمَجْلِسًا (٣) .

ثُمَّ بَيَّنَّ - سُبْحَانَهُ - أَنَّهُمْ لَنْ يَكُونُوا أَفْضَلَ مِنَ الْأُمَّمِ السَّابِقَةِ الَّذِينَ أَهْلَكَهُمْ
وَأَنَّ مَصِيرَهُمْ هُوَ نَفْسُ مَصِيرِ أُولَئِكَ مِنَ الْهَلَاكِ وَهُنَا تَأْتِي مَنَاسِبَةُ الْمَثَلِ لِمَاسِيقِهِ
إِنَّ أَنَّ السِّيَاقَ الْكَرِيمَ بَيَّنَّ أَنَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِنَّمَا مَدَّ لَهُمْ فِي الْأَجْلِ وَهُمْ فِي ضَلَالَتِهِمْ
تِلْكَ لِيَزِدُوا فِي طُغْيَانِهِمْ وَلِيَقْطَعَ عَلَيْهِمُ الْأَمَلَ فِي الْاِحْتِجَاجِ وَالْاِعْتِذَارِ بَعْدَ ذَلِكَ
الْأَمَدِ الطَّوِيلِ حَتَّى يَسْحَقَهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ عَاجِلٍ فِي الدُّنْيَا أَوْ أَجَلٍ فِي الْآخِرَةِ وَعِنْدَهَا
سَيَعْلَمُونَ مِنْهُمْ . شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ نَاصِرًا وَجُنْدًا (٤) .

وَهَكَذَا تَبَدُّوْا مَنَاسِبَةُ الْمَثَلِ لِسِيَاقِ الْآيَةِ الْوَارِدِ فِيهَا ، أَمَّا مَنَاسِبَتُهُ لِمَابَعْدِهِ
فَكَمَا نَرَى أَنَّ الْآيَةَ التَّالِيَةَ تَتَحَدَّثُ فِي الْمَقَابِلِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا يَنْتَظِرُهُمْ مِنْ زِيَادَةِ
الْهُدَى وَالتَّقْوَى فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَنْتَظِرُهُمْ مِنْ خَيْرٍ فِي الْآخِرَةِ (٥) .

-
- (١) سورة مريم ٦٠ - ٦٣ .
 - (٢) سورة مريم ٦٤ - ٦٧ .
 - (٣) سورة مريم ٦٨ - ٧٤ .
 - (٤) سورة مريم ، ٧٥ .
 - (٥) سورة مريم ، ٧٦ .

ويعود السِّياق مرّة أخرى لتأكيد القضيّة السَّابِقة وهي إِمهال الظَّالم ثمَّ إهلاكه

بعد حين فيضرب لذلك مثلاً بالَّذي نزلت فيه الآية :-

* أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَّوَلَدًا * (١)

وهكذا بيد ومدى ارتباط المثل بما قبله من آيات ثمَّ بما يليه في سياق الآية بعده

من آيات تاليات .

ج - العبرة منه :-

تتلخّص العبرة الجليلة من هذا المثل الكريم في ضرورة العلم بأنَّ اللّٰه

- جلَّ وعلا - لا يهمل الظَّالم وإنَّ أمهله ، وأنَّ الحكمة في طول الأجل به أو تمكينه من ظلمه وطغيانه فترة بقائه ليست إلاّ لزيادة عذابه فيما بعد ذلك لقطع المعاذير

عليه كما قال تعالى :- (٢)

* أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يُتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ ، أَوَلَا يَسْتَدْرَجُ كَمَا قَالَ تَعَالَى :- (٣)
* إِنَّمَا نُكَلِّمُ لَهُمْ لِيَزِدُوا دُؤَابًا وَإِنَّمَا

لذا وجب عدم التّعجب أو الدهشة من تمكين اللّٰه لأمثال هؤلاء الظلمة المتمردين في الدُّنيا على طاعة اللّٰه وأوامره ، لأنّها حكمة اللّٰه في خلقه ولو شاء لأمطرهم بعذاب عاجل ولكمّه - عزَّ وجل - يواسي المؤمنين ويزيد من صبرهم ويقوّي إيمانهم بقوله :-

* قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدَدًا * (٤) الآية .

لذا وجب عدم الاغترار بمظاهر الأمور أو بأوائلها وبداياتها ، وإنّما العبرة

بجواهرها ونهاياتها قال تعالى :- (٥)

* لَا يَغْفِرَنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيُسَّ الْمِهَادُ *

والله سبحانه وتعالى أعلم بما خفي وراء آياته من عبر عظام قد لا يصل إلى حقائقها أمثالنا من البشر .

(١) سورة مريم ٧٧ وهو العاص بن وائل . فضلا انظر في ذلك ارشاد العقل السليم الى

مزايا القرآن الكريم ٢٧٩/٥ (بتصرف) .

(٢) سورة فاطر ، ٣٧ .

(٣) سورة آل عمران ، ١٧٨ .

(٤) سورة مريم ، ٧٥ .

(٥) سورة آل عمران ١٩٦ - ١٩٧ .

٥ - دراسته وتحليله بيانياً :-

لنعد هنا مرة أخرى إلى قوله تعالى :-

” قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا “ .

فييد وأن (مَنْ) هنا إما موصولة أو شرطية ، فإن كانت موصولة فهي اسم فصي

موضع رفع مبتدأ وخبره جملة ” فليمدد له الرحمن مداً “ .

وجاء الخبر هنا على هيئة الطلب (للإيدان بأن ذلك مما ينبغي أن يفعل بموجب

الحكمة لقطع المعاذير كما ينبغي عنه قوله تعالى :-

” أُولَئِكَ نَعَمَّ كُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ “ (١) (٢) .

وبهذا يكون المعنى مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فلا عذر له فقد أمهله الرحمن ومد له مداً .

وأن يكون ذلك للاستدراج كما قال تعالى :- (٣)

” إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِكُمْ لِيَزِدْكُمْ دُورًا وَإِثْمًا “ ، وعندها يكون المعنى :-

(٤)

من كان في الضلالة فقد اقتضت حكمته تعالى أن يمد له ويستدرجه ليزداد إثماً .

ويمكن أن تكون من شرطيه وفعلها (كان في الضلالة) وقوله (فليمد له

الرحمن) جملة جواب الشرط وجزائه والفاء رابطة أو واقفة في جواب الشرط .

والضمير في (له) عائد على اسم الشرط (من) وقد عبر هنا بصفة ” الرحمن “

مع المد لأن الامهال والمد من أحكامها (٥) .

(والمد هو جر الشيء في طول واتصال شيء بشيء في استطالة يقال مَدَدْتُ

الشيء أمده مداً) (٦) .

ومنه المد للوقت الممتد قال الراغب :- (٧)

(١) سورة فاطر ، ٣٧ .

(٢) روح المعاني ١٢٦/١٦ - ١٢٧ .

(٣) سورة آل عمران ، ١٧٨ .

(٤) روح المعاني ١٢٧/١٦ (بتصرف) .

(٥) نفسه ١٢٧/١٦ (بتصرف) .

(٦) مقاييس اللغة ” مد “ .

(٧) المفردات في غريب القرآن ” مد “ .

(وأكثر ما جاء الإمداد في المحبوب والمد في المكروه نحو " وأمددناهم بفأكهمه
ولحم مما يشتهون " (١) .

وقيل في المكروه " ونمد له من العذاب مداً " (٢) .

" ويمدهم في طفيانهم يعمهون " (٣)

ولفظة (مداً) هنا أنسب للمعنى والسياق من أى لفظة أخرى مناسبة ، والله

أعلم ،،،

له ما يوافقه من كلام البشر :-

لعل المثل البشري الموافق ليقوله تعالى :-

" قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا " .

هو قولهم :-

(الجاهل (٤) مرزوق والعالم محروم) (٥)

الرازق والترزاق في صفة الله تعالى لأنه يرزق الخلق أجمعين يقال رزق الخلق :

رُزِقًا ورُزِقًا . لأن الرزق بفتح الراء مصدر حقيقي . والرزق بكسرها الاسم ، ويجوز

أن يوضع موضع المصدر .

ورزقه الله : يرزقه رزقاً حسناً نعشه .

والرزق وهو لفظ المصدر أي مارزقه إياه والجمع أرزاق (٦) وارترقه واسترزه

أي : طلب منه الرزق .

(ورجل مرزوق : أي : مجدود) (٧)

(١) سورة الطور ، ٢٢ .

(٢) سورة مريم ، ٧٩ .

(٣) سورة البقرة ، ١٥ .

(٤) قد سبق توضيح المعنى اللغوي للجهل . فضلاً انظر ص ٣٠٩ من هذا البحث .

(٥) الإتيان في علوم القرآن ٢ / ١٣٢ .

(٦) اللسان : " رزق " (بتصرف) .

(٧) نفسه . " رزق " .

العالم : من علم وعالم وعليم وعلام : من صفات الله عز وجل .
(والعلم نقيض الجهل . علم علماً وعلم هو نفسه ورجل عالم وعليم من قوم علماء
فيها جميعاً) (١) ، وجمع عالم : علماء أو علماء .

قال يزيد بن الحكم : -

وسترقُ القوائد والمضاهبي * * سواءً عند علم الرجال (٢)
وإذا بالفت في وصفه بالعلم قلت علام وعلامة ، والهاء في علامة للمبالغة كأنهم
يريدون داهية من قوم علميين .
وعلامة من قوم علميين .
وعلمت الشيء علماً أي : عرفتُه .
وعلم وفقه ، أي : تعلم وتفقه .

وعلامة : لحقتها التاء للدلالة كما قلنا على المبالغة في الصفة ، فقال رجل
علامة وامرأة علامة . . . وليست الهاء للتأنيث لأنه لو كان كذلك لوجب أن تحذف في
المذكر كما يقال رجل ظريف وامرأة ظريفة ولكن الهاء في علامة ثابتة للمذكر والمؤنث
للدلالة على أن الموصوف بها قد بلغ النهاية والغاية في العلم . (٣)

محروم : من الحرمة وهو المنع والحرمة هي الحرمان ونقيض الحرمان هو الإعطاء
والرزق يقال محروم ومزوق (٤) .

(وحرمة الشيء يحرمه وحرمة جرماناً أو حرماً وحرماً وحرمة وحرمة أو أحرمة
لغة ليست بالعالية كنه منعه العطية قال يصف امرأة :-

وأنبثتها أحرمت قومها * * لتنكح في معشر آخرينا

(٥)
أي : حرمتهم على نفسها الأصمعي ، أحرمت أهلها : أي : حرمتهم أن ينكحوها)

-
- (١) اللسان : علم * .
(٢) نفسه . علم *
(٣) نفسه . (بتصرف) .
(٤) نفسه " حرم " (بتصرف) .
(٥) نفسه . " حرمم "

(١) هذه هي الدِّراسة اللُّغويَّة لألفاظ المثل ، ونلاحظ أنَّ في هذه الألفاظ طباقاً بين الجاهلِ والعالمِ وبين مرزوقٍ ومحرورٍ .

ومقابلة بين المعنى (الجاهل مرزوق) ، والمعنى (والعالم محروم) .
أما المثل القرآني الكريم :-

” قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ” .

فيسمو على المثل البشري السابق (الجاهل مرزوق والعالم محروم) لأنَّ بلاغته لا تُبدد بمجرد فصل هذه الآية عن السياق قبلها وبعدها ، بل تبدو بلاغته من ذلك الارتباط الوثيق بين الآيات قبلها على نحو ما أشرنا من قبل (٢) وكذلك من تلك الصلَّة الواضحة بينها وبين ما جاء بعدها من آيات في سياق السُّورة الكريمة (٤) .

أما بشأن المثل البشري المذكور فرغم ما فيه من طباق بين الجاهلِ والعالمِ مرزوقٍ ، ومحرورٍ - ومقابلة بين الجاهلِ مرزوقٍ وبين العالمِ محرومٍ ، نقول رغم ما فيه من ذلك ، إلا أننا لا نشعر عند قراءته أو تأمله بما يمكن أن نشعر به من معاني المثل القرآني الكريم تلك المعاني الجليلة التي تبدو فيه وفي أمثال قوله تعالى :-

” أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنِ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ” .

وقوله تعالى : (٦)

” وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ - فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ، فَفَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ . فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ” .

(١) الطِّباق في اللُّغة الجمع بين الشَّيئين ، واصطلاحاً الجمع بين معنيين متقابلين سواءً أكان ذلك التَّقابل تقابلي التَّضاد أو الإيجاب أو السَّلب أو العدم
وسواءً كان ذلك المعنى حقيقياً أو مجازياً . فضلاً انظر في ذلك علوم البلاغة للمراغي ٣٣٠ .

(٢) المقابلة . هي نوع من الطِّباق وهي أن يؤتى بمعنيين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابل ذلك على سبيل الترتيب (انظر نفس المصدر السابق) ، ٣٣٢ .

(٣) فضلاً راجع ص ٣٢١-٣٢٢ من هذا البحث .

(٤) فضلاً راجع ص ٣٢١-٣٢٢ من هذا البحث .

(٥) سورة المؤمنون ٥٥ ، ٥٦ .

(٦) سورة الأنعام ٤٢ - ٤٥ .

هذا فضلاً عن ألفاظ المثل القرآني الكريم المعبّرة عن تلك المعاني أصدق تعبير
ناهيك عن جرس الألفاظ الجميل الذي يضيف عليها روحاً قرآنيّاً عالياً لا يمكن أن يتوفّر
في غيره من كلام البشر .

ومآورد من أقوال البشر في هذا المجال قولهم :-

(الدنيا لا تعطي أحداً ما يستحقّه ، إماماً تزيده أو تنقصه) (١)

وقول ابن المعتز :-

وحلاوة الدنيا لجاهلها * * ومرارة الدنيا لمن عقلاً (٢)

ويقول المتنبي مشيراً لما ينتظر أفاضل الناس من الهمّ والأسى ولا شك أن حرمان

العالم من الرزق هو أكبرهم يمكن أن يصادفه :-

أفاضل الناس أغراض لئذا الزمن

يخلو من الهمّ أخلاهم من الفطن (٣)

وقوله :-

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله

وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم (٤)

وقوله :-

تصفو الحياة لجاهلٍ أو غافلٍ

عمامضى فيها وما يتوقّع

ولمن يغالط في الحقيقة نفسه

ويسومها طلب المحال فتطمع (٥)

وقوله :-

ولو لم يعمل الاذو محل * * تعالى الجيش وانحط القتام (٦)

(١) التمثيل والمحاضر ٢٤٩ . النقص . خلاف الزيادة ، انظر مقاييس اللغة مادة
"نقص" .

(٢) التمثيل والمحاضر ، ٢٥١ .

(٣) ديوان المتنبي ٢٠٩/٤ .

(٤) نفسه ١٢٤/٤ .

(٥) نفسه ٢٦٩/٢ .

(٦) نفسه ٧٢/٤ (القتام) الغبار .

١٥ - قال تعالى :-

"كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مِنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ" (١)

أ - المعنى العام :-

قال السُّدِّيُّ عن أَبِي مَالِكٍ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي النَّضْرَيْنِ الْحَارِثِ وَكَذَلِكَ

قال ابن جُرَيْجٍ .

وقيل ان خبيثاً من خُبثاء قريش قال :-

(أَخْبَرْنَا عَنْ رَبِّكَ مِنْ ذَهَبٍ هُوَ أَوْ مِنْ فِضَّةٍ هُوَ أَوْ مِنْ نَحَاسٍ هُوَ ؟ فَتَقَعَّقَعْتَ

(٢)

السَّمَاءَ قَعْقَعَةً - وَالْقَعْقَعَةُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الرَّعْدُ فَإِذَا كَحَفَ رَأْسُهُ سَاقَطَ بَيْنَ يَدَيْهِ) .

وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد أن يهودياً جاء إلى محمد - صَلَّى اللَّهُ

عليه وَسَلَّمَ - فقال :-

(يَا مُحَمَّدَ أَخْبِرْنِي عَنْ رَبِّكَ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ هُوَ مِنْ دُرٍّ أَمْ مِنْ يَاقُوتٍ ؟ قَالَ فَجَاءَتْ

صَاعِقَةٌ فَأَخَذَتْهُ) (٣) .

ومعنى الآية الكريمة أن الله - سبحانه وتعالى - قد قصَّ على من اتَّبَعَ أَهْوَاءَ

الشَّيْطَانِ وَعَصَى خَالِقَهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ سَتَكُونُ نَهَائِيَّتُهُ الضَّلَالُ وَالْخُسْرَانُ وَالْبُعْدُ عَنِ

طَرِيقِ الْحَقِّ وَهُدَايَةِ الشَّيْطَانِ لَهُ إِلَى عَذَابِ جَهَنَّمَ الْمَوْقَدِ وَسَوْقِهِ إِلَيْهَا بِدَعَائِهِ

إِلَى طَاعَتِهِ وَمَعْصِيَةِ اللَّهِ - جَلَّ وَعَلَا - الَّذِي هُوَ أَحَقُّ بِالطَّاعَةِ وَالِاتِّبَاعِ (٤) .

ب - مناسبتة في السِّيَاق :-

إِذَا تَأَمَّلْنَا الْآيَاتِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي إِحْدَاهَا آيَةُ الْمَثَلِ الْكَرِيمِ عَلَّمْنَا مَدَى

ارتباطه بما قبله في السِّيَاقِ ثُمَّ مَالِحِقَ بِهِ مِنْ آيَاتٍ .

(١) سورة الحج ، ٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢٠٧/٣ .

(٣) نفسه ، ٢٠٧/٣ .

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١١٦/١٧ (بتصرف) ، كذلك إرشاد العقل

السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٩٣/٦ (بتصرف) .

أما عن صلته بما قبله في سياق السورة الكريمة فتبدو من خلال قراءتنا لأول آية وردت فيها والتي يقول فيها - جلَّ وعلا :- (١)

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) .

إن تأمر الآية الكريمة بتقوى الله والخوف من عذابه وعقابه المنتظرين في يوم البعث والحساب

وتليها الآية التي تفصل مدى تأثير هذا الهول العظيم على عباد الله من نساء ورجال إن تذهل كلُّ مُرضعة عن رضيعها وتضع كل ذات حمل حملها ويبدو الناس سُكاري ومهاهم كذلك ، ولكن لشدة الهول وقوة العذاب .

وكما نلاحظ أن هاتين الآيتين (٢) تأتيان بمثابة تمهيد للآيتين التاليتين مباشرة وذلك لتحديثهما عن نمط من الناس لا يخشون هذا العذاب المنتظر بل يجادلون في الله بغير علم كما فعل النضر بن الحارث والذي كان يقول :-

إنَّ الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين ولا بعث بعد الموت (٣) ، متبعاً في ذلك شيطاناً ضالاً يقوده إلى الهلاك المحثوم وهنا تبدو الصلة وثيقة بين آية المثل الكريم ، إن أنها تؤكد أن هذا الشيطان قد قضي عليه أن من يتبع طريقه ستكون نهايته الضلال عن الحق والهداية إلى نار جهنم وساءت مستقراً ومصيراً (٤) .

ثم تبدو مناسبة المثل لما بعده في السياق ، بما أكدته الآيات الكريمة بعد ذلك (٥) ، من قدرة الله - عز وجل - على بداية الخلق من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم مضمغة مخلقة وغير مخلقة ، تستقر في الأرحام إلى أجل مسمى ثم تخرج طفلاً يبلغ أشده ومن هو لا من يتوفى ومنهم من يبلغ أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً ، هذا من جانب قدرته - سبحانه - على خلق الإنسان وتطويع مراحل حياته إلى أن تنتهي - بانته تعالى .

(١) سورة الحج ١ .

(٢) سورة الحج ١ - ٢ .

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٩٢ / ٦ (بتصرف) .

(٤) سورة الحج ٤ .

(٥) سورة الحج ٥ - ٧ .

وكذلك تتحدّث الآيهَ عن جانب آخر تتجلّى فيه قُدرته - عزّ وجل - هــ هذا الجانب هو إحياءُه للأرض بعد موتها بما يُغدرُقه - سبحانه - عليها من سُحبٍ ممطره تحيي التربة وتنبِت الزرع . . . وغير ذلك من آيات دالة على قدرته - عزّ وجل - وعلى أنه حقّ قادر أيضاً على أن يأتي بالساعة بلا ريب وعلى بعث كلِّ من في القبور (١) .

ج - العبرة منه :-

بتأمّل آية المثل الكريمة تتجلّى العبرة الكامنة فيه إذ أنّ على المسلم أن يتبع سبيل المؤمنين وألا يجادل في الله بغير حقّ أو علم منه ، بل عليه أن يتّبع ما أمر به - عزّ وجلّ - في كتابه العزيز وما دلّ عليه رسوله الكريم - صلى الله عليه وسلم - من طاعاتٍ وعبادات تأخذ بيد المسلم الحقّ إلى سبيل الهداية الحقّة والرّشاد . . . ، كذلك عليه أن يروّض نفسه على مخالفة الهوى لأنّه سبيل الشيطان الذي ليس له من مهمّة سوى غواية من أتبعه وهدايته إلى عذاب السّعير .

.. .. .

د - دراسته وتحليله بيانياً :-

لدراسة هذا المثل الكريم علينا أن نتأمل نصه مرة أخرى ، قال

تعالى :-

" كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ " (١)

فلاحظ أن الضمير في قوله (عليه) عائد إلى الشيطان وكذلك الضمير المنصوب

في قوله (تَوَلَّاهُ) (٢) .

أما الضمير في قوله (أَنَّهُ) ، فهو للشأن (أي رُقْمَ بِهِ لظهور ذلك من حاله

أن الشأن من تَوَلَّاهُ) (٣) .

(٤)

وجملة (أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ) في محل رفع نائب الفاعل للفعل كُتِبَ المبني للمجهول

(والجملة في موضع الصفة الثانيه للشيطان) (من جزائيه وجزاؤها محذوف و (فَأَنسَهُ

يُضِلُّهُ ...) الخ الآية عطف على (أَنَّهُ) مع ما في خبرها وما يتصل بها أي كتب

على الشيطان أن الشأن من تَوَلَّاهُ أي : اتَّخَذَهُ وَلِيًّا وَتَبِعَهُ يَهْلِكُهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ عن طريق

الجنة وثوابها ويهديه إلى طريق السَّعِيرِ وعذابها والفاء لتفصيل الإهلاك كما في

قوله تعالى :- (٥)

" فَتَوَلَّوْا إِلَىٰ بَارِعِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ " (٦)

وجاء في إعراب قوله :-

(مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ ...) وجهك :-

أحدهما :-

إنَّ من موصولة في محل رفع مبتدأ .

(١) سورة الحج ، ٤ .

(٢) روح المعاني ١١٤ / ١٧ بتصرف .

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٩٣ / ٦ .

(٤) البحر المحيط ٣٥١ / ٦ .

(٥) سورة البقرة ، ٥٤ .

(٦) روح المعاني ١١٤ / ١٧

و (تَوَلَّاهُ) صلته الموصول لا محل لها من الإعراب والضمير المستتر عائده .

وقوله :-

(فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ) : مصدر مؤول في محل رفع خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره

محذوف والجملة من المبتدأ والخبر في محل رفع خبر المبتدأ (مَنْ) الموصولة .

(ودخول الفاء في خبره على التشبيه بالشرط أي كُتِبَ عليه أن الشأن من تَوَلَّاهُ

فشأنه أو فحَقَّ أنه يضلُّه) الخ (١)

أما الوجه الآخر :-

فيجوز أن تكون من شرطية والفاء في قوله (فإنه) واقعة في جواب الشرط .

أما ما بعدها مع المصدر جواب الشرط .

وقيل :-

(ضمير أنه للشيطان وهو اسم أن و (من) موصولة أو موصوفة - والأول أظهر

خبرها . والضمير المستتر في " تَوَلَّاهُ " لبعض الناس والضمير البارز لمن والجملة صلة

أوصفه وقوله تعالى (فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ) عطف على " أنه من تَوَلَّاهُ " والمعنى ويتبع

كل شيطان كُتِبَ عليه أنه . هو الذي اتخذه بعد الناس ولياً وأنه يضلُّ من اتخذه ولياً

فالأول كأنه توطئة للتأني أي : يتبع شيطاناً مختصاً به مكتوماً عليه أنه وليه وأنه مضلُّه

لا يألوجهداً في إضلاله ، وهذا المعنى أبلغ من المعنى السابق على احتمال كونه

من جزائيه لدلالته على أن لكل واحد من المجادلين واحداً من مردة الشياطين) (٢)

وقوله " فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيُهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ " ، فقد قرئ بكسر الهمزة

أي (فَإِنَّهُ) وذلك على أنه خبر لمن أو جواب لها وقرئ بالكسر في قوله (أنه

وفأنه) فقييل (إنه) ، (فَإِنَّهُ) وذلك على حكاية المكتوب كقولك كتبت إن الله

يأمر بالعدل والإحسان أو إضمار القول أو تضمين الكتب معناه على رأي من يراه (٣) .

(١) روح المعاني ١١٤ / ١٢ .

(٢) نفسه لا ١١٤ / ١٢ .

(٣) ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٩٣ / ٦ (بتصرف) كذلك البحر

المحيط ٣٥١ / ٦ (بتصرف) .

وعند دراسة الألفاظ في السِّيَاق نلاحظ : الطَّباق (١) الواضح بين قوله يُضِلُّهُ^٢ وَيَهْدِيهِ ، وفي قوله (يَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ) (استعارة تمثيلية تهكمية) (٢) از استعار لفظ (يَهْدِيهِ) مع الشَّيْطَان ، والشَّيْطَان - كما نعلم - لا يَهْدِي وإنما يُضِلُّ ، ولكن جاء ذلك تهكماً وسُخْرِيَةً مَن اتَّبَعَهُ كذلك في استعمال القول (يَهْدِيهِ) يتحقق طَباق - كما أشرنا من قَبْلِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يُضِلُّهُ ، وهو من المحسنات اللفظية الدالة على مظهر من مظاهر تفرُّد القرآن الكريم بالقُدرة على أداء المعنى بأبلغ تعبير وأجمله .

هذا ولا يفوتنا هنا ما توجَّه لفظه (السَّعِير) بجرسها وحروفها من تأجج النَّار واشتعالها الدائم .

ولعلَّ ذلك هو السَّرْفِي مجيئ لفظ السَّعِير هنا بدلاً من لفظ (الجحيم) مثلاً أو لفظ (النار) ولا أدلَّ على بلاغة اللفظ في موقعه من السِّيَاق من ذلك الفرق الذي ذكره أبو هلال العسكري بين النَّار والسَّعِير والجحيم والحريق ، إذ السَّعِير تعني النَّار الملتهبة الحراقَة أما في أثناء إحراقها للأحراق فتسمى حريقاً ، فيقال في العود نار وفي الجحر نار ولا يُقال فيه سعير يقول العسكري :-

(والحريق النَّار الملتهبة شيئاً وإهلاكها له ، ولهذا يُقال وقع الحريق في موضع كنهاً ولا يُقال وقع السَّعِير فلا يقتضى قولك السَّعِير ما يقتضيه الحريق ولهذا يُقال فلان مسعَّر حرب كأنه يشعلها ولا يُقال محرق) (٣)

كذلك نلاحظ البلاغة القرآنية في مجيئ جملة (تَوَلَّاهُ) عوضاً عن جملة (تبعه) مثلاً ، وذلك لأنَّ جملة (تَوَلَّاهُ) تعطي المعنى الدقيق المقصود في هذه الآية

(١) الطَّباق لغة : هو الجمع بين الشَّيئين ، واصطلاحاً : الجمع بين معنيين متقابلين سواء كان ذلك التقابل تقابل التضاد أو الإيجاب أو السلب أو العدم سواء كان ذلك المعنى حقيقياً أو مجازياً فضلاً انظر في ذلك علوم البلاغة للمراعي ٣٢٠ .

(٢) روح المعاني ١١٤/١٧ .

(٣) العروق اللغوية ٢٥٦ .

أكثر من جملة (تبعه) مثلاً وذلك ، لأنَّ الولاية والولاية هي النَّصْرَةُ يقال : هم على ولاية أي مجتمعون في النَّصْرَةِ . قال ابن بري وقُرئ :-

(مَالِكٌ مِنْ وَلَا يَتَّبِعُهُمْ مَنْ شَيْءٌ بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ وَهِيَ النَّصْرَةُ) (١)

وقال الفراء في قوله تعالى :-

* لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ * (٢) .

(قال هؤلاء خُزَاعَةٌ كانوا عاقداً والنبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أن لا يقاتلوه

ولا يخرجوه فأمر النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالبرِّ والوفاء إلى مدة أجلهم

ثم قال إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم أن تولوهم

أي : تنصروهم بمعنى أهل مكة قال أبو منصور جعل التَّوَلَّى ههنا بمعنى النَّصَرَ مَنْ

الْوَلِيَّ وَالْمَوْلَى وَهُوَ النَّاصِرُ) (٣) .

وهكذا تأتي معنى الولاية بمعنى النَّصْرَةِ في مواضع أخرى من القرآن الكريم

كقوله تعالى :-

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ

الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (٤)

وقوله :-

(٥)
(أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

أما جملة (يتبعه) مثلاً فلاتعني النَّصْرَةَ وإنما الاتِّبَاعُ يعني اقتفاء الأثر :-

(يقال تَبِعَهُ وَاتَّبَعَهُ قَفَا أثره وذلك تارة بالارتسام والائتمار وعلى ذلك

قوله * فَمَنْ تَبِعَ هَدَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * (٦) قال يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ

اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ * (٧) الخ) (٨) .

(١) الفروق اللغوية ، ٢٥٦ .

(٢) سورة الممتحنة ، ٨ .

(٣) اللسان " وُلِّيَّ " .

(٤) سورة البقرة ، ٢٥٧ .

(٥) سورة البقرة ، ١٠٧ .

(٦) سورة البقرة ، ٣٨ .

(٧) سورة يس ، ٢١ .

(٨) المفردات في غريب القرآن للراغب " تبع " .

وَيُقَالُ أَتْبَعَهُ إِذَا لِحَقَّهُ قَالَ * فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ * (١) * ثُمَّ أَتْبَعُ سَبِيلاً * (٢) .
وهكذا يكون الاتباع غير الموالاة إذ أن في الاتباع مجرد اقتفاء الأثر أو الملاحقة
أما في الولاية فتكون النصرة وعلى هذا الفرق الواضح في المعنى تكون جملة (يتولاه)
أدق وأبلغ في السياق من جملة (اتبعه) مثلاً .
ولا يفوتنا أيضاً أن جملة (وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ) تذييل على جملة
(يُضِلُّهُ) ، أفاد المعنى تقوية وتوكيداً ، والله أعلم ،،،،،
مايوافقه من كلام البشر :-

لعلَّ المثلَ البشريَّ الموافقَ للمثلِ الكامنِ في الآيةِ الكريمةِ هو

قولهم :-

(مَنْ أَعَانَ ظَالِمًا سَلَّطَ عَلَيْهِ) (٣)

العون : هو الظهير على الأمر .

قيل : (الواحد والإثنان والجميع والمؤنث فيه سواء وقد حكي في تكسييره

أَعْوَان) (٤) .

(والعوين اسم للجمع أبو عمر والعوين الأعوان قال الفراء ومثله طسيس جمع طس

وتقول أعنته إعانة واستعنته واستعنت به فأعانني) (٥) .

(والاسم العون والمعانة والمعونة والمعونة والمعون وقال الأزهري والمعونة

مفعله في قياس من جعله من العون وقال ناس هي فعولة من الماعون والماعون فاعول

وقال غيره من النحويين المعونة مفعلة من العون مثل المفوثة من الفوث

. ومن العرب من يحذف الهاء فيقول معون وهو شان لأنه ليس في كلام العرب

مفعل بغير هاء) (٦) .

(١) سورة الشعراء ، ٦٠ .

(٢) سورة الكهف ٨٩ و ٩٢ .

(٣) الاتقان في علوم القرآن ١٣٢ / ٢ .

(٤) اللسان " عون " .

(٥) نفسه " عون " .

(٦) نفسه " عون " .

وقيل مُعَوْن جمع مُعَوْنَه ، و تَعَاوَنُوا عَلَيَّ وَاعْتَوَنُوا أَي أَعَانَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا (١) .

وقالوا :-

(عَاوَنَتْهُ مَعَاوَنَةٌ وَعَوَانًا صَحَّتِ الْوَاوُ فِي الْمَصْدَرِ لِصَحَّتِهَا فِي الْفِعْلِ لَوُقُوعِ الْأَلْفِ)

قبلها قال ابن بري يقال اعتونوا واعتانوا إذا عاون بعضهم بعضا قال ذو الرمة :-

فَكَيْفَ لَنَا بِالشَّرْبِ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَنَا * * دَوَانِيقٌ عِنْدَ الْحَانُوتِيِّ وَلَا نَقْدٌ (٣)

أَنْعَتَانُ أُمَّ نَدَّ أَنْ أُمَّ يَنْبِرِي لَنَا * * فَتَى مِثْلُ نَصْرِ السَّيْفِ شَمِيئَةُ الْحَمْدِ (٤)

وتعاونوا أي أعان بعضنا بعضاً والمعونة هي الإعانة ورجل معوان أي حسن

المعونته أو كبير المعونة للناس واستعنت بفلان فأعاني وعاونني (٥) .

(وَالمُتَعَاوِنَةُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي طَعَنَتْ فِي السِّنِّ وَلَا تَكُونُ إِلَّا مَعَ كَثْرَةِ اللَّحْمِ) (٦)

والظالم : اسم فاعل من ظلم .

والظلم : هو وضع الشيء في غير موضعه ومن أمثال العرب من أشبه أباه فما ظلم

أى : ما وضع الشبه في غير موضعه (٧) .

وأصل الظلم الجور ومجاورة الحد (٨) .

يقال :-

(ظَلَمَهُ يَظْلِمُهُ ظُلْمًا وَظُلْمًا وَمَظْلَمَةٌ فَالظُّلْمُ مَصْدَرٌ حَقِيقِيٌّ وَالظُّلْمُ الْاسْمُ يَقُومُ مَقَامَ

المصدر وهو ظالم و ظلوم .

قال ضيفم الأسدی :-

إِذَا هُوَ لَمْ يَخْفِنِي فِي ابْنِ عَمِّي * * وَإِنْ لَمْ أَلْقَهُ الرَّجُلُ الظُّلْمُ (٩)

(١) اللسان ، "عون" .

(٢) دوانيق : جمع مفردة دانيق وهو سدس الدينار أو الدرهم (انظر تاج العروس "دنيق" .

(٣) الحانوي : نسبة إلى الحانوت وهو دكان الخمار انظر نفس المصدر السابق "حت" .

(٤) اللسان ، "عون" . كذلك مقاييس اللغة "عين" .

(٥) اللسان "عون" (بتصرف) .

(٦) نفسه "عون" .

(٧) نفسه "ظلم" (بتصرف) .

(٨) نفسه "لا ظلم" (بتصرف) .

(٩) نفسه "ظلم" .

والظلمة والظلمية والمظلمة ما تطلبه عند الظالم وهو اسم لما أخذ منك .
والظلمة : اسم مظلمتك التي تطلبها عند الظالم يقال أخذها منه ظلمة . (١)
(يقال ظلم فلان فاظلم معناه أنه احتمل الظلم بطيب نفسه وهو قادر على الامتناع
منه وهو افتعال وأصله اظلمت فقلت التاء ظاء ثم أدغمت الظاء فيها) (٢) .

وتظالم القوم أى : ظلم بعضهم بعضا (٣)

أما قوله سَلَطَ ، فالفعل مبني للمجهول وأصلها سَلَطَ ، (والسلاطة القهرُ
وقد سَلَطَهُ اللهُ فتسلط عليهم والاسم سُلْطَةٌ بالضم والسَلَطُ والسَلِيطُ الطويل اللسان
والأنثى سَلِيطَةٌ) . (٤)

تلك هي المعاني اللغوية لألفاظ المثل البشري الموافق لقوله تعالى :-

* كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ * (٥)

هذا وقد ورد ما يماثل هذا القول الكريم أبيات شعرية نذكر منها هنا ما قاله

المتنبى :-

ومن يجعل الضرغام بازا لصيده

يصيره الضرغام فيما تصيداً (٦)

وقال آخر :-

وما من يد الأيد الله فوقها * * وما ظالم إلا سيئ بظالم (٧)

هذا ويسمو المثل القرآني على قولهم :-

(من أعان ظالماً سَلَطَ عَلَيْهِ) (٨) . بما فيه من بلاغة الأداء وعرض المعنى .

(١) اللسان : " ظلم " (بتصرف) .

(٢) اللسان " ظلم " .

(٣) نفسه . " ظلم " (بتصرف) .

(٤) نفسه " سلط " .

(٥) سورة الحج ، ٤ .

(٦) ديوان المتنبى ١ / ٢٨٧ .

(٧) التمثيل والمحاضرة ٤٥٣ .

(٨) الاتقان في علوم القرآن ٢ / ١٣٣ .

أما عن بلاغته في أداء المعنى ، فلا يفوتنا الأسلوب الذي عرض به ذلك المعنى
إن نلاحظ أن الآية الكريمة أو المثل الكريم قد تناول الحديث عن جزاء من يتبّع
الشيطان وأوامره ، وبهذا يكون المعنى ، أعم من الحديث عن الظالم ومناصرتة . . .
لأنّ اتباع الشيطان يحتوي على الظلم وغيره من الدنایا وسفاسف الأمور - والعيان
بإلله - هذا من جانب المعنى .

أما كيف كان أداء هذا المعنى أبلغ من غيره في الأسلوب القرآنيّ ، فلا شك في
ذلك ولا جدال ، ولا أدلّ على ذلك من الدقّة في مجيئ جمل دون سواها قد تؤدّي
بعض المعنى وليس كده مثل جملة (تولاه) بدلا من (يتبعه) مثلاً (١) .
ثمّ ما حققه الطّباق من جمال في الأسلوب بين جملتي يضلّه ويهديه ، كذلك فسي
مجيئ لفظة (السّعير) بدلا من النار أو الجحيم مثلاً (٢) .
كذلك في وجود التذييل الذي ختمت به الآية تقوية وتوكيدا للمعنى قبله
بينما لم نجد ذلك في القول البشريّ (من أعان ظالماً سلط عليه) والله أعلم ،،،

(١) فضلا انظر الى هذا الفرق ص ٣٣٣ من هذا البحث .
(٢) قد أشرنا الى هذه الفروق أثناء الدّراسة البيانيّة للمثل الكريم ، فضلا راجع
ص ٣٣٣ من هذا البحث .

١٦ - قال تعالى :-

* وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرُونِ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا * (١)

أ- المعنى العام :-

هذا وعيد شديد من الله عز وجل للكافرين المستهزئين برسوله الكريم محمد - صلى الله عليه وسلم - وبرسالته إن بين لهم - سبحانه - أنهم عندما يعانون العذاب الذي أعدّه لهم يوم القيامة والذي استحقوه واستوجبوه بسبب كفرهم سيعلمون عندها أيهم أبعد طريقاً عن الحق والهدى ، أ هم المتبعون الهوى والشيطان أم المؤمنون الذين اتبعوا محمداً - صلى الله عليه وسلم - ورسالته. (٢)

ب- مناسبه في السياق :-

تبدو مناسبة هذا المثل الكريم في سياق الآيات قبله من قوله تعالى :-
(وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) (٣) إن أنسه صلى الله عليه وسلم - سوف يشكو يوم القيامة أمته فيما لو انصرفوا عن الطريق القويم سيشكو إليه مايلقاه من عناد قومه ومكابرتهم - وهو سبحانه أعلم بهم منه - لهذا كانت الآيات التالية عبارة عن مواساة له - صلى الله عليه وسلم - لما يواجهه من نفور وإعراض إن كانت هذه المواساة عبارة عن ذكر أحوال الرسل السابقين له - صلى الله عليه وسلم - والذين لقوا من أعدائهم ، مثل مالقى عليه الصلاة والسلام (٤) .
ثم يلي ذلك الحديث عن مكابرة أعدائه - صلى الله عليه وسلم - واختلاف صور هذه المكابرة التي منها اعتراضهم على نزول القرآن منجماً ورغبتهم في أن ينزل دفعة واحدة ثم الرد على ذلك بأنه ما جى به كذلك لإلتئيب فؤاده - عليه الصلاة والسلام - على الإيمان (٥) وإعانتة في كل طرف من الظروف التي يعيشها مع أولئك

-
- (١) سورة الفرقان ، ٤٢ .
(٢) فتح القدير ٧٧/٤ (بتصرف) ، كذلك جامع البيان ١٧/١٩ (بتصرف) .
(٣) سورة الفرقان ، ٣٠ .
(٤) سورة الفرقان ، ٣١ .
(٥) سورة الفرقان ، ٣١ .

الكفار إعانتة بآية أو أكثر ، لتكون تسليّة له وشحذاً لهمته ضدّ أعدائه ، هذا الرّسول مافي هذه الطّريقة التدرّجيّة في التّنزيل من تمكين الرّسول الكريم - صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين - من حفظ الآيات وفهم المعاني وضبط الأحكام والوقوف على تفاصيل ماجاء فيها من الحكم والمصالح المبيّنة على المناسبة (١) .

ثم ذكر سبحانه أنّه راصد لهم ولا أقوالهم فلا يلبث أن يردّها - عزّ وجلّ - على أعقابها خاسرة بمايقوله - سبحانه - من الحقّ والبيان الواضح (٢) .
أولئك هم الذين سيحشرون إلى جهنّم على وجوههم وساءت مكاناً وسبيلاً (٣)
ثمّ يستأنف الحديث بعد ذلك لتأكيد ماورد من تسليّة الرّسول - صلّى الله عليه وسلّم - ومواساته على مايلقاه من قومه ، فذكرت الآيات قصّة سيدنا موسى وأخيه هارون عليهما السلام مع فرعون وملثه (٤) .

ثم قصّة نوح عليه السلام مع قومه ونهايتهم السيّئة كذلك عاد وثمود وأصحاب الرّسول وغيرهم من الأقوام الذين ضرب الله بهم الأمثال في العناد والمكابرة وسوء العاقبة (٥) .

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك طريقة معاملتهم للرّسول الكريم - صلّى الله عليه وسلّم - وقصرها على استهزائهم به واحتقارهم له واستبعادهم أن يكون هذا الرّجل رسولاً ثمّ تناقض هذه الأقوال ، ببيان مدى جهاده في الدّعوة معهم ومدى تأثير ذلك فيهم بدليل حديث القرآن على لسانهم :-

" إِنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا " (٦)

وهنا تبدو المناسبة واضحة تماماً إن بين المثل الكريم :-

" وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا " .

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٦ / ٦ (٢١ بتصرف).

(٢) سورة الفرقان ، ٣٣

(٣) سورة الفرقان ، ٣٤

(٤) سورة الفرقان ، ٣٥ - ٣٦

(٥) سورة الفرقان ، ٣٧ - ٤٠

(٦) سورة الفرقان ، ٤٢ .

بينَ هذا الوعيدَ الشَّدِيدَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُرَدَّ بِهِ عَلَى أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ الْمَعَانِدِينَ
... وَلِيُبَيِّنَ هَذَا التَّهْدِيدَ أَنَّهُ - سُبْحَانَهُ - لَنْ يَهْمَلَهُمْ وَإِنْ أَمَهَلَهُمْ طَوِيلًا .
أَمَّا عَنْ مَنَاسِبَةِ هَذَا الْمَثَلِ الْكَرِيمِ لِمَابَعْدِهِ ، فَتَبَدُّوْا أَيْضًا وَاضِحَةً لِأَنَّ الْآيَةَ لَهُ مَبَاشَرَةٌ
عِبَارَةً عَنْ خِطَابِ لَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَتَضَمَّنُ تَعْجَبًا شَدِيدًا مِنْ شَخَاعَةِ حَالِهِمْ
بَعْدَ حِكَايَةِ قِبَائِحِهِمْ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ وَاتِّخَاذِهِمْ أَهْوَاءَ هُمُ الْهَيْبَةِ لَهُمْ (١) ثُمَّ
تَلَّتْهَا الْآيَةُ الَّتِي تَحْمِلُ مَوَاسَاتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِمَا يَصْدُرُ عَنْهُمْ مِنْ عَدَمِ الطَّاعَةِ
وَالانْقِيَادِ بِبَيَانِ حَقِيقَةِ أَمْرِهِمْ وَهُوَ أَنَّهُمْ كَالْأَنْعَامِ الَّتِي لَا تَعْقِلُ مَا تَسْمَعُ وَإِنْ كَانَتْ أَهْدَى
مِنْهُمْ سَبِيلًا فِي مَعْرِفَةِ رَاعِيهَا وَالانْقِيَادِ لَهُ (١) ثُمَّ تَوَالَتْ الْآيَاتُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي تَعْسُدِ
قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لِأَخْذِ النَّاسِ مِنْهَا الْعِبْرَةَ وَالْعِظَّةَ وَلِتَكُونَ
وَأَزْعًا قَوِيًّا لِلانْقِيَادِ وَالطَّاعَةِ وَلَكِنْ يَأْبَى الْكَافِرُونَ إِلَّا الْكُفْرَ وَالْجُحُودَ (٢) .
ثُمَّ بَيَّنَّ السِّيَاقُ بَعْدَ ذَلِكَ إِرَادَةَ اللَّهِ فِي أَنْ يَجْعَلَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ جَمِيعًا رَسُولًا وَاحِدًا
وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا وَلَكِنْ أَمْرُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِعَدَمِ إِطَاعَتِهِمْ
وَأَمْرُهُ بِمَجَاهَدَتِهِمْ جِهَادًا كَبِيرًا بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تَعْظِيمًا لَهُ وَتَفْضِيلًا عَلَى سَائِرِ الرُّسُلِ (٣) .
تلك هي مناسبة المثل الكريم لمابعدِهِ فِي السِّيَاقِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

ج. العبرة منه :-

تبدو العبرة من هذا المثل الكريم من خلال تأملنا لمناسبته للآيات قبله
وبعدِهِ فِي السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ ، فَكَمَا نَعْلَمُ أَنَّ الْمَثَلَ قَدْ جَاءَ بِمَثَابَةِ وَعِيدٍ شَدِيدٍ لَهُؤُلَاءِ
الْكَفَّارِ الَّذِينَ أَعْرَضُوا عَنِ الدَّعْوَةِ لِمَجْرَدِ الْعِنَادِ وَالْمَكَابَرَةِ وَهَذَا الْوَعِيدُ الْمُقَيَّدُ بِزَمَنِ
مَعِيْنٍ وَهُوَ - حِينَ يَرُونَ الْعَذَابَ - يُوَكِّدُ لَنَا شَيْئًا هَامًا وَهُوَ ضَرُورَةُ التَّأْسِيِّ بِرَسُولِ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالصَّبْرِ عَلَى عَدُوِّ الدِّينِ وَالنَّاطَاتِ فِتْرَةَ عِنَادِهِ وَمَجَاهَدَتِنَا لَهُ
وَأَنْ لَا يَظُنَّ الْمَرْءُ بِاللَّهِ إِلَّا خَيْرًا لِأَنَّهُ لَا يَهْمِلُ وَإِنْ أَمَهَلَ وَأَنَّ الْعِبْرَةَ بِنَهَايَاتِ الْأُمُورِ وَنَتَائِجِهَا
لَا بِبَدَايَاتِهَا ، فَرَبَّمَا كَانَتْ الْبَدَايَاتُ سَائِرَةً ، وَالنَّهَايَاتُ حَزِينَةً مُؤَلِّمَةً كَمَا بَدَأَ ذَلِكَ مِنْ آيَةِ
الْمَثَلِ الْكَرِيمِ .

(١) سورة الفرقان ٤٤

(٢) سورة الفرقان ٤٥ - ٥٠

(٣) سورة الفرقان ٥١ - ٥٣

د - دراسته و تحلیله بیانیاً :-

لنعد هنا إلى قوله تعالى :-

" وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا " (١)

وعند دراسة هذه الألفاظ لغوياً نلاحظ :-

أنَّ العلم : هو إدراك الشئ بحقيقته وذلك على ضربين (٢) :-

أولهما : ادراك ذات الشئ وهو يتعدى إلى مفعول واحد كقوله تعالى :

" لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ " (٣) .

وثانيهما : الحكم على الشئ بوجود شئ هو موجود له أو نفي شئ هو منفي

عنه ، وهذا يتعدى إلى اثنين كقوله تعالى :- " فَإِنَّ عِلْمَهُنَّ مَوْنَاتٍ " (٤) .

و (يعلمون) هنا على الأرجح أن تكون من النوع الثاني وهو الحكم على الشئ

بوجود شئ هو موجود له وذلك لتقيد ذلك العلم برؤية العذاب في قوله تعالى :-

" حِينَ يَرُونَ الْعَذَابَ " .

وبهذا تكون (يَعْلَمُونَ) هنا متعدية إلى مفعولين - وهما الجملة المكونة من اسم

الاستفهام وخبره (مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا ؟) إذ سدت هذه الجملة مسبة المفعولين المنصوبين .

ويجوز أن تكون من موصولة والجملة بعدها صلة الموصول وحذف صدر الصلة

لطول الجملة بالتمييز (٦) .

(١) سورة الفرقان ، ٤٢ .

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب . " علم " (بتصرف)

(٣) سورة الأنفال ، ٦٠ (تأخذ علم مفعولاً واحداً إذا كانت بمعنى عرف . انظر في

ذلك شرح ابن عقيل ٤٥٤/١ ، تح محمد محي الدين عبد الحميد ط ١٥ سنة

١٩٧٢ م ، دار الفكر .

(٤) سورة الممتحنة ، ١٠ . وتتعدى (علم) إلى مفعولين إذا كانت بمعنى اعتقد

على أن يكون هذان المنصوبان أصلهما مبتدأ وخبر . انظر المصدر نفسه ٤١٦ .

(٥) البحر المحيط ٦/٥٠١ (بتصرف) .

(٦) وتقدير الكلام (من هو أضل سبيلاً) فضلا انظر روح المعاني ٢٣/١٩ (بتصرف) .

هذا ونلاحظ أن السَّيَاقَ الكَرِيمَ قد اشتمل على قوله :-

(وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) بدلا من القول مثلا وسوف يعرفون وذلك لأن (المعرفة والعرفان تعني إدراك الشيء بتفكير وتدبر لأثره وهو أخص من العلم ويضاده الإنكار) (١) .
وتقول أمر معروف أي : سُكِنَ إِلَيْهِ وحدث الطمانينة بمعرفته (٢) .
(لأن من أنكر شيئا توحش منه ونبا عنه) (٣) .

لذا نرى أن مجيء الجملة (يعلمون) مع رؤية العذاب أنسب وأدق مما لو جاءت جملة : يعرفون مثلا ؛ لأن المعرفة كما أسلفنا تدل على السكون والارتياح ، وهذان أمران لا يتفقان مطلقاً مع رؤية العذاب والوصول إلى الحقيقة المؤلمة في ذلك اليوم الموعود وهي كونهم هم أضل سبيلاً ، هذا فضلا عما تضيفه جملة (يعلمون) من معنى الثقة والتأكد من ضلالهم - والعيان بالله .

كذلك جاءت جملة (يعلمون) في السَّيَاقِ أنسب وأبلغ من جملة (يدرون) مثلاً وذلك لأن الدراية تعني (المعرفة المدركة بضرب من الخيال) (٤) وهذا لا يتفق من غير شك مع ذلك الموقف الرهيب حين رؤية العذاب .

كذلك نرى أن مجيء القول (حين يرون العذاب) قد ناسب المعنى تمام المناسبة لأن العذاب شيء موجود ومحسوس يمكن رؤيته أو هو شيء محدود أو قائم في محدود كما يقول العسكري :-

(الفرق بين العلم والرؤية أن الرؤية لا تكون إلا لموجود ، والعلم يتناول الموجود والمعدوم وكل رؤية لم يعرض معها آفة فالمرئي بها معلوم ضرورة ، وكل رؤية فهي لمحدود أو قائم في محدود كما أن كل إحساس من طريق اللمس فإنه يقتضي أن يكون لمحدود أو قائم في محدود) (٥)

-
- (١) المفردات في غريب القرآن ، للراغب " عرف " .
 - (٢) مقاييس اللغة " عرف " (بتصرف) .
 - (٣) نفسه " عرف " .
 - (٤) المفردات في غريب القرآن " درى " .
 - (٥) الفروق اللغوية ، ٧٥ .

أما القول (مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا) ، فهو إجابة مناسبة تماماً لما جاء في السياق على لسانهم من قبل وذلك في قوله تعالى :-

" إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا " (١) الآية .

فكما نلاحظ أنّ الإجابة اشتطت على صيغة أفعل التفضيل في قوله (أَضَلُّ) بينما كان الحديث الوارد على لسانهم بصيغة المضارع (يُضِلُّنَا) ولا يخفى ما بين هاتين الصيغتين من الفرق .

كذلك نلاحظ انتقال استعمال الألفاظ من المحسوسات إلى المعنويات - أيضاً في قوله (مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا) فالضلال هو الجور عن القصد أصلاً ، يُقال ضَلَّتْ المسجدة والدار أي : إذا لم تهتدي لهما . (٢)

وكذلك السبيل من سَبَلَ (وهو أصل واحد يدل على إرسال شيء من علو إلى سفلى وعلى امتداد شيء ، وسمي الطريق سبيلاً لامتداده طولاً) (٣) .

وفي القول (مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا) انتقل استعمال الألفاظ من المحسوسات وهو أصلها إلى المعنويات إذ استعمل السبيل هنا لطريق الهدى وهو شيء معنوي كما نعلم . . . كذلك الضلال استعمل للنأي عن طريق الحق والرشاد . . . ومثله من القرآن قوله تعالى " إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ " (٥)
" وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ "

-
- (١) سورة الفرقان ، ٤٢ .
 (٢) مقاييس اللغة " ضَلَّ " (بتصرف) .
 (٣) نفسه " سَبَلَ " .
 (٤) نفسه (بتصرف) .
 (٥) سورة الفاتحة ٥ - ٦ .
 (٦) سورة الرضا ، ١٥٢ .

هـ. ما يوافق من كلام البشر :-

لعلَّ المثلَ البشريَّ الموافقَ للمثلِ الكَرِيمِ :-

” وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا “^(١)

هو قولهم :-

(حين تَقْلِينِ تَدْرِينِ) (٢) .

وهو مثل يضرب للمغبون يظن أنه الغابن غيره .

و (قَلَى الشَّيْءُ قَلِيًّا : أَنْضَجَهُ عَلَى الْمَقْلَةِ يُقَالُ قَلَيْتُ اللَّحْمَ عَلَى الْمَقْلَى أَقْلِيهِ

قَلِيًّا إِذَا شَوِيَتْ حَتَّى تَنْضَجَهُ وَكَذَلِكَ الْحَبُّ يَقْلَى عَلَى الْمَقْلَى) (٣) .

وَيُقَالُ :-

(قَلَوْتُ الْبُرَّ وَالْبُسْرُ وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ قَلَيْتُ وَلَا يَكُونُ فِي الْبُغْضِ الْإِقْلَيْتُ) (٤)

وَيُقَالُ : (قَلَيْتُ الْحَبَّ عَلَى الْمَقْلَى وَقَلَوْتُهُ) (٥) .

(قَلَيْتُ السَّمِيْقَ وَاللَّحْمَ فَهُوَ مَقْلِيٌّ وَقَلَوْتُ فَهُوَ مَقْلُوٌّ لَفْهُ) (٦) .

(وَالْمَقْلَةُ وَالْمَقْلَى الَّذِي يَقْلَى عَلَيْهِ وَهُمَا مَقْلِيَانِ الْجَمْعُ الْمَقَالِي) (٧)

وَإِذَا بَاتَ الرَّجُلُ سَاهِرًا قَلِقًا لِأَمْرٍ مِهِمْ يُقَالُ عَنْهُ :-

(بَاتَ يَتَقَلَّى أَي : يَتَقَلَّبُ عَلَى فِرَاشِهِ كَأَنَّهُ عَلَى الْمَقْلَى) (٨)

وقوله :-

تَدْرِينِ : مِنْ (دَرَى الشَّيْءُ دَرِيًّا وَدَرِيًّا عَنِ اللَّحْيَانِي وَدَرِيَّةً وَدَرِيَانًا وَدَرَايَةً

عَلَّمَهُ ”) (٩) .

(١) سورة الأنعام ، ١٥٢ .

(٢) فضلا أنظر قصة هذا المثل بمجمع الأمثال ١/ ٣٦٣ .

(٣) اللسان ” قلا ” .

(٤) نفسه . ”

(٥) نفسه . ”

(٦) نفسه . ”

(٧) نفسه . ”

(٨) نفسه . ”

(٩) نفسه ” دَرَى ” وسبقت الإشارة إلى معنى هذا اللفظ الدقيق فضلا راجع ص ٣٤٣ من

هذا البحث .

ولا يفوتنا هنا أن نُشير إلى سمو المثل القرآني الكريم لسمو مصدره فضلاً عن

ما احتواه هذا المثل الكريم :

” وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ” .

من جمال الأسلوب ودقة الجمل في مواضعها من السياق تلك الدقة التي حققت

لها بلاغتها المتميزة عن غيرها من أقوال البشر .

هذا وليس بعيداً عن هذا القول قول أبي فراس الحمداني :-

تَغَابَيْتُ عَنْ قَوْمِي فَظَنُّوا غِيَاوَتِي * * بِمَفْرَقِ أَغْيَانَا حَصِيٍّ وَتُرَابٍ (١)

هذا بعض ما يوافق المثل القرآني الكريم .

” وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ” واللّه أعلم ،،،،،

(١) ديوان أبي فراس الحمداني ص ٤٥ ، بيروت ، سنة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م .

١٧ - قال تعالى :-

"وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاَجْرًا كَهَارًا" (١).

أ- المعنى العام :-

ورد هذا المثل ضمن قوله تعالى :-

"إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاَجْرًا كَهَارًا" .

وهي تكملة لما جاء على لسان سيدنا نوح عليه السلام في دعائه على قومه في قوله

تعالى :-

"وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا" (٢) .

وقيل إن سيدنا نوحاً لم يدع هذا الدعاء على قومه إلا بعد أن أوحى إليه

(أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ) (٣) . فقال عليه السلام :- كما جاء في القرآن -

"رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ، إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا

إِلَّا فَاَجْرًا كَهَارًا" (٤) .

أي إن تركتهم أحياء على الأرض ولم تهلكهم بعذاب من عندك فسيكونون سبباً في

بعث عبادك المؤمنين عن طريق الحق ولن ينجبوا إلا من هم أمثالهم من الفجرة في

دينك والكفار لنعمتك (٥) .

هذا وقد ناقش الرازي في تفسيره الكبير كيفية معرفة سيدنا نوح - عليه السلام -

ذلك وأرجعهما إلى النص والاستقراء فقال :-

(أَمَا النَّصُّ فَقَوْلُهُ تَعَالَى : " أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ " وَأَمَّا

الاستقراء ، فهو أنه لبت فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فعرف طباعهم وجربهم ، وكان

الرجل منهم ينطلق بابنه إليه ويقول احذر هذا فإنه كذاب وإن أبي أوصاني بمثل

(١) سورة نوح ، ٢٧ .

(٢) سورة نوح ، ٢٦ .

(٣) سورة هود ، ٣٦ .

(٤) سورة نوح ، ٢٦ - ٢٧ .

(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢٩ / ١٠١ . كذلك إرشاد العقل السليم إلى

مزايا القرآن الكريم ٩ / ٤١ (بتصرف) .

هذه الوصية ، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك . وقوله (وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِجْرًا كَفَّارًا) فيه وجهان :-

(أحدهما) إنهم يكونون في علمك كذلك (والثاني) إنهم سيصيرون كذلك (١)

ب- مناسبة في السّياق :-

تبدو مناسبة هذا المثل في السّياق من خلال قراءة الآيات قبله
إن السّورة من أولها تحكي قصةً متسلسلة الأحداث واضحة المعالم ، فبداية السّورة
هي بداية هذه القصة . . . ، إذ أن أول آية فيها تتحدّث عن ذلك التّكليف المشرف
المُضِيّ في الوقت ذاته - الذي كلف به - سبحانه وتعالى - سيّدنا نوحاً عليه
السّلام وهو إنذار قومه من قبل أن يعرضوا لسوء الجزاء والعقاب (٢) ثمّ بداية
هذه الدّعوة منه - عليه السّلام - وَاغْرَاؤُهُمْ بِمَا سَيَلْقَوْنَهُ مِنَ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ (٣) .
ثمّ مناجاته لله وشكواه إليه من هؤلاء القوم الذين لم تزد هم الدّعوة إلى النّفور واستكبارا
رغم ما بذله - عليه السّلام - من جُهدٍ جَهِيدٍ في سبيل دعوتهم سواء كان ذلك جهراً
أو سراً وَاغْرَاؤُهُمْ بِمَا سَيَكُونُ وَرَاءَ ذَلِكَ الْاسْتِغْفَارُ مِنْ مَغْفِرَةٍ وَرِضْوَانٍ وَإِمْدَادٍ بِالْمَالِ
وَالْبَنِينَ وَسَائِرِ النَّعْمِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ (٤) ثمّ دهشته من عنادهم واصرارهم على
عدم احترام حدود الله والخوف من عقابه (٥) وهم يعلمون أنّه خلقهم في مراحل متعدّدة
من الخلق ويعلمون أيضاً ما في الكون من آيات دالة على قدرته وعظمته - عزّ وجل -
كما يعلمون بداية خلقهم ومنتهاه ، وهذه الأرض التي جعلت لهم بساطاً يتقلبون عليها
وَيَمْشُونَ مَبْتَغِينَ فَضْلَ اللَّهِ وَسُبُلَهُ الْمُتَعَدِّدَةَ فِيهَا (٦) ولكنهم يصرون على المعصية

(١) التفسير الكبير ٣٠ / ١٤٦ .

(٢) سورة نوح ، ١ .

(٣) سورة نوح ، ٢ - ٤ .

(٤) سورة نوح ، ٤ - ١٢ .

(٥) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٣٩ / ٩ (بتصرف) .

(٦) سورة نوح ، ١٣ - ٢٠ (بتصرف) .

وَاتَّبَعَ رُسُلَهُمُ الَّذِينَ أَبْطَرْتَهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَغَرَّتَهُمْ أَوْلَادُهُمْ وَصَارَ كُلُّ ذَلِكَ سَبَبًا لَزِيَادَةِ خَسَارَتِهِمْ فِي الْآخِرَةِ ، فَصَارُوا أَسْوَأَ لِهِمْ فِي الْخَسَارَةِ ، وَزَادَ مَكْرَهُمْ وَعِنَادَهُمْ إِلَى الْحَدِّ الَّذِي طَالَبُوا فِيهِ بِالتَّمَسُّكِ بِأَلْمَتِهِمْ فَأَضَلُّوا بِدَعْوَاهُمْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ، فَدَعَا عَلَيْهِمْ بِزِيَادَةِ الضَّلَالِ وَالْخُسْرَانِ ، وَكَانَ جَزَاءَ أَخْطَائِهِمُ الْغُرُقُ ثُمَّ الْعَذَابُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ وَلِيُّ وَلَا نَصِيرٌ

ثُمَّ أَمَّ نُوْحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ دُعَاةً عَلَيْهِمْ بِاللَّهِ أَنْ يَتْرَكَ أَحَدًا مِنْهُمْ عَلَى الْأَرْضِ ، وَهَذَا تَأْتِي مَنَاسِبَةُ الْمَثَلِ لِمَاقِبِلِهِ مِنْ آيَاتِ ، لِأَنَّهُ بِمَثَابَةِ تَعْلِيلِ لِمَا جَاءَ قَبْلَهُ أَنْ يَقُولَ تَعَالَى :-
" إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِاجِرًا كَفَّارًا " (١) .

لِأَنَّ بَقَاءَهُمْ إِنَّمَا هُوَ زِيَادَةٌ لِلْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ وَسَبَبٌ فِي تَوَارِثِ الْكُذْبِ وَالْكَفْرِ فِي الْأَرْضِ هَذَا عَنْ مَنَاسِبَةِ الْمَثَلِ لِمَاقِبِلِهِ فِي السِّيَاقِ ، أَمَّا عَنْ مَنَاسِبَتِهِ لِمَابَعْدِهِ ، فَنَلِاحِظُ أَنَّ سَيِّدَنَا نُوحًا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي الْمَقَابِلِ أَخَذَ يَدْعُو لِنَفْسِهِ وَلِمَنْ آمَنَ مَعَهُ إِذَا جَاءَ عَلَى لِسَانِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى :-

" رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَكْزِدِ الظَّالِمِينَ فِي الْإِتْبَارِ " (٢) .

ج - العبرة منه :-

بِتَأْمُلِ الْقِصَّةَ الَّتِي حَكَّتْهَا الْآيَاتُ الْوَارِدَةُ قَبْلَ هَذَا الْمَثَلِ الْكَرِيمِ وَبَعْدَهُ

تَبَدَّلْنَا الْعِبْرَةَ جَلِيَّةً وَاضِحَةً مِنْ هَذَا الْمَثَلِ الْكَرِيمِ

وَالْقِصَّةُ كَمَا بَدَأْنَا لَنَا هِيَ قِصَّةُ الصَّبْرِ الطَّوِيلِ الَّذِي قَضَاهُ سَيِّدُنَا نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي دَعْوَةِ قَوْمِهِ الْمَعَانِدِينَ الْجَاهِدِينَ لِنِعْمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، ثُمَّ نِهَايَةُ هَذَا الْعِنَادِ وَتِلْكَ الْمُكَابَرَةُ الدَّائِمَةُ . . . تِلْكَ النِّهَايَةُ الَّتِي تَتَأَلَّقُ فِي أَفْقِهَا الْعِبْرَةُ الْقِيَمَةُ مِنْ هَذَا

(١) سورة نوح ٢٧ .

(٢) سورة نوح ٢٨ .

المثل ، ألا وهي أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَهْمِلُ وَإِنْ طَالَتْ مَدَّةُ إِمِهَالِهِ لِلظَّالِمِ الْمَعَانِدِ
فهذا سيدنا نوح عليه السَّلام قد طال انتظاره بهؤلاء القوم حتى أراد الله لهم تلك
النهاية فنقد صبره ودعا عليهم دعوته ﴿ . . . رَبَّ لَا تَذُرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَّارًا ﴾^(١)
﴿ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾^(٢) كذلك علينا أن نعلم من خلال
تأمل هذا المثل الكريم أَنَّ تَكَرُّرَ التَّجْرِبَةِ خَيْرٌ دَلِيلٍ وَأَصْدَقُ بَرَهَانٍ عَلَى نَتِيجَةِ الْأَمْرِ
..... فسيدنا نوح عليه السَّلام قد وصل إلى ما وصل إليه من نفاذ الصَّبْرِ والدُّعَاءِ
على قومه لكثرة تجاربه معهم وتعدد محاولاته في دعائهم دون جدوى .

(١) سورة نوح ، ٢٦ .

(٢) سورة نوح ، ٢٧ .

د- دراسته و تحليله بيانياً :-

لنعد هنا مرة أخرى إلى الآية التي ورد فيها المثل الكريم وهي

قوله تعالى :-

"إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا" (١)

فلاحظ أن (إِن) هنا شرطية وفعل الشرط هو (تَذَرَهُمْ) وجوابه (يُضِلُّوا).

وجملة (وَلَا يَلِدُوا) معطوفة على جملة جواب الشرط ، وقد جاء القصر هنا

ليعبّر عن المعنى المقصود بطريقة بلاغية جليلة إن قال تعالى :-

"وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا" .

والقصر هنا حقيقي (٢) قصر فيه الموصوف على الصفة وطريقته هي النفي في قوله

(وَلَا يَلِدُوا) والاستثناء في قوله :- (وَالْفَاجِرُ كَفَّارٌ) .

ولعل في مجيء التعبير بطريقة القصر هنا من التشويق الواضح عن قولنا مثلاً

وسيلدون فاجراً كفّاراً .

هذا وقد جاءت صيغة المبالغة (كفّاراً) أكثر دقة في التعبير عن مدى كُفْر

هؤلاء القوم إلى جانب مناسبتها للفاصلة قبلها وبعدها .

وفاجراً : اسم فاعل من (فَجَرُ فُجُورًا إِذَا فَسَقَ وَفَجَرَ إِذَا كَذَبَ وَأَصْلُهُ الْمَيْلُ وَالْفَاجِرُ

المائل وقال الشاعر :-

قَتَلْتُمْ فَتَى لَا يَفْجُرُ اللَّهَ عَامِداً * * وَلَا يَجْتَوِيهِ جَارُهُ حِينَ يُمْحِلُ .

أي : لا يفجر أمر الله أي لا يميل عنه ولا يتركه . الهوازي الافتجار في الكلام اختراقه

من غير أن تسمعه من أحد فتعلمه (٣) .

(١) سورة نوح ، ٢٧ .

(٢) القصر الحقيقي : هو ما كان التخصيص فيه بحسب الحقيقة والواقع وهو نوعان : أما قصر الموصوف على الصفه أو العكس . فضلا انظر في ذلك علوم البلاغة للمراغبي

ص ١٦٠ .

(٣) اللسان "فجر" .

والفُجُورُ هو الركوبُ إلى ما لا يحل ، أو هو الرِّيبَةُ والكُذِبُ وقولهم :-

حَلَفَ فُلَانٌ عَلَى فَجْرَةٍ وَاشْتَمَلَ عَلَى فَجْرَةٍ أَي : إِذَا رَكِبَ أَمْرًا قَبِيحًا مِنْ يَمِينِ كَاذِبَةٍ
أَوْ زِنًا أَوْ كُذِبًا ، لِأَنَّ الْفَجْرَ أَصْلُهُ الشَّقُّ (١) .
والفاجر هو الكاذب أو المكذب أو الكافر لميلهم عن الصدق والقصد .

(وقول الأعرابي لعمر :-

فاغفر له اللهم إن كان فجر ، أي : مأل عن الحق) (٢) وقيل في قوله تعالى :-

"لِيَفْجُرْ أَمَامَهُ" (٣) : (أي ليكذب بما أمامه من البعث والحساب والجزاء) (٤)

(والفجرة : موضع تفتح الماء . ثم كثر هذا حتى صار الانبعث والتفتح في المعاصي

فجوراً . ولذلك سمي الكذب فجوراً ، ثم كثر هذا حتى سمي كل ماثل عن الحق فاجراً

وكل ماثل عندهم فاجر) (٥) .

وقوله : "كهاراً" .

أصلها (كهر) جاء في مقاييس اللغة :-

(٦)

(الكاف والفاء والراء أصل صحيح يدل على معنى واحد وهو الستر والتغطية .)

لذا سمي الزارع كافراً لأنه يغطي الحب بتراب الأرض والكفر نقيض الإيمان وصدّه

يقال آمننا بالله وكفرنا بالطاغوت ويقال كفر بالله يكفر كُفراً وكُفراناً . (٧)

وسمي الكفر كُفراً لأنه تغطية الحق وكذلك كُفران النعمة أي : جحورها

وسترها (٨) .

(١) اللسان فجر . (بتصرف)

(٢) نفسه فجر .

(٣) سورة القيامة ، ٥ .

(٤) اللسان : فجر .

(٥) مقاييس اللغة : فجر .

(٦) نفسه : كفر .

(٧) اللسان : كفر . (بتصرف) .

(٨) مقاييس اللغة : كفر . (بتصرف) .

وجمع الكافر: كُفَّارٌ وكُفَّرَةٌ وكُفَّارٌ مثل جَائِعٌ وجِيعٌ (١) قال الشاعر :-
وَشَقَّ الْبَحْرُ عَنْ أَصْحَابِ مُوسَى * * وَغُرَّقَتْ الْفِرَاعِنَةُ الْكُفَّارُ (٢)
وَأُنْثَى الْكَاْفِرِ كَاْفِرَةٌ وَجَمَعَهَا كَوَافِرٌ .

(٣) ويرجل كُفَّارٌ وكُفُورٌ كافرٌ والأنثى كُفُورٌ أيضاً وجمعها جميعاً كُفُورٌ ولا يُجمع جمع
السَّلَامَةِ لِأَنَّ الْهَاءَ لَا تَدْخُلُ فِي مَوْثِقَةٍ إِلَّا أَنْتَهُمْ قَالُوا عِدَّةَ اللَّهِ وَهُوَ مَذْكُورٌ فِي مَوْضِعِهِ
والله أعلم ،،،،

هو ما يوافق من كلام البشر :-

لعلَّ المثل البشريَّ الموافق لقوله تعالى :-

(٤) * وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِجْرًا كُفَّارًا * .

هو قولهم :-

(٥) (لا تلدِ الفأرة الا الفأرة ولا الحيَّة الا الحيَّة) .

(والحيَّة الحنش المعروف اشتقاقه من الحياة في قول بعضهم قال سيويوه
والدليل على ذلك قول العرب في الإضافة حياة بن بهدلة حيوي فلو كان من السواو
لكان حووي كقولك في الإضافة الى لية لووي) (٦) .

(.) ويجوز أن تكون من التحوي لانطوائها والمذكر والمؤنث في ذلك سواء
قال الجوهرى الحيَّة تكون للذكر والأنثى وإنما دخلته الياء لأنه واحد من جنس مثل
بطَّة ودجاجة على أنه قد روي عن العرب رأيت حيا على حية أي ذكرا على أنثى وفلان
حياة ذكر . . .) (٧) .

(١) اللسان " كفر " (بتصرف) .

(٢) نفسه . " كفير "

(٣) نفسه . " لفر "

(٤) سورة نوح ٢٧

(٥) مجمع الأمثال ٣ / ٢٣٦ .

(٦) اللسان : " حيا " .

(٧) نفسه . " حيا " .

وصاحب الحيات يُسمى حايباً وهو فاعل ، وذكر الحيات هو الحيوت وقيل إن أصله الحيوت والتاء فيه زائدة وجمع الحية حيوات واشتقاقها من الحياة (١) .
(ويقال في الأصل حيوة فأدغمت الياء في الواو وجعلت ياء شديده قال ومن قال لصاحب الحيات حاي فهو فاعل من هذا البناء وصارت الواو كسرة كواو الغازي والعالسي ومن قال حواً فهو على بناء فَعَّال فإنه يقول اشتقاق الحية من حويت لأنها تحوي في التوائها وكل ذلك تقوله العرب) (٢) .

ومعنى المثل هو :-

إنه لا يتوقع من مصدر الشرّ الاًشراً مثله وقد قيل في مثل هذا المعنى :-
(لا يلد الوهبان إلاً وقياً) (٣) وقيل أيضاً :-

(كيف بغلام قد أعياني أبوه) (٤) وقال أبو عبيده من أمثالهم في هذا :-

(لا تقتن من كلب سوء جزواً) (٥) وقال الشاعر في ذلك :-

ترجو الوليد وقد أعيك والده * * * ومارجاؤك بعد الوالد الولدا (٦)

وقال المتنبي في هذا :-

أفعال من تلد الكرام كريمة

وفعال من تلد الأعاجم أعجم (٧)

كما قال أبو العلاء في ذلك أيضاً :-

وفي الأصل غش والفروع توابع * * * وكيف وفاء النجل والأب غادر
فقل للغراب الجون إن كان سامعاً * * * أنت على تغيير لونك قَادر (٨)

(١) اللسان : حيا * . (بتصريف)

(٢) نفسه .

(٣) مجمع الأمثال ٢٠٠/٣ ، الوقب هو الأحمق .

(٤) كتاب الأمثال ، ١٢٧ .

(٥) نفسه ، نفس الصفحه ، والجرو هو الصغير من كل شيء .

(٦) نفسه . نفس الصفحه .

(٧) ديوان المتنبي ١٣٢/٤ .

(٨) اللزوميات ٤٢١/١ ، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ، سنة ١٩٦٥ م .

وَمَاقِيلٍ فِي مَجَالِ مُشَابَهَةِ الْإِبْنِ أَبَاهُ قَوْلِهِمْ :-

(تَقِيلُ فَلَانَ أَبَاهُ ، أَيِ أَشْبَهَهُ) (١)

وقولهم :-

(من أشبه أباه فما ظلم) (٢) أي : إذا أشبه أباه فقد وضع الشبه في موضعه .

وقولهم :-

(هل تنتج الناقة إلا لمن لاحت له) (٣) أي : هل يشبه الرجل غير أبيه .

هذا ويسمى المثل القرآني في قوله تعالى (وَلَا يَلِدُ وَالْأَفْجَارَ كَفَّارًا) .

على قولهم :- (لا تلد الفأرة إلا فأرة والحية إلا حية) .

إن نجد البلاغة واضحة في قصر الموصوف على الصفه في المثل القرآني الكريم

كذلك بيد والمعنى أكثر جلاءً بمجيء صيغة المبالغة في قوله كفّاراً بدلا من اسم الفاعل

كافرا (مثلا) فضلا عن مناسبة ذلك للفاصلة قبلها وبعدها مما يهيء جرساً قرآنيّاً

متميّزاً خاصاً به . والله أعلم .،،،،،

(١) كتاب الأمثال ، ١٤٥ .

(٢) نفسه . نفس الرّفعة

(٣) نفسه ١٤٦ .

تذييل :-

قد بيَّنا في الدِّراسة الماضية أنَّ الأمثال الكامنة في القرآن هي التي لم يُصرَّح فيها بلفظ المثل ولكنها تدلُّ على معانٍ رائعة في إيجاز يكون لها وقعها إذا نُقلت إلى ما يُشبهها وأضفنا إلى هذا التعريف قولنا إنَّ من هذه الأمثال ما يأتي على سبيل التشبيه أو الاستعارة أو الكناية .

أمَّا الأمثال التي وقعت عليها الدِّراسة في الباب فهي سبعة عشر مثلاً وهي التي ذكرها السيوطي في كتابه الاتقان نقلاً عن الماوردي (١) .

وكان المنهج المتبع في دراسة كلِّ مثل هو :-

أ - المعنى العام للمثل .

ب - مناسبه في السِّياق .

ج - العبرة منه .

د - دراسته بيانياً .

هـ - ما يوافقه من أقوال البشر - وقد وضعنا هنا كل ما أمكننا الوصول إليه من أمثال وحكم وأقوال بشرية موافقه للمثل القرآني الكريم - مع دراسة المثل الأول - وهو نقطة المنطلق - دراسة بيانية مع الإشارة إلى سمو المثل القرآني الكريم عليه .
وفيما يلي سنتنقل الدِّراسة إلى النوع الثالث من أنواع الأمثال القرآنية وباللَّه التوفيق والسَّداد ،،،،،

الباب الثالث

الأمثال المرسلة

الأمثال المرسله في القرآن

التمهيد :-

سبق أن أشرنا (١) إلى المقصود بالأمثال المرسله في القرآن الكريم وذكرنا أنها عبارة عن جمل أرسلت إرسالاً من غير تصريح بلفظ التشبيه فيها ، فهي آيات جارية مجرى الأمثال ولها ما يوافقها من أقوال البشر .

وقد ذكر السيوطي في كتابه - الإتقان في علوم القرآن - ثلاثين مثلاً قرآنيًا من هذا النوع (٢) وذكر الشعالي في التمثيل والمحاضره عدداً منها (٣) .

ونظراً لما يحتاجه كلُّ مثل منها من الدّراسة والتحليل . . . فإننا نكتفي بدراسة خمسة عشر مثلاً منها محاولةً منا لاعطاء كلِّ مثل حقه من الدّراسة والتحليل ، وبالله سبحانه وتعالى التّوفيق والسّداد .

١ - قال تعالى :-

" وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ "

أ- المعنى العام :-

ورد هذان المثلان الكريمان ضمن قولته تعالى :-

" كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ " (٤)

ومعناها : أن على المسلمين أن لا يكرهوا القتال فلعلَّ في هذا المكروه خيراً لهم كذلك عليهم أن لا يميلوا الى التخلف عنه والركون الى الدّعة والراحة فلعلَّ فيما أحبّوه الشرّ المحتوم والخسارة الحقيقيّة (٥) .

(١) فضلاً راجع ص ٣٩ من هذا البحث .

(٢) الإتقان ٢/١٣٢ .

(٣) التّمثيل والمحاضره ، ص ١٧ ، ١٨ ، ١٩ .

(٤) سورة البقره ، ٢١٦ .

(٥) جامع البيان ٢/٣٤٥ (بتصرف) كذلك تفسير ابن كثير ١/٢٥٣ (بتصرف) .

أَمَّا مَا يُمكن تَوَقُّعه من خَيْرٍ في القِتالِ رَغْمَ كِراهَةِ النَّفسِ لَهُ هو الدِّفاعُ عَن سِاحةِ المُسْلِمِينَ وَنَصْرَ وَتَمكِينَ مِنَ اللَّهِ لِلْمُجاهِدِينَ وَإِعْلاءَ لِكَلِمَتِهِ وَنَشْرَ لِدِينِهِ الحَنِيفِ الَّذِي رَضِيَهُ لَهُمْ وَالْحَصُولَ عَلى الشَّوَابِ وَالْأَجْرَ المَتَوَقَّعَ وَالْمِرابِطَةَ وَالصَّبْرَ كَذَلِكَ كَسْبَ الغَنائِمِ أَوِ الشَّهادَةِ فِي سَبيلِ اللَّهِ .

أَمَّا المَتَوَقَّعُ مِنَ الشَّرِّ فِي تَرْكِ القِتالِ ، فَلا يَخْفَى عَلى المُسْلِمِينَ ما يُمكن أَنْ يَصِيبَهُمْ مِنَ الذَّلَّةِ وَالغَلْبَةِ وَزَهَابِ الأَمْرِ وَتَمكِينِ الأَعْداءِ مِنْهُمْ وَمِنَ أوطانِهِمْ .
لِذا فَقدَ أَصْبَحَ الجِهادُ عَلى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَرَضَ كِفايَةَ إِذا قامَ بِهِ بَعْضُ المُسْلِمِينَ سَقَطَ عَنِ الأَخْرينَ إِلا فِي حِالةِ نِزولِ العَدُوِّ بِسِاحةِ المُسْلِمِينَ .
فِيصُبحُ فَرَضَ عَيْنِ (١) .

وَكَما يَبدو ، إِنَّ القُرْآنَ يَرسِمُ لِنا مَنهجاً قَويماً لِتَربِيَةِ السُّلوكِ البَشَرِيِّ عَلى الإِيمانِ وَالإِذعانِ التَّامِّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِحِكمِهِ العَجيبَةِ فِي مَلَكوتِهِ الكَبيرِ يَقولُ صاحِبُ تَفْسيرِ الظَّلالِ مَعلَقاً عَلى ذَلِكَ :-

(إِنَّهُ مَنهجٌ فِي التَّربِيَةِ عَجيبٌ مَنهجٌ عَميقٌ بِسيطٌ ، مَنهجٌ يَعرفُ طَريقَهُ إِلى مَسارِبِ النَّفْسِ الإِنسانِيَةِ وَحَنايَها وَدَرومِها الكَثيرَةِ ، بِالْحَقِّ وَبِالصِّدْقِ لا بِالإِيحاءِ الكِذابِ وَالتَّموِيهِ الخادِعِ . فَهو حَقٌّ أَنْ تَكرَهُ النَّفْسُ الإِنسانِيَةَ القاصِرَةَ الضَّعيفَةَ أَمراً وَيَكُونُ فِيهِ الخَيْرُ كَلى الخَيْرِ ، وَهو حَقٌّ كَذَلِكَ أَنْ تُحِبَّ النَّفْسُ أَمراً وَتَتَهالكَ عَلَيْهِ - وَفِيهِه الشَّرُّ كَلى الشَّرِّ ، وَهو الحَقُّ كَلى الحَقِّ أَنْ اللَّهُ يَعَلِمُ وَالنَّاسُ لا يَعَلِمُونَ ، وَماذا يَعَلِمُ النَّاسُ مِنَ أَمْرِ العَواقِبِ ؟)

وَماذا يَعَلِمُ النَّاسُ مِمَّا وَراءَ السِّتْرِ المُسدَّلِ ؟ وَماذا يَعَلِمُ النَّاسُ مِنَ الحَقائِقِ الَّتِي لا تَخضعُ لِلهَوَى وَالجَهْلِ وَالقُصورِ ؟ (٢)

(١) أَى : يَجِبُ فِي هَذِهِ الحِالةِ عَلى كُلِّ فَرْدٍ مِنْهُمْ .

(٢) فِي ظِلالِ القُرْآنِ ١ / ٢٢٤ .

٤ - مناسبتهما في السِّيَاق :-

تبدو مناسبة آية هذين المثليين الكريمين لما قبلها وما بعدها من آيات في السُّورَةِ الكريمة ، إذا علمنا أنَّها جاءت ضمن الآيات (١) التي تحدَّثت عن أحكام متفرِّقة (٢) ، فتحدَّثت الآية السَّابِقة لها مباشرة (٣) عن الإنفاق وأحقِّية الوالدين ثمَّ الأقربين به ، ثمَّ كانت آية المثل المتحدِّثة عن الجُود بالنفس الذي هو أقصى غاية الجُود .

ثمَّ ناسب الحديث عن القتال أن يوضَّح السِّيَاق بعد ذلك موعد تحريم القتال وأنَّ من يُقاتل في هذا الوقت المحرَّم إنَّما يكون ذلك مُستكراً عليه لمافيه من إثم كبير وإنَّ مافعله كفَّار قريش من صدَّهم عن سبيل الله تعالى من أراد الدُّخول في الإسلام ومن الكُفر بالله تعالى ومن الصدَّ عن المسجد الحرام وإخراجهم أهله منه كما فعلوا برسول الله - صلى الله عليه وسلَّم - وبالمؤمنين لهو أكبر جرماً عند الله وإثماً ويستحقُّون عليه أشدَّ العقوبة ، وإنه فتنه كفَّار قريش المسلمين عن دينهم ليرتدُّوا عنه إلى الكُفر لهو أشدُّ إجراماً من قتلهم في الشَّهر الحرام على سبيل الخطأ والبنساء على الظن .

ثمَّ نصَّ السِّيَاق بعد ذلك على كون الكافرين سيظلُّون يعملون بكلِّ الوسائل ، وفي مقدِّمتها القتال ، وذلك لحمل المسلمين على الارتداد عن دينهم لو كان في استطاعة الكافرين السَّيطرة على القلوب كي يُجبروها على الارتداد عن الدِّين الحنيف وعلى الكُفر بالله تعالى .

وتهدد الآية بعد ذلك - من يرتد - لاسمح الله - عن دينه دون أن يثوب إلى الله تعالى توبة نصوحاً ويعود إلى دين الإسلام الذي رضيه الله لهم ، بل يموت وهو كافر ، لأنَّ أعمال المرتدِّ المصالحة تبطل وتفسد في الدُّنيا والآخرة (٤) .

-
- (١) سورة البقرة ٢١٥ - ٢٢٥ .
(٢) النِّظم الفني في القرآن ٥٨ (بتصرف) .
(٣) سورة البقرة ، ٢١٥ .
(٤) التَّفسير البسيط ، ٢٤٣ .

ثم انطلق السياق بعد ذلك في بيان أجر المؤمنين المجاهدين في سبيل الله
ثم في بيان حكم الخمر والميسر الى آخر ما ذكر السياق الكريم من هذه الأحكام
المتفرقة . (١)

هذا عن علاقة آية المثلين بما قبلها وما بعدها من آيات في السورة الكريمة .
أما عن علاقة المثلين الكريمين (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى
أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ) بما قبله في سياق الآية الكريمة فتبدو في افتتاح الآية
الكريمة بفرض القتال وبيان أنه شيء مكروه فقال تعالى :-
" كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَكُمْ " .

فكان من المناسب حقاً أن يرفع السياق الكريم المعنويات المؤمنة ويطيّب خواطر
المسلمين بكشف الستار عن بعض الأمور المجهولة لهم فعقب على ذلك بالمثل الكريم
الذي قد يسلي المحزون ويرفع عن المكروب كربته فيقول عز وجل " وَعَسَى
أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ " .
وهنا تأتي المناسبة الفعلية في تذييل الآية الكريمة بقوله عز وجل :-
(وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) .

نعم هذه الخاتمة المناسبة تمام المناسبة لكل ما جاء في الآية قبلها والتي لا تترك
مجالاً للشك أو المناقشة في الأمر بعد ذلك ، فإذا كان الله وحده هو الذي يعلم
خبايا الأمور وحقائقها فما هو مبرر الإنسان في الاعتراض على قضاءه وقدره عز وجل ؟ .
تلك هي مناسبة المثل الكريم لما قبله وما بعده في سياق الآية الكريمة
والله أعلم بالصواب

ج- العبرة منهما :-

تتجلّى العبرة من هذين المثلين الكريهين من خلال تذكّرنا للمأساة التي مرّت وتمرّ بالمسلمين إلى يومنا الحاضر . . . بسبب تركهم للجهاد وإهمالهم لما أمر الله به من إعداد لإرهاب العدو وبالتّالي لحفظ حقوقهم والدّفاع عن مقدّساتهم .
أمّا ما مرّ بالمسلمين قبل يومنا هذا فهي مأساة ضياع الأندلس من أيديهم بسبب تعطيل المسلمين لهذه الشّعيرة الدينيّة (١) يقول القرطبيّ معلقاً على ذلك :-
(قلتُ : وهذا صحيح لا غبار عليه ، كما اتفق في بلاد الأندلس تركوا الجهاد وجبنوا عن القتال وأكثروا من الفرار ، فاستولى العدو على البلاد ، وأيُّ بلاء دا ؟ وأسر وقتل وسبى واسترق ، فإنّا لله وإنا إليه راجعون : ذلك بما قدّمت أيدينا وكسبته !) (٢) .

ولعلنا من هذه العبرة الجليّة تبدولنا عبرة أخرى يمكن أن نتخذها درساً يوجّه سلوكنا إزاء كل مانكره وكلّ مانحّب ، فلعلّ وراء المكروه خيراً مستوراً لا يعلمه إلا من بيده الخير عزّ وجلّ ولعلّ وراء مانحبه شرّاً أكيداً لا يعلمه إلا كاشف الضّرّ - سبحانه وتعالى - فسبحانه وتعالى له في خلقه شؤون .

.. .. .

(١) التفسير البسيط ٢٣٩ (بتصرف) .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١/٨٤٧ .

→ دراسته وتحليله بيانياً :-

لنعد هنا مرة أخرى إلى نصّ المثليين الكريمين :-

” وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ” .

قيل في (عَسَى) الأولى للإشفاق وإن كان مجيئها للإشفاق قليلاً ، وهي تامّة هنا - لا تحتاج إلى خبر . (١)

وقيل إن (عَسَى) من الله واجبة في جميع القرآن عدا في قوله تعالى :-

” عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا لَّكَ ” . (٢) .

وعلى هذا يكون المعنى (عَسَى أَنْ تَكْرَهُوا مافي الجهاد من المشقة وهو خير

لكم في أنكم تغلبون وتظفرون وتغنمون وتؤجرون ومن مات مات شهيداً) . (٣)

أما عَسَى الثانية ، فهي هنا ؛ (للترجي ومجيئها له هو الكثير في لسان العرب)

وقيل أيضاً هي للتحقيق ، فيكون المعنى :-

(وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا اندعة وترك القتال وهو شرٌّ لكم في أنكم تغلبون وتذلون

ويذهب أمركم) (٥) .

هذا ما ذكره معظم المفسرين في ” عَسَى ” ولكن جاء في تفسير المنار رأي آخر

في ذلك نذكره في هذا النصّ الذي علّق فيه صاحبه على رأي المفسرين المذكور :-

(إِنَّهُ لَا يَظْهَرُ عَلَى هَذَا مَعْنَى وَجِيهَ لِقَوْلِهِ (وَاللَّهُ يُعَلِّمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) لِأَنَّ هَذَا

مَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ وَيَتَوَقَّعُونَهُ لَا مِمَّا هَدَاهُم الْكِتَابُ إِلَيْهِ بَعْدَ أَنْ كَانُوا غَائِبِينَ عَنْهُ) (٦) .

(١) البحر المحيط ١٤٣/٢ (بتصرف) .

(٢) سورة التحريم ، ٥ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٨٤٧/١ .

(٤) البحر المحيط ١٤٤/٢ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٨٤٧/١ .

(٦) تفسير القرآن الحكيم (المنار) ٣١٣/٢ .

ويرى أَنَّ الرَّأْيَ الصَّوَابَ فِي (عَسَى) هُوَ أَنَّ مَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَقْعَ لَا مَأْهُوَ مُرْجُوٌّ وَقَوْعُهُ وَأَنَّ الْكُرْهَ رَاجِعٌ إِلَى غَيْرِ مَا أَرْجَعَهُ إِلَيْهِ الْمَفْسَّرُونَ وَذَلِكَ لِأَنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكْرَهُوا الْقِتَالَ وَقَدْ مُرِنُوا عَلَيْهِ وَالْفَوْهُ وَإِنَّمَا وَجْهُ الْكَرَاهَةِ هُنَا فِي أَنَّهُمْ كَانُوا فِتْنَةً قَلِيلَةً أَمَامَ الْعَدُوِّ وَفَضْلًا عَنْ حُبِّهِمْ لِلسَّلَامِ وَالصَّبْرِ عَلَى أذى الْعَدُوِّ وَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ يَرَى صَاحِبُ تَفْسِيرِ الْمَنَارِ - أَنَّهُ يُظْهِرُ مِنْ مَعْنَى (وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ) مَا لَا يُظْهِرُ فِي الْمَعْنَى الَّذِي قَبْلَهُ .

كَذَلِكَ يَفِيدُ - مَعَ هَذَا الرَّأْيِ - قَوْلُهُ تَعَالَى (وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) أَنَّ قِيَاسَ الْكُفَّارِ جَمِيعًا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَأَنَّكُمْ يُمْكِنُ أَنْ يَعْمُرَ الْإِيمَانَ قُلُوبَهُمْ كَمَا عَمَّرَ قُلُوبَكُمْ فَيَزِينُ لَهُمْ مَا زَيْنَ لَكُمْ هُوَ مِنَ الْأَقْيَسَةِ الْخَاطِئَةِ لِأَنَّ النَّاسَ يَتَفَاوَتُونَ فِي مَدَى اسْتِعْدَادِهِمْ لِتَقَبُّلِ الْأُمُورِ وَالْاِقْتِنَاعِ بِهَا فَمِنْهُمْ مَنْ يُطِيعُ رَاضِيًا مُسْتَسْلِمًا وَمِنْهُمْ مَنْ يَرْفُضُ مَصْرًا عَلَى عِنَادِهِ وَاسْتِكْبَارِهِ وَهُوَ لَا يَلِيسُ جَزَاءُ هُمْ إِلَّا الْقَتْلُ وَتَخْلِيصُ الْبَشَرِيَّةِ مِنْهُمْ وَلِهَذَا يَكُونُ اللَّهُ وَحْدَهُ هُوَ الْعَالِمُ بِمَدَى ذَلِكَ الْاسْتِعْدَادِ فِي نَفْسِهِمْ لِتَقَبُّلِ الدَّعْوَةِ أَوْ رَفْضِهَا لِذَا يَجِبُ الْإِمْتِثَالُ لِأَمْرِهِ عَزَّ وَجَلَّ . (١) .

وَيَطِيبُ لَنَا هُنَا أَنْ نَدُلِّي بِرَأْيِنَا فِي ذَلِكَ وَهُوَ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ) .

يُمْكِنُ أَنْ يَتَضَمَّنَ كُلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي الَّتِي تَحَدَّثُ عَنْهَا الْمَفْسَّرُونَ بِمَا فِيهَا الرَّأْيُ الْأَخِيرُ الَّذِي ذَكَرَهُ صَاحِبُ تَفْسِيرِ الْمَنَارِ (٢) فَالْقِتَالَ مَكْرُوهٌ عَلَى أَيْةٍ حَالٍ وَفِي كُلِّ الظُّرُوفِ إِلَّا إِذَا عِلِمَ الْمُؤْمِنُ أَنَّ فِي مَشْرُوعِيَّتِهِ حِكْمَةَ الْإِهْيَةِ لَا يُحِيطُ بِهَا إِلَّا مَنْ يَعْلَمُهَا - جَلَّ وَعَلَا - وَلَعَلَّ فِي تَنْكِيرِ اللَّفْظِ (شَيْئًا) دَلِيلًا عَلَى الْعُمُومِ الْمَقْصُودِ مِنْ هَذِهِ اللَّفْظَةِ وَعَلَى أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ لَا يَقْصُدُ بِهِ الْقِتَالَ أَوْ غَيْرَهُ فَحَسَبَ بَلْ أَيْ شَيْءٍ يَكْرَهُهُ الْإِنْسَانُ أَوْ يُحِبُّهُ .

(١) تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (الْمَنَارِ) ٣١٣ - ٣١٤ (بِتَصْرِفٍ) .

(٢) فَضْلًا رَاجِعَ ص ٣٦٢ مِنْ هَذَا الْبَحْثِ .

كذلك نلاحظ أن سياق المثل جاء على توقع الخير في الشيء المَكْرُوه ثم توقع الشر في الشيء المحبوب ، إذ قال تعالى :-

« كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ... » (١) .

فما الحكمة من هذا الترتيب بالذات ؟!

لا شك أن القرآن الكريم - على عادة دائماً - لا يأتي فقط بالمعاني دون مراعاة تناسب الألفاظ في مجاورتها بعضها بعضاً فالقول (كُرْهُ لَكُمْ) من حيث المعنى ناسب السياق أيضاً إذ جاء بالضم لا بالفتح وذلك لما في فرق المعنى من بلاغة تناسب السياق ، لأن الكُرْهُ بالضم هو ما يكرهه الإنسان بدافع ذاتي بعكس الكُرْهُ بالفتح الذي يتدخل فيها عامل آخر خارج عن الشخص نفسه (٢) . وهو بحكم المجاورة أقرب إلى قوله (تَكْرَهُوا) لذا نرى قدام هذا التذييل في السياق على التذييل الثاني (٣) وهو قوله تعالى :-

« وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ » .

أما الجملتان (وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) ، (وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ) ، فموقع كل منهما حال من قوله (شَيْئًا) السابقة لها ، وجاز ذلك بعد النكرة ، وإن كان الحال من النكرة أقتن من الحال من المعرفة ، كما أجاز بعضهم أن تكون كل منهما صفة لقوله (شَيْئًا) قبلها ، وساغ دخول الواو لأن صورة الجملة كصورتها لو كانت حالاً (٤) .

(١) سورة البقرة ، ٢١٦ .

(٢) اللسان : « كُرْهُ » ، كذلك مقاييس اللغة « كُرْهُ » (بتصرف) .

(٣) من الممكن أن يأتي تذييلان متواليان ونظيره من القرآن قوله تعالى :-

« وَمَا جَعَلْنَا لِإِنْسَانٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مَتَّ فَمَهُمُ الْخَالِدُونَ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ » سورة الأنبياء ٣٤ - ٣٥ .

فقوله « فَمَهُمُ الْخَالِدُونَ » تذييل لأنه مرتبط بما قبله بالفاء في قوله (فَمَهُم)

وما بعده تذييل آخر وهو قوله (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) وهو ما يجري مجرى

المثل وكل منهما تذييل على ما قبله ، فضلاً انظر في ذلك كتاب الصناعتين أبو

هلال العسكري ٣٨٢ (بتصرف) .

(٤) البحر المحيط ١٤٤/٢ (بتصرف) .

ولكننا لانميل إلى هذا الرأي ونرى أنّ الواو للحال والجملة بعدها حال من النكرة قبلها وإن كان ذلك أقلّ من أن تكون الحال من المعرفة هذا عن جانب بلاغة السياق وألفاظه ، ومن جانب آخر لا ننكر هنا هذا التواؤم الصوتي بين الألفاظ وحسن التقسيم بينها (١) .

وهكذا دائما يسمو القرآن الكريم على سائر أقوال البشر مهما وصلت إليه تلك الأقوال من بلاغة القول وفصاحته .

مايوافقهما من أقوال البشر :-

قيل إن القول البشري الموافق للمثلين الكريمين هو قول

الشاعر :-

كَمْ مَرَّةً حَفَّتْ بِكَ الْمَكَارِهِ * * خَارُكَ اللَّهُ وَأَنْتَ كَارِهِ . (٢)

كم : هنا خبرية وهي تفيد التّكثير (والتّقدير كم من مرّة) ، وحذفت من للضرورة .
مرّة : جاء في مقاييس اللغة :-

(الميم والراء) أصلان صحيحان : يدلّ أحدهما على مضيّ شيء والآخر على خلاف الحلاوة والطّيب (٣) .

(٤)

والكلمة هنا من الأصل الأوّل يُقال (لَقِيْتُهُ مَرَّةً وَمَرَّتَيْنِ إِنَّمَا هُوَ عَنْ زَمَانٍ قَدْ مَرَّ) .

قد يُقال (لَقِيْتُهُ مَرَّةً مِنَ الْمَرِّ يَجْمَعُونَ الْمَرَّةَ عَلَى الْمَرِّ) (٥) .

(١) يقول الدكتور إبراهيم أنيس :-

(ولكنّ الجمال في أسلوب القرآن أنّ معظمه جاء متناسق المقاطع يصلح أن يُضَمَّن

في شعر الشّاعر دون مشقّة أو عنّت) فضلا أنظر في ذلك موسيقا الشعر ٣٠٧ ، ط ٢ سنة ١٩٥٢ م ، مكتبة الأنجلو المصرية .

(٢) البحر المحيط ١٤٤/٢ ، كذلك التّشيل والمحاضر ، ١٧ .

(٣) مقاييس اللغة " مرّ " .

(٤) نفسه " مرّ " .

(٥) نفسه " مرّ " .

حَفَّ :-

من حَفَّ (الحاء والفاء) ثلاثة أصول الأول ضرب من الصَّوت والثاني أن يَطِيفَ
الشَّيْءُ بِالشَّيْءِ والثالث شِدَّةٌ فِي العَيْشِ (١) .

والكلمة هنا من الأصل الثاني وهو أن يَطِيفَ الشَّيْءُ بِالشَّيْءِ يُقَالُ :-
(٢)

(حَفَّ القَوْمُ بِفِلانٍ إِذَا أَطافُوا بِهِ) قال تعالى :-

” وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَاقِقِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ” (٣)
(٤)

والمكَّارِه : جمع مفردة مكَّره وهو ما يكرهه .

رَقِيل واسباغ الوضوء على المكَّارِه أي مع شِدَّة البرد وكثرة العِلل التي تلحقه لحبس

الماء والحاجة إلى طلبه والسَّعي في الحصول عليه الخ (٥)

ويقال أمرٌ كَرِيهٌ ومكْرُوهٌ . وقيل المكْرُوهُ هو الشَّرُّ (٦) .

والكْرَه : المشقَّة والكْرَه بالفتح أن يَكْف المرءُ بِشَيْءٍ فيفعله مضطراً لمكْرهاً عليه

من غيره (٧) .

وَخَارَ : أصلها خَيْرٌ بمعنى العطف والميل (٨)

(والخيارُ الاسم من الاختيار وخايره فخاره خيراً كان خيراً منه) (٩)

ومعنى البيت هو : كمَّ من مرَّات عديدة أحاطت بالمرءِ ظروفٌ سيِّئةٌ ومصائب

كبيرة أرادها له الله لحكمةٍ جليلة لا يعلمها إلا هو - سبحانه - مع كره الإنسان لها

وعدم رغبته فيها .

(١) مقاييس اللغة ” حَفَّ ” .

(٢) نفسه . ” حَفَّ ”

(٣) سورة الزمر ، ٧٥ .

(٤) لسان العرب ” كره ” .

(٥) اللسان ” كره ” (بتصرُّف) .

(٦) نفسه ” كره ” بتصرُّف .

(٧) نفسه ” كره ” (بتصرُّف) كذلك مقاييس اللغة ” كره ” (بتصرُّف) .

(٨) مقاييس اللغة ” خَيْرٌ ” (بتصرُّف) .

(٩) اللسان ” خير ” .

كذلك يوافق قوله : (رَبِّ ضَارَّةٌ نَافِعَةٌ) .

والمثلان القرآنيان يسموان هنا بما فيهما من بلاغة واضحة في نظمهما وأسلوبهما لا يصل إلى مستواهما قول بشري مهما بلغت فصاحته وبيانه .

وقد بدا لنا ذلك في مجيئ لفظة (كُرْهُ) بالضم لما في القتال من كراهية النفس له وتقديم القول (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) على القول (وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ) تقديمها في اللفظ على غيرها لتناسب اللفظ كُرْهُ مع جملة (تَكْرَهُوا) .
ثم في تنكير اللفظ (شَيْئاً) وما أفاده هذا التنكير من التعميم البليغ فضلاً عن موقع هذا المثل الكريم ، وما أفاده هذا الموقع في السياق من توكيد المعنى قبله وتقويته وهو ما يسمّى بالتذييل في اصطلاح البلاغيين هذا ويمكن أن يوافق هذا المثل القرآني قولهم :-

(مِنْ مَأْمَنِهِ يُؤْتَى الْحِذْرُ) (١) :

وقول عدي بن زيد الإيادي :-

لَوْ بَغِيرَ الْمَاءِ حَلِيقِي شَرِيقُ * * كُنْتُ كَالْغَصَّانِ بِالْمَاءِ اعْتَصَارِي (٢)

كُنْتُ مِنْ كُرْبَتِي أَفْرُ اليَهُم * * فَهَمْ كُرْبَتِي فَأَيَّنَ الْفِرَارُ (٣)

وقول العباس بن الأحنف :-

قلبي إلى ما ضرني داعي * * يُكْبِرُ أَحْزَانِي وَأَوْجَاعِي

كيف احتراسي من عدوي إذا * * كَانَ عَدُوِّي بَيْنَ أَضْلَاعِي (٤)

وقيل أيضاً :-

مَنْ غَضَّ دَاوِيَّ بِشَرِبِ الْمَاءِ غَضَّتْهُ * * فَكَيْفَ يَصْنَعُ مَنْ قَدَّ غَضَّ بِالْمَاءِ (٥)

-
- (١) العقد الفريد ١٠٣/٣ .
(٢) نفسه . نفس الصفحة ، الاعتصار أن يفض الانسان بالطعام فيعتصر بالماء وهو أن يشربه قليلاً قليلاً .
(٣) نفسه نفس الصفحة .
(٤) نفسه نفس الصفحة .
(٥) نفسه ١٠٤/٣ .

وقال صلى الله عليه وسلم :-

(الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْحَةِ الْأُولَى) (١) .

وقولهم :-

(من حَدَّثَ نَفْسَهُ بِطَوْلِ الْبِقَاءِ فليُوطِنَنَّ نَفْسَهُ عَلَى الْمَصَائِبِ) (٢)

وقولهم :-

(بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ) (٣)

وقول أبي تمام :-

وَمَا خَيْرُ خَيْرٍ لَمْ تَشْبَهْ شَرًّا * * * وَمَا خَيْرُ لَحْمٍ لَا يَكُونُ عَلَى عَظْمٍ (٤)

وقول الشاعر :-

هِيَ الْمَقَادِيرُ تَجْرِي فِي أَعْنَتِهَا * * * فَاصْبِرْ فَلَيْسَ لَهَا صَبْرٌ عَلَى حَالِ

إِنَّ الْمَقَادِيرَ تَجْرِي فِي أَعْنَتِهَا * * * فَلَاتَبَيِّنَنَّ إِلَّا خَالِي الْبِكَالِ

مَا بَيْنَ غَفْوَةِ عَيْنٍ وَانْتِبَاهَتِهَا * * * يُغَيِّرُ اللَّهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ (٥)

وقولهم :-

(مَوَاقِعُ أقدَارِ اللَّهِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ مَوَاقِعِ آمَالِكَ) (٦)

(الْمُؤْمِنُ لَا يَثْقِلُهُ كَثْرَةُ الْمَصَائِبِ ، وَتَوَاتُرُ النِّوَاصِبِ عَنِ الرِّضَا بِأقدَارِ اللَّهِ تَعَالَى

والتَّسْلِيمِ لِأَمْرِهِ وَحُكْمِهِ ، كَالْحَمَامَةِ الَّتِي تَأْخُذُ فِرَاحَهَا مِنْ وَكْرَهَا ثُمَّ تَعُودُ إِلَيْهِ) (٧) .

وقول الحسن رضي الله عنه :-

(٨)

(لَا تَكْرَهُوا الْمُلِمَّاتِ الْوَاقِعَةَ قَلْبًا أَمْرٌ تَكْرَهُهُ فِيهِ إِرْبِكٌ وَلِرُبِّ أَمْرٌ تُحِبُّهُ فِيهِ عَطِيكٌ)

(١) المسند أحمد ابن حنبل ١٢٠ / ٣ - ١٤٢ - ٢١٧ القاهرة سنة ١٣١٣ هـ .

(٢) كتاب الأمثال ، ١٦٢ .

(٣) التمثيل والمحاضرة ، ٣٢٧ .

(٤) ديوان أبي تمام ٤١٢ ، ط بيروت .

(٥) التمثيل والمحاضرة ، ٣٢٩ .

(٦) نفسه ، ٣٢٩ .

(٧) نفسه ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .

(٨) البحر المحيط ١٤٤ / ٢ .

رَبِّ أَمْرٍ تَتَّقِيهِ . جَرَّ أَمْرًا تَرْتَضِيهِ .
خَفِيَ الْمَحْبُوبُ مِنْهُ . وَدَا الْمَكْرُوهُ فِيهِ .

وقال ابن السَّرْحَانِ :-

كَمْ فَرِحَ مَطْوِيَّةً . لَكَ بَيْنَ أَثْنَاءِ الْمَصَائِبِ .
وَمَسْرُةٍ قَدْ أَقْبَلَتْ . مِنْ حَيْثُ تَنْتَظِرُ النَّوَائِبِ . (١)

٣ - قال تعالى :-

”لَا يَكْفِيكَ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا“ .

أ- المعنى العام :-

ورد هذا المثل الكريم في قوله تعالى :- (١)

”أَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ لَا يَكْفِيكَ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا أَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَأَطَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ“ .

وقد قيل في سبب نزول ذلك :-

إنه لما نزل قوله تعالى :-

”وَإِنْ تَبَدُّوا مَأْفِيْ أَنْفُسِكُمْ أَوْ تَخَفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ“ .

اشتد ذلك على الصحابة ، فأتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم جثوا على الركب فقالوا :-

(قد أنزل عليك هذه الآية ولا نطيقها) فقال :-

أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بـ

قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) . (٣)

فلما قرأها القوم وذلّلوا بها ألسنتهم نزل قوله تعالى :-

”أَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ . . .“ الآية (٣)

(١) سورة البقره ٢٨٥ - ٢٨٦ .

(٢) لباب النقول في أسباب النزول ، ٥٢ .

(٣) سورة البقره ، ٢٨٥ .

(فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى فأنزل : (لَا يَكْفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا) الى آخرها) (١) .

ومعنى المثل الكريم :-

إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُطَالِبُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ بِمَا هُوَ فَوْقَ احْتِمَالِهِ أَوْ اسْتَطَاعَتِهِ ، وَذَلِكَ مِنْ لَطْفِهِ وَرَأْفَتِهِ - سُبْحَانَهُ - بِهِمْ ، وَمِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ أَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا لَا يُحَاسِبُ إِلَّا أَعْلَى مَا يَمْلِكُ الْإِنْسَانُ التَّحَكُّمُ فِيهِ ، أَمَّا مَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ حَدِيثِ النَّفْسِ وَوَسْوَاسَتِهَا مِمَّا لَا يَمْلِكُ الْإِنْسَانُ التَّحَكُّمُ فِيهِ أَوْ دَفْعُهُ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يُحَاسِبُهُمْ وَلَا يُؤْخِذُهُمْ بِهِ (٢) .

ب- مناسبتة في السِّيَاق :-

تبدو مناسبة آية المثل الكريم لما قبلها في السِّيَاق من خلال استرجاعنا

لسبب نزول الآية الكريمة (٣) (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ . . . الخ .

تلك الآية التي أُنزِلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِإِيْمَانِهِ وَمِنْ مَعَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ الْأَجْلَاءِ الَّذِينَ سَمِعُوا وَأَطَاعُوا وَطَلَبُوا الْمَغْفِرَةَ وَالصَّفْحَ مِنْهُ - سُبْحَانَهُ - بَعْدَ مَا حَلَّ بِهِمْ مِنْ شِدَّةٍ وَكَرْبٍ إِثْرَ نَزُولِ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ :-

* وَإِنْ تُبَدُّوْا مَآفِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوْهُ يُحَاسِبِكُمْ بِئِهِ اللَّهُ * الآية .

فقد نسخ (٤) - سُبْحَانَهُ - تلك الآية بهذه الآية التي ورد فيها المثل الكريم :-

* لَا يَكْفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا * .

وذلك تحقيفاً على المسلمين ورحمةً بهم وإحساناً إليهم وشفقة عليهم .

وبهذا بدت لنا مناسبة آية المثل لما قبلها من آيات في سياق السُّورَةِ الكَرِيْمَةِ .

(١) لياب النقول في أسباب النزول ٥٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣٤٣/١ (بتصرف) كذلك تفسير القرآن الحكيم (المنار)

١٤٥/٣ (بتصرف) .

(٣) فضلا انظر ص ٣٧٠ من هذا البحث .

(٤) تفسير ابن كثير ٣٤٣/١ (بتصرف) علما بأن النَّسخَ هنا بمعنى التَّخْصِيصِ وَليْسَ

بالمعنى المعروف .

أما مناسبة المثل الكريم لاجاء بعده في سياق الآية نفسها فهي إنَّ السَّيِّاقَ الكَرِيمَ
قد خَفَّفَ بعد ذلك عن نفوس المؤمنين ما هم فيه ، فبيَّن لهم أنَّ ما يفعلونه من خير
فهو في صالحهم وما يقتربونه من شرٍّ فهو مسجَّل عليهم ليُعاقبوا عليه .
لذا وجب العمل الطَّيِّبُ بقدر الاستطاعة والمقدرة ، وحتى لا يكون هنا لك مجال
للتواكل والكسل .

ثُمَّ لَخَّطَتِ السُّورَةُ بِهَذَا الدُّعَاءِ الَّذِي هُوَ مَخَّ الْعِبَادَةَ - وَالَّتِي - تَحَقُّقُ الْهَدَفِ
الَّذِي وُجِدَ مِنْ أَجْلِهِ الْإِنْسَانُ - هَذَا الدُّعَاءِ الَّذِي يَمَثُلُ الثَّمَرَةَ فِي آخِرِ السُّورَةِ إِذْ أَنَّهُ
يَعَمَّقُ مَاجَاءَ فِي الْمَثَلِ الْكَرِيمِ "لَا يَكْفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا" ، يُعَمِّقُ ذَلِكَ عَنْ طَرِيقِ
الدُّعَاءِ الَّذِي أزال مَاجَالَ فِي خَوَاطِرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قَلَقٍ وَخَوْفٍ مِنْ أَنْ يَأْخُذَهُمُ
اللَّهُ بِخَوَاطِرِ نَفْسِهِمُ الَّتِي كَانَتْ سَبَبًا فِي نَزُولِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ (١) .

من أجل كل ذلك جاء في الآية الكريمة :-

" رَبَّنَا لَا تَوَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَاطَاقَةُ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ " (٢)

وقد جاء عن فضل هاتين الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة وعن آية الكرسي :-

(قال ابن مردويه حدثنا عبد الباقي بن نافع أنبأنا إسماعيل بن الفضل أخبرنا

محمد بن حاتم بن بزيغ أخبرنا جعفر بن عوف عن مالك بن فعول عن أبي إسحاق عن

الحارث عن علي قال : لا أرى أحدا عقل الإسلام ينام حتى يقرأ آية الكرسي وخواتيم
(٣)

سورة البقرة فإنها من كنز أعطيه نبيكم - صلى الله عليه وسلم - من تحت العرش) .

وبما أنَّ هذا المثل الكريم قد ورد ضمن آخر آية من سورة البقرة فيطيب لنا هنا

أن ننقل نصَّ لأبي حيان ذكره لبيان مناسبة آخر السورة لأولها إذ يقول :-

(١) سبقت الإشارة الى سبب النزول في المعنى العام للمثل فضلا راجع ص ٣٧٠

هذا البحث .

(٢) سورة البقرة ، ٢٨٦ .

(٣) تفسير ابن كثير ١ / ٣٤٢ .

(ولَمَّا كَانَ مُفْتَتِحَ هَذِهِ السُّورَةِ بِذِكْرِ الْكِتَابِ الْمَنْزَلِ وَأَنَّهُ هَدَى لِلْمُتَّقِينَ الْمُوصُوفِينَ بِمَا وَصَفُوا بِهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ وَبِمَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى مَنْ قَبْلَهُ كَانَ مُخْتَتَمَهَا أَيْضاً مُوَافِقاً لِمَفْتَتِحِهَا وَقَدْ تَتَبَعْتُ أَوَائِلَ السُّورِ الْمَطْوَلَةِ فَوَجَدْتُهَا يَنَاسِبُهَا أَوْ آخِرَهَا بِحَيْثُ لَا يَكَادُ يَتَخَرَّمُ مِنْهَا شَيْءٌ وَسَأَبِيْنِ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي آخِرِ كُلِّ سُورَةٍ سَوِيَّةٍ وَذَلِكَ مِنْ أِبْدَعِ الْفَصَاحَةِ حَيْثُ يَتَلَقَى آخِرُ الْكَلَامِ الْمَفْرُطِ فِي الطُّوْلِ بِأَوَّلِهِ وَهِيَ عَادَةُ الْعَرَبِ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَظْمِهِمْ يَكُونُ أَحَدُهُمْ أَخْذاً فِي شَيْءٍ ثُمَّ يَسْتَطِرِدُ مِنْهُ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ ثُمَّ إِلَى آخَرَ هَكَذَا طَوِيلاً ثُمَّ يَعُودُ إِلَى مَا كَانَ أَخْذاً فِيهِ أَوَّلًا وَمِنْ أَمْعَنِ النَّظْرِ فِي ذَلِكَ سَهْلٌ عَلَيْهِ مَنَاسِبَةٌ مَا يَظْهَرُ بِبَادِيِ النَّظْرِ أَنَّهُ لَا مَنَاسِبَةَ لَهُ فَبَيَّنَّ تَعَالَى فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ أَنَّ أَوْلِيكَ الْمُؤْمِنِينَ هُمْ أُمَّةٌ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) (١)

ولنا هنا تعليق على رأي أبي حيان القائل فيه :-

(وهي عادة العرب في كثير من نظمهم يكون أحدهم أخذاً في شيء ثم يستطرد منه إلى شيء آخر الخ) .

نقول : شتان هنا بين ما يصدر عن العرب من أقوال وخطب أو منظومات طويلة مملّة ، قد يتسرّب إليها الضعف أو الركاكة في بعض السطور بسبب ذلك الطول نقول شتان بين هذه الأقوال المعادة المكررة المملولة أحياناً وبين سورة من سور القرآن فالمعلوم أن القرآن متساوٍ في فصاحته قمة في بلاغة نظمه - على طول سوره - وتعدّد معانيها أو اختلاف موضوعات الآيات فيها .

هذا وقد ربط مؤلف "النبا العظيم" بين أول السورة وآخرها ربطاً جميلاً أو بالأحرى أشار إلى جمال الارتباط بين أول السورة وآخرها إشارة دقيقة في قوله :-
(ألم يكن مطلع السورة وعداً كريماً لمن سيؤمّن بها ويطيع أمرها بأنهم أهل الهدى وأهل الفلاح ؟

ألسنا نترقب الآن صدى هذا الوعد؟ بلى ، إننا ننتظر الآن أن تحدثنا السورة : هل آمن بها أحد ، وهل أتبع هداها أحد ؟ ثم ننتظر منها إن كان ذلك قد وقع أن تحدثنا عن جزاء من استمع وأتبع
وهكذا سيكون مقطع السورة :-

(١) بلاغاً عن نجاح دعوتها : " آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون
وقالوا سمعنا وأطعنا " .

(٢) وفاء بوعدها لكل نفس وسعها في اتباعها : " لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت " .

(٣) فتحة لباب الأمل على مصراعيه أمام هؤلاء المهتدين . فليسطوا أكتهم مبتهلين
" ربنا . . ربنا . . أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين " (١) .

ذلك هو تعليق المؤلف على ارتباط آخر السورة بأولها ولا يخرج عن دائرة حديثنا بشأن ارتباط المثل بما قبله وما بعده في سياق السورة الكريمة لأنه جزء من الآية الأخيرة فيها . والله أعلم .

ج- العبرة منه :-

من خلال تأملنا للقصة التي كانت سبباً في نزول هذه الآية والتي سبق

الإشارة إليها (٢) - تبدولنا العبرة من قوله تعالى :-

" لا يكلف الله نفساً إلا وسعها " .

هذه العبرة الجليلة هي أنه - جلّ وعلا - أراد أن يخفف عن المؤمنين العبء الذي راضوا أنفسهم عليه ، إن قالوا كما أمرهم - صلى الله عليه وسلم :-

" سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير " فلما ذللت ألسنتهم بذلك وعلّم

- سبحانه - الصدق والإيمان حقاً في قلوبهم والطاعة من جوارحهم لِمَا أمرهم به

(١) النبأ العظيم . د . محمد عبد الله دراز . ٢١ ط ٢ سنة ١٩٧٠ م . دار القلم
الشركة المتحدة للتوزيع .

(٢) فضلاً راجع ص ٣٧٠ من هذا البحث .

- عزَّ وجلَّ - لما علم ذلك ، خَفَّفَ عنهم وأوضَحَ لهم حقيقة المطلوب منهم حتَّى لا يكون في تنفيذِه مشقَّةَ عليهم نقول من خلال هذه القصَّة نستطيع أن نستخلص عبرةً عامَّةً يمكن أن نقومَ بها سلوكنا وأفعالنا في جميع أمورنا ألا وهي ضرورة رياضة النفس على مِغالبة الهوى وعلَى السَّمع والطَّاعة لِلَّهِ وِلسوطه الكريم - صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ - ثُمَّ لأولى الأمر من المسلمين ما دام في ذلك رضا الله جلَّ وعلا وعدم معصيته حتَّى وإن كان في هذه المِغالبة وتلك الجِهاد مشقَّة واضحة ، لأنَّه - عزَّ وجلَّ - عالمٌ بكلِّ كبيرة وصغيرة وهو وحده الَّذي يعلم الخير والشرَّ ، لذا قد يأتي الفرج من حيث لا يتوقع المرء ولا يعلم لَذا وجب حسن الظَّنَّ به - سبحانه - لأنَّه - جلَّ وعلا - لا يأمر خلقه إلا بما في إمكانهم تنفيذُه أما ما لا يملكونه من وساوس النفس وأحاديثهم فلا يؤخذهم عليها لأنَّه - عزَّ وجلَّ - لا يريد لهم إلا الخير والسَّلام - سبحانك ربَّنَا أنت السَّلام ومنك السَّلام تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام ،،،،،،

دراسته وتحليله بيانياً :-

لنعدُّ هنا إلى نصِّ المثل الكريم :-

« لَا يَكْفُفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا » .

الكُفُّ : هو الإيلاج بالشَّيْءِ .

(١) (وَتَكْفُفُ الشَّيْءُ هُوَ مَا يَفْعَلُهُ الْإِنْسَانُ بِإِظْهَارِ كُفْفٍ مَعَ مَشَقَّةٍ تَنَالُهُ فِي تَعَاطِيهِ)

أما التَّكْفُفُ : فهو اسم لما يعملُ بمشَقَّةٍ أو تصنُّعٍ أو تشييعٍ وقد ذكر الرَّاغِبُ للتَّكْفُفِ

ضربين :-

أحدهما : محمود وهو ما يروِّضُ الإنسانَ عليه نفسه في عملٍ من الأعمالِ حتَّى يصبحَ

عادةً محببته لديه كما يحدثُ مع المؤمنِ في كُفِّهِ بِالْعِبَادَاتِ (٢) .

وثانيهما : مذموم وهو ما يفعله الإنسانُ مراعاةً وهو المقصودُ في قوله تعالى :-

« قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ » (٣) .

وقوله تعالى :-

« لَا يَكْفُفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا » (٤)

(أي ما يعدونه تكلفاً فهو سعة في المال) (٥)

النفسُ : هي (الروح) (٦) والمقصودُ باللفظة هنا الإنسانُ .

وَسْعَهَا : (الوَسْعُ مِنَ الْقُدْرَةِ مَا يَفْضُلُ عَنْ قَدْرِ الْمُكْلَفِ وَهُوَ الْمَقْصُودُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :-

« لَا يَكْفُفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا ») .

قال الرَّاغِبُ معلقاً على هذه الآية :-

(٨) (تَنْبِيهًا أَنَّهُ يَكْفُفُ عَبْدَهُ دُونَ مَا يَنْوِي بِهِ قُدْرَتَهُ)

(١) المفردات في غريب القرآن ، الرَّاغِبُ « كُفْفٌ » .

(٢) نفسه « كُفْفٌ » (بتصرف) .

(٣) سورة ص : ٨٦ .

(٤) سورة البقرة ٢٨٦ .

(٥) المفردات في غريب القرآن . الرَّاغِبُ « كُفْفٌ » .

(٦) نفسه (نَفْسٌ) .

(٧) نفسه (وَسِعٌ) .

(٨) نفسه (وَسِعٌ) .

(وقِيلَ يُكَلِّفُهُ مَا يُشْرِكُهُ السَّعَةِ أَيِ : جَنَّةَ عَرْضِهَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَمَا قَالُوا :
 "يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ") .

ونرى أنَّ المعنى الأولَّ أقرب إلى الصَّواب وهو أنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يكلف الإنسان
 إلاَّ دُونَ ما تحتمله نفسه وطاقته حتَّى لا يكون في هذا التَّكليف مشقَّة وكلفة عليه
 وذلك من قبيل التَّخفيف عن عباده - سبحانه وتعالى - وقد نصَّ القرآن الكريم في
 أكثر من موضع على كونه - جلَّ وعلا - لا يكلف نفساً إلاَّ وسعها وإلاَّ ما أتاها (٢) وثمَّة
 فرق واضح بين الطَّاقة والوسع فإذا كانت الطَّاقة تعني استنفاد كلِّ الجهد ، فإنَّ
 الوسع يعني ما يسعه الإنسان ويسهل عليه ويفضل قدره عنه يقول ابن القيم رحمه الله :-
 (.) وأنَّ سبحانه لم يكلف عباده إلاَّ وسعهم ، وهو دون طاقتهم فقلَّ

يطيقون الشَّيْءُ ويضيق عليهم بخلاف وسعهم فإنه ما يسعونه ويسهل عليهم ويفضل
 قدرهم عنه . كما هو الواقع . وأنه لا يعاقب أحداً بغير فعله . ولا يعاقبه على فعل
 غيره . ولا يعاقبه بترك ما لا يقدر على فعله ولا على ما لا قدرة له على تركه وأنه حكيم كريم
 جواد ماجد محسن ودود صبور شكور يطاع فيشكر ويُعصى فيغفر (٣) . سبحانه
 وتعالى - وقد قيل في (يُكَلِّفُ) إنه يأخذ مفعولين وعلى هذا فيكون أحدهما
 محذوفاً وتقديره (عباده أو شيئاً) ويرى أبو حيان أنه إن عني ابن عطية (أن أصله
 كذا فهو صحيح لأنَّ قوله إلاَّ وسعها استثناء مفرغ من المفعول الثاني وإن عني أنه
 محذوف في الصَّناعة فليس كذلك بل الثاني هو وسعها) (٤) .

ونرجِّح هنا الرأْي القائل إنَّ المفعول الأولَّ ليكلف محذوف وتقديره (شيئاً
 أو عباده) والثاني هو وسعها . والله أعلم ،،،،

-
- (١) المفردات في غريب القرآن " وسع " .
 (٢) سورة البقرة ٢٣٣ - ٢٨٦ وسورة الأنعام ١٥٢ ، سورة الأعراف ٤٢ ، سورة
 المؤمنون ٦٢ ، وسورة الطلاق ٧ .
 (٣) طريق الهجرتين وباب السَّعَاتين ١٦١ .
 (٤) البحر المحيط ٣٦٦/٢ يرى أبو حيان أنَّ هذا يوافق قولهم ما أعطيت زيدا
 إلاَّ درهماً . وما ضربت إلاَّ زيدا . بمعنى ما أعطيت زيدا شيئاً إلاَّ درهماً
 وما ضربت أحداً إلاَّ زيدا . فضلاً انظر المصدر المذكور .

والملاحظ أنّ المثل الكريم : " لا يَكْفِي الله نَفْسًا إِلَّا وَسَّعَهَا " .

يشتمل على (قَصْرَ قَلْبٍ) (١) إذ أنّ المؤمنين قد اعتقدوا أنّ التَّكْلِيفَ قد جاء في كلِّ الأمور بما في ذلك وساوس النَّفْسِ وأحاديثها فخففَ اللهُ عنهم وقلبَ اعتقادهم ذلك إذ بيّن عزَّ وجل أن التَّكْلِيفَ لا يكون إلا في حدود الطَّاقَةِ والاحتمال حتّى لا يكون في التَّنفِيزِ مشقَّةً وعدمُ قُدرةٍ ولعلَّ المجال هنا يبيِّن لنا أن ننقل ما ذكره صاحب تفسير الظَّلال رحمه الله معلِّقاً على ذلك تعليقا جميلاً فيقول :-

(وهكذا يتصوّر المسلم رحمة ربّه وعدله في التكاليف التي يفرضها الله عليه في خلافته للأرض ، وفي ابتلائه أثناء الخِلافة ، وفي جزائه على عمله في نهاية المطاف . ويطمئنُّ إلى رحمة الله وعدله في هذا كنهه ، ولا يضيق بها صـدراً ولا يستثقلها كذلك ، وهو يؤمن أنّ الله الذي فرضها عليه أعلم بحقيقة طاقته ، ولو لم تكن في طاقته ما فرضها عليه ، ومن شأن هذا التّصوّر - فضلاً عما يسكب في القلب من راحة وطمأنينة وأنس - أن يستجيش عزيمة المؤمن للنهوض بتكاليفه ، وهو يحس أنّها داخله في طوقه ، ولو لم تكن داخله في طوقه ما كتبها الله عليه ، فإذا ضعف مرة أو ثقل العبء عليه ، أدرك أنّه الضَّعْفُ لافداحة العبء ! واستجاش عزمته ونفـض الضَّعْفَ عن نفسه وهمَّ همةً جديدةً للوفاء ، مادام داخله في مقدوره ! وهو إيحاء كريم لاستنهاض الهمة كما ضعفت على طول الطريق ! فهي التّربية كذلك لروح المؤمن وهمة وإرادته ، فوق تزويد تصوّره بحقيقة إرادة الله به في كلِّ ما يكلفه) (٢)

وبهذا يمكننا مع هذه المعاني القيّمة الكثيرة التي أوضحها لنا النصُّ السابقُ يمكننا أن نقول إن قوله تعالى :- " لا يَكْفِي الله نَفْسًا إِلَّا وَسَّعَهَا " هو من إيجاز القصر في القرآن إذ اشتمل على معانٍ كثيرة في أيسر لفظ وأظنه (٣) دون حذف .

(١) قصر القلب : إذا كان المخاطب يعتقد عكس الحكم فتقلب عليه اعتقاده نحو

مشاعر الأشوقي ، لمن اعتقد غيره أشعر منه التلخيص في علوم البلاغة ص ١٣٨

(٢) في ظلال القرآن (١ / ٣٤٤ - ٣٤٥)

(٣) علوم البلاغة ، المراغي ، ١٩٣ (بتصرف) .

والطَّاقَةَ اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقةً وذلك تشبيهه بالطَّوقِ المُحِيْطِ
بالشَّيْءِ ، فقوله : " وَلَا تَحْمِلُنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ " (١) (أي ما يصعب علينا مزاولته
وليس معناه لا تحمِلُنَا مَا لَا قُدْرَةَ لَنَا بِهِ ، وذلك لأنَّه تعالى قد يحْمِلُ الإنسان ما يصعب
عليه) (٢) وقد سبقت الإشارة إلى أن الوسع يختلف عن الطَّاقَةَ (٣) .

والجُودُ : (هو التَّسَمُّعُ بِالشَّيْءِ ، وكثرة العطاء) (٤) .

يجسد : من الوجود (وهو الشَّيْءُ يُلْفِيهِ) (٥) .

وقد ذكر الراغب أن الوجود أضرَبُ :-

- ١ - وجود بإحدى الحواس الخمس وهو المقصود هنا .
 - ٢ - ووجود بقوة الشهوة مثل وجدتُ الشَّبَعُ !
 - ٣ - ووجود بقوة الغضب كوجود الحُزْنِ والسَّخَطِ .
 - ٤ - ووجود بالعقل أو بواسطة العقل كمعرفة الله ومعرفة النبوة .
- أما ما ينسب إلى الله من الوجود فيمعنى العلم المجرد لأنَّ الله تعالى مثزَّه عسَن

الوصف بالجوارح والآلات . (٦)

كذلك يعبر عن التمكن من الشَّيْءِ بالوجود كما قال تعالى :-

" فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ " (٧)

-
- (١) سورة البقره ، ٢٨٦ .
 - (٢) المفردات في غريب القرآن " طوق " .
 - (٣) فضلا راجع ص ٣٧٦ من هذا البحث .
 - (٤) مقاييس اللغه " جود " .
 - (٥) نفسه " وجد " .
 - (٦) المفردات في غريب القرآن " وجد " (بتصرف) .
 - (٧) سورة التَّوْبَةِ ، ٥ .

هـ - ما يوافقه من أقوال البشر :-

قال الشاعر :-

مَا كَفَّ اللَّهُ نَفْسًا فَوْقَ طَاقَتِهَا * * وَلَا تَجُودُ يَدٌ إِلَّا بِمَاتَجِدُ (١)

وقصة هذا البيت هي :-

(إن أبا هريرة - رضي الله عنه - قال ما ودرت أن أجداً ولدتني أمه إلا أم

جعفر بن أبي طالب ، إن تبعته يوماً وأنا جائع ، فلما بلغ الباب ، والتفت فرآني فقال

لي : ادخل ، فدخلت . ففكر حيناً فما وجد في بيته شيئاً إلا نحيأً (٢) كان فيه سمن

مر ، فأنزله من رق لهم فشقه بين أيدينا فجعلنا نلعق ما كان فيه من السمن والسرب (٣)

وهو يقول :-

مَا كَفَّ اللَّهُ نَفْسًا فَوْقَ طَاقَتِهَا * * وَلَا تَجُودُ يَدٌ إِلَّا بِمَاتَجِدُ (٤)

والملاحظ أن هذا البيت يشتمل على جناس ناقص بين قوله - تجود - تجد .

هذا ويمكن أن نقول ان هذا البيت الشعري هو من أدب الدعوة الإسلامية

لأن قائله تأثر فيه بقوله تعالى :-

” لَا يَكْفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا الخ

والواضح هنا سمو المثل القرآني الكريم لسمو مصدره فضلاً عما امتاز به من بلاغة

عالية إذ جاء التكليف مع الوسع وهو ما يزيد على طاقة الإنسان ومقدرته وفي ذلك ما فيه

من التخفيف على المؤمنين هذا فضلاً عن كونه من إيجاز القصر في القرآن وهو من طرق

التعبير البليغة التي تأتي بالمعاني الجليلة الكثيرة في أيسر ألفاظ وأقلمها دون حذف

أو تقصير .

(١) العقد الفريد ١/ ٢٣٦ .

(٢) النحي : بالكسر هو : (ما كان للسمن خاصة) .

(٣) رب السمن : ثقله الأسود .

(٤) العقد الفريد ١/ ٢٣٥ - ٢٣٦ .

الجناس هو تشابه الكلمتين في اللفظ مع اختلافهما في المعنى وهو أنواع منها

الناقص : وهو اختلاف اللفظتين في عدد حروفهما إما بحرف أو بحرفين أو أكثر

وهو هنا بحرف واحد في الوسط ، فضلاً انظر في ذلك التلخيص في علوم البلاغة

للقرظيني ص ٣٩٠ (بتصرف) .

هذا وما يوافق هذا المثل القرآني الكريم القول المشهور :-

(وعلني أن أسعى وليس عليّ إدراك النَّجَاحِ) .

وقولهم :-

(و مبلِّغُ نفسٍ عذرَها مثلُ مُنْجِحِ) (١)

وقول الشاعر :-

ماكلُّ ما ينمِّي المرءُ يدركه * * * تجري الرياحُ بما لا تشتهي السفنُ (٢)

وقول الشاعر :-

و ما نيلُ المطالبِ بالتمسُّبِ * * * ولكن تؤخذُ الدنيا غلاباً (٣)

وقول الشاعر :-

لولا المشقةُ سادَ الناسُ كلمهم * * * الجودُ يفيقرُ والإقدامُ قتالُ (٤)

وقيل أيضاً :-

لا تتكفُّ ما كُفيتَ ، فتضيعَ ما وليتَ (٥)

وقولهم :

(من ظلم نفسه فهو لغيره أظلم) (٦)

وقال الشاعر :-

إنا طالبتكِ النفسُ يوماً بشهوةٍ * * * وكانَ عليها للخلافِ طريقُ .

فخالفَ هواها ما استطعتَ فإنما * * * هواك عدوٌّ والخلافُ صديقُ . (٧)

(١) عروة بن الورد في مقدِّمة الشعراء الصَّعاليك ليوسف خليف ص ١٥ ، دار المعارف

بمصر ١٩٥٩ م .

(٢) ديوان المتنبي ٢٣٦/٤ .

(٣) الشوقيات ٦٢/١ بدون تاريخ .

(٤) ديوان المتنبي ٢٨٧/٣ .

(٥) التمثيل والمحاضر ٤٣٤ . أي لا تتكفَّ ما ليس مطلوبها منك فيذهبُ عنك ما أنت مسؤُول

عنه .

(٦) نفسه ٤٥٢ .

(٧) نفسه ٤٥٣ .

٤ - قال تعالى :-

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ * (١)

أ- المعنى العام :-

أي لن تبلغوا أيها المؤمنون مرادكم من أعمالكم الصالحة وتقرّبكم إليه - سبحانه - بها - لن تبلغوا مرادكم من الجنة ونعيمها إلا إذا بذلتُم أحبّ أموالكم إليكم في سبيل الله تعالى (٢) .

هذا وقد أولّ كثير من أهل التأميل كلمة البرّ بأنّها الجنة (٣) وقيل العمل الصالح جاء في الحديث :-

(عليكم بالصدّق فإنّ الصدّق يهدي إلى البرّ وإنّ البرّ يهدي إلى الجنة) (٤) .
وقيل الطاعة (٥) يعني لن تنالوا شرف الدّين والتّقوى حتّى تتصدّقوا وأنتم أشحاءً أصحاءً تألمون العيش وتخشون الفقر (٦)
وقيل حتّى تُنْفِقُوا في سبيل الخير من صدقة أو غيرها من الطاعات .
ويرى القرطبي في هذا التأميل الأخير معنى جامعاً لكّ المعاني (٧) وهذا -
مانمى إليه .

هذا وقد قيل إن المقصود بالإتفاق هنا هو الزكاة ولكننا نميل هنا أيضاً إلى رأي الامام الرازي في تفسيره الكبير الذي يقول فيه :-

-
- (١) سورة آل عمران ، ٩٢ .
(٢) جامع البيان ٣/٣٤٦ (بتصرّف) .
(٣) نفسه كذلك الجامع لأحكام القرآن ٢/١٣٧٥ (بتصرّف) .
(٤) سنن الترمذي باب ماجاء في الصدّق والكذب ٤٦ . (لاحظنا خطأ في المعجم المفهرس لألفاظ الحديث إذ أثبت هذا الحديث تحت رقم ٤٦ باب البر من سنن الترمذي بينما وجدناه في باب ماجاء في الصدّق والكذب) .
(٥) الجامع لأحكام القرآن ٢/١٣٧٥ (بتصرّف) .
(٦) نفسه . ٣/١٣٧٥ (بتصرّف) .
(٧) نفسه . ٣/١٣٧٥ (بتصرّف) .

(لو خصصنا الآية بغير الزكاة لكان أولها لأن الآية مخصوصة بإيتاء الأحب)
والزكاة الواجبه ليس فيها ، وإنما الأحب ، فإنه لا يجب على المزكي أن يخرج أشرف
(١)
أمواله وأكرمها ، بل الصحيح أن هذه الآية مخصوصة بإيتاء المال على سبيل الندي .
لذا فقد كان السلف الصالح رضوان الله عليهم إذا أحبوا شيئاً جعلوه لله
عز وجل من ذلك ماورد في كتب المفسرين (إنه لما نزلت هذه الآية قال أبو طلحة :
يا رسول الله لي حائط (٢) بالمدينة وهو أحب أموالي إلي أفأصدق به ؟ فقال
عليه السلام " بئح بئح ذاك مال رابح " ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين ، فقال
أبو طلحة : أفعل يا رسول الله فقسمها في أقاربه ، ويروى أنه جعلها بين حسان
ابن ثابت وأبي بن كعب رضي الله عنهما وروى أن زيد بن حارثة رضي الله عنه جاء
عند نزول هذه الآية بفرس له كان يحبه وجعله في سبيل الله فحمل عليها رسول الله
صلى الله عليه وسلم أسامة ، فوجد زيد في نفسه فقال عليه السلام " إن الله قد
قبلها " واشترى ابن عمر جارية أعجبتة فاعتقها فقيل له : لم أعتقها ولم تصب منها فقال :
" لئن تناولوا البحر حتى تنفقوا مما تحبون " (٣)
- مناسبة في السياق :-

ورد في مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لما أخبر السياق القرآني
الكريم عن مات كافراً أنه لا يقبل ما أنفق في الدنيا أو ما أحضره لتخليص نفسه
في الآخرة حتى في المقابل المؤمن على الصدقة وبين أنه لن يدرك مبتغاه من الجنة
حتى ينفق مما يحب (٤) .

هذا عن مناسبة آية المثل الكريمة لما قبلها في السياق أما عن مناسبتها لما بعدها
في نفس سياق الآية (٥) .

(١) التفسير الكبير ٨ / ١٣٥ .

(٢) خبره

(٣) التفسير الكبير ٨ / ١٣٤ كذلك وردت بصيغة أخرى في تفسير ابن كثير ١ / ٣٨٢

كذلك فتح القدير ١ / ٣٦٠ ، ٣٦١ (بتصرف) كذلك الجامع لأحكام القرآن

٢ / ١٣٧٤ (بتصرف) .

(٤) البحر المحيط ٢ / ٥٢٣ (بتصرف) .

(٥) سورة آل عمران ، ٩٢ .

وهو قوله تعالى : -

« وَمَاتُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ » .

فكما يبدو وأنه كما ذكر السِّيَاقُ أَنَّ نَوَالَ الْجَبْرِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِإِنْفَاقِ مَا يُحِبُّ الْمُؤْمِنُ
فَذِيْلَ ذَلِكَ بِيْبْيَانِ أَنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يَعْلَمُ مَا يَقْدَمُهُ لَوَجْهِهِ تَعَالَى ، قَلِيْلًا
كَانَ أَوْ كَثِيْرًا فَلَاتَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ .

أَمَّا مُنَاسِبَةُ هَذَا الْمَثَلِ الْكَرِيْمِ لِمَا بَعْدَهُ مِنْ آيَاتٍ ، فَكَمَا يَبْدُو أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ (١)
جَاءَتْ لِلرَّدِّ عَلَى شِبْهِاتِ الْيَهُودِ ضِدَّ نَبْوَةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَجَاءَتْ
الْآيَاتِ التَّالِيَاتِ (٢) لِتَثْبِيْتِ الْمُؤْمِنِيْنَ بَعْدَ رَدِّ مَقَالَاتِ أَعْدَائِهِمْ ، ثُمَّ جَاءَتْ الْآيَاتِ
التَّالِيَاتِ لِتَثْبِيْتِ الْمُؤْمِنِيْنَ بَعْدَ هَزِيْمَةِ أَحَدِ (٣) وَقَدْ جَاءَ ذِكْرُ الطَّعَامِ هُنَا (٤) ..
لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ الْإِنْفَاقَ يَشْمَلُ الطَّعَامَ أَيْضًا .

ج- العبرة منه :-

لَعَلَّ الْعِبْرَةَ مِنْ هَذَا الْمَثَلِ الْكَرِيْمِ تَبْدُو فِي ضَرْوَةِ تَرْوِيْشِ النَّفْسِ عَلَى بِذَلِ
أَفْضَلِ مَا تَمْلِكُهُ لَوَجْهِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِأَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَمَا عِنْدَ غَيْرِهِ ذَاهِبٌ
لَا مَحَالَةَ قَالَ تَعَالَى :-

« مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ » (٥)

« وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا » (٦)

« وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًا » (٧)

(١) سورة آل عمران ٩٣ - ٩٩

(٢) سورة آل عمران ١٠٠ - ١٠٢

(٣) سورة آل عمران ١٠٣ - ١٨٩

(٤) سورة آل عمران ٩٣

(٥) سورة النحل ، ٩٦ .

(٦) سورة الكهف ، ٤٦ .

(٧) سورة مريم ، ٧٦ .

ومن هذه العبرة نتذكر ما يمكن أن يتسرب إلى نفس بعض الناس اختيار أردأ . . . ما يكون لإخراجه صدقة . . . وهذا من غير شك عمل غير صالح ، بل قد لا تُقبل الصدقة وفي نفس صاحبها ما في نفسه من ذلك الشعور الذي يدفعه إلى مثل هذا الاختيار السيء لما يتصدق به أو ما ينفقه في سبيل الله .

ويطيب لنا هنا أن نضرب مثلاً مما يمكن أن يصادفنا في معاملاتنا الشخصية ، هذا المثل هولو أن أحداً من الناس أراد أن يقدم شيئاً لصديق عزيز مثلاً فما الذي يمكن أن يختاره لهذا الصديق ؟

لا شك أنه قد يقف في معظم الأوقات حائراً بين اختيار الفاضل أو الأفضل من الأشياء له لأنه صديق عزيز فما بالناس بمن يريد أن يُنفق في سبيل الجنة أو في سبيل الله على الإطلاق ؟ !

لا شك أن كل من وضع نصب عينيه هذا الاعتبار عند اختيار الصدقة - لا شك أنه لن يرضى بغير اختيار أحب الأشياء إلى نفسه وقلبه ليقدمها قُربى إلى بارئها - عز وجل - الغني عن خلقه وعطاياهم - سبحانه وتعالى

.. .. .

→ - دراسته وتحليله بيانياً :-

لنعد هنا إلى نص المثل الكريم :-

قال تعالى :-

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ .

فعند دراسة ألفاظ هذا المثل لُغَوِيًّا نلاحظ أن :-

النَّوَال : - هو العطاء ونولته أي أعطيته (١) لذا جاء التعبير هنا بجملة (تَنَالُوا)

لأن الجنة شيء يعطى وما يعطى لطيف الوقع على النفس عزيز المنال ولذا تكون سعادتها بالوصول إليه مساوية لتلك العزة أما ما يأخذه الإنسان بدافع الرغبة الذاتية غالباً ما يكون جانب الاختيار الشخصي فيه واضحاً يقول ابن فارس :-

(أما أخذ فالأصل حوز الشيء و جَبِيصُه وجمعه . تقول أخذت الشيء ، آخذه

أخذاً قال الخليل : هو خلاف العطاء وهو التناول) (٢) .

ولا أعز من البر مطلباً ، لذا كان من البلاغة هنا مجيء جملة (تَنَالُوا) بدلاً من

جملة تأخذوا مثلاً .

وحتى هنا لانتهاه الغاية .

وقوله (تُنْفِقُوا) من نفق أي : انقطع ونهَب (٣) .

وقوله (مِمَّا) مكونة من (مِنْ ، مَا) فمن هنا تبعيضه ويؤكد هذا القول قراءة

من قرأ (بَعْضُ مَا تُحِبُّونَ) (٤) .

وقيل بيانياً وعندها تكون (مَا) موصولة - بمعنى الذي - والعائد محذوف

وجملة (تُحِبُّونَ) لا محل لها من الإعراب لأنها صلة الموصول ويمكن أن تكون ما موصوفه

ومحبة الشيء هي لزومه كما ذكر ابن فارس (٥) - وهنا تعني ميل النفس وتعلقها تعلقاً تاماً بما تنفقه لذا جعل مقابله الجنة ونعيمها .

(١) مقاييس اللغة ٤ تول ٥ (بتصرف)

(٢) نفسه ٦ أخذ ٤ .

(٣) نفسه ٦ نفق ٦ (بتصرف) .

(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٥٧/٢ (بتصرف) .

(٥) مقاييس اللغة ٦ حب ١١ . (بتصرفاً)

ولعلنا نصادف ما يقارب هذا المعنى في قوله تعالى :-

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ" (١)

أما قوله (مَاتِحِبُونَ) ، فهو تميم (٢) للمعنى قبله أو فُضلة أفادت المبالغة وهو

نظير قوله تعالى :-

"وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ، ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ

وَفِي الرِّقَابِ الْآيَةَ (٣) .

فقوله - (عَلَى حُبِّهِ) - هنا فُضلة للمبالغة في أداء المعنى أو تميم هذا فضلا عن

جمال الناحية الصَوْتِيَّة أو التَوَاؤُم الصَوْتِيَّ فِي المثل إلى الحدِّ الَّذِي قد يصل إلى نغمة

شطر من الشَّعْر أو قَرْتَصَادِف بيتا كاملا من الشعر . . (٤) .

— — —

(١) سورة البقره ، ٢٦٧ .

(٢) قد أشرنا من قبل إلى تعريف التَّميم وهو أن يُؤْتَى فِي كَلَام لا يُوْهَم خِلَاف المَقْصُود بِفُضْلِهِ (أَي : تَمييز أو مَجْرُور أو مَفْرُود أو جُمْلَه غَيْر مَسْتَقْلَه عَمَّا قَبْلُهَا) لِتَفْيِيد هذه الفُضْلَه فَائِدَه كالمبالغة فِي قَوْلِه "لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ" فَضلاً انظُر فِي ذلك تَلْخِيص المَفْتاح فِي المَعَانِي وَالبَيَان وَالبَدِيع ، الخَطِيْب القَزْوِينِي ٢١٣ (بِتَصْرُف) .

(٣) سورة البقره ، ١٧٧ .

(٤) موسيقا الشعر . د . ابراهيم أنيس ط ٢ سنة ١٩٥٢ م ص ٣٠٧ ، مصطفى البابي الحلبي ، مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعه الأخيره (بِتَصْرُف)

هو ما يوافق من كلام البشر :-

لعلّ المثل البشريّ الموافق لقوله تعالى :-

"لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ" (١) هو قولهم :-

(مَنْ يَنْكِحُ الْحَسَنَاءَ يُعْطِ مَهْرَهَا) (٢) وقال الشاعر في نفس المعنى :-

(٣)

تهونُ علينا في المعالي نفوسنا * * * ومن خطب الحسناء لم يغلها المهرُ

والنكاح : يكون بالعقد دون الوطء يُقال امرأة ناكح في بني فلان أي : ذات زوج

منهم ونكحتُ أي : تزوجتُ (٤) .

والحسنة : من الحسن وهو ضدُّ القبح يُقال رجلٌ حسن وامرأةٌ حسنة وحسانته

قال الشاعر :-

دار الفتاة التي كنا نقول لها * * * يا ظبية عطلا حسنة الجيد (٥)

و (مهر المرأة هو أجرها ، نقول مهرتها بغير ألف فاذا زوجها من رجل علس

مهر قلت أمهرتها قال :-

أمكم ناكحة ضريساً * * * قد أمهروها أعزاً وتيساً

وامرأة مهيرة ونساء مهائس (٦) .

وهذا المثل يشتمل على شرط وجوابه ، أما الشرط فهو قوله من ينكح الحسناء

وجوابه هو (يعط مهرها) .

ولا نلمس في هذا الأسلوب بلاغة واضحة أو أيّ مبالغة ، حسنة في أداء المعنى

بينما نلاحظ ذلك في المثل القرآنيّ الجليل في قوله تعالى :-

"لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ" .

(١) سورة آل عمران ، ٩٢ .

(٢) التمثيل والمحاضرة ، ١٦ .

(٣) ديوان أبي فراس الحمداني ص ١٦١ .

(٤) مقاييس اللغة "نكح" . (بتصرف)

(٥) نفسه "حسن" .

(٦) نفسه "مهر" .

فمعنى الآية يتضمّن الشرط وجوابه دون أن يكون هناك أية أداة من أدوات الشرط
- كما نلاحظ - فضلاً عما اشتملت عليه الآية الكريمة من تميم أفاد المبالغة في أداة المعنى
المراد .

ولا يفوتنا هنا ما اشتمل عليه المثل الكريم من توافق أو تلاؤم صوتي بين الألفاظ إلى
الحدّ الذي وافق أو كاد يوافق بيتاً من الشعر يمكن أن يكون وزنه مطابقاً ليحر الرمل
المحذوف (١)

ومآجاء من أقوال البشر موافقاً أيضاً للمثل القرآني الكريم قول الشاعر :-
ماكلُّ من طلب المعالي نافعاً * * فيها ولا كلُّ الرجال نخولاً (٢)
وإذا كانت النفوس كباراً
تعبت في مرادها الأجسام (٣)

وقال :

دون الحلاوة في الزمان مرارة
لا تختطى إلا على أهواله (٤)

وقال :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم (٥)
ومن طلب الفتح الجليل فأنما
مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم (٦)

(١) انظر العقد الفريد ٤٨٨/٥ .

(٢) ديوان المتنبي ٢٤٥/٣ .

(٣) نفسه ٣٤٥/٣ .

(٤) نفسه ٦٥/٣ .

(٥) نفسه ٣٧٨/٣ .

(٦) نفسه ٣٨٨/٣ .

ذريتي أنلُ مالا يُنالُ من العُلَى
فصعبُ العُلَى في الصَّعبِ والسَّهلُ في السَّهلِ .
تُرِيدِينَ لُقْيَانُ المعَالِي رُحِيصَةً

ولا بُدَّ دُونَ الشَّهَدِ مِنْ إِبْرِ النَّحْلِ (١)

فكما نلاحظ أن أقوال المتنبي السابقة كلها تدور حول ضرورة رياضة النفس على

تخطي الصَّعَابِ للوصولِ إلى أفضل ما يَتَمَنَّى المرءُ .

ولا تظنَّ أن هنا لك أفضل من التَّضْحِيَّةِ بِأَحَبِّ ما يَمُتِكُ الْإِنْسَانُ لِيَصِلَ إِلَى الْجَنَّةِ

أولينال البرِّ - بكلِّ ما تحمِلُ هذه اللَّفْظَةُ مِنْ مَعَانٍ .

ولعلنا هنا نذكر قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي بَيَّنَّ فِيهِ فَائِدَةُ

السَّخَاءِ وَمَكَانَةَ السَّخِيِّ عِنْدَ اللهِ إِذْ يَقُولُ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :-

" وَالسَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللهِ ، قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ ، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ ، بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ

وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللهِ ، بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ ، بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ ، قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ ، وَالْجَاهِلُ

السَّخِيُّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ عَابِدٍ بَخِيلٍ " (٢) .

(١) ديوان المتنبي ٢٩٠/٣ .
(٢) سنن الترمذي . (الجامع الصحيح) باب البرِّ والصَّلة حديث ٢٠٢٧ أشرف على طبعه عبد الرحمن محمد عثمان ، ط ٢ ، سنة ١٩٧٤ م ، دار الفكر .

٥ - قال تعالى :-

”وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ“ .

أ- المعنى العام :-

ورد هذا المثل الكريم ضمن قوله تعالى :-

”إِن يَمْسُسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلَهُ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ
اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ“ (١)

ومعنى الآية الكريمة هو أن الله - عز وجل - قد ابتلاكم يا أيها المؤمنون بالقتل

والجراح في يوم أحد فقد أصاب الأعداء قبلكم في يوم بدر .

وتلك هي سنة الله في خلقه إن يجعل مصرفة بين الناس والمقصود هنا المسلمون

والمشركون إن أдал المسلمين من المشركين في بدر ، فقتلوا منهم سبعين ، وأسروا

سبعين وأدال المشركين من المسلمين بأحد ، فقتلوا منهم سبعين هذا غير الجرحى .

هذا وقد قال قتادة في قوله ”وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ“ :-

(إِنَّ اللَّهَ لَوَلَا الدُّوْلَ مَا أُوذِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَلَكِنْ قَدْ يُدَالُ لِلْكَافِرِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

وبيتلى المؤمن بالكافر ليعلم الله من يطيعه ممن يعصيه ويعلم الصادق من الكاذب (٣)

ب- مناسبته في السياق :-

تبد ومناسبة آية هذا المثل لما قبلها من آيات إذا علمنا أنها

وردت ضمن الآيات الواردة لتثبيت المؤمنين بعد أحد (٤) .

(١) سورة آل عمران ، ١٤٠ .

(٢) جامع البيان ١٠٣/٤ - ١٠٤ (بتصرف) كذلك : تفسير ابن كثير ٤٠٩/١ (بتصرف)

(٣) نفسه ١٠٥/٤ .

(٤) سورة آل عمران ١٢١ - ١٨٩ .

أما مناسبة المثل للآية الكريمة الوارد فيها ، فتبدو في أن هذا المثل الكريم كان عبارة عن تعليق وتوكيد للمعنى قبله إذ أنه واسب المؤمنين لما أصابهم في أحد فذكر السّياق في المثل الكريم إن هذه هي سنة الله في خلقه في تصريف الأيّام وأحداثها بين الناس ، فمن كان اليوم منتصرا قد يصبح غداً منهزماً وهكذا

أما مناسبة هذا المثل لسياق الآية الوارد فيها بعده فقد بينت هذه الآية نفسها بعد ذلك أن الله سبحانه وتعالى - ما فعل ذلك الإيلاء واختياراً لصحة إيمان المؤمنين وليعلم - جلّ وعلا - علم ظهور أيضاً مدى صبرهم على لقاء الأعداء ، إلى أن يكتب لهم الشهادة - بانزليين في ذلك كلّ ما وهبهم الله من قوّة ومال في سبيل مرضاته عزّ وجلّ ، فيكفر بذلك - سبحانه - عن سيئات من أساء أو يرفع في درجات من أحسن منهم ويُدمر الكافرين ويهلكهم ليعيبيهم ويظفرهم إن هم فازوا وظفروا فسي المعركة (١) .

أما مناسبة آية المثل لما بعدها من آيات ، فتبدو في أن هذه الآية قد وردت ضمن الآيات التي نزلت لتثبيت المؤمنين بعد وقعة أحد وهزيمتهم أمام الأعداء (٢) .

ج- العبرة منه :-

تبدو العبرة من هذا المثل الكريم من خلال تذكّرنا لغزوة أحد ، هذه الغزوة التي عص فيها بعض الرماة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم - في عدم التحرك من أماكنهم حتى يأمرهم بذلك ولكنهم بعد انتصار المسلمين - في الجولة الأولى - تركوا أماكنهم وأسرعوا إلى الغنائم ، فكانت النتيجة عكس ما تصوّروا ، وهُزموا في هذه المعركة ، وهذا خلاف ما حدث لهم من نصر في بدر ، ولعلّ السبب في ذلك التصرّ أيضاً كان معلوماً ، وهو الطاعة التامة لقائدهم - صلى الله عليه وسلم .

(١) تفسير ابن كثير ٤٠٩/١ (بتصرف) .

(٢) امتدت هذه الآيات من ١٢١ ، سورة آل عمران حتى ١٨٦ من السورة الكريمة .

نقول يمكن أن نستخلص العبرة هنا - من قصة النصر والهزيمة التي لقيها المسلمون في بدر أولاً ثم في أحد ثانياً ، إن لا بد وأن يكون لكل جواد كِبْوَةٌ ، فأراد - سبحانه - أن يؤكد للمؤمنين أن النصر لن يكون إلا باخلاص النية في طلب الشهادة حقاً وليس في طمع المجاهدين في أي شيء آخر قال تعالى :-

”مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ فِيمَنْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا“ (١)

وما ذاك إلا ليبيّن - عز وجل - أن طاعة القائد في المعركة واجبة وإن بدا لغيره - للوهلة الأولى - خلاف ذلك ، فالحرب خدعة ولا ينبغي معصية القائد فيها مادام موثوقاً بدينه وأمانته قال تعالى :-

”وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمُخْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ، فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ“ (٢) .

كذلك ضرورة النظام والتزام الصف أثناء القتال كما يأمر القائد قال تعالى :-

”إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بَنِيَانًا مَّرصُوعًا“ (٣) .

هذا هو الدرس الذي ينبغي أن يأخذه المسلمون من أحداث غزوة أحد .

أما عن العبرة التي تؤخذ من نعر المثل في ذاته فهي :-

إن على الإنسان ألا يفتربصفاً الأيام وسعادتها في فترة ما . . . ، ففقد تغيير الظروف وتبدل الأحوال ، وكذلك من مرت به ظروف سيئة في بعض أوقاته . .

عليه ألا يقنط من رحمة الله - عز وجل - فلعله سبحانه يحدث بعد ذلك أمراً قال

تعالى :- ”لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا“ (٤) وقال أيضاً :-

”سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا“ (٥) .

(١) سورة الأحزاب ، ٢٣ .

(٢) سورة محمد ٢٠ - ٢١ .

(٣) سورة الصف ، ٤ .

(٤) سورة الطلاق ، ١ .

(٥) نفسها ، ٧ .

د- دراسته وتحليله بيانياً :-

لنعد هنا مرة أخرى إلى المثل الكريم :-

« وَتَكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ » (١)

فعند دراسة الألفاظ لغوياً يتبين لنا :-

أن الأيام جمع يوم والمراد بها هنا أوقات الغلبة والظفر يصرعها الله - سبحانه -

بين الناس حسب ارادته مرة لهؤلاء مرة لأولئك .

نُدَاوِلُهَا :- جاء في مقاييس اللغة في مادة دَوَلٍ :-

(الدَّال والواو واللام أصلان : أحدهما يدلُّ على تحوُّل شيءٍ من مكانٍ إلى

مكان ، والآخر يدلُّ على ضعفٍ واسترخاء) (٢) .

ويقال إن دال القوم إذا تحوّلوا من مكان إلى آخر ، وتداول القوم الشيء بينهم

إذا صار من بعضهم إلى بعض (٣) .

والكلمة في الآية الكريمة من الأصل الأول وهو التحوُّل من مكان إلى آخر

أو من شيء إلى غيره

وفي قوله (نُدَاوِلُهَا) استعارة تبعية (٤) ، ويكون إجراء الاستعارة على

هذا النحو :-

الملاحظ أن قوله (نُدَاوِلُهَا) مُسْنَدٌ لِمَا لَيْسَ لَهُ وَهُوَ الْأَيَّامُ ، لِأَنَّ الْأَيَّامَ

لَا تُدَاوِلُ وَإِنَّمَا الْأَشْيَاءُ هِيَ الَّتِي تُتَدَاوَلُ مِنْ شَخْصٍ إِلَى آخَرَ ، لِذَا فإِن

القول (نُدَاوِلُهَا) مستعار لما يشبهه تبعاً لاستعارة مصدره وهو (المُدَاوِلَةُ)

(١) سورة آل عمران ، ١٤٠ .

(٢) مقاييس اللغة « دَوَلٌ » .

(٣) نفسه (دَوَلٌ) (بتصرف)

(٤) الاستعارة التبعية : هي ما لم يكن اللفظ المستعار فيها اسم جنس كالأفعال

والمشتقات والحروف فهي تبعية في الأفعال لأن الاستعارة فيها تابعه

للاستعارة في معاني مصادرهما وهي تبعية في الحروف لأن الاستعارة فيها

تابعة للاستعارة في متعلقات معانيها . فضلا انظر في ذلك علم البيان

د . يوسف البيومي ١٠٣ (بتصرف) .

لما يشبهه وهو التَّحَوُّلُ والانتقال حيث شُبِّهَ، التَّحَوُّلُ بِالْمَدِّ وَالْوَجْهِ، بِجَامِعٍ أَنَّ كَلًّا مِنْهُمَا يَدُلُّ عَلَى الْإِنْتِقَالِ ثُمَّ يَبْلُغُ فِي التَّشْبِيهِ حَتَّى ادَّعَى أَنَّ الْمَشْبَهَ مِنْ جِنْسِ الْمَشْبَهِ بِهِ وَفَرَدَ مِنْ أَفْرَادِهِ ثُمَّ اسْتَعِيرَتِ الْمُدَاوِلَةُ لِلتَّحَوُّلِ فَسُرَى التَّشْبِيهِ مِنَ الْكُلِّيَّيْنِ (الْمَصْدَرَيْنِ) - الْمُدَاوِلَةُ وَالتَّحَوُّلُ - إِلَى الْجَزْئِيَّيْنِ وَهُمَا الْفِعْلَانِ - فَاشْتَقْنَا مِنَ الْمُدَاوِلَةِ بِمَعْنَى التَّحَوُّلِ (نُدَاوِلُهَا) ، بِمَعْنَى نُحَوِّلُهَا وَنُغَيِّرُهَا عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِعَارَةِ التَّصْرِيحِيَّةِ التَّبَعِيَّةِ ، وَقَدْ قُرِئَتْ (يُدَاوِلُهَا) بِالْيَاءِ وَهِيَ قِرَاءَةٌ شَاذَةٌ (١) .

وَقَدْ قِيلَ إِنَّ فِي قِرَاءَةِ النَّوْنِ فِي قَوْلِهِ (نُدَاوِلُهَا) إِخْبَارًا بِنَوْنِ الْعِظْمَةِ الْمُنَاسِبَةِ لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فِي مُدَاوِلَتِهِ لِلْأَيَّامِ (٢) وَهَذَا مَا نَمِيلُ إِلَى تَرْجِيحِهِ .

وَالْمَعْلُومُ أَنَّ مُدَاوِلَةَ الْأَيَّامِ وَتَغْيِيرَهَا عَلَى النَّاسِ وَالذُّوُلِ سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ فَلَا غُرُوبَ أَنْ يَكُونَ الْحُكْمُ أَوْ الظَّفَرُ مَرَّةً لِلْمِبْطَلِ وَمَرَّةً لِلْمُحَقِّقِ ، وَإِنَّمَا الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ هُوَ عَوْدَةُ الْحَقِّ إِلَى أَهْلِهِ وَهَذِهِ حَقِيقَةٌ أَوْضَحَهَا وَأَكَدَّهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ قَالَ تَعَالَى :-
 * أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ * (٣) .

وَإِذَا عَلِمَ النَّاسُ جَمِيعًا أَنَّ هَذِهِ هِيَ سُنَّةُ الْحَيَاةِ وَنَامُوسُ الْبَشَرِيَّةِ هَانَ عَلَيْهِمْ مَا يَجِدُونَهُ مِنْ عَذَابٍ وَأَلَمٍ بِسَبَبِ خَسَارَتِهِمْ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ ، لِأَنَّ الْمَعْلُومَ أَنَّ السُّدُولَ تَدُولُ ، وَلَعَلَّ الْعِبْرَةَ هُنَا أَيْضًا تُشِيرُ إِلَى مَعَانٍ أُخْرَى كَانَتْ مَعْلُومَةً مُسَبِّقًا وَهِيَ :-

(إِنَّ لِكُلِّ دَوْلَةٍ سَبَبًا ، فَكَأَنَّهُ قَالَ - عَزَّ وَجَلَّ - إِذَا كَانَتِ الْمُدَاوِلَةُ مَنُوطَةً بِالْأَعْمَالِ الَّتِي تَفْضِي إِلَيْهَا كَالاجْتِمَاعِ وَالنَّبَاتِ وَصِحَّةِ النَّظَرِ وَقُوَّةِ الْعَزِيمَةِ وَأَخَذِ الْأَهْبَةِ وَإِعْدَادِ مَا يَسْتَطَاعُ مِنَ الْقُوَّةِ فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَقُومُوا بِهَذِهِ الْأَعْمَالِ وَتَحْكُمُوهَا أَتَمَّ الْإِحْكَامِ) (٤)

-
- (١) الْبَحْرُ الْمَحِيْطُ ٦٣ / ٣ (بِتَصْرِفٍ) .
 (٢) نَفْسُهُ ٦٣ / ٣ (بِتَصْرِفٍ) .
 (٣) سُورَةُ الرَّعْدِ ، ١٧ .
 (٤) تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (الْمَنَارِ) ١٤٨ / ٤ .

وعلى هذا تكون العبارة أو المثل الكريم من إيجاز القصر في القرآن وهذا مما لا يُعهد مثله في غير القرآن الكريم (١) .

وتلك هنا مبتدأ والأَيَّامُ بدلُ منه والخبر " نَدَّأُولُهَا " .

ويمكن أن يُقال إن تلك مبتدأ وخبره الأَيَّامُ كما تقول هي الأَيَّامُ تُبلي كلَّ جديده (٢) .

وفي قوله بَيْنَ النَّاسِ - ما يُدَلُّ على أَنَّ المراد بِهَا المؤمنون وغير المؤمنيين لأنَّ من النَّاسِ من هو مؤمن ومنهم من هو غير ذلك وفي قوله (بَيْنَ النَّاسِ) احتمال النِّوعين .

وكما هو ملاحظ ان هذا المثل الكريم جاء بمثابة تذييل على ما جاء قبله في سياق الآية الكريمة (٣) .

فغلا عن التَّوافُقِ والجمالِ الصَّوتِيِّ بين ألفاظه ، مما يعكس شعوراً أكيداً بالمواساة

عند قراءته أو سماعه . وهذا ما أثلج قلوب المؤمنين عند نزول هذه الآية الكريمة .

له ما يوافقُه من كلامِ البشر :-

من الملاحظ أَنَّ المثلَ البشريَّ الموافقَ لقوله تعالى :-

" وَتِلْكَ الأَيَّامُ نَدَّأُولُهَا بَيْنَ النَّاسِ " هو قولهم :-

الأَيَّامُ دُولٌ والحربُ سَجَالٌ . (٤)

(٥)

الأَيَّامُ هنا جمع يوم وهو الزَّمنُ أو الوقتُ المعلومُ ثمَّ يستعيرونه في الأمر العظيم .

والمراد هنا أزيمة الظفر والفوز (٦) .

(١) تفسير القرآن الحكيم (المنار) ١٤٨/٤ (بتصرف) .
إيجاز القصر : هو إيراد المعاني الكثيرة في أيسر الألفاظ وأقلها دون إخلال بالمعنى ، فضلاً عنظر في ذلك علوم البلاغة للنراغي ١٨٨ (بتصرف) .

(٢) التفسير الكبير ١٥/٩ (بتصرف) .

(٣) سورة آل عمران ، ١٤٠ .

(٤) مجمع الأمثال ٣٨٠/١ (بتصرف) .

(٥) مقاييس اللغة " يوم " (بتصرف) .

(٦) تفسير القرآن الحكيم (المنار) ١٤٧/٤ (بتصرف) .

دُول : جمع مفرده الدَّوْلَةُ والدَّوْلَةُ وَيُقَالُ : (الدَّوْلَةُ فِي الْعَالِ وَالِدَّوْلَةُ فِي الْحَرْبِ ، وَإِنَّمَا سَمَّيَا بِذَلِكَ مِنْ قِيَاسِ الْبَابِ لِأَنَّهُ أَمْرٌ يَتَدَاوَلُونَهُ ، فَيَتَحَوَّلُ مِنْ هَذَا إِلَى ذَاكَ وَمِنْ ذَاكَ إِلَى هَذَا) (١) قَالَ تَعَالَى :-

”كَيْ لَا يَكُونَ دَوْلَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ“ (٢)

والحرب : اشتقاقها من الحَرْبِ وهو السَّلْبُ يُقَالُ حَرَبْتُهُ مَالَهُ أَوْ حُرْبَ مَالِهِ أَي : سَلَبْتُهُ (٣) .

وَرَجُلٌ مَحْرَبٌ : أَي شُجَاعٌ قَوُومٌ بِأَمْرِ الْحَرْبِ مِيَاشِرٌ لَهَا (٤) .

سِجَالٌ : مِنْ سَجَلِ الشَّيْءِ إِذَا انْصَبَّ بَعْدَ امْتَلَائِهِ ، وَمِنْهَا السَّجْلُ وَهُوَ الدَّلْوُ الْعَظِيمَةُ وَالْمُسَاجِلَةُ : الْمَفَاخِرَةُ .

وَتَسَاجَلُ الرَّجُلَانِ إِذَا تَنَازَعَا يَرِيدُ كُلُّ مِنْهُمَا غَلْبَةَ الْآخَرِ ، وَمَعْنَى الْحَرْبِ سِجَالٌ أَي : مِبَارَاةٌ مَرَّةً كَذَا وَمَرَّةً كَذَا (٥) .

وَقِصَّةٌ هُذَيْنِ الْمُثَلِينَ هِيَ :-

أَنَّ أَبَا سَفْيَانَ عِنْدَمَا انْتَصَرَ قَوْمُهُ فِي أَحَدٍ قَالَ (أَعْلَى هَيْبِلٌ أَعْلَى هَيْبِلٌ ، فَقَالَ بَدْرُ عُمَرَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا أَجِيبُهُ ؟ قَالَ : بَلَى يَا عُمَرَ ، قَالَ عُمَرُ : اللَّهُ أَعْلَى وَأَجْزَلٌ فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ ، يَا بَنِي الْخَطَّابِ ، إِنَّهُ يَوْمَ الصَّمْتِ يَوْمًا بِيَوْمِ بَدْرٍ ، وَإِنْ الْأَيَّامُ دُولٌ وَإِنَّ الْحَرْبَ سِجَالٌ ، فَقَالَ عُمَرُ : وَلَا سَوَاءٌ ، قَتَلْنَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتَلَكُمُ فِي النَّارِ فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ : إِنَّكُمْ لَتَزْعَمُونَ ذَلِكَ ، لَقَدْ خَبِنَا إِنْ أَنْ وَخَسِرْنَا) (٦)

(١) مَقَائِسُ اللَّغَةِ ”دَوْلٌ“ .

(٢) سُورَةُ الْحَشْرِ ، ٧ .

(٣) مَقَائِسُ اللَّغَةِ ”حَرْبٌ“ (بِتَضَرُّفٍ) .

(٤) نَفْسُهُ ”حَرْبٌ“ (بِـ) .

(٥) نَفْسُهُ ”سَجَلٌ“ (بِتَضَرُّفٍ) .

(٦) مَجْمَعُ الْأَمْثَالِ ١/ ٣٨٠ .

ولعلنا هنا نلاحظ سمو المثل القرآنيّ الكريم :-

" وَتَذَكُّرُ الْأَيَّامَ نَدَاوُلَهَا بَيْنَ النَّاسِ " على قولهم :-

الأيامُ دولٌ والحربُ سجالٌ : وذلك للبون الشاسع في بلاغة التركيب وجمال الأداة

بين المثليين .

فالمثل القرآنيّ الكريم - كما نؤكد دائماً - سام على غيره لسمو مصدره وهـذا

جانب لا خلاف فيه ، فضلاً عن بلاغة تركيبه التي تمثلت في الاستعارة التبعيه التي أشرنا

إليها من قبل (١) وفي كونه من إيجاز القصر في القرآن ، هذا فضلاً عن التواؤم الصوتيّ

بين الألفاظ والذي يوحى بمافي العبارة الجليلة من معاني المواساة والتسليه للمؤمنين

عماً أصابهم ، بينما لانجد شيئاً من ذلك في قولهم :- الأيَّامُ دولٌ والحربُ سجالٌ .

ويوافق هذا المثل القرآنيّ الكريم أيضاً أمثال وأقوال بشرية أخرى نذكر بعضها

هنا على سبيل الذكر فقط لا التحليل .

قيل :-

(الليل والنهار غرسان يثمران للبرية ضروب البلية) (٢)

(اليوم خمراً وغداً أمر) (٣)

(مرة عيش ومرة جيش) (٤)

وقال الشاعر :-

فيوم لنا وفيوم علينا * * ويوم نساءً ويوم نسر (٥)

وقولهم :-

(لكل قوم يوم) (٦)

وقولهم :-

(يأتيك كل غدٍ بمافيهِ) (٧)

(١) فضلاً راجع ص ٣٩٤ هـ من هذا البحث .

(٢) التمثيل والمحاضره ، ٢٤٤ .

(٣) كتاب الأمثال ، ٣٣٣ .

(٤) نفسه ، ٣٣٣ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٢ / ٤٦٠ ، هـ هكذا جاء البيت وصحته عروضياً :-

فيوم علينا ويوم لنا * * ويوم نساءً ويوم نسر .

(٦) التمثيل والمحاضره ، ٢٤٥ .

(٧) نفسه ، ٢٤٥ .

- (١) (الدهر بالإنسان داري) .
(٢) (الدهر يومان : حلوموم) .
رَبَّ دَهْرٍ بِكَيْتٍ مِنْهُ فَلَمَّا * * صِرْتُ فِي غَيْرِهِ بِكَيْتٍ عَلَيْهِ (٣)
الدَّهْرُ لَا يَبْقَى عَلَى حَالَةٍ * * لَكِنَّهُ يَقْبَلُ أَوْ يُدْبِرُ
فَإِنْ تَلَقَّكَ بِمَكْرُوهِهِ * * فَاصْبِرْ فَإِنَّ الدَّهْرَ لَا يَصْبِرُ .
هل الدهر إلا طرفة دونها قذى * * فأغضض قليلاً سوف : يقبلُ مُدْبِرٌ (٤)

وقولهم :-

- (٥) (مثل الدنيا كمثل رجل نام نومةً فرأى فيها ما يحب ويكره ثم انتبه)

وقولهم :-

- (٦) (من يريوماً يربيه)
(٧) (إن تعيش يوماً تر ما لم تره) وقولهم :-

وقولهم :-

- (٨) (عِشَّ رَجَبًا تَرَى عَجَبًا)
ومن يرب بالأقوام يوماً يروا به * * معرة يوم لا توارى كواكبه (٩)
هذا بعض ما قيل في معنى قوله تعالى :-

"وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ

-
- (١) أي : دارُ ربه ، التمثيل والمحاضرة ٢٤٦ .
(٢) نفسه ٢٤٧ .
(٣) نفسه ٢٤٧ .
(٤) نفسه ٢٤٨ .
(٥) نفسه ٢٤٨ .
(٦) كتاب الأمثال ٣٣٤ .
(٧) نفسه . ٣٣٤ .
(٨) مجمع الأمثال ٣٤٠ / ٢ .
(٩) كتاب الأمثال ٣٣٤ .

٦ - قال تعالى :-

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ .

أ- المعنى العام :-

ورد هذا المثل الكريم ضمن قوله تعالى :- (١)

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ .

و " ذلك " هنا إشارة إلى عذاب الحريق الذي سيلقاه اليهود يوم القيامة بما أسلفت أيديهم في حياتهم الدنيا ، وبما اجترحوه من السيئات وبما قالوه من أقوال تدل على جحودهم وعنادهم كقولهم :- إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ، - سبحانه وتعالى - عما يقطون علواً كبيراً - ، كذلك قتلهم الأنبياء بغير حق إلى آخر ما صدر عنهم من تصرفات أو أقوال بقصد الجحود والكبر على الله - عز وجل - ومن أرسلهم من الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

الأمر الذي استدعى عقابهم وتعذيبهم لأنه - جل وعلا - لا يعاقب إلا من استحق العقاب ممن أصر على كفره به وعناده لرسله - عليهم الصلاة والسلام (٢) .

ب- مناسبه في السياق :-

لقد بدت مناسبة هذا المثل الكريم لما قبله في السورة الكريمة (٣)

من خلال تحذير الله - عز وجل - للمنافقين الذين بخلوا بالجهاد بأموالهم فسي سبيل الله ، تحذيرهم من أن يظنوا عاقبة هذا البخل هي خيراً لهم كما ظنوا بسل سيطوقون بما بخلوا به يوم القيامة ، ثم بين لهم السياق الكريم أن لله ميراث السموات والأرض فلا داعي لهذا الموقف منهم في الدنيا - لأنه - عز وجل - محيط بأعمالهم خبير بها .

(١) سورة آل عمران ، ١٨٢ .

(٢) جامع البيان ٤/ ١٩٦ - ١٩٧ (بتصرف) كذلك تفسير القرآن الحكيم ٤/ ٢٦٥ (بتصرف) .

(٣) سورة آل عمران ١٨٠ - ١٨١ .

وانطلاقاً من المال والبخل يتحوّل السّياق من الحديث عن المنافقين إلى الحديث عن أولئك الذين ادّعوا أنّ الله فقير وهم الأغنياء ، كما أنّه - سبحانه - سيأمر الملائكة الموكّلة بكتابة الأعمال أن تكتب هذا ، وقتلهم الأنبياء بغير حقّ . . . ؛ فيذيقهم عذاب الحريق ، وهنا تبدد مناسبة المثل الكريم لما قبله فجاءت الإشارة فيه في قوله (ذَلِكَ) ، بمثابة تعليق وتعقيب على ما قبله ، فذكر السّياق أنّ ذلك العذاب (عذاب الحريق) إنّما هو جزاءٌ وفاق لما قدّمته أيديهم من سيّء الأعمال وما كسبته أنفسهم من قبيح الأفعال .

ثمّ نأتي هنا إلى مناسبة المثل الكريم لما بعده في سياق الآية الكريمة (١) نفسها إذ بين السّياق بعد ذلك إن هذا العذاب ليس من باب الظلم في شيء ، بل هو الحكم العدل تجاه ما فعلوه في دنياهم .

أما عن ارتباط هذا المثل بما بعده من آيات في السّياق : فيبدو في أنّ الآية التّالية له مباشرة (٢) بيّنت تعلّل أولئك المكذّبين المعاندين بأنهم لن يؤمنوا حتّى يأتيهم الرّسول الكريم - صلى الله عليه وسلّم - بقربانٍ تأكله نار نازلة من السّماء (٣) وكذّبت الآية الكريمة ما تعلّلوا به ، لأنّهم قد جاءهم رسل بالبينات من قبله - صلى الله عليه وسلّم - فكذبوهم وقتلوهم . . .

وهنا لا يتخلّى القرآن الكريم عن موااساة الرّسول - صلى الله عليه وسلّم - بذكر شأن الرّسل الذين كذبوا من قبله رغم ما جاءوا به من الدلالات والزُّبر والكتب الواضحة المنيرة (٤) .

-
- (١) سورة آل عمران ، ١٨٢ .
(٢) سورة آل عمران ، ١٨٣ .
(٣) طلبوا منه - صلى الله عليه وسلّم - قرباناً تأكله نار نازلة من السّماء ليصدّقوه في دعوته . كما حدث مع ابني آدم - فضلاً انظر الآية ٢٧ من سورة المائدة وتفسيرها .
(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٥٣٨/٢ (بتصرف) في تفسير الآيتين ١٨٣ - ١٨٤ .

ثم يلي ذلك تهديدهم بالموت الذي لن تغفلت منه أي نفس مهما عمرت والسياتي ستوفى أجرها يوم القيامة ، فان رُحِزحت عن النار وأدخلت الجنة ، فذلك هو الفوز الكبير لأن الحياة الدنيا ماهي إلا متاع زائل ونعيم مؤقت لا يلبث أن ينتهي ويزول .
وتحدثت الآية التالية - بعد ذلك - عن ابتلاء المؤمنين في أموالهم وأنفسهم وعن أذى أهل الكتاب لهم وجزاء من صبر واتقى منهم (٢) .
هذا هو ارتباط المثل بما بعده من آيات وقد بينا ارتباطه بما قبله وما بعده في سياق الآية الكريمة والله أعلم .

ج- العبرة منه :-

لعل العبرة من هذا المثل الكريم تتجلى لنا من خلال تمثنا لقصة العناد والمكابرة التي استمر فيها الكفار تجاه من أرسل إليهم من رسل على مر السنين ، وهذا المثل الكريم يجدد لنا هذه العبرة إذا تأملنا قصتهم مع الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - ومدى تكذيبهم ومماطلتهم للاستجابة له وعلم الله عز وجل بكل صغيرة وكبيرة صدرت أو تصدر عنهم على مدى الأيام وتوعد الله لهم وترى عذابه بهم مهما طال بهم الدهر واستمرت بهم السنون ، وأن ذلك العذاب ما هو إلا ثمرة عملهم ونتيجة عنادهم ومماطلتهم فزراع الشوك لا يجني إلا شوكا .

لذا وجب السمع والطاعة لكل ما جاء به القرآن وما أمرنا به الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - ثم لأولي الأمر من المسلمين ما لم يأمروا بمغصية الله عز وجل - ففي هذه الطاعة النجاة كل النجاة بعد مشيئة الله - عز وجل

(١) سورة آل عمران ١٨٥

(٢) سورة آل عمران ١٨٦

د - دراسته وتحليله بيانياً :-

لنعد هنا إلى قوله تعالى :-

* ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ * .

نلاحظ استعمال اسم الإشارة (ذَلِكَ) وهي للبعيد استعملت في السياق رغم

قرب ذكر العذاب قال تعالى :- (١)

* لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلِهِمُ
الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ، ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ
لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ * .

نقول استعملت ذلك وهي للبعيد رغم قرب ذكر (عذاب الحريق) ومما ذاك

وإلا للدلالة على صعوبة العذاب وشدته في الفطاعة (٢) .

هذا وقد أضفت بـ السببية (٣) في قوله (بِمَا قَدَّمْتُمْ) بلاغة ظاهرة فالعذاب

المنتظر إنما ^{بسببه} ما قدمته أيديهم (٤) ، ولعلنا نشعر هنا بهذه البلاغة والدقة لو تصورنا

الجملة بدونها فقلنا مثلاً (ذلك ما قدمتم أيديكم) فإن القارىء لهذه الجملة الخالية

من الباء ربما يظن أن العذاب هو نفسه ما قدمته أيديهم وليس بسبب ما قدمته أيديهم

وواضح بالطبع ما بين التعبيرين من دقة وبلغة في أداء المعنى المراد .

أما قوله (قَدَّمْتُمْ) فهو فعل أصله قَدَّمَ قال ابن فارس :-

(٥)

(القاف والدال والميم أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على سَبَقٍ وُوعِفٍ ثُمَّ يُفْرَعُ مِنْهُ مَا يُقَارِبُهُ)

يقال :-

(لفلان قدم صدق ، أي : شيء متقدم من أثر حسن) (٦)

(١) سورة آل عمران ١٨١ - ١٨٢ .

(٢) فتح القدير ١ / ٤٠٦ (بتصرف) .

(٣) القاموس المحيط ج ٤ ، باب الحروف (بتصرف) .

(٤) البحر المحيط ٣ / ١٣١ (بتصرف) .

(٥) مقاييس اللغة " قَدَّمَ " .

(٦) نفسه . " قَدَّمَ " .

وهنا تعني بما أسلفت أيديكم وفعلته مسبقاً .

(١)

و يدخل تحت هذا التعبير كل ما صدر عن الكفار من ضروب الكفر والفسوق والعصيان .

أيديكم : جمع مفردة يد وهي الجارحة وتجمع أيضاً على يدي .

وقيل : رجل يدي ، أي : صناع (٢) .

وقد عبر هنا بالجزء مع إرادة الكل أي بما قدمت أنفسكم ، وذلك لأن اليد هي

الجارحة التي تصدر عنها معظم الأفعال قال تعالى :- (٣)

"الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ" .

كما تفيد أن معظم ما عذبوا به إنما هو نتيجة لأعمالهم على الحقيقة لا على المجاز لأن

في نسبة الفعل إلى يد الفاعل إثباتاً أنه قام به حقاً أكثر مما لو أثبت إلى ضميره لأن في

إثباته إلى ضميره احتمال أن يكون قد أمر بالفعل ولم يباشره بنفسه (٤) كما جاء في

القرآن الكريم (٥) :-

"يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ" .

(٦)

والتعبير بالجزء مع إرادة الكل تعبير بليغ من باب المجاز المرسل علاقته الجزئية .

كما نلاحظ أن المثل الكريم جاء بمثابة تعقيب أو بيان لنتيجة عمل سابق ولعل

هنا بوقعه في السمع يعطي إحساساً بفوات الوقت أو ضياع الفرصة من أيديهم وكأننا

هنا أمام قوله تعالى (٧) : "قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ" أو قولهم :-

(سَبَقَ السَّيْفُ الْعُدْلُ) (٨) .

إن يدل كل منهما على فوات شيء لا يمكن استرجاعه أو مجرد تعديله .

(١) تفسير القرآن الحكيم (المنار) ٣٦٦/٤ (بتصرف) .

(٢) مقاييس اللغة "يد" . (بتصرف)

(٣) سورة يس ، ٦٥ .

(٤) تفسير القرآن الحكيم (المنار) ٢٦٦/٤ (بتصرف) كذلك البحر المحيط ٣ / ١٣١ (بتصرف)

(٥) سورة القصص ، ٤ .

(٦) المجاز المرسل : هو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملائمه ومناسبه

غير المشابهة كاليد إذا استعملت في النعمة . وللمجاز المرسل علاقات متعددة

من بينها :- الجزئية : بمعنى أن الشيء يتضمنه وغيره شيء آخر كإطلاق العين

على الربيثة أو الجاسوس لأن ما عداها لا يغني شيئاً مع فقد ما فصارت كأنها الشخص

كله . فضلاً انظر تفصيل ذلك في علوم البلاغة للمراغي ٢٥٩ .

(٧) سورة يوسف ، ٤١ .

(٨) مجمع الأمثال ٩٧/٢ .

هـ ما يوافق من كلام البشر :-

قيل إنَّ القول الموافق لهذا المثل الكريم هو قولهم :-

(يَدَاكَ أَوْكَا وَفُوكَ نَفْحٌ) (١) والمعروف أنَّ قوله يداك : هو مثقبي يــــد

وهي الجارحة المعروفة وقد سبقت الإشارة إليها (٢) .

أَوْكَا : أصلها وكا وحروفه كلها أصليته وهو فعل (يدلُّ على شدِّ شيءٍ أو شدِّدته

ومنه الوكا الذي يشدُّ به) (٣) .

(٤)
فُوكٌ : أصلها فُوهُ وهو الفم ، جاء في مقاييس اللغة :-

(الفاء والواو والهاء ، أصل صحيح يدلُّ على تَفْتِاحٍ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ الْفُوهُ : سِعَةٌ

الْفَمِ) (٥) .

وزعم آخرون أنَّ الْفُوهُ هُوَ خُرُوجُ الثَّنَائِيَا الْعُلْيَا وَطُولُهَا (٦) .

والكاف هنا للخطاب .

نَفْحٌ : النَّفْحُ : هُوَ مَا يَدُلُّ عَلَى عُلُوفِي شَيْءٍ مِنْهُ انْتَفَاحُ النَّهَارِ أَي : عِلَا ، وَنَفْحَةُ

الرَّيِّعِ : إِعْشَابُهُ لِأَنَّ الْأَرْضَ تَرْبُو فِيهِ وَتَنْتَفِخُ وَالرَّجُلُ الْمَنْفُوحُ هُوَ السَّمِينُ (٧) .

وَيُضْرَبُ هَذَا الْمَثَلُ لِمَنْ جَنَى عَلَى نَفْسِهِ أَوْ لِمَنْ أَوْقَعَ نَفْسَهُ فِي الْهَلَاكِ (٨) .

وذلك لأنَّ مناسبة هذا المثل :-

(أَنَّ رَجُلًا كَانَ فِي جَزِيرَةٍ مِنْ جَزَائِرِ الْبَحْرِ ، فَأَرَادَ أَنْ يَعْبرَ عَلَى زَقٍّ نَفْحٍ فِيهِ فَلَمْ

يُحْسِنَ إِحْكَامَهُ ، حَتَّى إِذَا تَوَسَّطَ الْبَحْرَ خَرَجَتْ مِنْهُ الرِّيحُ فَفَرَّقَ فَلَمَّا غَشِيَهُ الْمَوْتُ

اسْتَفْغَتْ بِرَجْلِهِ ، فَقَالَ لَهُ : (يَدَاكَ أَوْكَا وَفُوكَ نَفْحٌ) (٩)

(١) كتاب الأمثال ، أبو عبيد ٣٣١ .

(٢) فضلا راجع ص ٤٠٤ من هذا البحث .

(٣) مقاييس اللغة "وكا" .

(٤) نفسه "فوه" (بتصرف) .

(٥) نفسه "فوه" .

(٦) نفسه "فتوح" ، (بتصرف) .

(٧) نفسه "نفح" (بتصرف) .

(٨) مجمع الأمثال ٥١٩/٣ (بتصرف) .

(٩) نفسه ٥١٩/٣ .

هذا وكما يبدو فإنَّ المثل القرآنيَّ الكريم يسمو لمفاهيه من جوانب بلاغيَّة واضحة منها
وضوح العدل الإلهيِّ في المثل الكريم ثمَّ في مجيئ صيغة الإشارة للبعيد مع الإشارة
للقریب وفي تصدير جملة الصلَّة بحرف الجرِّ (الباء) وما أفاده هذا الحرف من جمال
وِدْقَة في المعنى ، كذلك في المجاز المرسل الواضح في قوله (أَيْدِيكُمْ) والمقصود
جميع جوارح الإنسان .

ولا يفوتنا هنا أن نشير أيضاً إلى أنَّ هذا المثل القرآنيَّ الكريم يمكن أن يكون
من إيجاز القصر في القرآن إذ أنه يحمله في كلماته كلُّ ما يمكن أن يصدر عن الكفار من
أعمال الكُفر والفُسوق والعصيان ، سواء كان ذلك قولاً أو فعلاً ، لأنَّ استعمـال
اليد هنا المراد به جميع جوارح الإنسان وليست يده فحسب ، وناهيك عما يصدر من
كلِّ جارحة من هذه الجوارح من أعمال الكُفر أو الفُسوق والعصيان . . . والله أعلم .
هذا ويمكن أن يندرج تحت هذا القول قولهم :-

(على أهلها تجني براقش) (١)

وبراقش هي كلبة لقوم من العرب ، فأغبر عليهم يوماً فاضطروا إلى الهرب ومعهم
براقش ، وكانت دائمة النَّباح فاقتفى أثرهم العدو متبعين نباح الكلبة . حتَّى هجموا
عليهم فاصطلموهم (٢) . قال حمزه بن بَيْض :- (٣)

لَمْ تَكُنْ عَنِ جِنَايَةِ لِحَقَّتِي * * لَا يَسَارِي وَلَا يَمِينِي رَمْتَنِي
بَلْ جَنَاهَا أَخٌ عَلَيَّ كَرِيمٌ * * وَعَلَى أَهْلِهَا بَرَاقْشُ تَجْنِي

وقيل أيضاً :-

(الظلم أسرع شئاً إلى تعجيل نقمة وتبديل نعمة) (٤)

-
- (١) مجمع الأمثال ٣٣٧/٢ .
(٢) نفسه ٣٣٧/٢ (بتصرُّف) كذلك وردت روايتان أخريتان عن براقش - فقيـل
إنها امرأة فضلاً انظر تفصيل ذلك المصدر المذكور ٣٣٨ .
(٣) نفسه ٣٣٧/٢ - ٣٣٨ .
(٤) التمثيل والمحاضرة ، ٤٥٢ .

ولا نظنَّ هنا أسوأ من أن يظلم الإنسان نفسه ، فيبئأى - في دنياه - عن سبيل
الرشاد ويؤدي بنفسه - في آخرته - إلى عذاب الحريق
وقولهم :-

(١) عقيمة الحاسد من نفسه (١)

(الحسدُ والنفاق والكذب أثافي الذلِّ) (٢)

وقولهم :-

(إِنَّكَ لَا تَجْنِي مِنَ الشَّوْكِ الْعِنَبِ) (٣)

وقولهم :-

(الظُّلمُ مرتعه وخيم) (٤) .

وقولهم :-

(يعدو على المرء ما يَأْتِمُرُ) (٥) .

وقولهم :-

(عاد الرَّمِيُّ على النَّزَعَةِ) (٦) .

هذا بعض ما يوافق قوله تعالى :-

" ذَلِكِ بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيكُمْ " (٧) والله أعلم .

-
- (١) التمثيل والمحاضرة ، ٤٥٢ .
(٢) نفسه . نفس الصَّفحة . والأثافي : التَّجْمَعُ .
(٣) كتاب الأمثال ، ٢٦٤ .
(٤) نفسه ، ٢٥٩ .
(٥) نفسه ، ٢٧٠ . والعدو : يدل على تجاوز في الشئ ، وتقدم لما ينبغي
أن يقتصر عليه .
وبأتمر : من الأمر وهو ضدُّ النَّهْيِ ومنها الإمرة والإمارة . فضلا عنظر في ذلك
مقاييس اللغه " أمر " .
(٦) كتاب الأمثال (٢٧) ، أي رجع على الرِّمَاءِ رميتهم .
(٧) سورة آل عمران ، ١٨٢ .

٧ - قال تعالى :-

”يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ إِن تَبَدَّ لَكُمْ تَسْوُؤُهُ“ (١)

أ- المعنى العام :-

قيل في أسباب نزول هذه الآية إِنَّ النَّاسَ قَدْ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ -

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَتَّى أَحْفَوهُ بِالسَّأَلَةِ فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ ذَاتَ يَوْمٍ ، فَقَالَ :-

(لا تسألوني عن شيء حتى بينتته لكم) (٢)

فقام إليه رجل فقال : أين مدخلي يا رسول الله قال ” النار ” فقام عبد الله بن

حذافة (٣) فقال : من أبي يا رسول الله - فقال : أبوك حذافة (فأنشأ عمر

فقال :- رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسلاً

وأعوذ بالله من سوء الفتن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :-

لم أرفى الشر والخير كالיום قط انه صورت لي الجنة والنار حتى رأيتهما وراء الحائط

وكان قتادة يذكر هذا الحديث عند ذكر هذه الآية . (٤)

وقيل نزلت بسبب سؤالهم عن الحج أفى كل عام فسكت ه - رسول الله صلى الله

عليه وسلم - فقال : أفى كل عام ؟ .

قال : لا ، ولو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت عليكم ما أطقتموه ولو تركتموه

لكفرتم ؟ فأنزل الله هذه الآية (٥)

(١) سورة المائدة ، (١٠١) .

(٢) جامع البيان ٨٠/٧ .

(٣) عبد الله بن حذافة أسلم قديماً وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية

وشهد بدرًا وكانت فيه دُعابه وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أرسله

بكتاب إلى كسرى . فضلاً انظر في ذلك الجامع لأحكام القرآن ٢٣٢٦/٣ .

(٤) جامع البيان ٨٠/٧ (بتصرف) كذلك البحر المحيط ٣٠/٤ (بتصرف) .

(٥) نفسه ٨٢/٧ (بتصرف) .

وقيل سألوا عن أمور الجاهلية التي غفا الله عنها وقيل سألوا عن البحيرة (١) والسائبة (٢) والوصيلة (٣) والحام (٤) ولذلك جاء ذكرها بعدها (٥) .
وقيل إنهم سألوا الآيات والمعجزات ، وقيل نزلت في تسهيم الفرائض وقيل :-
(لما بين سبحانه وتعالى أمر الكعبة والهدى والقلائد وأعلم أن حرمتها هو
تعالى الذي شرعها إذ هي أمور قديمة من لدن إبراهيم عليه السلام ذهب ناس من
العرب إلى السؤال عن سائر أحكام الجاهلية هل تلحق بذلك أم لا إذ كانوا قد
اعتقدوا الجميع سنة لا يفرقون بين ما هو من عند الله وما هو من تلقاء الشيطان والظاهر
من الروايات أن الأعراب ألحوا عليه بأنواع من السؤالات فزجروا عن ذلك بهذه الآية) (٦)
وقيل نزلت في حجاج اليمامة عندما أراد المسلمون الإيقاع بهم فنهبوا عن ذلك
وإن كانوا مشركين (٧) .

-
- (١) البحيرة : البعير الذي شقت أذنه شقاً واسعاً ، وهي التي يمنح درهماً للطواغيت فلا يحتلبها أحد من الناس .
(٢) السائبة : هي البعير يسبب بندر يكون على الرجل إن سلمه الله من مرض أو بلغه منزلة أن يفعل ذلك فلا تحبس عن رعي ولا ماء ولا يركبها أحد ، وقيل هي المخلاة لا قيد عليها ولا راعي لها .
(٣) (الوصيلة من الغنم إذا ولدت أنثى بعد أنثى سيئوها) وقيل إنها (الشاة) إذا . .
أتاحت عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن ليس بينهن ذكر قالوا وصلت ، فكان ما ولدت بعد ذلك للذكور منهم دون الإناث إلا أن يموت شيء منها فيشترك في أكله ذكورهم وإناثهم) .
(٤) الحام : من الإبل : كان الفحل إذا انقضض ضرابه جعلوا عليه من ريش الطواويس وسيبوه ، وقيل الحامى إذا ركب الفحل ولد ولده ويقال إذا نتج من صلبه عشرة أبطن قالوا :- حمى ظهره فلا يركب ولا يمنع من كلاء ولا ماء .
فضلاً انظر تفصيل هذه التعريفات في الجامع لأحكام القرآن ٣ / ٢٣٣٤ (بتصرف) .
(٥) البحر المحيط ٤ / ٣٠ (بتصرف) .
(٦) نفسه ٤ / ٣٠ .
(٧) نفسه ٤ / ٣٠ (بتصرف) .

ذلك ماورد في أسباب نزول الآية الكريمة ، ولعلنا هنا نميل إلى رأي الطَّبري في ذلك وهو أنَّ أولى الأقوال بالصَّواب هو أنَّ سبب نزول هذه الآية بعد سؤال السائل عن والده وكذلك بعد سؤال من سأل عن وجوب الحجِّ في كلِّ عام وذلك لتظاهر الأخبار بذلك عن الصحابة والتابعين ، ولا تستبعد أيضاً الرواية القائلة بنزول هذه الآية بعد سؤال من سأل عن البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي وذلك لورود الحديث عنها بعد ذلك في السِّياق .

ولا مانع أيضاً من أن يكون هذا سبباً من أسباب النزول وبذلك يمكن أن تكون الآية الكريمة قد نزلت لأكثر من سبب وذلك للنهي عن الأسئلة التي لا داعي منها والتي قد يتورط المسلمون فيما يسوؤهم في حال الإجابة عنها (١) .
هذا عن أسباب نزول الآية الكريمة .

أما معنى قوله تعالى :-

”يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ“ .

أي : اجتنبوا السؤال عن أمور لا حاجة لكم بها ولا هي مما يعنيكم في أمر دينكم لاسيما إذا كانت الإجابة تسيء إلى السامع أو غيره من المؤمنين كأن تكلفهم ما لا يطيقون أو توقعهم في حرج ليس بإمكانهم الخروج منه لأنَّ القرآن الكريم إنما يشرع في حدود طاقة البشر فيجمل في بعض الأمور ويفصل في الأخرى وعلى المسلمين أخذ ما أمر به الرسول الكريم - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وترك ما نهى عنه بلا مناقشة أو استفسار فقد تكشف لهم إجابة الرسول الكريم - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في عهده عن أمور لا يستطيعونها وعندها يكون الندم حيث لا ينفع الندم .
مدناسبته في السِّياق :-

لعلنا هنا ندرك ارتباط الآية الكريمة بما قبلها وما بعدها من آيات في السورة الكريمة إذا علمنا أنَّ هذه الآية جاءت ضمن الآيات التي عادت على ما سبق بيانه من أحكام (٢) ، والتي تلاها بعد ذلك الآيات التي ختمت بها السورة الجليلة

(١) جامع البيان ٨٤/٧ (بتصرف) .

(٢) سورة المائدة ٨٢ - ١٠٨ .

تلك التي بدأت بالحديث عن جميع الرسل في ذلك اليوم الموعود ، ليسألهم عن مدى استجابة الناس لهم فيجيبوه على قدر علمهم وفترة حياتهم (١) .

أما علاقة المثل الكريم بسياق الآية نفسها (٢) ، فتبدو في أنه لمانهى القرآن عن السؤال عن الأمور التي لم يجيء تفصيلها بعد إجمالها ، فقد خص بذلك التحريم الفترة التي عاشها الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - والتي كان ينزل فيها القرآن الكريم والتي عفا الله عنها ولم يفصلها رحمةً بالمؤمنين ، لذا كان الصحابة يتحرجون في الأسئلة بعد نزول هذه الآية حتى لا يكون التكليف واجباً في الوقت الذي لا تكون لديهم المقدرة على التنفيذ والطاعة .

تلك هي مناسبة المثل الكريم لمابعده في سياق الآية الكريمة - والله أعلم .

ج . العبرة منه :-

تبدو العبرة من هذا المثل الكريم من خلال تأملنا للمنهج السلوكي

الذي رسمه لنا القرآن الكريم ، فكما بيد ولنا من نص المثل الكريم :-

” يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تَبَدُّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ ” (٣) .

إن أمر عز وجل بالتأوب المطلق في طاعة الأوامر واجتناب النواهي التي جاء

بها رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم .

ولعلنا نلاحظ هنا من هذا النص الكريم الحكمة الواضحة من هذا الأمر الصريح

وهي احتمال وقوع الإساءة على السائل أو غيره من المؤمنين

وهنا بيد وحرص القرآن الكريم على مصلحة الفرد والجماعة . . . فلا يأمر

أو ينهى إلا لئلا يعود على المجتمع الإسلامي بالخير وهل هنا لك خير أعظم من

رحمة الله بعباده إن بدا النهي صريحاً عن الاستفسار عما أُجمل لئلا يكلف

المؤمنون ما لا طاقة لهم به .

(١) سورة المائدة ١٠٩ - ٢٠٢ .

(٢) نفسها ، ١٠١ .

(٣) نفسها ، ١٠١ .

لذا وجب التأدب في أخذ ماجاء به الرسول الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّه

لا ينطق عن الهوى قال تعالى :-

” مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ” (١)

ومع أنه يجب علينا الالتزام بما جاء به خير البرية - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلا أننا

يجب أن نتذكر قوله تعالى :-

” لَا يَكْفِيكَ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسَّعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ” (٢)

فالتكلفة إنما جاءت على قدر ما تتسع له قوة النفس ويبقى وراء ذلك شيء مدخر من قوة الإنسان وطاقته ليقوم بما يجب أن يقوم به من نافلة وقربى إلى الله - عز وجل - فالأوامر الإلهية إنما هي من عند من يعلم مدى قدرة الإنسان وطاقته فيكلف بقدر محدود يستطيع معه المكلف أن ينفذ ذلك المطلوب مع زيادة الطاقه لديه بحيث يمكنه أن يقوم بأشياء أخرى تزيد من حسناته (٣) .

ويطيب لنا هنا أن ننقل ما ذكره صاحب تفسير الظلال - في هذا الشأن

إن يقول :-

(لقد جاء هذا القرآن ليقرر عقيدة فحسب ، ولا يشرع شريعة فحسب

ولكن كذلك ليربي أمة ، وينشئ مجتمعا وليكون الأفراد وينشئهم على منهج عقلي

وخلق من صنعه ، وهو هنا يعلمهم أدب السؤال ، وحدود البحث ومنهج المعرفة

ومادام الله - سبحانه - هو الذي ينزل هذه الشريعة ، ويخبر بالغيب ، فمن

الأدب أن يترك العبيد لحكمته تفصيل تلك الشريعة أو إجمالها ، وأن يتركوا له كذلك

كشف هذا الغيب أو ستره وأن يققوا هم في هذه الأمور عند الحدود التي أرادها

العليم الخبير لا يشددوا على أنفسهم بتنصيب النصوص والجري وراء الاحتمالات والفروض (٤)

(١) سورة النجم ، ٢ - ٤

(٢) سورة البقرة ، ٢٨٦ .

(٣) التفسير البسيط د . حسن باجوده ١٦٤ / ٣ (بتصرف) .

(٤) في ظلال القرآن ٩٨٦ / ٢ .

ولعلنا هنا نأخذ من هذه العبرة قاعدة عامة ينبغي أن توجه سلوكنا وجميع تصرفاتنا في حياتنا العملية والاجتماعية هذه القاعدة هي ترك المرء ما لا يعنيه حتى لا يقع في مآزق قد يصعب عليه الخروج منها بعد التورط فيها لاسمح الله .
دراسته وتحليله بيانياً :-

لنعد هنا مرة أخرى إلى نص المثل الكريم :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ » (١)

نلاحظ أن الخطاب موجه للذين آمنوا بالتحديد ، وذلك لتحريك مشاعر الإيمان الطاهرة في النفوس المؤمنة وبيان أن ذلك لا يكون تنفيذه إلا من المؤمنين حقاً .
لذا جاء بعد ذلك النهي صريحاً واضحاً عن السؤال عن أشياء لم يأت القرآن بتفصيلها حتى لا يكون بعد هذا التفصيل التكليف الذي قد يؤدي إلى المشقة على المسلمين .

والملاحظ هنا أن جملة (إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ) واقعة (صفة لأشياء داعية إلى الانتهاء عن السؤال عنها) (٢) .

وذلك لاحتمال وقوع الإساءة فيما لو عرفت الإجابة عن السؤال لذا كان من البلاغة تصدير الجملة بيان الشرطية بدلاً من (إذا) مثلاً وذلك لأن الجملة الشرطية المصدرية بيان من المحتمل أن يقع شرطها ولكن ليس من المقطوع بوقوعه ودليل ذلك إجابة الرسول - صلى الله عليه وسلم - الحسنه لعبد الله بن حذافة في صحبة نسبه لأبيه وكذلك إجابته للسائل عن الحجج بما يرفع المشقة عن المسلمين (٣) .

(١) سورة المائدة ، ١٠١ .

(٢) روح المعاني ٣٩ / ٧ .

(٣) تفسير القرآن الحكيم (المنار) ١٣٠ / ٧ - ١٣١ (بتصرف) .

وبما أن البدوي يعني الظهور ظهراً بيّناً (١) ، فقد كان من البلاغة هنا مجيئاً
السياق بهذه الجملة (مُبدًى) دون سواها ، ذلك لأنَّ المسؤُول هو رسول الله
- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - والمُجيب هو نفسه عليه السَّلام بأمر من الله تعالى وبوحْيٍ
منه .

وما لاشكَّ فيه أنَّ إجابة كهذه لا بدَّ وأن تكون لها صفة الظهور البيّن لأنَّ المُشترَع
هو الله عزَّ وجلَّ والمبيّن لهذه التشريعات هو رسوله الكريم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . .
وناهيك بالله جلَّ وعلا مُشترَعاً ورسوله الكريم معلِّماً . ومبيّناً تشريعاته .

والسُّوء هو (كل ما يغمُّ الإنسان من الأمور الدنيويَّة والأخرويَّة ومن الأحـوال
النفسية والبدنية والخارجة من فوات مال وجاهٍ وفقد حميم) (٢) قال تعالى :-

" قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ " (٣) .

هذا ومن الملاحظ أيضاً ، أنَّ المثل الكريم من أسلوب الإيجاز في القرآن وهو هنا
من إيجاز الحذف في المفرد وموضع ذلك الإيجاز هو قوله :-
" لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ " .

إنَّ حُذِفَ هنا المفعول به إما لمعرفته بدلالة القرائن عليه (٤) أو لأنَّ فـي
هذا الحذف ما يدلُّ على عموم اللفظ ، أي :-

لا تسألوا الرسول أو المسؤُول في أي عصر من العصور عن أشياء قد يكون فـي
إجابتها القدر المُحدِّق بكم .

والملاحظ أيضاً مجيئاً لفظة أشياء وهي مفرد "شيء" مجيئها نكرة وفي هذا
التنكير أيضاً بلاغة واضحة هذه البلاغة هي كون المقصود هو عموم اللفظ .

(١) المفردات في غريب القرآن "بدا" (بتصريف)

(٢) نفسه "سوء" .

(٣) سورة النحل ، ٢٧ .

(٤) فضلاً انظر في ذلك التلخيص في علوم البلاغة ص ٣٢ "أحوال متعلقات الفعل" .

إن ليس المعني بالتَّحْرِيم هو السُّؤال عن بعض أمور الدِّين بل كل ما يمكن وضعه تحت باب الإساءة إلى المؤمنين من السُّؤال عما أُجمل من الأحكام الشرعية والعقائد والأسرار الخفية والآيات الكونية أو حتى الأمور الغيبية والأسرار الخفية المتعلقة بالأعراض (١) .

هـ - ما يوافق من كلام البشر :-

قيل إن ما يوافق قوله تعالى :-

” يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ ” هو قولهم :-

(كل البقلة ولا تسأل عن المبقلة) (١٢)

(و البقل : من النَّبَات مالم يس بشجر رِقِّ ولا جِلِّ و فرق ما بين البقل و رِقِّ الشجر بغلظ العود وجلته ، فإن الأمطار والرياح لا تكسر عيدانها تراها قائمة أكل ما أكمل و بقي ما بقي) (١٣) .

والمبقلة : هي الأرض .

(والمبقلة والبقالة ذات البقل) (١٤)

وقد يكون معنى المثل هو الأخذ بظواهر الأمور وعدم السُّؤال عن بواطنها وأسرارها .

فالبقل قد يسر مظهره ولكنه إن سُئل عن أرضه وكيف سمدت هذه الأرض لتخرج نباتاً طيباً قد يؤدي ذلك إلى أن تعافه النفس وتأبى أكله .

لذا ناسب هذا المثل البشري قول الله تعالى :-

” يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ ” .

(١) تفسير القرآن الحكيم (المنار) ١٣٠ / ٧ (بتصرف) .

(٢) التمثيل والمحاضر ، ١٧ .

(٣) مقاييس اللغة ” بقل ” .

(٤) نفسه ” ” ” .

ولعلنا هنا ندرك البلاغة القرآنيّة في نصّ المثل الكريم من حيث توجيه الخطاب
للذين آمنوا بالتحديد كذلك لوجود الإيجاز في قوله "لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ"
ثمّ في تنكير اللفظ "أَشْيَاءَ" وما أفاد هذا التنكير من بلاغة .
كذلك في وصف (أَشْيَاءَ) بجملة الشرط المصدرية بأن دون إذا أو غيرها لما في
ذلك من احتمال وقوع الشرط وعدم القطع بوقوعه إلى آخر ما ذكر من بلاغة في هذا
المثل الكريم (١) .

هذا ومما يوافق هذا المثل الكريم أيضاً قوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :-

" مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ " (٢)

وسئل لقمان الحكيم : أيُّ عملك أوشق في نفسك ؟

فقال :-

(تركي ما لا يعنيني) (٣)

ومن أمثال أكم بن صيفي :-

(الحزم في الأمور حفظ ما كلفتَ وترك ما كهِيتَ) (٤)

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :-

(هل يكبُّ النَّاسُ عَلَى وجوههم في النَّارِ إِحْصَاءُ أَلْسِنَتِهِمْ) (٥) .

وقيل أيضاً :-

(العقل الإصابة بالظنِّ ، ومعرفة ما لم يكن بما كان) (٦) .

(العاقل من عقل لسانه) (٧) .

-
- (١) فضلاً راجع ص ٤١٣-٤١٤ من هذا البحث .
(٢) الموطأ . للإمام مالك ٩٦/٣ ، كذلك الترغيب والترهيب ٥٤٠/٣ ، عبد العظيم
بن عبد القوي - القاهرة سنة ٩٥٤ م ، مصطفى الحلبي .
(٣) كتاب الأمثال ٢١٢ .
(٤) نفسه . ٢١٢ .
(٥) سنن ابن ماجه ١٣١٥/٢ (كتاب الفتن) .
(٦) التمثيل والمحاضر ، ٤٠٧ .
(٧) نفسه ، ٤٠٨ .

- (١) أيدي العُقُول تَسْكُ أعنةَ النَّفُوسِ عن الهَوَى (١) .
(٢) أَحْرَبِ مَنْ كَانَ عَاقِلًا أَنْ يَكُونَ عَمَلًا يَعْنِيهِ غَافِلًا (٢) .
(٣) العَقْلُ أَحْصَنُ مَعْقِلٍ (٣) .
(٤) أَعْرَفَ النَّاسَ بِاللَّهِ أَرْضَاهُمْ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ (٤) .
(٥) مَنْ رَضِيَ بِحَالِهِ اسْتَرَاحَ وَأَرَاخَ (٥) .
(٦) اللِّسَانُ سَبْعٌ صَغِيرِ الْجِرْمِ ، عَظِيمِ الْجُرْمِ (٦)
(٧) وَجَرِحَ الدَّهْرُ مَا جَرَحَ اللِّسَانُ (٧) .
(٨) مَقْتَلُ الرَّجُلِ بَيْنَ فَكَيْهِ (٨) .
- هذا بعضٌ ماجاء موافقاً لمعنى المثل الكريم ، والله أعلم ،،،،،
بالصَّواب ،،،،،

-
- (١) التَّمثِيلُ والمَحَاضِرَةُ ، ٤٠٨ .
(٢) نَفْسُهُ ، ٤٠٩ .
(٣) نَفْسُهُ ، نَفْسُ الصَّفْحَةِ .
(٤) نَفْسُهُ ، ٤١١ .
(٥) نَفْسُهُ ، نَفْسُ الصَّفْحَةِ .
(٦) نَفْسُهُ ، ٣١٢ .
(٧) نَفْسُهُ ، نَفْسُ الصَّفْحَةِ .
(٨) نَفْسُهُ ، ٣١٣ .
- ومن الأمثال العاصية المتداولة في هذا المجال ، قولهم :-
(إِذَا نُهِّتَ العَيْشُ لَا يُؤْكَلُ) . وقولهم :-
(مَنْ تَدَخَّلَ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ سَمِعَ مَا لَا يُرِضِيهِ) .

٨ - قال تعالى :-

”لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ“

أ- المعنى العام :-

ورد هذا المثل الكريم ضمن قوله تعالى :-

”وَكَذَّبَ بِهٖ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ، قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ، لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ “ (١) .

وقيل في سبب نزول هاتين الآيتين ، إنه لما نزل قوله تعالى :-

” قُلْ هُوَ الْقَابِضُ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ أَنْ يَبْسُطَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا وَيُزَيِّقَ بَعْضَكُمْ بِأَسْبَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نَصَرَفَ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ “ (٢)

قيل إنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لا ترجعوا

بعدي كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض بالسيف (٣) .

قالوا ونحن نشهد أن لا اله الا الله ، وأنت رسول الله فقال بعضهم لا يكون هذا

أبداً أن يقتل بعضنا بعضاً ونحن مسلمون فنزل قوله تعالى :-

” انظُرْ كَيْفَ نَصَرَفَ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ . وَكَذَّبَ بِهٖ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ . لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ “ .

ومعنى الآية الكريمة ان ما أخبرهم به الرسول الكريم - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من

وعد ووعد بالعذاب إنما هو واقع بهم لا محالة إن لم يتوبوا إلى بارئهم ويرتدعوا

عما هم عليه من معصية وشرك ويعبدوا الله وحده لا شريك له ، كذلك أمر - صَلَّى اللَّهُ

عليه وسلم - باخبارهم أنه ليس عليهم حفيظاً ولا رقيباً بل هو رسول أمين ليس عليه

إلا البلاغ ، ولعل الأيام ستحقق لهم هذه الأنباء ، فلكل خبر نهاية وواقع ومقر ينتهي

إليه ، ووقت يتحقق فيه وعندها سيعلمون مدى صدقة من كذبه (٤)

(١) سورة الأنعام ، ٦٦ ، ٦٧

(٢) سورة الأنعام ، ٦٥ -

(٣) لباب النقول في أسباب النزول ، السيوطي ١١٩ (بتصرف) .

(٤) جامع البيان ٢٢٧/٧ (بتصرف) كذلك تفسير ابن كثير ١٤٤/٢ (بتصرف)

كذلك تفسير القرآن الحكيم (المنار) ٥٠٢/٧ (بتصرف) .

هذا ويطيب لنا هنا أن ننقل ما كتبه صاحب تفسير الظلال من تعليق حول هذه

الآية ، ان يقول في قوله تعالى :-

” لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ” .

(إِنَّهَا الطَّمَأْنِينَةُ الْوَائِقَةُ بِالْحَقِّ ، السَّوَائِقَةُ بِنَهَايَةِ الْبَاطِلِ مَهْمَا تَبَجَّحَ ، الْوَائِقَةُ

بِأَخْذِ اللَّهِ لِلْمُكذِّبِينَ فِي الْأَجْلِ الْمَرْسُومِ ، الْوَائِقَةُ مِنْ أَنْ كُلَّ نَبِيٍّ إِلَى مُسْتَقَرٍّ ، وَكُلِّ

حَاضِرٍ إِلَى مُصِيرٍ) (١) .

حـ - مناسبتة في السِّيَاق :-

تبدو مناسبة الآية التي ورد فيها هذا المثل الكريم لما قبلها

من آيات في السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ فِي أَنَّهَا جَاءَتْ لِتُوكِّدَ وَقُوعَ نَبَأٍ سَابِقٍ وَتَقْرِيْرَهُ ، ذَلِكَ

النَّبَأُ هُوَ أَنَّ سُبْحَانَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُرْسَلَ عَلَيْهِمْ عَذَابًا يَجْهَلُونَ كَفْرَهُ مَنْ

فَوْقَهُمْ ، أَوْ يَثِيرُهُ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ أَوْ يَلْبَسُهُمْ وَيَخْلُطُهُمْ فِرْقًا شِيعًا مُخْتَلِفِينَ عَلَى

أَهْوَاءِ شَتَّى ، وَيَذِيْقُ بَعْضُهُمْ بِأَسْبَعِيٍّ وَهُوَ مَا عِنْدَهُ سُبْحَانَهُ مِنَ الشَّدَةِ وَالْمَكْرُوهِ فِى

السَّلْمِ وَالْحَرْبِ (٢) . . . نَقُولُ جَاءَتْ آيَةُ الْمَثَلِ لِتُوكِّدَ وَتَقْرِيْرَهُ هَذَا النَّبَأَ الَّذِي

كَذَّبَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . لِأَنَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ

يُرْسَلْ إِلَيْهِمْ حَافِظًا لِأَعْمَالِهِمْ فَيُجَازِيَهُمْ عَلَيْهَا وَإِنَّمَا هُوَ مُجَرَّدٌ نَذِيرٌ لَهُمْ وَمَا عَلَيْهِ

إِلَّا الْبَلَاغُ وَسَيُرُونَ مَدَى صَحَّةِ هَذَا النَّبَأِ وَنِهَايَةِ مُسْتَقَرِّهِ (٣) .

هذا عن مناسبة آية المثل لما قبلها من آيات ، أما عن مناسبة المثل لسياق الآية

الوارد فيها فكما يبدو وأنَّ ما جاء بعد ذلك في الآية ما هو إلا زيادة في التهديد

والوعيد الوارد في المثل نفسه والذي يدلُّ على تمام الثقة بما سينزل بهم إن يقول

تعالى (وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) .

(١) في ظلال القرآن ١١٢٢/٢ .

(٢) سورة الأنعام ، ٦٥ .

(٣) نفسها ، ٦٧ .

أما مناسبة آية هذا المثل لما بعده من آيات في السورة الكريمة (١) . . . فتبدو في أن ما بعده جاء لنهي الرسول الكريم - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ومن تبعه من المؤمنين - عن مجالسة المكذبين بآيات الله حتى يخوضوا في حديث غيره ، فإن أنساه الشيطان ذلك فعليه أن يتركهم حال تذكّره ، فان اضطر إلى ذلك ، فليس عليه إلا تذكيرهم فلعلهم بهذا يتركون ما هم فيه وألا يعلق قلبه بهم لأنهم أهل تعنت وقد أبسلوا أنفسهم بما كسبوا ، فلهم عذاب من حميم وعذاب أليم جزاءً لكفرهم وعنادهم (٢) . تلك هي مناسبة آية المثل لما بعده من آيات في السورة الكريمة ، والله أعلم ،،،،

ج - العبرة منه :-

تتجلى العبرة من هذا المثل الكريم من خلال تأملنا للآيات قبله تلك الآيات التي دلّت على تكذيب الكفار لما جاء به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من وعدٍ ووعد (٣) وكيف أثبت هذا المثل الكريم ماتم تكذيبه منهم بكل ثقة وتأكيد فذكر أن لكل شيء نهاية وأن لكل نبي حقيقة ووقوعاً ولعل في هذا التوكيد خير رادع عن الوقوع في الخطأ بتكذيب أو استبعاد عذاب الله عز وجل لأنه - سبحانه - يُمهّل ولا يمهّل وله في تأخير ما وعدّ به الكافرين من بالغ الحكم ما لا يمكن معرفته أو توقّعه ، لهذا وجب على كل مسلم الطاعة التامة للدّاعية مالم يأمر بمعصية أو مصلحة ذاتية مخالفة .

(١) سورة الأنعام ٦٨ - ٧٠ .

(٢) نفسها . ٦٨ - ٧٠ .

(٣) نفسها ٦٤ - ٦٦ .

د - دراسته و تحليله بيانياً :-

لدراسة هذا المثل بيانياً علينا أن نعود مرة أخرى إلى نصّ

المثل الكريم :-

"لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ ."

فالنَّبَأُ هو خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن ولا يقال للخبر نبأً

إلا إذا تضمن هذه العناصر الثلاثة (١) .

ويتضمن النبأ معنى الخبر وليس العكس .

أما الأخبار التي يمكن أن يُقال عنها أنباءً فيجب أن تتعرّى من الكذب كالتواتر

وخبر الله عز وجل وخبر النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٢) قال تعالى :-

"عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ" (٣)

"ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ" (٤)

أما قوله :-

(مُسْتَقَرٌّ) فهو من استقرّ الشيء ، إذا تمكّن (٥) وقرّ في مكانه إذا ثبت ثبوتاً

جامداً (٦) .

قال تعالى :-

"اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قُرَاراً" (٧) أي : مستقراً .

وقال في صفة الآخرة :-

"وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقُرَارِ" (٨) .

(١) المفردات "نبأ" (بتصرف) .

(٢) نفسه ، "نبأ" . (بتصرف) .

(٣) سورة النبأ ١ - ٢ .

(٤) سورة آل عمران ، ٤٤ .

(٥) مقاييس اللغة "قَرَّ" (بتصرف) .

(٦) المفردات في غريب القرآن "قَرَّ" (بتصرف) .

(٧) سورة غافر ، ٦٤ .

(٨) نفسها ، ٣٩ .

وفي صفة النَّار :-

” جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيُبَسِّسُ الْقَرَارُ ” (١) .

والمُسْتَقَرُّ : قيل (مصدر ميمي بمعنى الاستقرار وهو الثبات الذي لا تحوُّل فيــــه
واسم زمان ومكان له) (٢) .

والملاحظ أن في تقديم ” لَكَلَّ نَبَأٌ ” وهو المسند على (مُسْتَقَرُّ) وهو المُسند إليه
غرضاً بلاغياً واضحاً وهو الاهتمام بشأن المتقدم (٣) ، ولأنَّ في هذا التقديم ماسعـد
على تلاوُّم الأصوات بين الآيات الكريمة سواء في ذلك السابقات لآية المثل الكريم
أو اللاحقات بها ولعلنا لا نُنكر ما في هذا المثل من تهديد ووعيد ظاهرين ولا أدلَّ على
ذلك ممَّا جاء في خاتمة الآية من تهديد ظاهر في قوله تعالى ” وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ” (٤)
هــ ما يوافقـه من كلام البشر :-

قد قيل إنَّ القول الموافق لهذا المثل الكريم هو قولهم :-

(لَكَلَّ مَقَامٍ مَقَال) (٥) .

ولعلنا هنا نخالف هذا القول لأننا نرى أن القول البشري : الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ

يوافق إلى حدِّ كبير قول الله تعالى :-

” لَكَلَّ نَبَأٌ مُسْتَقَرُّ ” .

هو قولهم :-

(مَايَوْمٌ حَلِيمَةٌ بَسْرٌ) (٦)

-
- (١) سورة إبراهيم ، ٢٩ .
 - (٢) تفسير القرآن الحكيم (المنار) ٥٠٢ / ٧ .
 - (٣) من الأغراض البلاغية التي يتقدَّم فيها المسند إليه الإهتمام بشأن المتقدم .
 - (٤) سورة الأنعام ، ٦٧ .
 - (٥) التمثيل والمحاضر ، ١٦ .
 - (٦) مجمع الأمثال ٢٥٩ / ٣ .

(وحليمة هي حليمة بنت الحارث بن أبي شمر ، وكان أبوها قد أرسل جيشاً إلى المنذرين ماء السماء فأخرجت لهم طيباً من مكرن فطيبتهم ، وقال المبرد : هو أشهر أيام العرب ، يُقال : ارتفع في هذا اليوم من العجاج ، ما غطت عين الشمس حتى ظهرت الكواكب ، ويضرب هذا المثل في كل أمر متعالم مشهور) (١) .
والسر : خلاف الاعلان ، فإذا قيل أسرت الشيء إسراً أي : أخفيته ولم أعلنه (٢) .

ولعلنا نجد هنا الموافقة واضحة بين هذا المثل البشري وبين قوله تعالى :-
" لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ " وذلك من وجوه :-

إن النبا كما قلنا هو خبر عظيم الفائدة ، يحصل به علم أو غلبة ظن وكذلك يوم حليمة هذا قد أصبح نبأ وليس مجرد خبر لتوفر عناصر النبا فيه .
أما وجه المشابهة الآخر بينهما ، فهو ان أنباء الله عز وجل لها حقيقة ولا بد أن تقع لامحالة ، فهي بالغة من الشهرة الحد الأقصى الذي لا جدال فيه .
وكذلك المثل البشري (ما يوم حليمة بسر) - لا يضرب إلا في الأمر المتعالم - كما أشرنا - .

إلا أن قوله تعالى :-

" لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ " يسمو على قولهم :-

(ما يوم حليمة بسر) .

وذلك لتميز القرآن الكريم - كعاداته - في نظمه على غيره من الأساليب البشرية .
ولعل ذلك يبدو في هذا المثل الكريم من خلال تقديم المسند على المسند إليه في النظم مع إمكان تأخيره وصحة التعبير مع هذا التأخير .

(١) مجمع الأمثال ٢٥٩/٣ .
(٢) مقاييس اللغة " سر " (بتصرف) .

ولكننا نجد في هذا النظم المذكور "لَكَّ نَبَأٌ مَسْتَقَرٌّ" من البلاغة في أداء

المعنى المراد ما لا يمكن أن نجده في قولهم (ما يومٌ حليلةٌ بسر) .

هذا فضلاً عن التواؤم الصوتي الذي حققه لنا ذلك النظم دون غيره .

أما إذا أردنا أن نتوسع في معنى المثل القرآني الكريم إلى حدٍّ ما فإننا نصادف

(١) ما يمكن أن يوافق في قولهم :-

(لِكَّ مقام مقال و لِكَّ دهرِ رجال) (٢)

(لِكَّ حادثة حديث) .

(لِكَّ صباح صبح) (أى : كل يوم يأتي بما ينتظر فيه) (٣)

(لِكَّ عود عصاره) (٤)

وقول الشاعر :-

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً * * ويأتيك بالأخبار من لم تُزود (٥)

وقوله :-

وليس يصح في الأفهام شبيء

إذا احتاج النهار إلى دليل (٦)

(١) ومن الأمثال العامية المطابقة لهذا المثل القرآني الكريم قولهم :-

شمس تطلع خبر بيان وقولهم :-

يا خبر بجديد قال بكره بيقى ببلاش . فضلاً انظر في ذلك :-

الأمثال العامية في مصر . أحمد تيمور باشا ٥٣٥ ط ٢ سنة ١٩٥٦ ، دار الكتاب العربي بمصر .

(٢) مجمع الأمثال ١٢٣/٣ .

(٣) نفسه ٩٥/٣ .

(٤) نفسه ١٢٣/٣ أى : لِكَّ ظاهر باطن .

(٥) ديوان طرفة بن العبد ص ٤٤ ، شالون سنة ١٩٠٠ .

() ديوان المتنبي ، ٩٢/٣ .

٩ - قال تعالى :-

* أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * (١)

أ- المعنى العام :-

ورد هذا المثل ضمن قوله تعالى :-

* قَالُوا يَا لَوْطُ إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ لَنْ نَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِيًا هَلَكَ بَقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * (١)

وهي الآية التي جاءت على لسان الملائكة التي أمرت بإهلاك قوم لوط عليه السلام أولئك الذين عاشوا في الأرض فساداً وابتدعوا في زمانهم ما لم يسبقهم إليه أحد من بني آدم . قال تعالى :-

* وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ * (٢)

أولئك الذين دعاهم لوط عليه السلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له إذ أن هذا هو جوهر وجودهم وأساس مهمتهم ونهاهم عما ارتكبوه من محرمات وفواحش فما زادهم ذلك إلا فجوراً وطغياناً حتى أنزل الله بهم ما أنزله من العقوبة الصارمة كغيرهم من الأمم المكذبة المتحدية لرسله عز وجل (٣) .

أما هذه العقوبة التي أبادتهم عن آخرهم ، فكانت بواسطة الملائكة الذين جاءوا لوطاً (٤) عليه السلام في هيئة ضيوف وهم أنفسهم الذين كانوا من قبل عند

(١) سورة هود ، ٨١ .

(٢) سورة الأعراف ٨٠ ، ٨١ .

(٣) قصص الأنبياء ، أحداثها وعبرها - محمد الفقي ط (سنة ١٩٧٩ م) مكتبة وهبه . (بتصرف)

(٤) هولوط بن هاران بن تارح ابن أخي ابراهيم عليه الصلاة والسلام .

إبراهيم عليه السلام - والذين حملوا لزوجته البشري السارة في الانجاب وذكروا به ما أمرهم به الله من إهلاك قرية لوط و من فيها إذا شهد عليهم ثلاث شهادات - يستثنى من ذلك الهلاك هو عليه السلام - ومن معه من المؤمنين .

وهكذا استقبلهم - عليه السلام - ولم يعلم أحد من القرية بوجودهم، إلا أهل بيته - لخوفه عليهم من فساد قومه - بينما خرجت زوجته وأعلمتهم بمن في دارها وبجمالهم وحسنهم ، فغشوا دار لوط من كل ناحية وتسوّروا عليهم الجدران ورجاهم عدم الفضيحة وعرض عليهم الزواج من بناته (١) ولكنهم أبوا ذلك وأخذتهم العزة بالإثم وشعر لوط - عليه السلام - بما في أنفسهم ، فقال كما ذكر القرآن الكريم .

” قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ” (٢)

وجاء على لسان الرسل إجابة على ذلك قوله تعالى :-

(٣)
” يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ بِكَ وَ إِنَّمَا آتَيْنَاهُمْ عَذَابَ غَيْرِ مَرْدٍ ”
ثم مسح أحدهم أعينهم بجناحيه فطمس أبصارهم (فقالوا : سُحِرْنَا انصرفوا حتى نرجع إليه ، فكان من أمرهم ما قد قص الله تعالى في كتابه فأدخل ميكائيل وهو صاحب العذاب جناحه حتى يبلغ أسفل الأرض ، فقلبيها ، ونزلت حجارة من السماء فتبعت من لم يكن منهم في القرية حيث كانوا ، فأهلكهم الله ونجى لوطاً وأهله إلا امرأته (٤) .

وقيل : (إن امرأته سمعت صوتاً فالتفت فأصابها حجر وهي شاذة من القوم معلوم مكانها) (٥) .

(١) قيل المقصود بالبنات هنا جميع بنات القرية لأن النبي بمثابة أم لهم وقيل :

بنات اللتان من صلبه .

(٢) سورة هود ، ٨٠ .

(٣) نفسها ، ٧٦ .

(٤) جامع البيان ٩١ / ١٢ .

(٥) نفسه ٩١ / ١٢ .

قصص الأمم المكذبة قبله وتثبيته بذكر ما أصابهم . من عذاب في الدنيا قبل الآخرة بسبب إعراضهم ونفورهم عن دعوة رسلهم ، ثم كانت خاتمة السورة التي عقيبت على تلك القصص المذكورة تسلية للرسول الكريم - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عما يلقيه من قومه تجاهه (١) .
دعوته .

أما عن مناسبة هذا المثل لما جاء قبله في سياق الآية الكريمة فتبدو - كما ذكر -
(٢) المفسرون - في استبطاء لوط عليه السلام لما سيلقيه قومه من عذاب ، فذكر السياق القرآني الكريم : (إِنْ مَوْعِدُهُمْ الصُّبْحُ) ثم قرر هذا السياق الجليل قرب ذلك الموعد وأكد به بالمثل المذكور وهو قوله تعالى :-
" أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ " .

ح - العبرة منه :-

تؤخذ العبرة من هذا المثل الكريم من خلال تأملنا لقصة لوط عليه السلام الذي لاقى ملاقاه من عناد قومه ومكابرتهم والذين كانت نهايتهم هي نهاية كسل الأتقوا المكذبة لرسولها المعارضة لهم ولدعوتهم ، فالقصة كما بدا لنا من أحداثها تعلمنا الصبر على البلاء بل إن نص المثل في ذاته يعلمنا ذلك إذ يقول تعالى :-
" أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ " أبي لا تستبطئ العذاب النازل بهم واصبر لحكم الله عز وجل وكذلك تعلمنا القصة ضرورة تصديق الرسل الكرام واتباع ما أمروا به واجتناب ما نهوا عنه حتى لا يحلَّ عذاب الله تعالى بمن كذبهم ولو بعد حين .

- - -

(١) سورة هود ٢٥ - ١٠ .
(٢) تفسير ابن كثير ٤٥٥ / ٢ (بتصرف) كذلك إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٢٣٠ / ٤ (بتصرف) ، كذلك الجامع لأحكام القرآن ٣٣٠٩ / ٤ ، (بتصرف) .

> - دراسته وتحليله بيانياً :-

عند الوقوف على نصّ المثل الكريم :-

* أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * .

فأول ما يُطالعنا منه هو الاستفهام التقريريّ الذي يزيد تأكيد الموعد - موعد الهلاك - ويضفي على الأسلوب بلاغةً وجمالاً .

أما أن يُختار الصُّبْحُ دون سواه من المواقيت - لتعذيب القوم - فد (لأنه وقت الدعة والراحة فيكون حلول العذاب حينئذ أفظع ولأنه أنسب يكون ذلك عبرة للناظرين) (١) ونرى بالإضافة إلى هذا التعليل أن اختيار الصُّبْحِ هنا دون غيره جاء لأن الصُّبْحِ هو أقرب وقت لآخر الليل الذي أمر أن يسري فيه سيدنا لوط عليه السلام مع أهله .

كذلك إذا نظرنا إلى معنى اللفظة اللغويّة أدركنا مدى الجمال والبلاغة في مجيئها دون غيرها .

أما جمالها فيبدو في أن الصُّبْحِ يعني الإشراق (٢) وأما بلاغتها ، فلأن الإشراق هنا إنما يكون في نفس لوط عليه السلام ومن تبعه عند إبادة هؤلاء القوم وتدميرهم عن آخرهم ، إذ يشعر عليه السلام في تلك اللحظة - لحظة إبادتهم - بانجلاء ليله وصفاء نفسه وإشراقها بعد كدرة وغمّ كان يستبعد عليه السلام زوالهم أو يستبطئه .

أما قوله "بِقَرِيبٍ" .

فالباء هنا حرف جر شبهه بالزائد .

والقرب (يدل على خلاف البعد والقربة والقربى : القرابة والقراب مقارنة الأمر) (٣) .

(١) إرشاد العقل السليم ٤ / ٢٣٠ .

(٢) مقاييس اللغة ، "شرق" .

(٣) نفسه "قرب" .

ونلاحظ هنا أنّ مجيء حرف الجرّ الشّبيه بالزائد قبل الخبر قد ساعد على إعطاء جرس موسيقيّ متلائم مع ما جاء قبله وبعده في فواصل الآيات الكريمة، إذ كان من الممكن أن يقال (قريباً) ، ولكن مجيء هذا الحرف ساعد على هذا التّسلاؤم الصّوتيّ بين الفواصل قبلها وبعدها في السّورة الكريمة .

هذا ولا يفوتنا هنا أنّ جملة المثل في ذاتها تُعتبر بمثابة تذييل على الآية الّتي ذكّرت فيها (١) لتقوية المعنى قبله وتوكيده وهو هنا مما يجري مجرى المثل كما نرى .

هـ. ما يوافق من كلام البشر :-

لعلّ القول الموافق لهذا المثل القرآنيّ الجليل هو قولهم :-

(فَإِنْ غَدَا لِنَاظِرِهِ قَرِيبٌ) .

وهو عجز البيت الذي نُسب إلى قراد بن أجدع الذي يقول فيه :-

فَإِنْ يَكُ صَدْرُ هَذَا الْيَوْمِ وَلَسَى * * فَإِنْ غَدَا لِنَاظِرِهِ قَرِيبٌ (٢)

وعند دراسة عجز هذا البيت وهو الموافق للمثل القرآنيّ الكريم .

* أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * (٣)

غدا : من الغدوّ وجاء في مقاييس اللّغّه .

(الغين والدّال والحرف المعتل أصل صحيح يدلّ على زمان من ذلك الغدوّ ،

يقال : غدا يغدو ، والغدوة والغداة وجمع الغدوة غُدَى ، وجمع الغداة غَدَاة (٤) .

يقال : أفعل ذلك غداً وأصلها غدوا .

(١) سورة هود ، ٨١ .

(٢) التّمثيل والمحاضره هامش ص ١٦ . وقد ذكر المؤلّف أنّه منسوب في مجمع

الأمثال للشّاعر المذكور أعلاه وقد بحثنا عنه في باب الفاء ، وفي باب الهمزة

من مجمع الأمثال فلم نعثر عليه مطلقاً .

(٣) سورة هود ، ٨١ .

(٤) مقاييس اللّغّه " غَدُو " .

قال الشاعر :-

وما النَّاسُ إِلَّا كالدَّيَّارِ وأهلهم
بها حيثُ حلَّوها وُغْدًا وابلَّع (١)

(ناظره) وأصله النون والظاء والراء يرجع فروعها الى معنى واحد وهو تأمل الشيء
ومعانيته ثم يستعار ويتسع فيه ، فيقال انظر الى الشيء أو نظرت إليه أي : عاينته
ويقولون نظرتُه ، أي انتظرته أي : كأنه ينظر الى الوقت الذي يأتي فيه قال الشاعر :-
فإنكما إن تنظراني ليلة * * من الدهر ينفعني لدى أم جندب (٣)
وناظر الشيء - هنا - اسم فاعل أي : منتظره .
وإذا نظرنا الى هذا المثل البشري والى المثل القرآني الكريم - " أليس الصبح
بقریب " ، أدركنا مدى البلاغة في أداء المعنى نفسه في القرآن عن غيره من أقوال
البشر .

فلا استفهام التقريري مع النفي أعطى تأكيداً جميلاً لأنلمسه مع حرف التوكيد إن
الذي نسمعه في قول الشاعر :-

(فَإِنَّ غَدًا لِنَاظِرِهِ قَرِيبٌ) .

هذا فضلاً عن الجمال والبلاغة اللذين أشرنا إليهما في لفظة الصبح والتي ناسبت
حالة الصفاء النفسي التي سينتقل إليها - لوط عليه السلام - بعد القضاء على
قومه ونجاته مع بناته .

ومما قيل أيضاً موافقاً لهذا المعنى قول أبي العلاء في لزومياته :-

سَرِينًا وَطَالِبِنَا هَاجِرًا * * وَعِنْدَ الصَّبَاحِ حَمْدُنَا السُّرَى (٤)

وقولهم :-
عند الصبح يحمده قوم السرى * * وتنجلي عنهم غيايات الكرى (٥)

(١) ديوان لبید ٢٢ طبع قبا سنة ١٨٨٠ وسنة ١٨٨١ م .

(٢) مقاييس اللغة "نظر" (بتصرف) .

(٣) ديوان امرئ القيس ص ٧٣ ويروى : ساعة من الدهر تنفعني ، فضلاً انظر
في ذلك مقاييس اللغة "نظر" .

(٤) اللزومية الرابعة والثلاثون اللزوميات ٢٠٥/١ .

(٥) مجمع الأمثال ٣١٨/٢ قيل إن أول من قال ذلك هو خالد بن الوليد ، فضلاً

انظر قصّة ذلك في المصدر المذكور .

١٠ - قال تعالى :-

”قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ“ .

أ- المعنى العام :-

جاء هذا المثل الكريم ضمن قوله تعالى :-

”يَا صَاحِبِي السَّجْنَ أَمَا أَحَدَكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خُمْرًا وَأَمَا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ“ (١) .

وهو القول الذي جاء على لسان يوسف عليه السلام عند تفسيره للروء يا السَّجْنِي رَأَهَا كُلٌّ مِنْ رَفِيقَيْهِ فِي السَّجْنِ ، فذكر عليه السلام في تأويله لمن رأى أَنَّهُ يَعَصِرُ خُمْرًا فَيَسْقِي رَبَّهُ ، قال له إنه سيصبح ساقياً للملك .

وأول لمن رأى أن على رأسه خُبْرًا تأكل الطير منه أَنَّهُ سَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ حَتَّى قِيلَ إِنَّهُمَا عِنْدَمَا عَبَّرَ لِهَمَا عَلَيْهِ السَّلَامُ مَارَأْيَاهُ أَنْكَرَا ذَلِكَ وَقَالَا مَارَأَيْنَا شَيْئًا (٢) فقال عليه السلام كما جاء في السِّيَاق ”قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ“ (٣) .
أبي : (فرغ من الأمر الذي فيه استفتيتما ، ووجب حكم الله عليكما بالذي أخبرتكما به) .
وقيل : أتم وأحكَم مَارَأْيَاهُ وهو عبارة عن نجاة أحدهما وهلاك الآخر (٤) .

ب- مناسبه في السِّيَاق :-

تبدو مناسبة آية هذا المثل الكريم لما قبلها من آيات في السورة الكريمة لأنها جاءت ضمن قصة يوسف عليه السلام وهذا المثل ورد ضمن قصته مع رفيقيه فسقى السَّجْنَ .

-
- (١) سورة يوسف ، ٤١ .
(٢) جامع البيان ٢٢٠/١٣ (بتصرف) كذلك الكشاف ٣٢١/٢ (بتصرف) ، . .
كذلك التفسير الكبير ١٤٣/٢ (بتصرف) .
(٣) جامع البيان ٢٢٠/١٣ كذلك . تفسير ابن كثير ٤٨٠/٢ (بتصرف) .
(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٢٧٩/٤ (بتصرف) .

أما مناسبة هذا المثل لما جاء قبله في سياق الآية الوارد فيها (١) ، فهي تبدو في أنه تأكيد وتقوية لمعنى الآية كلها قبله ، إذ أنه أكد وقوع الأمر السببي استفتيا فيه على حسب ما أفتى لكل منهما .

أما مناسبة آية المثل الكريمة لمابعدها من آيات فتبدو في أن الآية التالية لها مباشرة جاءت عبارة عن تكملة لحديثه مع من ظن أنه ناج من الهلاك ليذكره عند الملك حتى يخرج من السجن في أسرع وقت ممكن لولا تدخل الشيطان في هذا وعدم تذكره له إلا بعد بضع سنين (٢) .

كذلك تبدو مناسبة آية المثل لمابعدها في سياق السورة الكريمة في أن ما جاء بعد ذلك ماهورًا لإتمام لأحداث قصة يوسف عليه السلام مع الملك ورؤياه ثم مع امرأة العزيز والنسوة ثم مع اخوته ثم قصتهم مع أبيهم وعودتهم جميعاً إلى يوسف - عليه السلام - تلك القصة التي امتدت إلى ما قبل نهاية السورة بقليل (٣) .

ثم كانت الآيات الباقيات عبارة عن تسليه ومواساة للرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - لما يراه من إغراض الناس وتكذيبهم .

ج- العبرة منه :-

تتجلى العبرة من هذا المثل الكريم من خلال تأمل القصة التي ورد فيها وهي قصة سيدنا يوسف عليه السلام مع صاحبي السجن اللذين عبر لهما يوسف عليه السلام رؤياهما .

نقول تبدو لنا العبرة من خلال تأمل هذه القصة ، إذ تعلمنا عدم المجازلة في أمر قد قضاه الله ، أو أمر به سبحانه - وتؤكد لنا أن رسل الله إنما يتصرفون بأمر منه ويرون بنوره - سبحانه وتعالى - فلامجال لرفض ما جاءوا به أو المجادلة فيما صدر عنهم من أقوال وأفعال هي مقضية مسبقاً من الله عز وجل .

(١) سورة يوسف ، ٤١ .

(٢) نفسها ، ٤٢ .

(٣) نفسها ، حتى آية رقم ١٠٠ .

(٤) نفسها ، من ١٠٠ - ١١١ .

د- دراسته وتحليله بيانياً :-

لنعد هنا مرة أخرى إلى نص المثل الكريم :-

” قَضِيَ الْأَمْرَ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ” .

فالقضاء هو فصل الأمر قولاً كان ذلك أو فعلاً وكل واحد منهما على وجهين :-

الإلهي وبشري .

فمن القول الإلهي :- (١) قوله :-

” وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا يَا ه ” (٢) .

ومن الفعل الإلهي :-

” فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ” (٣)

إشارة إلى إيجاده الإبداعي والفراغ منه .

ومن القول البشري : قضى الحاكم بشي معين

ومن الفعل البشري قولنا : قضى فلان دينه (٤) .

والفعل هنا كما يبدو مبني للمجهول أو مبني للمفعول ، إن حذف الفاعل وهو
المُسند إليه في الجملة وذلك لمعرفة بدلالة القرائن عليه ، فلو ذكر وقيل مثلاً
قضى الله الأمر الذي فيه تستفتيان لعدُّ عبثاً (٥) ولتأخرت مرتبة البلاغة فيهِ
ومن المعلوم أن القرآن الكريم جاء في أعلى مراتب البلاغة والفصاحة وذلك لتفوق الأمة
التي نزل بلغتها في هذين المجالين - هذا فضلاً عن أن جرس الكلمة هنا قد أعطى
معنى الانتهاج الحقيقي من الأمر وهذه بلاغة ولاشك في مجيئ الفعل قضى على البناء
للمفعول دون الفاعل .

(١) المفردات في غريب القرآن ” قضى ” (بتصرف) .

(٢) سورة الإسراء ، ٢٣ .

(٣) سورة فصلت ، ١٢ .

(٤) المفردات في غريب القرآن ” قضى ” (بتصرف) .

(٥) قد يحذف المسند إليه لأسباب بلاغية منها هذا السبب وهو دلالة القرائن عليه

فضلاً انظر تفصيل ذلك في التلخيص في علوم البلاغة ، ٥٣ .

والأمر : هو الشأن وجمعه أمور من الفعل أمرته أمراً إذا كلفته أن يفعل شيئاً وهو لفظ عام للأفعال والأقوال كلها (١) وعلى ذلك قوله تعالى :-
"وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ" (٢) .

أما أن تأتي لفظة (الأمر) مفردة هنا وقد استفتياه في أمرين ، فقد ذكر الزمخشري أن (المراد بالأمر هنا ما اتهم به من سم الملك و ما سجننا من أجله و ظننا أن ما رأياه في معنى ما نزل بهما ، فكأنهما كانا يستفتيانه في الأمر الذي نزل بهما أعاقبته نجاة أم هلاك فقال لهما (قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ) (٣) .
وقد وافق الزمخشري على ذلك أيضاً أبو حيان في البحر المحيط (٤) .

أما قوله تستفتيان فهي من الفعل (قَتَى) وهو ما يدل على تبين الحكم يقال : أفتى الفقيه في المسألة إذا بين حكمها ، واستفتى الرجل أي سأل عن الحكم ، والاسم منها فتوى وفتياً (٥) .

ولعل البلاغة هنا تبد وفي إجابة نبي الله يوسف عليه السلام عن سؤال رثما خطر في بالهما فسبقهما بالإجابة عليه .

هذا السؤال يتعلق بتأويل الرؤيا التي رآها كل منهما هل كانت إجابته قطعية أم ظنية ؟ وهل يجوز غيرها ومتى تكون ؟ .

فأجابهما مسبقاً عن كل ذلك أن الأمر الذي يشكل عليكما ويهكمما وتستفتيانني فيه قد قُضِيَ وبت فيه وانتهى حكمه (٦) .

والمثل كما يبدو وهو بمثابة تذييل على الآية قبله (٧) وهو مما يجري مجرى المثل .

(١) المفردات في غريب القرآن " أمر " (بتصرف) .

(٢) سورة هود ، ١٢٣ .

(٣) الكشاف ٢ / ٣٢٢ .

(٤) البحر المحيط ٥ / ٣١١ (بتصرف) .

(٥) مقاييس اللغة " قتي " (بتصرف) .

(٦) تفسير القرآن الحكيم (المنار) ١٢ / ٣١٢ (بتصرف) .

(٧) سورة يوسف ، ٤١ .

٥ - ما يوافق من كلام البشر :-

لعلنا عند قراءة هذا المثل القرآني الكريم نتذكر القول البشري

القاتل :

(سبق السيف العذل) (١)

(سبق) (السين والباء والقاف أصل واحد صحيح يدل على التقديم ومصدره

سَبَقًا) (٢) .

السيف : فقد سُمي بذلك لا متداده لأنَّ السَّيْن والْبَاء والغَاء أصل يدلُّ على امتدادٍ في شيءٍ وطُول (٣) .

والعذل : اسم يدلُّ على حرٍّ وشدة يُقال عذَل فلان فلاناً - وهذا الفعل منه

عَذَلٌ وذلك لعافيه من شدةٍ ومسِّ لذعٍ (٤) قال الشاعر :-

عَدَّتْ عَذَا لِنَابِي فَقَلَّتْ مَهْلًا * * أَفِي وَجَدِي بِسَلْمِي تَعْدَلَانِي .

هذا هو المعنى اللغوي لألفاظ المثل ومعناه سبق الشرُّ الخيرُ ، ويقال إنَّ هذا

المثل قاله ضبة بن أدَّ عندما لامه النَّاس على قتله قاتل ابنه في الحرم .

وقد قيل : إنَّ هذا القول لخزيم بن نوفل الهمداني (٥) .

وما يوافق هذا القول أيضاً قولهم :-

(سَبَقَتْ دَرَّتُهُ غِرَارُهُ) (٦)

والدرة : كثرة اللبن والغرار : قلته ، أي : سبقت قلة اللبن كثرتُه بمعنى سبق

شرُّه خيره (٧) .

كذلك يوافق المثل القرآني قولهم :-

(سبق سيله مطره) (٨)

(١) مجمع الأمثال ٩٢/٢ كذلك ٣٥٢/١ .

(٢) مقاييس اللغة " سبق " .

(٣) نفسه " سيف " (بتصرف) .

(٤) نفسه " عذل " (بتصرف) .

(٥) مجمع الأمثال ٩٧/٢ .

(٦) كتاب الأمثال ٣٠٥ .

(٧) نفسه ٣٠٥ (بتصرف) .

(٨) نفسه ٣٠٥ .

وبالنظر إلى قوله تعالى :-

”قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ“ .

وقولهم :-

(سَبَقَ السَّيْفُ الْعِذْلَ) .

أدركنا هذا البَونَ الشَّاسِعَ في أداء المعنى ، فمعنى المثل القرآنيّ الجليل - كما رأينا - ليس فيه أي سبق للشَّرِّ على الخير ، لأنَّ قضاء الله - عزَّ وجلَّ - ليس شراً على أيَّة حال ، هذا فضلاً عن سهولة اللَّفظ وجمال العبارة في ذاتها - مع ما أشرنا إليه (١) من بلاغة في حذف المسند إليه كذلك في موقع المثل بالنسبة إلى الآية قبله إنَّه عبارة عن تذييل على الآية قبله بحكم ذلك الموقعِ مَّا زاد المعنى قبله تقويةً وتوكيداً .

والله أعلم

(١) فضلاً راجع ص ٤٣٤ من هذا البحث .

١١ - قال تعالى :-

”الآن حَصَّصَ الْحَقُّ“ .

أ- المعنى العام :-

ورد هذا المثل ضمن قوله تعالى :- (١)

” قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَأَوْتَنِي يَوسُفَ عَنِ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَا لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ
قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَأَوْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ “ .

وهذه هي الآية التي تحكي قصة براءة سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام - الذي
رمته امرأة العزيز بما لم يكن فيه (٢) والتي اعترفت فيما بعد بطهره و عفاه ، فجاءت
الآية الكريمة مبيّنة ذلك في قوله تعالى :-

”الآن حَصَّصَ الْحَقُّ“ .

(٣)

أي : (الآن تبين الحق وظهر وبرز)

أو : (الآن تبين الحق وانكشف فظهر) (٤)

وقد قيل :-

(وقد كان اعتراف النسوة أمامها السابق لاعترافها ، بمثابة الشرارة الأولى التي
فجرت الصّير يقظة ، والنفس شجاعة) (٥) فكان منها ذلك الاعتراف الخطير وهذا
من - غير شك - لطف من الله بيوسف - عليه السلام - لأن إقرار المسبب على نفسه
أقوى من شهادة الشهود ، لذا أراد الله - سبحانه وتعالى - أن يثبت براءة سيدنا
يوسف عليه السلام بالشهادة والإقرار معاً حتى لا يكون هناك مجال للشك فيها (٦) .

(١) سورة يوسف ، ٥١ .

(٢) سبقت الإشارة إلى قصة يوسف عليه الصلاة والسلام مع امرأة العزيز ، فضلاً

راجع ص ٣١١ من هذا البحث .

(٣) تفسير ابن كثير ٢ / ٤٨٢ .

(٤) جامع البيان ٢ / ٢٣٦ .

(٥) الوحده الموضوعية في سورة يوسف . د . حسن باجوده . ٠٦ ط ٢ سنة ١٩٨٣ م .

تهامه . جده .

(٦) الجامع لأحكام القرآن ٤ / ٣٤٣٦ - ٣٤٣٧ (بتصرف) .

ب - مناسبتة في السّاق :-

بيد وأنّ مناسبة آية هذا المثل لما قبلها من آيات في السّورة الكريمة في أنّ بداية السّورة قد تحدّثت عن القرآن الكريم وأنّه منزل بلسان عربيّ ليعقله الناس ويفهموه وأنّه يقصُّ أحسن القصص التي لم يعلمها من قبل نبينا الكريم - صلّى الله عليه وسلّم (١) ومن هذه القصص قصة سيّدنا يوسف عليه الصّلاة والسّلام مع إخوته ومع زوجة العزيز والتي سبق الإشارة إليها (٢) .

فآية المثل كما يبدو ولها ارتباط بما قبلها من آيات في السّورة ان تحدّثت عن تجربة يوسف - عليه السّلام - المبررة مع امرأة العزيز ومع النسوة ومع رجال السّلطة الذين بدا لهم أن يسجنوا يوسف عليه السّلام حتّى تهدأ الشّائعات ، وشاءت ارادة الله تعالى أن يبقى يوسف في السّجن بضع سنين كما شاءت أن يرى ملك مصر رؤيا عجز الجميع عن تعبیرها وهنا يتدخّل السّاق ، رفيق يوسف في السّجن والذي بشره يوسف بنجاته وعودته ساقياً للملك ويعلمن على الملأ " أَنَا أُبْعِثُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ " .

وبسبب تعبیر الرؤيا يطلب الملك يوسف - عليه السّلام - الذي يصرّ على ثبوت براءته أولاً ، وتمّ ذلك على لسان النسوة وعلى لسان امرأة العزيز مادة المشمل " الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصّٰرِقِينَ " .

أما ارتباط المثل بما بعده فيكفي أن يعرف أنّه ترتّب على اعتراف امرأة العزيز أن قرّر الملك استخلاص يوسف - عليه السّلام - لنفسه بسبب أمانته وعلمه وبذلك أصبح يوسف عزيز مصر وجاءه اخوة ثلاث مرّات وفي المرّة الثالثة كشف لهم عن حقيقة نفسه ثم تحوّل آل يعقوب من الشّام إلى مصر . (٣)

(١) سورة يوسف ١ - ٣ .

(٢) فضلاً راجع ص ٣١ - ٣١١ من هذا البحث .

(٣) سورة يوسف ٤ - ١٠١ (بتصرّف) .

ج - العبرة منه :-

تبدو العبرة من هذا المثل الكريم من خلال تأمل القصة التي ورد فيها وهي قصة سيدنا يوسف - عليه السلام - مع امرأة العزيز - التي راودته عن نفسه فاستعصم واتهمته بالفدر والخيانة فصر على السجن والعذاب حتى أظهر الله براءته بعد طول صبر وانتظار .

تلك العبرة التي تتجلى في شهادة النسوة ببراءة سيدنا يوسف - عليه الصلاة والسلام - هذه الشهادة التي أيقظت ضمير امرأة العزيز ، فاعترفت بالحقيقة المخفية خلف ستار الظلم والمكربض سنين . . هذه المدة التي كان من الممكن أن يتسرب اليأس خلالها إلى نفس المظلوم لولا شدة ارتباطه ببارئته عز وجل وثقته به . ولعل ظهور الحق بهذا الوضوح والجلالة ، عبرة في ذاته بل هو عبرة للمظلوم وعبرة للظالم أيضاً .

أما عبرة المظلوم ، فتبدو في إعطائه الأمل وعدم القنوط من رحمة الله مهما طال الأمد ودارت به الدوائر ، إذ لا بد من انتصار الحق مادامت الثقة بالله قوية متينة . وأما عبرة الظالم منه فهي ضرورة محاسبة النفس وإيقاظ الضمير والاعتراف بالخطيئة لأن الرجوع في الحق خير من التماهي في الباطل فقد يغفر - سبحانه - للمسيء إذا اعترف بها واستغفر لربها - وهذا أكرم له ما لو ظهر الحق وحده - ولا بد أن يظهر - وعندها تعظم فضيحتة وربما تضاعف عقابه .

د - دراسته و تحليله بيانياً :-

لنعد هنا إلى نصّ المثل الكريم - قال تعالى :-

• الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ •

جاء في مفردات الراغب :-

إن الآن هو : (كلُّ زمانٍ مقدَّر بين زمانين ماضٍ ومستقبل نحو أنا الآن أفعل كذا ، وخصَّ بالألف واللام المعرفَ بهما ولزماه) (١) .

أما قولهم هذا أو أن ذلك أي : (زمانه المختصُّ به وبفعله) (٢) .

وفي اللسان (أن الشيء أيناً حان) (٣) .

وأن لك أن تفعل كذا يئين أيناً أي : حان (٤)

وقالوا (الآن فجعلوه اسماً لزمان الحال ثمَّ وصفوا للتوسُّع فقالوا الآن أفعل كذا

وكذا والألف واللام فيه زائدة لأنَّ الاسم معرفة بغيرهما وإنما هو معرفة بلام أخرى مقدَّرة غير هذه الظاهرة ابن سيده) (٥)

كذلك هذا الرأي لابن جنِّي (٦)

وذكر الجوهري أن الآن اسم للوقت الذي طانت فيه وهو ظرف غير متمكَّن وقس

معرفة ولم تدخل عليه الألف واللام للتعريف (٧) ، وقد قيل بإعرابه أو بناؤه (٨)

كما قيل إنَّ الآن في هذه الآية جاء لتدلَّ على زمان تكلمها بهذا الكلام

لا زمان شهادتهن (٩) ، إلا أننا لانرى ذلك لأنَّ الآن، إنما تدلُّ على الزمن الحاضر

(١) المفردات في غريب القرآن " أين " .

(٢) نفسه " أين " .

(٣) اللسان " أين " .

(٤) نفسه " أين " .

(٥) نفسه " أين " .

(٦) نفسه " أين " (بتصرف) .

(٧) نفسه " أين " (بتصرف) .

(٨) نقل هذا الخلاف الألويسي في روح المعاني ٢ / ١٢٠ / ٢٦٠ .

(٩) نفسه (بتصرف) - كذلك إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٤ / ٢٨٥

(بتصرف) .

وهو زمن شهادتهن ببراءة يوسف عليه السلام - وكما جاء في الوحده الموضوعية في سورة يوسف وهي (تبدأ حديثها بقولها " الآن " فكأنها تفصل بهذا الابتداء بين فترتين ، تتميز ثانيتهما بما ليس في الأولى ، وهذا الذي تتميز به الثانية هو الحق الذي تبين بعد طول خفاء) (١) .

أما قوله (حَصَّحَ) ، فأصلها حَصَّ يَعْنِي هُنَا الْوُضُوحُ جَاءَ فِي مَقَائِيسِ اللَّغَةِ :-
(قَوْلُهُمْ حَصَّحَ الشَّيْءَ : وَضَحَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :-
" الْآنَ حَصَّحَ الْحَقُّ "

وَمِنْ هَذَا الْحَصَّحَةِ تَحْرِيكُ الشَّيْءِ حَتَّى يَسْتَمَكْنَ وَيَسْتَقِرَّ (٢)
وَقِيلَ : حَصَّحَ الْحَقُّ أَي : وَضَحَ بِانْكَشَافِ مَا يَقْبِرُهُ وَحَصَّ وَحَصَّحَ نَحْوَ كَوَفَّ
وَكَهَكَفَ وَكَبَّ وَكَبَّكَ .

وَقِيلَ هُوَ مَا خُوذَ مِنَ الْحِصَّةِ وَهِيَ النَّصِيبُ (٣) أَي : (تَبْيِينُ حِصَّةِ الْحَقِّ مِنْ
حِصَّةِ الْبَاطِلِ كَمَا تَبْيِينُ حِصَصِ الْأَرْضِ) (٤) .
وَنَرَى هُنَا أَنَّ جَرَسَ اللَّفْظِ قَدْ دَلَّ عَلَى مَعْنَاهُ فِي الْجُمْلَةِ بَلْ كَأَنَّهَا عِنْدَ سَمَاعِ هَذَا
الْفِعْلِ (حَصَّحَ) - نَرَى الْحَقَّ وَكَأَنَّهُ شَيْءٌ مَغْمُورٌ فِي التُّرَابِ يَحْرُكُ مَا فَوْقَهُ وَيَزْحَزِجُهُ
حَتَّى يَكْشِفَ عَنِ نَفْسِهِ وَيُبَيِّنَ .

أَمَّا لَفْظَةُ " الْحَقُّ " فَأَصْلُ الْحَقِّ (هُوَ الْمَطَابِقَةُ وَالْمُوَافَقَةُ) (٥)

قِيلَ :-

(٦) (الْحَاءُ وَالْقَافُ أَصْلُ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى إِحْكَامِ الشَّيْءِ وَصَحَّتْ وَهُوَ نَقِيضُ الْبَاطِلِ) .

(١) الْوَحْدَةُ الْمَوْضُوعِيَّةُ فِي سُورَةِ يُوسُفَ ، ١٠٣ .

(٢) مَقَائِيسُ اللَّغَةِ ، " حَصَّحَ " .

(٣) نَفْسُهُ . " حَصَّحَ " .

(٤) إِرْشَادُ الْعَقْلِ السَّلِيمِ إِلَى مَزَايَا الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ٢٨٤ / ٤ .

(٥) الْمَفْرُودَاتُ فِي غَرِيبِ الْقُرْآنِ لِلرَّاعِبِ " حَقُّ " .

(٦) مَقَائِيسُ اللَّغَةِ " حَقُّ " .

هذا عن دراسة الألفاظ في المثل الكريم ، أما جملة كاملة فهي بمثابة تذييل على ما قبلها وهو مما يجري مجرى المثل كما نلاحظ (١) .

هو ما يوافق من كلام البشر :-

لعل القول الموافق لهذا المثل القرآني الكريم هو قولهم :-

(بَيْنَ الصَّبْحِ لَذِي عَيْنَيْنِ) (٢) .

(بَيْنَ من أَبَانَ الشَّيْءَ ، وَأَبَانَ إِذَا اتَّضَحَ وانكشف ، وفلان أْبِينُ من فلانِ أَي : أَوْضَحَ

كلاماً مِنْهُ) (٣) .

أما الصَّبْحُ فقد سُمِّيَ بهذا الاسم لِحُمْرَتِهِ ، كما سُمِّيَ المِصْبَاحُ مِصْبَاحاً لِحُمْرَتِهِ .

والصَّبَاحُ هو نُورُ النَّهَارِ وهذا هو الأَصْلُ ثُمَّ يَفْرَعُ (٤) .

والعَيْنَانِ : مَثْنَى عَيْنٍ وهو (عَضُوٌّ يَهْضُرُ بِهِ وَيُنْظَرُ ثُمَّ يَشْتَقُّ مِنْهُ) (٥) .

وبَيْنَ هنا فيها تَضْعِيفٌ يَدُلُّ عَلَى كَثْرَةِ المَبَالِغَةِ فِي شِدَّةِ الوُضُوحِ وَالظُّهُورِ .

هذا ويسمى المثل القرآني الكريم " الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ " على غيره لمافيه من بلاغة

واضحة في مجيئها جملة (حَصْحَصَ) التي دلت بجرسها على معناها .

هذا فضلاً من وقوع المثل بمثابة تذييل على ما سبقه في سياق الآية الكريمة

ان قال تعالى :-

" قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَأَوْتَنِي يَوْسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَأَوْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ " (٦)

(١) سبقت الإشارة الى معنى التذييل وهو اتباع الجملة بجملة أخرى تفيد المعنى

الأول تقوية وتوكيداً ومنه ما يجري مجرى المثل - أو مما لا يجري مجرى المثل .

(٢) مقاييس اللغة " عَيْنٌ " .

(٣) نفسه " بَيْنَ " .

(٤) نفسه " صَبَحَ " (بتصرف) .

(٥) نفسه " عَيْنٌ " .

(٦) سورة يوسف ، ٥١ .

فالمثل كما نرى جاء لتقوية المعنى قبله وتوكيده .
ومما يوافق هذا المثل القرآني الكريم أيضاً قولهم :-

(الحقُّ أبلجٌ) (١) والباطل كَجَلجٌ (٢)

وقول الشاعر :-

ألم تر أن الحق تلقاه أبلجاً
وأنت تلقى باطل القوم لجلجاً (٣)

وقيل :-

(للحق دولةٌ وللباطل جولةٌ) (٤)

وقول الشاعر :-

أنعم ولذَّ قبالاً موراً وأخيراً
أبدأ . إذا كانت لهنَّ أوائلٌ (٥)

فإذا كان أول الأمر هو ظلم يوسف عليه السلام واختفاء حقيقة طهره وعفافه
خلف ستار الظلم والمكر ، فإن آخر الأمر هو انتصار يوسف عليه السلام وظهور الحق
بوضوح .

(١) البلج هو ظهور الشيء أو وضوحه وإشراقه . فضلاً أنظر في ذلك مقاييس اللغة

"بلج" .

(٢) لج الشيء : إذا تردد بعضه على بعض . نفسه "لج" .

(٣) مقاييس اللغة "بلج" .

(٤) التمثيل والمحاضرة ، ٣٢٨ .

(٥) ديوان المتنبي ٢٥٣/٣ .

١٢ - قال تعالى :-

• وَلَا يَنْبَغُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ • (١) .

أ- المعنى العام :-

ورد هذا المثل الكريم ضمن قوله تعالى :-

• اِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ
بِشْرِكِكُمْ وَلَا يَنْبَغُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ • (٢)

ومعنى المثل الكريم أى : لا يخبرك بالأمر يا محمد - صلى الله عليه وسلم -

إلا من هو خبير به عالم بكنهه وحقيقته ، ولا تكون هذه الخبرة إلا للحق - سبحانه -
وتعالى - الذي يعلم كل شيء * ويعلم عن الهمة هؤلاء * ، وبما كان وسيكون من شأنهم

مع الهتهم يوم القيامة حين تتبرأ هذه الالهة منهم وتجدهم (٣)

ب- مناسبتة في السياق :-

من خلال قراءتنا للآيات السابقات لآية المثل الكريمة تبدولنا

مناسبتها لما قبلها في سياق السورة الكريمة ، إذ أن هذه الآيات قد تحدثت عن

قدرة الله عز وجل وسيطرته على ملكوت السموات والأرض يستوي في ذلك الملائكة

أو الناس وغيرهما ، كما تحدثت عن علم الله تعالى المطلق وعن بعض مظاهر ذلك

العلم (٤) .

وبيّن السياق الكريم نعمة الله عز وجل على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم

إذ هو أحد خلقه فيخفف عنه ما وجدته من تكذيب وعناد قومه له ، فيذكر له ما حدثت

لرسل قبله ، ولعل من نعم الله تعالى أن يأتي هذا التأكيد على البعث واليوم

الآخر ، لذا وجب العمل الطيب والإعداد له وعدم متابعة الشيطان لأنه يأخذ حزينه

إلى النار ويئس المصير (٥) .

(١) سورة فاطر ، ١٤ .

(٢) نفس السورة والآية .

(٣) إرشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم ١٤٨/٧ (بتصرف) كذلك :

جامع البيان ١٢٦/٢٢ (بتصرف) .

(٤) سورة فاطر ١ - ٣ .

(٥) سورة فاطر ٤ - ٦ .

والسِّيَاق - على عادته - يبيِّن جزاء كلِّ من الفريقيْن الذين كفروا وأطاعوا الشَّيْطَانَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَخَشَعُوا لِلرَّحْمَنِ - عزَّ وَجَلَّ - لذا نهى السِّيَاق الكَرِيم - مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عن الحسرة على أمثال هؤلاء لأنَّ اللَّهَ - عزَّ وَجَلَّ - أعلم بأفعالهم وبما يستحقونه من جزاء تلك الأفعال (١) .

وهكذا يستمرُّ السِّيَاق في تعداد نعمه - عزَّ وَجَلَّ - على خلقه إلى أن يؤكِّد أنَّ الملك له وحده سبحانه ، لذا استحقَّ العِبَادَةُ دون غيره (٢) وهنا تأتي مناسبة آية المثل لما قبلها في سياق السُّورَةِ الكريمة ، إن تبيَّن هذه الآية عدم سماع هؤلاء الأَكهبة للدُّعَاء أو الاستجابة لما يسمعون إن صحَّ لهم السَّمْع ، هذا فضلاً عن كفرهم بمن أشرك وتبرَّأهم ممن اتبعهم ...

ولعلَّنا هنا نصل إلى مناسبة المثل الكَرِيم لِلآيَةِ الشَّرِيفَةِ ، إن يبيِّن أنَّ لأحدٍ يَخْتَصُّ بِهَذِهِ الْخِبْرَةَ الشَّامِلَةَ الْوَاسِعَةَ عَنْ أَحْوَالِ هَؤُلَاءِ الْاَكهبة - سواء عزَّ وَجَلَّ - وعمَّا كان أو سيكون من شأنهم يوم القيامة مع من اتبعهم وسار على دربهم وخطاهم . (٣) أمَّا مناسبة آية المثل الكريمة لمابعدها في سياق السُّورَةِ فيبدو أنَّ ما جاء بعهد ذلك أيضاً عبارة عن نداءٍ موجَّهٍ إلى كافَّة النَّاسِ لِلرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ عزَّ وَجَلَّ بِفكرهم (٤) وقلبيهم وذلك لِغِنَاهُ - سبحانه - عنهم وفقرهم إليه وقدرته على كلِّ شيءٍ بلا استثناء . ثمَّ يعود الحديث لمابدأ عن مظاهر قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعِلْمِهِ ...

ج- العبرة منه :-

لعلَّ العبرة من هذا المثل الكَرِيم تَبْدُو مِنْ خِلَالِ تَأْمُنِ لِنَصِّ الْمَثَلِ بِصِفَةِ

عَامَّةٍ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى :-

” وَلَا يَنْبَغُ لَكَ مِثْلُ خَيْرٍ ” .

(١) سورة فاطر ٦ - ٨ .

(٢) سورة فاطر ٩ - ١٣ .

(٣) سورة فاطر ، ١٤ .

(٤) سورة فاطر ، ١٥ - ١٧ .

فقد أشار هذا النصُّ الكريمُ إلى حقيقة يعترف بها العامة (١) والخاصة ممن
النَّاس وهي أنَّ على من يريد أن يتحقَّق من أمر من الأمور فعليه أن يسأل ذوي الخبرة
فيه لعلمهم بحقيقته وكنهه .

نقول نأخذ هذه العبرة من خلال فهمنا للمثل الكريم بصِفَة عامَّة ، أما إذا حاولنا
إدراك هذه العبرة من خلال مناسبة المثل لسياق الآية الوارد فيها - إذا حاولنا
ذلك - علمنا أنَّ الله - عزَّ وجلَّ - لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء سواء
كان ذلك عاجلاً أو آجلاً لذا وجب الأخذ بما أتى به الوحي الشريف بلا تردُّد أو مناقشه .
لأنَّه قول من لدن حكيم لا يخفى عليه شيء - جلَّ وعلا .

.. ..

(١) كما يقول العامة : اسأل مجرب ولا تسأل طبيب .

د- دراسته وتحليله بيانياً :-

لدراسة هذا المثل بيانياً علينا أن نعود مرة أخرى إلى نصِّ

المثل الكريم قال تعالى :- (١)

* وَلَا يَنْبُتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ *

لقد سبقت الإشارة إلى معنى الخبر والنَّبأ وبيَّنا لنا أن الخبر لا يكون نبأً إلا إذا -

كان ذا فائدة عظيمة ويحصل به علم أو غلبة ظنَّ (٢) .

والمِثْلُ : أصلها الميم والثاء واللام (وهو أصل صحيح يدلُّ على مناظرة الشَّيْءِ

للشَّيْءِ ، وهذا مثل هذا ، أي : نظيره ، والمِثْلُ والمِثَالُ في معنى واحد وريِّمًا

قالوا مثل كسبيته (٣) .

وخبير : من الخَبَرِ : (وهو العلم بالأشياء المعلومه من جهة الخبر) (٤) ،

(والخَبْرُ : هو العلم بالشَّيْءِ ، نقول : لى بفلان خِبْرَةٌ وخِبْرَةٌ) (٥) .

والخبير هنا هو الله سبحانه وتعالى لعلمه ببواطن الأمور كلها (٦) .

وبما كان وسيكون (٧) .

يقال رجل خابِرٌ وخَبِيرٌ أي : عالمٌ . والخبير هو المُخْبِرُ (٨) لعلمه بالأشياء وهي

صيغة مبالغة على وزن فَعِيلٍ .

ولعلَّ عجز المثل هنا يناسب صدره في المبالغة .

-
- (١) سورة فاطر ، ١٤ .
 - (٢) المفردات في غريب القرآن " نبأ " (بتصرف) .
 - (٣) مقاييس اللغة " مثل " .
 - (٤) المفردات في غريب القرآن " خبر " .
 - (٥) مقاييس اللغة " خبر " .
 - (٦) المفردات في غريب القرآن " خبر " (بتصرف) كذلك مقاييس اللغة " خَبِرَ " (بتصرف) .
 - (٧) تاج العروس " خَبِرَ " (بتصرف) .
 - (٨) نفسه " خَبِرَ " (بتصرف) .

فكما نلاحظ أن جملة (يُنَبِّئُكَ) جاءت بصيغة المضارع المضعف العين ، إذ الأصل فيها يُنَبِّئُكَ بدون تضعيف لعيني الفعل وهو حرف الباء ، أما بتضعيف العين فنلاحظ مبالغة واضحة في الإنهاء ، هذه المبالغة تناسب تماماً صيغة المبالغة في قوله (خَبِير) .

قال تعالى في سورة التحريم :- (١)

” قَالَتْ مَنْ أَنْبَأُكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ”

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى ما في هذا المثل الكريم من إيجاز القصر ان اشتمل على كثير من المعاني الجليلة في لفظ يسير (٢) .

هذا فضلاً عن بلاغة موقع المثل من الآية قبله إن جاء بمثابة تذييل على الآية قبله ليزيد المعنى تقويةً وتوكيداً .

له ما يوافق من كلام البشر :-

لعلَّ القول البشري الموافق لهذا المثل الكريم هو قولهم :-

(مرآة العواقب في يدي ذي التجارب) (٣)

المرآة : (اسم للأداة التي يرى فيها المرء نفسه وأصلها الرأء والمهمزة والياء

وهو أصل يدلُّ على نظر وإبصار بعين أو بصيرة) (٤) .

العواقب : جمع : مفرده عاقبة .

قال الخليل : (عاقبة كلِّ شيء آخره ، وكذلك العُقَب ، جمع عقبه) قال :-

” كَتُّ أَخِي فِي الْعُقَبِ النَّوَابِ ” (٥) .

-
- (١) سورة التحريم ، ٣ .
(٢) سبقت الإشارة إلى هذه المعاني في المعنى العام للمثل ، فضلاً راجع في ذلك ص ٤٤٥ من هذا البحث .
(٣) التمثيل والمحاضرة ، ٤٢٥ .
(٤) مقاييس اللغة ” رأى ” .
(٥) نفسه ” عقب ”

(ويقال : استعقب فلان من فعله خيراً أو شراً ، واستعقب من أمره ندماً
وتعقب أيضاً وتعقبت ماصنع فلان ، أي : تتبعته أثره ، ويقولون : ستجد عقب
الأمر كخير أو كشر ، وهو العاقبة) (١) .

التجارب : ج ، مفردة تجرّبة (والتجربة من المصادر المجموعة) قال النابغة :-

رأى اليوم قد جربن كل التجارب

وجرب الرجل تجربة : اختبر (٢) .

وعلى هذا يكون ذو التجارب هو صاحب الخبرات وبذلك يكون المعنى العام
لهذا المثل هو : أن أعلم الناس بنتائج الأمور وخفاياها هو من أحكمته التجارب
وحنكته الظروف على مدى الأيام .

لذا نرى أن هذا القول البشري يوافق قوله تعالى :-

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

وخاصة إذا نظرنا إلى معنى المثل القرآني الكريم في سياق الآية قبله .

إلا أن قوله تعالى :-

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) يسمو على غيره لسمو مصدره ولما فيه من دقة فسي

اختيار الجمل البليغة في موضعها كقوله (يُنَبِّئُكَ) وفي اللفظ خبير كذلك فسي

الإيجاز البليغ الذي أعطى المعنى في دقة ووفاء تام .

هذا فضلاً عن موقع المثل الكريم بالنسبة إلى سياق الآية الشريفة الوارد فيها

وما أفادنا هذا الموقع من تذييل أعطى المعنى قبله تقوية وتوكيداً .

هذا ومما يوافق المثل القرآني الكريم قولهم :-

(عِنْدَ جُفِينَةَ الْخَبَرِ الْيَقِينِ) (٣)

(١) مقاييس اللغة "عقب"

(٢) اللسان "جرب" (بتصرف) .

(٣) نفسه "جفن" ، جهن "لأنه قيل عند جهينه الخبر اليقين" ، وجفينه هو

اسم رجل كان عنده خبر رجل مقتول ، فضلاً انظر القصة كاملة بمجمع الأمثال

وقولهم :-

(١) (أعطِ القوسَ بِأرْبِهَا) (١)

وقولهم :-

(٢) (أنا مَحْمُودٌ بِكَ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ) (٢)

وقولهم :-

(٣) (كَفَى قَوْمًا بِصَاحِبِهِمْ خَيْرًا) (٣)

وقولهم :-

(٤) (أَنْتَ أَعْلَمُ أُمَّ مِنْ غَضِّبِهَا) (٤)

وقولهم :-

(٥) (الْخَيْلُ أَعْلَمُ بِفِرْسَانِهَا) (٥)

وقول الشاعر :-

" وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَرَوْتَهُ " (٦)

كذلك قولهم :-

(٧) (التَّجْرِبَةُ الْعِلْمُ الْأَكْبَرُ) (٧)

وقولهم :-

(٨) (أَعْدَلُ الشُّهُودِ التَّجَارِبُ) (٨)

وقولهم :-

(٩) (لِسَانُ التَّجْرِبَةِ أَصْدَقُ) (٩)

والَّذِي لاشْكَّ فِيهِ أَنَّ عِلَاقَةَ التَّجَارِبِ بِالْخَبْرَةِ هُنَا وَاضِحَةٌ إِلَى الْحَدِّ الَّذِي لَا يَحْتَاجُ

إِلَى بَيَانٍ أَوْ تَعْلِيْقٍ .

(١) كتاب الأمثال ٢٠٤ . والقوس هي الذراع وسميت بذلك لأنه يقدر بها المذروع

وبها سميت القوس التي يرمى عنها وهو المقصود هنا . ومعنى المثل أي كمال الأمر إلى صاحبه .

(٢) كتاب الأمثال ٢٠٢ (أي اغترني فسلني منه على غرة أي عالم به) .

(٣) نفسه ، نفس الصفحة . أي كل قوم أعلم بصاحبهم من غيرهم .

(٤) نفسه ٢٠٣ بمعنى أن الغاص يلقمة أخبر بها من غيره .

(٥) نفسه ٢٠٤ أي أنها اختبرت ركابها ، فهي تعرف الأفعال من أهل الفروسيه .

(٦) ديوان طرفة بن العبد ٦ تحقيق دريه الخطيب ، ولطفي الصقال - دمشق سنة ١٩٧٥ م .

(٧) التمثيل والمحاضره ٤٢٤ .

(٨) نفسه ، نفس الصفحة .

(٩) نفسه ، نفس الصفحة .

وَمَا يُوَافِقُ الْمَثَلَ الْكَرِيمُ قَوْلَ الشَّاعِرِ :-

إِنَّ السَّلَاحَ جَمِيعُ النَّاسِ تَحْمِلُهُ

وَلَيْسَ كُلُّ نَوَاتٍ الْمَخْلَبِ السَّبْعِ (١)

وقولهم :-

(رأَى الشَّيْخُ خَيْرٌ مِنْ مَشْهَدِ الْغُلَامِ) (٢) .

هذا بعض ما يوافق قوله تعالى :-

« وَلَا يَنْبَغُكَ مِثْلُ خَيْرٍ » وَاللَّهِ أَكْبَرُ ،،،،

(١) ديوان المتنبي ٢/٢٣٤ .

(٢) مجمع الأمثال ٢/٣٣ وهو قول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه - قاله في

بعض حروصه .

١٣ - قال تعالى :-

”وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ“ .

آء المعنى العام :-

جاء هذا المثل الكريم ضمن قوله تعالى :-

”وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ“ . قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * (١)

وقيل في سبب نزول هذه الآية :- (إن أبي بن خلف جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم حائل ، ففتته ، ثم ذراه في الريح ثم قال : يا محمد من يحيي هذا وهو رميم ، قال الله يحييه ، ثم يميته ، ثم يدخلك النار ، قال فقتله رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد .) (٢) وقيل المعنى به العاص بن وائل السهمي . وقيل هو عبد الله بن أبي (٣) .

ومعنى المثل الكريم :-

”وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ“ .

أي : جعل هذا المكابر المعاند شبيهاً لله عز وجل إن لا يقدر على إحياء ذلك أحد ومع ذلك جعله - جلّ وعلا - كمن لا يقدر على فعل ذلك من خلقه ، ونسي مع هذا المثل الذي ضربه نسي ذلك أنه - عز وجل - خلقه من تراب ولم يك سوى نطفة متشابهة الأجزاء ، ثم جعل له من النواصي إلى الأقدام أعضاء مختلفة الصور والقوام ولم يكتف - سبحانه - بذلك بل أودعه النطق والعقل اللذين استحقّ بهما الأكرام والتفضيل على سائر المخلوقات .

فإن كان هذا المعاند وغيره يقتنع لمجرد الاستبعاد فهلاً يستبعدون خلق

هذا الناطق العاقل من ذلك الأصل القدر الذي لم يكن محلاً للحياة أصلاً ؟ : (٤)

(١) سورة يس ، ٧٨ .

(٢) جامع البيان ٢٣ / ٣١ وورد بصيغة أخرى في البحر المحيط ٣٤٨ / ٧ .

(٣) نفسه ٢٣ / ٣١ - ٣٢ (بتصرف) .

(٤) التفسير الكبير ٢٦ / ١٠٩ (بتصرف) كذلك جامع البيان ٢٣ / ٣١ (بتصرف) .

فإنَّ ما دام بدء الخلق مسلماً به فلا داعي لنكران اعادته أو المُجادلة في بعثه و احيائه ، لأنَّ الَّذي بدأ شيئاً من عدم فمن الأهُونِ عليه أن يعيده وهذا - من غير شك - فقولُه بلغة البشر أمَّا الخالق - سبحانه وتعالى - فالبدءُ والإعادة عنده سواء - سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً

بمناسبتِه في السِّيَاق :-

تبدو مناسبة آية المثل الكريمة لما قبلها من آيات في سياق السُّورة الكريمة ، إذا علمنا أنَّها جاءت ضمن القسم الأخير (١) من السُّورة وهو المتحدِّث عن أحد المنكرين لحقيقة البعث ، وقد تحدَّث القسم السابق من الآيات (٢) عن المكذِّبين برسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في مكة ومن هنا يبدو ارتباط هذا القسم بسابقه . هذا من جانب ، أمَّا الجانب الآخر الَّذي يبدو وفيه ارتباط هذا القسم من السُّورة الكريمة بالقسم السابق له ، فهو حديث القسم السابق من السِّيَاق عن خلق الأنعام بينما يتحدَّث القسم الَّذي نحن بصدده عن خلق الإنسان وأصله ومنشئه ، ثمَّ خلق الله تعالى للسموات والأرض ، ذلك الخلق الَّذي يفوق خلق كلِّ من الأنعام والإنسان وهكذا يسير السِّيَاق على هذه الطَّريقة التدرجيَّة في ذكر حقيقة خلقه سبحانه وتعالى للمخلوقات .

هذا عن ارتباط آية المثل بما قبلها وما بعدها في السُّورة الكريمة .
أمَّا عن ارتباط المثل بما بعده في الآية الكريمة ، فيبدو في أنَّ ما بعده جاء مفصلاً ومبيَّناً ما خفي من هذا المثل الَّذي ضربه ذلك المعاند المُكابِر - فقال تعالى :-
" قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ " .
إنَّ لم يكفِ السِّيَاق بإجمال ذلك في قوله " وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ " .

(١) سورة يس ٧٧ - ٨٣ .

(٢) سورة يس ٧١ - ٧٦ .

(٣) تأملات في سورة يس . د . حسن باجوده ١٠٧ (بتصرف) دار الاعتصام .

بل أردف ذلك بالتفصيل والتبيين وهنا بدا ارتباط المثل بما بعده في السياق، إن أنه جاء شارحاً ومفضلاً لما أجمل قبل ذلك في نص المثل والله أعلم ،،،،

ج - العبرة منه :-

تبدو العبرة من هذا المثل الكريم إذا تأملنا القضية الأساسية التي تناولتها سورة يس الكريمة من أولها إلى آخرها - وإن تعددت معانيها .
تلك القضية هي إثبات قدرة الله عز وجل على إيجاد المخلوقات من عدم ثم على بعث الإنسان مرة أخرى بعد فناءه وسهولة هذا الأمر على من أوجد الشيء من عدم - سبحانه وتعالى - .

ومن هذا التأمل نستطيع أن نقول : إن هذا المثل الكريم يثير المشاعر الإنسانية في نفس الإنسان ويبين له أن عليك أيها الإنسان الذي تعلم أساس خلقك ومنتهاك وتعلم من هو المتفضل الأول عليك في جميع مراحل حياتك ، عليك وأنت تنعم بكل ما أنعم الله عليك من أفضال ونعم كثيرة أن تذكر هذا وتدع عن لأمره - عز وجل - وتقبل على طاعته إقبالا لا جدال فيه ، عليك أن تسمع ما يأمرك به رسوله الكريم - صلوات الله وسلامه عليه ، فهو أعلم بأسرار الوحي منك - عليك ألا تجادل في أي أمر يأتي به هذا الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - لأنه من عند الله - عز وجل - الذي بدأ خلقك ولم تك شيئا . . . والذي هو قادر أيضا على أن يميئك ويحييك ويبعثك من جديد فأعادة الشيء أهون من إنشائه لدى أي صانع كان فكيف باللله عز وجل - المبدع الأول والخالق الأعظم والذي يتساوى لديه البدء والإعادة - سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا !

دراسته وتحليله بيانياً :-

لنعد هنا مرة أخرى إلى نعت المثل الكريم :-

" وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ "

وقد أشرنا من قبل إلى معنى ضَرَبَ المَثَلُ في اللغة (١) .

أما قوله :-

نَسِيَ : (النسيان هو ترك الإنسان ضبط ما استودع إياه لضعف قلبه ، وإما عن

غفلة ، وإما عن قصد حتى ينحذف عن القلب ذكره - يُقال : نَسِيَهُ نُسِيَانًا) (٢) .

ولعل النسيان هنا هو الحادث عن غفلة ذلك المعاند المكابر ولا أدل على

غفلته من هذا السؤال على لسانه فيما ذكره سبحانه عنه :-

" قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ " (٣)

خَلَقَهُ :-

(الخلق أصله التقدير المستقيم ويستعمل في ابداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء

قال : " خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ " (٤) .

أي : أبدعهما بدلالة قوله (بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) (٥) .

ويستعمل في إيجاد الشيء من الشيء نحو " خَلَقْتُمْ مِّنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ " (٦) و " خَلَقَ

الْإِنْسَانَ مِنْ نطفَةٍ " (٧) .

وليس الخلق الذي هو الإبداع الإلهي تعالى ، ولهذا قال في الفصل بينه وبين

غيره (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) (٨) (٩)

(١) فضلاً راجع ص ١٠ من هذا البحث .

(٢) المفردات في غريب القرآن (نَسِيَ) .

(٣) سورة يس ، ٧٨ .

(٤) سورة هود ، ٢ .

(٥) سورة البقره ١١٢ - سورة الأنعام ، ١٠١ .

(٦) سورة الزمر ، ٦ .

(٧) سورة النحل ، ٤ .

(٨) نفسها ١٧ .

(٩) المفردات في غريب القرآن " خلق " .

ولا يُستعمل الخلق في كافة الناس إلا على وجهين :-

أولهما : بمعنى التقدير (١)

وثانيهما : بمعنى الكذب (٢)

وقيل سُمِّيَ هذا القول مثلاً لما دلَّ عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمثل وهي إنكار قدرته عزَّ وجلَّ على إحياء الموتى أو لعافيه من التشبيه ، لأنَّ ما أنكر من قبيل ما يوصف الله بالقدرة عليه بدليل النشأة الأولى (٣) .

فهم لا ينكرون قدرته - سبحانه - على خلق الأشياء - ولكنهم يستبعدون فكرة

البعث ، وقد وردت آيات كثيرة تدلُّ على اعترافهم بذلك نذكر منها قوله تعالى : (٤)

”وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ“

وقوله تعالى في نفس السورة :- (٥)

”وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ“

وقوله تعالى :- (٦)

”قُلْ مَنْ يُرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأُمُورَ فَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ“

وهكذا لاحظنا في هذا القول :-

(٧)

”قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ“ تفصيلاً لهذا المثل الذي ضربه ذلك الكافر

لخالقه عزَّ وجلَّ إذ استبعد منه - سبحانه - فكرة البعث - تماماً كما يعجز عنها

البشر ، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ،،،،

(١) المفردات في غريب القرآن * خلق * (بتصرف) .

(٢) نفسه ، * خلق * . (بتصرف)

(٣) الكشاف ٣ / ٣٣١ (بتصرف) كذلك إرشاد العقل السليم ٧ / ١٨١ (بتصرف) .

(٤) سورة الزخرف ، ٩ .

(٥) نفسها ، ٨٧ .

(٦) سورة يونس ، ٣١ .

(٧) سورة يس ، ٧٨ .

كذلك نلمح في هذا المثل الكريم لفتة كريمة إلى خَلْقِ للإنسان من عدم ، وهذا الإنسان الذي يكابر ويعاند ويخاصم ويشبه خالقه بخلقه في عدم قدرتهم على إعادة الحياة إلى العظام البالية ، دون التفات إلى أصله وحقائق خلقه الأولى ، ودون أن يتذكر أن من أنشأه من عدم ، ليس أهون عليه من إعادة ذلك المعدوم (١) .

كذلك نبه هذا المثل الكريم في طريقة لطيفة إلى أن إرادة الله عز وجل لهذا الإنسان الذي خلق في أحسن تقويم ، قد شاءت إرادته - تعالى - أن ينسني وقد جاء في شأن آدم عليه السلام : قوله تعالى :- (٢)

” وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ”

ومع ذلك فإنه ليس من المستحيل أن يتذكر ويعود إلى الطريق السليم إذا هو أحسن استعمال عقله وقدراته التي خصه الله بها دون خلقه ، وعليه كما فكر في استحالة إعادة الحياة إلى العظم بعد أن أصبح رميمًا عليه أن يفكر أيضًا في أصل نشأته ويدايتته من لا شيء (٣) .

وهكذا يكون المثل الكريم قد اشتمل على معانٍ قديرة جليلة في إيجاز بديع وبهذا يمكن أن نعتبره من إيجاز القصر في القرآن الكريم .

هـ - ما يوافق من كلام البشر :-

قيل إن المثل البشري الموافق لهذا المثل الكريم هو قولهم :-

- (٤) (عَيْرٌ بِجَيْرِ بَجْرَةٍ ، نَسِيٌّ بِجَيْرِ خَبْرَةٍ)
- وعَيْرٌ : أي ذم وعيرته ، أي : ذمته من العار .
- أما قولهم تعابير بنو فلان أي تذاكروا العار (٥)

-
- (١) تأملات في سورة يس ١١١ (بتصرف) .
 - (٢) سورة طه : ١١٥ .
 - (٣) تأملات في سورة يس ١١٢ (بتصرف) .
 - (٤) اللسان . مادة بجر ، وفي رواية أخرى بخير ، بخره .
 - (٥) المفردات للراغب : ” عَيْرٌ ” (بتصرف) .

وَبُجَيْرٍ وَبُجْرَهَ : اسما رجلين (١) .

أَمَّا قَوْلُهُ نَسِيَ : فَقَدْ أَشْرْنَا مِنْ قَبْلِ (٢) إِلَى أَنْ النَّسْيَانُ هُوَ تَرْكُ الْإِنْسَانِ ضَبْطَ مَا اسْتَوْدَعَ إِيَّاهُ لِيُضَعِفَ قَلْبَهُ ، وَإِيَّاهُ عَنْ غَفْلَةٍ ، وَإِيَّاهُ عَنْ قَصْدٍ حَتَّى يَنْحَدِفَ عَنِ الْقَلْبِ ذَكَرَهُ (٣) .

وَخَبْرُهُ : مِنَ الْخَبْرِ وَهُوَ الْعِلْمُ بِالْأَشْيَاءِ مِنْ جِهَةِ الْخَبْرِ وَقَدْ سَبَقَتْ (٤) الْإِشَارَةُ إِلَى الْفَرْقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبَأِ إِذْ لَا يَسَى الْخَبْرَ نَبَأً إِلَّا إِذَا كَانَ عَظِيمَ الْفَائِدَةِ وَيُحَدِّثُ بِهِ عِلْمًا أَوْ غَيْبَةً ظَنًّا (٥) .

وَمَعْنَى الْمَثَلِ أَيْ ذَمُّ بُجَيْرٍ بِجُرْهُ بَعِيْبٍ هُوَ فِيهِ (٦) ، وَعَلَى هَذَا الْمَعْنَى يُوَافِقُ الْمَثَلُ أَيْضًا قَوْلَهُمْ :-

(رَمَتْنِي بِدَائِهَا وَانْسَلَّتْ) (٧)

وَقَوْلُ أَبِي الْأَسْوَدِ الدَّؤَلِيِّ :-

لَا تَنْتَهَ عَنْ كُحْلِكَ وَتَأْتِي مِثْلَهُ * * عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ
وَأَبْدَأُ بِنَفْسِكَ فَانْهَمَّهَا عَنْ غَيْبِهَا * * فَإِنْ انْتَهَيْتَ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمٌ
فَهَنَّاكَ يَقْبَلُ إِنْ وَعِظْتَ وَيُقْتَدَى * * بِالْقَوْلِ مِنْكَ وَيَنْفَعُ التَّعْلِيمُ (٨)

وَقَالَ الشَّاعِرُ :-

وَصَفَتِ التَّقَى حَتَّى كَأَنَّكَ ذُو تَقَى * * وَرِيحُ الْخَطَايَا مِنْ ثِيَابِكَ تَسْطَعُ (٩)

(١) وَقِيلَ إِنَّهُ بُجَيْرٌ هُوَ تَصْغِيرُ أَبْجُرٍ وَهُوَ النَّاتِيءُ السُّرَّةُ وَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْمَعْنَى إِنْ ذَا بُجْرَةٌ فِي سَرَّتِهِ عَيْرٌ غَيْرُهُ بِمَا هُوَ فِيهِ وَنَسَبٌ إِلَيْهِ دَاءٌ وَنَسِيَ خَيْرُهُ وَأَمْرُهُ . فَضلاً انظر في ذلك كتاب الأمثال هامش ٧٤ .

(٢) فضلاً انظر ص ٦٦٤ من هذا البحث .

(٣) المفردات للراغب مادة " نسي " .

(٤) فضلاً راجع ص ٤٤٨ من هذا البحث .

(٥) المفردات للراغب مادة " نبأ " .

(٦) كتاب الأمثال ٧٤ .

(٧) مجمع الأمثال ٢٣/٢ وهو قول قالته إحدى النساء لضررتها عندما عيرتها الأخرى بعيب هو فيها .

(٨) الجامع لأحكام القرآن ٣١٣/١ .

(٩) نفسه ٣١٣/١

وقول القائل :-

(مُحْتَرَسٌ مِنْ مِثْلِهِ وَهُوَ حَارِسٌ) (١) .

وقولهم :-

(كَيْفَ تُبْصِرُ الْقَدَاةَ (٢) فِي عَيْنِ أَخِيكَ وَتَدْعُ الْجِذْعَ الْمُعْتَرِضَ فِي حَلْقِكَ) (٣)

وقيل :-

(الْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِالْقَوْلِ) (٤) .

أى : على الإنسان أن ينتهي من ذم الناس وإظهار معاييبهم حتى لا يُبتلى بما ابتلوا

به .

وقال المعري في ذلك :-

قَدْ نَالَ خَيْرًا فِي الْمَعَاشِرِ ظَاهِرًا * * مِنْ كَانَ تَحْتَ لِسَانِهِ مَخْبُوءًا
بَاءَ الْكَلَامِ بِمَأْثَمٍ وَالصَّمْتِ لَكُمْ * * يَكُ فِي الْأَعْمَامِ بِمَأْثَمٍ لِيُكُوءًا (٥)

هذا بعض ما يوافق قوله تعالى :-

* وَضَرَبْنَا لَنَا مِثْلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ * .

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن المثل القرآني الكريم يسمو بمافيه من بلاغة سامية تلك البلاغة التي ظهرت في المعاني البديعة التي حملها هذا المثل بكلماته القليلة فضلا عن العبرة الجليلة التي حملتها لنا قصة ذلك المكابر المعاند الذي استبعد فكرة البعث .

كذلك لموقع هذا المثل الكريم من السياق بلاغة واضحة إن جاء بمثابة جملة

معتضة بين معنيين لتوضيح ما قبلها وما بعدها في السياق الكريم والله أعلم ،،،،،

(١) وهو عجز لبيت شعري يقول فيه قائله :-

فساع مع السلطان يسعى عليهم * * و مُحْتَرَسٌ مِنْ مِثْلِهِ وَهُوَ حَارِسٌ
فضلا انظر في ذلك عيون الأخبار . ابن قتيبة ٥٧/١ ، دار الكتب المصرية

١٩٢٤ - ١٩٣٠ م .

(٢) القذى : كلمة تدل على خلاف الصفا والخلوص ، ويقال قذت عينه تقذى
إذا ألقى القذى ، فضلا انظر في ذلك مقاييس اللغة مادة " قذى " .

(٣) وقد روي (المعترض في عينك) وهو الأقرب . كتاب الأمثال ٧٤ ، والجذع
هو جذع الشجرة .

(٤) كتاب الأمثال ، ٧٥ .

(٥) اللزوميات ص ١٤٣ ، اللزوميه التاسعة عشرة .

١٤ - قال تعالى :-

" وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ " (١)

أ- المعنى العام :-

قيل في سبب نزول هذه الآية (إن قرينياً قالت : قيصوا لكل رجل من

أصحاب محمد رجلاً يأخذه فقيصوا لأبي بكر طلحة ، فاتاه وهو في القوة .

فقال أبو بكر : الأم تدعوني ؟

قال : أدعوك إلى عبادة اللات والعزى .

قال : أبو بكر : وما اللات ؟

قال : رُبنا

قال : وما العزى ؟

قال : بنات الله .

قال : أبو بكر : فمن أمهم ؟

فسكت طلحة فلم يجبه ، فقال طلحة لأصحابه أجيئوا الرجل ، فسكت القوم ، فقال

طلحة قم يا أبا بكر أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فأنزل الله " وَمَنْ يَعِشْ

عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا " الآية (٢)

ومعنى الآية الكريمة :-

إن من يعرض عن ذكر الله فلا يخش سوطه ولا يخف من عقابه ، ومن لا ينظر في

حجج الله بالإعراض عنه إلا نظراً ضعيفاً كظن من قد ضعف بصره إنما يجعل لله

- سبحانه وتعالى - شيطاناً فيكون ذلك الإنسان المعرض قريناً لهذا الشيطان المقيض

له (٣) .

(١) سورة الزخرف ، ٣٦ .

(٢) لباب النقول في أسباب النزول (٢٤١) .

(٣) جامع البيان ٢٥ / ٢٢ - ٢٣ (بتصرف) .

وقيل (إن من أعرض عن القرآن وما فيه من الحكمة إلى أباطيل المضلّين يُعاقبه الله بشيطان يقبضه له حتى يضلّه ويلزمه قريباً له ، فلا يهتدي مجازة له حين آثر الباطل على الحقّ البين) (١) .

ب. مناسبتة في السّياق :-

تيد ومناسبة هذا المثل الكريم للآيات قبله إذا علمنا أنّ تلك الآيات أيضاً تحدّثت عن مدى سيطرة الشيطان على من ادّعى أنّ الملائكة هم بنات الله مع أنّهم لا يرضون ذلك لأنفسهم واحتجاجهم أنّ سبب عبادتهم هي مشيئة الله لهم - سبحانه وتعالى - عما يقولون علواً كبيراً - كذلك لأنّهم وجدوا آباءهم يعبدونها فعبدوها اقتداءً بهم وتقليداً لهم (٢) .

فردّ السّياق الكريم عليهم بأنّ هذه هي حجة كل من جاء قبلهم من الأمم لرسولهم فلم يفدهم ذلك التعليل شيئاً وجازاهم الله - سبحانه - ، فأهلكهم وأبادهم وأمر سبحانه رسوله - صلى الله عليه وسلّم - أن يذكر لهم براءة ابراهيم عليه السّلام ممّا يشركون - وهو أبوهما الأعلى وإمامهم - الذي ينبغي الاقتداء به والذي كان قومه يعبدون الكواكب وسكانها الملائكة ، فتميّزاً من عبادتهم ، وشرع دين التوحيد لذريّته ليرجعوا إليه جيلاً بعد جيل (٣) .

وذكر السّياق بعد ذلك أنّ سبحانه ممّع ذريّة ابراهيم عليه السّلام حين انصرفوا عن شرعه وعبادته إلى تلك العبادة الباطلة - ذكر أنّ أمهاتهم وأمدّ لهم إلى أن أرسل لهم رسول الهدى - صلى الله عليه وسلّم - بالقرآن فادّعوا أنّه سحر مبين فكفروا به واستنكروا نزوله على محمد - صلى الله عليه وسلّم - لرغبتهم في أن يُنزل على رجل أعظم منه من مكة أو الطائف (٤) .

(١) فتح القدير ٤ / ٥٥٦ .

(٢) سورة الزخرف ١٥ - ٢٢ .

(٣) نفسهم ٢٣ - ٢٨ .

(٤) نفسهم ٢٩ - ٣١ .

ثُمَّ بَيَّنَّ السِّيَاقَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ رَحْمَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِعِبَادِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ يُحْسِنُ
بَيْنَهُمْ رَحْمَتَهُ أَوْ مَنْ يَسْتَحِقُّهَا مِنْهُمْ وَهُوَ أَيْضاً الَّذِي اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يُقَسِّمَ مَعَايِشَهُمْ فَسَيُ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَجَعَلَ مِنْهُمْ الْأَغْنِيَاءَ وَالْفُقَرَاءَ لِتَنْتَظِمَ بِهَذَا التَّفَاوُتِ أُمُورَ حَيَاتِهِمْ وَأَنَّ رَحْمَتَهُ
عَزَّ وَجَلَّ خَيْرٌ مِنْ تِلْكَ الْأَمْوَالِ الَّتِي جَعَلُوهَا مَقْيَاسَ التَّفَاوُلِ بَيْنَهُمْ ، وَلَوْلَا أَنْ يَكُونُ
النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً عَلَى الْكُفْرِ لَجَعَلَ لِلْكَافِرِينَ بِهِ بَيْوتاً سُقِّفَهَا مِنْ فِضَّةٍ وَذَلِكَ
لِيَزِدَادَ وَغُرُورًا بِزُخْرَفِ الدُّنْيَا وَمَتَاعِهَا لِأَنَّ مَتَاعَ الْآخِرَةِ لِلْمُتَّقِينَ (١)

وَهُنَا تَبْدُو مَنَاسِبَةَ الْمَثَلِ الْكَرِيمِ لِمَاقِبِلِهِ وَاضِحَةٌ تَمَامُ الْوُضُوحِ إِذْ أَنَّ مِنْ يَتَغَافَلُ
أَوْ يَعْمَى عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَتَدَبُّرِ الْقُرْآنِ ، إِنَّمَا يَقِيضُ لَهُ شَيْطَاناً يَلْزِمُهُ فَلَا يَتْرُكُهُ ، وَهَذَا
الشَّيْطَانُ هُوَ الَّذِي يَزِينُ لَهُ مَبَاهِجَ الدُّنْيَا وَزُخْرُفَهَا ، فَإِذَا زَيَّنَ لَهُ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا
وَانْتَقَلَ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ انْتَبَهَ مِنْ غَفْلَتِهِ وَنَدِمَ عَلَى مَا فَعَلَ . . . وَهُنَا تَبْدُو مَنَاسِبَةَ الْمَثَلِ
الْكَرِيمِ لِمَابَعْدِهِ مِنْ آيَاتِ (٢) ، وَإِذْ أَنَّ السِّيَاقَ الْكَرِيمَ يَبِينُ بَعْدَ ذَلِكَ نَدَمَ أَوْلَئِكَ الْكُفَّارِ
عَلَى كُفْرِهِمْ وَاتِّبَاعِهِمْ لِلشَّيْطَانِ وَتَمَنِّيهِمْ لَوْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ بَعْدَ الْمَشْرِقِينَ لِأَنَّهُ كَانَ
يُبْغِضُ الْقَرِينَ وَلَكِنْ هِيَ مَبَاهِجَاتٌ أَنْ يَنْفَعِ النَّدَمَ ، فَهَمَّ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ لِعَدَمِ
سَمَاعِهِمْ لِلْحَقِّ وَعَمَى بِصِيرَتِهِمْ عَنْهُ . . . ، لِذَا سَيَكُونُ عَذَابُهُ - سُبْحَانَهُ - لَهُمْ شَدِيداً
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عَلَى حَدِّ سِوَاهُ (٣) .

وَأَشَارَ السِّيَاقَ الْكَرِيمَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى ضَرُورَةِ تَمَسُّكِ رَسُولِهِ الْكَرِيمِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ - وَمَنْ تَبِعَهُ بِمَا أَنْزَلَهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - مِنَ الْوَحْيِ لِأَنَّهُ طَرِيقَ الْحَقِّ الْمُسْتَقِيمِ
الَّذِي جَاءَ تَذَكُّرُهُ لَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا أَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ مِمَّنْ
جَاءَ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ إِذَا أَمَرُوا بِنَفْسِ مَا أَمْرَبَهُ - مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَذَكَرَ
السِّيَاقَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَوْجِ الشَّبهِ الْكَبِيرِ بَيْنَ مَلَابِسَاتِ الدَّعَوَتَيْنِ الْمُسَوِيَّةِ وَالْمُحَمَّدِيَّةِ

-
- (١) سُورَةُ الزُّخْرَفِ ٣٢ - ٣٥ .
(٢) نَفْسُهَا ٣٦ - ٣٧ .
(٣) نَفْسُهَا ٣٨ - ٤٢ .

ثم ذكر ما كان من إرساله إلى فرعون وملئه ثم ما كان من اغتراره بملكه واستهزائه بموسى عليه السلام - لأنه لا يبلغ ما بلغه من المجد والسلطان في الحياة الدنيا وأنه استخف قومه فأطاعوه فأغرقهم أجمعين وجعلهم عبرة لم يعتبر بعدهم (١) .
"فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ" (٢) .

ج- العبرة منه :-

من المعلوم أن الغفلة عن ذكر الله أو عن تدبر آياته والعمل بهما تورث الخسارة والضياع وهل هنا لك ضياع أو خسارة أكثر من أن يجعل سبحانه وتعالى - لمن يففل عن ذكره شيطاناً يلزمه في كل شؤونه وتصرفاته ؟ !
لذا وجب العمل الدائب على طاعة الله واجتناب نواهيه مهما كلف ذلك المؤمن من مجاهدة النفس ومغالبة الهوى ، لأن مشقته وعناءه في سبيل الله خير له من أن يلزمه شيطان لا يدلّه الا على الشر ولا يورثه إلا الخسارة والندم في الدنيا والآخرة والعيان بالله .

(١) سورة الزخرف ٤٢ - ٥٦ .
(٢) نفسها ، ٥٦ .

دراسته وتحليله بيانياً :-

لنعد هنا مرة أخرى إلى نَصِّ المثل الكريم :-

" وَ مَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِصْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ " .

فعند دراسة الألفاظ لغوياً يتبين لنا أن :-

يَعِشُ : من العشا وهو (ظلمة تعترض في العين يُقال رجلٌ أعشى وامرأةٌ عَشَوَاءٌ) (١)

وعِشِي عن كذا أي : عَمِي عنه (٢)

(والعشا مقصور مصدر الأعشى وهو الذي لا يبصر بالليل ويُبصر بالنهار) (٣)

وقيل العشا في العين هو ضعف يضرها . والمراد هنا عشا البصيرة (٤) .

ذكر الرحمان :- (الذكر تارة يُقال ويراد به هيئة للنفس بها يُمكن للإنسان

أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة كالحفظ إلا أن الحفظ يُقال اعتباراً بإحرازه ، والذكر

يقال اعتباراً باستحضاره وتارة يُقال لحضور الشيء القلب أو القول) (٥) .

فهما نوعان :-

ذكر بالقلب و ذكر باللسان .

وكلُّ واحد منهما ضربان :-

ذكر عن نسيان و ذكر عن غير نسيان بل عن إدامة الحفظ .

وكلُّ قول يُقال له ذكر (٦) ، فمن الذكر باللسان قوله تعالى :-

" لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ " الآية (٧)

ومن الذكر عن النسيان قوله تعالى :-

" فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ " (٨) .

(١) المفردات في غريب القرآن * عشا * .

(٢) نفسه * عشا * (بتصرف) .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٥٩٠٩ / ٧ .

(٤) تفسير ابن كثير ٢٩ / ٤ (بتصرف) .

(٥) المفردات في غريب القرآن * ذكر * .

(٦) نفسه * ذكر * (بتصرف) .

(٧) سورة الأنبياء ، ١٠ .

(٨) سورة الكهف ، ٦٣ .

ومن الذِّكْرِ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ مَعًا قَوْلُهُ تَعَالَى :-

"فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ" (١)

الرَّحْمَانُ : (لا يُطَلَقُ الرَّحْمَانُ إِلَّا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ حَيْثُ إِنَّ مَعْنَاهُ لَا يَصِحُّ إِلَّا لَهُ

إِنْ هُوَ الَّذِي وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً) (٢) .

والمُرَادُ بِذِكْرِ الرَّحْمَانِ هُنَا (هُوَ الْقُرْآنُ وَإِضَافَتُهُ إِلَى اسْمِ الرَّحْمَانِ إِنَّمَا هُوَ

إِذْ بَانَ بِنَزُولِهِ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (٣) .

نَقِيضٌ : (أَيُّ نُنْحٍ لِيَسْتَوِي عَلَيْهِ إِسْتِيْلَاءُ الْقَيْضِ عَلَى الْبَيْضِ وَهُوَ الْقَشْرُ الْأَعْلَى) (٤)

وَقِيلَ : (نُسِبَ لَهُ شَيْطَانًا جَزَاءً لَهُ عَلَى كُفْرِهِ) (٥) .

قَرِينٌ : (الْقَافُ وَالرَّاءُ وَالنُّونُ أَصْلَانُ صَحِيحَانِ ، أَحَدُهُمَا : يَدُلُّ عَلَى جَمْعِ

شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ ، وَالْآخِرُ شَيْءٌ يَنْتَسِبُ بِقُوَّةٍ وَشِدَّةٍ) (٦)

وَالكَلِمَةُ هُنَا مِنَ الْأَصْلِ الْأَوَّلِ وَهُوَ جَمْعُ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ .

(وَالِاقْتِرَانُ كَالزَّوْجِ فِي كَوْنِهِ اجْتِمَاعَ شَيْئَيْنِ أَوْ أَشْيَاءٍ فِي مَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي) (٧)

قال تعالى :-

"أَوْجَاءٌ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ" (٨)

أَيُّ : (قَرِينٌ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) (٩)

-
- (١) سورة البقرة ، ١٩٨ .
 - (٢) المفردات في غريب القرآن " رحم "
 - (٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٤٧/٨ .
 - (٤) المفردات في غريب القرآن " قَيْضٌ "
 - (٥) الجامع لأحكام القرآن ٥٩٠٩/٧ .
 - (٦) مقاييس اللغة " قرن " .و (نَسَبُ الشَّيْءِ إِذَا خَرَجَ عَنْ مَوْضِعِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَبِينُ)
 - (٧) المفردات في غريب القرآن " قَرْنٌ "
 - (٨) سورة الزخرف ، ٥٣ .
 - (٩) الجامع لأحكام القرآن ٥٩١٠/٧ .

ونلاحظ هنا أن من جاءت في معنى الجمع بدليل ما جاء في الآية التالية

في قوله تعالى :-

« وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ » (١)

كما نلاحظ هنا دقة السياق في مجيء اللفظ (يَعْتَسُو) في مكانه إذ أننا كما نعلم أن العشى يعني ضعف البصر أو عدم الرؤية ليلاً وهذا كناية عن ترك القرآن الكريم أو التعامى عما فيه لغترة معينة وليس في كل الأوقات . . . ومع ذلك فإن الله عز وجل لا يترك هذا الإهمال لكتابه العزيز بلا جزاء بل لا بد من معاقبة من يفعل ذلك ؛ فسبب له شيطاناً ملازماً له لا يتركه في الدنيا أو الآخرة ، فهو في الدنيا لا يدلّه إلا على الشرِّ والمعاصي وهو في الآخرة ما يزال به حتى يدخل النار (٢) .

نقول إذا كان هذا شأنه عز وجل مع من يتعمى عن القرآن الكريم ولولفطرة معينه فكيف به جلّ وعلا مع من يعصى عنه أبداً ولا يلتفت إليه مطلقاً ؟ !
لا شك أن عقابه مضاعف مضاعف والعيان بالله .

قال تعالى :-

« وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى » (٣) .

كما نلمح هنا بلاغة ودقة في إضافة لفظ (ذِكْرِي) إلى صفة الرحمان بالذات ودون سواها ؛ فهي كما نعلم عظيم صفات الله عز وجل ، ولعلّ البلاغة هنا تبد وفي علمه - عز وجل - بما يدور في أنفس أمثال هؤلاء الغافلين عن ذكر الله - وهو أنه سبحانه وتعالى رحمان وسعت رحمته كل شيء ، وبالتالي لا بد أن تسع أخطاءهم وعنادهم .

(١) سورة الزخرف ، ٣٧ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٧ / ٥١٠ (يتصرف) .

(٣) سورة طه ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ .

... وما يزيد هذا المعنى وضوحاً مانلمحه في سورة مريم في تكرار هذه الصفة بالذات وكان أولئك محتاجون في وقت الشدة إلى رحمة الله عز وجل يقول تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: (١)

رَبِّنِي أَخَافُ أَنْ يُمَسِّكَ عَذَابٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا

وقوله تعالى :- (٢)

أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا ، فَوَرَّكَ لِنَحْشُرَنَّهُمْ
وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِّنْ كُلِّ شَيْعَةٍ أَسْرَةً أَشَدَّ
عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا

وهكذا يؤكد القرآن الكريم في أكثر من موضع أن الأمان في جانب والجزاء في

جانب آخر ولا أدل على ذلك من حديث القرآن نفسه عن المؤمنين في عدم توالفهم

على رحمة الله عز وجل إن قال تعالى بشأنهم في نفس السورة :-

أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن
ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَشَرُوا
سَجْدًا وَبِكِيًّا . (٣)

من أجل ذلك ندرك مدى البلاغة والدقة في الاضافة إلى لفظ الرحمان دون الله

مثلاً في سياق المثل الكريم .

هذا ونلاحظ مجيء الفعلين - فعل الشرط وجوابه في صيغة المضارع ليؤكد كذا

على استمرارية حدوثه وعدم انقطاع الجزاء لا استمرار الشرط .

ونلمس في تنكير لفظة " شيطاناً " أيضاً بلاغة قرآنية عالية ، إذ أنه لو أضيف

هذا اللفظ أو وُصِفَ لفقد المعنى دقته وسعة ما يحمل من تهيب وتخويف في هذا

التنكير .

(١) سورة مريم ٤٥

(٢) نفسها ٦٧ - ٦٩

(٣) نفسها ، ٥٨

أما قوله : " فَمَهُوْلُهُ قَرِيْنٌ " فهو تذييل على قوله " نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا " إذ أعطى هذا التذييل توكيداً للمعنى قبله وتقويةً له .

هذا ويمكن أن يُعتبر المثل بكامله من إيجاز القصر في القرآن لما يحتويه من معان كبيرة في لفظ يسير كما بدأ لنا من قبل - والله سبحانه وتعالى أعلم .

هـ ما يوافق من كلام البشر :-

لعلَّ القول البشري الموافق لقوله تعالى :- (١)

" وَمَنْ يَعْتِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا ، فَمَهُوْلُهُ قَرِيْنٌ " .

هو قولهم :-

(اعط أخاك تمره فإن أبي فجمّره) . (٢)

ومن الواضح هنا أن قولهم (تمره) تقابل ذكر الرحمان - عز وجل - والجمرة

تقابل الشيطان في المثل القرآني الجليل .

تمرّة : مفرد وجمعه تمر وهو : التمر المأكول . (٣)

أبي : أصلها الهمزة والباء والياء وهو أصل يدل على الامتناع والرفض .

والإباء : هو أن تعرض على الرجل شيئاً فيرفض قبوله وتقرأ الإباء بالكسر

أو الأباء بالضم . (٤)

الجمرة : أصلها جمراً .

(الجيم والميم والراء أصل واحد يدل على التجمع) (٥)

والكلمة هنا مفرد وجمعه جمراً وهو جمر النار المعروف (٦)

(١) سورة الزخرف ، ٣٦ .

(٢) التمثيل والمحاضرة ، ١٦ .

(٣) مقاييس اللغة " تمر " (بتصرف) .

(٤) نفسه " أبي " (بتصرف) .

(٥) نفسه " جمراً " .

(٦) نفسه " جمراً " (بتصرف) .

والمثل - كما يبدو - يكاد يقترب من العمومية المبتدلة بينما يسمو المثل القرآني الكريم بسمو مصدره ثم بمافيه من بلاغة عالية في استعمال الفعل (يَعْشُو) مع ذِكْر الرِّحْمَانِ ، ثم في إضافة لفظ " ذَكَرَ " ، إلى صفة الرِّحْمَانِ دون سواها ، كذلك فسي التذييل الذي جاء في نهاية المثل لتقوية المعنى قبله وتوكيده ، هذا فضلاً عن المعنى العام الذي أشار إليه القرآن الكريم في سموه وإيجاز منقطع النظير ألا وهو أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّمَا سَهَّلَ لِلْإِنْسَانِ سَبِيلَ الْخَيْرِ وَأَوْضَحَهُ أَمَامَهُ دُونَ أَرْضِي مَشَقَّةً أَوْ تَكْلِيفًا ، إِلَّا أَنَّ النَّاسَ يَخْتَلِفُونَ فِي تَوْجِيهِهِ سُلُوكِهِمْ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَمِنْهُمْ مَنْ يَضِلُّ فَلَا يَكُونُ جَزَاءَهُ إِلَّا مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ - فِيهِمْ لَه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - شَيْطَانًا يَلْزَمُهُ فِي دُنْيَاهُ وَأَخْرَتِهِ ، إِلَى أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ مَعًا .

وَمَا يَقْتَرِبُ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ أَيْضًا قَوْلُهُمْ :-

(كَانِ حِمَارًا فَاسْتَأْتَنِي) (١)

وهو مثل يُضْرَبُ لِلرَّجُلِ الَّذِي يَبْهُونَ بَعْدَ الْعِزَّةِ .

وقولهم :-

(تَجَنَّبْ رَوْضَةً وَأَحَالَ يَعْدُو) (٢) أَي تَرَكَ الْخِصْبَ وَاخْتَارَ عَلَيْهِ الشَّقَاءَ .

وقولهم :-

قِيلَ لِلشَّقِيِّ هَلُمَّ إِلَى السَّعَادَةِ : فَقَالَ حَسْبِيَ مَا أَنَا فِيهِ (٣)

(١) كتاب الأمثال ١١٨ ، والأثتان : أنثى الحمار .

(٢) نفسه ، ١٢٦ .

(٣) نفسه ، ١٢٧ .

١٥ - قال تعالى :-

« هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ » (١)

أ- المعنى العام :-

أى ليس ثواب من خاف مقام ربه عز وجل فأحسن عمله في دنياه بإطاعة ربه والبعد عن معاصيه - ليس ثوابه، إلا أن يحسن الله عز وجل إليه في آخرته كما أحسن هو من قبل في دنياه (٢) .

وقيل : (عملوا خيراً فجوزوا خيراً) (٣)

وقيل : (هل جزاء من أنعمت عليه بالإسلام، إلا الجنة) (٤)

قال تعالى :-

« لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ » (٥)

ب- مناسبته في السياق :-

تبدو مناسبة هذا المثل الكريم لما قبله من آيات في سياق السورة الكريمة من خلال تدبرنا للآيات السابقات له (٦) والتي تحدثت عن جزاء من خاف مقام ربه فعمل الصالحات في الدنيا ، فبعد أن جاء ذكرهم في الآيات ومنازلهم وأزواجهم . . . والأنهار التي أعدّها لهم ، أردف ذلك بتقرير ما أعدّ لهم في الآخرة جزاءً وفاقاً لحسن أعمالهم في دنياهم .

هذا عن مناسبة المثل الكريم لما قبله في سياق السورة الكريمة أما عن مناسبته

للآية التالية بعده مباشرة ، فقد قال في ذلك ابن كثير :-

-
- (١) سورة الرحمن ، ٦٠ .
 - (٢) جامع البيان ١٥٣/٣٧ (بتصرف) كذلك تفسير ابن كثير ٢٧٩/٤ (بتصرف) .
 - (٣) نفسه ١٥٣/٣٧ .
 - (٤) نفسه ١٥٣/٣٧ .
 - (٥) سورة يونس ، ٢٦ .
 - (٦) سورة الرحمن ٤٦ - ٦٠ .

* ولما كان في الَّذِي ذكر نِعَمَ عَظِيمَةٍ لا يَقاومها عَمَلٌ بَلْ مَجْرَدُ تَفَضُّلٍ وَاِمْتِنَانٍ قَال
بَعْدَ ذَلِكَ كَلِمَةً * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * (١) .

أَمَّا مَناسِبَتُهُ لِمَا بَعْدَهُ مِنْ آيَاتِ (٢) فِي سِيَاقِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ فَتَبَدُّ وَفِي أَنْ مَاجَاءَ
بَعْدَ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ بَيَانٌ مَا يَنْتَظِرُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ فِي آخِرَتِهِمْ مِنْ ثَوَابٍ وَنَعِيمٍ دَائِمِينَ .

ج- العبرة منه :-

لا يستطيع أحد أن ينكر ما يمكن أن يحزره هذا المثل الكريم من تأثير عظمى
النفوس المؤمنة ذات الأرواح الطاهرة . . . هذا فضلاً عن تأثيره في غير هؤلاء
المؤمنين .

أما تأثيره على المؤمنين فيبدو وفي تلك الراحة النفسية التي يشعر بها كل من
يسير على الطريق المستقيم وعلى هدى سيّد المرسلين سيّدنا محمد - صلى الله عليه
وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين .

وأما ما يمكن أن يحدثه في غيرهم فهو ذلك الحافز الأكيد إلى مخافة الله
في السرّ والعلانية والثقة التامة بأن الله عزّ وجلّ لن يضيع صالح أعمالهم سدى ، بل
سيجازي كلّ منهم على حُسن عمله وربما زادهم عن ذلك قال تعالى :-

”لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ“ (٣)

نقول لا شك أنّ من يعلم ذلك ، لا بدّ وأن تشحذ همته إلى فعل الخير
دون أي تردد أو تقصير .

(١) تفسير ابن كثير ٢٧٩/٤ .
(٢) سورة الرحمن ٦١ - ٧٨ .
(٣) سورة يونس ، ٢٦ .

د- دراسته و تحليله بيانياً :-

لنعد هنا الى نص المثل الكريم :-

" هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ " .

هل : أداة استفهام .

جَزَاءٌ : (الجَزَاءُ الفِئَاءُ والكِافِيَةُ) (١) قال تعالى :- (٢)

" لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلَىٰ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا "

(والجَزَاءُ مافيه الكفاية من المُقابلَةِ ان خيراً فخييراً وان شراً فشرّاً ، يقال : جَزَيْتَهُ

بِكَذَا وَبِكَذَا) (٣) قال الله تعالى :-

" وَذَلِكَ جِزَاءٌ مِّنْ تَزَكَّيْكَ " (٤)

الاحسان : قيل الاحسان على وجهين :-

١- اما احسان الى الغير وهو الانعام والتفضل كما يقال أحسن فلان الى فلان (٥) .

أو احسان في فعل المرء نفسه ، وذلك اذا علم علما حسنا أو عمل عملا حسنا

ويمكن أن يؤخذ على هذا المعنى (قول أمير المؤمنين على - رضی اللہ عنہ -

" الناس أبناء ما يحسنون " أي : منسوبون الى ما يعلمون ، وما يعطونه من الأفعال

الحسنة) (٦) .

والاحسان أعم من الانعام وفوق العدل ، لذا يكون العدل واجبا بينما يكون

تحري الاحسان ندباً وتطوعاً لأن العدل ، أن يعطى الإنسان ما عليه ويأخذ ماله

بينما يعطى الإنسان مع الاحسان أكثر مما عليه ويأخذ أقل ماله (٧) .

(١) المفردات في غريب القرآن " جَزَاءٌ " .

(٢) سورة لقمان ، ٣٣ .

(٣) المفردات في غريب القرآن " جَزَاءٌ " .

(٤) سورة طه ، ٧٦ .

(٥) المفردات في غريب القرآن " حَسَنٌ " . (بتصرف)

(٦) نفسه . " حَسَنٌ " .

(٧) نفسه " حسن (بتصرف) .

قال تعالى :-

« وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ » (١)

لذلك عظم - سبحانه - ثواب المحسنين فقال عز وجل :-

« إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ » (٢)

لذا كان من البلاغة استعمال لفظه "الإحسان" هنا دون غيرها ، وذلك لأنها أعم من الإنعام مثلاً ، ولأنها تكون في فعل الإنسان لنفسه ولغيره ، هذا فضلاً عن رقة اللفظة وجرسها الملائم للسياق قبلها وبعدها ، أضف إلى ذلك مناسبتها للفاصلة قبلها وبعدها (٣) .

كذلك في استعمال الاستفهام التقريري هنا بلاغة واضحة إذ يُعد - هنا - استثناءً لتقرير مضمون ما فضل قبله في الآيات السابقات (٤) .

هذا فضلاً عما حققه أسلوب القصر (٥) من جمال في أداء المعنى مع قوة التأثير الفذة كما لا يفوتنا هنا أن نذكر ببتك المعاني الكثيرة الجليلة التي حملها المشل الكريم في لفظ يسير لذا يمكن أن يعد من إيجاز القصر في القرآن (٦) .

(١) سورة النساء ، ١٢٥ .

(٢) سورة الأعراف ، ٥٦ .

(٣) سورة الرحمن ٤٦ - ٥٩ .

(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١٨٥ / ٨ (بتصرف) .

(٥) نوع القصر هنا - قصر قلب .

(٦) هذه المعاني هي هل جزاء من فعل الخير في الدنيا من طاعة ما أمر به الله واجتناب نواهيه وقدم الصالحات في القول والفعل خوفاً من لقاءه وافتقاراً لبعثه ونقمة ، هل جزاء ذلك الأثواب الآخرة والفوز بالجنة ونعيمها جزاءً وفاقاً لما قدم في دنياه من خيرات .

لهـ ما يوافقه من كلام البشر :-

لعلَّ المثلَ البشريَ الموافقَ لقوله تعالى :-

" هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ " .

هو شرط البيت التالي :-

" مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعدِمُ جُوزِيئَهُ " (١)

مَنْ : هنا اسم شرط جازم .

يفعل : أصله الفاء والعين واللام وهو (أصل صحيح يدلُّ على إحداث شيءٍ من عمل وغيره من ذلك ففعلت كذا أفعله فعلاً ، وكانت من فلانِ ففعلتُ حسنة أو قبيحة) (٢) وهو فعل الشرط هنا .

الخير : أصلها الخاء والياء والراء وهو العطف والميل ، ثمَّ يحمل عليه والخير خلاف الشرِّ ونقيضه ، لأنَّ كلَّ أحدٍ يعيلُ إليه ويعطفُ على صاحبه (٣) .

لا : أداة نفي .

يعدم : أصلها العين والدال والميم وهو (أصل واحد يدلُّ على فقدان

الشيءِ ونهايه من ذلك القدم .

وعدمُ فلانِ الشيءِ إذا فقده . أعدمه الله تعالى كذا أي : أفاته) (٤)

جوزيئه : أصل الكلمة جزى وهو الجيم والزاء والياء وهو أصلٌ يدلُّ على قيام الشيءِ مقام غيره ومكافأته إياه يقال جزيتُ فلانا أجزيه جزاءً وجازيته مجازاةً (٥) .

والجزاء : المكافأة على الشيءِ ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر (٦) .

-
- (١) ديوان الحطيئة ، ٢٨٤ .
 - (٢) مقاييس اللغة " فعل " .
 - (٣) نفسه " خير " (بتصرف) .
 - (٤) نفسه " عدم " .
 - (٥) نفسه " جزى " (بتصرف) .
 - (٦) تاج العروس " جزى " (بتصرف) .

كالجَازِيَة ؛ وهو اسم للمصدر كالعافية . وجمعها الجَوَازِي وَيُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ أَيْضاً
جَمْعاً لَجَازٍ أَوْ جِزَاءٍ وَبِكَلِّ فُسْرٍ قَوْلُ الحُطَيْئَةِ (١) .

" من يفعل الخير لا يعدم جَوَازِيَهُ " (٢)

(وَيُقَالُ جِزْتِكَ عَنِّي الجَوَازِي أَي جِزْتِكَ جَوَازِي أفعالِكَ المحمودَةِ) (٣) .

وقيل (جَازَاهُ مُجَازَاةٌ وَجِزَاءٌ) بالكسر إن الجزاء يكون ثواباً وعقاباً ومنه قوله تعالى :-

" فَمَا جِزَاؤُهُ إِذْ كُنْتُمْ كَانِبِينَ " (٤) ؟ أَي مَاعِقَابِهِ ؟ (٥) .

(وَسُئِلَ أَبُو العَبَّاسِ عَنِ جِزِيَّتِهِ وَجَازِيَّتِهِ فَقَالَ : قَالَ الفَرَّاءُ : لَا يَكُونُ جِزِيَّتُهُ

إِلَّا فِي الخَيْرِ وَجَازِيَّتُهُ يَكُونُ فِي الخَيْرِ وَالشَّرِّ قَالَ وَغَيْرُهُ - يَجِيزُ جِزِيَّتَهُ فِي الخَيْرِ وَالشَّرِّ

وَجَازِيَّتَهُ فِي الشَّرِّ) (٦) .

أَمَّا الرَّاعِبُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَى أَنَّهُ لَمْ يَجِيءَ فِي القُرْآنِ إِلَّا جِزِيٌّ دُونَ جِازِيٍّ (لِأَنَّ

المُجَازَاةَ هِيَ المِكَافَاةُ وَهِيَ المُقَابِلَةُ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الرَّجُلِينَ وَالمِكَافَاةُ هِيَ مُقَابِلَةُ

نِعْمَةٍ بِنِعْمَةٍ هِيَ كَقَوْلِهَا) (٧) وَمِثْلُهَا وَنِعْمَةُ اللّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أَعْظَمُ وَأَجْمَلُ

مِنْ أَنْ تُكَافَأَ أَوْ تُتَمَاتَلُ ، لِذَا لَمْ يُسْتَعْمَلْ لَفْظُ المِكَافَاةِ فِي اللّهِ تَعَالَى وَهَذَا ظَاهِرٌ (٨)

وَمَعْنَى قَوْلِ الشَّاعِرِ بِصِفَةِ عَامَّةٍ :-

" مِنْ يَفْعَلُ الخَيْرَ لَا يَعدَمُ جَوَازِيَهُ " .

(١) تاج العروس " جزي " (بتصرف) .

(٢) ديوان الحطية ، ٢٨٤ .

(٣) تاج العروس " جزي " .

(٤) سورة يوسف ، ٧٤ .

(٥) تاج العروس " جزي " (بتصرف) .

(٦) نفسه " جزي " .

(٧) المفردات في غريب القرآن للراغب " جزاء " .

(٨) نفسه " جزاء " (بتصرف) .

أى أن فعل الخير مضمون الجزاء والمكافأة على مدى الأيام سواء كان ذلك عاجلاً ففى الدنيا أو أجلاً فى الآخرة أو فى كِلتا الدارين .

ومما يوافق المثل القرآنى الكريم :-

" هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ " قولهم :-

(الصنائع ودائع) (١)

(الأيادى قروض) (٢)

وقولهم :-

(نعم العبدُ عند الحاجةِ أسلافِ الصَّنيعةِ) (٣) .

وقولهم :-

(المحسنُ مُعان) (٤)

وذلك لأنَّ الله - عزَّ وجلَّ - يزيد من عطائه مادام لا يبخل على غيره بإحسانه

وقولهم :-

(أحقُّ النَّاسِ بِالإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ مَنْ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ) (٥)

وقول الشاعر :-

فأجِبْ نَفْسَكَ بِالإِحْسَانِ تَزْرَعُهُ تَجْمَعُ بِهِ لَكَ فِي الدُّنْيَا حَيَاتَانِ (٦)

وذلك لأنَّ فعل الخير فى الدنيا تكون عاقبته خلودٌ ذكرُ فاعله بعد وفاته مادام

النَّاسُ يَنْتَفِعُونَ بِعَمَلِهِ الطَّيِّبِ عَلَى مَدَى الْيَوْمِ

(١) التمثيل والمحاضر ، ٤٢٢ .

(٢) نفسه ، نفس الصَّفحة .

(٣) نفسه ، ٤٢٣ .

(٤) نفسه ، ٤٣٣ .

(٥) نفسه ، نفس الصَّفحة .

(٦) جاء قبله : عمرُ الفتى ذكره لا طول مدته * * وموته خزيه لا يومه الدانى

فضلا انظر فى ذلك التمثيل والمحاضر ، ٤٠٣ .

وما يوافق المثل الكريم أيضاً قولهم :-

(أحزم النَّاسِ من إذا أحسن الدَّهرَ تلقَى الإحسان بلاحسان) (١)

هذه بعض الأقوال البشريَّة الموافقة لقوله تعالى :-

” هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ” .

ولا يفوتنا هنا أن نذكر بسمو المثل القرآني الكريم على غيره لمافيه من بلاغة واضحة ، وذلك في الاستفهام التقريري الذي جاء في بداية المثل ليقرّر ما جاء قبله من معانٍ سامية ، هذا فضلاً عما حققه أسلوب القصر أو الحصر من جمال في الأداء مع البلاغة في المعنى ، وقد جاء كل ذلك في إيجاز بديع مما لا يمكن أن يتحقق في غير القرآن الكريم المعجزه الخالدة لمحمد - صلى الله عليه وسلم - وعلى آله وصحبه أجمعين

١٦ - قال تعالى :-

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (١)

أ- المعنى العام :-

(أي أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ (مُرْتَهِنَةٌ) (٢) بِكَسْبِهَا مَأْخُودَةٌ بِعَمَلِهَا ، إِمَّا خَلَصَهَا وَإِمَّا أَوْبَقَهَا) (٣) .

وقيل انها تعني كل نفس مأمورة مشغولة بما عملت من معصية الله في الدُّنْيَا رهينة في جهنم (إلا أصحاب اليمين) فإنهم غير مرتهنين ، ولكمهم " في جنات يتساقون عن المجرمين " (٤) .

وقيل : (مأخوذة بعملها) (٥) .

ب- مناسبه في السِّيَاق :-

بعد استنهاض الرسول الكريم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - للدَّعْوَةِ (٦) بدأ في وعيد الكفار وتهديدهم بيوم القيامة (٧) ، ثم أخذ في ذكر قصة أحد هؤلاء الكفار وهو الوليد بن المغيرة المخزومي - مع محمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما أنزل في حقه من القرآن وادّعاؤه أنه سحري يؤثر (٨) وجزاء الله له على عباده وكفره بدخوله جهنم - والعيان بالله - التي لا تأتي على أحد إلا أهلكته (٩)

-
- (١) سورة المدثر ، ٣٨ .
(٢) أي : ثابتة مقيمة (إذا أُخِذَ فَعِيلٌ بِمَعْنَى فَاعِلٍ) أَمَا إِذَا أُخِذَ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ
أَي : كُلُّ نَفْسٍ مَقَامَةٌ فِي جَزَاءٍ مَاقَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ ، فَضلاً أَنْظَرَ فِي ذَلِكَ الْمَفْعُولَاتِ
فِي غَرِيبِ الْقُرْآنِ " رَهْنٌ " .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٦٨٧٨/٨ .
(٤) جامع البيان ١٦٤/٢٩ (بتصرف)
(٥) نفسه ١٢٦/٢٩ .
(٦) سورة المدثر ١ - ٧ .
(٧) نفسها ٨ - ١٠ .
(٨) نفسها ١١ - ٢٥ .
(٩) نفسها ٢٦ - ٣٩ .

وهكذا استمرَّ السِّيَاقُ فِي وصفِ جهنَّمَ وعددِ خزنتها والغرض من ذكر ذلك
العدد (١) .

ثم جاء القسم في السِّيَاقِ ببعض آياتِ الله العِظَامِ كالقمر في وضائه والليل في
رأبارة والصُّبْحِ في وضوحه إنَّ هذه النَّارَ ما هي ، إِلَّا آيةٌ كَبِيرَةٌ من آياتِ الله عَزَّ
وَجَلَّ الَّتِي يُنذِرُ بِهَا عِبَادَهُ جَمِيعاً سِوَاهُمْ من أَرَادَ العَمَلَ الطَّيِّبَ ، فيتعد بذلك
عن عذاب جهنَّمَ أو من فعل السُّوءَ فتقدَّم إليها تسوقه قدماه . . . (٢)

وهنا تأتي مناسبة المثل الكريم لما قبله في سياق السُّورَةِ الشَّرِيفَةِ إذ بيَّنَ هُنَا
المثل أَنَّ (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ) وَأَنَّ عَظْمَهَا هُوَ الَّذِي يَحْدُدُ جَزَاءَ هَا وَمَكَانَهَا
فِي الدَّارِ الآخِرَةِ من حيث البُعدِ أو القُرْبِ عن النَّارِ (٣) إِلَّا أَصْحَابَ الِيَمِينِ ، وَهُنَا
نَأْتِي إِلَى مَنَاسِبَةِ المِثْلِ لِمَا بَعْدَهُ فِي السِّيَاقِ .

إذ يذكر السِّيَاقُ الكَرِيمُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا هُوَ جَزَاءُ أَصْحَابِ الِيَمِينِ (٤) وَحَوَارِهِمْ
مَعَ المَجْرِمِينَ مِنَ الكُفَّارِ وَالمُنَافِقِينَ وَأَسْبَابِ ضِيَاعِهِمْ وَعَذَابِهِمْ هَذَا (٥) .
ثُمَّ أَكَّدَ السِّيَاقُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ القُرْآنَ مَا جَاءَ الِاتِّذَكِرَةَ وَعِبْرَةً لِمَنْ يَعتَبِرُ ، وَلا يَكُونُ
ذَلِكَ إِلَّا بِإِذْنِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى (٦) .

وهكذا بدأ لنا مدى ارتباط المثل و مناسبتة لما جاء قبله وبعده في سياق
السُّورَةِ الكَرِيمَةِ ، وَاللهُ أَطَمَ ،،،،،

(١) سورة المدثر ٣٠ - ٣١

(٢) سورة المدثر ٣٢ - ٣٧

(٣) نفسها ، ٣٨ .

(٤) قيل هم الملائكة وقيل أولاد المسلمين وقيل الذين سبقت لهم من الله الحسنات
وقيل أهل الجنة فإنهم لا يحاسبون وقيل هم المسلمون المخلصون ، وقيل هم
أصحاب الحق والإيمان ، وقيل هم الذين يعطون كتبهم بإيمانهم

إلى آخر ما جاء في تعريفهم ، فضلا انظر في ذلك الجامع لأحكام القرآن ٨ / ٦٨٧٨ .

(٥) سورة المدثر ٣٩ - ٥٣

(٦) نفسها ٥٤ - ٥٦

ج- العبرة منه :-

لاشكَّ أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ نَتِيجَةٌ سِوَاهُ ، كَانَ ذَلِكَ الْعَمَلُ خَيْرًا أَوْ شَرًّا ، وَهَذِهِ النَّتِيجَةُ

لَا يَدَّرُ أَنْ تَكُونَ مَنَاسِبَةً لِذَلِكَ الْعَمَلِ قَالَ تَعَالَى :- (١)

” فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ”

فَهَذِهِ النَّفْسُ تَبْدُو فِي هَذَا الْمِثْلِ الْكَرِيمِ قَيْدَ عَمَلِهَا وَرَهْنِ كَسْبِهَا ، فَإِنْ فَعَلَتْ

خَيْرًا كَانَ لَهَا ذَلِكَ الْخَيْرُ وَإِنْ أَضْمَرَتْ الشَّرَّ وَالسُّوءَ عَادَ عَلَيْهَا نَتِيجَةُ ذَلِكَ

لِذَا وَجِبَ الْإِكْتَارُ مِنْ عَمَلِ الصَّالِحَاتِ ، وَالْمَعْرُوفِ فِي الدُّنْيَا لِيَنَالَ الْإِنْسَانُ

جِزَاءَهُمَا فِي دُنْيَاهُ ، هَذَا فَضْلًا عَمَّا يَنْتَظَرُهُ مِنْ خَيْرٍ كَثِيرٍ فِي آخِرَتِهِ جِزَاءً ، وَفَاقًا لِمَا قَدَّمَ

مِنْ سَابِقِ الْأَعْمَالِ الطَّيِّبَةِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ

— — —

د- دراسته وتحليله بيانياً :-

لنعد هنا مرة أخرى إلى قوله تعالى :-

"كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ" (١)

كُلٌّ : لفظ "كُلٌّ" يستعمل لضم أجزاء الشئ وهو ضربان :-

أحدهما الضام لذات الشئ وأحواله المختصة به ويفيد معنى التمام نحو

قوله ! وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ أَي : بَسْطًا تَامًا

والثاني الضام للذوات وذلك مضاف تارة إلى جمع معرف بالألف واللام نحو قولك

كُلُّ القوم ، وتارة إلى ضمير ذلك نحو (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) أو إلى نكرة مفردة

نحو (وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْمِئْتَةٌ)

وربما عن الإضافة ويقدر ذلك فيه نحو "كُلٌّ فِي فُلْكِ يَسْبُحُونَ" (٢) وكل

هنا مما أضيف إلى نكرة كما نلاحظ .

نفس : (النفس هي الروح) (٣) .

كَسَبَتْ : (الكسب ما يتحرراه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع وتحصيل حظ لكسب المال

وقد يستعمل فيما يظن الإنسان أنه يجلب منفعة ثم استجلب به مضرة ، والكسب

يقال فيما أخذه لنفسه ولغيره ولهذا قد يتعدى إلى مفعولين فيقال كَسَبَتْ فُلَانًا

كذا ، والاكتساب لا يقال إلا فيما استفدته لنفسك فكلُّ اكتسابٍ كَسْبٌ وليس كلُّ كَسْبٍ

اكتساباً (٤)

وقد استعمل كلٌّ من الكسب والاكتساب في القرآن مع فعل الصالحات والسيئات

فمن استعمال الكسب في فعل الصالحات في القرآن قوله تعالى :-

" أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا " (٥)

(١) سورة المدثر ، ٣٨ .

(٢) المفردات في غريب القرآن " كلٌّ " . (بتصريف)

(٣) نفسه " نفس " .

(٤) نفسه " كسب " .

(٥) سورة الأنعام ، ١٥٨ .

وما استعمل في فعل السيئات قوله تعالى :- (١)

"إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ إِلَّا ثُمَّ سِجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ"

كذلك ما جاء في استعمال الاكساب في فعل الصالحات في القرآن الكريم قوله

تعالى :- (٢)

"لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ"

وقوله :- (٣)

"لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ"

(فقد قيل خص الكسب هاهنا بالصالح والاكساب بالشيء وقيل عني بالكسب

ما يتحرراه من المكاسب الأخرى ، وبالاكساب ما يتحرراه من المكاسب الدنياوية

وقيل عني بالكسب ما يفعله الإنسان من فعل خير و جلب نفع الى غيره من حيثما - يجوز

وبالاكساب ما يحصله لنفسه من نفع يجوز تناوله (٤)

ويقول ابن عطية بشأن كسب واكتساب :-

(ويظهر لي في هذا أن الحسنات هي ما تكتسب دون تكلف ، إذ كاسبها على

جادة أمر الله تعالى ورسم شرعيه ، والسيئات تكتسب ببناء المبالغة ، إذ كاسبها

يتكلف في أمرها خرق حجاب نهي الله تعالى ويتخطاه إليها ، فيحسن في الآية

مجيء التصريفين إحراراً لهذا المعنى (٥)

ويرى الزمخشري أن طريق الخير سهل لا يحتاج إلى تكلف واعتمال ، لذا خص

بالكسب ، أما الشر فيحتاج إلى تكلف النفس وانجذابها إليه مع جدّها وعملها فليس

تحصيله لذا جعلت مكتسبة فيه (٦)

(١) سورة الأنعام ، ١٢٠ .

(٢) سورة النساء ، ٣٢ .

(٣) سورة البقرة ، ٢٨٦ .

(٤) المفردات في غريب القرآن "كسب" .

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٢٣٨/٢ .

(٦) الكشاف ٣٠٨/١ (بتصرف) .

والخلاصة هنا : أن الكَسْبَ في المثل الكريم :-

”كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ“ .

قد استعمل للعمل الصالح والسيء معاً .

رهينة : (الرهن ما يوضع وثيقة للدين والرَّهَانُ مثله لكن يُخْتَصُّ بِمَا يُوَضَعُ فِيهِ)
(١) الحِطَارُ وأصلهما مصدر ، يقال رَهَنْتُ الرَّهْنَ وَرَاهَنْتُهُ رِهَانًا فَهُوَ رَهِينٌ وَمَرْهُونٌ . ويقال
في جمع الرهن رِهَانٌ مَرْهُونٌ وَمَرْهُونٌ ، وقرئ (فرهن مقبوضه) .

وقيل في قوله (كل نفس بما كسبت رهينة) إنه فَعِيلٌ بمعنى فاعِلٍ أي ثابتة مُقِيمَةٌ
وقيل بمعنى مَفْعُولٍ أي كلُّ نفس مُقَامَةٌ فِي جِزَاءٍ مَاقَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ ، وَلَمَّا كَانَ الرَّهْنُ
يَتَصَوَّرُ مِنْهُ حَبْسُهُ اسْتَعِيرَ ذَلِكَ لِحَبْسِ أَيِّ شَيْءٍ كَانَ قَالَ :-

”بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ“ (٢)

ورِهينة بمعنى رَهْنٌ هنا كالتثمينه بمعنى الشتم وليست بمعنى مَفْعُولٍ ، لِأَنَّهَا
بِغَيْرِ تَاءٍ لِلْمَذَكَّرِ وَالْمَوْنَتِ نَحْوِ رَجُلٍ قَتِيلٍ وَامْرَأَةٍ قَتِيلَةٍ ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْمَعْنَى فِيهِ
قَوْلُهُ ”كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ“ أَي : كُلُّ نَفْسٍ رَهْنٌ عِنْدَ اللَّهِ غَيْرُ مَفْكُوكٍ .

وقيل اليها في ”رهينة“ للمبالغة (٣)

ويرى أبو حيان أن ”رهينة“ ما دخلت فيه التاء وإن كان بمعنى مفعول لأنها

خبر عن مؤنث (٤)

هذا وكما نلاحظ أن هذا المثل الكريم قد جاء بمثابة توكيد وتقوية للمعنى قبله
وهو ما يعرف بالتذييل في اصطلاح البلاغيين ، هذا فضلاً عما يحيطه هذا المثل من إيجاز
لمعان كثيرة يمكن أن تفهم من خلال ألفاظه اليسيرة (٥) والتي سبقت الإشارة إليها
في المعنى العام (٦) واللّه أعلم ،،،

(١) الحِطَارُ أَمَا حِطَرٌ عَلَى غَنَمٍ أَوْ غَيْرِهَا بِأَغْصَانٍ أَوْ شَيْءٍ مِنْ رَطْبِ شَجَرٍ أَوْ يَأْبَسُ

وَلَا يَكَادُ يُفْعَلُ ذَلِكَ إِلَّا بِالرَّطْبِ مِنْهُ ثُمَّ يَبْسُ (مقاييس اللغة (حِطَرٌ) .

(٢) المفردات في غريب القرآن ”رهن“ .

(٣) البحر المحيط ٣٧٩/٨ (بتصرف) .

(٤) نفسه ٣٧٩ (بتصرف) .

(٥) وهو ما يعرف بإيجاز القصر في اصطلاح البلاغيين .

(٦) فضلاً راجع ص ٤٧٩ - من هذا البحث (المعنى العام للمثل) .

هـ ما يوافق من كلام البشر :-

قيل ان القول البشرى الموافق لقوله تعالى :-

"كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ"

هو قولهم :-

(١) (كُلُّ شَاةٍ بِرِجْلَيْهَا سَتْنَاطٌ) (١)

سَتْنَاطٌ : أصل الكلمة التَّوْنُ والواو والطاء . وهو : (أصلٌ صحيح يدلُّ على

تعليق شيء بشيء . ونطقه به : طَقَّته به ، والنَّوْطُ : ما يُتعلَقُ به أيضاً

والجمع أنواط .) (٢)

ومعنى المثل هو أن كلَّ إنسان مجازيٌّ على عمله ولا ينبغي أن يؤخذ أحدٌ بذنب

غيره (٣) .

وهكذا بدا لنا كيف وافق المثل البشري "كُلُّ شَاةٍ بِرِجْلَيْهَا سَتْنَاطٌ" قوله تعالى :-

"كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ"

ويلحق بذلك وإن كان الخير غالباً عليه قولهم :-

(الصَّنَائِعُ وَدَائِعُ) (٤) .

والصَّنَائِعُ : جمع مفردة صَنِيعَةٍ وأصلها الصَّاد والعين والنون وهي ما عمل صنعاً

(والصَّنِيعَةُ ما اصطنعتُ من خير) (٥) .

الودَائِعُ : جمع مفردة وديعه وأصله (الواو والداد والعين وهو أصل واحد

يدلُّ على التَّركِ والتَّخْلِيَةِ ودعه أي : تركه) (٦)

(١) التمثيل والمحاضرة ، ١٨ وفي رواية كُلُّ شَاةٍ تَتَنَاطُ بِرِجْلَيْهَا ، كتاب الأمثال ٢٧٤

وفي أخرى كل شاة برجلها معلقة ، كتاب الأمثال هامش ص ٢٧٤ .

(٢) مقاييس اللغة "نوط" . (يستهزأ)

(٣) كتاب الأمثال ، ٢٧٤ .

(٤) التمثيل والمحاضرة ، ٤٢٢ .

(٥) مقاييس اللغة "صنع" .

(٦) نفسه "ودع" .

وذلك لأنَّ الإنسان إذا قام بأي عمل سِوَا ما كان ذلك العمل خيراً أو شراً إنَّما يتركه وديعة إلى يوم معهود ثمَّ تُردُّ إليه تلك الوديعة بما يناسبها من جزاء .

هذا ومما وافق قوله تعالى :-

”كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ“ .

قولهم :-

(لا تُظهِرِ الشَّمَاتَةَ بِأَخِيكَ ، فِيعَافِيكَ اللَّهُ وَيُبْتَلِيكَ) (١)

أبي :-

لا تشمت بمن حلَّ به بلاءٌ فإنَّ عوفي كان مثلك وأنت إن ابتليت كنت مثله (٢)
فالكسب يمكن أن يكون في الأعمال الصالحة أو السيئة ويمكن أن تكون النفس رهينة بما كسبت في الدنيا والآخرة وعلى هذا وافق القولان السابقان المثل القرآني الكريم من حيث المعنى .

هذا ويسمو المثل القرآني الكريم .

”كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ“ على غيره من أقوال بشرية لمافية من بلاغة واضحة في أداء المعاني الكثيرة في أيسر لفظ وأقله (٣) ، هذا فضلاً عن كونه أفاد تقوية المعنى قبله وتوكيده (٤) .

ولا يفوتنا هنا أن ننوه بذلك المنهج السليم الذي أوضحه لنا المثل القرآني الكريم للنفس البشرية في حياتها الدنيا لتكسب بذلك سعادة الدارين - إن اختارت الصواب - ولنعلم أن ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم من آيات كريمات ماهي إلا دليل على صدق نبوته - صلى الله عليه وسلم .

(١) التمثيل والمحاضرة ، ٤٣٣ .

(٢) نفسه ، ٤٣٣ .

(٣) فهو يعتبر من إيجاز القصر في القرآن .

(٤) أي تذييل على ما قبله وهي الآية رقم ٣٧ .

تذييل :-

أشرنا فيما سبق (١) إلى أنّ الأمثال المرسلّة هي عبارة عن جمل أرسلت وإرسالاً من غير تصريح بلفظ التشبيه فيها ، فهي عبارة عن آيات أو أجزاء من الآيات جارية مجرى الأمثال ولها ما يوافقها من أقوال البشر .

هذا وقد وقع الاختيار على خمسة عشر مثلاً من هذا النوع للتحليل والدراسة البيانية وقد سرنا وفق منهجنا الدراسي في الباب السابق وذلك للتشابه الكبير بين هذين النوعين من الأمثال (الكامنة - والمرسلّة) وقد لاحظنا أنّ معظم أمثال هذا الباب هي من إيجاز القصر في القرآن وهنا نذكر بالمنهج المتبع في دراسة كلّ مثل وهو :-

- أ - المعنى العام للمثل .
- ب - مناسبته في السياق .
- ج - العبرة منه .
- د - دراسته بيانياً .

٥ - ما يوافق من أقوال البشر - مع دراسة المثل الأول (نقطة المنطلق) دراسة

بيانية والإشارة إلى سمو المثل القرآني على غيره .

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ،،،،

.. سبحان ربك رب العزّة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله

رب العالمين ،،،،،

الخاتمة

ذكرنا في التمهيد أنّ المثل في اللغة يعني الشبه ، فإذا قيل هو مثله في كذا فهو مساوٍ له في جهة دون أخرى . . . ويمكن أن يكون بمعنى الصفة أو العبرة .
أما إذا قيل جعل مثلاً أي مقداراً لغيره يحذى به أو القالب الذي يقدر عليه وجمعه مُثل وأمثلة .

وقولنا رأيتُه مائلاً بين يدي فلان أي قائماً أو مُنتصباً ، وقد سُميت الحُكم القائم صدقها في العقول أمثالاً لا انتصاب صورها في العقول .
أما المثل فهو قول سائر شُبه به حال الثاني بالأول والأصل فيه التشبيه قال الشاعر :-

كانت مواعيدُ عُقوبٍ لَهَا مثلاً * * و م مواعيدُهُ إلا الأباطيلُ
والتقينا بعد ذلك بتعريف المثل في الاصطلاح الأدبي فأشرنا : أنّ المثل عندهم هو قول سائر يشبه به حال الثاني بالأول أو هو قول سائر مُثل فيه مضربه بمورده ولم يضربوه مثلاً إلا أراه أهلاً للتسيير ولا جديراً بالتداول والقبول إلا قولاً فيه غرابة ممن بعض الوجوه . ومن حُكم المثل أنه لا يتغير لأنه جعل كالعلم .
و خلاصة ما بنى عليه الأدباء تعريفهم للمثل هو ثلاث ركائز المورد والغرابكة والسيرورة .

أما عند البلاغيين فخلاصة تعريفاتهم هي :-
كشَف الحِجاب عن الأمور العقلية الخفية وتشبيهها بالمحسوسات الجلية حتى تبدو في صورة مألوفة قريبة من الأفهام والتصورات ولا فرق في ذلك بين إبرازها في أسلوب التشبيه أو الكناية أو الاستعارة مادام القول بليفاً موجزاً مؤدياً الغرض المطلوب .

أما معنى المثل عند المفسرين فيجمعنا بمعناه ماورد في القرآن الكريم من معانٍ منها بمعنى الشبه كقوله تعالى " وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ " ٤٣ العنكبوت ومنها بمعنى التسيير كقوله تعالى :-

" أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ " أي سير مؤمني الأمم الخالية . (البقرة ٤٢) .

وبمعنى العبرة كقوله تعالى " فَجَعَلْنَا هُمْ سَلْفاً وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ " (الزخرف ٥٦)

وبمعنى عذاباً كقوله تعالى " وَكَلَّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ " (الفرقان ٣٩) .

أي وصفنا له العذاب

وبمعنى الصفة أو الهيئة المميزة للشيء ، وقد يتجاوز هذا المعنى فيستعار

للحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة كقوله تعالى :-

" مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً " (البقرة ، ١٧) .

أي : حالهم العجيبة الشأن كحال الذي استوقد ناراً .

وقد يُستعار لفظ المثل للوصف كقوله تعالى :-

" ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ " . (الفتح ٢٩)

ويأتي أيضاً في القرآن لرفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية ليرزها في معرض

المحسوسات الجليئة

ويأتي أيضاً بمعنى الآية كقوله تعالى :-

" إِنْ هُوَ إِلَّا عِبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ، وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ " (الزخرف) أي آية لهم .

ثم انتهينا بعد ذلك إلى رأينا الشخصي في معنى المثل القرآني الكريم وانتقلنا

بعد ذلك إلى تطور دلالة لفظ المثل ، ثم إلى معنى الضرب في اللغة وذكرنا

أنه يعني إيقاع شيء على شيء .

أما معناه مضافاً إلى الأمثال فيعني (المثل والشبه أو التمثيل وقوله تعالى :-
" يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ " أي : يمثّل الحقّ والباطل حيث ضرب مثلاً للحقّ
والباطل والكافر والمؤمن من هذه الآية ، وقد يأتي بمعنى المِثال يُقال هذه الأشباه
على هذا الضرب أي على هذا المِثال ، وذهب آخرون إلى أنّه بمعنى الوصف والبيان
قال تعالى : (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا) (النحل ٧٥) أي وصف شبيها وقال الشاعر :-

وذلك ضرب أحماسٍ أريدتُ
لأسد اس عسى ألا تكونا

أي بيان .

وذهب آخرون إلى أنّ الضرب بمعنى التثبيت والاعتماد والوضع قال تعالى :-
" يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ " (الحج ٧٣) .
فهو هنا بمعنى التثبيت والوضع .

وقد تأتي بمعنى الذكر كقوله تعالى :-

" وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ " (يس ١٣) .

أي اذكر لهم

وقد يأتي بمعنى الأخذ والانتزاع كقوله تعالى :-

" ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ " . (الرمد ٣٨)

أي أخذ لكم مثلاً وانتزعه من أقرب شيء منكم ويكون ضرب المثل بمعنى سيره فسي

البلاذ وبهذا يرتبط بالمعنى اللغوي للضرب وهو الإسراع في السير . قال تعالى :-

" وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ

الَّذِينَ كَفَرُوا ... " (النساء ١٠١) .

وقد يكون ضرب المثل أي نصبه بإشهاره لتستدلّ عليه خواطرهم وهو بهذا مشتق

من قولهم :

(ضَرَبْتُ الْخِيَابَ إِذَا نَصَبْتَهُ وَأَثَبْتُ طُنْبَهُ)

قال تعالى :-

" كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ " أي ينصب منارهما ويوضح أعلامهما وقد يفهم من ضرب المثل انشاؤه فيكون بذلك مشتقاً من ضرب اللبّن وضرب الخاتم .

أو يفهم منه ايقاع شيء على شيء كفاي ضرب الدراهم وهكذا انتهينا بعد ذلك إلى قولنا الخاص في معنى ضرب المثل - وذكرنا أنه يعني :-

إبقاء شيء على شيء ، والشئ الأول هو الذي أخذ منه الممثل وهو المـمـرـر والشئ الثاني هو المـضـرـب فيكون بذلك ضرب المثل هو تمثيل مضربه بمورده أي تشبيهه الحال الثانية بالأولى ثم تكون له طبيعة السيرة والانتشار بين الناس في مختلف الأماكن والأعمار وعلى تفاوت مستويات الأذواق والفهم عندهم .

أما عن أهمية ضرب المثل في الكلام وفائدته - فقد أشرنا إلى آراء بعض اللغويين والأدباء قديماً وحديثاً ، والمفسرين في هذا المجال وحاولنا ترتيب ذلك ترتيباً زمنياً ثم أدلينا برأينا الشخصي في ذلك : إن اتفقنا فيه مع الدكتور نبيله ابراهيم في رأيها القائلة فيه . . .

"إننا نعيش جزءاً من مصائرنا في عالم الأمثال ولعلّ هذا يفسّر لنا استعمالنا الدائم للأمثال " ص ٤٠ (من البحث) .

كذلك اتفقنا مع الأستاذ محمد جابر الفيّاض في رأيه القائل فيه :-

" لعلّ أهمية الأمثال ترجع إلى نزعة الإنسان في تأكيد ذاته إزاء الحياة "

ص ٤٠ - ٤١ (من البحث) .

ولما كان للأمثال فائدتها في القرآن الكريم ذكرنا أمثلة من القرآن لتوضيح هذه

الفوائد التي هي :-

١ - إبراز المعقول في هيئة المحسوس .

٢ - الكشف عن الحقائق المجردة وعرض الغائب في معرض الحاضر في صورة مؤدية للغرض

في إيجاز بليغ .

٣ - التَّغْيِيبُ فِي الشَّيْءِ .

٤ - التَّنْفِيرُ مِنْهُ .

ثمَّ ذكرنا الفرق بين الحكمة والمثل وهنا أشرنا إلى معنى الحكمة لفةً إذ أشار اللُّغَوِيُّونَ إلى معانٍ كثيرة للحكمة منها المعرفة والإتقان والعدل والعلم والحلم ومعرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ، وقيل هي العِظَةُ والفَهْمُ والنَّبُوَّةُ والقُرْآنُ تفسير القرآن وقيل هي : (إصَابَةُ الْحَقِّ بِالْعِلْمِ وَالْعَقْلِ وَمَعْرِفَةُ الْمَوْجُودَاتِ وَفِعْلُ الْخَيْرَاتِ ، وَمَعْرِفَةُ أَفْضَلِ الْأَشْيَاءِ بِأَفْضَلِ الْعُلُومِ ، الْعِلْمِ وَالْعَدْلِ فِي الْقَضَاءِ وَالنَّبُوَّةَ وَالْقُرْآنَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ، التَّفَقُّهُ ، الْعِلْمُ بِحَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ - فِي نَفْسِ الْأَمْرِ - بِقَدْرِ الطَّاقَةِ الْبَشَرِيَّةِ) (١)

هذا وقد قيل عن الحكمة اصطلاحاً إِنَّهَا : (الْكَلَامُ الْقَائِمُ عَلَى الْعِلْمِ وَالْمَوْجِبُ

إِلَى الصَّوَابِ ، وَالسَّدَادُ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ) (٢)

أَمَّا الْفُرُوقُ الْوَاضِحَةُ بَيْنَ كُلِّ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْمَثَلِ فَهِيَ :-

١ - اعتماد الأمثال على تجسيد الفكرة وتصويرها .

٢ - ارتباطها بمناسباتها .

٣ - تهدف إلى التوجيه غير المباشر .

٤ - اعتمادها على السيرة والانتشار (تشبيه المضرب بالمؤرد) .

ثمَّ عَقَّبْنَا عَلَى ذَلِكَ بِرَأْيِ الْأَسْتَاذِ مُحَمَّدِ جَابِرِ الْفَيَّاضِ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ :-

(وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ فَالْحِكْمَةُ تَلْتَقِي مَعَ الْمَثَلِ فِي بَعْضِ الْخِصَائِصِ إِلَّا أَنَّهَا تَخْتَلِفُ

عَنْهُ فِي خِصَائِصٍ أُخْرَى لَيْسَ مِنَ الْيُسْرِ التَّفَاضِي عَنْهَا) (٣) .

(١) معجم متن اللغة ، " حكم " .

(٢) الحكم والأمثال ، لجنة من الأدباء ص ٨ .

(٣) فضلا انظر ص (٥٢) من هذا البحث .

وأشرنا بعد ذلك إلى جهود الدارسين قديماً وحديثاً في أمثال القرآن لأهمية هذا الموضوع وجماله وحاولنا ترتيب ذلك زمنياً .

وذكرنا بعد ذلك أن الأمثال على ثلاثة أنواع :-

المثل الموجز أو السائر ، والمثل القياسي ، المثل الخرافي وحاولنا إظهار بعض الفروق بين القياسي والخرافي .

وعند تعريفنا للمثل والتَّمثِيل (أو التَّشْبِيهِ التَّمثِيلِي) أشرنا إلى آراء البلاغيين في ذلك من أمثال الشيخ عبد القاهر الجرجاني والسكاكي والقزويني والجمهور والزمخشري وعلماء اللغة .

وهنا وصلنا إلى بيان أنواع أمثال القرآن واتبعنا في ذلك رأي السيوطي في كتابه الإتقان في علوم القرآن والشيخ مناع قطان في كتابه مباحث في علوم القرآن . إذ ذكر كل منهما ثلاثة أنواع للأمثال القرآنية :-

١ - الأمثال المصراحة وهي التي صرح فيها بلفظ المثل مع وجود التشبيه أو التي تسدل

على التشبيه بدون التصريح بلفظ المثل أحياناً كقوله تعالى :- (سورة بقره ٢١٠)

"مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ"

وقوله تعالى : "وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا" . (ال عمران ١٠٣)

٢ - الأمثال الكامنة : وهي التي لا ذكر للفظ المثل فيها وإنما تدل على معانٍ رائعة

في إيجاز يكون لها وقعها إذا نقلت إلى ما يشبهها وأضفنا إلى ذلك - أن

منها ما يأتي على سبيل الاستعارة أو الكناية أو التشبيه كقوله تعالى :-

"وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ " فهو يوافق قولهم :- (خير

الأمور أوساطها) .

٣ - الأمثال المرسلة : وتسمى أيضاً ألفاظ من القرآن جارية مجرى الأمثال وهي

عبارة عن آيات أو أجزاء من آيات أرسلت إرسالاً يمكن أن نجريها مجرى الأمثال

ويمكن أن نجد ما يوافقها من كلام البشر مع فارق الجلال والجمال كقوله تعالى :-

* قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ *

ويوافقه قولهم :-

• (سبق السيف العذل)

وقوله تعالى :-

* أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ *

ويوافقها قولهم :-

• (وَإِنْ غَدًا لِنَظُرَهُ قَرِيبٌ)

ثم كانت أبواب البحث الثلاثة، إذ تناول كل باب منها نوعاً من الأمثال .

فكان الباب الأول عن الأمثال المصروفة وتناولنا فيه خمسة عشر مثلاً بالتحليل

والدراسة البيانية إذ اتبعنا المنهج التالي في دراسة كلٍّ مثل .

أ - المعنى العام للمثل .

ب - مناسبه في السياق .

ج - العبرة منه .

د - دراسته بيانياً .

أمَّا الباب الثاني فكان عن النوع الثاني من أمثال القرآن وهي الأمثال الكامنسة

وتناولنا فيه ما ذكره السيوطي في كتابه الإتقان وعددها سبعة عشر مثلاً بالدراسة

والتحليل .

واتبعنا في دراسة كلٍّ مثل المنهج الاتي :-

١ - المعنى العام للمثل .

ب - مناسبه في السياق .

ج - العبرة منه .

د - دراسته بيانياً .

هـ - ما يوافق من أقوال البشر .

و - دراسة المثل المختار بيانياً .

وتناولنا في الباب الثالث النوع الثالث من الأمثال وهي الأمثال المرسلّة أو الألفاظ الجارية مجرى الأمثال وتناولنا خمسة عشر مثلاً بالدراسة والتحليل واتبعنا في كلّ مثل منها المنهج السابق لدراسة الأمثال الكامنة نظراً لشدة التشابه بينهما .

ثمّ كانت . . هذه خاتمة البحث وقد توصلنا فيها إلى النتائج التالية :-

١ - إن أمثال القرآن جاءت وقبل كل شيء لهدف ديني سامٍ وهو ضرورة أخذ العبرة والعظة منها مع ما فيها من مواعظ اجتماعية ونفسية هامة وليس كما ذكر صاحب رسالة الصورة الفنية في المثل القرآني أن العبرة الدينية هي آخر هذه الغايات .

٢ - إن بعض الأمثال المصرحة لم يذكر فيها لفظ المثل ولكنها تعتبر من هذا النوع وذلك لوجود التشبيه فيها واضحاً كقوله تعالى :- (سورة آل عمران ١٣)

"وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً " وقوله تعالى :- (سورة ليقره ٧٥)

"الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ "

٣ - إن بعض أمثال القرآن ورد فيها لفظ المثل ولا تعدّ من الأمثال المصرحة كقوله تعالى :

"وَضُرِبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ "

٤ - إن بعض الآيات أو أجزاء منها لم يذكر فيها لفظ المثل ولم يوجد فيها التشبيه أو الاستعارة أو الكناية ولكنها جرت مجرى الأمثال بدليل وجود ما يماثلها من أقوال البشر كما جاء في الباب الثالث في قوله تعالى :- (سورة الرحمن ٦)

"هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ " . وقوله :- (سورة المدثر ٢٨)

"كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينًا "

٥ - إن معظم أمثال الباب الثالث يمكن أن تكون من إيجاز القصر في القرآن .

٦ - إنَّ مناسبة المثل في السِّيَاق - سَوَاءٌ كان ذلك سِيَّاق الآية الَّتِي ورد فيها أو سِيَّاق آيته في السُّورَة هُوَ بِلَاغَة في ذاته لِأَنَّهُ - كما لاحظنا - لا يَأْتِي، إِلَّا لِإِضَاحِ مَعْنَى مراد كما هو في الباب الأوَّل من البحث ، أو لِلتَعْقِيبِ على شيءٍ معلوم كما في الباب الثَّانِي أو لِتَقْوِيَةِ مَعْنَى سابق وتوكيده كما في الباب الثَّالِث .

هذا ماتمكَّنًا الوصول إليه من نتائج بعد بحث ودراسة دائِئِينَ وَاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَسْأَلُهُ الرَّشَادَ وَالصَّوَابَ .

أَمَّا عن مقترحاتنا في هذا المجال فهي :-

١ - أن يَتَّجِهَ طُلَّابُ الأَدَبِ وَطالِبَاتِهِ إِلَى أمثال هذه الدَّرَاسَاتِ البَيَانِيَّةِ القُرْآنِيَّةِ ، لِما في هذا المجال من شرف خِدْمَةِ القُرْآنِ الكَرِيمِ مع ما فيه من فَوَائِدٍ لُغَوِيَّةٍ وَأَدْبِيَّةٍ كُبْرَى ، هذا فضلًا عما يشعربه البَاحِثُ من هُدًى وَرُوحِيٍّ وَرَاحَةٍ نَفْسِيَّةٍ أَثناءَ العَمَلِ نَفْسِهِ ، وَغَنِيًّا عَنِ البَيَانِ ما يَنْتَظِرُهُ من جَزِيلِ ثَوَابِ الآخِرَةِ إِنْ شاءَ اللهُ .

وبعد :-

فهذا جُهدٌ متواضِعٌ أضعه بين يدي قرائه وناقديه ، ولا أدعي لنفسي الكمال والصَّوَابَ فيه فسبحان رَبِّ الكَمالِ وَإِنَّمَا أَطالِبُ كُلَّ مَنْ يَقرُّهُ الأمانَةَ والإِخْلاصَ لِلَّهِ ثُمَّ في إِسْداءِ النَّصْحِ وَالتَّوَجِيهِ لي - فجلَّ من لا يُخْطِبيءُ وما خُضَّتْ بَحْرُ العِلْمِ إِلَّا لِأَتَعَلَّمَ مَهارةَ السَّباحَةِ في عُبابِهِ ، وَاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أسألُ التَّوْفِيقَ والسَّدادَ وَما توفَّقني إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ توكلتُ وَإِليه أُنِيبُ ،،،،

”سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ” ،،،،،،،،

مصادر البحث ومراجعته

أولاً : القرآن الكريم .

ثانياً : الحديث النبوي الشريف .

- أ -

١ - الاتقان في علوم القرآن - جلال الدين السيوطي ج ٢ ط (بدون) دار الفكر بيروت .

٢ - الأدب الصغير ، عبد الله بن المقفع . ط سنة ١٩٧٤ م دار بيروت للطباعة والنشر .

٣ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، أبو السعود محمد بن محمد العثماني ، ط (بدون) دار احياء التراث العربي - بيروت لبنان .

٤ - أساس البلاغة . جار الله أبو القاسم محمد بن عمر الزمخشري . تحقيق عبد الرحيم محمود ، ط سنة ١٩٨٢ م ، دار المعرفه - بيروت .

٥ - أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، شرح محمد عبد المنعم خفاجي ط ٢ سنة ١٩٧٦ م - مكتبة القاهرة .

٦ - الأسس المبتكرة لدراسة الأدب الجاهلي ، عبد العزيز مزروع الأزهرى ط ١ ، مطبعة العلوم - مصر سنة ١٩٥٠ م .

٧ - الأشباه والنظائر في القرآن ، مقاتل بن سليمان البلخي ، تحقيق عبد الله شحاته ج ١ ط سنة ١٩٧٥ م .

٨ - أشكال التعبير في الأدب الشعبي ، د . نبيلة إبراهيم ، مطبعة العالم العربي ط ١ وبدون تاريخ .

٩ - إعجاز القرآن ، أبو بكر الباقلاني ، تحقيق أحمد صقر ، ط ٣ - دار المعارف مصر .

١٠ - أمثال الحديث مع تقدمه في علوم الحديث . د . عبد المجيد محمود ط ١ ، دار التراث ، القاهرة وبدون تاريخ .

- ١١ - الأمثال العامية في نجد ، محمد العبودي ط سنة ١٩٥٩ م ، دار الكتب المصرية
عيسى الحلبي .
- ١٢ - الأمثال العامية في مصر ، أحمد تيمور باشا ط ٢ سنة ١٩٥٦ م ، دار الكتاب
العربي مصر .
- ١٣ - الأمثال العامية البغدادية ، الشيخ جلال الحنفي - مطبعة أسعد . بغداد
سنة ١٩٦٢ م .
- ١٤ - الأمثال العربية القديمة - رودلف زلهام ، ترجمة رمضان عبد التواب ط ٢ سنة
١٩٨٢ م ، مؤسسة الرساله .
- ١٥ - الأمثال في القرآن الكريم ، ابن القيم الجوزية ، تحقيق محمد نمر الخطيب
ط ١ سنة ١٩٨١ م ، دار المعرفة للطباعة ، بيروت .
- ١٦ - الأمثال في القرآن ، محمود دين الشريف ، سلسلة اقرأ سنة ١٩٦٥ م ، دار
المعارف القاهرة .
- ١٧ - الأمثال في القرآن الكريم ، محمد جابر الفياض ، رسالة ماجستير مضمونه على
الآلة - مكتبة الدراسات العليا - جامعة عين شمس سنة ١٩٦٨ م .
- ١٨ - الأمثال في القرآن ، محمد طاهر اللوسوي ، ط سنة ١٩٦٦ م ، مطبعة الفردي
التجف الأشرف .
- ١٩ - أمثال القرآن وأثرها على الأدب العربي إلى نهاية القرن الثالث الهجري
نور الحق تنوير ، رسالة ماجستير مضمونه على الآله ، مقدمة إلى كلية دار العلوم
جامعة القاهرة عام سنة ١٩٦٣ م .
- ٢٠ - أمثال القرآن . منصور العبدلي ، رسالة ماجستير مضمونه على الآله ، قدمت
إلى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة أم القرى سنة ١٩٧٤ م .
- ٢١ - الأمثال القرآنية ، عبد الرحمن حبنكة الميداني ط سنة ١٩٧٩ م ، دار العلم
بيروت .
- ٢٢ - الأمثال في النثر العربي القديم مع مقارنتها بنظائرها في الآداب السامية
الأخرى . د . عبد المجيد عابدين ط ١ ، دار مصر للطباعة .

٢٣ - أنوار التنزيل ، ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي
البيضاوي ط ٢ سنة ١٩٥٥ م - شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي وأولاده
مصر .

- ب -

٢٤ - البحر المحيط ، محمد بن يوسف (أبو حيان الأندلسي الخرناطي ط ٢ سنة
١٩٨٣ م) ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

٢٥ - بديع القرآن ، زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد المصري (ابن أبي الإصبع)
تحقيق . د . محمد شرف ، مطبعة الرسالة القاهرة سنة ١٩٥٧ م .

٢٦ - البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين محمد ابن عبد الله الزركسي . تحقيق
محمد أبو الفضل ابراهيم . ط سنة ١٩٧٢ م ، دار المعرفة للطباعة والنشر
بيروت .

٢٧ - البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية . د . محمد
أبو موسى ، دار الفكر العربي .

- ت -

٢٨ - تأملات في سورة الاسراء . د . حسن محمد باجوده سنة ١٣٩٥ هـ ، دار الاعتصام .
القاهرة .

٢٩ - تأملات في سورة الحاقه . د . حسن محمد باجوده سنة ١٣٩٧ هـ ، دار الاعتصام
القاهرة .

٣٠ - تأملات في سورة الفرقان . د . حسن محمد باجوده سنة ١٣٩٦ هـ ، دار النور .

٣١ - تأملات في سورة يس . د . حسن محمد باجوده سنة ١٣٩٤ هـ . دار الاعتصام .

٣٢ - تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي . السباعي بيومي ، مطبعة العلوم
سنة ١٩٣٢ م مصر .

٣٣ - تاج العروس من جواهر القاموس . محمد مرتضى الزبيدي ط ١ ، المطبعة
الأميريّة سنة ١٣٠٦ هـ .

٣٤ - التبيان في تفسير القرآن . أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي . تحقيق
أحمد حبيب القصير ، المطبعة العلميّة ، النجف الأشرف سنة ١٩٥٧ م .

- ٣٥ - التَّغْيِبُ وَالتَّرْهِيْبُ ، عبد العظيْم بن عبد القوي ط سنة ١٩٥٤ م ، مصطفى البابي الحلبي .
- ٣٦ - التَّصْوِيرُ البَيَانِي ، دراسة تحليليَّة لمسائل البيان . د . محمَّد أبو موسى ط سنة ١٩٨٠ م ، مكتبة وهبه القاهرة .
- ٣٧ - التَّعْبِيرُ الفُتِّي فِي القُرْآن . د . بكرى شيخ أمين ط ٣ سنة ١٩٧٩ م دار الشُّرُوق جده .
- ٣٨ - تفسير بن جُزَيِّ (الكَلْبِي) أشرف عليه لجنة تحقيق التُّراث بدار الكتاب العربي .
- ٣٩ - تفسير بن كثير ، أبو الفداء اسماعيل ، ابن كثير القرشي الدَّمَشْقِي . ط سنة ١٩٨١ م ، دار الفكر للطباعة والنَّشر والتَّوزيع .
- ٤٠ - تفسير البَغُوي ، أبو محمَّد الحسين بن مسعود الفراء البغوي . هامش تفسير الخازن ، ط ٢ سنة ١٩٥٥ م ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده . القاهرة .
- ٤١ - تفسير القرآن الحكيم (المنار) محمَّد رشيد رضا . ط ٢ ، دار المعرفَة للطباعة والنَّشر ، بيروت ، لبنان .
- ٤٢ - التَّفسير القِيَمِّ ، ابن القِيَمِّ جَمَعَهُ ، محمَّد أديس الندوي . تحقيق محمَّد حامد الفقي ، لجنة التُّراث العربي بيروت ، توزيع المركز الدَّولي للتُّراث العربي .
- ٤٣ - التَّفسير الكبير ، الفخر الرَّازِي (أبو عبد الله محمَّد بن عمر بن حسين القُرشي الطُّبرستاني) ط ٣ دار احياء التُّراث العربي ، بيروت .
- ٤٤ - تلخيص البيان في مجازات القرآن ، الشَّريف الرضي . محمَّد بن الحسين الموسوي تحقيق . محمد عبد الغني حسن . دار احياء الكتب العربيَّة سنة ١٩٥٥ م القاهرة .
- ٤٥ - التَّلْخِيصُ فِي طُومِ البَلَاغَةِ ، جلال الدِّين محمَّد بن عبد الرَّحْمَنِ القُزويني الخطيب ضبط وشرح عبد الرَّحْمَنِ البرقوقي ط ٢ سنة ١٩٣٢ م ، دار الكتاب العربي بيروت ، لبنان .
- ٤٦ - تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع . محمَّد عبد الرَّحْمَنِ الخطيب القُزويني ، الطَّبعة الأخيرة ، مطبعة الحلبي مصر .
- ٤٧ - التَّمْثِيلُ وَالمَحَاضِرُ . أبو منصور عبد الملك بن محمَّد بن اسماعيل الثَّعالبي . تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ط سنة ١٩٦١ م ، دار احياء الكتب العربيَّة ، القاهرة .

- ج -

- ٤٨ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ط ٣ سنة ١٩٦٨ م ، مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي وأولاده . مصر .
- ٤٩ - الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله محمد ابن أحمد الأنصاري - القرطبي كتاب الشعب .
- ٥٠ - جمع الجوامع ، جلال الدين السيوطي (الجامع الكبير) تصوير الهيئة المصرية للكتاب .
- ٥١ - جمهرة الأمثال ، أبو هلال العسكري ، تحقيق . محمد أبو الفضل إبراهيم . د . عبد المجيد قطامش ، القاهرة سنة ١٩٦٤ م .
- ٥٢ - جمهرة الأمثال ، أبو هلال العسكري - اعنى بطبعة الميرزا محمد سنة ١٣٠٧ هـ .

- ح -

- ٥٣ - حاشية الشرف علي بن محمد الجرجاني على الكشاف (بهامش الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل) ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمير الزمخشري الخوارزمي ط الأخيرة سنة ١٩٧٢ م ، مصطفى البابي الحلبي وشركاه .
- ٥٤ - حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده .
- ٥٥ - الحكم والأمثال ، حنا الفأخوري ، ط القاهرة سنة ١٩٦٩ م ، دار المعارف مصر .
- ٥٦ - الحكم والأمثال ، لجنة من الأدباء العرب . دار المعارف . مصر .
- ٥٧ - الحيوان ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، القاهرة .

- خ -

- ٥٨ - خاص الخاص . أبو منصور عبد الطك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي ط ١ مصر سنة ١٩٠٨ م .

- د -

- ٥٩ - الدر اللقيط من البحر المحيط ، تاج الدين الحنفي النحوي . (هامش البحر المحيط لأبي حيان) .

- ٦٠ - ديوان أبي تمام .
٦١ - ديوان أوس بن حجر ط . فينا سنة ١٨٦٢ م .
٦٢ - ديوان جرير . ط . دار صادر - بيروت .
٦٣ - ديوان الحطيئة . تحقيق . د . نعمان طه سنة ١٩٥٨ م ، مصطفى الحلبي
٦٣ - ديوان الشافعي (أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعي رضي الله عنه . تحقيق
الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي . ط ٢ سنة ١٩٨٥) مكتبة الكليات الأزهرية الأزهر
القاهرة .
٦٤ - ديوان طرفة بن العبد ، تحقيق . د . درية الخطيب ، لطف الصقال سنة
١٩٧٥ م .
٦٥ - ديوان القطامي . تحقيق . د . ابراهيم السامرائي ، د . أحمد مطلوب
بيروت ، سنة ١٩٦٠ م .
٦٦ - ديوان قيس بن الخطيم . تحقيق . د . ناصر الدين الأسد ، القاهرة
سنة ١٩٦٢ م .
٦٧ - ديوان المتنبي ، شرح العكبري ط ٢ سنة ١٩٥٦ م .
٦٨ - " " ط بيروت سنة ١٩٢٦ م .

- ر -

- ٦٩ - الرسالة الشافية ، عبد القاهر الجرجاني (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)
تحقيق د . محمد خلف الله أحمد ، محمد زغلول سلام ، دار المعارف القاهرة .
٧٠ - روائع البيان في تفسير آيات الأحكام . محمد علي الصابوني ط ٣ سنة ١٤٠٠ هـ
مناهل العرفان ، مكتبة الغزالي طبع على نفقة الشربتلي .
٧١ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، أبو الفضل شهاب
الدين السيد ، محمود الأوسى البغدادي ، طبعه جديده مصححه ومنقحة
سنة ١٩٨٣ م ، دار الفكر ، بيروت .

- س -

- ٧٢ - سنن ابن ماجه ، الحافظ بن أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ، تحقيق
محمد فؤاد عبد الباقي سنة ١٩٥٢ م ، دار احياء الكتب العربية عيسى الحلبي
وشركاه .

- س -

- ٧٣ - سنن الترمذي (الجامع الصحيح) أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي تحقيق . عبد الوهاب عبد اللطيف ، ط الثانية سنة ١٩٧٤ م ، دار الفكر .
- ٧٤ - سيرة النبي - صلى الله عليه وسلم - تأليف أبو عبد الله محمد بن اسحاق بن يسار المطلبى ، تهذيب أبو محمد عبد الملك ابن هشام ابن أيوب الحميرى تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد سنة ١٩٧١ م ، محمد على صبيح وشركاه .

- ش -

- ٧٥ - شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ج ١ ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط ١٥ سنة ١٩٧٢ م ، دار الفكر .
- ٧٦ - شرح ديوان الحماسة ، المرزوقي ج ١ ، نشر أحمد أمين وعبد السلام هارون ط سنة ١٩٦٧ م .
- ٧٧ - شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد ، تح محمد أبو الفضل ابراهيم القاهرة سنة ١٩٥٩ م .
- ٧٨ - الشنفرى - شاعر الصحراء الأبي ، محمود حسن أبو ناجي ط ٣ سنة ١٩٨٤ م مؤسسة علوم القرآن ، دمشق .

- ص -

- ٧٩ - الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) اسماعيل بن حماد الجوهري . . . تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ط ٢ سنة ١٩٨٢ م دار الكتاب العربى بمصر .
- ٨٠ - صحيح مسلم ، شرح النووي ط ٢ سنة ١٩٧٢ م ، دار الفكر ، بيروت .
- ٨١ - الصورة الفنية في المثل القرآني . د . محمد الصغير ، رسالة دكتوراه ط ١ سنة ١٩٨١ م ، دار الرشيد للنشر ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام . العراق .

- ع -

- ٨٢ - العقد الفريد ، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ، شرح وضبط أحمد أمين ، أحمد الزين ، ابراهيم الإبيارى ، ط ٣ سنة ١٩٦٥ م ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة .

٨٣ - العُمدَه في محاسن الشَّعر ونقدَه . . . أبو علي الحسن بن رُشيق القيرواني
الأزدي ، تحقيق محمَّد محي الدِّين عبد الحميد ط٤ سنة ١٩٧٢ م ، دار الجيل
بيروت .

٨٤ - علم البيان . د . يوسف البيومي ، ط سنة ١٩٧١ م ، مطبعة دار نشر الثقافة
الغجالة ، القاهرة .

٨٥ - علوم البلاغة ، البيان والمعاني والبديع ، أحمد مصطفى المرافي ، مراجعة
وتصحيح محمود أمين النواوي ط ٦ سنة ١٩٧٢ م ، المكتبة المحمودية التجارية
مصر .

- غ -

٨٦ - غرائب القرآن و غرائب الفرقان ، نظام الدِّين - الحسن بن محمَّد بن الحسين
القسي النيسابوري ، تحقيق ابراهيم عطوه عوض ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي
ط سنة ١٩٦٤ م ، القاهرة .

- ف -

٨٧ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، الحافظ بن حجر العسقلاني ، تقديم
الأستاذ حسن عباس زكي ، التزام عبد الرحمن محمَّد ط٢ سنة ١٤٠٢ هـ دار
إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

٨٨ - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، محمَّد ابن علي
بن محمَّد الشوكاني . ط٢ سنة ١٩٦٤ م ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي
الحلبي وأولاده بمصر .

٨٩ - فجر الإسلام ، أحمد أمين ط ٦ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٠ م ،
القاهرة .

٩٠ - الفروق اللغوية ، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري ، ضبط وتحقيق
حسام الدِّين القدسي ط سنة ١٩٨١ م ، دار الباز للنشر والتوزيع بمكة المكرمة .

٩١ - فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز
ط سنة ١٩٥٨ م ، مطبعة مصر الخرطوم .

٩٢ - الفهرست ، ابن النديم ، ط التجارية سنة ١٣٤٨ هـ .

٩٣ - في ظلال القرآن ، سيد قطب ، الطبعة الشرعية الحادية عشر سنة ١٩٨٢ م ، دار الشروق .

- ق -

٩٤ - قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ط ١ سنة ١٩٥٣ م ، القاهرة .

٩٥ - القاموس المحيط - مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي . ط ٢ سنة ١٩٥٢ م ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

٩٦ - القرآن والصوره البيانية ، د . عبد القادر حسين سنة ١٩٧٥ م ، دار نهضة مصر للطبع .

٩٧ - قصص الأنبياء أحداثها وغيرها . محمد الفقي ، ط ١ سنة ١٩٧٩ م ، مكتبة وهبة القاهرة .

- ك -

٩٨ - كتاب الأمثال ، أبو عبيد القاسم بن سلام ، تحقيق وتعليق وتقديم د . عبد المجيد قطامي ، ط ١ سنة ١٤٠٠ هـ ، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة .

٩٩ - كتاب الصناعتين ، أبو هلال العسكري ، تحقيق علي محمد الجاوي ، محمد أبو الفضل ابراهيم ط ٢ ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .

١٠٠ - كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، يحيى بن حمزة ابن علي بن ابراهيم العلوي اليمني ، أشرفت على مراجعته و ضبطه وتدقيقه جماعة من العلماء بإشراف الناشر ، ط سنة ١٩٨٢ م ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان .

١٠١ - الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم التأويل في وجوه التأويل ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، حقق الرواية محمد الصادق قحايي ط الأخيرة سنة ١٩٧٢ م .

١٠٢ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، حاجي خليفة ، مطبعة وكالة المعارف سنة ١٩٤٣ م .

١٠٣ - لَبَابُ التَّأْوِيلِ فِي مَعَانِي التَّنْزِيلِ (تفسیر الخازن) علاء الدین علی بن محمد بن ابراهیم البغدادي الشهير بالخازن ط ٢ سنة ٩٥٥ م ، مكتبة مصطفى البايي الحلبي وأولاده ، مصر .

١٠٤ - لَبَابُ النُّقُولِ فِي أسبابِ النُّزُولِ ، جلال الدین السیوطي ، تحقيق وتعليق الأستاذ . قرني أبو عميره ، مكتبة نصير ، القاهرة .

١٠٥ - اللُّزُومِيَّاتُ ، أبو العلاء المعري ، ط سنة ٩٦٥ م ، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ، و ذخائر العرب (١٣) .

١٠٦ - لسان العرب ابن منظور (جمال الدین محمد بن مكرم الأنصاري تقديم عبد القادر حاتم ، طبعة مصورة عن طبعة بولاق ، الدار المصرية للتأليف والترجمة .

١٠٧ - مباحث في علوم القرآن ، مناع قطن ، ط ٤ سنة ٩٧٦ م ، مؤسسة الرسالة .

١٠٨ - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدین بن الأثير - القسم الأول - تحقيق محمد محي الدین عبد الحميد ط ٩٣٩ ، مصطفى البايي الحلبي وأولاده ، القاهرة .

١٠٩ - مجمع الأمثال ، أبو الفضل أحمد ابن محمد ابن أحمد بن ابراهيم الميداني تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم سنة ٩٧٧ م ، عيسى البايي الحلبي وشركاه .

١١٠ - مجمع البحرين ، فخر الدین بن محمد الطريحي ، تحقيق أحمد الحسيني ج ٥ ، مطبعة الآداب ، النجف الأشرف سنة ٩٦١ م .

١١١ - مجمع البيان في تفسير القرآن ، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي ط سنة ١٣٣٣ هـ ، مطبعة العرفان ، صيدا .

١١٢ - المخصص ، أبو الحسن علي بن اسماعيل ابن سيده ، السفر الثاني عشر المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٣١٦ هـ .

١١٣ - مدارك التنزيل ، وحقائق التأويل (تفسير النسفي) أبو البركات عبد الله النسفي ، دار الفكر ، بيروت .

- ١١٤ - مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار ، أبو الحسن الفُتُونِي العَامِلِي ط سنة ١٣٧٤ هـ -
مطبعة الأفتاب ، طهران .
- ١١٥ - المُزْهَرِي علوم اللُّغَة وأنواعها ، السُّيُوطِي سنة ١٢٨٢ م ، بولاق ، القاهرة .
- ١١٦ - المُسْنَد ، أحمد ابن حنبل ، سنة ١٣١٣ هـ ، القاهرة .
- ١١٧ - معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، بعناية د . أحمد فريد رفاعي ، مطبعة
عيسى الحلبي سنة ١٩٣٠ م ، القاهرة .
- ١١٨ - مُعْجَم مَتْن اللُّغَة ، الشيخ أحمد رضا (أحمد ابن ابراهيم بن حسين رضا
العَامِلِي) ط سنة ١٩٥٨ م ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان .
- ١١٩ - المعجم المُفْهَرَس لألفاظ الحديث النَّبَوِي ، ليف من المستشرقين ، نشره
د . أ . ي . ونستك ، مكتبة بريل سنة ١٩٣٦ م .
- ١٢٠ - المُعْجَم المُفْهَرَس لألفاظ القرآن ، وضع مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي ، تقديم منصور
فهمي ، مطابع الشعب .
- ١٢١ - مفاتيح الغيب ، فخر الدين الرَّازِي ، ط سنة ١٣٠٧ هـ ، استانبول -
دار الطباعه العامرة
- ١٢٢ - المفردات في غريب القرآن ، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالرَّاغِبِ
الأصفهاني ، تحقيق وضبط مُحَمَّد سيد كيلائي ، دار المعرفة ، بيروت
لبنان .
- ١٢٣ - مقاييس اللُّغَة ، أبو الحسين أحمد ابن فارس ابن زكريا ، تحقيق وضبط
عبد السلام هارون ، ط ٢ سنة ١٩٦٩ م ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده .
- ١٢٤ - موسيقا الشَّعْر . د . ابراهيم أنيس ، ط ٢ سنة ١٩٥٢ م ، مكتبة الانجلو
المصريَّة .

- ن -

- ١٢٥ - النَّبَأُ العَظِيم . د . مُحَمَّد عبد الله دراز . ط ٢ سنة ١٩٧٠ م ، دار العلم
للملايين ، الشركة المتحدة للتوزيع .
- ١٢٦ - نظرات في القرآن . مُحَمَّد الغزالي ط ٥ ، دار الكتب الحديثه .

- ١٢٧ - النّظْمُ الفَنِّيُّ فِي الْقُرْآنِ ، عبد المتعال الصّعيدي .
١٢٨ - نقد النثر ، قدامه بن جعفر ، تحقيق د . طه حسين وعبد المجيد
العبّادي ، المطبعة الأميرية سنة (١٩٤١ م) .
١٢٩ - نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز ، فخر الدّين الرّازي ، ط سنة ١٣١٧ هـ -
مطبعة الآداب والمؤيّد - القاهرة .
١٣٠ - النّهر المادّ من البحر المحيط - أبو حيّان - هامش البحر المحيط .

- و -

- ١٣١ - الوسيلة الأدبية . الشيخ حسن المرصفي ، ج ٢ ، ط ١ ، المدارس الكليّة
سنة ١٣٩٢ هـ .

المخطوطات

- ١ - أمثال الحديث ، الحسن بن عبد الرحمن بن خلّاد الرامهزمي ، مخطوط
بجامعة الدول العربية رقم ٦١٦/٦٨٦ .
- ٢ - الأمثال السائرة في القرآن ، مؤلف مجهول ، مخطوط دار الكتب المصريّة
تفسير رقم ٢٦٤ ، مجاميع .
- ٣ - تحفة الأخبار من الحكم والأمثال والأشعار ، حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله)
مخطوط دار الكتب المصريّة رقم ١٥ م . أدب .
- ٤ - جامع الفنون عن سلوة المخزون ، مؤلف مجهول ، مخطوط دار الكتب المصريّة
رقم ٤٢٨٤ أدب .
- ٥ - ديوان الأدب ، أبو اسحاق بن ابراهيم الفارابي ، مخطوط دار الكتب المصريّة
رقم ٤٧٠١ هـ .
- ٦ - رسائل الحكيم الترمذي ، أبو عبد الله محمد ابن علي بن الحسن ، مخطوط دار
الكتب المصريّة ، ضمن مجموعة رقم ٢١٨١٦ ب .
- ٧ - المستقصى في الأمثال ، أبو القاسم (جار الله بن عمر الزمخشري) مخطوط
دار الكتب المصريّة رقم ١٤٢٣ أدب .
- ٨ - الوجوه والنظائر لألغاز كتاب الله العزيز الدامغاني (أبو عبد الله الحسن بن
محمد ،) مخطوط دار الكتب المصريّة رقم ٢٤٨٠ أدب .

فهرس الموضوعات

الصفحة

الموضوع

أولاً - المقدمه

ثانياً - التمهيد (معنى المثل ومعناه في القرآن الكريم)

أ - معنى المثل

١

١ - معنى المثل لفة

١

٢ - " " اصطلاحاً

٣

٣ - التعريف الأدبي للمثل

٣

٤ - معنى المثل في الاصطلاح البلاغي

٤

٥ - خلاصة التعريفات السابقة مع التعريف الشخصي للمثل .

٥

ب - المثل في القرآن الكريم

٦

١ - معناه عند مقاتل بن سليمان البلخي .

٦

٢ - " " ابن قتيبة

٧

٣ - " " ابن رشيقي

٧

٤ - " " الطبرسي

٧

٥ - " " أبي الحسن الفتوني العاملي

٧

٦ - " " الصاوي

٧

٧ - " " الرمخشري .

٧

٨ - " " الرازي

٧

٩ - " " البيضاوي

٧

١٠ - " " النيسابوري

٧

١١ - " " الزركشي

٨

١٢ - " " أبي السعود

٨

١٣ - خلاصة المعاني السابقة .

٩

١٤ - الرأي الشخصي في معنى المثل في القرآن

٩

ج - تطور دلالة لفظ المثل

١٠

د - معنى ضرب المثل .

١٠

- ١٠ ١ - المعنى اللغوي العام .
١٠ ٢ - المعنى المجازي
١٠ ٣ - معنى الضرب مضافاً إلى الأمثال (عند اللُّغويين والمفسِّرين وُعلماء البلاغة)
١٠ - عند ابن سيده .
١١ - الفيروز أبادي
١١ - ابن منظور
١١ - آخرين (مقاتل بن سليمان - جعفر الطبري - الطريحي - الطوسي
١٢ الزمخشري - الألسي)
١٣ ١١ أبي هلال العسكري
١٤ ١١ الشريف الرضي
١٤ مفهومنا الخاص لضرب المثل

هـ - أهمية ضرب المثل في الكلام وفائدته (قديماً . وحديثاً) .

أولاً : قديماً :-

١٥ - ١٨

- ١٥ ١ - عند ابن المقفع
١٥ ٢ - النظام .
١٥ ٣ - ابن سلام
١٥ ٤ - الفارابي
١٥ ٥ - قدامه بن جعفر
١٦ ٦ - ابن عبد ربه الأندلسي .
١٦ ٧ - أبي هلال العسكري
١٦ ٨ - الخفاجي
١٦ ٩ - الشيخ عبد القاهر الجرجاني
١٧ ١٠ - الزمخشري
١٧ ١١ - الرازي
١٧ ١٢ - ابن القيم
١٨ ١٣ - أعرابي
١٨ ١٤ - أحد الحكماء
١٨ ١٥ - ابن الأثير

الصفحة

٢١ - ١٨	ثانيا : حديثاً
١٨	١ - عند أحمد أمين
١٨	٢ - * لجنة من الأدباء العرب
١٩	٣ - * السباعي بيومي
١٩	٤ - * محمد العبودي
١٩	٥ - * عبد العزيز مزروع
٢٠	٦ - * الشيخ جلال الحنفي
٢٠	٧ - * الشيخ حسين المرصفي
٢٠	٨ - * د . نبيله إبراهيم
٢٠	٩ - رأينا الخاص .
٢١	١٠ - عند الأستاذ محمد جابر الفياض مع الرأي الشخصي .

و - فوائد ضرب المثل في القرآن

٢٢	١ - إبراز المعقول في صورة المحسوس و المثل من القرآن
	٢ - الكشف عن الحقائق المجردة و عرض الغائب في معرض الحاضر مع المثل عليه .
٢٢	٣ - للترغيب مع المثل عليه
٢٣	٤ - للتنفير مع المثل عليه
٢٤	ز - الفرق بين الحكمة و المثل .
٢٤	١ - حيرة " بنتزن " Bentzen * في تعريف اللفظتين .
٢٤ - ٢٥	٢ - معنى الحكمة في اللغة .
	(عند الفراهيدي ، عند ابن منظور ، عند الدامغاني ، عند العاطلي)
٢٥	٣ - معنى الحكمة في الاصطلاح
	(عند لجنة من الأدباء و الدارسين)
٢٦	٤ - المقارنة بين الحكمة و المثل
٢٨ - ٣٠	ح - جهود الأقدمين في دراسة أمثال القرآن الكريم
٢٨	١ - الجنيد بن محمد بن الجنيد القواريري .
٢٨	٢ - الحكيم الترمذي (أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن)
٢٨	٣ - ابن خلد (الحسن بن عبد الرحمن بن خلد الرامهزمي) .

- ٢٨ - ٤ - نفظويه (أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفه) .
- ٢٨ - ٥ - السلمي (محمد بن الحسن بن موسى) .
- ٢٩ - ٦ - الماوردي (علي بن محمد) .
- ٢٩ - ٧ - القضاي (الحسن بن عبد الرحمن) .
- ٢٩ - ٨ - مؤلف مجهول
- ٢٩ - ٩ - ابن أبي الإصبع المصري (زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد) .
- ٣٠ - ١٠ - ابن قيم الجوزية (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب) .
- ٣٠ - ١١ - الزركشي (محمد بن عبد الله) .
- ٣٠ - ١٢ - السيوطي (جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبي بكر) .
- ٣٠ - ١٣ - المؤيدي (مهذب الدين محمد بن علي المؤيدي) .
- ٣٠ - ١٤ - بدر الدين حسن .
- ٣١ ط - جهود المحدثين في دراسة أمثال القرآن
- ٣٢ - ٣٤ - ١ - (فديول) .
- ٣١ - ٢ - الكوركتاني النجفي (أحمد بن عبد الله)
- ٣١ - ٣ - أمين الخولي
- ٣١ - ٤ - علي أصغر حكمت
- ٣١ - ٥ - د . عبد المجيد عابدين
- ٣١ - ٦ - نور الحق تنوير
- ٣١ - ٧ - محمود بن الشريف
- ٣٢ - ٨ - الموسوي (محمد طاهر)
- ٣٢ - ٩ - الفياض (محمد جابر الفياض)
- ٣٢ - ١٠ - عبد الرحمن محمود عبد الله
- ٣٢ - ١١ - العبدلي (منصور العبدلي)
- ٣٢ - ١٢ - الميداني (الشيخ عبد الرحمن حبتكه)
- ٣٢ - ١٣ - محمد حسين علي الصغير .
- ٣٢ - ١٤ - الخضري (الشيخ أحمد كامل)

الصفحة	الموضوع
٣٣	ي أنواع الأمثال
٣٣	١ - المثل الموجز السائر
٣٣	٢ - المثل القياسي
٣٣	٣ - المثل الخرافي
٣٣	٤ - الفرق بين النوعين (القياسي . الخرافي)
٣٤	ك - بين المثل والتمثيل (التشبيه التمثيلي)
٣٤	١ - أركان التشبيه
٣٤	٢ - أقسامه (باعتبار وجه الشبه) .
٣٤	أ - تشبيه غير تمثيل
٣٤	ب - تشبيه تمثيلي .
٣٥ - ٣٧	٣ - بعض الآراء البلاغية في هذا التقسيم
٣٥	أ - رأي الشيخ عبد القاهر .
٣٦	ب - رأي السكاكي .
٣٦	ج - رأي الخطيب القزويني
٣٧	د - رأي الجمهور
٣٧	هـ - رأي الزمخشري وعُلماء اللغة .

ل - أمثال القرآن الكريم

الصفحة

- أنواع الأمثال القرآنيَّة .
- ١ - الأمثال المصَّرحة ومثال منها . ٣٨
- ٢ - الأمثال الكامنة - ومثال منها . ٣٩
- ٣ - الأمثال المُرسلة (ألفاظ جارِية مجرى الأمثال) مع أمثلة عليها . ٣٩

الباب الأوَّل

الأمثال المصَّرحة في القرآن

- التَّمهيد - تعريفها . ٤١
- ١ - (الآيه ١٧ سورة البقره)
" مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا " الآيه ٤١ - ٥٤
- ٢ - (الآيه ٢٦ سورة البقره)
" إِنْ لَمْ يَنْزَلِ اللَّهُ لِيَسْتَحْيِ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَبْعُوضَةً . . . " الآيه ٥٥ - ٦٥
- ٣ - (الآيه ١٧١ سورة البقره)
" مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ . . . " الآيه ٦٦ - ٧٢
- ٤ - (الآيه ٢٦١ سورة البقره)
" مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ . . . " الآيه ٧٣ - ٨٠
- ٥ - (الآيه ٢٦٤ سورة البقره)
" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى . . . " الآيه ٨١ - ٩٠
- ٦ - (الآيه ٢٦٥ سورة البقره)
" مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ " الآيه ٩١ - ١٠٠
- ٧ - (الآيه ٢٦٦ سورة البقره)
" أَيُّودٌ أَحَدَكُمُ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ " الآيه ١٠١ - ١١١

الصفحة

- ٨ - (الآيه ٢٧٥ سورة البقره)
" الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ
مِنَ الْمَسِّ الْآيَةَ .
١١٢ - ١٢٣
- ٩ - (الآيه ١٠٣ سورة آل عمران)
" وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا الْآيَةَ
١٢٤ - ١٢٢
- ١٠ - (الآيه ١١٧ سورة آل عمران)
" مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ الْآيَةَ ١٣٣ - ١٤٣
- ١١ - (الآيه ٧ سورة الأنعام)
" قُلْ أَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا
بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ الْآيَةَ .
١٤٤ - ١٥٥
- ١٢ - (الآيه ١٧٥ - ١٧٧ سورة الأعراف)
" وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا الْآيَةَ ١٥٦ - ١٦٧
- ١٣ - (الآيه ٢٤ سورة يونس)
" إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ
الْأَرْضِ الْآيَةَ .
١٦٨ - ١٧٥
- ١٤ - (الآيه ٢٤ سورة هود)
" مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ الْآيَةَ ١٧٦ - ١٨٣
- ١٥ - (الآيه ٢٤ - ٢٥ سورة إبراهيم)
" أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ
وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ الْآيَةَ
١٨٤ - ١٩٥
١٩٦ - ١٩٧
الباب الثاني

الأمثال الكامنه في القرآن

- التمهيد - تعريفها .
١٩٨
- ١ - (الآيه ٦٨ سورة البقره)
" لَا فَاغْرِبْ وَلَا يَكْتُم الْآيَةَ
١٩٩ - ٢٠٤
- ٢ - (الآيه ٦٧ سورة الفرقان)
" وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ الْآيَةَ ٢٠٥ - ٢١٠

الصفحة

- ٣ - (الآيه ١٠ سورة الإسراء)
" وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا " الآيه
٢١١ - ٢١٥
- ٤ - (الآيه ٢٩ سورة الإسراء)
" وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُوبَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ " الآيه
٢٢٣ - ٢١٦
مايوافقها من أقوال البشر " خير الأمور أوسطها " .
٢٢٣ - ٢٢٧
- ٥ - (الآيه ٢٦٠ سورة البقرة)
" أَلَمْ تَوْمِنْ قَالِ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي " الآيه .
٢٢٨ - ٢٣٦
مايوافقها من أقوال البشر (ليس الخبر كالمعاينة)
٢٢٧ - ٢٣٨
- ٦ - (الآيه ١٠٠ سورة النساء)
" وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافِعًا كَثِيرًا وَسَعَةً " .
٢٣٩ - ٢٤٦
مايوافقه من أقوال البشر (في الحركات البركات)
٢٤٦ - ٢٤٩
- ٧ - (الآيه ٢٣ سورة النساء)
" مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ " .
٢٥٠ - ٢٥٦
مايوافقه من أقوال البشر (كمتدين تدان) .
٢٥٧ - ٢٦٠
- ٨ - (الآيه ٦٣ سورة الأعراف)
" إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ " .
٢٦١ - ٢٦٦
مايوافقه من أقوال البشر (الحلال لا يأتيك إلا قوتاً والحرام يأتيك جزفاً جزفاً)
٢٦٧ - ٢٦٩
- ٩ - (الآيه ٤٧ سورة التوبة)
" وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ " .
٢٧٠ - ٢٧٧
مايوافقه من أقوال البشر (للحيطان آذان) .
٢٧٨ - ٢٨٢
- ١٠ - (الآيه ٧٤ سورة التوبة)
" وَمَانَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ " .
٢٨٣ - ٢٨٩
مايوافقه من أقوال البشر (اتق شر من أحسنت إليسه) .
٢٩٠ - ٢٩٤

الصفحة

- ١١ - (الآيه ٣٩ سورة يونس) .
٢٩٥ - ٣٠٠ " بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ " .
- ١٢ - (الآيه ١١ سورة الأحقاف)
٣٠٣ - ٣٠٨ " وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فُسِقُوا لِهَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ " .
٣٠٨ - ٣٠٩ ما يوافقهما من أقوال البشر (الناس أعداء ما جهلوا)
- ١٣ - (الآيه ٦٤ سورة يوسف)
٣١٠ - ٣١٦ " هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنُتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ " .
٣١٧ - ٣١٩ ما يوافقهما من كلام البشر (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين)
- ١٤ - (الآيه ٧٥ سورة مريم)
٣٢٠ - ٣٢٤ " قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا " .
٣٢٤ - ٣٢٧ ما يوافقهما من أقوال البشر (الجاهل مرزوق والعالم محروم)
- ١٥ - (الآيه ٤ سورة الحج)
٣٢٨ - ٣٣٤ " كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلَّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ " .
٣٣٥ - ٣٣٨ ما يوافقهما من أقوال البشر (من أعان ظالماً سلط عليه)
- ١٦ - (الآيه ٤٢ سورة الفرقان)
٣٣٩ - ٣٤٤ " وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ مَن أَضَلَّ سَبِيلًا " .
٣٤٥ - ٣٤٦ ما يوافقهما من أقوال البشر (حين تظلمين تدرين)
- ١٧ - (الآيه ٢٧ سورة نوح)
٣٤٧ - ٣٥٣ " وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِجْرًا كَهَارًا " .
٣٥٣ - ٣٥٥ ما يوافقهما من أقوال البشر (لا تلد الفأرة إلا الفأرة ولا الحية
الاحية) .

الباب الثالث

الأمثال المُرسلة في القرآن

الصفحة

٣٥٧

التَّمهيد - تعريفها :

- ١ - (الآيه ٢١٦ سورة البقره)
" وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ " ٣٥٧ - ٣٦٤
مايوافقه من أقوال البشر (كم مرة حقت بك المكاره
خارك الله وأنت كارهه) ٣٦٥ - ٣٦٩
- ٢ - (الآيه ٢٨٥ - ٢٨٦ سورة البقره)
" لَا يَكْفِ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعُهَا " . . .
مايوافقه من أقوال البشر (ماكف الله نفساً فوق طاقتها
ولا تجود يد الأيمآتجد) ٣٨٠ - ٣٨١
- ٣ - (الآيه ٩٢ سورة آل عمران)
" لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ "
مايوافقه من أقوال البشر (من ينكح الحسناء يُعطي مهرها)
٣٨٨ - ٣٩٠
- ٤ - (الآيه ٤٠ سورة آل عمران)
" وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ " .
مايوافقه من أقوال البشر (الأيام دُول والحرب سجال)
٣٩٦ - ٣٩٩
- ٥ - (الآيه ١٨٢ سورة آل عمران)
" بَدَلِكِ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكُمْ "
مايوافقه من أقوال البشر (يداك أوكتا وفوك نَفخ)
٤٠٥ - ٤٠٧
- ٦ - (الآيه ١٠ سورة المائدة)
" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوُؤٌ . . . " .
مايوافقه من أقوال البشر (كل البقلة ولا تسأل عن المُبقلة)
٤٠٨ - ٤١٥
- ٧ - (الآيه ٦٧ سورة الأنعام)
" لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ "
مايوافقه من أقوال البشر (مايوام حليلة بسسر)
٤٢٢ - ٤٢٤

الصفحة

- ٨ - (الآيه ٨ سورة هود)
٤٣٠ - ٤٢٥ " أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ "
٤٣١ - ٤٣٠ مايوافقه من أقوال البشر (فَإِنَّ غَدًا لَنَاظِرُهُ قَرِيبٌ)
- ٩ - (الآيه ٤ سورة يوسف)
٤٣٥ - ٤٣٢ " قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ "
٤٣٧ - ٤٣٦ مايوافقه من أقوال البشر (سَبَقَ السَّيْفُ الْعَدْلَ)
- ١٠ - (الآيه ٥ سورة يوسف)
٤٤٣ - ٤٣٨ " ... الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ "
٤٤٤ - ٤٤٣ مايوافقه من أقوال البشر (بَيْنَ الصُّبْحِ لَذِي عَيْنِينَ)
- ١١ - (الآيه ٤ سورة فاطر)
٤٤٩ - ٤٤٥ " وَلَا يَنْبِئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ... "
٤٥٢ - ٤٤٩ مايوافقه من أقوال البشر (مرآة العواقب في يدي نبي التجارب)
- ١٢ - (الآيه ٢٨ سورة يس)
٤٥٨ - ٤٥٣ " وَضَرَبْنَا لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ "
٤٦٠ - ٤٥٨ مايوافقه من أقوال البشر (عَيْرُ بَجِيرٍ بَجْرُهُ نَسِيَ بَجِيرَ خَبْرَهُ)
- ١٣ - (الآيه ٣٦ سورة الزخرف)
٤٦٩ - ٤٦١ " وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ "
٤٧٠ - ٤٦٩ مايوافقه من أقوال البشر (أعط أخاك تمره فإن أبي فخره)
- ١٤ - (الآيه ٦٠ سورة الرحمن)
٤٧٤ - ٤٧١ " هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ "
٤٧٨ - ٤٧٥ مايوافقه من أقوال البشر (مَنْ يَفْعَلُ الْخَيْرَ لَا يَعمَدُ جَوَازِيَهُ)
- ١٥ - (الآيه ٣٨ سورة المدثر)
٤٨٤ - ٤٧٩ " كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةٌ "
٤٨٦ - ٤٨٥ مايوافقه من أقوال البشر (كل شاة بوجليها ستناط)

الصفحة

٤٨٧	- تذييل
٤٨٨	- الخاتمة
٤٩٧	- مصادر البحث ومراجعته
٥٠٩	- المخطوطات
٥١٠	- فهرس الموضوعات
٥٢٢	- فهرس الأمثال القرآنيّة
٥٢٥	- فهرس الأحاديث النبويّه
٥٢٦	- فهرس الأمثال والحكم البشريّة
٥٣٣	- فهرس الأشعار
٥٤٠	- فهرس الفهارس

فهرس الأمثال القرآنيه

- أ -

الصفحة	السورة	رقمها	الآيه
٢٦١	الأعراف	١٦٣	١ - " إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ
٤٤١ - ٤٣٨	يوسف	٥١	٢ - " الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ
١١٢	البقره	٢٧٥	٣ - " الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ
١٨٤	ابراهيم	٢٤ - ٢٥	٤ - " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً ..
٤٢٥	هود	٨١	٥ - " أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ
٥٥	البقره	٢٦	٦ - " إِنْ أَرَادَ اللَّهُ لَا يَسْتَحْيِيَ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا ..
١٦٨	يونس	٢٤	٧ - " إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ ..
٢٢٨	البقره	٢٦٠	٨ - " أَوَلَمْ تَوْنُ مِنْ . قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ
١٠١	البقره	٢٦٦	٩ - " أَيُّودٌ أَحَدَكُمُ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ

- ب -

٢٩٥	يونس	٣٩	١٠ - " بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ
-----	------	----	---

- ز -

٤٠٠	آل عمران	١٨٢	١١ - " ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيكُمْ
-----	----------	-----	---

- ق -

٤٣٤ - ٤٣٢	يوسف	٤١	١٢ - " قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ
١٤٤	الأنعام	٧١	١٣ - " قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ
٣٢٠	مريم	٧٥	١٤ - " قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ

- ك -

٣٢٨	الحج	٤	١٥ - " كُتِبَ عَلَيْهِ أَنْهُ مِنْ تَوَلَّاهُ
٤٧٩	المدثر	٣٨	١٦ - " كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ

- ل -

١٩٩	البقره	٦٨	١٧ - " لَا قَارِضٍ وَلَا يَكُونُ
٣٧٠	البقره	٣٨٦	١٨ - " لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا
٤١٨	الأنعام	٦٧	١٩ - " لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ
٣٨٢	آل عمران	٩٢	٢٠ - " لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ

- ٢ -

الصفحة	السورة	رقمها	الآية
٦٦	البقرة	١٧١	٢١- " مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ . "
			٢٢- " مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءً
٩١	البقرة	٢٦٥	مَرَضَةَ اللَّهِ "
			٢٣- " مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ
٧٣	البقرة	٢٦١	اللَّهِ "
٤١	البقرة	١٧	٢٤- " مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا "
١٧٦	هود	٢٤	٢٥- " مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى "
١٣٣	آل عمران	١١٧	٢٦- " مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا "
٢٥٠	النساء	١٢٣	٢٧- " مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِئْهُ "

- ه -

٣١٠	يوسف	٦٤	٢٨- " هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنْتُكُمْ "
٤٧١	الرحمن	٦٠	٢٩- " هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ "

- و -

٣٠٢	الأحقاف	١١	٣٠- " وَإِنْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ "
٢٠٥	الفرقان	٦٧	٣١- " وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا "
١٥٦	الأعراف	١٧٥ - ١٧٧	٣٢- " وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ "
١٢٤	آل عمران	١٠٣	٣٣- " وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا "
٣٩١	آل عمران	١٤٠	٣٤- " وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ "
٣٣٩	الفرقان	٤٢	٣٥- " وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرُونَ الْعَذَابَ "
٤٥٣	يس	٧٨	٣٦- " وَضَرَبْنَا لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ "
٣٥٧	البقرة	٢١٦	٣٧- " وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ "
٢٧٠	التوبة	٤٧	٣٨- " وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ "
٢١٦	الإسراء	٢٩	٣٩- " وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً "
٢١١	الإسراء	١١٠	٤٠- " وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تَخَافَتْ "
٤٤٥ - ٤٤٦	فاطر	١٤	٤١- " وَلَا يَتَّبِعْكَ مَثَلٌ خَبِيرٌ "

الصفحة	السوره	رقمها	الايه
٣٤٧	نوح	٢٧	٤٢ - * وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِجْرًا كَهَآرًا *.....*
٢٨٣	التومه	٧٤	٤٣ - * وَمَانَقُمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ *.....*
٤٦٥ - ٤٦١	الزخرف	٣٦	٤٤ - * وَمَنْ يَعْسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ *.....*
٢٣٩	النساء	١٠٠	٤٥ - * وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ *.....*
٨١	البقره	٢٦٤	٤٦ - * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ *.....*
٤٠٨	المائدہ	١٠١	٤٧ - * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ *.....*

فهرس الأحاديث النبوية

الصفحة	الحديث
٣٠٢	١ - " إذا أرد أحدكم أمراً فعليهِ بالتَّؤدَّة
٢٨١	٢ - " إذا حدَّث الرجل بحديث فالتفت فهو أمانة
٢٤٤	٣ - " الأعمال بالنيَّة
٢٥٦ هـ	٤ - " إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مِمَّا نَسَى
٢٠٦	٥ - " إِنِّ مَنِ السَّرَفِ أَنْ تَأْكُلَ
٣٦٨	٦ - " الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى
٣٨٣	٧ - " عَلَيْكُمْ بِالصَّدَقِ فَإِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ
٣٠٢	٨ - " فَإِنَّ الْمَنْبِتَ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى
٢٥٢	٩ - " قَارِبُوا وَسَدِّدُوا
٣١٧	١٠ - " لَا يَلِغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جِحْرٍ مَرَّتَيْنِ
٤٠٨	١١ - " لَمْ أَرُقِ الشَّرَّ وَالْخَيْرَ كَالْيَوْمِ قَطَّ
٢٢٩ - ٢٣٧	١٢ - " لَيْسَ الْخَبْرُ كَالْمَعَايِنَةَ
٢٩٢	١٣ - " لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ
٤١٦	١٤ - " مِنْ حَسَنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ
١٩٢	١٥ - " مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا
٤١٦	١٦ - " هَلْ يَكُفُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ
٣٩٠	١٧ - " وَالسَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ

فهرس الأمثال والحكم البشريه

الصفحة	المثل
٣٠٠	١ - الأناة حصن السَّلامه والعجلة مفتاح الندامة
٣٠١	٢ - الأناة نجاة
٣٩٦	٣ - الأيام دُول والحرب سجال
٤٧٧	٤ - الأيادي قروض
٣٠١	٥ - اتقُ تُصِيب أو تكُف
٢٩٠	٦ - اتقِ شرَّ من أحسنت إليه
٢٨١	٧ - اجعل هذا في وعاء غير سرب
٤١٧	٨ - أحرِب من كان عاقلاً أن يكون عمالاً يعنيه غافلاً
٤٧٨	٩ - أحرِمْ النَّاسَ من إذا أحسن الدهر تلقى
٤٧٧	١٠ - أحق النَّاسُ بالإحسان إلى النَّاس
٥٤١٧	١١ - إذا فُتِّش العيش لا يؤكل
٢٧٥	١٢ - استعينوا على الحوائج بالكتمان
٤٥٦	١٣ - أعدل الشُّهُود التَّجَارِب
٤١٧	١٤ - أعرف النَّاسَ بالله
٤٦٩	١٥ - اعطِ أخاك تمره فإنَّ أبى فجره
٤٥١	١٦ - اعطِ القوسَ باربها
٣٣	١٧ - أكلت يوم أكل الثَّور الأبيض
٢٨٢	١٨ - أملك النَّاسَ لنفسه من كتم سره
٤٥١	١٩ - أنا غريرك من هذا الأمر
٤٥١	٢٠ - أنت أعلم أم من غصَّ بها
٣٩٩	٢١ - ان تعش يوماً
٢٨١	٢٢ - انفرِد يَسْرِك ولا تودعه حازماً فيزل
٣٩٧	٢٣ - إنَّ الأيام دُول وإنَّ الحرب سجال
٤٠٧	٢٤ - إنَّك لا تجني من الشَّوك العنب
٤١٧	٢٥ - أيدي العقول تُسدك أعنة النفوس عن الهوى
- ب -	
٣٠١	٢٦ - بالتَّأني تُدرك الغرض
٣٦٨	٢٧ - بعض الشرِّ أهون من بعض

- ب -

الصفحة	المثل
٤٦٠	٢٨ - البلاء موكَّل بالقول
٤٤٣	٢٩ - بَيَّن الصُّبْحُ لذي عَيْنين

- ت -

٣٠١	٣٠ - التَّأْنِي فِي الأُمُورِ أَوَّلُ الحِزْمِ
٤٥١	٣١ - التَّجْرِبَةُ العِلْمُ الأَكْبَرُ
٤٧٠	٣٢ - تَجَنَّبَ رَوْضَةً وَأَحَالَ يَعْدُو
٣٥٤	٣٣ - تَقِيلُ فُلانٌ أَبَاهُ
٢٢٤	٣٤ - تَوَسَّطَ الأُمُورِ أَوْفَى إِلى السَّلَامَةِ

- ج -

٣٢٤	٣٥ - الجاهل مرزوق والعالم محروم
٢٤٨	٣٦ - جَمَعَ لَهُ جِرا مِيزك

- ح -

٣٩٧	٣٧ - الحرب سجال
٤١٦	٣٨ - الحِزْمُ فِي الأُمُورِ حِفْظُ ما كَفَتْ وَتَرْكُ ما كَفَيْت
٤٠٧	٣٩ - الحِسدُ وَالنِّفاقُ وَالكِذِبُ أَشافي الذُّلِّ
٤٤٤ ٢٦٩	٤٠ - الحِيقُ أَبلِجُ وَالباطِلُ لَجِجُ
٤٦٩	٤١ - الحِيقُ ثَقيلُ مَرى ، وَالباطِلُ خَفيفُ وَبى
٢٦٨	٤٢ - الحِلالُ لا يَأْتِيكَ إِلا قَوْتاً
٣٤٥	٤٣ - حِينِ تَقْلِبينِ تَدْرينِ

- خ -

٢٢٤ ٢٢٣	٤٤ - خَيْرُ الأُمُورِ أَوْساطُها
٢٢٥	
٢٢٤	٤٥ - خَيْرُ النِّاسِ هِذا النِّمطُ الأَوْسطُ يَلْحِقُ بِهِمُ التَّالِي
٤٥١	٤٦ - الخِيلُ أَعلمُ بِفِرسانِها

- د -

٣٢٧	٤٧ - الدُّنْيا لا تَعْطِي أَحداً ما يَسْتَحِقُّه ، إِما تَزِيدُه أَوْ تَنْقِصُه
٣٩٩	٤٨ - الدَّهْرُ بِالنِّسانِ دَواري

الصفحة	المثل
٣٩٩	٤٩ - الدهر يومان حلوا ومرّ
- ر -	
٤٥٢	٥٠ - رأي الشيخ خير من مشهد الغلام
٣٦٧	٥١ - ربّ ضارة نافعة
٣٠١	٥٢ - ربّ عجلة تهبّ ريشاً
٢٧٩	٥٣ - رجال أذن
٢٧٩	٥٤ - رجل أذن
٣٩٧	٥٥ - رجل محروب
٣٠٢	٥٦ - الرشف أنقع
٣٠١	٥٧ - الرفق مفتاح النجاح
٤٥٩	٥٨ - رمّني بدائها وانسلت
- س -	
٤٣٦ ٤٣٧ ٤٣٦	٥٩ - سبق السيف العذل
٤٣٦	٦٠ - سبق سيله مطره
٤٣٦	٦١ - سبقت برّته غراره
٢٨٠	٦٢ - سرك من لمك
- ش -	
٢٤٩	٦٣ - شد له حزمه
- ص -	
٢٨١	٦٤ - صدرك أوسع لسرك
٢٩٤	٦٥ - صنائع المعروف تقي مصارع السوء
٤٧٧	٦٦ - الصنائع ودائع
- ض -	
٥٢٤٩	٦٧ - ضم فلان إليه جراميزه
- ط -	
٢٩٣	٦٨ - الطعن يظأر

- ظ -

- ٦٩ - الظلم أسرع شئ^٢ إلى تعجيل نقمه وتبديل نعمه ٤٠٦
٧٠ - الظلم مرتعه وخيم ٤٠٧

- ع -

- ٧١ - عاد الرمي على التزعة ٤٠٧
٧٢ - العاقل من عقل لسانه ٤١٦
٧٣ - عش رجياً ترى عجباً ٣٩٩
٧٤ - العقل الإصابه بالظنّ ومعرفة ما لم يكن بما كان ٤١٦
٧٥ - العقل أحسن معقل ٤١٧
٧٦ - عقوبة الحاسد من نفسه ٤٠٧
٧٧ - على أهلها تجني براقش ٤٠٦
٧٨ - عند جفينة الخبر اليقين ٤٥٠
٧٩ - غير بجير بجره نسي بجير خبره ٤٥٨

- ف -

- ٨٠ - في الحركات البركات ٢٤٦
٨١ - في الله عوض عن كل فائت ٢٤٦

- ق -

- ٨٢ - قد ضرب عليه جرّوته ٢٤٩
٨٣ - قلوب العقلاء حصون الأسرار ٢٨١
٨٤ - قيل للشقيّ هلم إلى السعادة فقال حسبي ما أنا فيه ٤٧٠

- ك -

- ٨٥ - كان حماراً فاستأتن ٤٧٠
٨٦ - كذب من قال الشرّ بالشرّ يطفأ ٢٩٤
٨٧ - كفى قوماً بصاحبهم خبيراً ٤٥١
٨٨ - كل البقلة ولا تسأل عن المبقلة ٤١٥
٨٩ - كلّ الحذاة يحتذي الحافي الوقع ٣١٩
٩٠ - كلّ شاة برجلها ستناط ٤٨٥
٩١ - كالمستجير من الرمضاء بالنار ٣٣

- ك -

الصفحة	المثل
٢٣	٩٢ - كالمستغيث من الرِّمضاء بالنَّار
٢٨١	٩٣ - كما كثر خَزَان الأسرار ازدادت ضياعاً
٢٨١	٩٤ - كن على حفظ سرك أحرص منك على حقن دمك
٢٥٧	٩٥ - كما تدبُّين تَدان
٣٥٤	٩٦ - كيف يغلام قد أعياني أبوه
٤٦٠	٩٧ - كيف تبصر القذاة في عين أخيك وتدع الجزع المعترض في حلقك ..

- ل -

٤٤٤	٩٨ - للحق دولة وللباطل جولة
٢٧٨	٩٩ - للحيطان آذان
٤٥١	١٠٠ - لسان التجربة أصدق
٤١٧	١٠١ - اللسان سبع صغير الجرم عظيم الجرم
٤٢٤	١٠٢ - لكلِّ حادثة حديث
٤٢٤	١٠٣ - لكلِّ صياح صبح
٤٢٤	١٠٤ - لكلِّ عود عصاره
٣٩٨	١٠٥ - لكلِّ قوم يوم
٤٢٤	١٠٦ - لكلِّ مقام مقال
٤٢٤	١٠٧ - لكلِّ مقام مقال ولكل دهر رجال
٢٣٧	١٠٨ - ليس الخبر كالمعاينة
٣٩٨	١٠٩ - الليل والنهار غرسان بشمران للبرية ضروب البلية

- م -

٣٦٨	١١٠ - المؤمن لا يثقله كثرة المصائب ، وتواتر
٢٧٩	١١١ - ما أنت إلا بطين
٤٢٣ ٤٢٢	١١٢ - ما يوم حليلة بسر
٤٢٤	١١٣ - مثل الدنيا كمثل رجل نام نومة فرأى فيها ما يحب ويكره
٣٩٩	١١٤ - محترس من مثله وهو حارس
٤٦٠	١١٥ - المحسن معان
٤٧٧	١١٦ - مرآة العواقب في يدي ذي التجارب
٤٤٩	

الصفحة	العتل
٣٩٨	١١٧ - مرّة عيش و مرّة جيش
٤١٧	١١٨ - مقتل الرّجل بين فكّيه
٣٥٥	١١٩ - من أشبه أباه فما ظلم
٣٣٥	١٢٠ - من أعان ظالماً سلّط عليه
٥٤١٧	١٢١ - من تدخّل فيما لا يعنيه سمع ما لا يرّضيه
٣٠١ - ٣٠٠	١٢٢ - من جهل شيئاً عاداه
٠ ٣٠٩	
٣٦٨	١٢٣ - من حدّث نفسه
٤١٧	١٢٤ - من رضى بحاله استراح وأراح
٣٨١	١٢٥ - من ظلم نفسه فهو لغيره
٣٦٧	١٢٦ - من مأمّنه يؤتّى الحذر
٢٨١	١٢٧ - من وهن الأمر
٣٩٩	١٢٨ - من يركّ يوماً يربّه
٣٨٨	١٢٩ - من ينكح الحسناء يعطّ مهرها
٣٦٨	١٣٠ - مواقع أقدار الله خير لك من مواقع آمالك

- ن -

٣٠٩	١٣١ - الناس أعداء ما جهلوا
٤٧٧	١٣٢ - نعم العدّ عند الحاجة اسلاف الصّنيعة

- ه -

٣٥٥	١٣٣ - هل تنتج النّاقة إلا لمن لقت له
-----	--

- و -

٤	١٣٤ - وإنّ غداً لناظره قريب
٣٨١	١٣٥ - وعلّيّ أن أسمعى وليس عليّ إدراك النّجاح

- لا -

٣٨١	١٣٦ - لا تتكفّ ما كُفيت فتضيع ما وليت
٤٨٦	١٣٧ - لا تشمت بمن حلّ به بلاءٌ فإنّ عوفيّ كان مثلك
٤٨٦	١٣٨ - لا تظهر الشّماتة بأخيك ، فيعافيه الله ويبتليك

الصفحة

المثل

- ١٣٩ - لا تفتش سرّك الى أمة ولا تبيل على أكسه ٢٨١
١٤٠ - لا تكرهوا الملمات الواقعة فلربّ أمر ٣٦٨
١٤١ - لا تكن حلوا فتؤكل ولا مرّاً فتلفظ ٢٢٤
١٤٢ - لا تكن حلوا فتسترتط ولا مرّاً فتعق ٢٢٤
١٤٣ - لا تكن قاسياً فتكسر ولا ليناً فتعصر ٢٢٤
١٤٤ - لا تنكح خاطب سرّك ٢٨١
١٤٥ - لا تقتن من كلب سوء جرواً ٣٥٤
١٤٦ - لا تلد الفأرة إلا الفأرة ولا الحية إلا الحية ٣٥٣
١٤٧ - لا يلد الوقبان إلا وقبا ٣٥٤

- ي -

- ١٤٨ - يأتيك كل غد بما فيه ٣٩٨
١٤٩ - يابني إياك والسامة في طلب الأمور ٢٤٨
١٥٠ - يداك أوكنا وفوك نفخ ٢٢٦ - ٤٠٥
١٥١ - يرتعي وسطاً ويربض حجرة ٢٢٦
١٥٢ - يعدد على المرء ما ياتمر ٤٠٧
١٥٣ - اليوم خمر وغداً أمر ٣٩٨

فهرس الأشعار

- أ -

الصفحة	الشاعر	التروي	أول البيت
٤٦٠	أبو العلاء المعري	مخبوفاً	قد نال خيراً
٤٦٠	" "	ليوفاً	باء الكلام بمأثم
٣٦٧	-	بالماء	من غصن داوى

- ي -

٤٣١	أبو العلاء المعري	السرى	سرينا وطالينا هاجع
٤٣١	خالد بن الوليد	الكرى	عند الصباح يحمد القوم
٣٩٩	-	عليه	رب دهر بكيته منه

- ب -

٢٤٥	-	والمضطرب	الى بلد غير داني
٣٦٩	ابن السرحان	المصائب	كم فرحة
٣٦٩	ابن السرحان	النوائب	وحسرة قد أقبلت
٣٨١	أحمد شوقي	غلاباً	وماتيل المطالب
٢٠٢	-	ذهيباً	فان أتوك
٣٩٩	بشار بن برد	كواكبته	كان مثار النقع
٢٨٠	المتنبى	شراب	للسر منى موضع
٣٤٦	أبو فراس الحمداني	وتراب	تغابيت عن قومي
٢٩٠	-	إن غضبوا	و مانقموا من بني أمية
٣٩٩	-	كواكبته	و من يرى بالأقوام
٤٣٠	قراد بن أجدع	قريب	فان يك صدر هذا اليوم
٢٤٨	الشافعي	واغترب	ما في المقام لذي عقل و ذى
٢٤٨	الشافعي	في النصب	سافر تجد عوضاً عن تفارقه
٢٤٨	الشافعي	لم يطب	إني رأيت وقوف الماء
٢٤٨	الشافعي	لم يصب	والأسد لولا فراق الأرض

الصفحة

٢٩٠	-	الكلاب فعاد عليك إن لكن
٤٣١	أمرؤ القيس	أم جندب فأنكما إن تنظراني
- ج -			
٤٤٤	-	لجلجأ ألم تر أن الحق تلقاه
- ح -			
٢٣٣	جريس	راح أستم خير من ركب
٢٣٣	"	بالرؤاح أتصحو أم فؤادك
- د -			
٣٧	-	أوتصعدأ وكان محمراً الشقيق
٢٢٦	-	العندأ إذا رحلت فاجعلاني
٢٩٤	المتنبي	اليدأ وما قتل الأحرار كالعفو
٣٠٢	المتنبي	أرشدأ خليلي لا تستعجل
٢٦٠	"	الندي ووضع الندى في
٣٣٧	المتنبي	تصيدأ ومن يجعل الضرغام
٣٥٤	-	الويدأ ترجو الوليد وقد أعياك
٣٣٦	ذو الرمة	ولا نقد فكيف لنا بالشرب إن
٣٣٦	ذو الرمة	الحمدا أنعتان أن ندان أم
٣٨٠	-	بما تجد ما كلف الله نفساً
٣٧	-	زبر جدر أعلام يا قوت
٤٢٤	طرفة بن العبد	من لم تزود سنبيدي لك الأيام
٣٨٨	-	الجيدر دار الفتاة التي كما
٢٤٧	الإمام الشافعي	فوائد تغرب عن الأوطان
١٧٥	أبو العلاء المعري	عن رده أمس الذي مر
٢٤٧	الإمام الشافعي	ماجد تفج هم واكتساب

- ر -

الصفحة

٣٤	أبو قيس بن الأسلت	نَوْرًا	وقد لاح الصبح الثريا
٣٧	-	تَصَوَّرَ	يا صاحبي تقصيا
٣٧	-	مُقَمِّرٌ	تريا نهارة مسماء
٣٥٣	-	الكَفَّارُ	وشق البحر عن أصحاب ..
٣٥٤	أبو العلاء المعري	غَادِرٌ	وفي الأصل غش والفروع
٣٥٤	"	قَادِرٌ	فقل للغراب الجسون
٣٦٧	عدي بن زيد الايادي	الفرارُ	كنت من كويتي أفر إليهم
٣٨٨	أبو فراس الحمداني	المهرُ	تهون علينا في المعالي
٣٩٨	-	نسرٌ	فيوم لنا ويوم
٣٩٩	-	أويدبرُ	الدهر لا يبقى على ..
٣٩٩	-	لا يصبرُ	فان تلقاك بمكروهة
٣٩٩	-	مدبرُ	هل الدهر إلا طرفة
٣٦٧	عدي بن زيد الايادي	اعتصاري	لوبيغير الماء حلي شرق

- س -

٣٨٨	-	وتيسكا	أمكم ناكحة ضريسا
٢٤٩	المتلمس الضبي	أملسُ	لا تأخذن ضيما وتقبل
٢٤٩	"	فيجلسوا	فما الناس إلا مارأوا
٢٩٥	-	نفسه	ما يبلغ الأعداء من ...
٢٥٥ - ٢٦٠	الحطية	والناس	من يفعل الخير لا يعدم
٢٤٥	-	- ض -	
٢٤٥	خطاب بن المعل	والعرض	لكان لي مضطرب ...

- ع -

٣٢٧	-	ابتداعُ	وكان النجوم بين ...
٣٢٧	المتنبي	وما يتوقعُ	تصفوا الحياة لجاهل ..
٣٢٧	"	فتطمعُ	ولمن يغالط في الحقيقة

- ع -

الصفحة			
٤٣١	لبيد بن ربيعة	بلاقع	و ما الناس إلا كالديار
٤٥٢	المتنبي	السبع	إن السلوح جميع الناس
٤٥٩	أبو العتاهيه	تسطع	وصفت التقي حتى
٣٦٧	العباس بن الأحنف	وأوجاعي	قلبي إلى ماضري
٣٦٧	"	بين أضلاعي	كيف احترابي من
		- ق -	
٣٨١	-	طريق	إذا طالتك النفس
٣٨١	-	صديق	فخالف هواها
١١٧	-	أخلاقه	أهديت عطرا مثل
٢٢٤	-	في الحلاق	ولا تك آتيا حلوا
٢٨٢	أبو محجن الثقفي	ضربة العنق	واطعن الطعنة النجلاء
٣١٩	-	أبلى	إن المسبح لحاذر متوجس
		- ل -	
٣٢٧	ابن المعتز	من عقلا	وحلاوة الدنيا لجاهلها
٣٨٩	المتنبي	فحولا	ماكل من طلب المعالي
٣	كعب بن زهير	الأباطيل	كانت مواعيد عرقوب
٢٦٠	طرفة بن العبد	فهو نليل	واعلم علما ليس بالظن
٣٥١	-	حين يمحلب	قتلتم فتى لا يفجر الله
٢٤٧	الشنفرى	متعزل	وفي الأرض منأى
٢٤٧	"	يعقل	لعمرك ما بالارض
٢٩٣	المتنبي	جهل	إذا قيل رفقا
٣٨١	المتنبي	قتال	لولا المشقة ساد الناس
٤٤٤	المتنبي	أوائل	أنعم وذل فلأمور
٢٦٠	أوس بن حجر	جاهل	ان أنت لم تعرض
٣٠٢	القطامي	الزبل	قد يدرك المتأني بعض
٣١٨	زهير بن أبي سلمى	الأكل	إذا السنة الشهباء
٣٦٨	-	على حال	هي المقادير تجري

- ل -

الصفحة

٣٦٨	-	البال	إِنَّ المقاديرَ تجري
٣٦٨	-	إلى حال	ما بين غفوة عين
٣٩٠	المتنبى	في السَّهْلِ	ذريني أنل ما لَيْنَالُ
		بكلِّ سبيل	أريد لأنسى ذكرها
٤٢٤	المتنبى	إلى دليل	وليس يصحُّ في الأفهام
٣٨٩	المتنبى	على أهواله	دون الحلاوة في الزمان
٣٢٥	يزيد بن الحكم	الرجال	ومسترق القصائد

- م -

٣٢٧	المتنبى	ينعم	ذو العقل يشقى في
٣٢٧	المتنبى	القتام	ولولم يعمل إلا ذو محل
٣٥٤	المتنبى	أعجم	أفعال من تلد
٣٨٩	المتنبى	الأجسام	وإذا كانت النفوس كبارا
٣٨٩	المتنبى	المكارم	على قدر أهل العزم
٢٤٩	المتنبى	المظالم	متى تجمع القلب الذكي
٣٨٩	المتنبى	الصَّوَّارم	ومن طلب الفتح الجليل
٣٣٦	صنيفم الأسدي	الظلم	إذا هولم يخفني
٤٥٩	أبو الأسود الدؤلي	عظيم	لأنته عن خلق
٤٥٩	أبو الأسود الدؤلي	حكيم	وابدأ بنفسك فأنهها
٤٥٩	" " "	التَّعليم	فهناك يقبل ان وعظت
١٨١	-	في المزح	إلى الملك القرن وابن
٢٩٣	المتنبى	طرق المظالم	من الحلم أن تستعمل الجهل
٣٣٧	-	بظالم	وما من يد إلا يد الله
٣٦٨	أبو تمام	على عظم	وما خير خير لم تشبه

- ن -

٢٥٧	ردا بن منظور	الدين	فان تمس قد عال
١١	الكميت	ألا تكونا	وذلك ضرب أخماس
٢٥٨	-	ما يقرضونا	إذا مارمونا رميناهم
٢٢٧	-	وتسكيننا	فرق ما بينهم وسط الشئ

الصفحة

٢٢٧	-	جالسينا	جلست وسط الجماعة
٣٢٥	-	آخرينا	وانبتها أحرصت قومها
٢٢٧	-	تراه مبينا	موضع صالح لبيّن
٢٤٩	زهير بن جناب الكلبى	كاننا	لا يمنع الصّيم إلا ماجد
٢٥٩	عمرو بن كثوم	أن ندينا	وأياماً لنا غرا
٢٥٨	خويلد بن نوفل	تدان	ياسار أيقن أن
٢٥٨	-	كما هو دائن	حصادك يوماً ما
٢٥٨	-	الإنسان	أحسن وأتت معان
٢٥٨	-	تدان	إن الأيادي قروض
٣٨١ - ٢٦٩	المتنبي	السفن	ماكل مايتمنى المرء
٢٨٢	قيس بن الخطيم	قمين	إذا جاوز الأثنين
٢٩٢	الفند الزماني	إخوان	صفحنا عن بني نهل
٢٩٢	" "	كانوا	عسى الأيام أن
٢٩٢	" "	عريان	فلما صرح الشر
٢٩٢	" "	دانوا	ولم يبق سوى
٢٩٢	" "	وإقران	بضرب فيه توهين
٢٩٢	" "	ملان	وطعن كهم الزق
٢٩٢	" "	غضبان	مشينا مشية الليث
٢٩٢	" "	إنعان	وبعض الحلم عند
٢٩٢	" "	إحسان	وفي الشرّ نجاة
٢٤٧	أبو تمام	إخواني	..	بإلشام أهلي وبغداد
٢٤٧	"	خراسان	وما أظنّ النوى ترضى
٢٤٧	"	بحلوان	خلفت بالأفق
٢٤٧	"	بخلان	ترى بكلّ أرض
٢٥٨	خويلد بن نوفل	يختلفان	...	يا أيها الملك المخوف
٢٥٨	"	يدان	هل تستطيع الشمس
٢٢٥	-	قرني	ولا قيت الخيور
٤٧٧	أبو الفضل الميكالي	الداني	...	عمر الفتى ذكره لا طول

الصفحة

٤٧٧	أبو الفضل الميكالى	حياتان	فأحي نفسك بالإحسان
٤٣٦	-	تعذلاني	غدت عذًا لتأي فقلت
٢٦٠	واليه بن الحبيب	بالحسن	إن كان يجزى
٢٦٠	"	لعابد الوثن	فويل تالى القرآن
٣٢٧	المتنبى	من الفطن	أفاضل الناس أغراض
٨٢	-	وزمن	أحسن من كل حسن
٨٢	-	المن	صيفة مريوسة
٤٠٦	حمزة بن بيض	تجني	بل حناها أخ علي
٤٠٦	" " "	رمتني	لم تكن عن جناية
		- ه -	
٣٦٥	-	كاره	كم مرة حفت بك المكاره
		- ي -	
٣٦٩	-	ترتضيه	رب أمر تتقيه
٣٦٩	-	فيه	خفي المحبوب منه
٢٥٧	-	وفي	أدان وانبأه الأولون

فهرس الفهارس

الصفحة

- | | | |
|-----|-------|-----------------------------------|
| ٥١٠ | | ١ - فهرس الموضوعات |
| ٥٢٢ | | ٢ - فهرس الأمثال القرآنيَّة |
| ٥٢٥ | | ٣ - فهرس الأحاديث النبويَّة |
| ٥٢٦ | | ٤ - فهرس الأمثال والحكم البشريَّة |
| ٥٣٣ | | ٥ - فهرس الأشعار |
| ٥٤٠ | | ٦ - فهرس الفهارس |

